العصور

مجلة علمية نصف سنوية ، محكمة ، تعنى بنشر البحوث التاريخية و الأثارية و الحضارية

المجلد السادس

١٤١١هـ / ١٩٩١م



مجلة علمية نصف سنوية، مُحَكَّمة، تعنى بنشر البحوث التاريخية والأثارية والحضارية

المجلد السادس
الجزء الأول
يناير ١٩٩١ م
جمادى الثاني ١٤١١ هـ



تصدر عن دار المريخ للنشر - لندن

قواعد النشر

١ – «**العصور**» مجلة نصف سنوية تتولى نشرها دار المريخ للنشر بالرياض وتصدر عن مكتبها بلندن.

٢ – تقدم البحوث والمقالات والترجمات مطبوعة على الآلة الكاتبة على مسافتين من أصل وصورتين على ورق مقاس ٢١ × ٢٩,٧ سم (A4) وعلى وجه واحد فقط. ترقم جميع الصفحات شاملة الجداول والصور التوضيحية.

٣ – يراعى ألا يتجاوز عدد صفحات أي بحث أو مقال ٣٠ صفحة (أي في حدود ٧٠٠٠ كلمة)، أما بالنسبة للكتب المحققة فيراعى ألا يتجاوز عدد صفحاتها ٥٠ صفحة (أي في حدود ١٢,٠٠٠ كلمة).

٤ – يرفق الباحث ملخصاً لبحثه في حدود ٢٠٠ كلمة (مائتي كلمة) تتصدر البحث باللغتين العربية والاجنبية.

٥ – ترسم الخرائط والاشكال والرسوم البيانية بالحبر الصيني على ورق «كلك» حتى تكون صالحة للطباعة، أمّا الصور الفوتوغرافية فيراعى ان تكون مطبوعة على ورق لمّاع، وإذا كانت ملونة فلا بد من تقديم الشريحة الاصلية.

٦ – يراعى وضع خطوط متعرجة تحت العناوين الجانبية، وكذلك الالفاظ والعبارات التي يراد طبعها ببنط ثقيل، كما توضع خطوط عادية أسفل عناوين الكتب والدوريات.

٧ – يراعى كتابة علامات الترقيم بعناية (النقطة، علامة الاستفهام، علامة التعجب... الخ) في كتابة البحث وبصفة عامة يتبع أسلوب الـ «MLA» في الكتابة.

٨ – **الحواشي**

تطبع الحواشي على الآلة الكاتبة وعلى مسافتين في صفحات مستقلة في نهاية البحث ولاتقبل قائمة للمراجع، كل حاشية تمثل جملة مستقلة ولاتشتمل على نقط بداخلها. ويأخذ الترتيب العام للحاشية الشكل الاتي:

اسم (أسماء) المؤلف (ين)، عنوان الفصل او الجزء من الكتاب، عنوان الكتاب، اسم (أسماء المحرر (ين)، المترجم (ين)، المعد (ين)؟ رقم الطبعة المستخدمة، رقم السلسلة، عدد المجلدات، مدينة النشر، الناشر، سنة النشر، رقم المجلد، وأرقام الصفحات، ويتبع في الحواشي النظام الاتي:

البحوث

عبد المحسن مدعج المدعج، علي بن الفضل ودعوته في اليمن (٢٦٨ – ٣٠٣ هـ)، «**العصور**» مجلد ٣ ، جزء ١ ، ١٩٨٨ م ، ص ص ٨٣ –١٠٦ .

الكتب

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، **النقود القديمة والاسلامية**، تحقيق رافت محمد النبراوي، **العصور**، المجلد الثالث، الجزء الاول، ١٩٨٨ م، ص ص ١٤٩ – ١٥٣ .

محمود محمد الروسان، **القبائل الثمودية والصفوية: دراسة مقارنة** (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٠٧ هـ /١٩٨٧ م)، ص ص ٢٥ – ٢٧ .

عاطف وصفي، الثقافة والشخصية (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧ م). ص ٧ .

بعد الذكر الاول للحاشية مشتملة على جميع البيانات المرجعية، يشار اليها بعد ذلك في الشكل المختصر وهو يشتمل على اسم العائلة للمؤلف يتبعه أرقام الصفحات المطلوب الاشارة اليها.

(١٧) نويصر، ص ص ٢٧ – ٥٣ .

وفي حالة وجود عمل أو أكثر للمؤلف نفسه في المقال نفسه فإن الشكل المختصر للحاشية يشتمل بالضرورة على مختصر العنوان بعد اسم العائلة للمؤلف مباشرة.

(٢٨) نويصر، **مدرسة جركسية**، ص ص ٢٧ – ٥٣

تأخذ الحواشي ارقاماً مسلسلة حتى نهاية البحث دون استخدام نجوم أو أية رموز أخرى وتطبع في المتن في موضع أعلى قليلاً من السطر بعد علامات الترقيم.

في حالة الكتب التي تفتقر الى بيانات النشر، يشار الى أحدها أو أكثر من الاختصارات الآتية:

د. م. = بدون مكان نشر، د. ن. = بدون اسم ناشر. د.ت. = بدون تاريخ النشر، د.ص = بدون ارقام صفحات.

٩ – أصول البحوث والمقالات التي تصل المجلة لاترد ولا تسترجع سواء نشرت أو لم تنشر بالمجلة.

١٠ – يخضع تنسيق البحوث والمقالات وترتيبها داخل العدد لاعتبارات فنية لاعلاقة لها بمكانة الكاتب.

١١ – لما كانت المجلة تصدر نصف سنوية بصفة دورية، وتوزع في موعد محدد فإن ذلك يتطلب ضرورة جمع موضوعاتها وتنسيقها وإخراجها وطباعتها في وقت يسبق موعد التوزيع بفترة كافية.

١٢ – لاتقبل المجلة نشر البحوث أو المقالات أو الترجمات التي سبق نشرها، كما لايجوز إعادة النشر في مجلات علمية أخرى بعد إقرار نشرها في هذه المجلة إلا بعد الحصول على إذن كتابي من رئاسة تحرير المجلة.

١٣ – تقبل البحوث المكتوبة باللغتين العربية والانجليزية.

١٤ – تأمل رئاسة التحرير من السادة الاساتذة الباحثين والكتاب الذين يرغبون في نشر بحوثهم ومقالاتهم في الاعداد القادمة من المجلة أن يلتزموا بالقواعد هذه، لأن هذا يساعد رئاسة تحرير المجلة على اداء عملها كما يساهم في خدمة أهداف المجلة، وسنعتذر عن قبول أي مقالة أو بحث لايلتزم مؤلفها بتلك التعليمات.

١٥ – يقوم المؤلفون بمراجعة تجارب الطبع الاخيرة بمطابقتها على الاصول، مع مراعاة عدم إجراء أي تغييرات فيها تختلف عمّا ورد في الاصول، سواء بالإضافة أو الحذف، على أن تعاد تجربة الطبع خلال ٤٨ ساعة فيما لو رأت رئاسة التحرير ذلك.

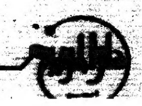
١٦ – تمنح إدارة المجلة لمؤلف كل بحث أو مقالة نسخة مجانية من المجلد الذي نشر به البحث أو المقال.

١٧ – توجه جميع المراسلات الخاصة بالمجلة الى : دار المريخ للنشر – ص ب: ١٠٧٢٠ ، الرياض ١١٤٤٣ ، المملكة العربية السعودية.



مجلة علمية نصف سنوية، مُحكّمة، تعنى بنشر البحوث التاريخية والآثارية والحضارية

المجلد السادس
الجزء الأول
يناير ١٩٩١ م
جمادى الثاني ١٤١١ هـ



تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

* ما ينشــر فــي المجلــة يعبــر عــن راي أصحــابه



المستشارون

المراسلات والاشتراكات لجميع دول العالم يتفق بشانها مع :

ـ دار المريخ للنشر ـ ص ب : ١٠٧٢٠ الرياض : ١١٤٤٣ ـ المملكة العربية السعودية

ـ الدار العربية للنشر والتوزيع ـ ٤٩ جولد هوك رود ، لندن ـ W128QP ـ المملكة المتحدة .

الاشتراكات السنوية :

ـ المملكة العربية السعودية (١٠٠) ريال سعودي
ـ الدول العربية (٣٥) دولاراً أمريكياً أو ما يعادلها
ـ الدول الأوروبية (٤٠) دولاراً أمريكياً
ـ امريكا وكندا (٤٥) دولاراً امريكياً
ـ استراليا وجنوب شرق آسيا (٥٠) دولاراً أمريكياً .

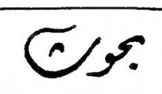
العصور. المجلد السادس، الجزء الأول، ١ ـ ٢١٦ (١٩٩١م

المحتويات

القسم العربي

● بحـــوث

● مناقشات وتعليقـــات



العصور ، المجلد السادس، الجزء الأول، ٧ ـ ٣٤ (١٩٩١م)

ثقافة العصر الحجري القديم

للدكتور سعد بن عبد الله الصويان

ملخص البحث : نقدم في هذه المقالة عرضاً موجزاً لمراحل التطور التي مرت بها صناعة الأدوات في العصر الحجري القديم وما ترتب على ذلك من تطور ثقافي واجتماعي. نبدأ بالحديث عن العلاقة بين السجل الجيولوجي والسجل الأركيولوجي مع التركيز على عهد البلايستوسين الذي يكاد يتزامن مع العصر الحجري القديم الذي يمثل ما يقرب من ٩٥٪ من عمر الإنسان على وجه الأرض. ثم نتطرق إلى خواص الأحجار الصوانية التي عول عليها الإنسان في تشكيل الأدوات الحجرية. بعد ذلك ننتقل إلى البحث في المراحل المتتالية والطرق المختلفة التي مرت بها الصناعة الحجرية وسوف نجد أن صناعة الحجر مرت بمراحل عديدة كان التطور فيها من مرحلة لأخرى يتم بصورة بطيئة قد تستغرق مئات الآلاف من السنين. ابتدأت صناعة الأدوات الحجرية بتشكيل قطع فجة تستخدم في مختلف الأغراض مثل القواطع والفؤوس الحجرية حتى تم التحول إلى طرق جديدة لصناعة الشظايا والرقائق. ثم لم يلبث الإنسان أن اكتشف صناعة النصال المرهفة والأدوات الأخرى دقيقة الصنع متعددة الأنواع والأغراض والتي تنم عن مهارة في الصنع وتخصص في الاستعمال. وسوف نلاحظ من خلال هذا العرض أنه مع مرور الزمن نشأت تقاليد صناعية مختلفة اتخذت أنماطاً وطرزاً يمكن تمييزها من عصر إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى وظهرت صناعات محلية تتسم بمواصفات فنية وتقنية متميزة مثل الأبيفيلية والأشولية والليفالوازية والموستيرية والسولترية وغيرها.

ونختتم المقالة بمناقشة الآثار الثقافية والاجتماعية المترتبة على تطوير صناعة الأدوات الحجرية واضعين في الاعتبار ان الأدوات تشكل الجزء المادي من الثقافة التي تقوم مقام الوسيط بين الإنسان والبيئة الطبيعية والتي هي وسيلته للتكيف مع هذه البيئة. لذلك فإن أي تقدم يحرزه الإنسان في المجال التكنولوجي تعزز من سيطرته على البيئة واستغلال مواردها الطبيعية وزيادة الإنتاج واقتحام مجالات بيئية جديدة لم يكن قادراً على استغلالها من قبل. هذا بدوره يؤدي إلى زيادة حجم الجماعة الإنسانية وإلى الاستقرار النسبي. ومن هنا تنشأ الحاجة إلى التفكير في إيجاد نظم اجتماعية تقنن علاقات الناس مع بعضهم البعض. وبعد أن قطع الإنسان شوطا طويلا على درب الإنجازات المادية وتمكن من توفير متطلبات الحياة الأساسية من مأكل وملبس ومسكن التفت إلى متطلبات النفس والروح وبدأ بممارسة الشعائر الدينية ونمى لديه الحس الجمالي والإبداع الفني.

سوف نحاول في هذه المقالة أن نتتبع مراحل التطور التي مرت بها صناعة الأدوات في العصر الحجري القديم وما ترتب على ذلك من تطور ثقافي واجتماعي. تشكل الأدوات الجزء المادي من الثقافة التي تقوم مقام الوسيط التكنولوجي بين الإنسان وبيئته الطبيعية وهي وسيلته للتكيف مع هذه البيئة. لذا لابد لنا أن نتعرف على الظروف البيئية والمناخية التي تعاقبت على الإنسان خلال الفترات المتتالية من

العصر الحجري القديم. وهذا بدوره سوف يقودنا إلى أن نستهل البحث في الحديث عن العلاقة بين السجل الجيولوجي والسجل الاركيولوجي.

البيئة والإنسان في عهد البلايستوسين

توثقت العلاقة في القرن التاسع عشر بين الدراسات الجيولوجية والدراسات الأثرية بعد أن أدرك العلماء أن هناك نوعا من التوافق بين السجل الجيولوجي المتأخر وبين المخلفات الإنسانية والأدوات الحجرية التي وجدت مطمورة بين طبقات جيولوجية قديمة، خصوصا فيما يتعلق بعمر هذه المخلفات وفيما يتعلق بالمناخ السائد خلال الفترات التي جاءت منها وما كان يتوافر آنذاك من حياة حيوانية ونباتية.

ويقسم علماء الجيولوجيا عمر الأرض إلى حِقَبْ eras وهذه إلى عصور periods والعصور بدورها تنقسم إلى عهود epochs . هذه التقسيمات تعتمد على ما يطرأ على الأرض من أحداث جيولوجية وما تمر به الحياة فيها من تحولات وتبدلات. ويهتم علماء الآثار خصوصا بالعصر الرابع Quaternary من العصور الجيولوجية لأن معظم الأدوات الحجرية والآثار البشرية والحفريات تأتي من هذا العصر. وينقسم العصر الرابع إلى عهدين هما البلايستوسين Pleistocene الذي يمتد من مليونين إلى ثلاثة ملايين سنة خلت ثم عهد الهولوسين Holocene الحديث الذي بدأ منذ حوالي (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف سنة.

ويسمى عهد البلايستوسين بالعهد الجليدي Ice Age حيث زحفت مسطحات واسعة من الجليد وغطت معظم أجزاء الأرض الشمالية خلال أربع فترات من هذا العهد. اجتاحت الأرض موجة من البرد قبل الزحف الجليدي مع نهاية عهد البلايوسين Pliocene ـ الذي هو آخر عهود العصر الثالث Ter-tiary ـ وبداية عهد البلايستوسين مما أدى إلى غزارة الأمطار. وتسمى هذه الفترة فيلافرانشيان Villaf-ranchian ومنذ حوالي مليون سنة زادت برودة الجو وبدأ الزحف الجليدي الأول وغطت الثلوج معظم الأجزاء الشمالية من آسيا وأوربا وأمريكا وخصوصا سلاسل جبال الهملايا والألب والروكي. وينبغي ملاحظة أن الزحف الجليدي كان متركزا شمال خط الاستواء أما جنوبه فلم يتأثر كثيراً.

وتختلف فترات الزحف الجليدي وانحساره وكذلك الآثار المترتبة عليه من منطقة لأخرى مما يجعل تحديد هذه الفترات والتوفيق فيما بينها في مختلف المناطق أمراً في غاية الصعوبة. ومما يزيد الأمر تعقيداً أن فترات الزحف والانحسار الرئيسة كانت تتخللها فترات زحف ثانوية stadials وانحسار ثانوية interstadials إلا أن العلماء غالبا ما يلجأون إلى الطريقة التقليدية في تقسيم البلايستوسين إلى أربع فترات رئيسة من الزحف الجليدي glacials تتخللها ثلاثة فترات ينحسر فيها الجليد interglacials. وفترات الزحف الجليدي تقابلها في افريقيا فترات مطيرة تسمى Pluvials تتخللها فترات يقل فيها المطر تسمى interpluvials وتستمد فترات الزحف الجليدي الأربع الرئيسة هذه اسماءها من أسماء بعض الأنهار الصغيرة في جبال الألب حيث أن جبال الألب هي أول منطقة تم فيها اكتشاف أثر الزحف الجيلدي، وبدأت دراسة نتائجها وآثارها وامتداداتها ومن ثم تقسيمها إلى فترات أربع أقدمها Gunz يليها Mindel ثم Riss وأخيراً Wurm الذي ينتهي تقريباً مع بداية الهولوسين منذ حوالى (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف سنة.

ومن المعروف أن كمية الماء على سطح الأرض ثابتة لا تتغير. وخلال الفترات الجليدية كانت ملايين الأطنان من المياه تتجمد على شكل ثلوج فوق سطح اليابسة. أدى هذا إلى انخفاض منسوب المياه في الانهار والبحار والمحيطات. وأدى زيادة ضغط الجليد المتراكم على اليابسة من جهة والتخفيف من ضغط مياه البحار والمحيطات نتيجة انخفاض منسوب المياه فيها من جهة أخرى إلى تغيرات ملحوظة في التضاريس. نتيجة لذلك تحولت بعض المناطق المغمورة بالمياه الضحلة إلى يابسة. فاتصلت مثلا بريطانيا بالقارة الأوربية ولم تعد جزيرة معزولة. كذلك انفصل البحر الأبيض المتوسط عن البحر الأسود بعد أن تكون جسر من اليابسة عبر الدردنيل. وكان

لذلك أثره على تحركات الإنسان واتجاه الهجرات البشرية.

ومن البديهي أن تحدث نتيجة الزحف الجليدي وانحساره تقلبات جوية وتغيرات في المناخ كان لها أبعد الأثر على الحياة الحيوانية والنباتية. كان الزحف الجيلدي يدفع أمامه كل مرة نحو الجنوب مناطق الدفء المعتدلة التي تكثر فيها الأمطار والغابات الكثيفة. وبذلك تحولت المناطق الصحراوية الجرداء إلى مناطق مطيرة تكسوها الغابات والمروج الخضراء. هذه الظروف أدت إلى انقراض الكثير من حيوانات الشمال واضطرت الباقي إلى الهجرة جنوبا بحثا عن الدفء والغذاء. وعلى نفس المنوال بدأ المناخ يتغير نحو الدفء بعد انحسار المد الجليدي. ولما ذابت الثلوج زاد منسوب المياه وعادت الحياة مرة أخرى إلى الشمال الذي عمه الدفء وغمرته الأمطار وغطته الغابات الكثيفة وأصبح مأهولا بمختلف أجناس الحيوانات. هذه التغيرات المناخية التي كانت تحدث ببطء شديد عبر مئات الآلاف من السنين تركت آثارها على الحياة الحيوانيةوالنباتية وتوزيعها فانقرض بعض منها بينما تطورت بعض الأجناس القديمة واتخذت أشكالا جديدة كما ظهرت أنواع أخرى حديثة.[1]

ويمكننا أن نتصور تأثير ذلك كله على الإنسان إذا ما وضعنا في الاعتبار اعتماده القوي والمباشر على الطبيعة التي يستمد منها غذاءه وحاجياته الأساسية الأخرى. كان نبض الحياة الإنسانية وإيقاعها مرتبطا بهذه التغيرات. وكانت تحركات الإنسان شمالا وجنوبا خلال فترات الزحف الجيلدي مرتبطة بتحركات الحيوانات والنباتات التي يتغذي عليها. وقد استطاع العلماء أن يوجدوا نوعاً من علاقات الارتباط بين الفترات المطيرة المتتابعة في عصر البلايستوسين وبين المواقع الأثرية قرب مصاطب الأنهار وأحواضها وفي المغارات والكهوف مما يساعد في إعطاء تواريخ نسبية لما يعثر عليه المنقبون في هذه المواقع من حفريات. ويمكن الاستفادة من التغيرات المناخية والبئية التي حدثت خلال عهد البلايستوسين في تقدير عمر الأدوات الحجرية التي نجدها مطمورة مع بقايا الحيوانات والنباتات خلال الفترات المتعاقبة في ذلك الوقت، وخصوصا إذا ما قارنا ذلك بالآثار المترتبة على الزحف الجليدي مثل ترسب الرمال والحصى في وديان الأنهار وكذلك الارتفاع والانخفاض في سواحل البحار وشواطيء البحيرات.

يكاد يتزامن البلايستوسين مع العصر الحجري القديم Paleolithic الذي يمثل ما يقرب من ٩٥٪ من عمر الإنسان على وجه الأرض، وإن كانت بعض الاكتشافات الحديثة في اثيوبيا وشرق افريقيا تشير إلى أن اقدم الأدوات الحجرية تعود إلى أواخر عهد البلايوسين الذي يسبق البلايستوسين. كان الإنسان حتى أواخر العصر الحجري القديم يعتمد في تحصيل معاشه كلية على الصيد والجمع والالتقاط، حيث لم تظهر الزراعة إلا مع بداية العصر الحجري الحديث Neolithic . إلا أن العصور الأركيولوجية تختلف عن العصور الجيولوجية في أن الأولى نسبية والأخرى مطلقة. أي أن العصور الجيولوجية فترات زمنية مطلقة في عمر الأرض وتكوينها الجيولوجي ينطبق على العالم كله بنفس التحديد. أما العصور الأركيولوجية فإنها وإن كان كل منها يتلو الآخر بنفس الترتيب ونفس التسلسل أينما وجدت إلا أن بداياتها ونهاياتها غير متعاصرة بل تختلف باختلاف المناطق والثقافات. تمر الثقافات الإنسانية في تطورها بنفس المراحل التكنولوجية تباعا من العصر الحجري إلى البرونزي إلى الحديدي، غير أن مرورها بهذه المراحل يتفاوت زمنيا من ثقافة لأخرى. فهناك قبائل لا تزال تستخدم الأدوات الحجرية حتى يومنا هذا مثل قبائل Tasadays في الفلبين. ولم ينته العصر الحجري في وسط أمريكا إلا بعد ما حل بها كورتيز

(١) George Grant MacCurdy, *Human Origins: A Manual of Prehistory* (D. Appleton and Company, 1924), pp. 29-85; T.W Phenice, *Hominid Fossils: An Illustrated Key* (Dubuque, Iowa: Wm Brown Company Publishers, 1972), pp.13-21; Frank E. Poirier, *Fossil Man: An evolutionary Journey* (Saint Louis: The C.V. Mosby Company, 1973, pp. 20-25.

Henan Cortes (1485 - 1547) وفي استراليا بعدما استعمرها الإنجليز . وحينما وصل الكابتن كوك James Cook (1728 - 1779) إلى نيوزيلندا كانت قبائل الماوري Maori لا تزال تعيش في العصر الحجري. أما في الشرق الأدنى فقد انتهى العصر الحجري منذ حوالي (٦,٠٠٠) ستة الآف سنة تقريبا وفي أوربا منذ ما يقرب من (٤,٠٠٠) أربعة الاف سنة.[٢]

الإنسان يكتشف الحجر

الحجر هو نقطة الانطلاق فيما يتعلق بالثقافة الإنسانية ولولاه لبقي الإنسان سائما هائما بدون أدوات يعيش على الظفر والناب كسائر الحيوانات. بـزغ فجر الإنسانية بعد أن عرف الإنسان سر الحجر . الحجر والإنسان عمل كل منهما على تشكيل الآخر . من هذه البداية المتواضعة ثابر الإنسان وصابر حتى وصل إلى هذا المستوى التكنولوجي الذي ينعم به اليوم. فما هو سر الحجر ؟

تنشطر معظم المعادن والأحجار إلى مستويات مسطحة تحددها طبيعة تماثلها وتركيبها البلوري. سطح الانشطار الطبيعي هذا يحد من الاتجاهات التي يمكن أن يشكل منها الحجر ويشظى. إلا أن الإنسان بعد محاولات كثيرة وخبرة طويلة اهتدى إلى خواص الأحجار المختلفة. واكتشف أن أحجار السيليكا مثل الصوان flint والظران chert والزجاج البركاني الأسود اللامع obsidian ليس لها مستويات انشطار محددة بل تنشطر في انكسارات منتظمة، كالزجاج تماما، مما يجعلها تتحطم shatter وتتهشم fracture دون أن تتفتت crumble . وكلما كان الحجر أكثر تجانسا في تركيبه وحبيباته البلورية أدق كلما كان أكثر قابلية للمعالجة والتشكيل. لذا نجد أحجار الصوان والظران وما شابهها، بالرغم من صلابتها، يسهل على الإنسان تكشيطها وتشظيتها ليصنع منها أدوات مدببة كالمخراز أو حادة كشفرة الموس، حسب مهارة الصانع وبراعته.

حينما توجه ضربة من مدق حجري إلى نقطة على وجه كتلة من الصوان أو الظران فإن قوة الضربة تتوزع بتموج متسق على شكل مخروط رأسه عند نقطة الطرق point of percussion (شكل١). وإذا كانت نقطة الطرق قريبة من الحافة فإنه سوف تنفلق من الكتلة nodule أو النواة core شظية flake على سطحها الداخلي، أو ما يسمى inner or bulbar face وتحت نقطة الطرق مباشرة توجد حدبة بارزة bulb مخروطية تسمى بصلة الطرق cone of percussion وهذا بدوره سوف يترك على بطن النواة ندبا مخروطيا مقعرا أوما يسمى conical scar (شكل٢).

والضرب على أحجار السيليكا تتوزع قوته بشكل إشعاعي متموج، كدوائر الأمواج على سطح البركة. لذا فإنها تترك على بطن الشظية تموجات ripples عرضانية مقوسة نصف دائرة تتجه مراكزها نحو نقطة الطرق وتشير إليها وخطوط أخرى طولانية غير منتظمة تتجه رؤوسها نحو نقطة الطرق وتسمى splits والطريقة التي تنشطر بها أحجار السيليكا تسمى بالانشطار الصدفي conchoidal لأن بطن الشظية، أي سطحها الداخلي، يشبه في شكله وتموجات خطوطه وتغضناته المحار والأصداف، والشظية المنشطرة من النواة لها رأس غليظ proximal end or butt من عند نقطة الطرق وذيل مستدق من الطرف الآخر distal end الذي من عنده تنفصل نهائيا من النواة (شكل٣). هذا لأن أحجار السيليكا تنشطر كما ينشطر الخشب نظراً لأن الطبقات في المادتين تتكون بنفس الطريقة. فلو أنك وجهت ضربة بالفأس إلى جذع شجرة لفَلْقه طوليا ستجد أنه كلما ابتعد خط الانشطار عن نقطة الضرب ضعفت قوة الضرب وصار اتجاه الانشطار ينحني منحرفا إلى القشرة الخارجية حتى تنفصل القطعة عن الجذع منتهية بطرف مستدق مدبب على خلاف الطرف الغليظ على الجهة الأخرى التي تلقت الضربة.

يعتقد أن الإنسان في البداية لم يصنع الأدوات الحجرية وإنما كان يكتفي بالتقاط أي حصاة يجدها في الطريق شكلتها الطبيعة بما يتناسب وحاجته في الكسر أو القطع أو الطرق، تماما كما تضطرنا نحن

٢) جوردن تشايلد. **التطور الاجتماعي**، ترجمة لطفي فطيم (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٩٨٤)، ص ٢٥.

الحاجة لعمل ذلك أحيانا. وهذا في حد ذاته يعتبر خطوة ليست بالهينة على سلم التطور البشري لأنها تمثل نقطة الانطلاق بالنسبة لاستخدام الأدوات عند الإنسان. واستخدام الأدوات في حد ذاته من الخصائص الأساسية التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان. وهذه «الأدوات» الأولى التي استخدمها الإنسان عرضاً وبدون أن يشكلها تسمى eolith (من الكلمتين الإغريقيتين eo وتعنى «فجر» + lith وتعنى «حجر»). بعد ذلك تأتي مرحلة الإعداد المقصود لهذه الحصيات وتشكيلها من قبل الإنسان ولكن بطريقة عشوائية. ثم يعقب ذلك مرحلة التنميط standardization بحيث يصبح هنالك نوع من تحديد القصد وتعمد مراعاة الأنماط والتقاليد المتعارف عليها في الصناعة.

مرت صناعة الحجر بمراحل عديدة كان التطور فيها من مرحلة لأخرى يتم بصورة بطيئة قد تستغرق مئات الآلاف من السنين. وقد تطورت الأدوات الحجرية من قطع فجة الصنع تستخدم في مختلف الأغراض إلى أدوات متعددة الأنواع تنم عن مهارة في الصنع وتخصص في الاستعمال. في المراحل الأولى كان الإنسان غالبا لا يستخدم إلا النواة core التي يشكلها بواسطة الكشط أو الشطف ليصبح لها حد قاطع، أما الشظايا المنفصلة عن النواة فتصبح عبارة عن مادة تالفة ونفايات لا يستفاد منها. ثم أدرك الإنسان بعد أن تطورت صناعة الحجر في مراحل لاحقة أن الشظايا يمكن تصنيعها وفق أشكال أكثر دقة وأكثر تنوعا لاستخدامها في أغراض متعددة.

وتختلف أشكال الأدوات الحجرية واستخداماتها تبعا لاختلاف طريقة معالجتها والعوامل التي دخلت في صنعها مثل مادة الحجر وكيفية تثبيت النواة والإمساك بها وقوة الطرق وزاوية الضربة واتجاهها وشكل المطرقة ومادتها وحجمها ووزنها ومدى صلابتها وهل تُثبَّت النواة وتحرك المطرقة أم العكس والطرق إما أن يأتي على الكتلة، أي النواة، مباشرة direct percussion أو يكون غير مباشر indirect percussion. الطرق المباشر هو كسر النواة أو كشطها إما بأن تهوي عليها بمطرقة من الحجر أو العظم أو الخشب (شكل ٤) أو أن تهوي بها هي على سندان حجري (شكل٥). أما الطرق غير المباشر فيحتاج إلى عصية من العظم أو الخشب ذات طرف مستدق يوضع على النواة لفصل الشظايا منها ويتم الطرق على طرف العصية الآخر (شكل ٦). وهنالك طريقة أخرى تسمى الضغط pressure تستخدم لفصل الشظايا وتهذيبها بعد فصلها (شكل٧).(٣)

منذ أن اكتشف الإنسان الحجر وطوال فترة اعتماده عليه في صنع الأدوات صار في حله وترحاله وفي اتجاه تحركاته وهجراته محكوما بتوافر الحصى المناسب للاستخدام كأدوات. وحيث أن الأنهار في جريانها تجرف معها الأحجار وتعمل على تفتيتها إلى حصيات صغيرة pebbles ملساء مدورة صالحة للاستخدام البشري نجد ضفافها عادة ما تكون غنية بمخلفات وآثار الإنسان القديم الذي كان يرتادها لالتقاط ما تقذف به من الحصى، وكذلك للشرب ولقنص الحيوانات التي ترد إليها، وربما لاصطياد الأسماك.(٤)

صناعة القواطع والفؤوس الحجرية

اكتشف لويس ليكي Lous S. B. Leaky وزوجته ماري Mary عينات عدّوها من أقدم أنواع الأدوات الحجرية وأبسطها صنعا في أقدم مناطق سكنى الإنسان في غور أولدوفاي Olduvai شمال تانزانيا. ويحتل هذا الغور مساحة طولها(٥٠) خمسون كيلومتراً وعرضها (١٠٠) مائة متر. ويربو عمر الأدوات التي وجدت فيه على (٢,٠٠٠,٠٠٠) مليوني سنة وتعود إلى فترة Villafranchian مع بداية عهد البلايستوسين، ويعتقد أن الذي صنعها جنس بائد

(٣) D. K. Bhattacharya, *Old Stone Age Tools* (Calcutta: K. P. Bagchi and Company, 1979); Jack Bordaz, *Tools of the Old and New Stone Age* (Garden City, New York: The American Museum of Natural History, The Natural History Press, 1970), pp. 6-15; F. Clark Howell, *Early Man* (New York: Time - Life Books, 1965), pp. 110 - 121.

(٤) Howell, p. 104.

من البشريات يدعي الإنسان القادر Homo habilis وتتراوح أحجام الأدوات التي وجدها ليكي ما بين كرة الطاولة إلى كرة البليـاردو أو أكبر قليلا، أي بحجم قبضة اليد. ولم يقم صانعوا هذه الأدوات بأكثر من شطف طرف الحصاة من جهة واحدة وفصل شظية صغـيرة أو شظيتين من الطرف للحصول على حافة حادة قاطعة. وفي مرحلة لاحقة صار طرف الحصاة يشطف من الجهتين لتكون حافة القطع أرهف واحد (شكـل٨). ومهمـا تكن فجـاجة الصنع فإن عملية الشطف بهذه الطريقة المتعمدة يستحيل أن تكون من عمل الطبيعة بل أنها تقوم دليلا على أن يد الإنسان هي التي شكلت هذه الأدوات عن قصد لاستخدامها في أغراض محددة.(٥)

وقد تم العثور على عينات وافرة من هذا النوع من الأدوات في مناطق مختلفة من أفريقيا وآسيا وأوربا إلا أنها أصبحت كلها تعرف باسم Olduwan tools نسبة إلى أول مكان وجدت فيه. وتسمى أيضا peb-ble tools لأنها في الأصل عبارة عن حصيات صغيرة مستديرة ملساء توجد متناثرة على شواطيء البحيرات وعـلى ضفـاف الأنهـار وفي مجـاريهـا. كمـا شاع استخدام كلمة قواطع choppers أو أدوات قاطعة chopping tools للإشارة إلى هذه الأدوات التي يرجح أنها استخدمت لأغراض متعددة مثل الحفر واقتلاع النبـاتـات وتقـطيعها وإعدادها للأكل وكذلك لذبح الحيـوانـات، وخصـوصـا الصغيرة منها والبطيئة، وسلخهـا، وربمـا لتكسـير العظام واستخراج المخ. ويعتقـد أن صانعـوا هذه الأدوات استخـدموها في تقـطيـع أشـلاء جيف الحيـوانـات التي تسقط في الأوحال وتلك التي تتبقى من الحيوانات المفترسة.(٦)

دام اسـتـخـدام أدوات القـطع خلال العصر الحجري القديم الأسفل لمدة تزيد عن المليون ونصف المليون سنة.(٧) وشيئا فشيئا صارت تتطور صناعة الحجـر حتى ظهرت مع بداية المرحلة الوسطى من البـلايستوسين تقنيات جديدة في تشكيل الأدوات.

استمر استخدام المدق الحجري للطرق مباشرة على النواة إلا أنه مع تقدم الزمن صار التشطيف ينال مساحة أكبر فأكبر من النواة حتى صارت تشطف وتسـوى من الجهتـين المقابلتين ولذلك يسمى هذا النـوع من الأدوات core-biface وينتـج عن هذه الطريقة في التشطيف والتهذيب حافـة حادة تمتد على طول محيـط الأداة تقـريبـا. ويطلق أيضا على هذه الأداة اسم الفأس اليدوي hand - axe ، وإن كانت في حقيقة أمرها لا تشبع الفأس في شيء لا في الشكل ولا في الوظيفة ولا يثبت فيها نصاب للقبض. يتخذ هذا الفأس اليدوي شكلاً بيضياً يشبه الكمثرى أو اللوز ويتم تشكيله بواسطة طرق النواة من الجهتين وتـرقيقها للحصول على جوانب حادة للقطع ورأس مدببة مستدقة يقابلها من الطرف الآخر قاعدة شبه مستديرة تحتفظ غالبا بالقشرة الأصلية ويكون فيها مركز الثقل وتستخدم للقبض (شكل٩).

بدأت صناعة الفؤوس الحجرية منذ ما يقرب من (٥٠٠,٠٠٠) خمسمائة ألف سنة على يد جنس من البشريات يدعى الإنسان المنتصب Home erectus والذي يبـدو أنـه استخدمها لأغراض متعددة مثل القطع والحفر والحز والحك والكشط والثقب وما إلى ذلك، وربمـا في صناعة وتشكيل الأدوات الخشبية والعـاجية. ويسمى هذا التقليد Abbevillian نسبة إلى Abbeville في وادي نهـر Somme في شمـال فرنسا. ويسمى أيضا Chellian أو Chellean نسبة إلى Chelles - Sur - Marne شرق باريس. وتـنـسـب تقاليد الصناعات الحجرية عادة إلى أول مكان توجد فيـه. وبمـا أن فرنسـا هي السبـاقـة في مجـال الاكتشـافات الأثرية وتم اكتشاف معظم المواقع في فرنسا فإن الأسماء الفرنسية غلبت في هذا المجال. ولكن ينبغي التنبه إلى أن هذا يعني فقط الريادة في الاكتشـافـات الأثـرية ولكنه لا يعنى بالضرورة أن المـواقـع الفرنسية هي السباقة في صناعة الأدوات الحجرية بل المرجح أنها جاءتها من أفريقيا وغرب آسيا.

(٥) Bordaz, p. 24.

(٦) Bordaz, p. 17

(٧) Howell, p. 103

بينما انتشرت في تلك الفترة صناعة الفؤوس الحجرية في أفريقيا وغرب آسيا وأوربا ظل إنسان بكين متمسكا بالطريقة التقليدية في صنع القواطع Choppers وهذا ما تثبته حفريات موقع Choukoutien غرب بكين، بالإضافة إلى مواقع أخرى في بورما وجاوه والهند. ومع ذلك يبدو أن إنسان بكين كان صياداً ماهراً وأنه عرف استخدام النار وربما عول كثيراً على استخدام العظام في صنع أدواته. ويعتقد أنه من أكلة لحوم البشر.[٨]

ويتزامن مع التقليد الأبيفيلي Abbevillian تقليد يسمى الكلاكتوني Clactonian نسبة إلى Clacton on Sea في مقاطعة Essex في إنجلترا. ويمتد هذا التقليد حتى بداية الزحف الجليدي الثالث Riss ويتميز بعدم وجود فؤوس حجرية.[٩] يتميز النمط الكلاكتوني بطرق الحجر على الحجر block on block وهو أن تهوي بالنواة على سندان من الحجر لكسرها أو أن تضعها على السندان ثم تهوي عليها بمطرقة حجرية.[١٠] ويستفاد من الشظايا التي يتم الحصول عليها بهذه الطريقة البدائية في أغراض متعددة. وقد عثر من بين الموجودات في هذا الموقع على أدوات محززة ومفرضة ومسننة ربما كانت تستخدم في معالجة الأخشاب وصناعة الأدوات الخشبية. كما عثر على بعض السكاكين التي تحد شفرتها ويترك الجانب المقابل كليلا ليضغط عليه من يستخدم السكين بيده أو بأصبعه دون أن يصاب بأذى،[١١] هذا بالإضافة إلى بعض أدوات الثقب. ويرى Oakley أن الأبيفيلي أتى أصلاً من أفريقيا بينما الكلاكتوني من آسيا.[١٢]

مع انتهاء فترة الزحف الجليدي الأول تطورت الصناعة الأبيفيلية إلى الصناعة الأشولية Acheul-lian نسبة إلى St. Acheul في حوض نهر Somme شمال فرنسا. كانت الفؤوس الأبيفيلية بدائية الصنع ثقيلة الوزن متعرجة الحواف وتغطي القشرة الأصلية معظم قاعدتها. أما الفؤوس الأشولية فانها أتقن صنعا وأكثر فاعلية. في هذه المرحلة كان الإنسان قد توصل إلى ابتكارين جديدين في صنع الفؤوس الحجرية ومهمين لدرجة أنه يتمسك بهما ويستمر في استخدامهما في مراحل لاحقة حيث مكّناه من التحكم الدقيق في صنع أدواته.

أحد هذين الابتكارين هو كشط طرف النواة الصوانية من أجل إعداد قاعدة مسطحة للطرق striking platform بزاوية تتعامد تقريبا مع جهة الشطف. هذه النواة المجهزة توضع بحيث تكون قاعدة الطرق إلى أعلى لتتلقى الضربات. بعد الطرق قريبا من الحافة على هذه القاعدة المسطحة تنفصل من النواة شظية طويلة رقيقة لها حدان قاطعان ورأس مدبب مستدق. وبعد كل طرقة يقوم الصانع بإدارة النواة قليلا ثم يعيد الطرق على الحافة للحصول على شظية أخرى. وتتكرر العملية بنفس الطريقة التي هي أشبه ما تكون بنزع حراشيف الخرشوف ar-tichoke حتى يتضاءل حجم النواة ويصغر لدرجة لا تسمح بفصل المزيد من الشظايا. عندها إما أن تستخدم القطعة الصغيرة المتبقية من النواة كأداة بذاتها أو أن ترمى باعتبارها نفاية لا يستفاد منها. هذه الطريقة في التشظية تتميز بان التغضنات والحدبات والندوب التي تنتج عن الطرق ليست شديدة الوضوح مما يجعل سطح الشظية على كلا الوجهين مستويا ورقيقا وبالتالي تكون الشفرة حادة مثل الموس. ونلاحظ في هذه الطريقة أن النواة ليست هي الأداة الأساسية وإنما هي مادة خام تستخلص منها الشظايا (شكل ١٠).

ثم يأتي بعد ذلك الابتكار الثاني والذي يتمثل في استخدام عصية من الخشب أو العاج للدق بها على جوانب الفأس الحجرية لتسويتها وشحذ حافاتها (شكل١١). وبما أن الخشب أو العاج ليس بصلابة الحجر فإنه يمكن الدق به برفق على حافة الفأس دون أن يرضها أو يقصفها وإنما لمجرد إزالة أجزاء

(٨) Boraz, p. 37; Kenneth p. Oakley, *Man the Tool Maker* (The University of Chicago Press, 1968), pp. 67 - 70.

(٩) Oakley, p. 81.

(١٠) Bordaz, p. 19; Oakely, p. 41.79

(١١) Bordaz, p. 19; Phenice, p. 17.

(١٢) Oakely, pp. 59 - 60, 78 - 90.

صغيرة منها حسب الحاجة لجعلها مصقولة الوجهين مستوية الأطراف مستدقة الحافات. ذلك لأن الطرق بالمواد الطرية كالخشب أو العاج يطيل مدة تأثير قوة الضربة على الحجر ويجعلها تنفذ مسافة أبعد فينتج عن ذلك شظايا أطول وأرق وأكثر استواءً. أما الطرق بمدق حجري صلب فإن قوة اصطدامه بالنواة يحدث فيها وفي الشظايا التي تنفصل عنها تغضنات واضحة وندوب مقعرة وحدبات بارزة. لذا عدل الصناع عن استخدام المدق الحجري إلا في المراحل الأولى من إعداد النواة.

في هذه المرحلة بدأ العصر الحجري القديم الأسفل Lower Paleolithic يشارف على الانتهاء بعد أن دام لمدة تبلغ في طولها أضعاف ما تلاه من عصور التاريخ البشري كلها. لكن على الرغم من طوله فإن ما تحقق فيه من تقدم تقني وثقافي لا يكاد يذكر مقارنة بما سيتحقق بعد ذلك. تدل المواقع التي تم تنقيبها من هذا العصر، وجلبها بالقرب من شواطيء البحيرات وضفاف الأنهار، أن قاطنيها كانوا جماعات صغيرة من الرحل الذين يرتادون هذه المواقع في مواسم معينة ولمدة غير طويلة، وهذا ما يشير إليه تضاغط التربة soil compaction وكمية الأدوات الموجودة وعظام الحيوانات المأكولة. وكان سكان هذه المواقع يقيمون في العراء حيث لم توجد أي آثار لتشييد أي نوع من أنواع السكن. كما لم توجد أي دلائل تشير إلى استخدام النار أو إعداد الطعام بطريقة الطبخ أو الشوي، إلا أن بعض العظام وجدت مكسورة على سندان حجري بطريقة متعمدة توحي بأن القصد كان استخراج المخ وأكله. ويبدو أن سكان هذه المواقع لمسوا فائدة التجمع في الصيد وكذلك في الدفاع عن النفس ضد الغوائل والحيوانات المفترسة، وربما ضد بني جنسهم. إلا أن بدائية تنظيمهم الاجتماعي وقلة العدد وبساطة الأدوات حدت من قدرتهم على صيد الحيوانات الكبيرة فاقتصروا على الصغيرة منها وبطيئة العدو. وكانوا يعتمدون اعتمادا كبيرا على ما يلتقطونه من الحبوب والجوز وبقول الأرض ولم يستنكفوا أكل الجيف. وقد وجدت عظامهم مبددة مع عظام بقية الحيوانات مما يدل على أنهم لم يدفنوا موتاهم.(١٣)

صناعة الشظايا والرقائق

ليس هناك ما يمنع من الاعتقاد بأنه منذ المراحل الأولى من صناعة الحجر حينما كانت النواة تطرق مباشرة بمدق حجري وتشطف لتصبح أداة قاطعة أو فأسا حجرية كان الإنسان يلتقط ما يناسبه من الشظايا التي كانت تتساقط في أثناء هذه العملية لاستخدامها كأدوات. ولكن شيئا فشيئا بدأ الإنسان يدرك مزايا الشظايا وسهولة تشكيلها فانصرف إليها وصار يصنعها حسب أنماط معينة لتخدم أغراضا محددة. تمتاز الشظية بحدة الشفرة ودقة الصنع وإمكانية التحكم الدقيق في صنعها حسب نمط محدد لتخدم الغرض المراد منها بشكل أفضل. وتمتاز أيضا بتوفير الوقت والجهد إذ يمكن الحصول على شظية جاهزة للاستخدام بضربة واحدة. أما الفأس الحجرية فإن إعدادها، لتتخذ الشكل الملائم وتصبح صالحة للاستعمال، يتطلب الكثير من المعالجة والمحاولة. زد على ذلك أن صناعة الشظايا صناعة اقتصادية توفر المادة الخام، على خلاف ما يترتب على كشط الفأس وتشطيفها من هدر وتبديد لحجر الصوان الثمين.(١٤)

مع تقدم صناعة الشظايا تبدأ الأدوات الحجرية تتخذ أنماطاً وطرزاً يمكن تمييزها من عصر إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى ويظهر ما يمكن أن نسميه صناعات تقليدية محلية تتسم بمواصفات فنية وتقنية متميزة. هذا على خلاف القواطع التي ليست لها أنماط معينة أو الفؤوس الحجرية التي تكاد تتجانس أينما وجدت ولا تختلف إلا في مادة الصنع حيث إن الحجر الذي يوجد في هذا المكان قد يختلف عن النوع الذي يتوافر في ذلك المكان. والاختلافات

---

(١٣) John Wymer, *The Paleolithic Age* (London: Groom Helm, 1982), pp. 90 - 98

(١٤) Ralph S. Solecki, "The Old World Paleolithic", in: *The Old World: Early man to the Development of Agriculture*, Robert Stigler, ed. (London: Thames and Hudson, 1974), pp. 57 - 9.

بين الفؤوس ليست اختلافات محلية، كما هي الحال بالنسبة للشظايا، ولكنها تغيرات تطرأ على تقنيات الصناعة مع مرور الوقت. وحيثما وجدت الفؤوس الحجرية فإن مراحل التطور التي تمر بها في أشكالها وطريقة صنعها تتطابق تماما.[١٥]

وللحصول على شظايا بالشكل المطلوب يلزم قبل البدء في التشظية إعداد الكتلة الصوانية nodule إعداداً جيداً وتقليمها لتتخذ شكل صدفة السلحفاة tortoise - shell (شكل ١٢). بهذه الطريقة يستطيع الصانع أن يتحكم في شكل الشظايا التي يحصل عليها. هذه الطريقة في التشظية وفي إعداد الكتلة تسمى الصناعة الليفالوازية Levalloisian نسبة إلى Levallois - Perret التي هي الآن واحدة من محطات المترو Metro subway system ضواحي باريس. وتنتشر هذه الصناعة مع بداية الانحسار الجليدي الثالث Riss/Wurm في فترة البلايستوسين الأعلى وتعتبر هي المرحلة الانتقالية من العصر الحجري القديم الأسفل Lower Paleolithic إلى العصر الحجري القديم الأوسط Middle Paleolithic الذي يبدأ منذ (١٠٠,٠٠٠) مائة ألف سنة تقريبا وينتهي منذ حوالي (٣٥,٠٠٠) خمسة وثلاثون ألف سنة مضت.[١٦]

وتبدأ مع الصناعة الليفالوازية، أو بعدها بقليل، الصناعة الموستيرية Mousterian نسبة إلى Le Moustier وهي مغارة في قرية صغيرة تقع ضمن منطقة Dordogne في جنوب غرب فرنسا. إلا أنه مع تقدم العصر الحجري القديم الأوسط تبدأ تقاليد الصناعة الموستيرية، والتي تمثل مرحلة متقدمة في طرق التشظية وإعداد النواة تطغي على تقاليد الصناعة الليفالوازية وتحل محلها. في الصناعة الموستيرية تعد الكتلة الصوانية التي يراد فصل الشظايا منها على شكل قرص صغير dischoid ما ينفصل من هذا القرص من الشظايا والرقائق يعادل ضعف ما يمكن الحصول عليه في حالة إعداد الكتلة على شكل صدفة السلحفاة، وبوقت أقل.[١٧] بعد فصل الشظية يقوم الصانع بشحذ حافتها وإدخال تحسينات إضافية عليها. هذه التحسينات تسمى secondary work أو retouching أو dressing وتستخدم فيها طريقة الضغط pressure flaking ، وهي طريقة جديدة تعطي قدرا أكبر من التحكم ومن الدقة في صنع الأدوات. والضغط يتم بواسطة أداة صغيرة من الخشب أو العاج أو الحجر لها رأس مدبب يضغط به على حافة الشظية إلى أسفل لإزالة بعض الشظايا الدقيقة منها إما لشحذها أو لتسنينها على شكل منشار denticulate أو من أجل تدقيق رأسها وتحويلها إلى مثقب borer أو أي شكل آخر يريده لها الصانع (شكل٧).

وقد فتحت طريقة الضغط مجالات جديدة أمام الإنسان ومنحته إمكانات لم تتوافر له من قبل فيما يتعلق بتصنيع الأدوات وتشكيلها بدقة متناهية وصار بإمكانه معالجة الأدوات الصغيرة التي لو عولجت بواسطة الطرق لانكسرت. ومما يعطى هذه الأدوات الدقيقة أهمية خاصة أن الإنسان استخدمها في صنع أدوات من مواد أخرى غير الحجر مثل الخشب والعظام والقرون. نتيجة لذلك تتعدد الأدوات في الصناعة الموستيرية وتتنوع بتنوع أغراضها، على خلاف القواطع والفؤوس الحجرية التي تستخدم في مختلف الأغراض. ومن الأدوات التي وجدها المنقبون في المواقع التي تنتمي لهذه الفترة السواطير cleavers والبعض منها مثبت فيه نصاب خشبي للقبض وكذلك المكاشط scrappers والمناقيش burins والمدببات والحراب points التي ربما ثبتت في رؤوس الرماح والمزاريق.

وتتزامن الصناعة الموستيرية مع أواخر فترة الانحسار الجليدي الثالث وتوجد مرتبطة مع جنس بائد من البشر يدعى إنسان نياندرثال نسبة إلى أول مكان وجدت فيه بقايا هذا الجنس وهو وادي Neander قرب مدينة Dusseldorf في ألمانيا، علما بأن البقايا التي وجدت فيما بعد تؤكد على أن هذا الجنس

---

(١٥) Carleton S. Coon, *The History of Man* (Penguin Books, 1976), pp. 77 - 9; Oakley, p. 72.

(١٦) Oakley, pp. 82 - 9; Wymer, pp. 116 - 7

(١٧) Solecki, *The Old World*, pp. 58 - 9.

البشري كان واسع الانتشار وربما ارتحل إلى أوربا من الشرق الأدنى في أثناء فترة الدفء. لما اشتد البرد في أوربا مع تقدم الزحف الجليدي الرابع Wurm لجأ النيـانـدرثال إلى الكهوف والمغارات وعمل من جلود الحيـوانـات أرديـة يتـدثر بها، كما أنه عرف النار واستخـدمهـا للتدفئة وربما أيضا للتصدي للدببة الضخمة التي كانت تزاحمه على سكنى الكهوف. ولم يشأ النياندرثال أن يترك أوربا ويرحل جنوبا بحثاً عن الدفء نظراً لتوافر الأجناس العديدة من الحيوانات الضخمة التي كان يصطادها ويتغذى على لحومها. ولا شك أن التقدم الذي أحرزه في صناعة الأدوات كان خير معين له على تحمل البرد والتكيف مع حياة الشمـال القاسية آنذاك. كان يتسلح بالرماح التي سفعت أطرافها بالنار لتكون مدببة أو التي ثبتت فيها حراب من الصوان. وتشهد أكوام العظام الوفيرة التي عثر عليها في المغارات والكهوف التي كان يقطنها أنه كان صيـادا جريئا وماهرا. ومعظم هذه العظام من القوائم والأطراف وقلما يوجد معها اضلاع أو عظام فقرية مما يشير إلى أن النياندرثال حينما يؤوب من رحلات الصيد البعيدة لا يحلم معه الطريدة بكاملها وإنما يقعها في المكان الذي صادها فيه ويأخذ منها الأجزاء اللاحمة فقط.

إن التقدم الثقافي والتقني الذي أحرزه النياندرثال وسـع آفاقه ومنحه القدرة على التكيف مع مختلف البيئات الطبيعية والعيش في ظروف مناخية متباينة، لا سيمـا في أوربا والشرق الأدنى. وربما كان أول جنس من البشر حاول أن يشيد سكنا يأوي إليه من جلود الحيوانات وفروع الأشجار. ولا يعنينا مدى النجاح الذي حققه في هذه المحاولة بقدر ما يعنينا أنها خطرت في ذهنه وحاول أن ينفذها. كما أن حياته لا تخلو من اللمسـات الفنية التي تنبىء عن بوادر حس جمالي يتفوق به على من سبقهم من أجناس البشر.

وقـد نمـى الشعـور الإنسـاني والإحسـاس بالمسؤولية الاجتماعية لدى جماعة النياندرثال لدرجة أن العاجز والمريض بينهم يجد من يرعاه ويعني به. وكانوا يوارون موتاهم في التراب ويدفنون معهم شيئا من متـاع الدنيـا مثـل الأدوات والأسلحة والطعام ليستعينوا بها في رحلة الموت. وهذا يوحي بنوع من الإحسـاس الديني والاعتقـاد بحيـاة أخـرى بعد المـوت[١٨] ومن الأدلة على ذلك المقبرة العائلية التي وجدها المنقبون في مغارة La Ferrassie جنوب فرنسا والتي تضم ستة قبور لأبوين وأطفالهما الأربعة.[١٩] وفي مغارة شانيدار Shanidar في العراق عثر Ralph Solecki على جثث دفنت بطريقـة توحي بأن عمليـة الدفن تمت مصحـوبة بنوع من المراسم والطقوس الشعائرية. وفي الطبقات السفلى من المغارة وجد Sol-ecki جثة لرجل مات بعدما تجاوز الأربعين من العمر أثبتت الفحوص أنه قضى عمره كسيحا مقعدا يعاني من مختلف العاهات ومع ذلك لم يعدم من يتولى أمره ويقوم بشؤونه. وفي الطبقات العليا من الغارة عثر Solecki على جثـة مسجـاة وضعت معهـا باقة من الزهـور.[٢٠] ومن المـرجـح أن النياندرثاليون كانوا يعيشون في جماعات صغيرة متنقلة حيث أن الموارد الغذائية التي يمكن الحصول عليها من حياة الصيد لا تكفي لإعـاشـة أعداد كبيرة، خصوصا في غياب وسائل التخزين والحفظ. كما أن حياة الصيد حياة غير مستقرة تتطلب الهجرة باستمرار خلف الطرائد وقطعان الحيوانات التي يقتات عليها الإنسان. ومن المحتمل أن لكل جماعة من هؤلاء شيخ مطاع يقضي بينهم ويدبر شؤونهم. ولا يستبعد أن جذور العائلة كمؤسسة اجتماعية تبدأ من هذه الفترة.[٢١]

---

(١٨) Robert J. Wenke, *Patterns in Prehistory: Mankind's First Three Million Years* (New York: Oxford University Press, 1980), p. 184.

(١٩) Howell, pp. 128 - 130

(٢٠) Solecki, "Shanidar: Prehistory in Shanidar Valley, Northern Iraq," *Science* vol. 134, no. 3551, January 18, 1963; Solecki *The First Flower Children* (New York: Alfred A. Knopf, 1971), p. 250.

(٢١) Robert J. Braidwood, '*Prehistoric Men*, 7th ed. (Glenview, Illinois: Scott, Foresman and Company, 1967), p. 57; Wymer, pp. 123 - 131, 156 - 175.

ومن أغنى المواقع التي عثر فيها المنقبون على بقايا وآثار النياندرثال مغارة Combe grenal في وادي Dordogne في جنوب غرب فرنسا. يحتوي هذا الموقع الضخم على (٦٤) أربعة وستين طبقة متراصة بعضها فوق بعض. كل طبقة من هذه الطبقات تمثل مرحلة من المراحل كانت المغارة خلالها مأهولة بالسكان. وقد يفصل بين كل مرحلة والتي تليها فترة قد تمتد إلى آلاف السنين تبقى فيها المغارة مهجورة قبل أن تأتي اليها جماعة أخرى من السكان لتحتلها، وهكذا دواليك لمدة تربو على (٨٥,٠٠٠) خمس وثمانين ألف سنة. وفي كل طبقة من الطبقات يوجد نوع من الأدوات يختلف عن النوع الموجود في الطبقات الأخرى، مما يدل على أن جماعات مختلفة من البشر تعاقبت على سكنى المغارة وأحيانا يعود نفس النوع من الأدوات الذي وجد في طبقة تحتية ليظهر مرة أخرى في طبقة أعلى. وقد يتكرر ذلك أكثر من مرة. وهذا ما حير البروفيسور Francois Bordes المشرف على عمليات التنقيب في هذه المغارة. هل الاختلاف بين الأدوات من طبقة لأخرى يعني الاختلاف في أساليب الحياة وسبل كسب العيش بين الجماعات المختلفة التي تعاقبت على سكنى المغارة، أم أنه يعكس اختلاف النشاطات الموسمية لنفس الجماعة؟ هل ظهور نفس الأدوات مرة أخرى في الطبقات العليا يعني عودة نفس الجماعة إلى المكان نفسه، أم أن هناك تشابه في الأدوات بين الجماعات المختلفة نتيجة الاتصال والاستعارة؟ وعظام الحيوانات التي عثر عليها في هذه المغارة تختلف باختلاف الطبقات. ففي الطبقات السفلى والتي تتزامن مع فترة الانحسار الجليدي توجد عظام لحيوانات تعيش في الأجواء الدافئة. أما الطبقات العليا فتحتوي على عظام حيوانات قطبية مثل الرنة reindeer والماموث mammoth . هذه البقايا تعكس مراحل تكيف النياندرثال مع التغيرات البيئية والمناخية التي صاحبت الزحف الجليدي.[٢٢]

نهاية العصر الحجري القديم

يعرف العلماء الكثير عن هذه المرحلة، على خلاف المراحل السابقة. هذه الوفرة في المعلومات تعود إلى حداثة المرحلة وقربها زمنيا وإلى انتشار الإنسان في معظم أنحاء المعمورة وإلى أنه خلف وراءه، مطموراً في أرض الكهوف والمغارات التي سكنها الكثير من أدواته وأشيائه التي بقيت في حالة جيدة من الحفظ. أضف إلى ذلك أن الإنسان في تلك الفترة كان قد ثبت مواطىء أقدامه في أوربا وأهل معظم انحائها. والأوربيون لهم ولع متأصل وباع طويل في التنقيب عن الحفريات واستنطاق الآثار ، لا سيما فيما يتعلق بتواريخ شعوبهم ومواطنهم، وكذلك بالنسبة للمواطن الأخرى كلما سنحت لهم الفرصة. لذا نجد أن معظم المعلومات التي بين أيدينا عن المراحل الأخيرة من العصر الحجري تأتي من أوربا، والبعض منها من الشرق الأدنى وحوض البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا مؤخراً.

تشير الحفريات الأركيولوجية والبلينتولوجية إلى أنه خلال الزحف الجليدي الأخير وقبيل نهاية عهد البلايستوسين منذ حوالي (٤٠,٠٠٠) أربعين ألف سنة خلت بدأ النياندرثال في أوربا يختفي ليحل محله الإنسان الحديث أو ما يسمى الإنسان العاقل Homo sapiens sapiens والذي يبدو أنه قدم من الشرق إثر أسراب الصيد لأن المنقبين عثروا على أقدم آثاره وبقاياه في مغارة الطابون وفي مغارة السخول في جبل الكرمل ومواقع أخرى في فلسطين ولبنان وسوريا والعراق. ويقف العلماء حائرين أمام سر اختفاء النياندرثال، هل انقرض وباد أم أنه اندمج واختلط مع الجنس الوافد؟ ومما يزيد في حيرتهم أنه من الوجهة التكنولوجية والثقافية تم الانتقال من المرحلة الوسطى إلى الأخيرة من العصر الحجري القديم بتدرج وتسلسل لا يوحي بأي انقطاع أو انحراف في مجرى التاريخ البشري.[٢٣]

---

(٢٢) Francols Bordes, "Mousterian Culture in France" *Science* Vol. 134 no. 3482, September 22, 1961.

(٢٣) Braidwood, pp. 60 - 64; Coon, 98 - 100; Grahame Clark, and Stuart Piggot, *Prehistoric Societies* (New York: Alfred A. Knopf, 1965), pp. 64 - 9.

المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم قصيرة جدا إذا ما قيست بالمراحل التي سبقتها، فهي لا تتعدى (٣٥,٠٠٠) خمس وثلاثون ألف سنة على أقصى تقدير. إلا أن الإنسان خلال هذه الفترة القصيرة نسبيا استطاع أن يخطو خطوات واسعة وأن يقفز قفزات بعيدة الشأن على طريق التقدم التقني، وكذلك الثقافي والاجتماعي. مع إطلالة هذه المرحلة الجديدة تأكدت ثقة الإنسان في نفسه وأطلق العنان لطاقاته الإبداعية وقدراته العقلية. استعاض عن التردد والإحجام بالعزم والإقدام واستبدل خطواته البطيئة المتثاقلة على طريق التطور بوثبات حثيثة متسارعة لها صفة المتوالية الهندسية.

استمرت تقاليد الصناعة الموستيرية في أثناء المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم الأعلى. الا أنه شيئاً فشيئا تطورت صناعة الشظايا والرقائق إلى ما يسمى النصال blades (شكل١٣). ومع مرور الزمن أدرك الإنسان مزايا النصال وأتقن صناعتها حتى صارت لها الغلبة على الشظايا والنصال ليست إلا شظايا رقيقة طويلة، طولها يساوي عرضها مرتين تقريبا، متوازية الحدين مرهفتهما. والطريقة المثلى لصنع النصال هي إعداد نواة تأخذ شكلا هرميا أو أسطوانيا وتثبت بشكل جيد. وبطرقة واحدة مسددة على حافة القاعدة العليا ينفصل النصل على طول جانب النواة من قاعدتها العليا إلى قاعدتها السفلى. ويتوالى تسديد الطرقات هكذا باتجاه حلزوني، كما لو أنك تنشر طرسا مطويا، على طول محيط النواة حتى تنضي ويصل الطرق إلى مركز القاعدة (شكل ١٤). ولا يكفي إعداد النواة على الشكل المذكور للحصول على النصال، بل لابد من استخدام وسيلة الطرق غير المباشر والتي لم يكتشفها الإنسان إلا مع نهاية العصر الحجري القديم. يحتاج الطرق غير المباشر إلى منخاس صغير من العاج أو الخشب له رأس مدبب يوضع على حافة قاعدة الطرق بزاوية مائلة قليلا ويضرب بالمطرقة على طرفه الآخر. بواسطة رأس المنخاس المدبب يمكن توجيه قوة الطرق إلى نقطة معينة على القاعدة بإحكام ودقة لا يتوافران في حالة الطرق المباشر (شكل٦).

تمثل هذه الطريقة خطوة أخرى وكبرى على طريق التوفير والترشيد في استخدام المادة الخام. فلو أننا عملنا فأسا يدوية من كتلة صوانية تزن رطلين لحصلنا على حافة قاطعة لايزيد طولها على أربع بوصات. بينما لو عملنا من الكتلة ذاتها نصالا لوصلت مساحة الحافة القاطعة لمجموع هذه النصال على (٢٥) خمس وعشرين ياردة أو تزيد.[٢٤] علاوة على ذلك تمتاز النصال عن الفؤوس اليدوية وغيرها من الأدوات التي سبقتها في أنها أخف وزنا وأمضى حدا وأكثر فاعلية. كما أنه بلمسات إضافية وعن طريق الشطف بواسطة الضغط pressure flaking يمكن تحويل النصال إلى أدوات أخرى متخصصة أكثر فاعلية وملاءمة في الوفاء ببعض الأغراض. هذا مكّن الإنسان من أن ينوع في أدواته حسب تنوع حاجاته. والأدوات التي يمكن اشتقاقها وتصنيعها من النصال كثيرة ومتنوعة من أهمها:[٢٥]

١ ــ مدية مشحوذة الحد مفلولة الظهر backed knife. تتلخص طريقة صنع هذه المدية في تثليم أحد حدي النصل بواسطة الضغط ليصبح كليلا وبذلك يتحول النصل إلى مدية تستخدم في القطع ويضغط على طرفها الكليل بالسبابة. وقد أثبتت التجربة أن مدية من هذا النوع يمكن استخدامها في السلخ والقطع والتقديد بكفاءة وسرعة لا تقلان عن السكين الحديدية (شكل١٥).

٢ ــ المكشط الطرفي end-scrapper. يشطف طرفي النصل أو أحدهما لإعطائه حافة حادة محدبة تصلح كأداة للحت والكشط تستخدم في ثقب العظام والأخشاب وتجويفها وفي كشط الجلود ونزع اللحاء من جذوع الأشجار (شكل١٦).

٣ ــ المسحاج "notched" or "strangulated" blade يخمص أحد حدي النصل ويصهر ليصبح له حافة مقعرة تحد وتشحذ بواسطة التشظية بالضغط لتصبح مدببة يسهل تثبيت

(٢٤) Bordaz, pp. 56 - 7; Solecki, 1974, p. 63.

(٢٥) Braidwood, pp. 64-8.

الحراب فيها والأسنة (شكل١٧).

٤ ـــ ومن النصل يمكن عمل سنان له سنخ يثبت في طرف الرمح أو النشاب ويسمى هذا النوع من الأسنة tanged point (شكل١٨).

٥ ـــ ويمكن معالجة أحد طرفي النصل لجعله مدببا كالمخراز awi يتسخدم في ثقب الخشب والعظم والجلد (شكل١٩).

٦ ـــ إلا أن المختصين يجمعون على أن أهم أداة استخدمها الإنسان من النصال هي الإزميل، أو المنقاش burin. والإزميل نصل يخرط طرفه من الجانبين بزاوية مائلة بحيث تشكل نقطة الالتقاء في نهاية الطرف شفرة صغيرة مرهفة. هذا التصميم يعطي الإزميل صلابة ومقاومة للكسر مما يجعله من أنجح الأدوات في معالجة الخشب والعاج والعظام وحفرها والنقش عليها (شكل٢٠).

في هذه المرحلة وصلت الصناعة الحجرية إلى درجة من التعقيد والتنويع وأصبحت صناعتها تتطلب درجة عالية من الحذق والمهارة بحيث لم يعد من الميسور لأي فرد أن يصنع أدواته بنفسه وأصبح لا غنى له عن الصناع المحترفين المتخصصين. وهذه من أولى مراحل تقسيم العمل وتوزيع الأدوار في المجتمع الإنساني. وأصبح كل واحد من هؤلاء المختصين يمتلك عدة مكتملة أو ورشة تحتوي على كل ما يحتاج إليه لصناعة الأدوات بما في ذلك المناخيس والمطارق والهراوات والسندانات وغير ذلك من المعدات التي تختلف أشكالها وأوزانها وأحجامها باختلاف أغراضها. والصانع الماهر لا بد له أن يكون بارعا وضليعا في استخدام جميع التقنيات التي وصلت إليها صناعة الحجر في هذه المرحلة. فهو يحتاج للطرق المباشر في إعداد النواة وتجهيز قاعدة للطرق غير المباشر في فصل النصال وللضغط في تشكيلها وتحويرها إلى أدوات أخرى.

ولنا أن نتصور أهمية ما حققته هذه الطرق الصناعية الجديدة فيما يتعلق بتنويع الأدوات وتقليص حجمها وتخفيف وزنها وكذلك الترشيد في استهلاك المادة الخام. كما يقلق إنسان هذا العصر ويخشى من نضوب البترول ومصادر الطاقة الأخرى، كان إنسان العصر الحجري يدرك بعد الاستخدام الجائر الذي دام لمئات الآلاف من السنين أن حجر الصوان بدأ يقل في المناطق المعتدلة التي يتمركز فيها الوجود البشري. والجانب الآخر من المشكلة التي واجهها الإنسان هو صعوبة حمل كتل الصوان الثقيلة إلى الأماكن البعيدة التي أغرته كثرة الصيد فيها على المغامرة في ارتيادها ولكنها تفتقر إلى المادة الخام التي تصلح لصنع الأدوات. وحتى هذه المرحلة لم يكن الإنسان قد استأنس الحيوان وكان مصدر الطاقة الوحيد المتاح له هو بدنه. لذلك فإنه حينما ينتقل من منزل إلى آخر لا ينقل معه من الأثاث إلا ما يستطيع حمله على ظهره. وحياة الصيد حياة حل وترحال، لا يديم الإنسان في مكان إلا ريثما يتحول عنه إلى آخر سعيا وراء الطرائد. لذلك كلما خف المتاع كلما خف عناء الرحلة. الحمل الخفيف يشجع الإنسان على أن يبعد النجعة ويرتاد مناطق أبعد ويوسع دائرة بحثه ونطاق سعيه وراء الرزق، حتى في الأماكن التي لا يوجد فيها حجر الصوان.

ومع تقدم الزمن صار الإنسان يصعد درجات ودرجات على سلم التطور التقني والثقافي وأدى طول التجربة وتراكم الخبرات إلى توسيع آفاقه وتفتح مداركه لسبل جديدة وعديدة في التعامل مع الحجر وتسخيره لقضاء مآربه. فأصبحت لديه أدوات مزدوجة كأن يكون أحد طرفي النصل مكشط والطرف الآخر إزميل. كما أصبحت لديه أدوات يستخدمها في صنع أدوات أخرى. كل ذلك وفر له القاعدة الأساسية والعدة اللازمة للاستفادة من خامات أخرى ليصنع منها أدواته مثل الأخشاب والعاج والعظام والقرون. كما اكتشف أن غلي هذه المواد ونقعها في الماء يساعد على تليينها وتطريتها، كما اكتشف طرقا ومعدات لتعديلها وتقويم إعوجاجها. وصار الإنسان يصنع أدوات مركبة يدخل في صناعتها مواد وأجزاء مختلفة. وخطر على باله أن يثبت بعض الأدوات بنصاب أو يد قابضة ليزيد من فاعليتها وأن يستخدم سيور من الجلد أو صمغ الراتينج resin الذي تفرزه بعض الأشجار ليثبت أجزاء الآداة المختلفة بعضها مع بعض.

والمواد الجديدة التي برع الإنسان في تشكيلها مثل الخشب والعظام والقرون إذا ما تمت معالجتها وفق طرق فنية صحيحة لتتخذ الشكل الملائم فانها تفوق الحجر في بعض المزايا وقد تكون أنجح منه في أداء الكثير من المهام. فهي بالإضافة إلى حجمها الكبير مواد طرية لا تتقصف وتتحطم بسرعة كالحجر. ومن قرون الوعل أو أنياب الماموث مثلا يمكن عمل أدوات يبلغ طول الواحدة منها عدة أقدام. وإذا ما سويت هذه القرون والأنياب وخرمت أطرافها أو ثقبت بمثقاب حجري وثبتت فيها بواسطة سيور جلدية رقيقة نصال حجرية حادة فإنها تصبح أسلحة فتاكة في يد من يجيد استخدامها. ودخلت تعديلات أخرى وتحسينات طورت من صناعة السلاح فأصبحت هناك قاذفات مثل الحربون (شكل٢١) وراجمات لقذف الرماح spear throwers تعمل تقريبا بنفس الطريقة التي يعمل بها المقلاع (شكل٢٢).

هذه الأسلحة ضاعفت من كفاءة الإنسان في صيد الحيوانات الضخمة مثل الماموث والحصان والرنة وأعطته التقنيات اللازمة لاقتحام مجالات بيئية جديدة لم يستثمرها من قبل. من ذلك أنه صار يتوغل في المناطق الباردة والغنية بالصيد التي تحف مسطحات الجليد في أوربا. كما عمل من الأخشاب ساعيات اقتحم بها البحر لأول مرة لاصطياد الفقمة والحوت بواسطة الحربون. وكسى الإنسان نفسه لأول مرة بملابس دافئة من الجلد خاطها بالإبرة التي صنعها من العظم بمساعدة الأدوات الحجرية الدقيقة مثل الإزميل الذي يصفه كارلتون كون Carleton Coon بأنه جواز عبور الإنسان إلى كل من روسيا وأمريكا وثلوجهما. وهكذا استطاع الإنسان أن ينتشر في كل أصقاع الأرض وأن يعيش في ظل مختلف الظروف البئية والمناخية.[٢٦]

وتأتي معظم شواهد هذه المرحلة من وادي الدردون Dordogne في فرنسا وخصوصا في قرية Les Eyzies التي يسميها الأثريون حاضرة العالم لما قبل التاريخ prehistoric capital of the world ويسميها كارلتون كون كعبة الأركيولوجيين وفردوس الصيادين القدماء،[٢٧] وتخترق وادي الدردون العديد من الأنهار الصغيرة المتعرجة التي تنحدر عبر منطقة Massif Central لتلتقي جميعها قبل أن تفضي إلى المحيط الأطلنطي عند مدينة Bordeaux ، استطاعت هذه الأنهار عبر الأزمنة السحيقة أن تحفر أودية عميقة تحف بها جروف صخرية شديدة الانحدار يصل ارتفاع بعضها إلى أكثر من (٣٠٠) ثلاثمائة قدم. وتتكون هذه الصخور من الحجر الجيري الهش الذي يمتض الماء في مسامه ويتشربه كالإسفنج ويتفاعل معه، لذا تحولت المنطقة إلى شبكة من المغارات والكهوف التي يوجد فيها الإنسان القديم منذ عهد النياندرثال ملاجيء طبيعية يأوي إليها طلبا للدفء. وكانت هذه الوهاد والنجاد آنذاك عبارة عن مروج خضراء تتخللها الأنهار والبحيرات وترتع فيها جميع أنواع الحيوانات. وبالإضافة إلى ذلك كان حجر الصوان متوافرا في الكهوف ليصنع منه الصياد أدواته. ولقد تم حتى الآن اكتشاف مئات المواقع الأثرية في الدردون منها Le Moustier و Lascaux و Laugerie Basse و Laugerie Haute حيث يشاهد الزائر داخل هذه الكهوف مخلفات وآثار الإنسان الحجري واللوحات الرائعة التي رسمها والتي ساعدت الحرارة المعتدلة الثابتة ونسبة الرطوبة العالية داخل الكهوف على حفظها في حالة جيدة. كل هذه الدلائل تؤكد على أن المنطقة كانت مأهولة بالسكان لعشرات، بل ربما مئات الآلاف من السنين. يصف كلارك هاول هذه المنطقة بقوله «حينما تعبر الدردون على الطريق الرئيس القادم من باريس تشعر وكأنك تعود القهقري إلى العصر الحجري يمر الطريق بمحاذاة النهر الذي تحفه مرتفعات شامخة من الصخور الجيرية المخططة. حواليك في كل مكان تقبع مساكن الإنسان القديم يطبق عليها الصمت، بعض منها فتحت أبوابه للزوار كمتاحف صغيرة والآخر لا تزال أعمال التنقيب جارية فيه».[٢٨]

ويعود فضل الريادة في اكتشاف المواقع الأثرية في

(٢٦) Coon, p. 102.

(٢٧) Coon, p. 95.

(٢٨) Howell, p. 146

الدردون إلى Edouard Lartet (1801 - 1871) الذي تحول من ممارسة القانون إلى التنقيب عن الإنسان القديم وآثاره في أوروبا وخصوصا في Les Eyzies والمواقع المجاورة في حوض نهر Vezere . إلا أن أهم الاكتشافات جاءت بطريق الصدفة المحضة في عام ١٨٦٨م في أثناء توسعة الجزء الذي يمر بقرية Les Eyzies من الطريق الرئيس القادم من باريس. بالقرب من هذه القرية يوجد كهف Cro - magnon الذي عثر فيه العمال على جماجم وأدوات حجرية محفوظة في حالة جيدة. ومن اسم هذه المغارة اشتق الاسم الذي أطلقه العلماء على إنسان ذلك العصر والذي لا يختلف عن الإنسان الأوربي الحديث في شيء.

في المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم وصلت الثقافة الإنسانية إلى مستوى من التعقيد والتنوع والتداخل يصعب معه تصنيفها وفرزها إلى مراحل متعاقبة أو إلى مناطق مستقلة بعضها عن بعض. وأي محاولة في هذا الصدد لتوضيح الصورة وعرضها بشكل مبسط ومختصر سوف تضطرنا إلى تحاشي الخوض في الأراء المتضاربة حول الموضوع. وتركز اختلاف العلماء هنا حول الأطوار الأولى من هذه المرحلة إلا أن آراء المتأخرين منهم تكاد تستقر على طورين اثنين ستهل بهما المرحلة سموا أحدهما الأوريجنيسي Aurignacian (نسبة إلى مغارة Aurig-nac حوالى (٤٠) أربعين ميلا جنوب غرب تولوز جنوب فرنسا) والآخر سموه البيريجوردي Perigordian (نسبة إلى منطقة Perigord جنوب غرب فرنسا) ويجزأ البيريجوردي إلى دورين متتاليين أولهما Chatelper-ronian (نسبة إلى Chatelperron في وسط فرنسا) ثم يأتي بعدها Gravettian (نسبة إلى مغارة La gravette في منطقة الدردون). طورا الأوريجنيسي والبيريجوردي متعاصران ومستقلان أحدهما عن الآخر . إلا أننا نجدهما يتراوحان في بعض المناطق. ففي مغارة Le Ferrassie مثلا توجد طبقة تمثل طور البيريجوردي تعلوها خمس طبقات متتالية متباينة تنتمي كلها إلى الأوريجنيسي وهذه بدورها تعلوها ثلاث طبقات من البيريجوردي المتأخر . وبعد هذين الطورين يأتي طور السولتري Solutrean (نسبة إلى موقع Solutre في مقاطعة Saone -et- Loire جنوب شرق فرنسا) ثم يأتي الطور الأخير من هذه المرحلة وهو الماجدلاني Magdalenian (نسبة إلى مغارة La Madeleine في الدردون).

يعتبر العلماء طوري الأوريجنيسي والبيريجوردي مرحلة انتقالية من الثقافة الموستيرية إلى الثقافة السوليترية. مع بداية هذين الطورين لا تتخذ الصناعة الحجرية شكلا متميزا ولكن من هنا تبدأ تجارب الإنسان في استكشاف وتشكيل مواد أخرى غير الحجر فصنع من العظم وأنياب الماموث المخاريز والدبابيس والإبر والأسافين والحراب والهراوات.

ومنذ حوالي (١٩,٠٠٠) تسع عشرة ألف سنة يحل الطور السولتري الذي تصل فيه طرق التشظية بالضغط والطرق غير المباشر ذروتها في المهارة والإتقان، وخصوصا فيما يتعلق بصناعة الحراب والمدببات points التي كانت تتخذ شكل ورق الغار laurel leaf (شكل٢٣) أو ورق الصفصاف willow leaf يصف ويليام هاولز هذه الصناعة قائلا:

> ومن أروع الصناعات السولترية في فرنسا رؤوس الحراب (المسنونات أو المدببات) التي كانت تصنع على شكل ورق الغار ، والتي كانت تشطف بحيث يبدو سطحها متموجاً، مما يدل على مدى الكمال الذي بلغته تلك المسنونات في الشكل، كما ينم عن الخبرة والإجادة والحذق في الصنعة التي تمكن لصاحبها أن يفصل شظيات رقيقة طويلة بالضغط من الحافة تجاه خط الوسط بحيث توازي كل شظية منها الشظيات التي تجاورها وتماثلها تماماوبذلك يبدو سطح الآلة أشبه بتموجات الماء أو الرمل. ومن الواضح أن الشعوب السولترية كانوا يعشقون صناعة الحجارة كفن.[٢٩]

ويستمر الطور السولتري لمدة تقرب من (٣,٠٠٠) ثلاث آلاف سنة ليأتي بعده الطور المجدلاني الذي يتميز بتطور الأسلحة المصنوعة من العظام، وخصوصاً الأسنة والحراب التي تثبت في رؤوس القذائف مثل النبل والرمح والحربون. والحربون،

(٢٩) ويليام هاولز، **ما وراء التاريخ**، ترجمة احمد ابو زيد (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٤م)، ص ص ١٤٨، ١٤٩ ـ ١٥١.

الذي يزود رأسه بصف من الخطاطيف على أحد الجوانب في البداية ثم على الجانبين معا فيما بعد (شكل٢١)، يبين لنا مدى التقدم الذي أحرزته صناعة الأسلحة عند المجدلانيين. يقول وليام هاولز:

وكان المقصود من المسنون ذي الخطاطيف، الذي كان يصنع من العظام أو من القرون والذي يطلق عليه اسم رأس الهاربون، (ويبدو أن المسنونات المجدلينية كانت كلها من هذا النوع)، أن ينفصل عن قصبة الرمح حين يرشق في الديوان. ولذا كان (رأس الهاربون) يربط بحبل يظل في يد القانص (حتى يستخدمه بعد ذلك في سحب القنيصة). وهذه هي الطريقة التي يستخدمها بها الأسكيمو في صيد سمك الصيل والنرويجيون في صيد الحوت، وربما كان المجدلينيون يستخدمونه في صيد الرنة. ومهما يكن من أمر فقد كان لديهم سلاح آخر له شأنه وخطره وأعنى به قاذفة الحراب.

وتتألف القاذفة من قصبة يقبض عليها الصياد بكلتا يديه من أحد طرفيها كما يمسب في الوقت نفسه بقصبة الحربة أو المزراق، وكان يوجد في طرف القاذفة فك أو ثقب تثبت فيه قاعدة الحربة، فحين يقذف الصياد حربته فان القاذفة تجذب معها ذراعه إلى الأمام، وهذه الحركة التي تشبه حركة السوط تضيف قوة هائلة إلى الرمية... وهذا السلاح يزيد من قوة الرمية ولكنه لا يطيل المسافة التي يقطعها الرمح، كما أنه يساعد الرمح ذاته على أن يغوص ويخترق أجسام الحيوانات الضخمة مثل الثيران الوحشية (البيسون) أو حصان البحر (الوالرس walrus) ويلحق بها إصابات بالغة خطيرة لا يفلح الرمح العادي الذي يقذف باليد في إحداثها إلا في حالات قليلة.[٣١]

بالإضافة إلى القاذفات والراجمات استخدم الإنسان وسائل أخرى للصيد مثل الفخاخ والشراك لصيد الحيوانات البرية والشص لصيد الأسماك من الأنهار . كما لجأ إلى الحيلة والمكيدة فحفر الحفر والزبى التي غطاها بالقش ليخفيها فتسقط فيها الحيوانات ويصطادها. كما كان يحوش قطعان الصيد من الحيوانات الكبيرة ليحشرها في المضائق أو يسوقها إلى المرتفعات الشاهقة ويذعرها بإضرام النار لتسقط في الصدوع فيقوم بنحرها بالجملة. وقد عثر المنقبون على بقايا (١٠٠,٠٠٠) مائة ألف حصان وحشي تحت جرف Solutre العظيم في فرنسا وعلى بقايا (١,٠٠٠) ألف ماموث في Predomost في تشيكوسلوفاكيا.[٣٢]

النتائج الثقافية والاجتماعية لتطور الصناعة الحجرية

مما عزز من قدرات الإنسان في تسخير البيئة واستثمار مواردها ما تراكم لديه من خبرات ومعارف عن تعاقب الفصول ومختلف مظاهر الطبيعة وما لذلك من تأثير مباشر على الحياة الحيوانية والنباتية. صار يعرف الكثير عن طبائع الحيوانات والطيور والأسماك خصوصا فيما يتعلق بمواسم الهجرة والتزواج والتوالد وارتياد المراعي وموارد المياه. وقد عثر المنقبون على بعض النقوش والرسومات التي تشير إلى احتمال معرفة الإنسان بالحساب القمري، وربما موعد مجيء سمك السالمون وكذلك موعد نضوج بعض الثمار والفواكه.[٣٢]

وتدل عظام الحيوانات الضخمة التي وجدت مطمورة بكميات هائلة في المغارات والكهوف على أن الإنسان آنذاك كان يعيش في بيئة غنية تتوافر فيها الحياة الحيوانية وعلى أن مهارة الإنسان وكفاءة أدواته قد وصلت إلى درجة استطاع معها أن يحقق لنفسه رخاء العيش وأن يحصل على ما يفي بحاجته من الطعام والكساء أو يزيد وبدون مشقة. هذه الوفرة الغذائية أدت إلى نوع من الاستقرار وإلى زيادة حجم العائلة وبالتالي إلى زيادة حجم الجماعة. وقد عثر المنقبون على مواقع سكنية بعضها أقيمت تحت الأرض طلبا للدفء وبعضها أكواخ شيدت من عظام الماموث الضخم وظللت بالقش والجلود.[٣٣]

هذه الكفاءة العالية التي وصل إليها الإنسان في الصيد وما ترتب عليها من استقرار نسبي وزيادة في عدد أفراد الجماعة لم تتحقق فقط نتيجة التقدم التقني وإنما هنالك عوامل أخرى لا تقل أهمية مثل

(٣٠) هاولز، ص ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٣١) Howell, p. 148.

(٣٢) Solecki, pp. 64-5.

(٣٣) Howell, p. 148.

تطور القدرات الفردية وكذلك النظم الاجتماعية. قد يتفوق الحيوان على الإنسان بالناب والمخلب والقرون وسرعة العدو وضخامة الجسم، ولكن الإنسان، بالإضافة إلى الأدوات والأسلحة الفتاكة، يمتلك الذكاء ويمتلك معه القدرة على التفاهم والتعاون بين أعضاء فريق الصيد. وكلما تطور ذكاء الإنسان كلما تطورت معه هذه القدرات. ولابد أن اللغة الإنسانية آنذاك كانت قد وصلت إلى مرحلة الاكتمال التي هي عليه الآن. لا تتوقف أهمية اللغة على العبارات والإشارات التي يتبادلها الصيادون في أثناء تتبع الطريدة أو حوش القطيع. الثقافة الإنسانية والنظم الاجتماعية برمتها تستحيل بدون اللغة لكي يسود الوئام بين أفراد الجماعة الإنسانية، مهما كان حجمها، لابد أن تكون هنالك أعراف وعادات وقيم وتقاليد متوارثة تحكم علاقة الناس فيما بينهم وتنظم شؤونهم مثل توزيع العمل وتوزيع الأدوار وتوزيع المحصول والعناية بالمريض والعاجز وتجهيز الميت ودفنه، وغير ذلك من وسائل الضبط الاجتماعي وسد حاجات الإنسان النفسية والروحية. الثقافة الإنسانية، بما في ذلك التقاليد الصناعية وبقية الجوانب المادية، تنشأ وتتطور نتيجة تراكم الإنجازات والمعارف التي حققها الإنسان في مسيرة التطور. واللغة هي الوعاء الذي يحمل هذه المعارف وهي الوسيط الذي عن طريقه تنتقل من السلف إلى الخلف. المستوى الذهني واللغوي الذي وصل إليه الإنسان في أواخر العصر الحجري القديم، كما تعكسه إنجازاته الثقافية والتقنية، يؤكد على أنه لا يختلف عن الإنسان الحديث.

في هذه المرحلة تحققت إنسانية الإنسان على الوجه الأكمل بعد أن قطع شوطا طويلا على درب الإنجازات المادية وتمكن من توفير متطلبات الحياة الأساسية من مأكل وملبس ومسكن. لم تعد الحياة الإنسانية شقاء متصل وعناء لا ينقطع في سبيل تحصيل لقمة العيش. صارت فترات الكد والكدح تعقبها فترات من الراحة والفراغ. بعد أن آمن الإنسان حاجة الجسد وتوافر له قسطا من الرخاء وراحة البال التفت إلى متطلبات النفس والروح. فقد مارس شعائر الدفن بطريقة تنم عن شعوره العميق تجاه الموت والموتى. كان الميت يدفن بكامل حليه وملابسه ويدهن جسده بطلاء أحمر ويدفن معه بعض الأشياء والأدوات التي كان الناس يعتقدون أنه سينتفع بها في مماته كما انتفع بها في حياته. إلا أنهم لم يمارسوا عزل الأموات عن الأحياء ودفنهم في مقابر بل كانوا يدفنونهم معهم في الكهوف حيثما يسكنون.(٣٤)

أما على مستوى الإحساس الفني فلا أدل على الذوق الرفيع الذي وصل إليه إنسان ذلك العصر من التماثيل الصغيرة التي كان يشكلها من العاج أو الصلصال ومعظمها لنساء عاريات مكتنزات الأكتاف والأرداف وبعضهن حوامل ونهودهن ممتلئة يكاد يتصبب منها الحليب. ويركز الفنان في هذه التماثيل على مظاهر الخصب والأنوثة المعطاء، أما الأطراف والرأس فيكاد يغفلها تماما (شكل٢٤). كما نقش الصيادون على أسلحتهم المفضلة خطوطا وأشكالا هندسية ورسومات للحيوانات التي يصطادونها. وبلغ بهم حب الأناقة أن عملوا من العاج والأصداف وأسنان الغزلان حلي وقلائد يتزين بها الرجال والنساء (شكل٢٥).

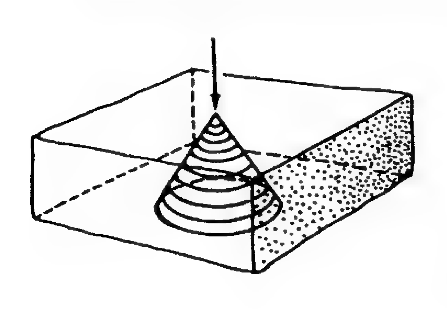
إلا أن أروع ما أبدعته يد الإنسان في العصر الحجري القديم الأعلى تلك الرسوم التي تزدان بها دهاليز الكهوف وغياهبها. ويقف الفنانون والعلماء على حد سواء تتملكهم الدهشة والإعجاب أمام هذه اللوحات الفنية الخالدة التي جاءت بها مخيلة إنسان العصر الحجري ليتوج بها إنجازاته المادية والروحية. لقد استطاع أولئك الفنانون الأوائل بإمكاناتهم المحدودة وتقنياتهم البدائية أن يبدعوا أعمالا تضاهي في روعتها ما أنجزته حضارة الإغريق والرومان وأوربا في عصر النهضة. كانت ألوانهم التي لا تتعدى الأسود والأحمر والأصفر والبني مستمدة من الطين والأكسيد الطبيعي. وتخلط هذه الأصباغ مع الفحم والشحم لتصبح أكثر تماسكا، ثم تطلى بها الصور المنقوشة على جدران الكهوف إما على شكل سائل باستخدام فرشة بدائية مصنوعة من القش أو

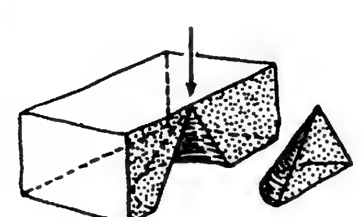
(٣٤) Clark and Piggott, pp. 60 - 84. Wymer, pp. 232 - 254.

من شعر الحيوان أو على شكل مسحوق ينفخ على الجدران بواسطة قرون أو عظام مجوفة. وبعد أن يلتصق الدهان بالجدران يبدأ الحجر الجيري بامتصاصه ببطء وهذا مايفسر بقاءها على حالتها الطبيعية كل هذه المدة الطويلة منذ ما يزيد على (٢٠,٠٠٠) عشرين ألف سنة. ومما زاد من قوة احتمال هذه الأعمال أنها تقبع في قعور الكهوف المظلمة الدافئة البعيدة عن النور والصقيع والتي تحتفظ بدرجة رطوبة عالية وحرارة تكاد تكون ثابتة.

ولا يزال العلماء حائرين في تفسير معنى فن الكهوف وتحديد أهميته. فلو كان القصد منه جمالي بحت لوضع في مداخل الكهوف لتزيينها حيث هنالك يسكن الإنسان. إلا أن هذه اللوحات تقبع مئات الأمتار من مداخل الكهوف في السراديب المظلمة التي يصعب رؤيتها أو الوصول إليها، كل ذلك يوحي بأن هذه الرسومات كانت تحاط بالسرية وربما كانت توظف لأغراض سحرية تتعلق بالصيد. وهنالك من الشواهد ما يعزز هذه الفرضية. من ذلك أن الرسومات تكاد تقتصر على حيوانات الصيد مثل الدّب والماموث والرنة ووحيد القرن والحصان الوحشي والثور الوحشي (شكل٢٦). ترسم هذه الحيوانات وقد صوبت إليها الرماح والنبال بعضها يتخبط في دمه والبعض الآخر يترنح من جراحه. ورسمت بعض الحيوانات وقد وقعت في الشراك والفخاخ. وقد فسر بعض العلماء ذلك على أنه تعبير عن أمل الصيادين في أن تكلل جهودهم بالنجاح. كما أن التأكيد على مظاهر الخصوبة والأعضاء التناسلية في بعض الرسومات يعبر عن أمل الصيادين في أن تتكاثر حيوانات الصيد. وهنالك بعض الرسومات التي تصور الصياد وهو يتربص بالطريدة أو يتنكر في زي الحيوان حتى لا ينفر منه قطيع الصيد.

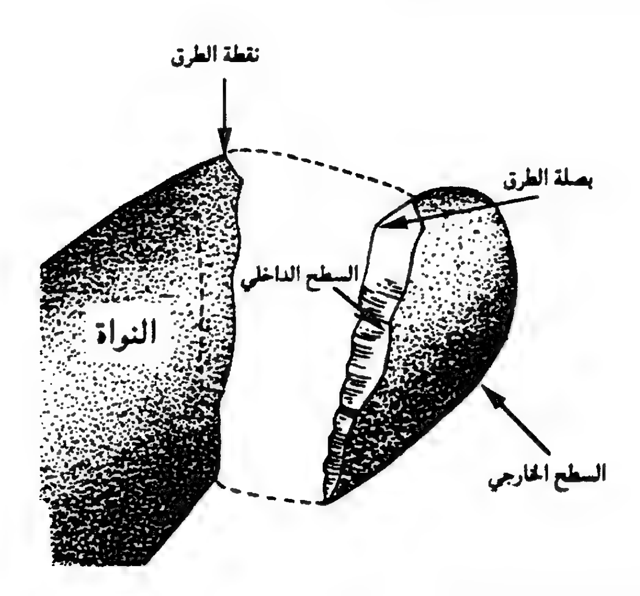
في أواخر عهد البلايستوسين منذ حوالي (١٠,٠٠٠) عشرة الاف سنة ينحسر الجليد وتزحف معه سهول التندرا إلى أقصى الشمال وتكسو معظم أنحاء أوروبا الغابات الكثيفة التي يقل فيها الصيد وتفرض على الإنسان تكيفات جديدة مثل الاعتماد على صيد السمك وعلى المنتوجات الخشبية. قبل نهاية البلايستوسين بقليل كان العصر الحجري القديم قد انتهى وبعد فترة انتقال قصيرة تسمى العصر الحجري الوسيط يأتي العصر الحجري الحديث والذي بدوره لا يستغرق إلا بضعة آلاف سنة. في تلك الفترة كان الإنسان في مناطق الأناضول والهلال الخصيب يتحفز للونبة الكبرى التي تتمثل في تدجين النبات واستئناس الحيوان ويتهيأ للانتقال من حياة الترحال إلى الاستقرار ومن الهمجية إلى المدنية. وبعد ممارسة الزراعة بقليل ابتدع الإنسان الكتابة وبذلك يدخل التاريخ من أوسع أبوابه متسلحا بالثقافة المتطورة والنظم الاجتماعية الراقية.



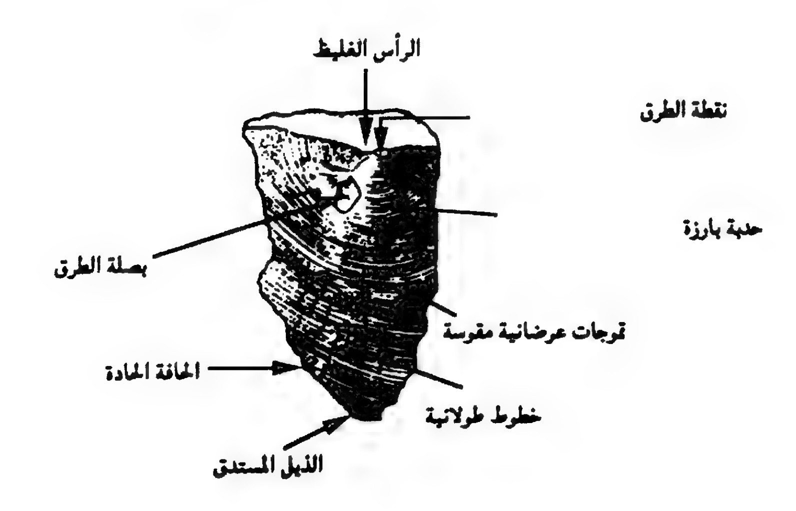




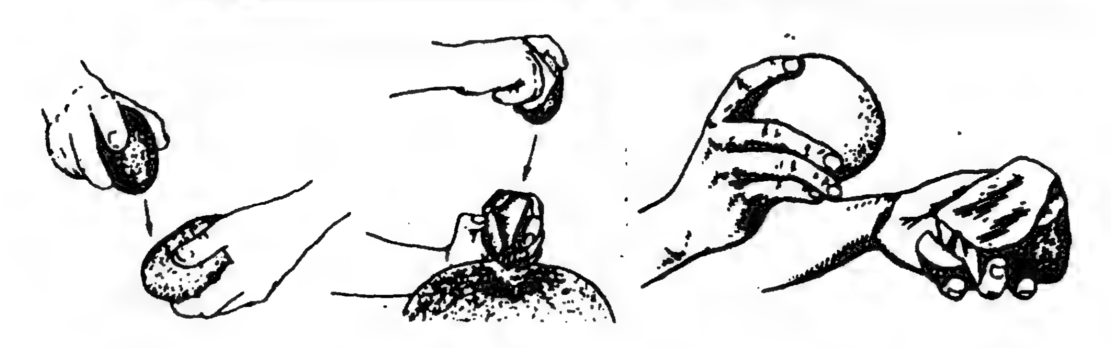
شكل ١



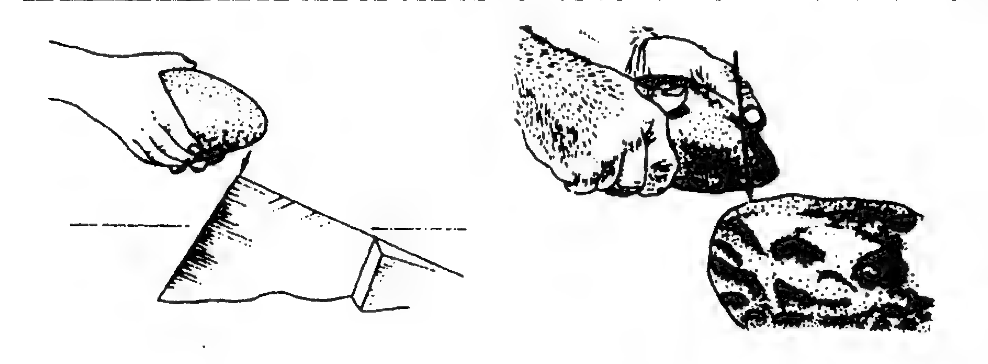
شكل ٢



شكل ٣

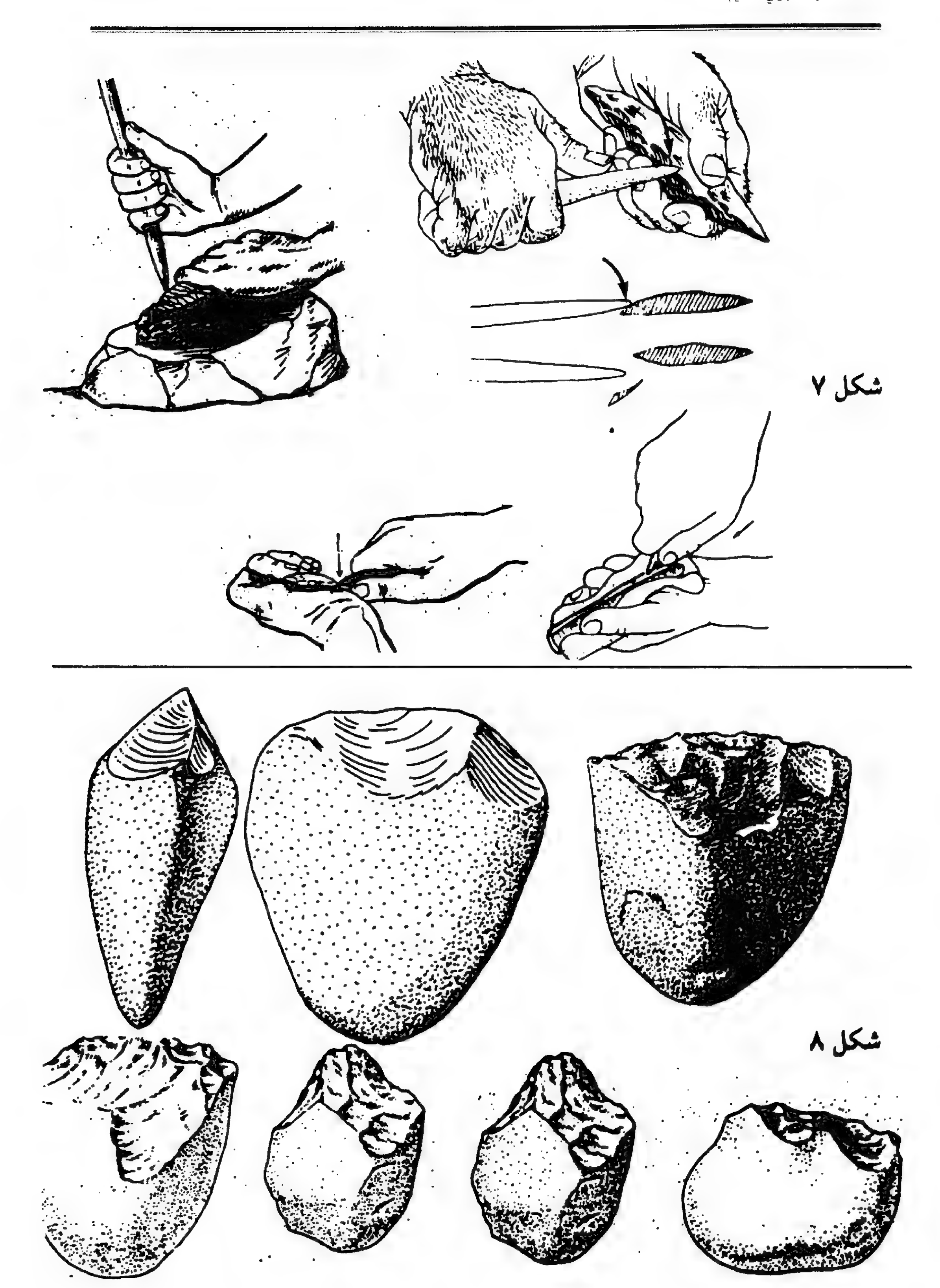


شكل ٤



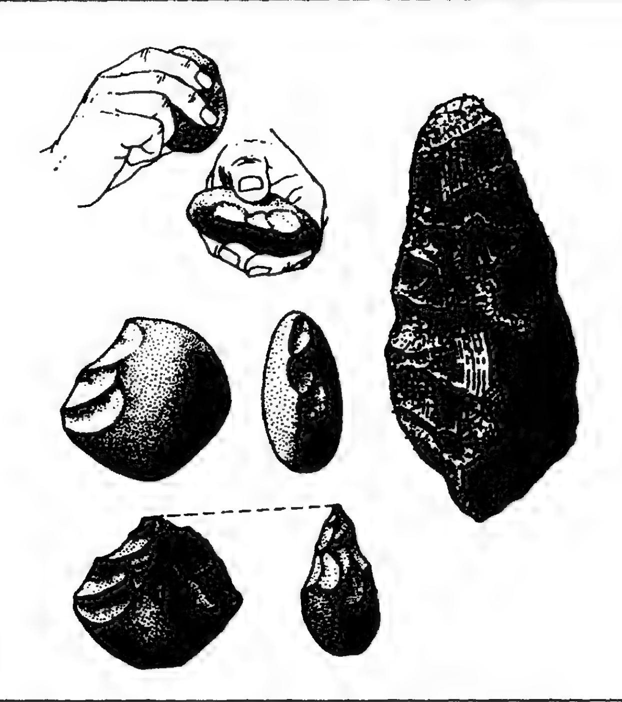
شكل ٥

شكل ٦

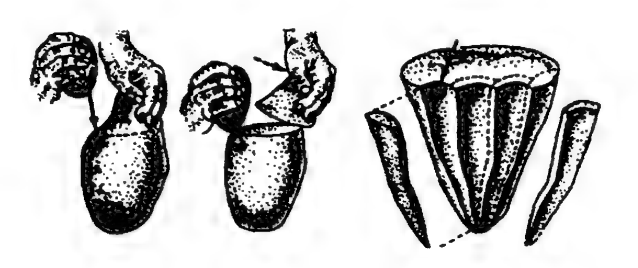


شكل ٧

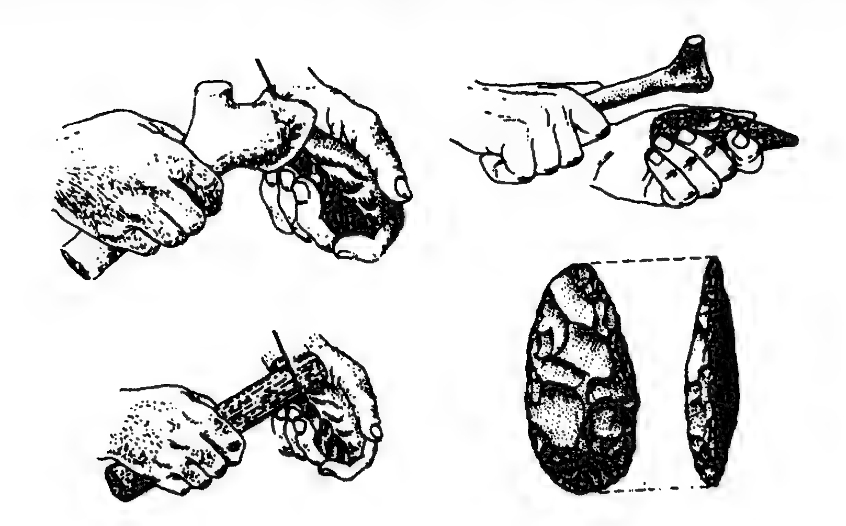
شكل ٨



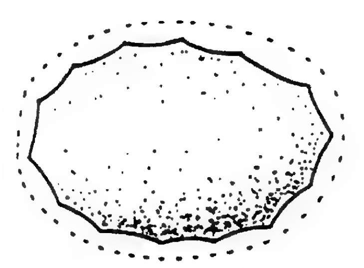
شكل ٩



شكل ١٠



شكل ١١



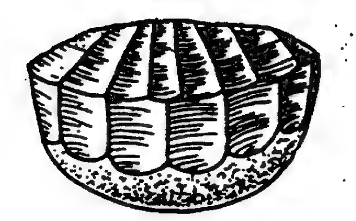
الخطوة الأولى
تقليم حواف العجرة



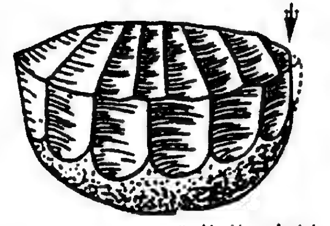
منظر جانبي للعجرة
بعدما قلمت حافاتها



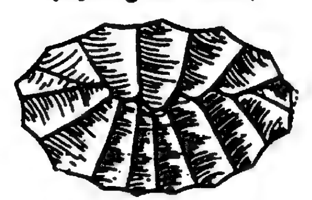
الخطوة الثانية
تقليم سطح العجرة



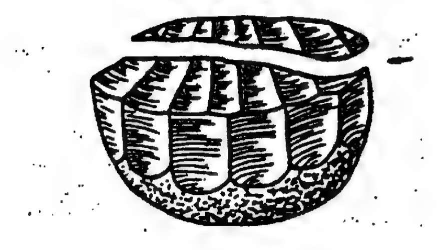
منظر جانبي للعجرة
بعدما اكتمل تقليمها



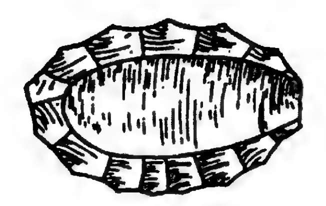
الخطوة الثالثة
تجهيز قاعدة الطرق (كما يشير السهم)



منظر رأسي للعجرة
مع قاعدة الطرق إلى اليمين

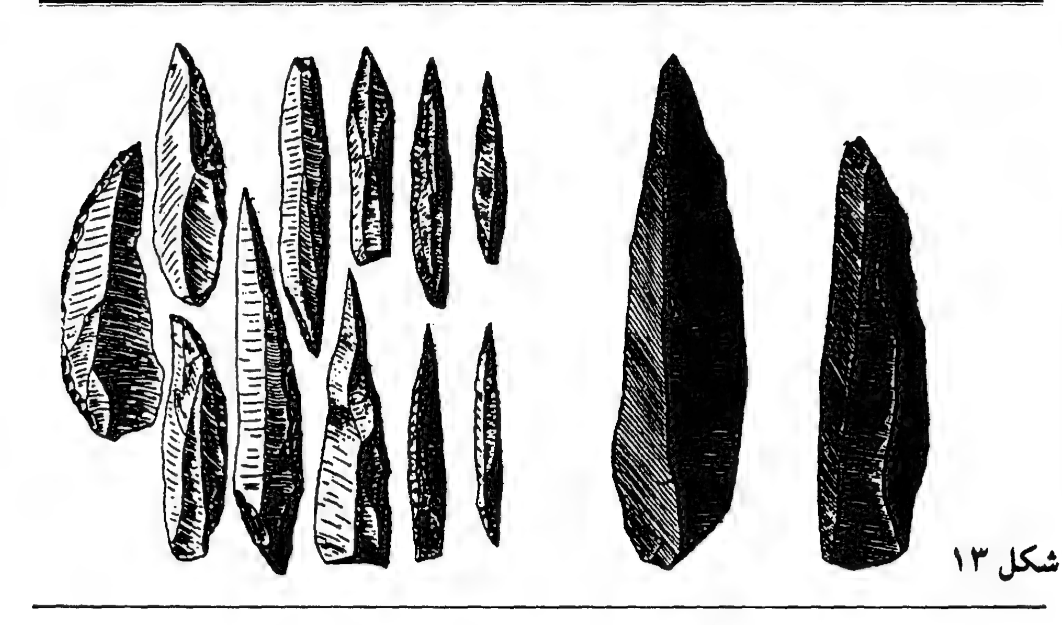


الخطوة الأخيرة
نزع الشظية من العجرة

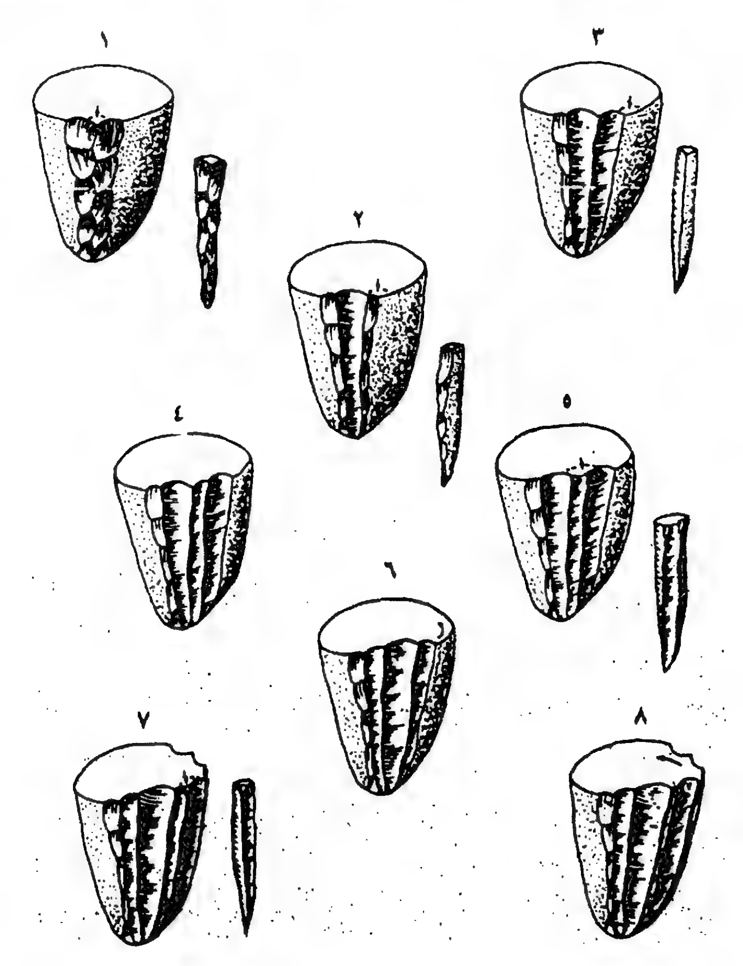


منظر رأسي للعجرة
بعد نزع الشظية

شكل ١٢ إعداد العجرة الصوانية على شكل صدفة السلحفاة لفصل الشظايا منها.



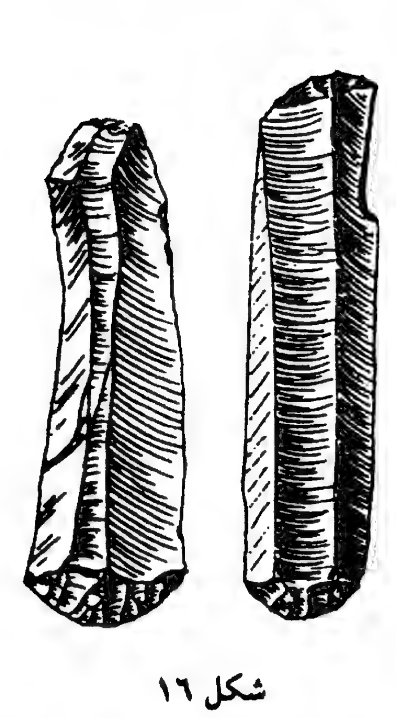
شكل ١٣



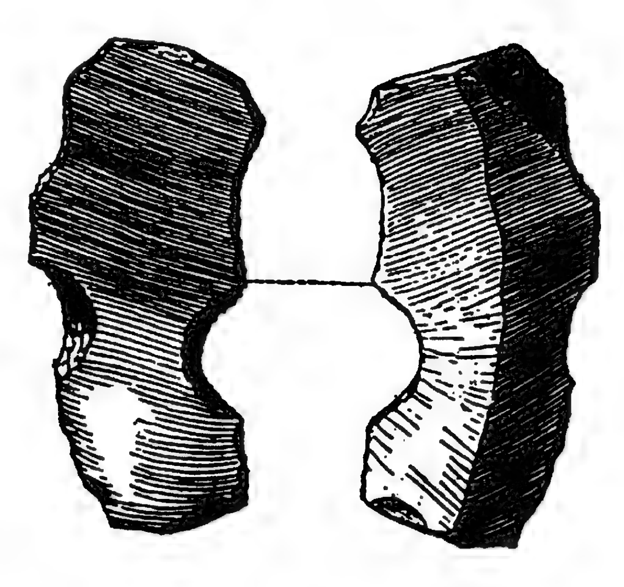
شكل ١٤

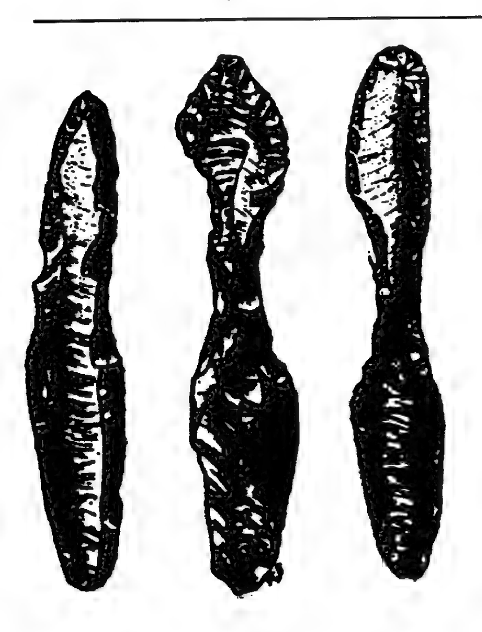


شكل ١٥

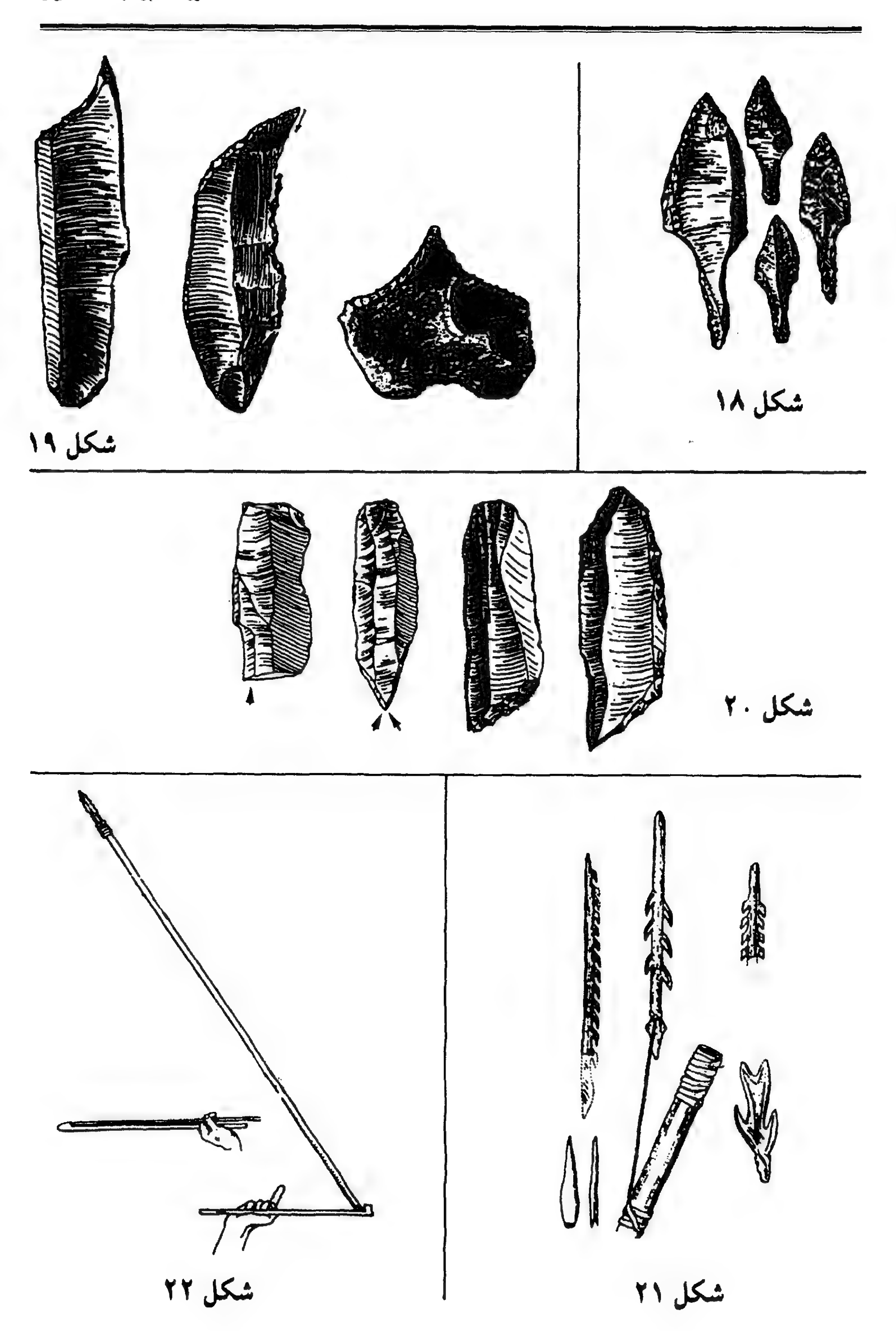


شكل ١٦





شكل ١٧



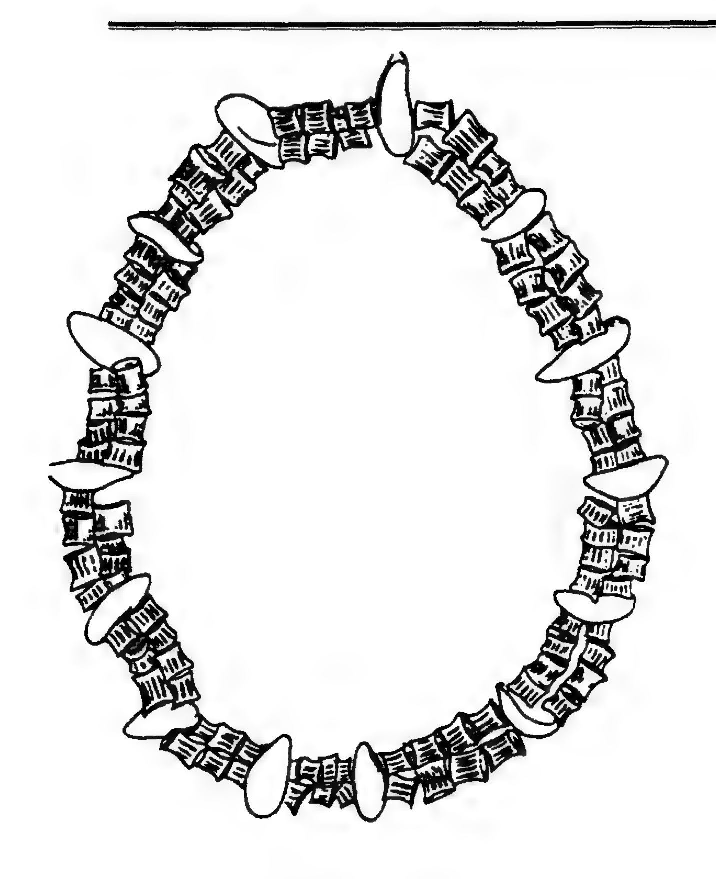
شكل ١٨

شكل ١٩

شكل ٢٠

شكل ٢١

شكل ٢٢

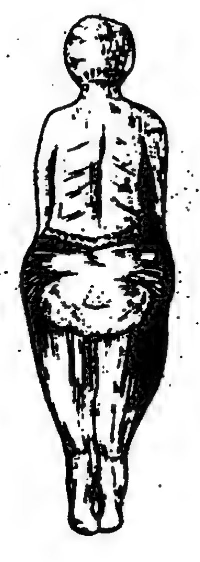


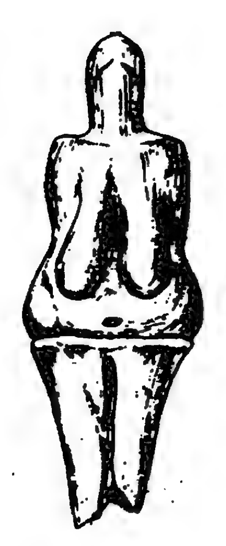
شكل ٢٥

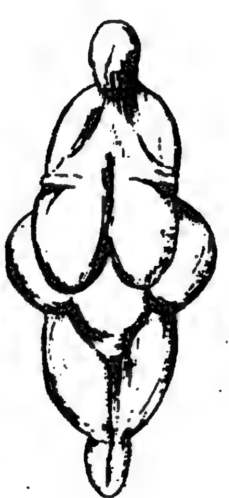


شكل ٢٣



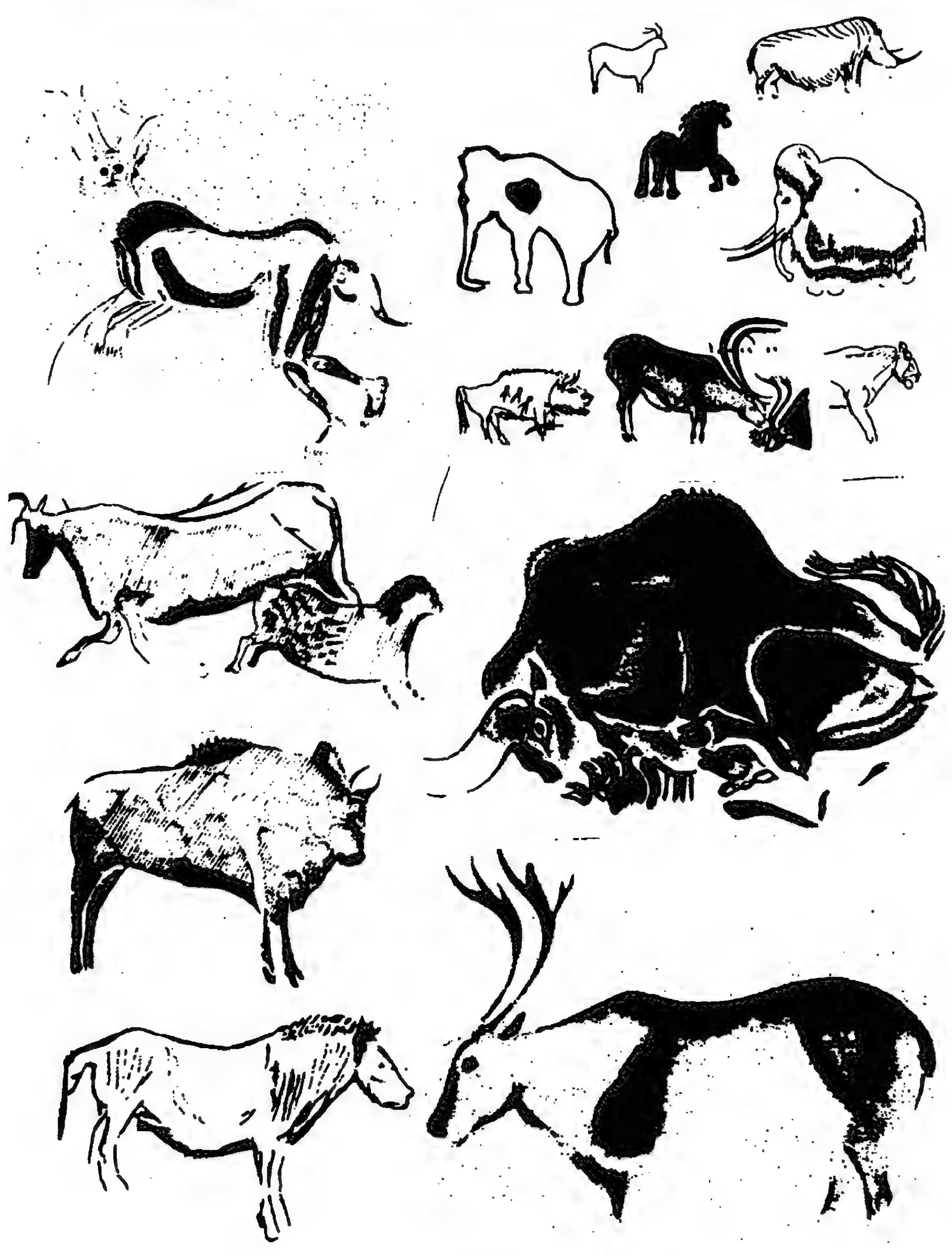








شكل ٢٤



شكل ٢٦

العصور، المجلد السادس، الجزء الأول، ٣٥ ـ ٤١ (١٩٩١م)

نقوش صفوية جديدة من شمالي المملكة العربية السعودية

للدكتور سليمان بن عبد الرحمن الذييب

ملخص البحث: **هذا البحث يناقش ثلاثة نقوش صفوية وجدت شمالي المملكة العربية السعودية. وقد تمت مناقشة أسماء الأعلام التي وردت في هذه النقوش وأعطي اهتمام خاص لمناقشة كلمة ن ج ع الموجودة في النقش الأول.**

تعتبر النقوش الصفوية من أكثر النقوش المنتشرة في منطقة شمال الجزيرة العربية [العراق ـ الأردن ـ سوريا ـ المملكة العربية السعودية][1] ويصعب تفسير كثرة النقوش الصفوية ولكن بما أنها تنحصر تقريباً في المنطقة المذكورة آنفاً والتي تقطنها قبائل عربية مختلفة كانت تستخدم الخط الصفوي مما أدى إلى توافر هذا العدد الضخم من هذه النقوش. فالنقوش الصفوية ـ والتي يعرِّفها الأنصاري في كتابه لمحات، ص ٨٩ «أن مثل هذه الخطوط الثمودية ـ الصفوية تعتبر في رأيي خط البادية أكثر منه خط المدن والمناطق المتحضرة»[2] ـ تنتمي إلى موقع لا إلى شعب بعينه حيث إن مصطلح Safathen أطلقه الأغريق على موقع يقع في الجنوب الشرقي من موقع دمشق حيث يكثر هنالك وجود النقوش الصفوية ثم قام دي فوجيه بتبني هذا المصطلح، وأطلق على

(١) يصل عدد النقوش الصفوية المنشورة حتى الآن إلى مايزيد على (٢٠٠٠) عشرين ألف نقش صفوي، ولمزيد من المعلومات أنظر: F. Winnett. *Safaitic Inscriptions from Jordan* (Toronto: University of Tornoto Press. 1957); W. Oxtoby. *Some Inscriptions of the Safaitic Bedouin* (New Haven: American Oriental Society. 1968). Vol.50: E. Littmann. *Semitic Inscriptions* (New York: Publications of an American. Archaeological Expedition to Syria 1899 - 1900. 1940). Part IV: E. Littmann. *Safaitic Inscriptions* (Leiden: Publication of the Princetion University Expeditions to Syria in 1904-1905 and 1909, 1943). Division IV, Section: F. Winnett and G. Harding. *Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns*, Near and Middle East Series 9. (Tornoto: University of Toronto Press. 1978); G. Harding. "Safaitic Inscriptions from Tapline. *ADAJ* 17 (1972). pp. 83-85; A. Jamme. *Safaitic Note* (Washington. 1970); Corpus. *Inscriptionum Semiticarum. Part V. Inscriptions Saracenicae*, Vol. I (Paris: Imprimerie Nationale, 1950); ولمزيد من المراجع انظر محمود الروسان، **القبائل الثمودية والصفوية: دراسة مقارنة** (الرياض: عمادة شئون المكتبات. جامعة الملك سعود ١٤٠٧هـ)، ص ص ٢١٢ ـ ٢١٤.

(٢) عبد الرحمن الأنصاري، **لمحات عن القبائل العربية البائدة** مطبوعات جمعية التاريخ والآثار، جامعة الرياض، (١٩٧٠)، ٤١. ويتفق معظم العلماء على أن مستخدمي الخط الصفوي هم البدو العرب، أنظر مثلاً Oxtoby, *Safaitic*, pp. 13-20 وقد عنون كتابه بـ «بعض النقوش البدوية الصفوية». وأنظر كذلك Winnett and Harding, p. 30, Littmann, *Semitic*, p. 106 وقد أطلق ونيت (أنظر Winnett, *Safaitic*, p.1) على مستخدمي هذا الخط «رجال القبائل العربية» (The Arab Tribes Men) وللتشابه الكبير في الظروف والعوامل والدوافع بين النقوش الثمودية والصفوية فنورد هنا رأياً غريباً لبيستون حول النقوش الثمودية المكتشفة في اليمن حيث يعتقد أنه المستعمل من قبل الطبقات الدنيا في المجتمع اليمني القديم وأن الخط «الأحرف» السبئي يستخدم من قبل الطبقات العليا في المجتمع ذاته (أنظر G. Harding, *Archaeology in the Aden Protectorates* (London, 1964), p.52.

مستخدمي هذا الخط الصفويين.[٣] ثم أصبحت هذه التسمية عربية تقليدية لاحقيقية.[٤] ومما يقوي رأي الأنصاري أن الموضوعات التي يتطرق إليها مستخدمي الخط الصفوي تغلب عليها الكتابات الشخصية، رغم وجود نقوش تحكي حوادث سياسية كان لها صلة بكاتب النقش.[٥] وقد عثر على كمية معقولة من هذه النقوش في شمالي المملكة العربية السعودية حيث قام بنشرها ودراستها F. Winnett[٦]، كما قام يوسف عبد الله بدراسة لمجموعة أخرى من النقوش الصفوية [عددها ١٢٣ نقشاً] وجدت في شمال المملكة العربية السعودية.[٧] كما أورد حمد الجاسر ثلاثة نقوش صفوية عثر عليها في بلدة النبك[٨]، وقام A. Jamme بدراسة ونشر ١٢ نقشاً صفوياً وجدت من قبل عمال شركة الزيت أرامكو.[٩] ثم اتبع ذلك بدراسة لأحد عشر نقشاً صفوياً قدمت له أيضاً من قبل الشركة نفسها.[١٠] وقد تمكن Jamme من القيام بزيارة لمدينة عرعر في شمالي المملكة العربية السعودية، حيث حصل على ٥٦ قطعة حجرية تحتوي على ٢١٦ نقشاً صفوياً ثم قام بدراستها.[١١] وقد قامت الإدارة العامة للآثار والمتاحف السعودية بايفاد بعثات خاصة للقيام بعملية مسح النقوش، كان حصيلتها جمع وتسجيل كمية كبيرة من النقوش في منطقة شمالي المملكة العربية السعودية.[١٢] وهذا الحجر الصغير ـ لوح؛

---

(٣) أنظر رينيه ديسو، **العرب في سوريا قبل الإسلام**، ترجمة عبد الحميد الدواخلي (بيروت، ١٩٨٥م)، ص ص ٢٦ـ٢٧، لكن من الأفضل استخدام «مستخدمي الخط المعروف بالصفوي» فالصفوية مصطلح يطلق على نوع الكتابة المعروفة الآن.

(٤) ومثل هذه التسميات التي لا تعتمد على دليل قوي كل ما تؤديه هو فقط خلف كيانات وتجمعات بشرية لا أساس لها وهو ما يقود إلى أن الوحدة الحضارية تتفتت فيما بين هذه التسميات، وهذه التسميات ما هي إلا محاولة لتجزئة الوحدة التاريخية لشعوب المنطقة والتي يجمعها رابط عرقي واحد. وهو ما يؤدي إلى التساؤل المطروح هل هناك فوارق جوهرية وأساسية بين هذه الشعوب «صفوية، ثمودية» أو (معينية، قتبانية، سبئية) وغيرها ؟ هي في الواقع تقسيمات خُلقت، وفي حالة الصفويين فليوسف عبد الله (أنظر **النقوش الصفوية في مجموعة جامعة الرياض عام ١٩٦٦م**، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت إلى دائرة اللغة العربية ولغات الشرق الأدنى، الجامعة الأمريكية ببيروت ١٩٧٠، ص٩٠) رأى نثبته على الرغم من غرابته فهو يعتقد بأن الصفويين ربما كانوا عاداً باعتماده على ثلاثة شواهد كما يقول [الأول أشير اليه في وجم وكون الوجم «صفة عاد» الثاني أشير اليه في هرجم وكون «أرجام عاد» تعني قبورهم، الثالث أشير اليه في بقع كرن «تبعة الجبل» فيها قبور لقوم عاد].

(٥) أنظر Winnett and Harding, p. 3 فليس بين هذه النقوش معلومات تتعرض للمسائل العامة مثل القوانين أو الحروب بين الدول كما هو حاصل في مثيلاتها من النقوش السامية الأخرى مثل الآرامي القديم أو النبطي أو السبئي ...الخ

(٦) أنظر (F. Winnett and W. Reed, *Ancient Records from North Arabia*, Near and Middle East Series (Toronto: University of Toronto Press, 1970)

وكان وينيت قد نشرها بعد أن صنفها كنقوش ثمودية ثم عاد وصنفها نقوش صفوية «أنظر الروسان، ص٢١٢».

(٧) يوسف عبد الله، ق١١٧، ق١١٨، ق١١٩ قدمها له حمد الجاسر وق ١٢٠، ق١٢١، ق١٢٢، ق١٢٣ من قبل وينت أما بقية النقوش فقدمت له من قبل جامعة الملك سعود (الرياض) وقد قام بتجميعها محمود الغول من مواقع العويص الشاظي وغدير بدينة شمالي المملكة العربية السعودية.

(٨) حمد الجاسر، **في شمال غرب الجزيرة** (الرياض: دار اليمامة للنشر والتوزيع، ١٣٩٠هـ)، ص ص ٦٣ـ٦٥. وقد قام بدراسة هذه النقوش الثلاثة يوسف عبد الله (أنظر الجاسر، هامش ص ٦٤).

(٩) A. Jamme, "Safaitic Inscriptions from Saudia Arabia," *Oriens, Antiquus* 612, 1967, pp. 189-213.

(١٠) A. Jamme, "New Safaitic and Hassaean Inscriptions from Northern Arabia", *Sumer* 1969. pp. 141-255

(١١) A. Jamme, "Safaitic Inscriptions from the Country of 'Ar'ar abd Ra' sal- 'Ananiyah", *Chritentum an Reten Meer I*, 1971, pp.41-109.

ولمعرفة قصة هذه النقوش أنظر المصدر المذكور ص ٤٣.

(١٢) نقوش نبطية، لحيانية، ثمودية ونقوش عربية كوفية. وقد تم تصنيف النقوش الشمالية نقوش ثمودية، لكن يبدو انه لصعوبة التفريق بين الثمودي والصفوي ولعدم وجود الخبرة الكافية بين البعثات التي قامت بالمسح فمما لاشك فيه أن بعض هذه النقوش قد كُتب بالخط الصفوي إذا أخذنا بعين الاعتبار أن منطقة شمالي المملكة العربية السعودية ما هي إلا امتداد جغرافي طبيعي وحضاري لمنطقة شمال الجزيرة، ولمعرفة أماكن هذه النقوش (انظر مايكل جيلمور، محمد البراهيم وعبد الجواد مراد، «برنامج المسح الأثري الشامل: تقرير مبدئي عن مسح المنطقتين الشمالية الغربية والشمالية،» **الأطلال** ٦، (١٩٨٢م)، ص ص ١٩ـ٢١)، ←

رقم١ ـ ذو الأبعاد ٨سم طولاً و٥سم عرضاً يحتوي على ثلاثة نقوش صفوية وقد وجد من قبل أحد المواطنين المحليين [في منطقة شمالي المملكة[١٣]]، اثنين من النقوش كتبا بطريقة حلزونية «ق ٢ ـ ٣» أما «ق١» فقد كتب على شكل مستقيم عدا الثلاث الأحرف الأخيرة فقد اتجهت قليلاً إلى اليمين.

النقش رقم (١)

النص: ل أ س ل هـ ب ن ز ب د ب ن ع ب د و ن ج ع

الترجمة: أوس الاله بن زبد بن عبد واستراح «لراحة»

التعليق: كتب هذا النقش بعناية واضحة ولهذا فلا يبدو هناك أي شك في قراءته.

أوس ل هـ: اسم مركب يعني «هبة الله» مسبوقاً بحرف الجر **ل** والتي فسرت من قبل بعض العلماء المختصين على أنها تعني بواسطة [by][١٤] كما فسرت بمعنى «من»[١٥]، ويتفق الأنصاري مع الرأي الذي طرحه يوسف عبد الله بأن التفسير المحتمل لهذا الحرف هو [ل] الملكية[١٦] واسم العلم **أ س ل هـ** مركب من كلمة أوس هو، «عطية ـ هبه»[١٧] والعنصر الثاني **ل هـ** وهي اختصار للإله والمعروف أن **أ ل هـ** مع الألف هي الأكثر شيوعاً لكن في بعض النقوش يُسقط لسبب أو لآخر حرف الألف كما يحصل في بعض النقوش السامية الأخرى.[١٨] والاسم ظهر في النقوش الصفوية الأخرى.[١٩]

ز ب د: اسم العلم الثاني والمسبوق بالاسم **ب ن** كلمة دلالة على النسب، وهو مختصر بمعنى «عطية [الإله]» والتفسير المقبول هو أن الاسم قد اشتق من الجذر السامي **ز ب د** والذي ظهر في كلمة من التوراة العبرية זָבַד[٢٠] والسريانية ܙܒܕ[٢١] وقد وردت كاسم في النقوش السبئية بمعنى «عطية»[٢٢] كما عرفت زَبْد كذلك في اللغة العربية[٢٣] والاسم **ز ب د** ظهر

ـ وأيستر لفنجستون، محمد البراهيم، بشير السباعي ومحمود كمال، «مجسات حديثة ونصوص منقوشة جديدة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م»، **الأطلال** ٧ (١٩٨٣م)، ص ص ٩٣ـ٩٤؛ أيستر لفنجستون، مجيد خان، عبد الرحمن الزهراني، محمد السلوك و سليمان الشامان، «حصر وتسجيل النقوش الصخرية ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م»، **الأطلال** ٩ (١٩٨٥م)، ص ص ٢٧ ـ ١٤٥.

(١٣) والذي بدوره قدمه مشكوراً إلى كلية الآداب، جامعة الملك سعود، وقد أتاح فرصة دراسة هذه النقوش الثلاث مشكوراً سعادة أستاذي الفاضل الدكتور: عبد الرحمن الطيب الأنصاري عميد كلية الآداب. كما وأقدم له شكري وتقديري العميقين على قراءته لهذا البحث والاضافات التي اقترحها.

(١٤) Winnett and Harding, No.2; Winnett, *Safaitic*, No.54; Littmann, *Safaitic*, No.4: 9; Oxtoby, *Safaitic*, No.:9.

(١٥) انظر الروسان، ص ٢٥١.

(١٦) يوسف عبد الله، ق:٨، ق:٩، ولصبري العبادي تفسير آخر لحرف (ل) فهو يرى انه حرف الجر «إلى» (انظر صبري العبادي، كتابات صفوية من جبل قرمة) **دراسات** ١، (١٩٨٧م)، ص ١٣٣.

(١٧) ابن منظور، ابن الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب** (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦م)، ص١٧.

(١٨) مثلا في النقوش النبطية **ت ي م ل هـ ي** (انظر F. al- Khraysheh, *Die Personennamen in den Nabatäischen Inschriften des Corpus Inscriptionum Semiticarum* (Marbürg Irbid: 1986), p. 188;

وفي النقوش الحضرية **ت ي م ل ت** انظر S. al- Abbadi, *Die Personennamen der Inschriften aus Hatra* (Zurich: George Olms Verlag, 1983), p. 173.

(١٩) G. Harding, *An Index and Concordance of Pre- Islamic Arabian Names and Inscriptidons,* Near and Middle East Series (Toronto: University of Tornoto Press, 1971), p. 85; Winnett and Harding, Nos. 2352, 3501.

(٢٠) F. Brown, S. Driver and C. Briggs, *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament* (Oxford: Clarendon Press, 1976), p. 256.

(٢١) L. Costaz, *Dictionnaire Syriaque, Francais* (Beirut: Imprimerie Catholique, 1963), p. 83

(٢٢) A. Beeston, M. Ghul, W. Muller and J. Ryckmans, *Sabaic Dictionary* (Louvain. La. Neuve: Publication of Sanaa, YAR, 1982), p. 170.

(٢٣) ابن منظور، **لسان** ١٩٢٣م؛ ابي بكر محمد بن الحسن بن دريد، **الاشتقاق**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مؤسسة الخانجي بمصر، ١٣٧٨هـ)، ص ٣٨٦.

بشكـل جيـد في النقـوش الصفـويـة الأخرى[٢٤] ووجد الاسم مؤنثاً [زُبَيدة] أيضاً لدى العرب.[٢٥]

ع ب د: اسم علم مختصر يعني «خادم [الاله]» قد ظهر بشكل غزير (أكثر من ٢٢٨ مرة) في النقوش الصفوية[٢٦] كما عرف هذا الاسم في المصادر العربية.[٢٧]

ن ج ع: وهو فعل مسبوق هنا بحرف العطف الواو وأحيانـاً يسبق هذا الفعـل في النقوش الصفوية بالفاء السببية **ف ن ج ع**[٢٨]، وقـد ورد مسبـوقـاً بحرف العطف الواو **و ن ج ع**[٢٩]، ولم يتفق العلمـاء حتى الآن على إعـطاء تفسـير أو معنى معين وواضــح لكلمــة **ن ج ع**، فمـرة تفسـر «تشوق لـ» «longed for»[٣٠] ومره «اكتئاب، استياء، حزن» «toach; sorrow»[٣١] وأخرى فسـرت «البحـث عـن الكـلأ والعـشـب» «to seek for pasturage» أو «لتغذي الجمال ماءً وطحيناً» «to feed the camels water and flour»[٣٢]، وقـد فسرهـا يوسف عبد الله بقوله: «أن نجع فعل عربي معروف ومعناه: طلب الكلأ في موضعـه»[٣٣] وبـذلك تكـون ترجمة هذا النقش «أوس الإله بن زبد بن عبد وطلب الكلأ». لكن بمقارنة **ن ج ع**[٣٤] بالفعل الذي ورد في السريانية» ܢܓܥ قعد، استراح استقر»[٣٥] من المحتمل أن تكون الترجمة الأكثر قبولاً «أوس الإله بن زبد بن عبد، واستراح/ طاب له المقام» لكننا يجب أن نقر هنا أن من الصعوبة ترجيح رأي على الآخر، خصوصاً وأن **ن ج ع** في سيـاق النقـوش الصفــويـة تحتمـل جميـع هــذه التفسيرات.[٣٦]

---

(٢٤) Harding. *Index*. p.264; Winnett and Harding. Nos. 59, 142
وقد ورد الاسم في النقوش السريانية ز ب د (أنظر Costaz, p.407) التدمرية أنظر J. Stark, *Personal Names in Palmyrene Inscriptions* (Oxford: Clarendon Press, 1971), p. 75.
وفي الثمودية والسبئية (أنظر Harding, *Index*, p. 103) وفي النبطية أنظر J. Cantineau, *Le Nabateen* (Paris: Librairie Evnest Leroux, 1930), p.91.

(٢٥) ابن دريـد، ص٤٢٤؛ ابي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، **الإكليل . من أخبار اليمن وانساب حمير، الكتاب العاشر في معارف همدان وانسابها وعيون أخبارها** (بيروت: الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ)، ص ٧٦.

(٢٦) يوسف عبد الله، ق١٢، ق١١٢، Harding, *Index*, pp. 396 - 397

(٢٧) ابن دريـد، ص١٥٥؛ والاسم منتشر بشكـل غزيـر في النقوش السامية الأخرى انظر مثلا
M. Maraqten, *Die semitischen Personemamen in den - Undrei - Chsaramäischen Inschriften aus Vorderasien* (Zurich: George Olms Verlag, 1988), p. 191

(٢٨) Littmann, *Safaitic*, No. 578

(٢٩) Littmann, *Safaitic*, No. 579

(٣٠) Littmann. *Safaitic*, No. 259, 306

(٣١) Winnett and Harding, Nos: 172, 239,
ويتفق بذلك مع الراي الخاص بنولدكية (أنظر فقرة رقم ٣٤).

(٣٢) Littmann, *Safaitic*, p.160 جام له راي مماثل حيث يرى أن معنى **ن ج ع** التي وردت في إحدى النقوش الصفوية الواردة في CIS, No. 4717 هو «العشب والكلأ» (أنظر Jamme, *Safitic*, p.66)

(٣٣) يوسف عبد الله، ص ٨١.

(٣٤) حيث يرى ليتمان أن **ن ج ع** هو صيغة أنفعل من فعل جاع. أنجـاع «تشوق»، وهو يعارض الرأي المطروح من نولدكية بأن **ن ج ع** هي «وجع» وذلك لورود كلمة **ت ر ح** والتي تعني «الحزن والأسى» أنظر E. Littmann, *Thamud und Safa: Studien zur Altnor' dar' abisbischen Inschiften Kunde* (Leipzig.:Deutsche Morgen- ländische Gesellschaft 1940). p.113
أشكر الدكتور خالد الناشف من جامعة الملك سعود الذي تفضل وتـرجم لي النص الألماني كما أحب وأن أضيف ان فعل **ن د م** «حزن» قد ورد أيضا في النقوش الصفوية (أنظر يوسف عبد الله، ق:٦٦)

(٣٥) Costaz, p. 197، ولمجرد المقارنات فقد ورد الفعل **ن ج ع** « ادرك، حسن، لمس » في النقـوش الآراميـة القديمـة « أنظـر J. Hofriyzer and. Ch. Jean, *Dictionnaire des Inscriptions Semitiques de l' Quest* (Leiden: E. J. Brill, 1965), p. 147. وفـي العبـرية التوراتية נָגַע «لمس ـ ضرب» «أنظر (Brown and others, *Lexicon*, p. 619)
ونجع مازالت تستخدم حتى الآن كتعريف ذات خصوبة، ولمزيد من المترادفات حول فعل نجع «أنظر ابن منظور، **لسان**، ٨، ص ٤٧».

(٣٦) فمثـلاً النقش رقم ٤٢ الذي أورده ليتمـان ترد كلمـة **ن ج ع** ويصعب تفسيرها غير اشتياق. النص هو [ل ن ص د /ب ن/ م ض ي ر/ و ن هـ ج م/ ع ل/ هـ ح ب ب] والتـرجـمـة [بواسطة نصر بن نصير وذرف الدموع واشتاق لحبيبته]

النقش رقم (٢)

النص: ل ع ق ر ب ب ن ج دم ت

الترجمة: عَقْربُ بن جَذِيمة.

التعليق: يقرأ هذا النص من اليمين الى اليسار.

ع ق رب : اسم علم عرف في النقوش الصفوية الأخرى(٣٧) ، وهو من العَقْرَب: واحدة العقارب من الهوام يكون للذكر والأنثى بلفظ واحد. والعقرب: برج من بروج السماء. وعَقْرَب اسم رجل ظهر في المصادر العربية.(٣٨)

ج ذ م ت : يمكن قراءته ج ح م ت أو ج د م ت لتشابه في شكل الحاء والدال.(٣٩) وكلا القراءتين مقبولتان ولا تؤثران في النص ولكنهما وردتا فقط مرة واحدة في النقوش اللحيانية(٤٠) والمصادر العربية تذكر جُذَيمَةَ بن مالك الأبرش الذي قتلته الزباء.(٤١) ولتفسير معنى هذا الاسم هناك احتمالان إما أنه اشتق من الفعل جَذْم «قطع» بمعنى «قاطع للأمور فيْصل».(٤٢) الاحتمال الآخر أن يكون للاسم علاقة بقبيلة جَذِمة(٤٣) ، وفي هذه الحالة تصبح ب ن هنا بمعنى «من» أي من قبيلة خذيمة إلّا أن هذا التوجه لـ «بن» لم يرد في مثل هذه النقوش لايرادهم أصل و ذو ال للدلالة على الارتباط بالقبيلة أو العشيرة لذا فالاحتمال الآخر يصبح مستبعداً.

النقش رقم (٣)

النص: ل ع ب د و د ب ن خ ل ف ب ن س ف ر ب ن ز د ت

الترجمة: عَبْدود بن خَلْفُ بن سَفْرُ بن زدت [زيد].

التعليق : لا يحتوي هذا النقش إلّا على أسماء أعلام.

ع ب د و د : يقرأ الاسم على ثلاثة احتمالات، فالحرف الرابع يمكن قراءته جيماً، أو عيناً أو واواً(٤٤) والأخير يعتبر أكثر القراءات قبولًا لأنه لو كان حرف عين لأعطاه نفس حجم حرف العين السابق له لكنه كبره قصداً لكي لا يختلط بشكل حرف العين لذا فهو يقرأ واواً. لهذا فالاسم يقرأ **ع ب د و د** وهو اسم مركب من **ع ب د** «خادم» والإله **ود** ويعني «خادم ود» وقد عرف الإله وَدّ كصنم كان لقوم نوح وقد عُرف لدى المعينين كما ذكر في القرآن الكريم(٤٥) والاسم معروف في النقوش اللحيانية، السبئية والمعينية.(٤٦)

خ ل ف: رغم أن الحرف الثاني يحتمل قراءته إما لام أو نون(٤٧)، إلّا أن احتمال قراءته لاماً

---

(٣٧) Winnett and Harding, Nos. 175, 243; Harding, *Index*, p. 427 يوسف عبد الله، ق: ٤١:٥٥

(٣٨) انظر ابن دريد، ص ٥٤١؛ ابن منظور، لسان، ١، ص ٦٢٥.

(٣٩) الروسان، ص ٢٣٩.

(٤٠) Harding, *Index*, p. 154, 157

(٤١) ولمزيد من المعلومات حول ذلك انظر القلقشندي، ابن العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله، **نهاية الارب في معرفة انساب العرب** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ)، ص ص ٣٥٠ - ٣٥١؛ ابن دريد، ص ٤٩٧ واسم العلم ج ذ ي م ت ظهر ايضا في النقوش النبطية (انظر Cantineau, p. 77)

(٤٢) ابن منظور، **لسان**، ١٢، ص ٨٦.

(٤٣) عمر رضا كحالة، **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ)، ص ١٧٦؛ علي بن أحمد سعيد بن حزم الأندلسي، **جمهرة انساب العرب** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ)، ص ص ٤٤١ - ٤٤٣.

(٤٤) Winnett and Harding, p. 10 لهذا فهو يقرأ ع ب د ج د أو ع ب د ع د وكلا الاسمين ظهرا في النقوش العربية القديمة انظر (Harding, *Index*, p. 398, 401)

(٤٥) القرآن الكريم، سورة نوح آية ٢٣.

(٤٦) Harding, *Index*, p 40

(٤٧) الروسان، ص ٢٣٦، Winnett and Harding, p.10

أكثر قبولاً لأن طريقة كتابة النون واضحة في نفس النص وهي عبارة عن نقطة صغيرة، لهذا يقرأ **خ ل ف** اسم علم من كلمة واحدة عُرف في النقوش الصفوية الأخرى[٤٨] والاسم خَلَفُ معروف في المصادر العربية.[٤٩] ولا يزال مستخدماً حتى الآن بيننا ويعود الى الخَلَفُ الصالح والخَلْفُ السؤ.[٥٠]

س ف ر: وهو اسم علم يقرأ على احتمالين إما **س ف ر** أو **س ف ب**[٥١] والاسم الأول يعتبر أكثر قبولاً طالما أن هناك اسم تشابه قد ظهر في النقوش الصفوية **س ف ر م**[٥٢] والميم هنا إما أن تكون للتمييم او لتحلية ويرى البعض أنها عوضاً عن التنوين في الاسم المفرد. سافرٌ اسم علم ورد في المصادر العربية ولا يزال الاسم سفر مستخدم حتى الآن بيننا وهو ربما يكون من الفعل سَفَرَ الصبح. أَسْفَرَ: أضاء. وسَفَرَ وجهه حسناً وأسْفُر: أشرق.[٥٣]

ز د ت: **يقرأ بكل سهولة ز د ت [زيد]. أحد الظواهر اللغوية المعروفة هي ظاهرة الإدغام** وذلك بحذف من وسط الكلمة مثل الياء، أو الواو أو النون[٥٤]، لذلك فالأصل في هذا الاسم هو **ز ي د ت** لكن حذفت الياء والاسم **ز د ت** معروف في النقوش الصفوية الأخرى[٥٥] وهو اسم مختصر يعني، «زيادة من [الاله]»، والنهاية المؤنثة [التاء] في الأسماء المذكرة تظهر بشكل كبير.[٥٦] زَيْدُ، يزيد أسماء أعلام ما زالت منتشرة ومعروفة بين الأسماء العربية والتي اشتقت من المصدر زاد الشيء يزيد زيداً.[٥٧]

---

(٤٨) يوسف عبد الله، ق: ٣٠، ق: ٥٢، Harding. *Index*. p.227

(٤٩) الهمداني، ص ٣٩.

(٥٠) ابن دريد، ص ٢١٥

(٥١) وذلك لتشابه في شكل الحرفين «الباء، الراء» في النقوش الصفوية (أنظر الروسان، ص ٢٣٦)

(٥٢) Harding. *Index*. p.321

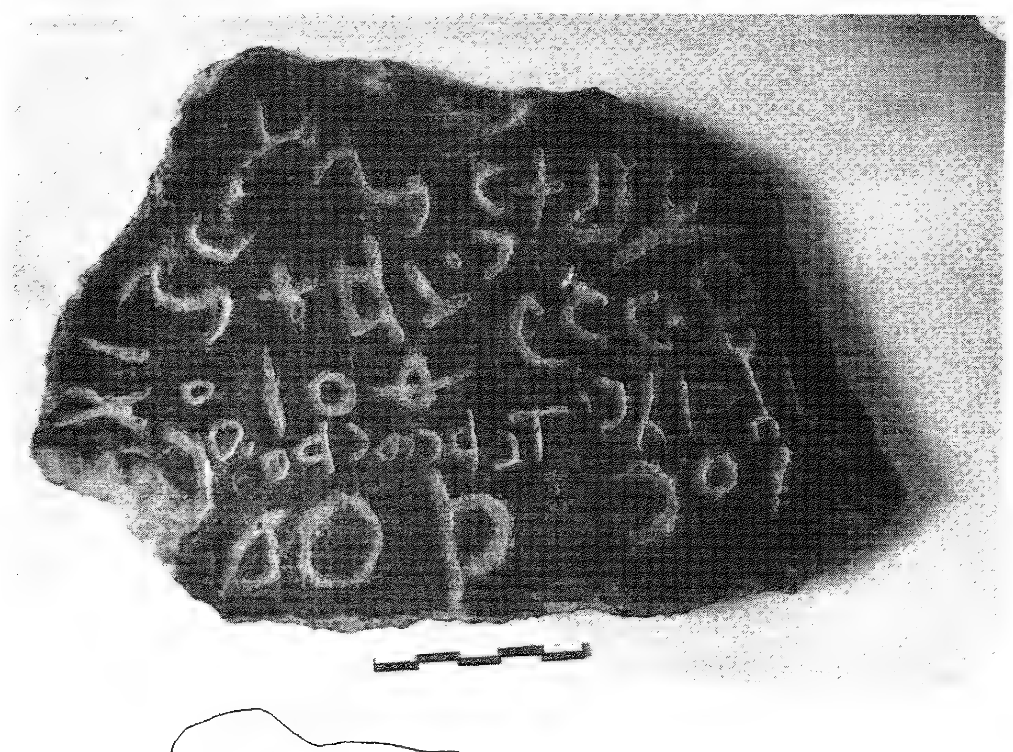
(٥٣) ابن منظور، **لسان**، ٤، ص ٣٦٩: كما أن هنالك عوامل ودوافع وراء تسمية المولود فمثلاً يسمى حسب الحوادث التي حدثت في أثناء الولادة أو بحسب حالة الأم النفسية حول هذا الموضوع (أنظر انو ليتمان، «محاضرات في اللغات السامية: أسماء الاعلام، **مجلة كلية الآداب جامعة الملك فؤاد** ١٠، ١٩٤٨م، ص ص ١ ـ ٦٥): وكذلك إلى عبود أحمد الخزرجي، **أسماؤنا** . **أسرارها ومعانيها** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٨م)، ص ص ٢٦ ـ ٢٧، لذلك بالنسبة للاسم الوارد في هذا النقش فيبدو أنه قد سمي سَفْرُ من سَفَرَ: أشرق فقد كان مشرق الوجه، عند ولاته والاحتمال الآخر أن الولادة قد حثت في أثناء سفر والدته من مكان إلى آخر

(٥٤) حول موضوع الظواهر اللغوية للنقوش الصفوية (أنظر الروسان، ص ص ٢٣٧ ـ ٢٥٠)

(٥٥) يوسف عبد الله، ق: ٦١، ق:٧٢، ق:٧٦ :Harding. *Index*. p. 296

(٥٦) ولمزيد حول مقارنات هذا الاسم بالأسماء السامية الأخرى (أنظر (S. al- Theeb. *A Comparative Study of Aramaic and Nabataean Inscriptions from North - West Saudi Arabia*. Durham University. Ph. D. thesis 1989. pp. 275 - 276.

(٥٧) ابن دريد، ص ٥٢٧.



س. ١٠ الذييب

صورة ورسم للنقوش الصفوية

العصور، المجلد السادس، الجزء الأول. ٤٣ ـ ٧٠ (١٩٩١م)

طرز الفلوس المضروبة بحمص
في القرنين الأول والثاني الهجريين

للدكتور رأفت محمد محمد النبراوي

ملخص البحث : **يقصد هذا البحث إلى إلقاء الضوء على طرز الفلوس التي ضربت بحمص منذ فتحها على يد المسلمين سنة ١٦هـ وحتى نهاية القرن الثاني الهجري ويبدأ البحث بمقدمة تاريخية مختصرة عن حمص في فترة البحث، يليها عرض لأسماء الباحثين الأجانب والعرب الذين اهتموا بفلوس حمص.**

وقد قسم الباحث هذه الفلوس إلى ثلاثة أقسام، يمثل كل قسم منها مرحلة تاريخية. يضم القسم الأول الفلوس العربية ذات التأثيرات البيزنطية وقسمها الباحث إلى طرازين أحدهما يحمل صورة الإمبراطور هرقل، والآخر عليه صورة الإمبراطور كونستانز الثاني. أما القسم الثاني فقد خصص للفلوس التي تحمل صورة الخليفة عبد الملك بن مروان وصنفها إلى ثلاث طرز. ويشتمل القسم الثالث على الفلوس العربية الإسلامية الخالصة الخالية من التأثيرات البيزنطية، وصنفها الباحث إلى طرز منشورة يبلغ عددها ستة وعشرين طرازاً، وطرز جديدة يصل عددها إلى ستة طرز توصل إليها الباحث وهي طرز لم يسبق نشرها أو نشر مثيل لها، وتمثل إضافات جديدة في علم النميات الإسلامية.

وقد تناول الباحث طرز فلوس كل قسم منها حسب التسلسل التاريخي موضحاً مميزات كل طرز منها على حدة، ووصفه وصفاً دقيقاً، ومبيناً أوجه الاختلاف بينه وبين غيره من الطرز، والإشارة إلى بعض النماذج التي نشرت منه، وكذلك النماذج التي ينشرها الباحث لأول مرة ولم يسبق نشرها. وقد توصل الباحث إلى كشف النقاب عن ست إضافات جديدة. كس قام بنشر سبعة نماذج لم يسبق نشرها وتنتمي إلى طرز القسم الثالث المنشورة.

إشكالية الدراسة وأهميتها

سنقوم في هذا البحث بإلقاء الضوء على طرز الفلوس التي ضربت بحمص منذ فتحها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وحتى أواخر القرن الثاني الهجري وعلى وجه التحديد خلال القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن للميلاد. وذلك في ضوء ما وصلنا من فلوس منشورة، وما نقوم بنشره من نماذج جديدة لم يسبق نشر مثيل لها من قبل.

وحمص بالكسر ثم السكون، والصاد المهملة : بلد مشهور قديم كبير مسور، يقع في منتصف المسافة بين دمشق وحلب، يذكَّر ويؤنث، بناه رجل يقال له حمص بن المهر بن جان بن مكنيف، وقيل : حمص بن مكنف العمليقي.[١]

(١) ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ)، **معجم البلدان** (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م)، جـ ٨، مجلد٢، ص ٣٠٢.

وعرف القدماء أهمية الموقع الجغرافي لحمص فأنشأوا فيه مدينة حمص وسموها في البداية «حامات صوبا» أو «حميصوبا» ثم دعاها اليونانيون اميسا Emessa ، وقيل أن هذه الكلمة آرامية بمعنى الأرض المنبسطة لوقوع حمص في مستوى من الأرض[٢] وكانت حمص تسمى قديماً ايمزا، اميزا، أو ايمسا Emessa , Emesa .[٣]

وفي العصر الإسلامي تم فتحها في سنة ١٦هـ / ٦٣٧م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عندما وصلت الجيوش العربية الإسلامية إليها تحت إمرة القائدين أبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد. وقد حاصرت تلك الجيوش حمص وفتحتها دون إراقة للدماء لأن أهلها فضلوا تسليم المدينة صلحاً، واستقبلوا الفاتحين المسلمين استقبالاً حسناً، ودفعوا لهم جزية بلغ مقدارها ١٧٠ر٠٠٠ دينار .[٤]

أما عن كيفية فتح المدينة فتتلخص في أنه حينما كان المسلمون على أبواب دمشق أقبلت خيل للعدو بأعداد كبيرة فتصدى لها جماعة من المسلمين في المسافة بين بيت لهيا والثنية وهزموهم وأجبروهم على الفرار نحو حمص على طريق قارا حتى وصلوا حمص، وكانوا في غاية الخوف والفزع بسبب هرب هرقل والتخلي عنهم فسلموا ما بأيديهم وطلبوا الأمان، فأمنهم المسلمون وأخرجوا لهم النزل فأقاموا على الارنط، وهو النهر المسمى بالعاصي، وكان على المسلمين السمط بن الأسود الكندي، فلما فرغ أبو عبيدة من فتح دمشق عين عليها يزيد بن أبي سفيان، ثم وصل إلى حمص عن طريق بعلبك فنزل بباب الرستن، فصالحه أهل حمص على طلب الأمان لأنفسهم ولأموالهم، وسوَّر مدينتهم وكنائسهم وأرجاءهم، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد. واشترط دفع الجزية على من أقام منهم. وقيل : إن السمط صالحهم فلما قدم أبوعبيدة أمضى الصلح، وإن السمط قسم حمص خططا بين المسلمين وسكنوها في كل موضع جلا أهله أو ساحة متروكة.[٥]

وبعد الفتح استقرت في حمص القبائل العربية اليمنية مثل طيء وحجر وكلب وهمدان، وفيها دفن القائد العربي الكبير خالد بن الوليد، وقد قيل إنه كان يتردد عليها يزيد بن معاوية حينما كان يكثر الإقامة في حوارين وإن ابنه خالدا (خالد بن يزيد بن معاوية) شيد في غربها قصراً وأنه هو المدفون بها[٦] فبعد إتمام فتح حمص انتقل إليها عدد كبير من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام بلغوا حوالى خمسمائة شخص كان منهم معاذ بن جبل بن عمرو ، وخالد بن الوليد، وعياض بن غنيم بن زهير ، وعوض بن مالك الأسمعي، وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمير بن سعد بن عبيدة، وابو المغيرة الحمصي، وعلى بن غياث الحمص، وغيرهم.[٧]

وفي أعقاب الفتح العربي لبلاد الشام قسمها الخليفة عمر بن الخطاب إلى أربعة أجناد[٨] متفرقة في

---

(٢) أحمد وصفي زكريا، **جولة اثرية في بعض البلاد الشامية**، ط٢ (دمشق: دار الفكر ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م)، ص ٣١٦.

(٣) سليم عادل عبد الحق، «بحث موجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها»، **مجلة الحوليات السورية**، مجلد ١٠ (دمشق، ١٩٦٠م)، ص ٥: محمد ماجد الموصلي، **الموجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها** (حمص. مطبعة الروضة النموذجية، ١٩٨٤)، ص ١٦.

(٤) البلاذرى، ابو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ)، **فتوح البلدان**، القسم الأول، نشره ووضع ملاحقة وفهارسه، د. صلاح الدين المنجد (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦م)، ص ١٥٣: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مجـ٢، ص ٣٠٢؛ الطبرى، ابي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ)، **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢م)، جـ٣، ص ص ٥٥٩ ـ ٦٠١؛ الموصلي، **الموجز** ، ص ٣٧، ٣٨.

(٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، القسم الأول، ص ١٥٥؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ ٨، مجلد٢، ص ٣٠٢،٣٠٣؛ زكريا، **جولة اثرية**، ص ٣١٩، ٣٢٠، ولمزيد من التفاصيل عن فتح حمص، أنظر : محمد كرد علي، **خطط الشام** (بيروت، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م)، جـ ١، ص ص ٨٧ ـ ٨٨.

(٦) عبد الحق، «تاريخ مدينة حمص»، ص ٢٠.

(٧) الموصلي، **الموجز** ، ص ٣٨.

(٨) الجُنْد الأعوان والأنصار والجند العسكر والجمع اجناد. وجند مُجند: مجموع، وكل صنف على صفة من الخلق جنده على جده. ←

أيدي عماله وهم أبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص. وهذه الأجناد وهي جند دمشق، إلى شماليه جند حمص، وإلى جنوبيه الغربي جند الأردن، وإلى غربي جند الأردن يقع جند فلسطين.[٩] وكان جند حمص يشتمل في بادىء الأمر على جميع أراضي شمال سوريا. وفي عهد يزيد بن معاوية انفصلت عنها أراضي قنسرين وأصبحت جنداً جديداً، غير أن الحدود لم تحدد بوضوح بين كل من جند حمص وجند قنسرين. وكثيراً ما اختلفت المراجع التاريخية في نسبة بعض البلاد إلى كل منهما كمعرة النعمان، ومهما يكن من شيء فإن جند حمص كان يمتد شمالاً حتى القرشية الواقعة على طريق اللاذقية، ويضم المدن الداخلية التالية: افاميا، وحماه، وشيزر، والسلمية، والرستن، واللاذقية، وجبلة، وبانياس، وطرطوس، وغيرها. وتقف حدوده الجنوبية عند بحيرة حمص. أما حدوده الشرقية فقد كانت وراء الفرقلس، والفرنيين وتدمر التابعة له.[١٠]

وفي عهد عمر بن الخطاب تولى حكم حمص سعيد بن عامر سنة ١٦هـ /٦٣٧م وظل يحكمها إلى سنة ٢٦هـ /٦٤٧م.[١١]

وفي العصر الأموي تبوأت حمص مكانة مرموقة حينما أصبحت بعد استيلاء معاوية بن أبي سفيان عليها عاصمة لأحد الأقاليم الخمسة التي تألفت منها بلاد الشام. وفي عهد معاوية تولى حكم حمص شرحبيل الذي كان أحد صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم الذين استقروا في حمص بعد الفتح الإسلامي لبلاد الشام.[١٢] وبعد وفاة يزيد بن معاوية تولى حكم حمص النعمان بن بشير الأنصاري سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م[١٣]، ولكن سرعان ماوثب أهل حمص عليه لأنه كان من أنصار عبد الله بن الزبير وقتلوه قرب حماه.[١٤] وهناك رأي يرجح انتقال حكم حمص في تلك الفترة إلى خالد بن يزيد الذي بنى له قصراً وتوفي بها.[١٥] هذا ولم تصلنا أخبار مهمة عن حمص بعد عهد خالد لأن الخلفاء الأمويين كهشام بن عبد الملك ومن جاء بعده اهتموا ببناء القصور في صحراء الشام كالرصافة والحير الشرقي والحير الغربي وقصر المشتى وغيرها من القصور.[١٦]

وبعد وفاة يزيد الثالث سنة ١٢٦هـ / ٧٤٤م حدثت نزاعات داخلية تركزت حول رفض تولية مروان ابن محمد عرش الخلافة الأموية وتزعم المعارضة ضد مروان، سليمان بن هشام وعاونه في ذلك عشائر بني كلب الذين كانوا يقيمون بحمص وماجاورها. غير أن مروان بن محمد استطاع بمساعدة القيسيين هزيمة سليمان سنة ١٢٧هـ / ٧٤٥م. والتجأ إلى حمص مؤقتاً ثم فر بعد ذلك إلى الكوفة. وظلت حمص فترة قصيرة مستعصية على مروان إلى أن دخلها. وقام في سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م بتقوية أسوار حمص وتعليتها لكي يأمن جانب أهل حمص التي كان يعسكر فيها حوالى عشرين ألف يمني خوفاً من

← ابن منظور، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب المحيط**. إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلي (بيروت: دار لسان العرب، د.ت)، المجلد الأول، ص ٥١٢. والجُند بالضم ثم السكون، وأجناد الشام جمع جُند وهي خمسة والتجند: التجمع، وجندت جندا اي جمعت جمع ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مجلد ١، ص ١٠٣. وبخصوص كلمة الأجناد يمكن الرجوع إلى: أمين محمود عبد الله، «الجغرافية الإدارية للدولة الإسلامية من الفتح العربي إلى القرن الرابع الهجري». **مجلة الدارة** العدد الثالث، السنة الرابعة (ربيع الثاني ١٤٠٢هـ / فبراير ١٩٨٢م)، ص ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٩) عبد الله، «الجغرافية الإدارية...»،ص ٢٨٨؛ عبد الحق، «تاريخ مدينة حمص ...»، ص٢١.

(١٠) عبد الحق، «تاريخ مدينة حمص...»، ص ٢١؛ عبد الله، «الجغرافية الإدارية...» ص ٢٩٠

(١١) الموصلي، **الموجز**، ص ٣٨.

(١٢) الموصلي، **الموجز**، ص ٣٩.

(١٣) الموصلي، **الموجز**، ص ٣٩.

(١٤) قتله من أهل حمص عمرو بن الجلي الكلاعي. ابن الأثير، عز الدين ابي الحسن علي الشيباني، **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م)، المجلد الرابع، ص ص : ١٥ ـ ١٥١؛ زكريا، **جولة أثرية**، ص ٣٢٠

(١٥) الموصلي، **الموجز**، ص ص ٣٩ ـ ٤٠.

(١٦) الموصلي، **الموجز**، ص ٤٠.

استخدام هؤلاء من قبل بني كلب في إحداث الفتن ضده مرة أخرى.[١٧]

وفي سنة ١٣٧هـ / ٧٥٤م تولى حكم حمص وحلب وقنسرين صالح بن علي بن عبد الله بن العباس. وفي عهده احتدمت النزاعات بين سكان حمص من الأصل اليماني والقيسيين مما دفع الخليفة ابو جعفر المنصور إلى إرسال عدد من الحملات العسكرية لقمعهم وتأديبهم[١٨]، وحل عبد الله بن صالح بن علي في حكم حمص محل والده صالح، وكان له شأن كبير في بناء المساجد وغيرها بحمص منذ عام ١٥٠هـ / ٧٦٧م. وكان عبد الله بن صالح بن علي رجلاً قوياً وهو أحد الهاشميين الاثنى وعشرين الذين بايعوا الخليفة العباسي في الكوفة.[١٩]

وفي سنة ١٩٤هـ / ٨١٠م، حدثت خلافات بين أهل حمص من جهة وبين الخليفة الأمين وعامله عليها اسحاق بن سليمان من جهة أخرى. وأدى ذلك إلى خروج اسحاق من حمص إلى سلمية، فعزله الخليفة الأمين وعين مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي الذي قتل بعض أهل حمص وحبس البعض الآخر حتى أخمد الفتنة.[٢٠]

نالت الفلوس المضروبة بحمص خلال القرنين الأول والثاني الهجريين اهتمام العديد من الباحثين أمثال شتيكل Stickel[٢١] ولينبول Lane - Poole[٢٢] ولافواه Lavoix[٢٣]، ونوتزل Nutzel[٢٤]، وميلز Miles[٢٥]، وولكر Walker[٢٦]، وجريرسون Grierson[٢٧]، وبيتس Bates[٢٨]، ميتشنر Mitchiner[٢٩]، وايلش Ilish[٣٠]، وأودي Oddy[٣١]، والأستاذ محمد الخولى[٣٢]، وغيرهم.[٣٣]

---

(١٧) ابن الاثير، **الكامل**، جـ٥، ص ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٣، ٤٢٤؛ الموصلي، **الموجز**، ص ٤٠. ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر: زكريا، **جولة اثرية**، ص ٣٢٠، ٣٢١.

(١٨) الموصلي، **الموجز**، ص ٤١.

(١٩) الموصلي، **الموجز**، ص ص ٤١ ـ ٤٢.

(٢٠) ابن الأثير، **الكامل**، جـ٦، ص ٢٢٧.

(٢١) Johann Gustave Stickél, *Handbuch zur margen Landischen Munzkunde*. Heft 11 (Alteste Muhammed anische Munzen bis zur munzreform Abdylmeliks (Leipzig, 1870))

(٢٢) Stanley Lane - Poole, *Catalogue of Oriental Coins in the British Museum, Vol.1. The Coins of the Eastern Khaleefehs* (London, 1875).

(٢٣) Henri Lavoix. *Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque Nationale. Khalifes Orientaux* (Paris, 1887).

(٢٤) Heinrich Nutzel. *Konigliche Museen zu Berlin Kalalogder Orientalishchen Munzen, Bd. 1: Die Munzen, der Ostlichen Chalifen* (Berlin, 1898).

(٢٥) George C. Miles, *Islamic Coins in Antioch on the Orontes*, iv pt.1 (Princeton, 1948), S. 109. 124.

(٢٦) John Walker, *A Catalogue of the Muhammadan Coins in the British Museum* vol. 11. A Catalogue of the Arab - Byzantine and Post- Reform Umaiyad Coins (London, 1956).

(٢٧) Philip Grierson, "The Monetary Reforms of Abdal - Malik: Their Metrological Basis and their Financial Repercussions" *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol.3 (1960), pp. 241 - 264.

(٢٨) Michael L. Bates, "The Arab - Byzantine Bronze Coinage of Syria: An Innovation by Abdal - Malik" in: *A Colloguim in Memory of George Carpenter Miles (1904 - 1975)* (New York, 1976), S. 16 - 27; Michael L. Bates. "The Coinage of Syria Under the Umayyads 692 - 750 A.D." *The IVth International Conference on Bilad al-Sham* (Amman, 1989)

(٢٩) Michael Mitchiner, *Oriental Coins and Their Values, The World of Islam* (London, 1977).

(٣٠) Lutz Ilisch. "Die Umayyadischen und abbasidischen Kupferimunzen Von Hims: Versuch einerchronologie", *Munstersche Numismatische Zeitungx, 3* (August, 1980), pp. 23-30.

(٣١) Andrew Oddy, "The Constans" II Bust Type of Arab - By zantine Coins of Hims," *Revue Numismatique* VI Serie Tome XXIX (Paris, 1987), pp. 192 - 197.

(٣٢) محمد الخولى، «السكة في مدينة حمص إبان العهد الأموي»، **مجلة البحث التاريخي**، العدد الخامس (حمص) الجمعية التاريخية (١٩٩٠م)، ص ص ٤٥ ـ ٨٤.

(٣٣) Norman D.Nicol, Raafat el-Nabarawy and Jeriel Bacharach, ***Catalog of the Islamic Coins. Glass Weights, Dies and Medal in the Egyptian National Library, Cairo*** (California: Undena publication, 1982); Michael Broom. *A Handbook of Islamic Coins* (London, 1985).

ويمكننا تقسيم الفلوس المضروبة بحمص خلال القرنين الأول والثاني للهجرة/ السابع والثامن للميلاد إلى ثلاثة أقسام رئيسة كل قسم منها يمثل مرحلة تاريخية. القسم الأول ويضم الفلوس العربية ذات التأثيرات البيزنطية وهي التي ضربت خلال الفترة الواقعة من فتح حمص على يد الجيش العربي سنة ١٦هـ / ٦٣٧م في عهد الخليفة عمربن الخطاب وحتى بداية تعريب السكة سنة ٧٣هـ /٦٩٢م في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. ويشتمل القسم الثاني على الفلوس التي تحمل صورة الخليفة عبد الملك بن مروان وهي التي ضربت منذ بداية تعريب السكة سنة ٧٣هـ /٦٩٢م وحتى سنة ٧٧هـ / ٦٩٦م وهي السنة التي انتهت فيها عملية التعريب على يد عبد الملك بن مروان. أما القسم الثالث فيحتوي على الفلوس العربية الإسلامية الخالصة التي ضربت منذ تعريب السكة سنة ٧٧هـ /٦٩٦م وحتى نهاية القرن الثاني الهجري تقريبا.

وسوف نتناول طرز فلوس كل منها حسب التسلسل التاريخي مبينين مميزات كل طراز على حدة ووصفه وصفا دقيقاً، وموضحين أوجه الاختلاف بينه وبين غيره من الطرز الأخرى، مع الإشارة إلى بعض النماذج التي نشرت منه، وكذلك النماذج التي نقوم بنشرها لأول مرة ولم يسبق نشرها وتنتمي إليه. وكذلك التركيز على النماذج الفريدة التي لم يسبق نشرها من قبل وتنشر لأول مرة في هذا البحث، وتمثل طرزاً جديدة وفي الوقت نفسه تعتبر إضافات جديدة. ويقصد بالطراز هنا ـ وكما يسميه البعض بالإصدار أو النمط ـ الفلوس المتماثلة تماماً من حيث نصوص كتابتها وترتيبها وزخارفها الرئيسة المعروفة والكبيرة الحجم والتي قد تكون قد ضربت في قالب أو أكثر في فترة زمنية واحدة.

وفلوس القسم الأول هي الفلوس العربية ذات التأثيرات البيزنطية، أي الفلوس العربية التي ضربت على الطراز البيزنطي من حيث الكتابات والزخارف، ولكن مع وجود بعض الكلمات أو العبارات العربية عليها. وتشتمل فلوس هذا القسم على طرازين، الأول منها يتميز بوجود صورة الأمبراطور البيزنطي هرقل واقفاً، والطراز الثاني ينفرد باشتماله على صورة نصفية للأمبراطور كونستانز الثاني. ويوجد بوجه الطراز الأول دائرة من حبيبات متماسة بداخلها صورة هرقل واقفاً يمسك بيده اليمنى عصا المطرانية التي تنتهي بصليب، ويعلو رأسه أيضاً صليب. كما يمسك بيده اليسرى كرة فوقها صليب. وعلى يمين الأمبراطور بموازة عصا المطرانية مسجل من أعلى لأسفل باللغة العربية البسملة غير الكاملة هكذا «بسم الله» وعلى يسار الأمبراطور من أعلى لأسفل حروف يونانية تعني بالعربية كلمة «طيب». ويتوسط ظهر هذا الطراز حرف M للدلالة على قيمة الفلس النقدية وهي أربعين نميا. وأعلى هذا الحرف صليب(٣٤) وعلى يمين حرف M من أعلى لأسفل حروف يونانية تعني بالعربية اسم «حمص». وأسفل حرف M باللغة العربية كلمة «طيب». وهكذا يتضح أن كلمة طيب وردت بهذا الطراز مرتين الأولى باليونانية في الوجه، والأخرى بالعربية في الظهر. أما اسم مدينة السك وهو حمص فقد جاء هنا مرة واحدة بالظهر فقط ومسجلاً باليونانية.(٣٥) ويلاحظ أن كلمة طيب تعني هنا أن الفلس جيد في سكه وجاز التعامل به لاحتوائه

---

(٣٤) يعتقد محمد الخولى ان هذا الشكل هو رمز منقوص يشبة رمز هرقل الذي اورد لنا شكله، ولكننا نرى أنه صليب لأنه لوكان ذلك رمزا لهرقل فلماذا لم يسجله على كل نقوده التي تحمل صورته وخاصة تلك التي تخلو من تسجيل اسمه، كما انه إذا كان من عادة الأباطرة البيزنطيين ان يتخذوا لأنفسهم رموزا ويسجلونها على نقودهم، فلماذا لم يفعل الامبراطور كونستانز الثاني كذلك، لذلك فإننا نرى أن ماذهب اليه الاستاذ محمد الخولى بعيد عن الصحة. الخولى، «السكة في مدينة حمص»، ص ٥٤

(٣٥) Lane - Poole, *Catalogue of Oriental Coins*, vol IX, p.6, nos 16 - 21;; Walker, *A Calalogue*, pp.٥ - 11, nos 27-34, Ilisch, "Die Umayyadischen", p. 24, nos 2.1, 2.2.

الخولى، «السكة في مدينة حمص»، ص ص ٥٣ ـ ٥٥. اورد الأستاذ محمد الخولى نموذجا ودكر إنه يشبه نماذج دمشق ورغم ذلك فقد صنفه على إنه النموذج الثالث من الفئة الأولى للفلوس العربية المضروبة على الطراز البيزنطي في مدينة حمص في عهد الأمبراطور هرقل وهذا خطأ: الخولى، «السكة في مدينة حمص»، ص ٥٥.

على المواصفات المطلوبة كالكتابات والزخارف والوزن.

ويمتاز الطراز الثاني بوجود دائرة من حبيبات متماسة بداخلها صورة نصفية للإمبراطور البيزنطي كونستانز الثاني ينظر للأمام ويمسك بيده اليمنى كرة يعلوها صليب، وفوق رأسه صليب، وعلى يمين الأمبراطور كتابة يونانية نصها KAΛON منقوشة من أعلى لأسفل وهي تعني بالعربية كلمة «طيب»(٣٦) أما الظهر فيشتمل على حرف m ، وحول هذا الحرف من الجهتين اليمنى واليسرى كتابة يونانية تعني بالعربية اسم «حمص»، وأعلى الحرف توجد نجمة متعددة الأطراف، وأسفل الحرف المذكور توجد باللغة العربية كلمة «طيب» (لوحة رقم١، مسلسل رقم١). وهكذا وردت هذه الكلمة على فلوس هذا الطراز مرتين الأولى باليونانية على الوجه والأخرى بالعربية على الظهر كما في الطراز السابق. هذا ويلاحظ أن كتابات وزخارف هذا الطراز توجد داخل دائرة من حبيبات متماسة.(٣٧) ويختلف هذا الطراز عن الطراز السابق بأن صورة الأمبراطور كونستانز الثاني هنا صورة نصفية في حين أنها في الطراز السابق للأمبراطور هرقل واقفاً، وكذلك في شكل حرف M الذي ورد في هذا الطراز صغيرا في حين أنه جاء في الطراز السابق كبيرا.

وتنقسم فلوس القسم الثاني إلى ثلاثة طرز ويشتمل وجه فلوس الطراز الأول على صورة الخليفة عبد الملك بن مروان واقفاً يمسك السيف بيده اليمنى ويقبض عليه باليد اليسرى، وتعلو رأسه كوفية وهو ذو لحية طويلة، وحوله كتابة بالخط الكوفي البسيط نصها: «لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين». ويتوسط ظهر فلوس هذا الطراز أربعة مدرجات يعلوها قائم يقطعة من أعلى ـ قرب نهايته ـ شكل بيضي، وعلى يسار القائم باللغة العربية اسم مكان السك وهو «بحمص» مسجل من أعلى لأسفل. وعلى يمينه شكل نجمة متعددة الأطراف. وحول العمود والمدرجات كتابة كوفية تسير على شكل دائرة نصها: «لا إله إلا الله وحده محمد رسول الله»(٣٨) (لوحة رقم١، مسلسل رقم٢)

أما الطراز الثاني فيشبه الطراز الأول ولكنه يختلف عنه في عدم اشتماله على نجمة حول القائم الموجود بالظهر(٣٩) كذلك فإن الطراز الثالث يشبه الطرازين الأول والثاني ولكنه ينفرد عنهما باحتوائه على كلمة «ضرب» مسجلة باللغة العربية من أعلى لأسفل في المكان الذي كان مخصصاً للنجمة بالظهر.(٤٠)

---

(٣٦) ولمزيد من التفاصيل "Bates, "The Coinage of Syria", p. 220 عن فلوس كونستانز الثاني المضروبة بحمص والتي ينتمي اليها هذا الطراز أنظر :

Oddy, "The Constans II Bust Type", pp. 192 - 197;

الخولى، «السكة في مدينة حمص»، ص ص٥٦ ـ ٥٧.

(٣٧) Stickel, *Handbuch*, p.9.; Lane - poole, *Catalogue of Oriental*, vol. IX, p.9 Nos. 29-30; Lavoix, *Catalogue des Monnaies*, no. 169; Nutzel, *Koniglische Museen*, Nos 22,38; Walker, *A Catalogue*, pp.20. 21, nos. 57 - 62, 65 - 66.; Mitchiner, *Oriental Coins*, nos 13 - 14; Ilisch, "Die Umayyadischen," p.24, no. - 3; Nicol, *Catalog of the Islamic*, p.1. no. 3-6.

يلاحظ أن هناك فلسين نشرهما بيتس ودوران من مجموعة الكويت. حيث وضعا بطريق الخطأ صورة ظهر فلس ضرب دمشق في مكان ظهر فلس ضرب حمص والعكس لذلك يجب تصحيح الوضع ليصبح ظهر القطعة رقم ٣٧٣ هو ظهر الفلس رقم ٣٧٢، وكذلك ظهر الفلس رقم ٣٧٢ هو ظهر الفلس رقم ٣٧٣. انظر : مايكل بيتس وروبرت دارلي دوران، «فن العملة الإسلامية» بحث في كتاب **كنوز الفن الإسلامي**، ترجمة حصة الصباح وآخرين (جنيف: متحف راث، ١٩٨٥م)، ص ص ٣٥٠ ـ ٣٩٧، ٣٥٦ ـ ٣٥٧، رقم ٣٧٢، ٣٧٣.

(٣٨) الخولى، «السكة في مدينة حمص»، ص ٥٨؛ ويوجد نموذج من هذا الطراز محفوظ بمؤسسة النقد العربي السعودي بالرياض يبلغ وزنه ٣,٥٠ جرام وقطره ٢٣,٥مم ومسجل تحت رقم٧.

Lane - Poole, *Calalogue of Oriental*, vol. IX, p. 15, nos. 59 - 60. Lavoix, *Calalogue des Monnaies*, no. 65; Nutzel, *Koniglische Museen*, no. 55; Walker, *A Catalogue*, p. 36, nos. 19-20; Broome, *A Handbook*, p. 15, no. 17.

(٣٩) الخولى، «السكة في مدينة حمص»، ص ٥٩؛

Lavoix, *Catalogue des Monnaies*, no. 68; Walker, *A Catalogue*, p. 35, no.118.

(٤٠) الخولى، «السكة في مدينة حمص»، ص ٥٩؛

Lavoix, *Catalogue du Monnaies*, nos. 69 - 70; Nutzel, *Koniglische Museen*, no. 65; Walker, *A Catalogue*, p. 36, no. ANS. Th. 1.

وهناك تشابه واضح بين فلوس هذا القسم وبين مثيلتها المضروبة في كل من دور سك بعلبك وجبرين وحلب ودمشق وسرمين وغيرها[٤١]، من حيث الزخارف الموجودة بالمركز والكتابات التي تدور حولها. كذلك فإن هناك تشابهاً كبيرا من حيث الشكل العام - صورة عبد الملك والكتابة حولها بالوجه، والمدرجات التي تعلو العمود القائم والكتابة حولها بالظهر - بين فلوس طرز هذا القسم وبين دينار أموي مؤرخ بسنة ٧٦هـ / ٦٩٥م. ويحمل هذا الدينار بوجهه صورة الخليفة عبد الملك وحولها كتابة كوفية هي تقريبا نفس الكتابة الموجودة حول المدرجات بظهر فلوس طرزي هذا القسم عدا البسملة غير الكاملة، أما مركز ظهر هذا الدينار فيحتوي على مدرجات أربعة يعلوها عمود قائم ينتهي بكرة، وحول المدرجات كتابة كوفية تتضمن البسملة غير الكاملة يليها تاريخ السك وهو سنة ٧٦هـ / ٦٩٥م[٤٢]. ونظرا للتشابه الواضح بين فلوس هذا القسم وبين زخارف وكتابات الدينار المذكور والمؤرخ بسنة ٧٦هـ / ٦٩٥م نستطيع القول بأن فلوس هذا القسم ضربت معاصرة لهذا الدينار تقريباً أي خلال الفترة الواقعة بين سنتي ٧٣و٧٧هـ / ٦٩٢، ٦٩٦م.

وبخصوص طرز فلوس هذا القسم فقد اختلف الباحثون في ميدان علم النميات الإسلامية في تحديد الفترة الزمنية التي ضربت خلالها. فيرى كل من ميلز[٤٣]وجريرسون[٤٤]أن فلوس هذا القسم ضربت في نفس الفترة التي ضربت فيها الدنانير الذهبية التي تحمل صورة الخليفة عبد الملك، أي خلال الفترة من سنة ٧٤هـ / ٦٩٣م إلى سنة ٧٧هـ / ٦٩٦م، في حين يرى وولكر[٤٥] إن هذه الفلوس ضربت قبل التاريخ المذكور بحوالي عشرين عاماً. أما بيتس[٤٦]فيؤيد ما ذكره كل من ميلز وجريرسون ويضيف أن هناك دور سك بدأت ضرب الفلوس على الطراز البيزنطي اعتباراً من سنة ٧٢هـ / ٦٩١م وهي دمشق وحمص وطرطوس وبعلبك وطبرية. وكان يوجد في حمص في العصر الأموي دارين للسك فقط هما دار سك حمص ودار سك صغيرة هي طرطوس.[٤٧]

ووصلنا من الفلوس المنشورة التي تنسب للقسم الثالث ستة وعشرين طرازاً. ونقوم في هذا البحث بنشر نماذج فريدة لم يسبق نشرها أو نشر مثيل لها تمثل ستة طرز جديدة وتعتبر إضافات جديدة في الفلوس الإسلامية وسوف نتناول طرز الفلوس المنشورة أولاً يليها الطرز الستة الجديدة حسب التسلسل التاريخي.

أولا : الطرز المنشورة

يبلغ عدد هذه الطرز ستة وعشرين طرازاً هي:

الطراز الأول

يمتاز بوجود دائرة تحيط بكتابات وزخارف كل من الوجه والظهر. ويشتمل الوجه على ثلاثة أسطر متوازية من الكتابة بالخط الكوفي البسيط نصها: «(لااله - ا) لا الله - وحده» في حين يوجد بالظهر أربعة أسطر متوازية بكل سطر منها كلمة واحدة وهي: «محمد - رسول - الله✳ - بحمص».[٤٨] ولاشك أن كتابات هذا الطراز وردت كثيرا على الفلوس الأموية مع اختلاف وضع اسم مكان السك. وأحيانا كانت بعض الفلوس يرد عليها نفس الكتابات بدون اسم دار السك.

الطراز الثاني

يشبه الطراز الأول بصفة عامة من حيث نصوص كتاباته وترتيبها ولكنه يخلو من وجود نجمة سداسية الأطراف بجوار لفظ الجلالة (الله) بالسطر الثالث

(٤١) Walker, *A Catalogue*, p. 32,33, 37.

(٤٢) Walker, *A Catalogue*, p. 42,43.

(٤٣) George C. Miles, "The Iconography of Umayyad Coins", *Ars Orientalis 3*, (1959), p. 209

(٤٤) Grierson, "The Monetary Reforms of Abdal-Malik," pp. 246 - 247.

(٤٥) Bates, "The Coinage of Syria", p. 207.

(٤٦) Bates, "The Coinage of Syria", p. 214.

(٤٧) Bates, "The Coinage of Syria", p. 219.

(٤٨) Walker, *A Catalogue*, p. 244, nos 799 - 800 Ilsch, "Die Umayyadischen", pp. 25 - 26, no.7.

لكتابات الظهر.[٤٩]

الطراز الثالث

توجد دائرة من حبيبات متماسة بكل من الوجه والظهر وتحصر بداخلها زخارف وكتابات كوفية تقع في أربعة أسطر متوازية نصها بالوجه: «بسم ا ـ لله لا اله ـ الا الله✱ ـ وحده». ونصها بالظهر: «محمد ـ رسول ـ الله✱ ـ حمص».[٥٠] وينتمي إلى هذا الطراز نموذجان لم يسبق نشرهما محفوظان بمؤسسة النقد العربي السعودي بالرياض.[٥١]

وينفرد هذا الطراز عن الطرازين السابقين بوجود البسملة غير الكاملة (بسم الله) بأعلى كتابات الوجه، يليها شهادة التوحيد مختصرة (لا اله الا الله وحده)، وبوجود نجمة متعددة الأطراف بعد لفظ الجلالة بالسطر الثالث بالوجه. وتتضمن كتابات الظهر الرسالة المحمدية مختصرة (محمد رسول الله) بحيث تقع كل كلمة في سطر مع وجود نجمة سداسية الأطراف بعد لفظ الجلالة بالسطر الثالث. أما السطر الرابع فخصص لاسم دار السك وهو «حمص». ويلاحظ أن كتابات ظهر هذا الطراز تتشابه في نصوصها وترتيبها مع كتابات ظهر الطرازين السابقين.

الطراز الرابع

عبارة عن دائرة خارجية تضم بداخلها كتابات كوفية في أسطر أفقية متوازية تبلغ ثلاثة بالوجه وأربعة بالظهر. وجاءت كتابات الوجه على النحو التالي: «لااله ـ الا الله ـ وحده». كما وردت كتابات الظهر على الوجه الآتي: «بحمص ـ محمد ـ رسول ـ الله».[٥٢] (لوحة رقم٢، مسلسل رقم٣).

ويشتمل وجه هذا الطراز على شهادة التوحيد مختصرة، وهو بذلك يشبه وجه الطراز الأول من حيث نصوص الكتابات وترتيبها. وعلى الرغم من أن نصوص الظهر تشبه نصوص ظهر الطرز السابقة إلا أن هذا الطراز ينفرد عنهم باختلاف وضع وترتيب تلك النصوص حيث تنفرد نصوص ظهر هذا الطراز بوجود اسم دار الضرب أعلى الكتابات يليها الرسالة المحمدية مختصرة في الثلاثة أسطر التالية للسطر الذي يشتمل على مكان السك، في حين أن اسم مكان السك يوجد أسفل كتابات الظهر في الطرز السابقة. ويوجد من هذا الطراز قطعتان محفوظتان في احدى المجموعات الخاصة لم يسبق نشرهما من قبل.[٥٣]

الطراز الخامس

يتميز بوجود كتابات كل من الوجه والظهر في أسطر أفقية متوازية تحيط بها من الخارج دائرة وليس به كتابة هامشية. ويبلغ عدد أسطر الوجه ثلاثة نصها: «لا اله الا الله ـ وحده» كما يوجد بالظهر خمسة أسطر نصها: «ضرب ـ محمد ـ رسول ـ الله ـ بحمص» (لوحة رقم ٢، مسلسل رقم٤).

وينتمي إلى هذا الطراز ثلاثة نماذج لم يسبق نشر الأول والثاني منها فقط، الأول محفوظ في إحدى المجموعات الخاصة[٥٤] والثاني بمجموعة مؤسسة النقد العربي السعودي بالرياض[٥٥] والأخير نشر وهو موجود بمتحف دمشق.[٥٦]

ويشبه هذا الطراز الطرز الأربعة السابقة من حيث نصوص كتابات الوجه وترتيبها، وهي النصوص

---

(٤٩) الخولى، «السكة في مدينة حمص»، ص٦١، النموذج ٢ ـ أ
Nutzel, *Koniglische Museen*, Nos. 1961 - 1962.

(٥٠) الخولى، «السكة في مدينة حمص»، ص٦٦، النموذج ٥.
Nutzel, *Koniglische Museen*, Nos. 1964 - 1965; Walker, *A Catalogue*, 244, No. B - 45; Mitchiner, *Oriental Coins*, No. 75; Broome, *AHandbook*, p.18, No.21; Ilisch, "Die Umayyadischen", p. 25, No.6

(٥١) رقم سجل ١٦٣١ (وزن٢,٩٥جم، قطر ١٩,٢مم)، ورقم سجل ١٦٠٧ (وزن ٣,٣٤ جرام، قطر ٢٠مم)

(٥٢) Ilisch, "Die Umayyadischen", p. 26, no. 7.2
لم يتطرق الخولى لهذا الطراز في بحثه عن «السكة في مدينة حمص».

(٥٣) يقصد بإحدى المجموعات الخاصة في هذا البحث مجموعة ناصر العتيبي بالرياض، الأول (وزن ٢,٢٢٥ جرام، قطر ١٤,٥مم) والثاني (وزن ١,٩٠جرام، قطر ١٦مم).

(٥٤) يبلغ وزنه ١,٨٤ جرام وقطره ٢١,٥مم.

(٥٥) مسجل تحت رقم ٢٢٢٠ ويبلغ وزنه ٢,٤١ جرام وقطره ١٧,٥مم.

(٥٦) الخولى، «السكة في مدينة حمص» ص ٦١ النموذج ٢. يشير الخولى إلى وجود نموذجين يشبهان النموذج المذكور نشرهما وولكر تحت رقما ٧٩٩ ـ ٨٠٠ ولكن هذا الكلام غير صحيح لعدم التشابه التام بينهما وبين نموذج الخولى: Walker, *A Catalogue*, p. 244, nos. 799 - 800.

المشتملة على شهادة التوحيد مختصرة. ولكن هذا الطراز ينفرد عن الطرز السابقة بوجود كلمة «ضرب» أعلى كتابات الظهر وكذلك بعدد أسطر الظهر البالغة خمسة هنا ولكن في الطرز السابقة تبلغ أربعة فقط. فبينما نجد اسم «محمد» في السطر الثاني بهذا الطراز نجده في السطر الأول بالطرز الثلاثة الأولى في الظهر. أما كلمة «رسول» فنقشت في هذا الطراز بالسطر الثالث نلاحظها في الطرز الثلاثة الأولى بالسطر الثاني. كما أن لفظ الجلالة «الله» جاء في هذا الطراز بالسطر الرابع وردت في الطرز الثلاثة الأولى بالسطر الثالث للظهر. كذلك فإن مكان السك قد حفر في هذا الطراز بالسطر الخامس نراه مسجلاً في الطرز الثلاثة الأولى بالسطر الرابع.

الطراز السادس

يشتمل هذا الطراز على نفس كتابات الطراز السابق وكذلك ترتيبها ولكنه يمتاز عنه بوجود نجمة متعددة الأطراف بعد لفظ الجلالة بالسطر الرابع للظهر. وقد نشر جورج مايلز نموذج ينتمي إلى هذا الطراز.[٥٧]

الطراز السابع

يمتاز هذا الطراز باشتماله على مركز وهامش واحد بكل من الوجه والظهر. ويوجد بمركز الوجه كتابة في سطرين نصها: «أبو شر ـ يك». ويتضمن هامش الوجه النص التالي: «عبد الله بن عبد الملك بن مروان». أما مركز الوجه فيشتمل على حيوان اليربوع ينظر لجهة اليمين، كما يوجد بهامش الظهر النص التالي: «ضرب هذا الفلس بحمص».[٥٨]

ويرى الأستاذ محمد الخولى أن هذا الطراز يمدنا بحقيقة لا نعرفها ألا وهي تكليف الخليفة عبد الملك بن مراوان أحد أولاده الملقب بعبد الله بأمر جند حمص فور خضوع بلاد الشام له وكان ذلك سنة ٨١هـ بعد أن فر من حكم حمص النعمان بن بشير الأنصاري، ومن حكم قنسرين زفر بن الحارس الكلابي بسبب ولائهما لعبد الله بن الزبير. ويبدو أن أبو شريك الذي ورد اسمه بمركز الوجه كان المشرف على دار الضرب.[٥٩] ويذهب الأستاذ الخولى بعيداً ويذكر أن الفلس الذي يحمل اسم عبد الله بن عبد الملك وابوشريك والمحفوظ بمتحف دمشق يعد دعما لما ذهب إليه من أن هناك فلوس معربة تعريباً تاماً سبقت تعريب عبد الملك للنقود الذهبية والفضية وأن هذا الفلس شاهد قوي على ذلك.[٦٠]

ولكننى لا اتفق مع ماذهب إليه الأستاذ محمد الخولى لعدة أسباب هي:

١ ــ أن الفلس الذي نشره والذي يحمل اسم عبد الله بن عبد الملك على حد قراءته لكتاباته غير مؤرخ وأنه ذكر أن عبد الله تولى حكم حمص من قبل ابيه سنة ٨١هـ .

٢ ــ من المستحيل أن الفلس المذكور يكون قد ضرب قبل التاريخ المذكور وهو سنة ٨١هـ ولكن من الممكن أن يكون قد ضرب بعده.

٣ ــ أن الفلس الذي يتخذه شاهداً قوياً على أن تعريب الفلوس تعريبا كاملا بدأ قبل تعريب

---

(٥٧) Miles, *Islamic Coins*, no. 42; Ilisch, "Die Umayyadischen", p. 26, no. 73

(٥٨) الخولى، «السكة في مدينة حمص»، ص٧٨ النموذج (١). ويلاحظ ان هذا الطراز ينفرد عن الطرز السابقة بوجود حيوان «اليربوع». واليربوع حيوان طويل الرجلين، قصير اليدين جداً. وله ذنب كذنب الجرذ، ولونه لون الغزال. ويقال لولده «درص». وهو يسكن بطن الأرض، وهو يتخذ جحره على نشز من الأرض ويحفره، ويفتح له أبوابا على مهب الرياح وتسمى «النافقاء» و «القاصعاء» و «الداماء» و «الراهطاء». فإذا طلب من احد هذه الأبواب خرج من الآخر وهو يجتر ويبعر، وله كرش واسنان واضراس. وهو من الحيوانات التي تنقاد إلى رئيسها. والرئيس منها إذا كان فيها يرتفع عنها فيكون في مكان مشرف او على صخرة ينظر منه إلى الطريق، فإذا رأى ما يخافه عليها صر بأسنانه وصوت، فتسمعه فتنصرف إلى حجرتها وإن اغفل ذلك ورأت ماتخافه قبل ان يراه قتلته لتضيعه الحزم وغفلته ونصبت غيره لرياستها. وإذا أرادت اليرابيع الخروج من حجرتها لطلب المعاش خرج الرئيس قبلها وأشرف، فإذا لم ير ما يخافه عليها صر لها وصوت فتخرج. قالوا: ويتولد من اليربوع والفأر ولد يسمى (القرنب): النويرى، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، السفر العاشر، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٥١هـ/١٩٣٣م) ص ص ١٧٠ ـ ١٧١. وعن اليربوع انظر ايضا: الخولى، «السكة في مدينة حمص»، ص٥٩ هامش ١٠١.

(٥٩) الخولى «السكة في مدينة حمص»، ص ٧٨.

(٦٠) الخولى «السكة في مدينة حمص»، ص ٧٩.

النقود الذهبية والفضية قد ضرب على أقل تقدير بعد تعريب النقود بأربع سنوات وربما أكثر من ذلك.

٤ ـ انني أرى أن تعريب النقود جميعاً وهي النقود الذهبية والفضية والنحاسية والبرونزية، قد تم سنة ٧٧هـ على يد عبد الملك لأنه ليس هناك مبرر في تقديمها أو تأخيرها في عملية التعريب الكامل عن السنة المذكورة.

الطراز الثامن

يحيط بكتابات كل من الوجه والظهر دائرة. وتتكون كتابات كل منهما من مركز وهامش واحد. ويوجد بمركز الوجه النص التالي: «بسم الله ـ لا اله ا ـ الله وحده»، كما يشتمل الهامش على الكتابة التالية: .... الملك بن مر (وان). ويحتوي مركز الظهر على ثلاثة أسطر متوازية بالخط الكوفي البسيط نصها: «محمد-رسول-الله"ويتضمن الهامش النص الآتي « . . .الفلس بحمص».[٦١]

ويتضح من خلال الاسم المسجل بهامش وجه هذا الطراز بأنه ضرب في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان. ويمكن تأريخ هذا الطراز في الفترة الواقعة بين سنة ٧٧هـ التي تم فيها تعريب الفلوس وسنة ٨٦هـ وهي السنة التي انتهت فيها فترة حكم عبد الملك بن مروان، وهناك احتمال كبير في أن يكون هذا الطراز قد ضرب في أواخر فترة حكم الخليفة عبد الملك بن مروان لأن كتاباته أكثر دقة من كتابات الطراز السابق.

الطراز التاسع

تقع كتابات الوجه داخل دائرتين، في حين يحيط بكتابات الظهر دائرة واحدة. وتوجد كتابات الوجه في ثلاثة أسطر متوازية بالخط الكوفي البسيط نصها: «لا اله ـ الا الله ـ وحده». أما مركز الظهر فيشتمل على الكتابات التالية: «محمد ـ رسول ـ الله». في حين أن هامش الظهر يحتوي على النص التالي: «ضرب بحمص» يليه رسم لسعفة نخيل ذات ثمانية أوراق.[٦٢]

وينفرد هذا الطراز عن الطرز السابقة بوجود سعفة النخيل ذات الثمانية أوراق وهي نفس الزخرفة التي ظهرت على الفلوس الأموية المضروبة بالرملة[٦٣]وطبرية.[٦٤]

الطراز العاشر

توجد كتابات الوجه داخل دائرتين متوازيتين متحدتي المركز في حين تحصر كتابات الظهر دائرة واحدة. وتتماثل كتابات كل منهما من حيث نصوصها وترتيبها، وهي تقع في أربعة أسطر متوازية ونصها: «حمص ـ محمد ـ رسول ـ الله».[٦٥]

ويتميز هذا الطراز عن الطرز السابقة بوجود اسم مكان السك وهو «حمص» مكرر مرتين بأعلى كتابات الوجه والأخرى بأعلى كتابات الظهر. وتوجد أسفل اسم مكان السك الرسالة المحمدية مختصرة في ثلاثة أسطر بكل من الوجه والظهر.

الطراز الحادي عشر

عبارة عن دائرة تحصر بداخلها في كل من الوجه والظهر أربعة أسطر متوازية من الكتابة المتماثلة تماماً من حيث النص والترتيب وهي: «محمد ـ رسول ـ الله ـ بحمص».[٦٦]ويلاحظ أن فلوس هذا الطراز خالية من أية زخارف وتقتصر فقط على الكتابات المتماثلة في كل من الوجه والظهر وينفرد هذا الطراز عن الطرز السابقة بأن اسم مكان السك ورد هنا مرتين إحداهما أسفل كتابات الوجه والأخرى أسفل كتابات الظهر. ويختلف هذا الطراز عن الطراز السابق في موقع اسم مكان السك بالنسبة للرسالة المحمدية.

الطراز الثاني عشر

يشتمل وجه هذا الطراز على شهادة التوحيد مختصرة في ثلاثة أسطر متوازية هكذا: «لا اله ـ الا

---

(٦١) الخولى «السكة في مدينة حمص»، ص ٦٦، النموذج (٦).

(٦٢) الخولى «السكة في مدينة حمص»، ص ٦٠، النموذج (١).

(٦٣) Walker, *A Catalogue*, p. 255, no. 846.

(٦٤) Walker, *A Catalogue*, p. 269, no. 869.

(٦٥) الخولى «السكة في مدينة حمص»، ص٦٣، النموذج (٢ ـ د).

(٦٦) الخولى «السكة في مدينة حمص»، ص٦٢، النموذج (٢ ـ جـ).

الله ـ وحده» أما ظهره فيوجد به رسم لأسد رافعا ذيله لأعلى ومتجها ناحية اليسار وأمامه من أعلى لأسفل كلمة «بحمص» يسبقها في وضع أفقي حرفي الضاد والراء فقط من كلمة، ضرب.(٦٧)

ويتميز هذا الطراز عن الطرز السابقة بوجود رسم لأسد يتجه يسارا وقد نقش اسم مكان السك هنا كما جاء في الطراز التاسع، ومن الواضح أن الأسد يرمز إلى القوة.

الطراز الثالث عشر

تتكون كتابات كل من وجه وظهر هذا الطراز من مركز وهامش واحد فقط يحيط بها دائرة. يشتمل مركز الوجه على شهادة التوحيد مختصرة في ثلاثة أسطر هكذا: «لا اله (الا ا) ـ لله وحد (ه) ـ (ل)ا شر (يك له)» بينما يوجد بهامش الوجه النص التالي: ... هذا الفلس بحمص. أما مركز الظهر فيتضمن الكتابة التالية « الله ـ (ا) حد الله ـ الصمد». في حين ورد بهامش الظهر الآتي: محمد رسول الله...(٦٨)

ويختلف هذا الطراز عن الطرز السابقة بوجود سورة الإخلاص مختصرة. وقد وردت هذه السورة بنفس الاختصار على فلوس طبرية(٦٩)، والموصل(٧٠) المضروبة في العصر الأموي، ومن المعروف أن سورة الإخلاص قد ظهرت على النقود الأموية حيث جاءت بمركز ظهر الدنانير مختصرة في ثلاثة أسطر بينما نقشت بمركز ظهر الدراهم كاملة وفي أربعة أسطر . وفي العصر العباسي حذفت سورة الإخلاص من على النقود وحل محلها على النقود الرسالة المحمدية مختصرة في ثلاثة أسطر .

الطراز الرابع عشر

يوجد بكل من وجه وظهر هذا الطراز بقايا دائرتين تحصران بالوجه أربعة أسطر متوازية من الكتابة وبالظهر ثلاثة أسطر . وكتابات الوجه هي: لا الـ[ـه]ـ الا الله ـ وحده ـ بحمص». أما كتابات الظهر فهي: «محمد ـ رسول ـ الله».(٧١) ويلاحظ أن هذا الطراز يخلو من أية زخارف.

وينفرد هذا الطراز عن الطرز السابقة بوجود شهادة التوحيد مختصرة في ثلاثة أسطر أسفلها اسم مكان السك وهو «بحمص».

الطراز الخامس عشر

يشتمل هذا الطراز على مركز وهامش واحد بكل من الوجه والظهر . وتتكون كتابات مركز الوجه من ثلاثة أسطر متوازية ونصها: «لا اله ـ الا الله ـ وحده». أما هامش الوجه فتسير كتاباته عكس اتجاه عقرب الساعة ونصها: «ضرب [الفل]س سنة ست عشر ومئة». كما توجد كتابات مركز الظهر داخل دائرة وتقع في ثلاثة أسطر متوازية نصها: «محمد ـ رسول ـ الله ✱»، في حين أن كتابات هامش الظهر تسير عكس اتجاه عقرب الساعة ونصها: «بسم الله ضرب الفلس بحمص».(٧٢) ويوجد من هذا الطراز نموذج محفوظ بمؤسسة النقد العربي السعودي لم يسبق نشره.(٧٣) (لوحة رقم ٣، مسلسل رقم ٥).

وهذا الطراز يشبه الطرز الستة الأولى من حيث نصوص كتابات مركز الوجه وترتيبها، ولكنه يختلف عنها وعن جميع الطرز السابقة باحتوائه على تاريخ سكه وهو سنة ١١٦هـ / ٧٣٤م بالوجه ومكان سكه وهو «بحمص» بهامش الظهر حيث ورد آنفا، ويشتمل مركز وجه هذا الطراز على شهادة التوحيد وتاريخ السك بهامش الوجه، والرسالة المحمدية مختصرة بمركز الظهر والبسملة غير الكاملة يليها تاريخ الضرب بهامش الظهر أيضا. وهناك نماذج من هذا الطراز

---

(٦٧) الخولى «السكة في مدينة حمص»، ص ٦٤، النموذج (٣).

(٦٨) الخولى «السكة في مدينة حمص»، ص٦٥، النموذج (٤).

(٦٩) Walker, *A Catalogue*, p. 269, no. 898.

(٧٠) Walker, *A Catalogue*, p. 292, no. 928.

(٧١) الخولى «السكة في مدينة حمص»، ص ٦٢، النموذج (٢ ـ ب).

(٧٢) الخولى «السكة في مدينة حمص»، ص ٨٢، النموذج (٣).
Lavoix, *Catalogue des Monnaies*, nos, 1415 - 1416; Nutzel, *Koniglische Museen, nos, 1970 - 1972;* Walker, *A Catalogue*, p.447, nos. 807 - 811, pl. XXVII; Ilisch, "Die Umayyadischen", p. 26, no.8.

(٧٣) مسجل تحت رقم ٢٧٩ ويبلغ وزنه ٤,٨جرام وقطره ٢١مم.

ضربت سنة ١١٠هـ [٧٤]، وسنة ١١٧هـ [٧٥]، وسنة ١٣٠هـ [٧٦]. ويلاحظ أن نماذج هذا الطراز تحتوي على كلمة «الفلس» مرتين، الأولى بهامش الوجه، والأخرى بهامش الظهر. ومن الملفت للنظر أن هناك كلمة غير واضحة بعد كلمة ضرب بهامش الوجه لا يظهر منها سوى حرف السين لم يستطع وولكر قراءتها ولكنني أرى أن هذه الكلمة هي السين الأخيرة من كلمة «الفلس» [٧٧] كما هو موجود في الفلوس التي تنتمي إلى الطراز نفسه والمضروبة بنفس المدينة والمؤرخة بسنة ١١٠هـ ، ١٣٠هـ .

الطراز السادس عشر

يمتاز بوجود دائرة خارجية تحيط بزخارف وكتابات كل من الوجه والظهر ، وتتوسط الوجه دائرة صغيرة بداخلها نقطة حولها كتابات دائرية تسير عكس اتجاه عقرب الساعة نصها: «لا اله الا الله وحده». كما يتوسط الظهر زخرفة على شكل هلال يفتح لأعلى بداخله نقطة وحوله كتابة على شكل دائرة أيضا نصها: «ضرب هذا الفلس... بحمص». [٧٨]

ويختلف هذا الطراز عن غيره بوجود زخرفة على شكل هلال بالظهر. ويتشابه مع الطرازين السابع والثاني عشر بخلو كل منهم من الرسالة المحمدية المختصرة.

الطراز السابع عشر

يتوسط وجهه فيل واقف يتجه ناحية اليمين ويتدلى خرطومه لأسفل، وحوله على شكل دائري كتابة كوفية بسيطة تسير عكس اتجاه عقرب الساعة ونصها: «لا اله الا الله وحده». وكل هذه الزخارف والكتابات تقع داخل دائرة. كما توجد دائرة تحيط بكتابات الظهر البالغ عددها ثلاثة أسطر متوازية من الكتابات نصها: «محمد ـ رسول الله ـ بحمص». [٧٩] (لوحة رقم٣، مسلسل رقم ٦).

وينفرد هذا الطراز عن الطرز السابقة بوجود الفيل بمركز الوجه، والرسالة المحمدية مختصرة وردت هنا في سطرين بدلا من ثلاثة أسطر في معظم الطرز السابقة. كما أن هذا الطراز يشبه الطراز السابق من حيث كتابات هامش الوجه.

الطراز الثامن عشر

يتكون كل من الوجه والظهر من مركز وهامش كتابي واحد. وتوجد في وسط الوجه دائرة بداخلها حيوان اليربوع (فأر الصحراء) راكض في اتجاه اليسار. ويشتمل هامش الوجه على الكتابات التالية: «بسم الله ضرب هذا الفلس بحمص». ويمتاز مركز الظهر بوجود دائرة بداخلها ثلاثة أسطر أفقية من الكتابة التالية ونصها: «محمد ـ رسول ـ الله». أما هامش الظهر فقد فقدت كتاباته. [٨٠]

ويشبه هذا الطراز ، الطراز السابع في وجود حيوان اليربوع، ولكن هذا الطراز يختلف عنه بأن حيوان اليربوع هنا بمركز الوجه، كما أن مكان السك بهامش الوجه أيضا.

---

(٧٤) الخولي، «السكة في مدينة حمص»، ص٨٢ النموذج (٣)؛
Walker, *A Catalogue*, pp.246 - 247, no.J.10.
نشر الأستاذ الخولي، نموذج يشبه هذا الطراز ومؤرخ بسنة ٧٩هـ غير واضح عليه اسم مكان السك ورغم ذلك فإنه ينسبه إلى حمص ولكن هذا الكلام غير مؤكد لعدم وضوح اسم حمص بهامش الوجه الخولي، «السكة في مدينة حمص»، ص ٨١ (النموذج رقم١).

(٧٥) الخولي، «السكة في مدينة حمص»، ص٨٣ النموذج (٤)؛
Ilisch, "Die Umayyadischen", p.26, no. 9.

(٧٦) الخولي، «السكة في مدينة حمص»، ص٨٣ النموذج (٥)؛
Lavoix, *Catalogue des Monnaies*, no. 1424.

(٧٧) Walker, *A Catalogue*, p. 247, no. 807

(٧٨) الخولي، «السكة في مدينة حمص»، ص٧٩ النموذج (١)؛
Walker, *A Catalogue*, p. 245, no. 801, pl.XXVI; Ilisch, "Die Umayyadischen", p.26, no.10

(٧٩) الخولي، «السكة في مدينة حمص»، ص٦٧ النموذج الأول، ص ٦٩، ٧٠.
Lavoix, *Catalogue des Monnaies*, nos. 1421 - 1423; Nutzel, *Koniglische Museen*, nos. 1966 - 1967; Walker, *A Catalogue*, p. 244, nos. 795 - 798; Mitchiner, *Oriental Coins*, no. 76; Broome, *A Handbook*, p. 18, no. 20; Ilisch, "Die Umayyadischen", p.27, no.11.

(٨٠) Walker, *A Catalogue*, p. 245, no.802, pl. XXVI

الطراز التاسع عشر

يتوسط وجهه حيوان اليربوع واقف ويتجه ناحية اليمين وحوله كتابة محفورة على شكل دائري ونصها: [لا] اله الا الله وحد[ه]». أما الظهر فهو عبارة عن دائرة بداخلها ثلاثة أسطر أفقية من الكتابة ونصها: «محمد ـ رسول [الله] ـ بحمص».(٨١)

وينفرد هذا الطراز عن الطرازين السابقين بأن اليربوع واقف متجه ناحية اليمين، وأن مكان السك مسجل هنا بمركز الظهر في حين أن مكان الضرب في الطراز السابق منقوش بهامش الوجه. وهذا الطراز يشبه الطراز السابع عشر من حيث نصوص الكتابات وترتيبها ولكنه يختلف عنه في نوعية الحيوان فقط.

الطراز العشرون

يشتمل على مركز واحد وهامش واحد بكل من الوجه والظهر. ويوجد بمركز الوجه ثلاثة أسطر أفقية نصها: «لا اله ـ الا الله ـ وحده». في حين أن هامش الوجه به بقايا كتابات غير واضحة. أما الظهر فيشبه وجه الطراز الثامن عشر تماما ولكن مع وضوح اسم دار الضرب هنا وهي «بحمص».(٨٢)

ويمتاز هذا الطراز عن الطراز الثامن عشر باشتماله على شهادة التوحيد، كما يختلف عن الطراز التاسع عشر بأن حيوان اليربوع هنا جاء بمركز الظهر كما في الطراز السابع، في حين أنه في الطراز التاسع عشر بمركز الوجه. كما أن مكان السك مسجل بهذا الطراز في هامش الظهر بينما نجده في الطراز التاسع عشر بمركز الظهر.

الطراز الحادي والعشرون

يتكون كل من الوجه والظهر من مركز وهامش واحد. ويشتمل مركز الوجه على دائرة بداخلها حيوان اليربوع يتجه ناحية اليسار، أما هامش الوجه فيحتوي على كتابة بالخط الكوفي البسيط نصها: «بسم الله ضرب هذا الفلس بحمص». بينما يوجد بمركز الظهر داخل دائرة النص الكتابي التالي: «بأمر ـ مرون ـ بشير». في حين يوجد بهامش الظهر كتابات كوفية تسير عكس اتجاه عقرب الساعة نصها: «محمد رسول الله ارسله بالهدى».(٨٣)

وينفرد هذا الطراز عن الطرز السابقة بوجود اسم مروان بن بشير. ويتفق الباحثون في السكة الإسلامية أمثال ولكر وايلش ومحمد الخولى أن مروان بن بشير لم يرد له ذكر في المصادر التاريخية وإنني اتفق معهم بهذا الخصوص وحاول كل منهم أن يرجع فلوسه إلى فترة زمنية معينة حيث يعتقد ولكر أنها ضربت في نهاية القرن الأول الهجري بينما يرى السويسري ايلش أنها ترجع إلى نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي.

غير أن الأستاذ محمد الخولى حاول أن يحدد فترة مروان بن بشير، وذكر أن مروان هو شقيق النعمان بن بشير وأنه عند انقلاب النعمان بن بشير ضد بني أمية تولى مروان على دار السكة فقام في مرحلة انقلاب النعمان بإصدار هذه الفلوس ذات النمط العربي البيزنطي المألوف الذي يتبناه بنو أمية ونقش عليها اليربوع وغيره، ويرجح الخولى بأن مروان كان مكلفا بالإشراف على دار السكة في أثناء ولاية أخيه النعمان على مدينة حمص(٨٤) (أي قبل سنة ٦٥هـ). وبذلك فإن الاستاذ االخولي يعتقد أن الفلوس المعربة تعريبا كاملا قد ضربت بحمص قبل سنة ٦٥هـ. ولكن هذا الرأي بعيد كل البعد عن الصحة لأن تعريب النقود عامة تم سنة ٧٧هـ كما أن الخولى غير متأكد من أن مروان هو أخو النعمان وإنني لا اتفق معه في هذا الرأي لأن ذلك ربما يكون تشابه في الاسم الأخير وهو «بشير». ولذلك فإنني

---

(٨١) يوجد نموذج من هذا الطراز بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة مسجل تحت رقم ١٩٩١٧ Ilisch. "Die Umayyadischen", p. 27, no. 11.la

(٨٢) Walker. *A Catalogue*, p.445, no. 803.

(٨٣) الخولى، «السكة في حمص»، ص ٧١، رقم ٤ ـ ٣؛ Lavoix. *Catalogue des Monnaies*, nos. 1418 - 1420; Nutzel. *Koniglische Museen*, nos. 1968 - 1969; Walker. *A Catalogue*, pp. 245 - 246, nos. 804 - 806

(٨٤) الخولى، «السكة في مدينة حمص»، ص ص ٧٤ ـ ٧٧.

أرى أن فترة مروان بن بشير كانت في بداية القرن الثاني الهجري أي أنها ترجع إلى العصر الأموي وذلك للتشابه بين أسلوب الكتابه على الفلوس التي تحمل اسمه مع أسلوب كتابة الفلوس التي يرجع إلى بداية القرن الثاني الهجري.[٨٥]

الطراز الثاني والعشرون

وهو عبارة عن مركز وهامش واحد بكل من الوجه والظهر . فمركز الوجه مكون من دائرة بداخلها ثلاثة أسطر أفقية متوازية من الكتابة ونصها: «بأمر - مرون بن - بشير » . ويتضمن هامش الوجه البسملة غير الكاملة يليها اسم مكان السك. وهذه الكتابة تسير على شكل دائرة ونصها: «بسم الله ضرب هذا الفلس بحمص». أما مركز الظهر فيوجد به دائرة بداخلها ثلاثة أسطر متوازية من الكتابة ونصها: «محمد - رسول - الله». ويحيط بهامش الظهر من الخارج دائرة بداخلها الكتابات التالية: «[محمد رسول الله] أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين [كله]».[٨٦]

وهذا الطراز يشبه الطراز السابق في خلو كل منهما من شهادة التوحيد، وفي اشتمال كل منهما على اسم «مروان بن بشير » الذي جاء في هذا الطراز بمركز الوجه، في حين ورد في الطراز السابق بمركز الظهر . ولكن هذا الطراز يختلف عن الطراز السابق في عدم وجود حيوان اليربوع وباحتوائه على الرسالة المحمدية مختصرة بمركز الظهر .

الطراز الثالث والعشرون

يشتمل هذا الطراز على ثلاث دوائر تحصر بداخلها شهادة التوحيد هكذا: «لا اله - الا الله - وحده».[٨٧] ويتكون الظهر من مركز وهامشين كتابيين. ويضم المركز نجمة خماسية الأطراف حولها نقطة. أما الهامش الداخلي فيوجد به كتابة دائرية نصها: «محمد رسول الله ارسله بالهدى»، في حين أن الهامش الخارجي يضم الكتابة التابية: «[بسم الله] ضرب هذا الفلس بحمص».[٨٨]

وينفرد هذا الطراز عن جميع الطرز السابقة بوجود هامشين كتابيين ونجمة خماسية الأطراف بمركز الظهر .

الطراز الرابع والعشرون

يحيط بالوجه دائرة غير كاملة من حبيبات بداخلها ثلاثة أسطر متوازية من الكتابة ونصها: «مما امر به - الأمير عبد - الله بن صلح». كما توجد كتابات الظهر داخل دائرة من حبيبات ونصها: «على يدى - عبد الكريم - بحمص».[٨٩]

وينفرد هذا الطراز عن الطرز السابقة بوجود اسم الوالي عبد الله بن صالح بمركز الوجه. وهو ابن الوالي العباسي صالح بن علي بن عبد الله العباس، الذي عهد إليه الخليفة أبو جعفر المنصور سنة ١٣٧هـ / ٧٥٥م حكم حمص وحلب وقنسرين. وفي عهده احتدمت النزاعات بين سكان حمص من الأصل اليمني والقيسيين مما دفع الخليفة العباسي لإرسال عدد من الحملات التأديبية لقمع تلك الفتن كما سبقت الإشارة اليه. وقد خلف صالح بن علي ابنه عبد الله في حكم حمص. وكان لعبد الله شأن في بناء المساجد وغيرها منها مسجد في سلمية التي تشير كتاباته التأسيسية إلى تعميره على يد عبد الله بن صالح

(٨٥) متحف الفن الإسلامي بالقاهرة تحت رقم سجل ١٣/ ١٦٩٩٥؛ Walker, *A Catalogue*, pp. 262, no. B - 50; George C. Miles. *Excavation Coins from the Persepolis Region,* Numismatic Notes and Monographs, (New York, 1959), p.47, no. 193.

(٨٦) Lavoix, *Catalogue des Monnaies*, nos. 1417; Walker, *A Catalogue*, p. 246, No. 128, pl.XXVII, Ilish, "Die umayyadishen", p.28, No. 13.

(٨٧) قرأ الخولى شهادة التوحيد هكذا: «لا اله - الا الله لا - شريك له» وهي بهذا الوضع تنقص كلمة «وحده» لكي يكتمل المعنى كما أن السطر الأخير قرأت كتاباته خطأ. ومن الواضح أن ماذكرناه وسجلناه بالمتن هو الصحيح؛ الخولى، «السكة في مدينة حمص»، ص ٨٠، النموذج (٢).

(٨٨) الخولي، «السكة في مدينة حمص»، ص ٨٠، النموذج (٢).

(٨٩) Ilisch, "Die Umayyadischen", p.28, no. 14.a.

سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧م[٩٠]، وهذا النص التأسيسي يدل على أن عبد الله بن صالح قد تولى حكم حمص منذ سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧م على أقل تقدير. وكان عبد الله رجلاً قويا وهو أحد الهاشميين الاثنى وعشرين الذين بايعوا الخليفة العباسي في الكوفة.[٩١] هذا وقد تولى عبدالله بن صالح حكم حلب في الفترة الواقعة ما بين سنة ١٥٠هـ /٧٦٧م وسنة ١٥٧هـ /٧٧٣م.[٩٢]كما حكم الموصل خلال الفترة من سنة ١٦٣هـ / ٧٧٩م. إلى سنة ١٦٥هـ / ٧٨١م[٩٣] وتوفي عبد الله بسلمية في سنة ١٨٦هـ / ٨٠٢م.[٩٤] وبهذا فإنه من المرجح أن هذا الطراز ضرب خلال العقدين السادس والسابع من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي. ومن المحتمل أن عبد الكريم هو المشرف على دار سك حمص في عهد عبد الله بن صالح.

الطراز الخامس والعشرون

يشبه الطراز الرابع والعشرين، ولكنه يختلف عنه في ترتيب نصوص كتابات الظهر حيث ينفرد هذا الطراز عن الطراز السابق بأن اسم عبد الكريم الذي ورد بالسطر الثالث في ظهر الطراز الرابع والعشرين، نجد أن الجزء الأخير من الاسم وهما حرفا الياء والميم جاءا بأول السطر الثالث هنا وقبل كلمة «حمص» التي وردت بمفردها بالطراز السابق.[٩٥] ومن المرجح أن هذا الطراز قد ضرب في نفس الفترة الزمنية التي ضرب فيها الطراز السابق.

الطراز السادس والعشرون

يوجد بوجه وظهر هذا الطراز كتابات مركزية وأخرى هامشية. وتقع كتابات مركز الوجه داخل دائرة. وتتكون من ثلاثة أسطر أفقية متوازية ونصها: «لا اله الا - الله وحده - لا شريك له». أما كتابات الهامش فتسير على شكل دائرة نصها: «ضرب هذا الفلس بحمص على يدى عبد الله بن زيد» وتوجد كتابات مركز الظهر داخل دائرة وتتكون من خمسة أسطر متوازية نصها: «عمروبن - محمد - رسول - الله - عيسى». في حين تسير كتابات هامش الظهر على شكل دائرة ونصها: «بسم الله مما امر به الامير عمروبن عيسى ابقاه الله».[٩٦]

وينفرد هذا الطراز عن الطرز السابقة باشتماله على اسم الأمير عمروبن عيسى مرتين بالظهر، الأولى بالمركز، والأخرى بالهامش حيث يليه عبارة دعائية له نصها: «أبقاه الله» وهذه العبارة من العبارات الدعائية التي كانت تسجل على الفلوس العباسية، مثل «أصلحه الله» [٩٧] و «اكرمه الله»[٩٨]، «واعز الله نصره»[٩٩]، ويبدو أن عبد الله بن زيد كان يتولى الإشراف على سك الفلوس بحمص في عهد الأمير عمروبن عيسى في نهاية القرن الثاني الهجري / الثامن للميلاد لأن اسمه مسبوقا بعبارة «على يدى»

(٩٠) الموصلي، **الموجز**، ص٤١؛ إدورد فون زامباور، **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، اخرجه زكي حسن وآخرين (بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م)، ص٤٩.

(٩١) الموصلي، **الموجز**، ص٤٢.

(٩٢) زامباور، **معجم الأنساب**، ص٤٩.

(٩٣) زامباور، **معجم الأنساب**، ص٥٧.

(٩٤) ابن الأثير، **الكامل**، جـ٦،ص١٧٤.

(٩٥) Ilisch, "Die Umayyadischen", p. 28, no. 14b.

(٩٦) Lane - Poole. *Catalogue of Oriental*, no. 165; Lavoix. *Catalogue des Monnaies*, nos.1658 - 1659; Ilich, "Die Umayyadischen", 29,no. 15;

(٩٧) يوجد بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة العديد من نماذج الفلوس التي ترجع إلى للعصر العباسي (القرن ٢هـ / ٨م) وعليها العبارة المذكورة، وهذه الفلوس مسجلة تحت أرقام ١٦٩٩٥/٩، ٦٧٢٤/٢٢، ١٧٩٦٣/٢، ٢٠٤٦٥، ٢١٣٨٤/١، ٢١٣٨٤/٢، ٢٢٥٣٤/٤، ٢٢٥٣٤/٥، ٢٢٥٣٤/٦، ٢٢٥٣٤/٧، ٢٢٥٣٤/١؛

Lavoix, *Catalogue des Monnaies*, no. 663.

(٩٨) يوجد بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة بعض نماذج الفلوس العباسية التي تحمل العبارة الدعائية المذكورة وهي مسجلة تحت رقم ١٦٦٩٠، ١٧٨٥٠.

(٩٩) هناك نماذج من الفلوس العباسية التي ترجع إلى فترة البحث تحمل العبارة المذكورة وهي محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة تحت أرقام سجل٦٧٢٤/٣١، ٢٨٦٣، ١٦٩٩٥/٥، ١٦٩٩٥/١٢، ١٧٨٧٩، ٢٠٤٦٤.

وهي تعنى تحت إشراف، أي أن فلوس هذا الطراز قد ضربت تحت إشراف عبد الله بن زيد. وقد وردت عبارة «أبقاه الله» في هامش وجه فلس عباسي ضرب بخارا سنة ١٨٥هـ باسم الأمير علي بن عيسى في ولاية سعيد بن جعفر[١٠٠]، وربما يكون الأمير عمرو بن عيسى، هو شقيق الأمير على بن عيسى هذا ومعاصراً له. ويرجح هذا ورود اسم عمرو بن عيسى على فلوس عباسية من ضرب حلب ترجع الى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري. وهذه الفلوس ربما ضربت خلال الفترة من سنة ١٧٠هـ إلى ١٩٢هـ وهي الفترة التي ضمت خلالها حلب ثغور قنسرين والجزيرة واتخذت اسم العواصم وهي الفترة الشاغرة في زامباور.

وفي ضوء ما سبق يتضح أن فلوس حمص المضروبة خلال القرنين الأول والثاني الهجريين والتي وصلتنا حتى الآن تحمل أسماء ثلاثة من المشرفين على دار السك وهم مروان بن بشير وعبد الكريم، وعبد الله بن زيد.

هذا وقد ضربت الطرز من الأول إلى الثالث والعشرين خلال العصر الأموي، وعلى وجه التحديد خلال الفترة منذ تعريب الفلوس في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٧٧هـ / ٦٩٦م وحتى سقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م. أما الطرز الثلاثة الأخيرة وهي من الرابع والعشرين إلى السادس والعشرين فقد ضربت في أوائل العصر العباسي أما الطرازين الرابع والعشرين والخامس والعشرين فقد ضربا خلال العقدين السادس والسابع من القرن الثاني الهجري في حين أن الطراز الأخير وهو السادس والعشرين قد ضرب في نهاية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي.

ثانيا : الطرز الجديدة

تبلغ عدد الطرز الجديدة التي تنشر في هذا البحث لأول مرة ستة طرز تمثل إضافات جديدة في الفلوس الإسلامية بصفة عامة، وفي فلوس حمص بصفة خاصة، وهذه الطرز لم يسبق نشر مثيل لها من قبل على يد أحد من الباحثين في السكة الإسلامية مثل شنيكل، ولينبول، ولا فواه، ونوتزل، وميلز، وولكر، وجريرسون، وبيتس، وميتشنر، وايلش، واودى ومحمد الخولى وغيرهم. وهذه الطرز هي:

الطراز الأول

يتميز هذا الطراز بأنه عبارة عن كتابات كوفية في أسطر أفقية متوازية داخل بقايا دائرة من حبيبات. وتشتمل كتابات الوجه على أربعة أسطر نصها: «لا ا[له]ـ الا اللـ[ـه]ـ وحده ـ حمـ[ص]». بينما يبلغ عدد أسطر الظهر ثلاثة أسطر متوازية نصها: «محمد ـ رسول ـ الله.» ويوجد من هذا الطراز نموذج محفوظ باحدى المجموعات الخاصة لم يسبق نشره.[١٠١] (لوحة رقم ٤، مسلسل رقم ٧). هذا ويلاحظ ان شهادة التوحيد التي جاءت بالوجه، وكذلك الرسالة المحمدية التي وردت بالظهر قد ظهرتا كثيراً على الفلوس الأموية بنفس الترتيب منها فلس ضرب بدمشق سنة ٨٧هـ /(٧٠٥م) في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك.[١٠٢]

ويمتاز هذا الطراز بوجود اسم مكان السك أسفل شهادة التوحيد وذلك بالسطر الأخير لكتابات الوجه البالغ عدد أسطرها أربعة. وهناك طراز من الطرز المنشورة يشبه هذا الطراز في نصوص كتاباته وهو الطراز الرابع عشر السابق الحديث عنه.

ولكن هذا الطراز ينفرد عن الطراز الرابع عشر بأن اسم مكان السك ورد هنا بالسطر الأخير هكذا: «حمص»، بينما جاء في الطراز الرابع عشر هكذا: «بحمص» أي بباء قبل اسم مكان السك.[١٠٣] كذلك فإن هذا الطراز يختلف عنه بوجود زخرفة نباتية عبارة عن ورقة نباتية ثلاثية الفصوص بجوار لفظ الجلالة (الله) بالسطر الأخير لكتابات الظهر كما أن هذا الطراز يتميز عن الطراز الرابع عشر المنشور بأنه

(١٠٠) Lane - Poole, *Catalogue of Oriental*, vol. IX, p. 97, no. 126; Lavoix, *Catalogue des Monnaies*, nos. 1568 - 1571, 1599; Ilisch, "Die Umayyadischen", p. 29.

(١٠١) يبلغ وزن هذا النموذج ٢,٧٨١ جرام وقطره ١٩مم.

(١٠٢) Walker, *A Catalogue*, p.130

(١٠٣) الخولي «السكة في مدينة حمص»، ص ٦٢ النموذج (٢ ـ ب).

يحيط بكتابات كل من الوجه والظهر بقايا دائرة من حبيبات متماسة.

الطراز الثاني

يشتمل على أربعة أسطر أفقية بكل من الوجه والظهر فقط، ولا توجد به كتابات هامشية. ويحيط بكتابات الوجه دائرة من حبيبات متماسة، بينما يحيط بكتابات الظهر دائرة خطية. وتوجد كتابات الوجه داخل بقايا دائرة من حبيبات ونصها: «محمد ـ رسول ـ الله ـ بحمص» بينما تقع كتابات الظهر داخل دائرة خطية ونصها: ـ «محمد ـ رسول ـ الله ـ بحمـ[ص] «لوحة رقم ٥، مسلسل رقم ٨) ويوجد من هذا الطراز نموذج محفوظ بإحدى المجموعات الخاصة.(١٠٤) وهناك نماذج من الفلوس الأموية تشبه هذا الطراز في اشتمالها على الرسالة المحمدية مختصرة في ثلاثة أسطر داخل دائرة بكل من الوجه والظهر ولكن غير مدون عليها اسم مكان سكها.(١٠٥)

ويتميز هذا الطراز بأن زخارف ونصوص كتابات الوجه والظهر واحدة تقريبا ومتشابهة الى حد كبير ـ عدا بعض الاختلافات البسيطة ـ من حيث نصوصها وترتيبها وكذلك زخرفتها المتمثلة في النجمة الخماسية الأطراف الموجودة بعد لفظ الجلالة «الله» بالسطر الثالث. وهذه النصوص عبارة عن الرسالة المحمدية مختصرة في ثلاثة أسطر يليها بالسطر الرابع والأخير اسم مكان الضرب وهو «حمص». وهناك بعض الاختلافات البسيطة كالدائرة التي تحيط بكتابات كل من الوجه والظهر فنجدها في الوجه مكونة من حبيبات، في حين إنها في الظهر عبارة عن خط وغير كاملة ويتضح ذلك من بقايا الدائرتين. كما أن بقايا دائرة الوجه توجد في الجانب الأيسر بينما تظهر بقايا دائرة الظهر في الجانب الأيمن. كذلك فإن هناك جزء بسيط من كتابات الوجه مفقود في الجهة اليمنى وأيضا فإن هناك جزء بسيط جداً من كتابات الظهر مفقود بالجهة اليسرى، ويجوز أن نسمي الوجه ظهرا والعكس للتشابه الكبير بينهما.

وهناك طراز من الطرز المنشورة يشبه هذا الطراز في نصوص كتاباته وترتيبها فقط وهو الطراز الحادى عشر. ولكن هذا الطراز يتميز عنه بوجود النجمة الخماسية الأطراف بجوار لفظ الجلالة «الله» بالسطر الثالث بكل من الوجه والظهر، كذلك بالدائرة التي تحيط بكتابات كل من الوجه والظهر والسابق شرحها بالتفصيل. وبذلك لا يوجد أي طراز من الطرز المنشورة يماثل هذا الطراز من حيث الجمع بين نفس الكتابات والزخارف معاً وهو ما ينفرد به هذا الطراز عن غيره من الطرز المنشورة أو حتى الجديدة.

الطراز الثالث

يتكون وجهه وظهره من مركز وهامش كتابي واحد. ويوجد بمركز الوجه دائرة بداخلها نجمة سداسية الأطراف، وبهامش الوجه شهادة التوحيد تسير على شكل دائرة عكس اتجاه عقرب الساعة ونصها: «لا اله الا الله وحده.» ويحيط بكتابات وزخارف الوجه من الخارج بقايا دائرة. أما مركز الظهر فعبارة عن هلال مفتوح لأعلى حوله كتابة هامشية تدور عكس اتجاه عقرب الساعة ونصها: «ضرب هذا الفلس ـالـ بحمص». ويحيط بزخارف وكتابات الظهر بقايا دائرة أيضا. ويوجد من هذا الطراز نموذج لم يسبق نشره محفوظ في احدى المجموعات الخاصة.(١٠٦) (لوحة رقم ٦، مسلسل رقم٩).

وينفرد هذا الطراز عن الطرز السابقة سواء المنشورة أو الجديدة باشتماله على نجمة مسدسة الأطراف داخل دائرة بمركز الوجه. وهذا الطراز يشبه الطراز السادس عشر المنشور قليلاً من حيث نصوص كتاباته وترتيبها ورسم الهلال. ولكنه يختلف عنه في أن الهلال ليس بداخله نقطة كما في الطراز السادس عشر المنشور. كما ينفرد هذا الطراز عنه

---

(١٠٤) يبلغ وزن هذا النموذج ١.٦٧٤جرام وقطره ١٥.٥مم.

(١٠٥) Lane - Poole, *Catalogue of Oriental*, vol. I p. 175, no. 13; Lavoix *Catalogue des Monnaies*, no. 1382, Walker, *A Catalogue*, p. 212, no.662.

(١٠٦) يبلغ وزن هذا النموذج ٢.٤٢١جرام وقطره ٢١.٥مم.

بوجود النجمة السداسية الأطراف بمركز الوجه، في حين أن مركز وجه الطراز السادس عشر المنشور يشتمل على نقطة داخل دائرة صغيرة. هذا وقد وردت النجمة المسدسة الأطراف على كثير من الفلوس الأموية منها فلس ضرب طرابلس سنة ١٠٠هـ (٧١٨م) حيث ورد عليه النجمة مرتين بأعلى كتابات كل من الوجه والظهر.[١٠٧]

الطراز الرابع

يتوسط وجهه رسم لحصان واقف في اتجاه اليسار، وحوله بقايا كتابة تسير على شكل دائرة عكس اتجاه عقرب الساعة ونصها: «لا اله (الا الله) وحده». أما ظهره فيوجد به دائرة بداخلها رسم هلال يفتح لأسفل بداخله زخرفة على شكل مثلث ناقص قاعدته. وعلى يسار الهلال زخرفة نباتية تشبه الورقة الثلاثية الفصوص، وأسفل الهلال والزخرفة النباتية سطران متوازيان من الكتابة، العلوي يشتمل على البسملة غير الكاملة هكذا: «بسم الله». أما السطر السفلي والأخير فيتضمن اسم دار السك وهي «حمص». ويوجد من هذا الطراز نموذج لم يسبق نشره محفوظ في احدى المجموعات الخاصة.[١٠٨] (لوحة رقم٧، مسلسل رقم١٠).

وينفرد هذا الطراز عن الطرز السابقة سواء المنشورة أو الجديدة من حيث نصوص كتاباته وزخارفه معاً خاصة الحصان ولا يوجد مثيل له. وقد نشر الأستاذ محمد الخولى فلساً محفوظاً بمتحف دمشق وذكر أن مركز وجهه يشتمل على مقدمة حصان ويعلل عدم رسم حصان كامل على الفلس بقوله أن مسؤول السكة وصل إلى علمه أن ثمة حديث نبوى يندد بمن يحاول رسم الحصان لأنه يضاهي خلق الله لذلك صور مقدمة الحصان فقط.[١٠٩] ولكن هذا الكلام مخالف للواقع، لأن هذا الطراز الجديد الذي نقوم بنشره لأول مرة يثبت عكس ماذكره الأستاذ محمد الخولي ومما يؤيد ما ذكرته هو أن هناك حيوانات وردت كاملة على فلوس حمص في العصر الأموي كالفيل والأسد فلماذا التزم مسؤول السكة برسم مقدمة الحصان ولم يلتزم بذلك عند رسمه للفيل أو الأسد كاملين.

الطراز الخامس

يوجد بوسط وجهه شهادة التوحيد في ثلاثة أسطر نصها: «لا اله ـ الا الله ـ وحده». داخل دائرة غير كاملة يقطعها من أسفل اسم مكان السك وهو «بحمص» المسجل أسفل كتابات الوجه. ويوجد خارج الدائرة جزء من شهادة التوحيد وهو «لا اله الا». كما يتوسط الظهر الرسالة المحمدية مختصرة هكذا: «محمد ـ رسول ـ الله» داخل دائرة غير كاملة يقطعها من أسفل خارج الدائرة كلمة «المؤمنين». ويوجد من هذا الطراز نموذج لم يسبق نشره محفوظ في احدى المجموعات الخاصة.[١١٠] (لوحة رقم٨، مسلسل رقم١١).

وينفرد هذا الطراز عن الطرز السابقة بنصوص كتاباته وترتيبها إذ لا يوجد ما يشبهه قليلا إلا الطراز الأول الجديد. ولكن هذا الطراز يختلف عنه بأن اسم مكان السك ورد هنا مسبوقاً بحرف «الباء» وذلك أسفل شهادة التوحيد بالوجه، وكذلك بوجود جزء من شهادة التوحيد خارج الدائرة غير الكاملة. كما ينفرد ظهر هذا الطراز بوجود كلمة المؤمنين خارج الدائرة التي يوجد بداخلها الرسالة المحمدية: ومن المرجح أن هذا الطراز يعود إلى العقود الستة الأخيرة من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي للتشابه الكبير بين كتاباته وبين كتابات النقود المؤرخة التي ترجع إلى الفترة المذكورة.

الطراز السادس

يشتمل على كتابات مركزية في أسطر أفقية متوازية ـ داخل دائرة ـ بكل من الوجه والظهر يبلغ عدد أسطرها بالوجه ثلاثة أسطر نصها: «لا اله الا ـ الله وحده ـ لا شريك له» كما يصل عدد أسطرها بالظهر أربعة أسطر متوازية نصها: «د ـ محمد ـ رسول ـ

---

(١٠٧) Walker, *A Catalogue*, p.230, no. 750.

(١٠٨) يبلغ وزن هذا النموذج ٢,١٦٨جرام وقطره ١٦مم

(١٠٩) الخولي، «السكة في مدينة حمص»، ص ٧١ النموذج (٣).

(١١٠) يبلغ وزن هذا النموذج ٢,٧٤٩جرام، وقطره ١٩مم.

الله ـ بحمص». ويوجد نموذج ينتمي إلى هذا الطراز لم يسبق نشره محفوظ باحدى المجموعات الخاصة[١١١] (لوحة رقم٩، مسلسل رقم١٢).

وينفرد هذا الطراز عن جميع الطرز السابقة ـ عدا الطراز السادس والعشرين المنشور ـ بوجود شهادة التوحيد كاملة؛ «لا اله الا الله وحده لا شريك له» بالوجه. وتتطابق كتابات وجه هذا الطراز مع كتابات وجه الطراز السادس والعشرين المنشور. ولكنه يختلف عنه في أن مكان السك ورد هنا أسفل كتابات مركز الظهر في حين جاء في الطراز المذكور بهامش الوجه. ومن الواضح أن الطراز الأخير وهو السادس والعشرين هو الوحيد من الطرز المنشورة وغير المنشورة (الجديدة) التي يوجد بها شهادة التوحيد كاملة في اسطر أفقية هكذا: «لا اله الا ـ الله وحده ـ لا شريك له».

وإننا نرى أن الطرز الأربعة الأولى من الطرز الجديدة قد ضربت خلال العصر الأموي، أما الطرازان الخامس والسادس فقد ضربا خلال العصر العباسي وعلى وجه التحديد خلال الفترة من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م وحتى نهاية القرن الثاني الهجري / الثامن للميلاد، وذلك للتشابه بين أسلوب ونصوص كتابة هذه الفلوس وبين أسلوب ونصوص كتابة الفلوس العباسية التي ترجع الى القرن الثاني الهجري / الثامن للميلاد[١١٢]، منها فلس ضرب قنسرين مؤرخ بسنة ١٥٧هـ (٧٧٣م) يحمل بمركز الوجه شهادة التوحيد كاملة في ثلاثة أسطر وبالظهر الرسالة المحمدية في ثلاثة أسطر متوازية أيضا[١١٣]، كما في الطراز السادس الجديد.

هذا ويلاحظ أنه يعلو كتابات ظهر الطراز السادس الجديد حرف «د» وهو من الحروف التي انتشرت كثيرا على النقود العباسية وربما يقصد به الحرف الأول من اسم المشرف على دار السك ليكون مسؤولاً أمام االحاكم في حالة ظهور نقود لا تنطبق عليها المواصفات المطلوبة.

(١١١) يبلغ وزن هذا النموذج ١,٥٢٢جرام وقطره ١٧مم

(١١٢) متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ارقام سجل ٢٧٦٤، ٢٧٦٥، ٢٧٥٩، ٢٧٤١، ٢٧٥٤، ٢٧٥٥، ٢٧٦٠٢.

-Miles, *Excavation*, pp. 52, 53, nos 316 - 318, p.55, nos 327 - 336.p. 59, no 370, p. 63, nos 478 - 488

(١١٣) متحف الفن الإسلامي بالقاهرة سجل رقم ٢٧٥٣

Lavoix, *Catalogue des Monnaies*, p. 444, no. 1599

[لوحة رقم ١]




مسلسل رقم [١]

فلس عربي بتاثيرات بيزنطية ينتمي إلى الطراز الأول من فلوس القسم الأول المضروبة بحمص.




مسلسل رقم [٢]

فلس أموي يحمل صورة الخليفة عبد الملك بن مروان ينسب إلى فلوس القسم الثاني المضروبة بحمص.

[لوحة رقم ٢]




مسلسل رقم [٣]

فلس أموي ينتمي إلى الطراز الثالث من الطرز المنشورة المضروبة بحمص.




مسلسل رقم [٤]

فلس أموي ينتمي إلى الطراز الرابع من الطرز المنشورة المضروبة بحمص.

[لوحة رقم ٣]





مسلسل رقم [٥]

فلس أموي ينسب إلى الطراز الخامس من الطرز المنشورة. ضُرب بحمص سنة ١١٦هـ.





مسلسل رقم [٦]

فلس أموي ضرب بحمص على وجهه صورة فيل وينتمي إلى الطراز السابع من الطرز المنشورة.

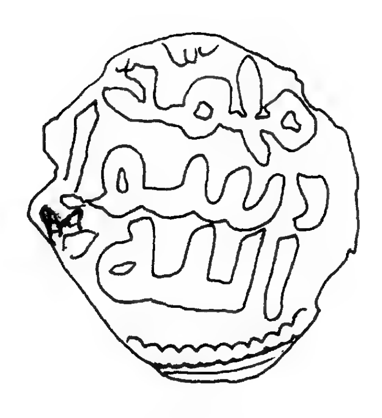
[لوحة رقم ٤]





مسلسل رقم [٧]

فلس أموي ضرب حمص ينتمي إلى الطراز الأول من الطرز الجديدة.





رسم توضيحي لكتابات ونقوش الفلس الموجود صورته عاليه (مسلسل رقم٧) والذي ينتمي إلى الطراز الأول من الطرز الجديدة المضروبة بحمص في العصر الأموي.

[لوحة رقم ٥]




مسلسل رقم [٨]

فلس أموي ضرب حمص ينتمي إلى الطراز الثاني من الطرز الجديدة.




رسم توضيحي لكتابات ونقوش الفلس الأموي الموجود صورته عاليه (مسلسل رقم٨) والذي ينتمي إلى الطراز الثاني من الطرز الجديدة المضروبة بحمص.

[لوحة رقم ٦]




مسلسل رقم [٩]

فلس أموي ضرب حمص ينتمي إلى الطراز الثالث من الطرز الجديدة.




رسم توضيحي لكتابات ونقوش الفلس الأموي الموجود صورته عاليه (مسلسل رقم٩) والذي ينتمي إلى الطراز الثالث من الطرز الجديدة المضروبة بحمص.

[لوحة رقم ٧]





مسلسل رقم [١٠]

فلس أموي ضرب حمص ينتمي إلى الطراز الرابع من الطرز الجديدة.





رسم توضيحي لكتابات ونقوش الفلس الأموي الموجود صورته عاليه (مسلسل رقم١٠) والذي ينسب إلى الطراز الرابع من الطرز الجديدة المضروبة بحمص.

[لوحة رقم ٨]





مسلسل رقم [١١]

فلس ضرب حمص في صدر الإسلام ينتمي الى الطراز الخامس من الطرز الجديدة.





رسم توضيحي لكتابات ونقوش الفلس الموجود صورته عاليه (مسلسل رقم١١) والذي ينتمي إلى الطراز الخامس من الطرز الجديدة المضروبة بحمص.

[لوحة رقم ٩]





مسلسل رقم [١٢]

فلس ضرب حمص في صدر الإسلام ينسب إلى الطراز السادس من الطرز الجديدة





رسم توضيحي لكتابات ونقوش الفلس الموجود صورته عاليه (مسلسل رقم١٢) والذي ينسب إلى الطراز السادس من الطرز الجديدة المضروبة بحمص.

العصور، المجلد السادس، الجزء الأول، ٧١ ـ ١٦٧ (١٩٩١م)

المــدارس المغــربية

«دراسة أثرية معمارية»

للدكتور محمد محمد الكحلاوي

ملخص البحث . يهدف البحث إلى دراسة المدارس المغربية دراسة أثرية ومعمارية، وكان الهدف من اختيار هذا الموضوع هو سد النقص الذي تعاني منه الدراسات الأثرية المغربية بشكل خاص والمكتبة العربية بشكل عام. وعمارة المدرسة المغربية هي واحدة من تلك الدراسات التي لم تحظ بقسط وافر من الدراسة أو التحليل، على الرغم مما يميز عمارتها من عناصر معمارية وفنية فريدة. وقد تطلب البحث الدراسة الميدانية لمواقع تلك المدارس في المغرب لكي تكتمل الدراسة النظرية بالجانب التطبيقي المشاهد.

وقد عولج موضوع البحث من خلال محورين رئيسين:

أولهما : خصص للدراسة الأثرية وأثبت فيه بالأدلة التاريخية أن المغرب الأقصى قد عرف المدارس منذ أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أي قبل عصر المرينيين، كما أوضحت الدراسة الأسباب التي أدت إلى إندثار مدارس المرابطين والموحدين والعوامل المؤثرة على نشأة المدارس المرينية بجانب ما أوضحته الدراسة من إسهامات سلاطين المرينيين في إنشاء المدارس بالمغرب، وما أوقفوه على عمارتها من أحباس صوناً لها وضماناً لتأدية وظيفتها.

ثانيهما : خصص للدراسة المعمارية تطبيقا على المدارس المرينية القائمة مع توضيح أنماطها ومميزاتها وكذلك عناصرها المعمارية التي تنفرد بها من خلال دراسة مقارنة مع مدارس في الشرق الإسلامي وأسهمت بوضع رؤية جديدة حول أصل تخطيط المدرسة. تتمثل في تخطيط المبنى على أضلاع الصحن الداخلي ولذا تشابهت العناصر المعمارية كافة على الواجهات في المنشآت الدينية من الخارج وأصبح من الصعب على غير الأثري معرفة وظيفة المبنى إلا بدخوله.

وأخيراً يحتوى البحث على دراسة بعض من نماذج تلك المدارس، زودت بالأشكال التوضيحية والصور الفوتوغرافية.

مقدمة

من أبرز ما يميز العمارة الإسلامية في شرق العالم الإسلامي وغربه الاهتمام الكبير ببناء المدارس والتي يعد إنشاؤها من المنجزات العظيمة من الناحيتين العلمية والفكرية وكذلك من الناحية المعمارية الفنية،[1] ولئن كانت الدلائل المادية قد اثبتت فضل

(١) حسين أمين، «المدارس الإسلامية في العصر العباسي وأثرها في تطوير التعليم»، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية في ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى احمد فكري، ١٩٧٦م. (الإسكندرية مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٣م)، ص ١٠٣.

مدينة نيسابور كرائدة بين المدن الإسلامية في إنشاء المدارس[٢] إلا أن ما شيد منها في مصر والشام والعراق والمغرب واليمن يعد إنجازاً حضارياً فريداً في العالم الإسلامي.[٣]

ولئن كان هذا البحث قد خصص عن المدارس المغربية فقط، فإن هذا يرجع إلى كثرة ما كتب عن مدارس المشرق الإسلامي في مصر والشام والعراق واليمن من قبل أساتذتنا من المستشرقين والعرب الذين عالجوا في أبحاثهم كثيراً من النقاط المتعلقة بدراسة المدرسة من جميع زواياها المعمارية والفنية والوثائقية.[٤]

أما المدارس المغربية التي اقتصر عليها البحث فلم ينلها من الاهتمام ما نال مدارس المشرق الإسلامي على الرغم مما تمتاز به عناصرها من أصالة معمارية فريدة تكاد تشكل في مجموعها طرازاً فنيا مستقلا.[٥]

نشأة المدارس في المغرب

أكد بعض المؤرخين أن المغرب لم تعرف بناء المدارس إلا في بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ أوائل النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، أي في عهد حكم المرينيين[٦] ومن هؤلاء ابن مرزوق الذي قال: «إن إنشاء المدارس كان في المغرب غير معروف حتى أنشأ مولانا .. الملك العابد [السلطان ابو الحسن علي] مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس»[٧] وأكد ذلك بعض من الباحثين العرب

---

(٢) تعد المدرسة التي أنشأها ابن فورك في نيسابور أقدم مدرسة إذ يرجع تاريخ إنشائها إلى ما قبل سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م. أنظر حسن الباشا، **الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ثلاثة أجزاء** (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٥٧م)، جـ٣، ص ١٠٤٨؛ أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**، الجزء الثاني **العصر الأيوبي** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م)، ص ٩٩؛ وانظر عبد العزيز حميد، «عمارة الأربعين في تكريت»، **مجلة سومر**، عدد ٢١ (بغداد، ١٩٦٥م)، جـ٢، ص ١٢٧.

(٣) أنظر *Encyclopedia of Islam, Architecture* Vol I. (Leiden, 1952).

(٤) راجع K. Creswell. *Muslim Architecture of Egypt* 2 Vols (Oxford: Clarendon Press, 1952). K. Creswell. "The Origins of Cruciform Plan of Cairene Madrasas." *Bulletin de l'Institute Francais d'Archeologie Orientale*, Tome, XXI. (1922), pp. 1-54 ; Andre Godard. "L'origine de la Medrasah de La Mosquée et du caravanserail a quatre Iwans." *Ars Islamica*, Vol. XV. (1951), pp 1-9

وعن المراجع العربية، راجع:

فكري، **مساجد القاهرة**، جـ٢، الباشا، «دراسة جديدة في نشأة الطراز المعماري للمدرسة المصرية ذات التخطيط المتعامد»، **مجلة كلية الآثار**، العدد الثالث (القاهرة، ١٩٨٩م)؛ محمد مصطفى نجيب، «نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامدة خلال العصر المملوكي»، **مجلة الآثار**، الكتاب الذهبي (القاهرة، ١٩٧٨م)؛ فريد شافعي، **العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها** (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٩٨٢م)؛ عباس حلمي، «المدارس الإسلامية ودور العلم وعمارتها الأثرية: نشأتها وتاريخها وتخطيط عمائرها»، **مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية**، مكة المكرمة، العدد الثالث، (١٣٩٨هـ)، ص ص ١٣٥ ـ ١٧٠.

(٥) كان المغرب الإسلامي أقل حظاً من المشرق إذ لم ينله من البحث إلا القليل ومن أهم الأبحاث التي تناولت موضوع المدارس في المغرب من خلال النصوص الكتابية كتاب *Inscriptions Arabes de Fes* للمؤلف Alfred Bell

وهناك بحث آخر للباحث Charles Terrosse تحت عنوان "Medersas du Moroc"

وهذا البحث اقتصر على ذكر مدارس فاس فقط بإيجاز شديد. إلى جانب مقالة السيد عبد العزيز سالم عن «مدارس فاس فقط»، **بمجلة الشعب**، عدد ٧٨، جـ٢ (القاهرة، ١٩٦٠م)، ص ص ١٩٨ـ٢٠٧.

(٦) بنو مرين هم فخذ من زناتة وهم ولد مرين بن ورتاجن بن ماخوخ. [حكموا من ٦١٦هـ/١٢١٩م إلى ٨٣١هـ/١٤٢٦م] انظر علي بن ابي ذرع الفاسي، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، (الرباط: دار المنصور، ١٩٧٢م)، ص ١٤.

(٧) محمد بن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا ابي الحسن**، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا (الجزائر الوطنية، ١٩٨١م)، ص ٤٠٥.

والأجانب،[٨] وأصبح تاريخ إنشاء المدارس بالمغرب مرتبطا كل الارتباط بالدولة المرينية، والباعث على ذلك هو بقاء معظم عمائر المدرسة المرينية قائمة إلى اليوم بعضها في حالة جيدة والبعض الآخر منها تداعت أجزاؤه المعمارية، ولكن في ظل بقاياه القائمة يستطيع المرء أن يدرك مخططها الأول، وعلى هذا ربط الباحثون بين عمارة المدرسة القائمة وبين عصر إنشائها ولم يلتفتوا إلى ما أنشيء منها في فترة سابقة على العصر المريني[٩] إذ لم تصلنا من عصر المرابطين[١٠] والموحدين[١١] مدارس قائمة بل ولم تصلنا حتى بقايا من أنقاضها تؤكد وجود مثل هذه المدارس.

والحقيقة أن بلاد المغرب، قد عرفت بناء المدارس منذ نهاية القرن الخامس الهجري/ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، طبقا للدلائل التاريخية التي دونت من قبل بعض المؤرخين المعاصرين لأبنية تلك المدارس حينذاك، إذ كشفت كتب الطبقات النقاب عن المدارس التي انتشرت في عهد المرابطين، ومن أشهر هذه المدارس مدرسة «فاس» ومدرسة «سبتة التي أنجبت عالماً جليلاً هو القاضي عياض[١٢]، كما انتشرت المدارس المرابطية في «طنجة»، «اغمات»، «وسجلماسة» «وتلمسان» «ومراكش»، كما نهضت مدارس الأندلس في عهد المرابطين بعد أن اطمأن علماؤها وشيوخها وطلابها من زوال خطر غارات الممالك المسيحية عليهم، ومن أهم مدارس الأندلس، مدرسة قرطبة، ومرسيه، والمريه، واشبلية، وطرطوشة، وغرناطة، وسرقطه ...وغيرها.

ومن الأرجح أن تكون تلك المدارس، قد تعرضت على يد الموحدين للهدم والتغير، إذ كان ما يدرس فيها على يد فقهاء المرابطين في نظر ابن تومرت هو خروج عن تعاليم الدين الإسلامي، إذ أظهر فقهاء المرابطين تشدّد كبير في معارضة تعاليم الإمام الغزالي الذي كان يدين له ابن تومـرت بالولاء ويقدره كل التقدير وكان حريصا على نشر تعاليمه في المغرب بعد عودته من المشرق، ومن أهم الأشياء التي حملت الموحدين على محاربة المرابطين هو عدم أخذهم بتأويل القرآن الكريم، كما تركز الجدال وكفّروا كل من ظهر منه خوض في علوم الكلام، كما اهتموا بعلم الفروع على مذهب الإمام مالك، وفي ذلك يقول عبد الواحد المراكشي: «لم يكن بقرب من أمير المسلمين [على بن يوسف] ويحضر عنده إلا من عَلِم علم الفروع، اعنى فروع مذهب مالك... حتى نسى النظر في كتاب الله واحاديث الرسول ﷺ»[١٣] كما تصادف حينذاك أن وصلت رسائل إخوان الصفا إلى المغرب وانتشر ما فيها من أفكار، أدت إلى انتشار الأفكار الفلسفية، كل ذلك سيعطي للموحدين حق اتهام المرابطين بالتكفير

---

(٨) Terrosse "Medersas", p. 11.

وانظر روجيه لوتورنو، **فاس في عصر بني مرين**، ترجمة نقولا زيادة (بيروت: مؤسسة فرانكلين، ١٩٦٧م)، ص١٦٧.

يذكر إبراهيم حركات أن المرابطين هم أول من أسسوا المدارس بالمغرب ومن أشهر مدارسهم مدرسة اجلو التي بناها وكاك بن زلوك قرب تزينت ولكنها اندثرت من قرون.

انظر إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ** (الدار البيضاء: دار السلمى، ١٩٦٥م)، ص ٢٤٣.

(١٠) سموا بالمرابطين لاجتماعهم مع شيخهم (عبد الله بن ياسين) في رباط انشاه لهم في صحراء مراكش، وكان أكثرهم من قبائل لمتونه البربرية، انظر: علي بن ابي ذرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** (الرباط: دار المنصور، ١٩٧٣م)، ص ١٢٥.

ويعرفون كذلك بالملثمين لأنهم كانوا يتلثمون في زيهم كالنساء. انظر حركات، **المغرب**، ص ١٦٥.

(١١) الموحدون من بربرة المصامدة كانوا يقطنون جبال الأطلس الكبير والتفوا حول رجل يدعى محمد بن تومرت استطاع أن يجمع من حوله مجموعة كبيرة منهم نجحوا في القضاء على حكم المرابطين واستولى على مراكش في ٥٤١هـ: انظر جان وجيروم طارو، **ازهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين**، ترجمة احمد بن فريح ومحمد الفاسي (الرباط: الدار الوطنية، ١٣٤٩هـ)، ص ١٢٤.

(١٢) ابن الآبار، ابو عبد الله محمد بن ابي بكر القضاعي، **التكملة لكتاب الصلة**، جزءان (مدريد، د.ن، ١٨٨٦م)، جـ١، ص ٧٣: وانظر حسن احمد محمود، **قيام دولة المرابطين** (القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥٧م)، ص ص ٤٣١-٤٣٢.

(١٣) عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص اخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٧٨م)، ص ٢٥٤.

ويروا في محاربتهم جهاداً في سبيل الله. وما أحدثه ذلك بطبيعة الحال من أثر سيء على مدارس المرابطين.

أما الدولة الموحدية فقد أنشأت نظامها الإداري معتمدا على طبقة تعد من أهم طبقات المجتمع الموحدي حينذاك وهي طبقة الطلاب أو «مملكة الطلاب» ويليهم الشيوخ. أي شيوخهم الذين أوكل اليهم أمر هؤلاء الطلاب من الناحية العلمية والفقهية.

وقد اعتمدت الدولة الموحدية على هذه الطبقة اعتمادا كبيرا منذ أن دعا إلى قيامها مؤسسها محمد ابن تومرت الموحدي[١٤]، الذي يكفل لهؤلاء الطلبة في حياتهم كافة أنواع الرعاية والحماية والعناية.. وكذلك اهتم خلفاؤه «بطلبة الموحدين» اهتماما خاصا انعكس على بنائهم الكثير من المكاتب والمدارس والمعاهد في المغرب والأندلس.[١٥]

وتحفل كتب المؤرخين بكثير من المعلومات التي تفيد اهتمام الخلفاء الموحدين بطلابهم وإنشائهم المدارس ، ويكفي أن نشير هنا إلى نص ابن القطان على ما قام به الخليفة عبد المؤمن الموحدي لدى طلبة الموحدين فقال: «كان الخليفة عبد المؤمن يستدعي الصبيان الصغار من أبناء أقاليم أشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان إلى حضرته ليعلمهم ويحفظهم القرآن والأحاديث وأنشأ لهم مدارس يتلقون العلم فيها تعرف بمدرسة أبناء الأقاليم.»[١٦]

ولو نظرنا الى سياسة الدولة الموحدية تجاه التعليم لوجدنا أن الخليفة عبد المؤمن قد جعل نظام التعليم إجباريا ويسري على كل من انضوى تحت لواء الدولة ووضع لهم المناهج التي تدرس وأشرف بنفسه عليها، ويوضح صاحب كتاب الاستبصار هذا الإشراف المباشر من قبل الخليفة على الطلاب فيقول: «فكان جميع الحفاظ في قصره هم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة واحدة.»[١٧]

وكانت هناك محاولات لبناء مدارس من قبل العامة في العصر الموحدي على نمط عمارة المدارس التي شيدت في مصر والشام حينذاك والتي ترجع إلى العصر الأيوبي، وتتمثل هذه المحاولة في المدرسة التي أنشأها أبو الحسن الشاري الخافقي والذي أراد أن يجعلها على النسق الجاري بمدارس الشرق.. ولكن أعاقه عن إتمامها قواطع الفتن.[١٨]

وقد سجلت نصوص المؤرخين وعيون الرحالة إشارات كثيرة عن مدارس شيدت في العصر الموحدي على يد خلفائها[١٩] ومنها ماذكره ابن ابي ذرع فقال: «وبنى أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن ابن علي (المتوفي في ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م)، بنى المدارس في بلاد المغرب والأندلس.[٢٠]

وكذلك يرجع إلى الخليفة يعقوب المنصور (المتوفي في ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م) بناؤه مدرسة بمدينة المهدية سميت باسمها[٢١]كما شيد بمدينة (سلا) المغربية مدرسة في جوف مسجدها[٢٢] وفي عهد ابنه الخليفة

(١٤) شيخ الموحدين: هو نائب السلطان ويسمى بالشيخ العظيم ويطلق عليه لقب المزوار والذي يقوم بعرض الموحدين وتفقد أحوالهم: - انظر صالح ابو ديك، **النظام السياسي عند الحفصيين، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية** (الأسكندرية: شباب الجامعة، ١٩٨٣م)، ص ٢٣٠.

(١٥) انظر التازي، **جامع القرووين**، جـ١، ص ١٢٣

(١٦) أبو الحسين بن القطان، **نظم الجمان**، تحقيق علي مكي (تطوان، ١٩٦٥م)، ص ١٣٩، ١٤٠.

(١٧) مؤلف مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد (بغداد: دار الشئون الثقافية، ١٩٥٨م)، ص ص ٢١٠ - ٢١١.

(١٨) محمد المنوني، **العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين**، (تطوان: معهد مولاي الحسن، ١٩٥٠م)، ص ٢١.

(١٩) محمد محمد الكحلاوي، **العمارة الإسلامية في الغرب الإسلامي، عمائر الموحدين الدينية في المغرب**، رسالة دكتوراه محفوظة بكلية الآثار بجامعة القاهرة، (١٩٨٦م)، ص ص ١٢٠ - ١٢١.

(٢٠) ابن ابي ذرع، **الأنيس المطرب**، ص ٢١٧.

(٢١) ابن ابي ذرع، **الأنيس المطرب**، ص، ٢١٧.

(٢٢) العيني بن بدر الدين محمود، **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م)، جـ، قسم ٢، ص ٢٣٥؛ وانظر : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ٨ أجزاء (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٤م)، جـ٢، ص١٨٨.

الناصر (المتوفي في ٦١٠هـ / ١٢١٣م) شيد عشرين مدرسة في مملكته بالمغرب[٢٣] والأندلس.

كذلك سجلت عيون الرحالة أوصافا لعمارة المدرسة في مراكش حيث وصف لنا الوزان مدرسة القصبة بأنها في غاية الحسن وكانت تحتوي على ثلاثين حجرة وقاعة في الطبقة الأرضية كانت مخصصة للدروس وكان لكل طالب مقبول في المدرسة نفقة تصرف عليه وكسوة أيضا تصرف مرة كل عام، وكان الأساتذة يتقاضون مرتبا يقدر من مائة الى مئتي مثقال،[٢٤]، تقدر بحسب الدروس التي يلقونها على الطلاب.[٢٥]

ثم ينتقل الوزان إلى وصف التكسيات التي غطت جدران المدرسة من الداخل والخارج ويقارن بينها وبين ما شابهها في اسبانيا وإيطاليا.[٢٦]

وإذا كانت الاستدلالات السابقة حول نشأة المدرسة في العصر الموحدي قد اعتمدت على النصوص التاريخية فقط فإن الله قيض لي دليلا ماديا عن وجود هذه المدارس في المغرب منذ عصر الموحدين وهو الدليل الذي اهتديت إليه في أثناء بحثي بخزانة ابن يوسف بمراكش حيث عثرت على مخطوط يحتوي على نص تحبيس باسم الخليفة ابن عبد الله بن ابي حفص عمر المرتضي الموحدي ونص تحبيسه مسجل على الورقة الأخيرة ويقرأ: «وقيده لسيدنا ومولانا الأمير المجاهد في سبيل الله ابي عبد الله سيدنا ومولانا المجاهد في سبيل الله ابي حفص بن سيدنا الإمام أمير المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين وأبقى بركاتهم على المدرسة الواقعة بقصر مراكش.»[٢٧]

وهذا النص يؤكد ما ورد من نصوص تاريخية بوجود المدرسة في العصر الموحدي، ولكن يبقى هناك تساؤل يفرض نفسه ألا وهو معرفة الأسباب التي أدت الى اندثار عمارة المدارس الموحدية بهذا الشكل وما ترتب عليه من افتقاد حلقة مهمة من حلقات عمارة المدرسة في المغرب.. والواقع يجعلنا نرجع ذلك إلى عدة أسباب منها:

١ - أن المدارس الموحدية كانت تستقبل نوعية خاصة من الطلاب.. فهي بذلك لم تكن مدارس عامة وإنما مدارس خاصة لإعداد كوادر جديدة من طبقة الطلاب الذين يقع على عاتقهم عبء نشر الدعوة الموحدية بعد ذلك، بينما خصصت المساجد العامة للتعليم العادي لأبناء المغرب والأندلس.[٢٨]

٢ - ظهور نوع من المدارس المتخصصة لتخريج طبقة من الموظفين لخدمة أغراض الدولة السياسية.[٢٩]

٣ - مناهج التعليم الموحدي والتي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالايدلوجية الموحدية المتمثلة في الكتب التي وضعها ابن تومرت[٣٠] مثل كتاب التوحيد، والمرشد، والجفرة..[٣١]وهي المناهج التي حرض المرينيون على محاربتها بشتى الوسائل، والعودة إلى الاجتهاد والسنة مرة أخرى.[٣٢]

---

(٢٣) عبد الرحمن بن ابي بكر. **البستان في أخبار الزمان** (القاهرة د.ت). ص ٣٠

(٢٤) حسن حسني عبد الوهاب. **النقود العربية في تونس** (د.م. ١٩٥٨م). ص٣٥، ٣٦

(٢٥) إبراهيم حركات. **السياسة والمجتمع في العصر السعدي** (الدار البيضاء دار الرشاد الحديثة. ١٩٨١م). ص ٢٩٨

(٢٦) الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بجان ليون الافريقي. **وصف افريقيا**. ترجمة محمد حجي. محمد الأخضر. حزان. (الرباط الجمعية التاريخية للتاليف والترجمة والنشر. ١٩٨٠م). جـ١. ص ١٠٤.

(٢٧) محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي القرطبي. تو في ٦٢٠هـ. والمخطوط في حالة سيئة وتبلغ عدد صفحاته ٢١٠ صفحات ومتوسط عدد السطور في كل صفحة ٢١ سطرا مكتوب بالخط المغربي بمداد اسود والمخطوط مقسم إلى عشرة أبواب كلها تتحدث عن الجهاد وهو محفوظ بخزانة ابن يوسف بمراكش.

(٢٨) عبد الهادي احمد الحسيسي. **مظاهر النهضة الحديثة في عهد يعقوب المنصور** (المغرب لجنة إحياء التراث الإسلامي. ١٩٨٢م). جـ١. ص٧٢

(٢٩) حركات. **المغرب**. ص ٢٦٧

(٣٠) الحسيسي. **مظاهر النهضة**. جـ١. ص ٧٢

(٣١) الحسن السائح. **الحضارة المغربية عبر التاريخ** (الدار البيضاء دار الثقافة. ١٩٧٥م). جـ١. ص١٧٨، ١٧٩

(٣٢) لوتورنو. **عصر بني مرين**. ص ص ١٧٢ - ١٧٣

وبناء على هذه الأسباب نرى أن المدرسة الموحدية ومنهجها بل وطلابها قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بكيان الدولة الموحدية أكثر ما تكون ارتباطها بالناحية التعليمية الإسلامية بشكل عام.

وعلى هذا ارتبط وجود هذه العمائر مع وجود الدولة نفسها وكان من المناسب أن ينكمش دورها وتزول هذه النوعية من المدارس بزاول ملك الدولة الموحدية نفسها.

المدارس المغربية في العصر المريني وأسباب نشأتها:

تعد المدارس المرينية من أعظم العمائر الدينية في المغرب المريني حيث حفلت مدن المغرب في العصر المريني بالمدارس وخاصة مدينة فاس عاصمة ملكهم، ودار حكمهم في ذلك الوقت[٣٣] وقد شيدت تلك المدارس لنشر العلم وإيواء طلابه شأنها في ذلك شأن ما بني منها من مدارس في المشرق الإسلامي. وكان الباعث على إنشاء المدارس في العصر المريني هو نتيجة الفراغ الكبير الذي خلفه سقوط المدن العلمية الأندلسية في قرطبة، وأشبيليه وما أحدثه ذلك من أثر على الثقافة المغربية حيث ولى المغاربة وجوههم شطر المشرق مستعيضين بذلك عما فقدوه في قرطبة وأشبيليه.. وقد تطلع المغاربة إلى مصر القاعدة العلمية للشرق في ذلك الوقت وبدأوا في تنمية أواصر الصلات بين مصر والمغرب.[٣٤]

وبدات الثقافة المغربية تطعم بهذا الاتجاه الجديد وتحاول أن تضاعف من اقتباسها من الطابع الشرقي والذي برز بشكل واضح في اقبال المرينيين على بناء المدارس[٣٥] متأسية في ذلك بمصر التي وصلت عمارتها في ذلك الوقت إلى قمة نضجها المعماري والفني.[٣٦] ونجحت مدينة فاس في أن تصبح مركز الإشعاع العلمي والحضاري في بلاد المغرب والأندلس.[٣٧] وكان نتيجة ذلك أن ظهرت التأثيرات الشرقية في العمارة المغربية.[٣٨] كما ظهرت في الشرق التأثيرات المغربية وبخاصة في مصر التي انتقلت اليها التأثيرات المغربية وأصبحت تشاهد على العمائر المملوكية،[٣٩] كما أصبحت التأثيرات المملوكية تشاهد على العمارة المغربية.

وكان الباعث على إنشاء المدارس في العصر المريني أيضا هو رد الفعل الطبيعي ضد العقيدة الموحدية التي انتشرت انتشاراً سريعا وواسعا على يد شيوخها وطلابها، وهما التنظيمان الأساسان في كيان التنظيم الإداري للدولة الموحدية.[٤٠] ولما كانت دولة المرينيين هي الدولة التي أسقطت حكم الموحدين بالمغرب، لذلك عملت منذ أن وطئت أقدامها أرض المغرب على إزالة ما تبقى من آثار الدولة الموحدية واستطاعت أن تتصدى بكل حزم لمحو الفكر العقائدي والذي بني على اعتناق فكرة الإمام المعصوم، وهي أفكار قائمة على التشيع. فقام المرينيون بنقل عاصمة ملكهم من مراكش إلى فاس التي جعلوها بحق أكبر عاصمة

---

(٣٣) عن بناء مدينة فاس الجديدة، انظر ابن ابي ذرع، **الذخيرة**، ص ١٦٢.

(٣٤) محمد المنوني، **ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٧٩م)، ص ١٩٧.

(٣٥) المنوني، **عصر بني مرين**، ص١٩٧.

(٣٦) سجل لنا الرحالة ابن بطوطة في أثناء زيارته لمصر تعجبه من كثرة مشاهدته من عمائر المدارس فقال (وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها). ومن الجدير بالذكر أن هذه الفترة في مصر كانت تعاصر حكم المرينيين في المغرب، انظر: ابو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة** (بيروت: دار بيروت، ١٩٨٥م)، ص ٣٧.

(٣٧) المنوني، **عصر بني مرين**، ص ٢٠٠؛ حركات: **العصر السعدي**، ص ٢٨٦.

(٣٨) يذكر عبد العزيز بن عبد الله، أن المدرسة البوعنانية بفاس تتشابه من ناحية التخطيط والترخيم مع مدارس الشرق، انظر عبد العزيز بن عبد الله، **تاريخ الحضارة المغربية**، جزآن: (الدار البيضاء: دار السلمي، ١٩٦٢م)، جـ٢، ص ٣٥.

(٣٩) Farid Shafi, "West Islamic Influences on Architcture in Egypt before the Turkish Period" Reprint from the *Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University*, Vol. XVI, Part II (December 1954), pp. 31 - 37.

(٤٠) Terrosse, "Medersas," p.2.

علمية شهدها المغرب الأقصى.. إذ شيدوا فيها من المدارس في فترة وجيزة ما يقرب من خمس عشرة مدرسة ونجحوا في التصدي للأفكار العقائدية الموحدية بنشرهم لمذهب الإمام مالك السني وكانوا من أكبر حماته، وقد تبارى أمراؤهم في تشييد المدارس في جميع أنحاء المغرب لتثبيت المذهب الجديد،[٤١] ونجحوا في ذلك نجاحا كبيرا وخلفوا لنا من ورائهم مدارس ضخمة تنم عن عظمة منشئيها كما تعد عمارتها من أعظم ما خلفته الحضارة المغربية بشكل عام.

ومن الثابت أن معظم مدارس المغرب المرينية قد شيدت في بداية القرن الثامن الهجري/ أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، وهي فترة اتسمت من الناحية السياسية بالاستقرار الداخلي والرخاء الاقتصادي، وقد تميزت عمارة المدرسة بعدة خصائص من الناحية الفنية نتيجة إقبال المرينيين على إثراء مدارسهم بالزخارف والنقوش التي تتسم بالحيوية والأناقة وروعة التصميم على عكس من سبقهم من الموحدين الذين ابتعدوا عن زخرفة منشأتهم الدينية وفقا لدعوتهم التي تحث على التقشف والبعد عن الزخرفة.[٤٢]

وأول مدرسة أنشأها المرينيون في المغرب كانت في مدينة فاس سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٤م، وهي مدرسة الصفارين التي أنشئت على يد السلطان أمير المسلمين[٤٣] أبي يوسف بن عبد الحق.[٤٤]

ومع بداية القرن الثامن الهجري/ أوائل القرن الرابع عشر الميلادي كان قد وصل الفن المريني إلى قمة ازدهاره ورقيه حيث شيدت في تلك الفترة معظم المدارس المرينية التي تقاسم إنشاءها كل من السلطان أبي سعيد بن يوسف الذي شيد مدرسة العطارين بمدينة فاس سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م،[٤٥] ومدرسة المدينة البيضاء المعروفة بمدرسة دار المخزن[٤٦] سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢٠م، وابنه السلطان أبي الحسن بن سعيد بن يوسف الذي يعد بحق الرائد الأول في إنشاء المدارس حيث أظهر ولعاً كبيراً بعمارة المدارس منذ أن كان وليا للعهد في فترة حكم والده السلطان أبي سعيد فشارك والده في إنشاء المدارس وزاد عليه بأنه عمم المدارس في كل من المغرب الأقصى والأوسط ويقول ابن مرزوق المؤرخ والمعاصر للسلطان أبي الحسن في حق هذا السلطان: «إن غاية ما يحفظ لملك من الملوك في المشرق مدرسة واحدة أو ما يقرب منها»[٤٧] بينما السلطان أبو الحسن قد أنشأ ما يقر من سبع عشرة مدرسة حيث شيد في كل من مدينة «تازي» و «مكناس» و «وسلا» و «طنجة» و «سبته» و «انفى» و «ازمور» و «أسفى» و «واغمات» و «مراكش» و «القصر الكبير» بالمغرب الأقصى وكذلك شيد في المغرب الأوسط بمدينة «العباد» من تلمسان مدرسة، وبالجزائر أنشأ مدارس مختلفة.[٤٨] هذا بخلاف ما أنشأه من مدارس في مدينة فاس حيث شيد مدرسة الصهريج سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م[٤٩]، ومدرسة السبعين سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م[٥٠]، ومدرسة الوادي سنة ٧٢٥/

(٤١) Terrosse."Medersas."p.4

(٤٢) ذكر ابن أبي ذرع أن الموحدين لما دخلوا الى مدينة فاس. ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م خاف فقهاء المدينة وأشياخهم أن ينتقد عليهم الموحدون ذلك النقش والزخرفة التي فوق المحراب لأنهم قاموا بالتقشف والتقلل فقيل لهم أن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي يدخل غدا المدينة مع أشياخ الموحدين برسم صلاة الجمعة بالقرويين فخافوا لذلك فاتى الحماموت الجامع تلك الليلة فنصبوا على ذلك النقش والتذهيب الذي فوق المحراب وحوله بالكاغد ثم لبسوا عليه بالجص وغسلوا عليه بالبياض فتقضت تلك النقوش كلها وصارت بياضا. ابن ابي ذرع. **الأنيس المطرب**. ص ٦٢

(٤٣) عن لقب أمير المسلمين. أنظر: حسن الباشا. **الألقاب الإسلامية** في التاريخ والوثائق والآثار (القاهرة: دار النهضة، ١٩٥٧م)، ص ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٤٤) علي الجزنائي. **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس** (الرباط المطبعة الملكية، ١٩٦٧م). ص٨١: وانظر ابن مرزوق. **المسند الصحيح**. ص ٤٠٥.

(٤٥) ابن ابي ذرع. **الأنيس المطرب**. ص ٤١٣.

(٤٦) الناصري. **الاستقصا**. جـ٣. ص١١١.

(٤٧) ابن مرزوق. **المسند الصحيح**. ص ٤٠٥

(٤٨) ابن مرزوق. **المسند الصحيح**. ص. ٤٠٥

(٤٩) ابن ابي ذرع. **الأنيس المطرب. ص ٤١٢**.

(٥٠) المنوني. **عصر بني مرين**. ص ١٩٨.

١٣٢٤م[٥١] ومدرسة الرخام (المصباحية) سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٣م[٥٢] وعلى قدر همة هذا السلطان في بناء المدارس ظهرت له همة أخرى وهي أنه جعل من عمارة تلك المدارس مجمعات للفنون وفي هذا يقول ابن مرزوق «فمدرسة سبته غاية وأعجب منها مراكش، وتليها مدرسة مكناس وكلها قد اشتمل على المباني العجيبة والصنائع الغريبة والمصانع العديدة والاحتفال بالبناء والنقش والجص والخشب والفرش على اختلاف أنواعه من الزليج البديع والرخام المجزع والخشب المحكم النقش،»[٥٣] والنص يدل على أن مدارس السلطان أبي الحسن وبخاصة التي شيدت في فاس وسلا ومراكش كانت ومازالت تعبر عن تفوق المرينيين المعماري والفني في هذا المجال.

أما مدرسة «تازي»[٥٤] و«طنجة» و«القصر الكبير»[٥٥] و«أغمات» و«سبته» و«أزمور» فلا يمكن مقارنتها بمدارسه السابقة نظراً لبساطة عمارتها وقلة زخرفتها.[٥٦]

وقد حافظ السلطان أبو الحسن على بقاء مدارسه إلى اليوم بفضل الأوقاف الكثيرة التي أوقفها عليها، وتزخر لوحات الحبوس المثبتة على واجهات تلك المدارس من الداخل على قائمة كبيرة باسماء تلك المنشآت وكذلك ما تضمنته نصوص الأحباس على إقرار من الموقف بترتيب مدارسه من الناحية الإدارية والوظيفية.. حيث رتب فيها الطلاب والعونة والقيم والبوابين والمؤذنين والأئمة والنظار والشهود والخدم، وكذلك حبس عليها نفائس الكتب والمصنفات المفيدة.[٥٧]

وورث حكم المغرب بعد السلطان أبي الحسن ابنه السلطان أبوعنان الذي ورث أيضا عن أبيه حبه وولعه ببناء المدارس، فشيد مدرسة واحدة في فاس القديمة، وأكمل مدرسة مكناس، وقد عرفت كلتاهما بالمدرسة البوعنانية.[٥٨]

وبالرغم من قلة ما شيده السلطان أبوعنان فإن مدرسته بفاس التي شيدت سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٠م تعد أجمل مدرسة في المغرب من الناحية المعمارية والفنية. كما أنها تعد آخر المدارس العظيمة التي شيدت في المغرب[٥٩] باستثناء مدرسة أبي يوسف بمراكش سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م والتي أُعيد بناؤها في العصر السعدي على يد عبد الله الغالب بالله عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م.[٦٠]

أما في العصر السعدي [٩١٥هـ/ ١٥١٠م - ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م] فقد اكتفي السعديون بما أنشأه أسلافهم من المرينيين من مدارس والتي كانت مستمرة في تأدية وظيفتها كمنشأة تعليمية إبان حكمهم.. فقاموا بترميم ما تداعى منها، فإلى عبد الله الغالب [المتوفى في ٩٨١هـ/ ١٥٧٤م] يرجع فضل إعادة بناء مدرسة أبي يوسف بمراكش سنة ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م، وقد اعتمد في عمارتها على ما تبقى من أطلالها وكذلك استنادا على تخطيط المدرسة البوعنانية بفاس والشبيهة بها من حيث التخطيط.[٦١]

وقد حظيت مدينة مراكش في العصر السعدي بما حظيت به مدينة فاس في العصر المريني حيث اهتم

---

(٥١) مدرسة الوادي كانت تقع بجوار جامع الاندلسيين في فاس القديمة، وهي مدرسة الوحيدة المرينية التي تغيرت معالمها نظراً لوقوع حادث قتل بها على عهد السلطان العلوي محمد الرابع فامر بهدم حجرات الخلاوي بها وشيد لها صومعة في عام ١٢٩٥هـ وأصبحت مسجدا؛ انظر المنوني، **عصر بني مرين**، ص ٣٧ ـ ١١١

(٥٢) الجزنائي، **زهرة الاس**، ص ص ٣٧ ـ ١١١.

(٥٣) ابن مرزوق، **المسند الصحيح**، ص ٤٠٦.

(٥٤) يذكر الوزان أن بمدينة تازي ثلاث مدارس، اما المدرسة المرينية فكانت تقع بجوار الجامع الكبير بتازي وقد شيدها في أثناء ولايته لعهد ابيه ابي سعيد: ـ انظر الوزان، **وصف افريقيا**، جـ١، ص ١٩٩؛ المنوني، **عصر بني مرين**، ص ١٩٩.

(٥٥) الوزان، **وصف افريقيا**، جـ١، ص ٢٣٥.

(٥٦) Terrosse, "Medersas", p.5.

(٥٧) ابن مرزوق، **المسند الصحيح**، ص ٤٠٧.

(٥٨) يذكر الناصري ان للسلطان ابي عنان آثارا دينية من بناء المدارس والزوايا ومنها مدرسته بفاس: انظر الناصري، **الاستقصا** ، جـ٣، ص ٢٠٦.

(٥٩) انظر: Terrosse, "Medersas," p. 24.

(٦٠) حركات، **العصر السعدي**، ص ٣٠٨.

(٦١) حركات، **العصر السعدي**، ص ٣٠٨.

السعديون بمراكش اهتماما كبيرا لكونها دار ملكهم[٦٢] فشيدوا بها المدارس الكبرى كمدرسة قصبة مراكش،[٦٣] ومدرسة جامع باب دكالة الكبير، ومدرسة حومة ابن صالح بمراكش، وكذلك شيدوا في مدينة تارودانت مدرسة على يد محمد المهدي بن محمد القائم [المتوفى في ٩٤٦هـ/١٥٥٧م] وكانت تقع بجوار الجامع الأعظم.[٦٤]

كما شارك العامة الحكام السعديين في إنشاء المدارس حيث شيدت مدرسة أقا المنسوبة إلى الشيخ محمد بن مبارك المتوفى سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م، ومدرسة الحسن بن علي التاملي بتيوت قرب تارودانت ومؤسسها تلميذ الوتشريسي.[٦٥]

ومدرسة البرحولية بقرية أولاد «برحيل» من قبيلة المنابهة المعقلية[٦٦]، أما في عصر الأشراف [الفرع الفلالي] فلم تصلنا أي مدارس جديرة بالذكر فيما عدا، إعادة بناء مدرسة الشراطين سنة ١٠٨١هـ/١٦٦٩م الوقعة بجوار جامع القرويين على يد مولانا الرشيد بن محمد بن علي أول سلطان من دولة الأشراف[٦٧] الفلالية، [سنة ١٠٨١هـ / ١٦٦٩م].

التنظيم الإداري والتعليمي للمدارس المغربية

وضعت لوائح تنظم قبول الطلاب بالمدارس المغربية، كما وضعت مناهج تعليمية كمقررات في تلك المدارس إلى جانب الوظائف التي قررها كل واقف على مدرسته، وكذلك تحديد أوجه الصرف عليها من خلال تحبيس الواقف لمجموعة منشآت تجارية يصرف من إيرادها على عمارة المدرسة وموظفيها. وتبدأ القواعد الإدارية والتنظيمية في المدارس المغربية بالآتي:

١ ـ نظام قبول الطلاب

خضعت سكنى الطلبة بهذه المدارس إلى قوانين يشرف عليها مختصون في ذلك بحيث لا يقبل بالمدرسة طالب أقل من عشرين عاماً،[٦٨] وكذلك يلزم على الطلاب المتقدمين للالتحاق بالمدرسة أن يكونوا قد سبق لهم أن درسوا العلوم الفقهية،[٦٩] وكذلك حددت مدة إقامة الطلاب بالمدارس المغربية فيذكر الوزان، أن كل طالب بالمدرسة كان يزود بالمؤن والثياب لمدة سبع سنين،[٧٠] ولا يجوز للطالب أن يمكث بالمدرسة وهو متمتع بالسكن والتعليم مجانا أكثر من عشر سنين، وقد خصصت لكل طالب غرفة صغيرة مجهزة بمسرجة وحصيرة ووسادة وخزانة، وكانت جدران الغرفة خالية من الزخارف وفي بعض المدارس كان يقيم كل طالبين أو ثلاثة في غرفة واحدة، وهو ما نجده في المدارس الكبيرة مثل المدرسة المصباحية ومدرسة أبي عنان ومدرسة الشراطين إذ كانت الأخيرة تؤوى أكثر من ١٣٠ طالباً[٧١]

وكانت مدارس فاس تجمع بين طلاب مدينة فاس وبين الطلاب الغرباء الذين يفدون على المدرسة من المدن المغربية البعيدة أو من بلاد خارج المغرب مثل تلمسان، وكان لهؤلاء الطلاب الحق في الإقامة بالمدارس، أما طلاب فاس فلم يكن لهم حق المبيت في المدرسة.

وقد وفر المرينيون لطلاب مدارسهم كل السبل التي تعينهم على معيشتهم فخصوهم بالمنح والهدايا والكساء، كما وفروا لهم الطعام وانعكس ذلك على الطلاب فأصبحت حياتهم شبيهة بحياة النساك

(٦٢) حركات، **العصر السعدي**، ص ٣٨٤.

(٦٣) وقد زار الوزان مدرسة القصبة بمراكش ووصفها بأنها في غاية الحسن وكانت تحتوي على ثلاثين حجرة وقاعة في الطبقة الأرضية، وكانت مزخرفة من الداخل بالفسيفساء وكانت جدرانها مغطاة بالزليج. كذلك نقشت جميع ممراتها وسقوفها . وللمدرسة فناء مكشوف مفروش بالزليج ويتوسطه فسقية منحوتة من المرمر الأبيض في غاية الحسن والجمال. وكانت المدرسة وقت أن زارها الوزان مفتوحة حيث ذكر أن عدد الطلبة كان لا يتجاوز خمسة طلاب: الوزان، **وصف أفريقيا**، جـ٢، ص ١٠٤

(٦٤) حركات، **العصر السعدي**، ص ٣٠٨.

(٦٥) كانت المدارس الخاصة في العصر السعدي تتميز ببساطة تخطيطها وكذلك زخرفتها فلم تخضع للتأثيرات الاندلسية عكس المدارس الأخرى: انظر حركات، **العصر السعدي**، ص ٣٠٨.

(٦٦) حركات، **العصر السعدي**، ص ٣٠٨.

(٦٧) ابن عبد الله، **تاريخ الحضارة**، ص ٤٨؛ وانظر لوتورنو، **عصر بني مرين**، ص ٤٤.

(٦٨) المنوني، **عصر بني مرين**، ص ٢٠٣.

(٦٩) لوتورنو، **عصر بني مرين**، ص ١٧٨، ١٨٠.

(٧٠) الوزان، **وصف افريقيا**، جـ١، ص ١٨٠.

(٧١) لوتورنو، **عصر بني مرين**، ص ١٧٨.

المنقطعين للعبادة.[٧٢]

وكانت تنتظر الطلاب بعد تخرجهم فرص عمل وفرتها لهم الدولة إبان تخرجهم مباشرة وبخاصة طلاب فاس الذين كانوا يدخلون في خدمة الدولة أو ينضمون إلى جماعة المدرسين بالمدرسة أو يعملون موثقين أو قضاة شرعيين.

٢ ـ المناهج التعليمية

تعد المدارس المغربية، معاهد تدرس فيها علوم الفقه والنحو والقراءات، على عكس المساجد التي كانت تدرس فيها العلوم الشرعية[٧٣] والإنسانية.

وكان يقوم بالتدريس في هذه المدارس فقهاء بعضهم متخصص في دروس الفقه وبعضهم في دروس النحو وآخرون في القراءات، وكانت تختار الموضوعات التي تدرس على الطلبة من كتب المؤلفين القدامى وخاصة التي صنفت على مذهب الإمام مالك، وهو المذهب الذي ينتمي اليه معظم علماء فاس.[٧٤]

وكانت طريقة إلقاء الدروس تتم عن طريق تكليف الأستاذ لأحد طلابه بقراءة الدرس المطلوب دراسته ثم يقوم الأستاذ بالتعليق على النص ويبين ما فيه من صعوبات ويقوم الطلبة بالتنافس فيما بينهم على الإجابة، وكانت مدة الدراسة خمسة أيام تبدأ من يوم السبت وتنتهي يوم الأربعاء من كل أسبوع. وتتوقف المدارس يومي الخميس والجمعة، وكانت تبدأ الدروس بعد صلاة الفجر وتنتهي قبل صلاة العصر، وكان لكل أستاذ عدد من المحاضرات يطلع عليها طلابه أسبوعيا.

ويبدو أن المناهج التعليمية التي كانت مقررة في المدارس المغربية موضع نقد من بعض المؤرخين والرحالة المغاربة الذين عاصروها فيذكر العبدري أن المدارس كانت عبارة عن أبنية تجذب الطلاب إليها ليأخذوا الجرايات فقط فيقول: «وأما البناء فإنه يجذب الطلبة إلى ما يترتب فيه من الجرايات فيقبل بهم على من يعينه أهل الرياسة للإجراء والإقراء.»[٧٥]

وكذلك ينتقد المقري المناهج التعليمية بالمدارس فيقول: «ولقد استباح الناس النقل من المختصرات الغريبة ونسبوا ظواهر ما فيها الى أمهاتها.... وصارت الفتاوى تنقل من كتب لايدري ما زيد فيها عما نقص منها، لعدم تصحيحها وقلة الكشف عنها.. وسار يأخذ من كتب المسخوطين، وأصبح الطلاب، يحفظون المختصرات والأصول الكبار وأفنوا أعمارهم في حل لغوزها ورموزها، ولم يصلوا الى رد ما فيه الى أصوله بالتصحيح.[٧٦]

ويضيف ابن خلدون في مقدمته فينتقد المغاربة من ناحية ضعف تدربهم على أسلوب المحاورة[٧٧] والمناظرة عند التدريس.[٧٨]

وأخيراً يذكر الوزان عند زيارته لمدرسة قصبة مراكش فيقول: «إن بها استاذاً جاهلًا بالفقه ليس له سوى معرفة سطحية غامضة بالأداب وأقل من ذلك بعلوم أخرى.»[٧٩]

٣ ـ الوظائف المرتبة في المدارس الغربية

حفلت النصوص التاريخية والوثائقية بذكر أنواع الوظائف التي كان قد قررها أصحابها على مدارسهم

(٧٢) لوتورنو، **عصر بني مرين**، ص ١٨٠.

(٧٣) المنوني، **عصر بني مرين**، ص ٢٠٣.

(٧٤) لوتورنو، **عصر بني مرين**، ص ١٧٨.

(٧٥) المنوني، **عصر بني مرين**، ص ٢٠٣.

(٧٦) شهاب الدين ابو العباس احمد بن محمد التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ٢ اجزاء (القاهرة: بولاق، د.ت.)، جـ٣، ص١٤٣، ١٤٤.

(٧٧) يذكر أن أبا عنان حاول أن يتلافى عند اختياره لفقهاء مدرسته من لم يستطع منهم المناظرة والمحاورة فأرسل الى فقيه مدرسته الشيخ الصرصري من يحاوره في مسألة علمية ولكن الشيخ فشل في الرد على سائله واعتزل الدرس بالمدرسة البوعنانية ولكن السلطان ابا عنان أرسل اليه وقال له (أنا أمرت بذلك كي تعلم ما عندك من العلم وما عند الناس وتعلم أن دار الغرب هي كعبة كل قاصد). وهذه القصة تبين حرص السلطان أبي عنان على توجيه فقهاء مدرسته وتدريبهم على المناظرة؛ انظر المنوني، **عصر بني مرين**، ص ٢١٧.

(٧٨) ابو زكريا بن ابي بكر محمد بن محمد بن خلدون، **المقدمة**، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧٨م)، ص ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(٧٩) والوزان، **وصف افريقيا**، جـ١، ص ١٠٤.

بتعيين عدد من الموظفين في مجموعة الوظائف التي كانت تشغلها المدرسة من فقهاء يقومون بالتدريس ومعاونين وإمام ومؤذنين وخدمه ....الخ.

ويذكر ابن أبي درع الوظائف التي كانت مرتبة في مدرسة فاس الجديدة والعطارين والصهريج، فقال: «ورتب فيها (أي السلطان) الفقهاء لتدريس العلم وأسكنها بالطلبة، وقدم فيها إماما ومؤذنين وخدم يقومون بأمرها، وأجرى على كل منهم المرتبات.»[٨٠]

ويضيف ابن مرزوق فيقول: «وأجرى (يقصد السلطان أبا الحسن) المرتبات على الطلبة والعونة والقيم والبواب والمؤذن والإمام والناظر والشهود والخدام ويوفر من ذلك، وهذا يرشدك الى قدر ما يحتاج اليه في كل مدرسة من هذه المدارس.»[٨١]

وعلى لوح الحبوس في المدرسة البوعنانية بفاس نص آخر يقر فيه الواقف بعض الوظائف بالمدرسة فيقرأ مانصه: «بحقوق ذلك ومنافعه أجمعه لتصرف فوائده في إصلاح المدرسة ومرتبات المقرين والقوميين بها تحبيسا تاما ثابت الحكم لا تبديل لرسمه إن شاء الله.»[٨٢]

وبالعرض السابق للنصوص التاريخية والوثائقية يتضح لنا أن وظائف المدارس المغربية تشبه إلى حد كبير مثيلتها في مصر والشام، واليمن وقد انحصرت تلك الوظائف في إمام يقوم بوظيفة الصلاة المرتبة في المدرسة، ومن وظيفة الإمام فقط نستنتج أن هذه المدارس كانت تؤدي فيها الصلوات الخمس فقط ولم تقم فيها الخطبة أو الجمعة لكون هذه المدارس لم تكن مساجد جامعة باستثناء المدرسة البوعنانية بفاس إذ قرر فيها الواقف مسجداً جامعاً يحتوي على صومعة ومنبر. والى جانب وظيفة الإمام جاءت وظيفة المؤذن المكلف بإعلان الأذان ومراقبة أوقاته، ومن الجدير بالذكر أن مؤذني تلك المدارس[٨٣] كانوا يعلنون الأذان من داخل المدارس فقط نظراً لعدم اشتمال معظم المدارس المغربية على صوامع، ومن أهم الوظائف التي أدرجت في المدارس وظيفة التدريس التي عين لها الفقهاء يعاونهم موظفون أقل يعرفون «بالعونة».

أما عدا ذلك من وظائف فكانت تخص جانب الحراسة والنظافة وهي وظائف موكل لأصحابها أعمال خاصة كالبواب والوقاد والخدمة... وغيرها.

٤ ـ الحبوس

أمدتنا النصوص الوثائقية المنقوشة على لوحات الحبوس بما يثبت أسماء الأماكن المحبسة على عمارة المدارس المغربية، وهذا التوثيق يعد مصدرا معلنا أمام عيون الناس حفاظا على تلك الأوقاف من الضياع أو التبديل لكونها مصدر صرف على عمارة تلك المدارس.

ويعد لفظ الحبوس من الألفاظ التي شاع استخدامها في المغرب والأندلس، وهو يعرف في الشرق بلفظ «الوقف»[٨٤] وكلها عبارة عن مجموعة أملاك عقارية أو زراعية أو ماشابه ذلك من أنواع الملكية الخاصة التي تعطي لأصحابها حرية التصرف فيها فيخصصون الأموال التي تحصل منها في الصرف على أغراض حميدة. وهذا التخصيص يعد أبديا لا يجوز تحويله أو تبديله أو رهنه أو تغيير جزء أو كل من هيكله الأصلي.

---

(٨٠) ابن أبي ذرع، **الأنيس المطرب**، ص ٤١٣.

(٨١) ابن مرزوق، **المسند الصحيح**، ص ٤٠٦.

(٨٢) انظر لوح الحبوس، السطر قبل الأخير، ص ٥٣.

(٨٣) اشتملت لوحات الحبوس على نصوص تتضمن أسماء الأماكن الموقوفة بقصد حفظها من التصرف فيها، ولقد أدى نظام الوقف خدمة جليلة في صيانة كثير من العمائر الدينية وغيرها من المنشآت ذات الخدمة العامة: انظر، السيد عبد العزيز سالم، **التاريخ والمؤروخون العرب** (بيروت: دار الكتب العربي، ١٩٧٤م)، ص ١٣٦؛ الباشا، **الفنون والوظائف**، جـ٣، ص١٣٠٥: حسين عبد الرحيم عليوة، «الكتابات العربية الأثرية في الشكل والمضمون،» مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد ٣٠، ٣١ (القاهرة، ١٩٨٤)، ص ٢٠٥.

(٨٤) ليفي بروفنسال، **اداب الأندلس وتاريخها**، سلسلة محاضرات القاها في الأسكندرية عام ١٩٤٧م، ١٩٤٨م، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥١م)، ص ٨٣.

وقد شاع في بلاد المغرب تدوين الحبوس على لوحات[٨٥] رخامية تنقش بالخط النسخ المغربي وتعلق على واجهات المدارس من الداخل لتكون في مأمن لما تتضمنه من أحباس تحفظ من العبث وهذا الأسلوب في الحفاظ على الحبوس يختلف عن النظام السائد في تسجيل الأوقاف في الشرق الإسلامي، إذ اعتاد أصحاب الأوقاف أن يسجلوا أوقافهم في وثيقة خطية تتضمن الأوقاف وحدودها الشرعية، ويعد هذا التسجيل حجة شرعية موثقة بتوقيعات الشهود والقضاة يحفظها صاحبها في داره أو في موضع أمين، وهناك بعض الأمثلة القليلة في مصر التي سجلت حبوسها على واجهة عمارتها، ومن أمثلتها مدرسة السلطان برسباي، ٨٤١هـ / ١٤٣٦م.[٨٦]

وتنحصر نوعية الأملاك الموقوفة على المدارس المغربية في المباني التجارية التي تدر ربحا من كرائها أو إداراتها من قبل نظار الوقف، وهي تشتمل على الحوانيت والمخازن والاصطبلات والمطاحن والأفران والحمامات ومعاصر الزيت ومعامل النسيج والفنادق والأراضي الزراعية[٨٧] ...الخ. وكان يصرف من أموالها،كما جاء في نصوص الحبوس، على ما رتب في مدارسها من وظائف أو على إصلاح عمارتها بما نصه: «ليصرف فوائده في إصلاح المدرسة والمرتبات.»[٨٨]

وقد شكلت العمارة الدينية من مساجد ومدارس في بلاد المغرب دوراً كبيراً لما تحوزه من أوقاف لدرجة أن بعضها كان يمتلك قرى بأكملها،[٨٩] ويعد النص الذي أورده الوزان عن أوقاف المساجد المغربية والخاصة جامع القرويين ذا أهمية كبرى لكونه ألقى الضوء على دور تلك المساجد في إدارة الأوقاف لحسابها، فيقول: «يتقاضى القابض الذي يجمع إيرادات الجامع مثقالا في اليوم ... ويعمل معه ثمانية كُتَّاب أجر كل واحد منهم ستة مثاقيل في الشهر، وستة مساعدين يستخلصون ثمن كراء الدور والدكاكين وغير ذلك من الإيرادات ... وللقابض فضلا عن ذلك نحو عشرين من الأعوان مكلفين بالذهاب إلى الضواحي ... ويوجد خارج فاس، على بعد ميل تقريبا، نحو عشرين فرناً ... ومثل هذا العدد أفران الآجر لسد حاجات بناء الجامع والأملاك التابعة له، ولجامع القرويين دخل يومي يقدر بمائتي مثقال، يصرف أكثر من نصفها فيما ذكرت، على أن كل جامع أو مسجد لا إيراد له يستمد من القرويين الكثير من الأشياء التي يحتاج إليها. فضلا عن ذلك يقدم ما هو ضرورة لصالح العامة في المدينة... وقد اعتاد ملوك فاس في وقتنا الحاضر أن يقترضوا مبالغ ضخمة من إمام الجامع دون أن يردوها إطلاقا»[٩٠]، والنص السابق يوضح حجم الاستثمارات بالمفهوم الحديث الذي كانت تدار لحساب الجامع، والتي كان يصرف منها على المنشآت الدينية والعامة بل ويقرض منها كذلك.

العناصر المعمارية للمدارس المغربية وأهم مميزاتها

تتميز المدرسة المغربية بوضوح عناصرها المعمارية المتمثلة في بساطة تخطيطها المعماري بجانب اشتمالها على كافة العناصر الأساسية التي تتألف منها المدرسة بشكل عام مثل تخصيص إيوان أو قاعة للتدريس والصلاة، وكذلك اشتمالها على مساكن للطلبة وبرك أو صهاريج لتخزين المياه.. كما ألحقوا بها المطاهير (دورات المياه).

وسنستعرض بالدراسة أهم هذه العناصر والتي تتمثل فيما يلي:

(٨٥) عرفت لوحات الحبوس في المغرب الأقصى منذ فترة حكم المرينيين ومن أمثلتها مجموعة اللوحات المثبتة على واجهات مدارسهم: انظر التازي، **جامع القرويين**، جـ٣، ص ٥٧٦.

(٨٦) عرف الشرق الإسلامي تلك اللوحات التي كانت تشتمل على وقفيات ومن أمثلتها وقفية منقوشة على عتبة الجامع بحصن الأكراد والمؤرخة ٧١٩هـ، والوقفية المنقوشة على المدرسة السلطانية الظاهرية بحلب والمؤرخة ٧١٩هـ، وأيضا على مارستان أرغون يوجد نقش مؤرخ ٨٢٥هـ. انظر الباشا، **الفنون والوظائف**، جـ٣، ص ص ١٣٠٥ ـ ١٣٠٧.

(٨٧) ليفي بروفنسال، **أداب الأندلس، وتاريخها**، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥١م)، ص ٨٣.

(٨٨) انظر نص الوثيقة، اللوحة رقم «٧».

(٨٩) بروفنسال، **اداب الأندلس**، ص ٨٣.

(٩٠) الوزان، **وصف افريقيا**، جـ١، ص ١٧٨.

* التخطيط الرئيس.
* إيوان القبلة أو قاعة الدرس.
* الصحـــن.
* الخـــلاوي.

١ ـ التخطيط الرئيس ورؤية جديدة

حاول علماء الآثار أن يحددوا تخطيطاً معيناً يكون قد أثر بشكل مباشر على تخطيط المدرسة بصورة عامة ولذلك تباينت آراؤهم وتعددت، حيث أرجع بعضهم تخطيط المدرسة إلى نظام تخطيط المسجد الجامع المكون من صحن وأربع ظلات(٩١)، وبعضهم من أرجع تخطيط المدرسة متأثرا بنظام القاعات السكانية المكونة من قاعة وإيوانين أو أكثر(٩٢)، ومنهم من أرجع تخطيط المدرسة متأثرا بنظام المذاهب التي تدرس فيها وعددها.(٩٣) وبعضهم من ذهب بعيدا عن التأثير الإسلامي ونسب تخطيط المدرسة لأصول معمارية بيزنطية وفارسية.(٩٤)

وما زالت الدراسات مستمرة للوصول إلى مصادر اشتقاق تخطيط المدرسة، ويبدو من الصعب أن نحدد نموذجاً بعينه يكون له الفضل في تخطيط المدرسة، وذلك لوجود عشرات التخطيطات المختلفة للمدارس التي شيدت على أنماطها مئات المدارس في العالم الإسلامي. ولكن في ضوء الأمثلة الكثيرة الباقية لعمارة المدرسة في المشرق والمغرب نستطيع أن نحدد رؤية جديدة في تخطيط المدرسة تكمن في **التخطيط على الداخل** مع وجود عامل الوظيفة المتمثلة في تحديد الغرض الأساسي من البناء.

والتخطيط للداخل يكمن في وجود كتلة الصحن ككتلة أساس داخل التكوين المعماري لا ترتبط بالوظيفة ولكنها تمثل عنصر تجميع للوحدات المعمارية من حوله، ولذلك فإن عنصر الصحن يعد من العناصر الأساسية في جميع المنشآت الدينية والمدنية

---

(٩١) من اهم العلماء الذين اعتبروا تخطيط المدرسة متأثرا بتخطيط المساجد الجامعة هو أحمد فكري والذي افرد لهذا الرأي كتابه الثاني عن العصر الأيوبي ويؤكد سيادته في بحثه عن وحدة العناصر المعمارية بين المسجد والمدرسة وهو أمر متفق عليه ولذلك فهو يرى أن للمسجد الجامع تأثيرا مباشراً على تخطيط المدرسة واعطى امثلة كثيرة لنماذج من تخطيطات المدارس في الشرق والغرب الإسلامي يتكون تخطيطها وفقا لتخطيط المساجد الجامعة واستشهد سيادته بمجموعة من المدارس المغربية مثل مدرسة الصهريج ومدرسة فاس الجديدة التي اطلق عليها خطأ المدرسة الكبرى بأنهما شيدتا على نسق المساجد الجامعة في المغرب، وهذا الافتراض لا نستطيع أن نأخذه حجة واقعة وذلك لوجود اختلاف كبير بين تخطيطات المساجد في المغرب والمدارس وذلك نظرا لأن أكثر المدارس بالمغرب لم تكن مدارس ومساجد جامعة على غرار مدارس المشرق والتي وضع لها أحمد فكري قائمة في آخر بحثه نقلا عن المقريزي. أما مدارس المغرب فقد خضع تخطيطها لعامل الوظيفة المنوطة بها راجع الأشكال ارقام ١، ٢، ٤، ٥، ٦؛ ـ انظر فكري، **مساجد القاهرة**، جـ٢، ص ١٨٣، ١٨٦.

(٩٢) يرى كريزول أن المصدر الذي اشتق منه تخطيط المدرسة هو القاعة واعتبر أن نظام الإيوانات بالمدارس الإسلامية مشتق أصلا من تخطيط القاعة الرئيسة بالمسكن المصري: انظر Gres-Cres well. *Muslim Architecture*, Vol.2, pp. 128 - 129.
وهناك دراسة قيمة قام بها عباس حلمي اثبت فيها أن نشأة المدرسة ترجع إلى مكة وأن عمارة المدرسة قد تأثرت واشتقت من نظام الدور الإسلامية الذي كان سائدا في الدول الإسلامية التي أقيمت فيها المباني والعمائر والمدارس: انظر عباس حلمي كامل، **المدارس الإسلامية**، ص ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٩٣) شافعي، **العمارة العربية**، ص ٢٤٨؛ وانظر سعاد ماهر محمد، **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون**، ٥ اجزاء (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧١م)، جـ١، ص ص ١٩ـ٢٠.

(٩٤) يرى فان برشم أن تخطيط المدارس المتعامدة مشتق من تخطيط الكنائس البيزنطية في سورية ويتفق معه في ذلك كل من مارسيه وسلادن. ويرى تشمند أن مصدر اشتقاق تخطيط المدرسة يرجع إلى العصور الساسانية، ويؤيد هذا الراي كل من هرتز فيلد وهوتكير وجودار، أنظر
Encyclopedia of Islam: Architecture Vol. I.
وانظر احمد فكري، **مساجد القاهرة**، جـ٢، ص ص ١٣٧ ـ ١٣٨.
ـ وانظر الباشا، **الطراز المعماري للمدارس المصرية**، ص ص ٥٠ـ٥١.
انظر عباس حلمي، **المدارس الإسلامية**، من ص ص ١٣٧ ـ ١٤١.

ولا يستطيع المخطط أن يتلاف وجوده، وعلى هذا فالوظيفة هي التي تؤثر على تشكيل الكتل المعمارية حول الصحن، وتأكيدا على ذلك أننا لا نستطيع أن نحدد وظيفة كثير من المنشآت الدينية من الخارج نظراً لتشابه عناصرها المعمارية مع بعضها وأصبح من الصعب أن نفرق بين واجهة المسجد الجامع والخانقاة والمدرسة، فجميعها قد احتوت على عنصر المئذنة وغيرها من العناصر المتشابهة. وعلى ذلك لا نستطيع أن نحدد وظيفة المبنى إلا من داخل الصحن لكونه هو قلب التخطيط ومن على أضلاعه الداخلية نستطيع أن نقرأ الوظيفة إذا كانت مسجداً أو مدرسة أو خانقاة أو غير ذلك.

ويعتبر الصحن الداخلي بالنسبة للمعمار المخطط مساحة متكاملة لها أربع واجهات تمكن المعمار من بناء وحداته البنائية وتوزيع عناصره المعمارية بدون تقيد، بينما لو كان المعمار يخطط منشأته على الخارج لأصبح الأمر أكثر تعقيدا إذ سوف يتقيد المعمار في هذه الحالة بالمساحة المتاحة وعدد واجهاتها الرئيسة المتوافرة لها، وإذا كانت المساحة لا تشتمل إلا على واجهة واحدة رئيسة أصبحت المدرسة وملاحقها في هذه الحالة تخطط بشكل رأسي إذ تصبح كتلة المدرسة يعلوها المسجد ويعلو المسجد كتلة الخلاوي.. ولو فرضنا أن المعمار لديه المساحة المتوافر لها أربع واجهات إذن سيشغل كل واجهة بالوظيفة المراد شغلها ويصبح لكل واجهة مدخل يؤدي الى هذا الجزء ويصبح الصحن الداخلي في هذه الحالة عبارة عن منور ثانوي تشرف عليه الآبنية من الداخل وتفقد صلة الاتصال بين الواجهات الأربع نظراً لاحتواء كل واجهة على مدخل خاص.

بينما التخطيط المعماري الأكثر قبولا هو التخطيط للداخل وخلق عنصر معماري رئيس هو الصحن، حيث يجمع على أضلاعه جميع العناصر المعمارية ويتلافى المعمار بذلك مشكلة المساحة المتاحة والواجهة الواحدة إذ يعتبر المعمار الصحن ليس مساحة مكشوفة فحسب لتمد المبنى بالشمس والهواء بل يعتبر كتلة الدخول الرئيسة لأي ملحق معماري واقع على أضلاعه أو مشيد عليها، وهذا التخطيط تنفرد به عمارة المدرسة عن عمارة المسجد كلية إذ أننا نستطيع داخل تخطيط المسجد الجامع المكون من صحن واربع ظلات أو صحن وظلتين أوصحن وثلاث ظلات أن تدخل الى الظلات مباشرة وننتقل من جهة الى أخرى دون المرور بالصحن وذلك لأن الوظيفة المنوط بها التخطيط تتمثل في وظيفة واحدة وهي الصلاة، وقلما نجد مسجداً يحتوي على كتلة دخول واحدة بل شغل المعمار مداخله على واجهات المسجد الثلاث عدا جهة القبلة.

هذا بينما نجد أن التخطيط مختلف تماما في المدرسة إذ يقتصر تخطيطها على مدخل واحد في أغلب الأمثلة وإن تعددت المداخل فلا يمكن أن تفتح على إيوانات جانبية بل تؤدي إلى الصحن ويصبح الصحن أو الدور قاعة هو المدخل الرئيس للوحدات المعمارية الكائنة على واجهاته الداخلية ولا نستطيع أن نتنقل داخل تخطيط المدرسة من إيوان إلى إيوان أو من كتلة الى كتلة دون المرور بالصحن (أنظر الأشكال أرقام ١، ٢، ٤، ٩، ١١، ١٣، ٢٠، ٢٦).

وثمة دليل آخر يؤكد صحة تصورنا وهو أنه مهما تعددت الإيوانات داخل التخطيط أو اقتصرت على وجود. إيوان واحد فلم يفقد التخطيط العام في جميع النماذج التخطيط للداخل حول الصحن، وفي تصوري أن المعمار اعتبر الصحن هو الفراغ الداخلي كما سبق وأوضحت،[٩٥] فإذا كان الغرض الوظيفي يتطلب بناء قاعة واحدة خصص لها المعمار جزءاً من الفراغ الداخلي ثم يبدأ بعد ذلك في شغل باقي الفراغات بالوظائف الأخرى المكملة لوظيفة المدرسة مثل كتلة الخلاوي، الأشكال أرقام ٢، ٤، ٥،

---

(٩٥) لم ينتبه معظم الباحثين إلى البحث في كيفية تنفيذ التخطيط واقتصرت ابحاثهم على البحث في إيجاد قرين معماري لمخطط المدرسة يكون اقدم عهدا. وعلى هذا تضاربت اراؤهم حول إيجاد مخطط معماري يكون هو النموذج الذي اثر في عمارة المدرسة. ولكن الواقع أن المعمار المسلم اعتاد في جميع منشأته أن يخططها على الداخل وعلى ذلك جاءت معظم عناصر التكوين المعماري متشابهة الى حد كبير .

١٠. وإذا كان تخطيط المدرسة مكونا من إيوانين شغل المعمار الضلعين الباقيين بكتل الخلاوي (أنظر الأشكال أرقام ٢٤، ٢٥، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٣)، وإذا كان التخطيط مكونا من ثلاثة إيوانات شغل المعمار الضلع الرابع بكتل الخلاوي (الشكل رقم٩) وإذا كان التخطيط المطلوب قد شغل جميع واجهات الصحن بالإيوانات وضع المعمار كتل الخلاوي خلف الإيوانات (أنظر الشكل رقم ٣٢).

ونستخلص من هذا التقسيم أن المعمار قد صدر الكتل الأساسية المحددة وفقا للوظيفة على أضلاع الصحن الداخلي وبدأ في تكملة أبنيته الثانوية خلف إيواناته وفقا للتخطيط للداخل.

وهذا التعدد في الأغراض الوظيفية هو الذي يعطينا نماذج مختلفة من تخطيطات المدارس، وعلى هذا لا نستطيع أن نقرر أو نؤكد أن عمارة المدرسة قد تأثرت بنظام معماري آخر كالمساجد والقاعات وإذا صح هذا فستكون عمارة المدرسة المغربية قد تأثرت هي الأخرى بنظام الأربطة[٩٦] التي تعد متشابهة معها من حيث التخطيط ومتباينة معها من حيث الوظيفة ويصبح الأمر على هذا النحو ينحصر في البحث عن قرين معماري لكل نموذج مدرسة وبذلك تفقد عمارة المدرسة أصولها المعمارية التي بنيت عليها.

تخطيط المدرسة المغربية

استنادا إلى التخطيط العام للمدارس الباقية، تنقسم عمارة المدرسة في المغرب إلى نموذجين الأول ويمثل تخطيط المدرسة ذو القاعة وهو النموذج السائد في جميع المدارس المغربية، والنموذج الثاني ويمثل تخطيط المدرسة المسجد الذي يتكون من بيت للصلاة وقاعتين، ويوجد منه مثل واحد فقط في المدرسة البوعنانية بفاس سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٠م.

وبالرغم من وجود نموذجين لعمارة المدرسة المغربية فإن تخطيطها قد تأثر بتدريس المذهب الواحد وهو مذهب الإمام مالك الذي يعد المذهب الرئيس والسائد لدى المغاربة والذي كان له أعظم الأثر في توحيد معظم العناصر المعمارية المكونة لتخطيط المدرسة المغربية بشكل عام.

وإذا كنا قد وضعنا أكثر من نموذج للمدرسة المغربية فليس معنى ذلك أن الاختلاف جوهري بين النموذجين إذ أن وجود النموذج الثاني لا يعبر إلا عن محاولة فردية من قبل المنشيء لبناء مدرسة ومسجد معا، وهذه المحاولة، تتكرر في نماذج أخرى بالمدرسة المغربية.. وقد خضعت عمارة المدرسة في المغرب بشكل عام لعدة عوامل أخرى أثرت على تخطيطها كعامل المساحة المتاحة للبناء، وكذلك ظروف الموقع والوظيفة المخصصة ومواد البناء والمناخ وما يحدثه ذلك من تأثير مباشر على عمارة المدرسة.[٩٧] وبالرغم من وجود نموذجين لتخطيط المدرسة المغربية فإن هناك العديد من العناصر المعمارية المتشابهة فيما بينها والتي ربطت النموذجين بإطار واحد لا تخطئه العين فكلا النموذجين يعبران معاً عن أصالة عناصر العمارة المغربية، وكذلك أعمال الزخرفة والنقش والتي اتخذت من تلك المدارس موئلا تتسم فيه الأساليب الفنية بدقة متناهية مستخدمة في ذلك مواد مختلفة من آجر وخشب ورخام وجص وزليج وزجاج.[٩٨]

أ ـ التخطيط المعماري لمدارس النموذج الأول:

وهي تمثل التخطيط الرئيس لمعظم المدارس المغربية التي تتكون من صحن وأربع ظلات وزعت على النحو التالي:

إيوان قبلة أو قاعة درس في الجهة الجنوبية من الصحن ثم كتلة الخلاوي وهي تشغل الأضلاع

---

(٩٦) سالم، **مدارس فاس**، ص ٢٠١؛ حسن الباشا: **مدخل الى الآثار الإسلامية** (القاهرة: دار النهضة العربية، د.ت)، ص ١٦٣؛ سعاد ماهر، **العمارة الإسلامية على مر العصور**، جزآن (جدة: دار البيان، ١٩٨٥م)، جـ١، ص ١٩١.

(٩٧) يذكر حسن الباشا حول تخطيط المدرسة. فيقول أن أصل عمارتها قد وقع تحت ثلاثة مؤثرات أولها الطراز السائد والوظيفة والمناخ وهم العوامل الثلاثة التي أثرت على تخطيط المدرسة؛ انظر: حسن الباشا، **الطراز المعماري للمدارس المصرية**، ص ٥١.

(٩٨) Terrosse, "Medersas", p.6.

الثلاثة الباقية من على الصحن والتي ماثل المعمار فيما بينها، وهذا التقسيم يظهر المدرسة بشكل معماري كامل أي متناسق ومتماثل وخاصة في وحدات الخلاوي.. وبالرغم من اقتصار التخطيط العام على إيوان واحد فإن المعمار قد شكل تخطيطه كما لو كانت المدرسة مكونة من أربعة إيوانات وذلك نتيجة حفاظه على التماثل بين وحدات الخلاوي من جانب، وبين توحيده لمناسيب ارتفاع كافة المباني المشرفة على صحن المدرسة من الداخل من جانب آخر، حيث مد في ارتفاع واجهة إيوان القبلة حتى تتساوي مع ارتفاع حجرات الخلاوي المتطابقة من دورين كما في مدرسة العطارين ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م، أو من ثلاثة أدوار كما في المدرسة المصباحية ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، ثم ربط بينهم جميعا من أعلى برفرف خشبي يرتكز على كوابيل خشبية ليؤكد على فكرة التناسق والتماثل داخل المنشأة (أنظر لوحة رقم ٣٥، ٤٣).

أما من حيث اقتصار التخطيط على إيوان واحد فهو يتشابه مع أمثلته المشرقية حيث شيدت في كل من مصر والشام واليمن مدارس تخطيطها المعماري مكون من إيوان واحد يتقدمه صحن.. ومن أمثلتها في دمشق المدرسة النورية ٦٢١هـ/ ١٢٢٣م[99] (انظر الشكل رقم ١٨).

ومن أمثلتها في مصر المدرسة البقرية ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م (أنظر الشكل رقم ١٧) ومدرسة قطلوبغا الذهبي ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م بشارع سوق السلاح (أنظرالشكل رقم ١٦)[100] ومدرسة تاتار الحجازية ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م (أنظر الشكل رقم ٢٢)، والمدارس الفرعية بمدرسة السلطان حسن بن قلاوون[101]، ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م بميدان القلعة (أنظر الشكل رقم ١١)، ومدرسة ايتمشي البجاسي[102]، ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م (انظر الشكل رقم ١٥)، ومدرسة فيروز الساقي ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م (أنظر الشكل رقم ٢٠).

وكذلك شيدت في اليمن مدارس تخطيطها المعماري مكون من إيوان واحد[103] ومن أمثلتها المدرسة المنصورية العليا [النصف الأول من القرن السابع الهجري[104]أوائل القرن الثالث عشر الميلادي] والمدرسة الجبرتية في زبيد[105] ٨٠٣هـ / ١٤٠٠ (أنظر الشكل رقم ١٤) والمدرسة الوهابية[106] المنسوبة إلى السلطان عامر بن عبد الوهاب [٩هـ / ١٥م] (أنظر الشكل رقم ١٢). والمدرسة الياقوتية[107] بزبيد ٨٤٠/ ١٤٣٦م (أنظر الشكل رقم ١٣). والمدرسة البكرية[108] بصنعاء ١٠٠٥هـ/ ١٩٥٦م (أنظر الشكل ٢١).

ب ـ *التخطيط المعماري لمدارس النموذج الثاني:*

وهو يمثل تخطيط المدرسة البوعنانية[109] بفاس ٧٥٧هـ/ ١٣٥٠م الذي يتكون من صحن أوسط مكشوف يتقدمه من الجهة الجنوبية المسجد الجامع ومن الجانبين قاعتان كبيرتان، واحدة في الجانب الشرقي والأخرى في الجانب الغربي.

---

(٩٩) عبد القادر الريحاوي. **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية** (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٧٩م)، ص ١١٧.

(١٠٠) آمال العمري، «مدرسة قطلوبغا الذهبي». **مجلة دراسات آثرية إسلامية**، المجلد الثالث (القاهرة، ١٩٨٨م)، ص ٣.

(١٠١) علي حسن زغلول، **مدرسة السلطان حسن**. رسالة ماجستير مخطوطة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، (١٩٧٧م)، ص ٤٦

(١٠٢) آما العمري، «قطلوبغا»، ص ٥.

(١٠٣) يذكر مصطفى شيحه، أن المدارس اليمنية خصصت لتدريس مذهب واحد مما كان له انعكاس على التخطيط وهي في ذلك اتفقت من حيث تخصيص المذهب الواحد مع المدارس المغربية: انظر مصطفى عبد الله شيحة. **مدخل الى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية العربية اليمنية** (القاهرة: د.ن، ١٩٨٧م)، ص ٥٨

(١٠٤) انظر محمد سيف النصر. نظرة عامة على المدارس اليمنية تخطيطاتها وعناصرها المعمارية. **مجلة الأكليل**، العدد الأول، صنعاء، وزارة الإعلام، (١٩٨٥م)، ص ١١٦.

(١٠٥) شيحه. **مدخل إلى العمارة اليمنيه** ص٨٩٧.

(١٠٦) سيف، "المدارس اليمنية"، ص ١٠٩

(١٠٧) سيف، "المدارس اليمنية"، ص ١٠٢.

(١٠٨) سيف، "المدارس اليمنية"، ص ١١٤

(١٠٩) سالم. **مدارس فاس**. ص ٢٠٣.

أما الضلع الرابع والمقابل للمسجد فقد خصصه المعمار لكتلة الخلاوي، وأهم ما يميز هذا النموذج اشتماله على مئذنة ومنبر وقاعتين للدرس (انظر الشكل رقم ٩)، وهذا النموذج يعبر عن النضج المعماري والفني في عمارة المدرسة المغربية من حيث التخطيط وتوزيع العناصر (انظر الشكل رقم ٩).

ومن الجدير بالذكر أن هذا التخطيط المتطور في عمارة المدرسة المغربية قد سبق ميلاده ميلاد قمة المدارس المملوكية في مصر والممثلة في مدرسة السلطان حسن بن قلاوون ٧٥٧هـ/ ١٣٦٥م إلا أن المدرستين تعبران عن ضخامة المبنى وروعة التخطيط وحسن توزيع العناصر (انظر الشكل رقم١١).

وقد أثار تخطيط القاعتين المتماثلتين الباحث جورج مارسيه واعتقد أنهما متأثرتان بالأواوين الجانبية بمدرسة السلطان حسن بن قلاوون[١١٠] ٧٥٧هـ/ ١٣٥٢م في القاهرة بينما يرى د. عبد العزيز سالم بأنهما تشبهان نظام تخطيط قاعتي الأختين وبنى سراج بقصر الحمراء[١١١] (انظر الشكل رقم ١١، ٣٥).

والواقع أن كلا التشبيهين لا يمكن اعتبارهما صورة متكاملة من تخطيط القاعتين إذ أن بناء مدرسة البوعنانية أسبق من بناء مدرسة السلطان حسن بحوالي سنتين تقريبا، إضافة إلى آن الأواوين الجانبية بمدرسة السلطان حسن تفتح بكامل اتساعها على الصحن وتخطيطها الداخلي مستطيل وغطيت من أعلى بقبو، وعلى هذا لم تكن هناك صلة ربط بينهما وبين تخطط القاعتين التي جاء تخطيطهما الداخلي عبارة عن مربع غطي بقبة من الخشب ويغلق على فتحتهما المطلة على الصحن أبواب خشبية كبيرة (انظر اللوحتين رقمي ٥٩، ٦٠). أما تشابه القاعتين بقاعتي الاختين وبني سراج في قصر الحمراء بالأندلس فهذا أيضا مستبعد من وجهة نظري لكون تخطيط القاعتين الأندلسيتين الداخلي قاعة مربعة تفتح من ثلاث جهات على إيوانات، ولذا يختلف تماما عن تخطيط القاعتين بالمدرسة البوعنانية (انظر الشكلين رقمي ٩، ٣٥)، ولكنهما متشابهتان من حيث واجهتاهما المتماثلتان المطلتين على صحن القصر، وإذا كان هذا هو المقصود، إذن فهناك نموذج أقدم من قصر الحمراء ممثل في القصر الفاطمي الغربي حيث توجد القاعتان الجانبيتان متماثلتين ومتقابلتين وتشرفان بكامل اتساعهما على الصحن. (انظر الشكل رقم ٣٤).

وفي رأيي أن النموذج للقاعتين الجانبيتين ليس متأثراً بنظام معين سابق وإنما جاء هذا التخطيط وليد الحاجة لعمل قاعتين عوضا عن القاعة الواحدة وهذا ليس بجديد على المعمار المغربي إذ نجده قد أنشأ معظم منشآته الدينية وفقا لنظام التماثل، ولدينا نماذج مغربية كثيرة تؤكد على ذلك فهي على سبيل المثال لا الحصر في معظم المساجد الموحدية حيث ماثل بين الظلتين الجانبيتين وبعد ذلك في جامع القرويين ماثل المعماريين السقايتين المتقابلتين وفي جامع الأندلسيين ماثل كذلك بين السقايتين وكذلك في جميع المدارس المغربية السابقة على بناء المدرسة البوعنانية فقد ماثل المعمار بين كتلتي الخلاوي المطلة على الصحن الداخلي والواقعتين على جانبي الإيوان الرئيس.

إذن فليس معنى وجود قاعتين جانبيتين في المدرسة البوعنانية أمراً غريبا يؤكد اقتباسهم بل أن التخطيط برمته يعد نمطاً مغربيا محليا خضع أولا وأخيرا لحاجة الوظيفة المعدة لذلك.

٢ - إيوان القبلة أو قاعة الدرس

يعد من أهم عناصر عمارة المدرسة المغربية نظراً لكون عمارة المدرسة في المغرب تشتمل على قاعة واحدة ويقع هذا الإيوان في الجهة الجنوبية من الصحن ويشغل مساحة كبيرة، وقد حجبت فتحة

---

(١١٠) انظر Marçais, *Architecture Musulmane d'occident* (Paris: n.p. 1954), pp.292 - 293.

(١١١) سالم، **مدارس فاس**، ص ٢٠٢.

الإيوان بالكامل التي تشرف على الصحن في جميع المدارس المغربية، واكتفى المعمار بإيجاد فتحة باب صغيرة يغلق عليها حجاب من خشب الخرط لتكون هي وسيلة الاتصال بين الإيوان والصحن (انظر اللوحة رقم ٨، ٤٢، ٥٠، ٥٩، ٦٤). ويعد أسلوب حجب إيوان القبلة بهذا الشكل أسلوباً متأثراً بتأثيرات شرقية تذكرنا بواجهة إيوان القبلة بمدرسة السلطان قلاوون بمصر ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م (أنظر الشكلين رقمي ٧٢، ٧٣).

أما تخطيط الإيوان من الداخل فقد وصلتنا مدارس مغربية ينقسم فيها إيوان القبلة إلى قسمين غير متساويين، ومن أمثلتها مدرسة دار المخزن ٧٢١هـ/ ١٣٢٠م، ومدرسة العطارين ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م والمدرسة البوعنانية ٧٥٦هـ/ ١٣٥٠م. أو ينقسم إلى ثلاثة أقسام كما ورد في مدرسة سلا ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م (انظر الشكل رقم ٥). ويرجع تقسيم إيوان القبلة إلى التأثيرات المشرقية التي ظهرت بوضوح في بعض المدارس المملوكية بمصر، ومن أمثلتها مدرسة السلطان قلاوون (أنظر الشكل رقم ١٩) بالنحاسين ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، وجامع الناصر محمد ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م، بالقلعة، ومن أمثلتها في العصر المملوكي الجركسي مدرسة السلطان برقوق (انظر الشكل رقم ٣٢) بالنحاسين ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م ومدرسة عبد الغني الفخري ٨٢١هـ/ ١٤١٨م بشارع بورسعيد، ومدرسة القاضي عبد الباسط بالخرنفش ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م، ومن أمثلتها في اليمن المدرسة المعتبية بتعز، القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي (الشكل رقم ٢٣)، ويرجع تقسيم إيوان القبلة من الناحية المعمارية لإيجاد روافع يرتكز عليها السقف من أعلى حيث نجد كافة الأمثلة التي وجد فيها إيوان القبلة ينقسم إلى قسمين أو ثلاثة كما هو في مصر والمغرب قد غطيت أواوينها بأسقف خشبية مسطحة[١١٢] يصعب نصبها على حواجز خشبية دون أن يقلل المعمار بحر السقف، أي اتساعه، ولذلك يحتاج المعمار لعمل مثل هذه التقاسيم حتى يستطيع صلب تغطية الإيوان أو القاعة الخشبية على ركائز من أسفل (انظر اللوحات أرقام ٥، ٦، ٦٤، والأشكال أرقام ١، ٤، ٥، ٩، ١٣، ١٩، ٢٥، ٣٢).

٣ ـ الصحن

يعد الصحن من أهم العناصر المعمارية التي تشكل عمارة المدرسة بشكل عام، ولهذا اعتمد عليه تخطيط المدرسة المغربية بشكل خاص إذ حرص المعمار المغربي على إيجاده كمحور لتخطيط مدرسته إذ يعتبر الصحن منطقة التوزيع والاتصال بين الإيوان الرئيس وكتلة خلاوي الطلبة بجانب كونه منطقة الإضاءة والتهوية المركزية. ولهذا اعتبر وجود الصحن عنصرا أساسيا داخل المدرسة المغربية حتى لو كان ذلك على حساب مساحة المدرسة نفسها ومكوناتها الداخلية.. ولذا لدينا بعض النماذج لصحون مدارس تمتاز بصغر حجمها كصحن مدرسة دار المخزن[١١٣] ٧٢١هـ / ١٣٢٠م، والمدرسة السبعين ٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م، ومدرسة سلا ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م، والمدرسة المصباحية ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، وجاء تخطيط الصحن في معظم المدارس المغربية على هيئة مستطيل يتقدمه من الجهة الجنوبية الإيوان الرئيس، ومن الجانبين كتلة الخلاوي، والضلع الرابع يحتوي على كتلة الدخول الرئيسة، وقد فرشت أرضية صحون المدارس المغربية بالزليج.

هذا ويعد الصحن العنصر الوحيد الذي استغل فيه المعمار والفنان المغربي واجهات المباني المطلة عليه من الداخل لينظموها وفقا لأساليب معمارية فريدة. إذ ماثل المعمار بين واجهات كتل الخلاوي فيما بينها كما ماثل بين واجهة إيوان القبلة والجهة المقابلة ثم تبعه الفنان فكسى كافة الواجهات الداخلية من أسفل بالزليج ومن أعلى بالجص المنقوش.

وقد استغل المعمار أرضية الصحن لإيجاد عنصر أساس داخل المدرسة وهو عنصر الصهريج أوالبركة

---

(١١٢) عدا مسجد الناصر محمد بن قلاوون حيث غطي بقبة في قسمه الأوسط وكذلك المدرسة الأشرفية باليمن.

(١١٣) عثمان عثمان إسماعيل، **حفائر شالة الإسلامية** (بيروت: دار الثقافة، د.ت)، ص ٣٨٤.

والذي يعد من أهم العناصر التي تمد المدرسة بما تحتاجه من مياه، ومن أمثلته مدرسة الصهريج (انظر اللوحات رقم ٨، ٩، ١٠، ١١)، ٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م، والمدرسة المصباحية ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م (انظر اللوحة رقم ٥٠)، ومدرسة ابو يوسف بمراكش ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م (اللوحات أرقام ٣٧، ٣٨)، ومدرسة ابو يوسف بمكناس ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، والمدرسة البوعنانية بفاس ٧٥٦هـ/ ١٣٥١م (انظر اللوحة رقم ٦٧).

٤ - الخلاوي

ومن أهم العناصر الأساسية التي تدخل في تكوين المدرسة المغربية حجرات الخلاوي التي أفرد لها المعمار أكثر من جهة على الصحن الداخلي. ونتيجة لصغر مساحة الجزء الأرضي المتاح لبناء الخلاوي لجأ المعمار لمضاعفة حجرات إيواء الطلاب عن طريق امتدادها رأسيا.

لذا جاءت جميع حجرات الخلاوي مكونة من دورين أو ثلاثة، وعلى هذا تكون المدارس المغربية أشبه ما تكون بالفندق عنها بالمدرسة[١١٤] إذ أن المدرسة لم تمثل في التخطيط إلا بمساحة الإيوان الواحد، بينما شغل معظم التخطيط الداخلي من حول الصحن في المسقط الأرضي وكذلك الأدوار العليا بحجرات الخلاوي إذ كانت المدرسة المغربية تقدر بعدد الطلاب الذين تأويهم في خلاويها.[١١٥]

وقد وصلنا ثلاثة نماذج من التخطيط العام لكتلة الخلاوي في المدارس المغربية.. **النوع الأول** ويتمثل في وجود كتل الخلاوي ممتد على جانبي الصحن. وهو النوع السائد في جميع المدارس المغربية (انظر الأشكال أرقام ١، ٢، ٤، ٥، ٧). ووجد هذا النوع في مصر في المدرسة الكاملية ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م، والمدرسة الصالحية[١١٦] ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م (الشكل رقم ٢٤)، ورباط مصطفى باشا ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م (الشكل رقم ٣٣)، ومدرسة السلطان قلاوون بالنحاسين ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م (الشكل رقم ١٩)، ومدرسة الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م، ومن أمثلتها أيضا خانقاة بيبرس الجاشنكير[١١٧] ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م (الشكل رقم ٢٥)، وفي خانقاة الأمير شيخو ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م (الشكل رقم ٢٦)، وفي مدرسة صرغتمس ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م (الشكل رقم ٢٧)، وفي العصر الجركسي نجد هذا النوع في خانقاة الناصر فرح بن برقوق ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م[١١٨] (الشكل رقم ٣٠). أما في سورية فنجد هذا النظام في مدرسة ابن النديم بحلب[١١٩] (الشكل رقم٣١)، ومن أمثلته في قونيا مدرسة سرجالي القرن ٧هـ/ ١٣م[١٢٠] (الشكل رقم ٢٨). أما **النوع الثاني**، فيتمثل في وجود كتل الخلاوي على هيئة طبقات متعددة تشغل زوايا المدرسة بحيث تشكل كل كتلة حول صحن داخلي مستقل، ومن أمثلة هذا النوع في المغرب مدرسة الشراطين ١٠٨١هـ/ ١٦٦٩م (الشكل رقم ١٠) وهي تشبه في مصر المدارس الفراعية في مدرسة السلطان حسن بن قلاوون ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م[١٢١] (انظر الشكل رقم ١١). **أما النوع الثالث** فيتمثل في وجود كتلة الخلاوي ممتدة على ثلاثة أضلاع من الصحن الداخلي إلا أن الكتلة الرئيسة للخلاوي ممتدة على واجهة المدرسة الرئيسة من الخارج ومن أمثلتها المدرسة البوعنانية بفاس ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م[١٢٢]، ويذكرنا هذا الشكل الى حد كبير في مصر بخانقاة الأمير شيخو ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م، كما يوجد بعض الأمثلة لكتل

---

(١١٤) لوتورنو . **عصر بني مرين**. ص ص ١٧٧ـ ١٨٠.

(١١٥) Terrosse "Medersas " p.17

(١١٦) شافعي. **العمارة العربية**. ص ٩٢.

(١١٧) صالح لمعي مصطفى. **التراث المعماري الإسلامي في مصر** (د.م: د.ت)، لوحة رقم ٢٤.

(١١٨) صالح لمعي. **التراث المعماري** (بيروت المكتبة العربية، ١٩٧٥م)، لوحة ٢٨.

(١١٩) الريحاوي. **العمارة في سوريا**. ص ١١٧

(١٢٠) اوقطاي أصلان أبا. **فنون الترك وعمائرهم**. ترجمة احمد محمد عيسى (استنبول مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة، ١٩٨٧م)، ص ١٠٤

(١٢١) انظر. شافعي. **العمارة العربية**. ص ٩١

(١٢٢) Terrosse "Medersas " p.7

الخلاوي في مصر نصبت فيها كتل الخلاوي على امتداد الواجهة الرئيسة، ومن أمثلتها كتلة الخلاوي بمدرسة السلطان برسباي بصحراء المماليك ٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م، وكذلك كتلة الخلاوي بمدرسة السلطان قيتباي بصحراء المماليك ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م، وكتل الخلاوي بمدرسة قرقماس ٩١١هـ/ ١٥٠٦م والأمثلة المصرية السابقة تتفق مع مثيلاتها المغربية في أن كليهما قد نصبتا على امتداد الواجهة الرئيسة

الخصائص العامة للمدارس المغربية

بناءً على ما سبق تتضح المميزات المعمارية للمدارس المغربية في الآتي:

١ ـ وجود نموذجين رئيسين في تخطيط المدارس المغربية يتكون تخطيطهما الداخلي من صحن أوسط مكشوف واربع ظلات.

٢ ـ تتميز مدارس النموذج الأول بصغر المساحة وبساطة التخطيط ويتكون تخطيطها المعماري من صحن أوسط مكشوف يتقدمه من الجهة الجنوبية إيوان القبلة أو قاعة الدرس ويحفه من الجانبين بائكتان متقابلتان تحملان طابقين من حجرات منفصلة خصصت لإقامة الطلاب، ويقع المدخل بالضلع الشمالي المقابل لإيوان القبلة ومن أمثلة هذا النموذج مدرسة الصفارين ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م والصهريج ٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م، والسبعين ٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م، والعطارين ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م، والمصباحية ٧٤٧هـ /١٣٤٦م، ومدرسة مكناس ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، ومدرسة أبي يوسف ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، ومدرسة الشراطين ١٠٨١هـ/ ١٦٦٩م (انظر الأشكال أرقام ١، ٢، ٤، ٥، ٦، ١٠).

٣ ـ وتتميز مدارس النموذج الثاني بكبر المساحة وروعة التخطيط المكون من صحن أوسط كبير يتقدمه من الجهة الجنوبية ظلة القبلة (المسجد) ويحفه من الجانبين قاعتان متقابلتان غطيت كل منهما بقبة خصصت للتدريس (الشكل رقم ٩). وتقع خلاوي الطلاب بالضلع الشمالي المقابل لظلة القبلة من دورين (انظر الشكل رقم ٩)، ومن أمثلته المدرسة البوعنانية بفاس ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م.

٤ ـ لم تكن معظم المدارس المغربية مساجد إذ أنها لم تحتو في أغلب أمثلتها الباقية على صوامع أو منابر وذلك نظراً لبناء معظم هذه المدارس بجوار مساجد جامعة استعانوا بها في إقامة الشعائر. باستثناء مدرسة الصفارين ٦٧٥هـ/ ١٢٥٨م، ومدرسة بوعنان ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م لاحتوائها على صوامع كما تحتوي مدرسة دار المخزن على صومعة مستحدثة.

٥ ـ لم تكن المدارس المغربية مخصصة لتكون مدارس وقبورا في الوقت نفسه إذ لم يلحق ببنائها قبة ضريحية تخص المنشيء أو تضم حوش جنائزي على غرار نماذج المدارس القائمة في مصر والشام، وكذلك مدارس السلاجقة في الأناضول.

٦ ـ حجب فتحة الإيوان المخصص للقبلة أو قاعة الدرس بالكامل من على الصحن والاكتفاء بوجود فتحة باب صغيرة وسطى يكتنفها من الجانبين بابان صغيران يمثلان حركة الاتصال بين الإيوان أو القاعة والصحن الداخلي للمدرسة.

٧ ـ تفتح حجرات الخلاوي على ممرات تشرف على الصحن الداخلي، وهذه الممرات هي التي تربط حجرات الخلاوي بعضها ببعض (انظر اللوحة رقم ٥٠).

٨ ـ تتكون حجرات الخلاوي من طابقين وبعضها يتكون من ثلاثة طوابق قسم كل طابق إلى حجرات منفصلة. ولا تزيد مساحة الحجرة عن ٢م طولاً في ٥ر١م عرضاً.

٩ ـ احتواء التخطيط العام للمدرسة على كتلة دخول واحدة فقط تقع على الواجهة الرئيسة للمدرسة.

١٠ ـ تقسيم إيوان القبلة أو قاعة الدرس في بعض المدارس إلى قسمين غير متساويين بواسطة بائكة ترتكز عقودها على أعمدة، ومن أمثلتها

مدرسة دار المخزن ٧٢١هـ/ ١٣٢٠م، والصهريج ٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م، والبوعنانية بفاس ٧٥٢هـ/ ١٣٥٠م. أو يقسم الى ثلاثة أقسام، كما في مدرسة سلا ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م.

١١ ـ وجود أحواض مياه كبيرة أو صهاريج ضخمة وفقا لمسماه المغربي تشغل معظم مساحة الصحون الداخلية للمدارس من الداخل كما في مدرسة الصهريج ٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م، والمصباحية ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، وأبي يوسف بمراكش ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م.

١٢ ـ تغطية واجهات المدرسة المشرفة على الصحن ببروز على هيئة رفرف خشبي محمول على أزار وكوابيل خشبية ويعلوه من اعلى حطات من القرميد.

١٣ ـ تغطية معظم أبنية المدرسة بأسقف جمالونية الشكل غطيت من أعلى بحطات من القرميد الملون باللون الأخضر أو البني الغامق.

١٤ ـ استخدام الأحجار والآجر كمادة أساسية في بناء الواجهات والجدران والحجرات وطاقات العقود والمداخل الرئيسة.

١٥ ـ استخدام الأخشاب بشكل أساسي في عمارة المدرسة فنجدها في الأعتاب والأبواب والنوافذ والأسقف وتجليد الحوائط والحرمدانات والخزانات الخاصة بحفظ الكتب والكرادي والرفارف والكوابيل والطبالي والأحجبة (المشربيات).[١٢٣]

١٦ ـ مراعاة التماثل بشكل رئيس بالنسبة لتوزيع الكتل والعناصر المعمارية داخل المدرسة وخاصة بين الكتل المتقابلة من على الصحن.

١٧ ـ مراعاة التماثل بشكل رئيس في توزيع العناصر الزخرفية مما أضفى على عمارة المدرسة في الداخل انسجاما وتناسقا بديعين.

١٨ ـ تغطية الجدران الداخلية للمدرسة كافة بعنصرين أساسين هما الحشوات الجصية والتكسيات المصنوعة من الزليج أو الفسيفساء. بجانب استخدام الأخشاب في العقود والأربطة والتجليدات.

١٩ ـ احتواء معظم المدارس على لوحات رخامية نقش عليها نص التحبيس الخاص بالإنشاء، ويتضمن نص التحبيس بيانا بالممتلكات الموقوفة على المدرسة.[١٢٤]

٢٠ ـ احتواء المدارس على دورات مياه (مطاهر) بشكل رئيس بحيث ألحق بكل مدرسة من الجهة الشمالية ملحق شغل من الداخل بمجموعة حجرات تلتف حول حوض مياه صغير.

الوصف المعماري للمدارس المغربية

أولًا : مدارس النموذج الأول:

١ ـ *المدرسة اليعقوبية* ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م

وتعرف بمدرسة الصفارين أو النحاسين،[١٢٥] وتعرف كذلك بمدرسة الحلفاويين.[١٢٦] شيدها أمير المسلمين أبو يوسف بن عبد الحق[١٢٧] في عام ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م بالقرب من جامع القرويين بفاس القديمة، وكان المشرف على بنائها القاضي أبو أمية الدولبي.[١٢٨] ويذكر الجزنائي أن الذي انفرد ببناء محرابها هو المعدل أبو عبد الله محمد ابن الحباك من

---

(١٢٣) Terrosse "Medersas" p.8

(١٢٤) Bel, *Inscription*, pp. 22-24.

(١٢٥) عرفت المدرسة اليعقوبية بمدرسة الصفارين والنحاسين وذلك لموقع المدرسة المجاور لسوق يحتوي على حوانيت المشتغلين بالنحاس، انظر Terrosse, "Medersas," p. 18.
وانظر ايضا لوتورنو، **عصر بني مرين**، سالم، **مدارس فاس**، ص ٢٠٢

(١٢٦) المنوني، **عصر بني مرين**، ص ١٩٧

(١٢٧) ومن الجدير بالذكر أن بعض الباحثين قد حددوا تاريخ إنشاء المدرسة في ٦١٠هـ، انظر سالم، **مدارس فاس**، ص ٢٠٢، وبعضهم قد حدد تاريخ نشأتها في ٦٨٤هـ، انظر Terrosse "Medersas," p 18
بينما ذكر الجزنائي أن تاريخ إنشاء المدرسة هو ٦٧٥هـ، الجزنائي، **زهرة الآس**، ص ص ٨١-٨٢

(١٢٨) الجزنائي، **زهرة الآس**، ص ٨١، لوتورنو، **عصر بني مرين** ص ٨٣

أهل علم الهيأة(١٢٩)، وأنه لما فرغ من بناء محرابها ظهر به انحراف عن القبلة الصحيحة مما دعى أمير المسلمين أبا يوسف الى جمع الفقهاء للنظر في ذلك.(١٣٠)

وقد ألحق أبو يوسف بمدرسته خزانة علمية كبيرة أوقف عليها مخطوطات كثيرة كان قد تسلمها من الملك القشتالي سانشو بعد معاهدة الصلح التي تمت بينهما(١٣١) في عام ٦٨٤هـ/ ١٣٨٥م.

وتعد مدرسة الصفارين ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م من أولى المدارس التي شيد بها مئذنة، وأغلب الظن ان مئذنة هذه المدرسة قد اعيد بناؤها في فترة متأخرة نظراً لعدم استواء عمارتها مع عمارة المدرسة.(١٣٢).

الوصف المعماري : تتكون المدرسة من صحن أوسط مكشوف مستطيل الشكل أبعاده ١١٫٣ طولا، ٦٫٨٠ عرضا ويتقدمه من الجهة الجنوبية إيوان القبلة من جهاته الثلاث الأخرى الشرقية والغربية والشمالية خلاوي الطلبة .. ويتوسط الصحن حوض رخامي مربع الشكل.

وعلى الرغم مما تعرضت له مدرسة النحاسين من أعمال تجديد أخرجتها إلى حد كبير عن أصولها الأولى وأفقدتها كثيراً من عناصرها الزخرفية، إلا أنها مازالت تحتوي في إيوان القبلة على بقايا قديمة لتلك الزخارف وخاصة الجصية.

ويتكون إيوان القبلة من مساحة مستطيلة الشكل أرضيتها مرتفعة عن أرضية الصحن بمقدار ٢٧سم تقريبا، ويغطي الإيوان من أعلى سقف خشبي مجدد، ويتوسط جدار القبلة محراب بسيط يعلوه تكسيات جصية من أقدم الأعمال الزخرفية في المسجد، ويتصل إيوان القبلة بالصحن عن طريق فتحة باب صغير نظراً لحجب فتحة الإيوان بالكامل من على الصحن.

الخلاوي : وتمتد حجرات الخلاوي على الصحن من ثلاث جهات، وهي تشرف عليه مباشرة وتتكون من طابقين حجراته منفصلة عن بعضها. وكسيت واجهات كتل الخلاوي المطلة على صحن المدرسة بتكسيات جصية مجددة تفتقر إلى حد كبير للعناصر الموجودة على التكسيات الجصية في إيوان القبلة.

المدخل والمئذنة : في تخطيط معماري فريد ينسب لعمارة المدرسة المغربية ركب المعمار صومعة مدرسة النحاسين على كتلة الدخول مباشرة، وقد شيدت الصومعة من الآجر ومازال إحدى واجهاتها الغربية تحتفظ بتكسيات من الزليج الملون باللون الأخضر والأحمر والأزرق.(١٣٣) وتتكون الصومعة من طابقين السفلي أكثر ارتفاعا ويعلوه حجرة صغيرة مغطاة بقبة مثبت في قمتها عمود حديد به ثلاث رمانات وهيئة الصومعة بشكل عام صغيرة نتيجة أن المعمار قد ربطها بكتلة المدخل، وهذه الصومعة تعد الصومعة الوحيدة التي ترجع الى القرن السابع الهجري. أما المدخل فهو بسيط للغاية ولا يفتح على صحن المدرسة بشكل مباشر نتيجة لوجود انكسار على يسار الداخل.

٢ ـ مدرسة فاس الجديدة

تعرف المدرسة بمدرسة المدينة البيضاء لبنائها في مدينة فاس الجديدة التي شيدت على يد المرينيين وهو مانصت عليه الوثيقة بما نصه (وهذه مدرستهم الكائنة بدار ملكهم الشامخ، وقصر عزمهم الراسخ، المدينة البيضاء المنيرة الغراء).

كما عرفت بمدرسة دار المخزن أي مدرسة القصر المركزي وفقا لمسماه المغربي، (انظر نص الوثيقة اللوحة رقم ١).

وقد شيدت هذه المدرسة على يد أمير المسلمين أبي

(١٢٩) الجزنائي، **زهرة الآس**، ص ٨١.

(١٣٠) الجزنائي، **زهرة الآس**، ص ٢٠.

(١٣١) المنوني، **عصر بني مرين**، ص ١٩٧.

(١٣٢) سالم، **مدارس فاس**، ص ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(١٣٣) سالم، **مدارس فاس**، ص ٢٠٣.

(١٣٤) ابن أبي ذرع، **الأنيس المطرب**، ص٤١١، الناصري، **الاستقصا**، جـ ٢، ص ١١١.

سعيد بن يوسف بن يعقوب المريني[١٣٥] عام ٧٢١هـ/ ١٣٢٠م وهي تعد أول مدرسة أنشئت في مدينة فاس الجديدة[١٣٦]، ويبدو أن المدرسة لم تكن تحمل اسما خاصا تعرف به إبان إنشائها[١٣٧]، ولكنها تمثل مدرسة القصر المريني الكبير، وقد سجل لنا لوح الحبوس المثبت على واجهة المدرسة الداخلية نقشاً كتابياً مكتوباً بالخط النسخ المغربي[١٣٨] يفيدنا بان المنشيء هو أبو الحسن وليس أبا سعيد بن يوسف حيث يقرأ في نص التحبيس (الحمد لله رب العالمين رافع درجات العالمين، ومجزل ثواب العاملين المجز بالمدارس ما درس من معلم العلم والدين على يدي من اختصه بهدايته وشرف بعنايته وولايته من عباده المحسنين ...، وبعد هذا أمر بتخطيطه وإنشائه دفعا وردعا لأيدي المعتدين مولانا الخليفة الإمام، العادل الهامة... أبو الحسن علي واسطة سلة ملوك بني مرين ابن مولانا الخليفة الإمام.. ابي سعيد عثمان).[١٣٩]

وبناءً على نص الوثيقة السابق نقرأ أن المنشيء هو الخليفة ابو الحسن علي وليس والده أبا سعيد عثمان، الذي كان وقت كتابة لوحة الحبوس متوفياً حيث ورد اسمه في النص مسبوقا بكلمة المرحوم (المرحوم أبو سعيد نور الله ثراه) بينما في نصوص المؤرخين أن منشيء المدرسة هو أبو سعيد[١٤٠] في عام ٧٢١هـ، ويتضح من هذا التباين بين نصوص المؤرخين ونص الوثيقة أن الخليفة أبا سعيد عثمان في عام ٧٢٠هـ قد أمر بإنشاء مدرسته بدار ملكه في فاس الجديدة ولكنه توفي قبل أن يتم بناءها ويستدل على ذلك بأنه لم يترك بها أي نقش أي لوحة الحبوس.[١٤١] وقد اكتملت هذه المدرسة بعد عام أي في سنة ٧٢١هـ على يد ابنه وولي عهده الخليفة أبي الحسن علي استنادا على نص الوثيقة المسجل على لوح الحبوس المذكور والذي ينص على ذلك بما نصه (هذا ما أمر بتخطيطه وإنشائه ... مولانا الخليفة أبو الحسن حكم ما كان والدهم مولانا الخليفة المرحوم أبو سعيد نور الله ثراه دخره من أفعال البر في أيامه الخالية ... وعلى تدريس العلم بمدرسته المباركة هذه أوقافه).[١٤٢]

ويفهم من العبارة التي وردت بنص الوثيقة (حكم ما كان والدهم مولانا الخليفة المرحوم أبو سعيد) أن تكون المدرسة قد بنيت فعلا على يد ابي سعيد وبإشراف من ابنه الأمير ابي الحسن، وكذلك من كلمة (مدرسته) التي جاءت في آخر النص (بمدرسته المباركة) إقرار صريح من الواقف الخليفة ابي الحسن علي أن المدرسة شيدت من قبل ابيه الخليفة ابي سعيد عثمان.[١٤٣]

ويبدو أن المدرسة كانت وقت إنشائها تزخر بحسن عمارتها وجمال زخرفتها وهذا ما يفهم من نص أبي ذرع حيث قال: (بنيت اتقن بناء وأحسنه).[١٤٤]

وأخيرا اشتمل نص التحبيس على إقرار الواقف على كون المنشأة مدرسة أعدت لطلاب العلم.. كما

---

(١٣٥) جاء في بيوتات فاس الكبرى نسبة بناء هذه المدرسة لأبي عنان المريني الذين عين فيها قاضي محمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني القرشي لتدريس صحيح مسلم، ولكن هذا غير صحيح، نظراً لان بناء المدرسة المسجل على لوحة الحبوس مؤرخ في ٧٢١هـ. انظر أيضا لوحة الحبوس، شكل رقم (١). انظر لوتورنو، **عصر بني مرين**، ص ٨٢.

(١٣٦) كانت مدينة فاس الجديدة تزخر بثلاث مدارس كبيرة وقت أن زارها الوزان إلا أن مدرستين منها قد اندثرتا ولم يبق إلا مدرسة دار المخزن. انظر الوزان، **وصف افريقيا**، جـ١، ص ص ٢١٨ ـ ٢١٩. ويذكر الأستاذ المنوني أن مدرسة فاس الجديدة كانت تقع عند إنشائها خارج القصر الملكي ثم بعد الزيادات التي أضيفت له في جهة الدكاكين صارت المدرسة تقع داخل الباب الخارجي حيث موقعها الآن. المنوني، **عصر بني مرين**، ص ٢٨.

(١٣٧) اسماعيل **حفائر شالة**، ص ٣٨٣. انظر حاشية ١١٣

(١٣٨) انظر، Bel, *Inscription*, p. 152؛ وانظر نص الوثيقة رقم (١).

(١٣٩) Bel, *Inscription*, p. 152.

(١٤٠) ابن ابي ذرع، **الأنيس المطرب**، ص ص ٤١١ ـ ٤١٢؛ الناصري، **الاستقصا**، جـ٣، ص ١١١.

(١٤١) اسماعيل، **حفائر شالة**، ص ٢١٦، ٣٨٣.

(١٤٢) Bel, *Inscription*, p. 152، وانظر الوثيقة، اللوحة رقم (١).

(١٤٣) انظر نص الوثيقة اللوحة رقم (١).

(١٤٤) ابن ابي ذرع، **الأنيس المطرب**، ص ٤١٢.

اشتمل النص على بيان بالأوقاف التي أوقفت على عمارة المدرسة للصرف على الطلاب والمدرسين بما نصه (على إقراء القرآن العظيم وتدريس العلم بمدرسته المباركة ... وكمل بناء هذه المدرسة المباركة وبديء بالقراء فيها وسكناها في ذي القعدة عام أحد وعشرين وسبعمائة).[١٤٥] (انظر نص الوثيقة، اللوحة رقم ١)

الوصف المعماري : تتكون المدرسة حاليا من صحن أوسط يتقدمه من الجهة الجنوبية إيوان القبلة ويحفه من جوانبه الثلاثة الباقية حجرات الخلاوي، وبركن الصحن من الجهة الغربية توجد صومعة حديثة لا ترجع إلى عصر الإنشاء[١٤٦] (انظر الشكل رقم ١).

وتعد أعمال الترميم التي ألحقت بالمدرسة من أهم العوامل التي أفقدت المدرسة عمارتها الأولى إذ يعتبر مابقي من عمارتها الحالية لا يعبر إلا عن أعمال الإضافات والتجديدات التي لم تراع فيها عمارة عصر إنشائها.[١٤٧] (انظر اللوحات أرقام ٣، ٤.)

إيوان القبلة : يقع إيوان القبلة على الجهة الجنوبية من الصحن الداخلي ويتكون من الداخل من مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب بمقدار ١٤٫٥٠م تقريبا، وقد قسم إيوان القبلة إلى قسمين بواسطة صف من البوائك المحمولة على روافع مكونة من دعائم (انظر اللوحات رقم ٥، ٦).

ويتوسط جدار القبلة محراب بسيط عليه بعض الزخارف المجددة وحالة الإيوان من الداخل مجددة ولم يبق فيها إلا بعض التكسيات الجصية القديمة،[١٤٨] وحجبت واجهة الإيوان من على الصحن بالكامل عدا فتحة الاتصال التي تربط الإيوان بالصحن والتي على هيئة فتحة باب معقودة يغلق عليها حجاب من خشب الخرط الحديث (انظر اللوحة رقم ٣).

الصحن : ويتكون صحن المدرسة من مستطيل يتقدمه من الجهة الجنوبية إيوان القبلة ومن الجهة الشمالية كتلة الدخول ويمتد على جانبيه الشرقي والغربي حجرات الخلاوي للطلاب. ويتوسط الصحن حوض مياه مستطيل الشكل، وتنخفض أرضية الصحن عن أرضية إيوان القبلة والخلاوي بمقدار ١٢سم، وفرشت المباني المطلة عليه من الداخل بزخارف (انظر اللوحات أرقام ٢، ٣، ٤).

الخلاوي : تقع خلاوي الطلاب بمدرسة فاس الجديدة على جانبي الصحن الداخلي وهي تتكون من طابق واحد فقط[١٤٩]، وتشرف حجرات الخلاوي على الصحن من خلال بائكة ثلاثية محمولة على دعائم آجرية، وهذه البائكة يرتكز عليها من أعلى سقف الظلة التي تتقدم حجرات الطلاب من الخارج (انظر اللوحة رقم ٣).

٣ -*مدرسة الصهريج*:

(بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه تسليما .. أمر ببناء هذه المدرسة المباركة مع المدرسة الصغرى المتصلة بشرقها مولانا الأمير ولي عهد المسلمين أبو الحسن علي.. وكمّل بناء هذه المدرسة وابتدأ الإقراء فيها في شهر ربيع الأول من عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة).[١٥٠]هكذا يقرأ على اللوحة الحبوس المثبتة على واجهة المدرسة الداخلية والمكتوبة بالخط النسخ المغربي.[١٥١]والنص السابق يثبت أن مدرسة الصهريج قد شيدت على يد أمير المسلمين أبي الحسن علي في سنة ٧٢٣هـ، وقت ولايته للعهد.[١٥٢]

ومرة أخرى تتضارب النصوص التاريخية مع نص الوثيقة حيث أجمعت تلك النصوص على أن المدرسة قد شيدت في عام ٧٢١هـ، ولا نستطيع أن

(١٤٥) انظر نص الوثيقة اللوحة رقم (١)

(١٤٦) تعرضت المدرسة لأعمال ترميم ترجع إلى فترة متأخرة وخاصة كتل الخلاوي والصحن. انظر Terross, "Medersas" p. 18.

(١٤٧) Terross, "Medersas," p. 18.

(١٤٨) Terross, "Medersas" p. 18.

(١٤٩) Terross, "Medersas" p. 18.

(١٥٠) انظر Bel, *Inscription*, p. 152.

(١٥١) انظر اللوحة رقم (٧).

(١٥٢) انظر لوحة الحبوس رقم (٧).

نعتبر تاريخ ٧٢١هـ الذي ذكره المؤرخون[١٥٣] هو تاريخ بدء البناء وتاريخ ٧٢٣هـ الذي ذكرته الوثيقة هو تاريخ انتهاء البناء وذلك لكون النص الوثائقي قد نص على أمر البناء ثم اختتم بأكمل بناء هذه المدرسة، ويبقي الفارق المحصور بين بدء البناء عام ٧٢١هـ على حسب نصوص المؤرخين وبين الانتهاء من البناء عام ٧٢٣هـ وفقا لنص الوثيقة يقدر بسنتين وهو الوقت الذي استغرقه بناء المدرسة.

واقترن أمر بناء مدرسة الصهريج ببناء مدرسة أخرى وصفتها الوثيقة بالمدرسة الصغرى وتعرف حاليا بمدرسة السبعين[١٥٤]، ومن الجدير بالذكر أن كلا المدرستين قد شيدهما الأمير أبو الحسن علي وهو مازال ولي العهد لابيه السلطان ابي سعيد عثمان.[١٥٥]

الموقع وعمارة المدرسة : تقع مدرسة الصهريج في مدينة فاس القديمة على مقربة من جامع الأندلسيين في الجهة الغربية، وقد ظن بعض الباحثين استنادا على بعض النصوص التاريخية أن مدرسة الصهريج قد شيدت ضمن مجموعة معمارية تشتمل على مدرسة السبعين وفندق.[١٥٦] إلا أن المدرسة قد بنيت مستقلة تماما بعيدة عن مدرسة السبعين الواقعة في الجهة الشرقية من جامع الأندلسيين.

أما الفندق فالمقصود به حجرات الخلاوي التي كانت تشملها مدرسة الصهريج بجانب دار الوضوء وسقاية. وقد أوضح نص ابن أبي ذرع حول عمارة هذه المدرسة تلك الملاحق فقال (وفي سنة احدى وعشرين وسبعمائة أمر الأمير ابو الحسن علي .. ببناء المدرسة غربي جامع الأندلس بفاس وبنى حولها شعابه ودار وضوء وفندقا لسكنى طلبة العلم وجلب الماء لذلك من عين بخارج باب الحديد من أبواب مدينة فاس).[١٥٧]

الوصف المعماري : تتكون عمارة المدرسة من صحن أوسط مكشوف يتقدمه من الجهة الجنوبية إيوان القبلة ومن جانبيه الشمالي والغربي مد مساكن الطلاب، أما الضلع الشمالي فيشتمل على كتلة الدخول (انظر الشكل رقم ٢)، ويكتنف المدرسة من الخارج من الجهة الغربية دار الوضوء يتقدمها سقاية (انظر الشكل رقم ٣).

إيوان القبلة : يتكون إيوان القبلة من الداخل من مساحة مستطيلة تمتد من شرقه إلى غربه وفرشت أرضيته بالزليج وغطي بسقف خشبي قديم وشغل صدار جدار القبلة بمحراب يقع على محور فتحة باب الإيوان المطلة على الصحن (انظر الشكل رقم ٣).

ويكتنف المحراب من الجانبين مجموعة دخلات توزيعها ثلاثة على كل جانب وقد استغل بعضها كخزانات لحفظ الكتب والبعض الآخر كحجرات للإمام والمدرسين. ويزخر إيوان القبلة من الداخل بنقوش نفذت على الخشب والجص في أشكال بديعة،[١٥٨] كما حجبت فتحة إيوان القبلة التي تشرف على الصحن بالكامل ولم يبق إلا فتحة باب صغيرة معقود بعقد مدبب من النوع المنفوخ لبس باطنه بمقرنصات من الجص، وهذا الباب مع بابين جانبيين صغيرين هما اللذان يصلان إيوان القبلة بصحن المدرسة (انظر اللوحة رقم ٨).

أما واجهة القبلة التي تشرف على الصحن فهي تعبر عن الثراء الزخرفي الذي امتاز به العصر المريني إذ نستطيع أن نقرر أن المعمار قد عمد إلى حجب واجهة إيوان القبلة بهذا الشكل ليجعلها آية من آيات

---

(١٥٣) ذكر ابن ابي ذرع في حوادث سنة ٧٢١هـ أن الأمير الأجل ابا الحسن علي بن أمير المسلمين ابن سعيد أمر ببناء المدرسة غربي جامع الأندلس بفاس: انظر ابن ابي ذرع، **الأنيس المطرب**، ص ٤١٢: وانظر الناصري، **الاستقصا**، جـ١، ص ص ١١٢ - ١٧٦.

(١٥٤) انظر نص الوثيقة في اللوحة رقم (٧).

(١٥٥) لوتورنو، **عصر بني مرين**، ص ٢٩.

(١٥٦) انظر Terrosse "Medersas" p.19

وانظر سالم، **مدارس فاس**، ص ٢٠٣.

(١٥٧) ابن ابي ذرع، **الأنيس المطرب**، ص ٤١٢.

(١٥٨) Terrosse, "Medersas," p.19.

الفن المعماري والزخرفي .. فمن تكسيات الزليج التي تؤزر واجهة الإيوان من أسفل (أنظر اللوحتين رقمي ٨، ٩) إلى التكسيات الجصية التي شكلت من عناصر هندسية وأخرى نباتية لتتوج فتحة الإيوان الرئيس وكذلك الفتحتان اللتان على جانبي باب الإيوان (انظر اللوحة رقم ٨)، ثم إلى التلبيسات الخشبية التي لعبت دوراً أساسيا في زخرفة المدرسة من الداخل والخارج (انظر اللوحات رقم ٨، ١٢، ١٤، ١٥، ١٧). نراها تتوج واجهة الإيوان بالكامل. (انظر اللوحة رقم٨).

ومن الجدير بالذكر أن الخشب لم يقتصر في عمل التلبيسات المعمارية ولكنه استغل من الناحية الفنية أيضا إذ نقشت جميع الأسطح الخشبية بالمدرسة[١٥٩] ويكفي أن يقف الداخل إلى إيوان القبلة أمام حجاب بابه الخشبي الذي توج بشراقات مسننة أبدع فيها الفنان هذا الإبداع الفني الذي يتضح في عمق الحفر وأعمال الخرط وتكوين الحشوات الهندسية ثم الكتابية (انظر اللوحات أرقام ٨، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥).

الصحن : يتكون الصحن من مستطيل مكشوف أرضيته منخفضة عن أرضية الإيوان الرئيس وحجرات الخلاوي، ويتقدمه من الجهة الجنوبية إيوان القبلة ومن الجانبين الشرقي والغربي بائكتان تحملان حجرات الخلاوي. ويكون تخطيط الصحن المستطيل الممتد من الشمال إلى الجنوب مع تخطيط إيوان القبلة الممتد من شرقه إلى غربه، شكل حرف (T)[١٦٠] (انظر الشكل رقم ٢).

ويكتنف الصحن من الجانبين بائكتان متناظرتان من الناحية المعمارية والفنية إذ ماثل المعمار بين مكوناتهما كما ماثل بين واجهة إيوان القبلة والواجهة المواجهة لها التي تشمل على كتلة الدخول الرئيسة (انظر الشكل ٢)، وقد ربط المعماريون جميع الواجهات المطلة على صحن مدرسة الصهريج من الداخل بإطار من التماثل ثم يشاهد في العناصر المقابلة وكذلك في الرفرف الخشبي المرتكز على كوابيل خشبية غطيت من أعلى بسقف مائل إلى الداخل مكون من حطات القرميد (انظر اللوحتين رقمي ٨، ١٤). أما أرضية الصحن فقد فرشت بالزليج الذي مازال محتفظا بأجزائه القديمة (انظر اللوحة رقم ٨). ويتوسط أرضية الصحن حوض رخامي أبيض صنع خصيصا للمدرسة في مدينة المرية بالأندلس، ويزن هذا الحوض مائة وثلاثة وأربعون قنطاراً ونقل من المرية إلى مرسى العرائس على عجل من خشب يجرها الناس إلى أن وصلت وادي قصر كتان، ثم حملت بعد ذلك الى ضفة وادي سبو.[١٦١]

الخلاوي : تقع حجرات سكن الطلاب على جانبي الصحن من الجهة الشرقية والغربية وهي حجرات متطابقة من دورين (انظر الشكل رقم ٢)، وهي تشرف على الصحن الداخلي للمدرسة من أسفل من خلال بائكتين متناظرتين ومن أعلى من خلال فتحات النوافذ التي تفتح على المر الذي يتقدم حجرات الطلاب (انظر اللوحة رقم ٨)، وتتكون كل بائكة من أربعة عقود ترتكز على دعائم مربعة، وتتكون كل منها من مستويين من الفتحات، المستوى الأرضي عبارة عن أربع فتحات توجت من أعلى بأعتاب خشبية ترتكز من الجانبين على حرمدانات من الخشب[١٦٢]، أمّا من أسفل فقد حجبت فتحات البائكة المطلة على الصحن بأحجبة من خشب الخرط المتوجة بصف من الشراقات المسننة (انظر اللوحة رقم ٩).

أما المستوى الثاني من الفتحات فهو عبارة عن أربع نوافذ معقودة حددت فتحاتها داخل إطارات مستطيلة من الجص، كما حجبت فتحات النوافذ من أسفل بمشربيات خشبية، ويتوج كل نافذة عقد قوسي من الخشب (انظر اللوحة رقم ٨). وهذه النوافذ تفتح على المر الذي يتقدم حجرات مسكن الطلاب من الداخل وكذلك يفتح عليه أبوابها أو يمثل عنصر الاتصال بين حجرات سكن الطلاب. والتخطيط المعماري لكل حجرة مكون من مستطيل عرض

(١٥٩) سالم، **مدارس فاس**، ص ٢٠٣.

(١٦٠) سالم، **مدارس فاس**، ص ٢٠٣.

(١٦١) الناصري، **الاستقصا**، جـ٣، ص١٧٦.

(١٦٢) سالم، **مدارس فاس**، ص ٢٠٣.

٥٧ر١م × ٧ر٢م طولاً، ومسقف بسقف خشبي (انظر الشكل رقم ٢). وتعد حجرات الخلاوي من أهم العناصر المعمارية والفنية في المدرسة وتشكل مع واجهة إيوان القبلة لوحة معمارية فنية قائمة بذاتها. (انظر اللوحة رقم ٨).

ومن أهم العناصر الفنية بمدرسة الصهريج هي تكسيات الزليج التي تؤزر جدران المدرسة الداخلية وهي تعبر عن أقدم أنواعها، وكذلك أعمال الخشب المستخدمة في الأعتاب، والعقود والمشربيات التي حفرت جميعها بزخارف نباتية رائعة وشكل المعمار بها مع تكسيات الزليج إطاراً فنياً فريداً، هذا بجانب النقوش الكتابية المكتوبة بالخط الكوفي.(١٦٣) وكذلك إطارات النوافذ الجصية والرفرف الخشبي والكوابيل وهي تعبر مجتمعة عن عبقرية الفنان المغربي.

الميضأة والسقاية : ويكتنف المدرسة من الناحية الغربية دار للوضوء عبارة عن مستطيل الشكل يتوسط أرضيته من الداخل حوض رخامي كبير يكتنفه من جميع الجهات (مطاهر) وقد أعيد بناء هذه الميضأة بالكامل في مطلع هذا القرن.

أما السقاية فهي تتقدم دار الوضوء من الخارج، وكان السلطان أبو الحسن قد مد اليها الماء هي وصهريج صحن المدرسة وكذلك الحوض الذي يتوسط دار الوضوء من عين خارج باب الحديد أحد أبواب فاس، وأنفق على ذلك أموالا كثيرة تزيد على مائة ألف دينار.(١٦٤)

٤ - *مدرسة السبعين* ٧٢٣هـ / ١٣٢٢م:

وتعرف بالمدرسة الصغرى(١٦٥) أو مدرسة القراءات السبع وهي تقع بمدينة فاس القديمة بجوار مسجد الأندلسية وفي الجهة الشرقية من مدرسة الصهريج، وقد شيد هذه المدرسة السلطان أبو الحسن بن ابي سعيد المريني أيام كان ولياً لعهد أبيه(١٦٦) سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢١م.

وهذه المدرسة تعاصر بناءها مدرسة الصهريج، وقد تضمن نص التحبيس الكائن بمدرسة الصهريج إقرار الأمير أبي الحسن المريني بإنشائهما معا بما نصه : (أمر ببناء هذه المدرسة المباركة مع المدرسة الصغرى المتصلة بشرقهما الأمير ولي عهد المسلمين أبوالحسن) وقد ربط المنشيء كذلك بين المدرستين عن طريق مدهما بالماء من عين واحدة تقع بجنان الولجة ونصت الوثيقة على إقرار الواقف بجعل المباني الموقوفة عليهما محبسة على المدرستين بما نصه (وحبس على المدرستين المذكورتين).(١٦٧) إلا أن عمارة مدرسة السبعين قد اختلفت إلى حد كبير عن عمارة مدرسة الصهريج بحيث لا نستطيع أن نعتبر مدرسة السبعين من المدارس المتكاملة حيث لا يعبر تخطيطها المعماري القائم إلا عن مساحة صغيرة جداً إذ جاء تخطيطها المعماري الداخلي بدون إيوان قبلة أو قاعة واكتفي المعمار بشغل واجهات الصحن الداخلي من ثلاث جهات بمجموعة من حجرات الخلاوي المتطابقة(١٦٨)، ويتوسط أرضية الصحن من الداخل فواره، وتدل بعض العناصر الزخرفية الباقية أن المدرسة كانت وقت أنشائها تزدان بزخارف نباتية ونقوش كتابية.(١٦٩) ويبدو أن المدرسة كانت متخصصة من الناحية التعليمية في القراءات كما يبدو من اسمها، وكانت تعقد حلقات الدرس بجامع الأندلسيين، وعلى ذلك تكون المدرسة قد قصر تخطيطها على وجود كتل الخلاوي للطلاب المتخصصين لتلك الدراسة، وعلى هذا تعد مدرسة السبعين هي أول مدرسة متخصصة في العصر المريني.(١٧٠)

(١٦٣) انظر Terrosse, "Medersas," p.19.

(١٦٤) الناصري، **الاستقصا**، جـ٣، ص ١١٢.

(١٦٥) تعرف مدرسة السبعين بالمدرسة الصغرى تميزا عن مدرسة الصهريج الكبرى التي انشئت بجوارها، كما أنهما قد أنشئتا على يد منشيء واحد هو السلطان ابو الحسن: انظر نص الوثيقة لوحة (٧)؛ وانظر Terrosse, "Medersas," p.20.

(١٦٦) المنوني، **عصر بني مرين**، ص ١٩٨.

(١٦٧) انظر النص الوثائقي اللوحة رقم «٧».

(١٦٨) Terrosse, "Medersas," p.20.

(١٦٩) Terrosse, "Medersas," p.20.

(١٧٠) لوتورنو: **عصر بني مرين**، ص ١٧٥ : المنوني، **عصر بني مرين**، ص ١٩٨

٥ - المدرسة العظمى بفاس القديمة (العطارين) ٧٢٣هـ / ١٣٢٤م

تقع هذه المدرسة بمدينة فاس القديمة بجوار جامع القرويين، وكانت تعرف منذ إنشائها بمدرسة العطارين، وقد شيدها السلطان أبو سعيد بن يعقوب ابن عبد الحق(١٧١) في سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٤م.

وتعد هذه المدرسة من أجمل المدارس المغربية التي شيدت في فاس القديمة وقد فاقت عمارتها جميع عمائر المدارس السابقة عليها(١٧٢)، وامتدحها كثير من المؤرخين فوصفها ابن ابي ذرع بأن (عمارتها آية الدهر ولم يبن مثلها ملك من قبل).(١٧٣)

وعمارة المدرسة القائمة الآن تؤكد أوصافها التي حفلت بها كتب المؤرخين فالمدرسة نموذج معماري متكامل متناسق زخرفت جميع واجهاتها الداخلية والخارجية بزخارف نفذت على مواد مختلفة من خشب وجص ورخام وزليج تدل جميعا على عبقرية الفنان المغربي وخاصة زخرفة الواجهات (انظر اللوحة رقم ٢٠) وقد حفظت كل من الوقفية (لوح الحبوس) والنصوص التاريخية الكثير من عمارة المدرسة (انظر اللوحة رقم ١٩).

ويعد نص ابن ابي ذرع من أقدم تلك النصوص التي تناولت عمارة المدرسة وحددت لنا موقعها وتاريخ بداية إنشائها واسم المنشيء وكذلك اسم العريف الذي يتولى بناءها، فقال: (وفي مستهل شعبان منها - أي في حوالي سنة ٧٢٣هـ - أمر أمير المسلمين أبو سعيد عثمان أيده الله ونصره .. ببناء المدرسة العظمى بازاء جامع القرويين .. فبنيت على يد الشيخ المبارك عبد الله بن قاسم المزوار ووقف أمير المسلمين على تأسيسها ومعه الفقهاء والعلماء واسست وشرع في بنائها نفعه الله بذلك).(١٧٤)

ويتضح من النص السابق أن تاريخ بدء الإنشاء في المدرسة كان محددا في بداية شهر شعبان من عام ٧٢٣هـ، بينما سجل لوح الحبوس الكائن على جدران المدرسة من الداخل، تاريخ آخر هو سنة ٧٢٥هـ وهو يمثل تاريخ الفراغ من الإنشاء، ويقرأ هذا التاريخ على لوح الحبوس بما نصه (وأمر بتخطيطه وإنشائه مولانا الإمام أمين المسلمين ... برسم المدرسة التي أتم بناءها في عام خمسة وعشرين وسبعمائة)(١٧٥)وبمقارنة التاريخين، تاريخ أمر البناء في نص ابن ابي ذرع والمؤرخ بعام ٧٢٣هـ وتاريخ إتمام البناء والمؤرخ على حسب نص الوقفية بعام ٧٢٥هـ تكون المدرسة بذلك قد شيدت بين عامي ٧٢٣هـ إلى ٧٢٥هـ.

وقد قام السلطان أبو سعيد بتكليف العريف عبد الله بن قاسم المزوار بالإشراف على بناء مدرسته ومد إليها الماء من عين غزيرة خاصة بها حتى لا تنقطع عنها المياه، كما رتب فيها بعد إتمامها الفقهاء(١٧٦) لتدريس العلم وأسكنها بالطلاب، وكذلك عين فيها مجموعة وظائف مختلفة لخدمة أغراض المدرسة، فعين بمدرسته مؤذنين وإماما وخدما والوظائف الثلاث المذكورة في نص وقفية المدرسة تشير إلى أن المدرسة مسجد فقط يخدم القاطنين بالمدرسة أكثر من خارجها وكذلك جاء تعيين مؤذنين لإعلان الأذان على الرغم من عدم وجود صومعة، وجاء تعيين الإمام للقيام بتأدية شعائر الصلوات اليومية عدا يوم الجمعة إذ لم يحتو نص الوثيقة على تعيين خطيب واكتفى بالإمام، ولو شيد المنشيء صومعة كان لزاما عليه أن يعين خطيبا ويصنع منبرا، ولكن المنشيء قد استعاض عن ذلك بوجود جامع القرويين على مقربة من مدرسته.

ومن ناحية أخرى فإن الدراسة بالمدرسة تتوقف في يوم الجمعة ويلجأ الطلاب والمدرسون إلى مسجد القرويين لتأدية صلاة الجمعة مع الجماعة.

وأخيرا تضمن نص التحبيس إقرار الواقف على

(١٧١) ابن ابي ذرع: **الانيس المطرب**، ص ٤١٢، انظر ابن مرزوق، **المسند الصحيح**، ص ٤٠٧.

(١٧٢) Terrosse: "Medersas," p.21.

(١٧٣) ابن ابي ذرع: **الانيس المطرب**، ص ٤١٢.

(١٧٤) ابن ابي ذرع: **الانيس المطرب**، ص ٤١٢.

(١٧٥) انظر الوثائق اللوحة رقم (١٩).

(١٧٦) الناصري، **الاستقصا**، جـ٣، ص ١١٢.

اعتبار منشأته هذه مدرسة ولذلك أوقف عليها كثيرا من المباني التي تساعدها على إتمام دورها التعليمي. وقد أثبت ذلك في نص التحبيس حماية لتلك الأوقاف من الضياع والتبديل [(١٧٧)] (انظر اللوحة رقم ١٩).

الوصف المعماري : تعد مدرسة العطارين من المدارس المغربية التي يمكن اعتبارها من أجمل المدارس المغربية على الإطلاق وذلك لتوافق مبانيها وانسجام عناصرها المعمارية وروعة زخارفها على الرغم من بساطة تخطيطها المعماري[(١٧٨)] بشكل عام (انظر الشكل رقم ٤). والمدرسة تعد من المدارس متعددة الطوابق ومازالت تحتفظ بكثير من عناصرها المعمارية الزخرفية القديمة.

ويتكون التخطيط المعماري للمدرسة من صحن مكشوف يتقدمه من الجهة الجنوبية إيوان القبلة ويكتنفه من الجانبين بائكتان تحملان كتل الخلاوي (انظر الشكل رقم ٤ ، واللوحات أرقام ٢٠، ٢١، ٢٣). وللمدرسة كتلة دخول واحدة تقع في الجهة الشمالية، ويكتنف المدرسة من الركن الشمالي الشرقي الميضأة. ولم تحتو المدرسة عند بنائها على صومعة شأنها في ذلك شأن المدرسة المصباحية (انظر الشكل رقم ٤).

كتلة الدخول : تقع كتلة الدخول في الواجهة الرئيسة الكائنة بالضلع الشمالي من المدرسة وقد وجدت في دخلة عميقة تزدان من أعلى بتكسيات من الزليج الرائعة يتخللها كتابات كوفية تتضمن آيات من القرآن الكريم.[(١٧٩)] وقد زخرفت البلاطات برسوم عبارة عن توريقات ملونة باللون الأزرق والبني والأخضر، وتزين المدخل أيضا نقوش كتابية محفورة على رخام أبيض أضفت جميعها على المدخل روعة وجمالا يعبران في الوقت نفسه عن إحساس الفنان المغربي وقدرته على التعبير والتحكم في كافة مواده الزخرفية من خشب وزليج ورخام وجص ودمجها جميعا داخل تكوينات زخرفية رائعة ويفضي باب الدخول إلى دركاة مستطيلة الشكل تحتوي على ثلاثة مداخل المدخل الشرقي يؤدي الى الميضأة والغربي يوصل عبر سلم صاعد الى كتل الخلاوي، أما المدخل الواقع بصدر الدركاة فهو يصل الدركاة بصحن المدرسة من الداخل، وقد انحرف المعمار بموقع الباب المؤدي الى داخل المدرسة حتى لا يكون على محور فتحة الباب الموجودة بكتلة الدخول الرئيسة

إيوان القبلة : يتكون إيوان القبلة من مستطيل الشكل قسم بواسطة بائكة جانبية مكونة من ثلاثة عقود ترتكز على أربعة أعمدة إلى قسمين غير متساويين أكبرهما القسم الذي يتوسط جداره الجنوبي المحراب (انظر الشكل رقم ٤)، وترتفع أرضية إيوان القبلة عن أرضية الصحن بمقدار ٢٠ سم تقريبا، وفرشت أرضية الإيوان من الداخل ببلاطات الزليج، ويغطي الإيوان من الداخل سقف خشبي مازال محتفظا بكثير من عناصره الزخرفية الرائعة[(١٨٠)]، ويوجد بصدر الإيوان ست (شمسيات) احتفظت أربع منها بزخارفها الملونة والتي يغلب عليها اللون الأزرق والأصفر والأخضر ويشرف إيوان القبلة على صحن المدرسة من خلال فتحة باب صغيرة اتساعها ٨٥ر١م وارتفاعها ١١ر٢م حجبت بحجاب من الخشب الخرط يتوسطه فتحة باب صغيرة يغلق عليها ضلفتا باب (انظر اللوحة رقم ٢٠)، أما باقي واجهة الإيوان فقد سدت بالكامل على غرار زميلتها في المدارس المغربية الأخرى، وقد نظم المعمار فتحة باب إيوان القبلة المتصلة بالصحن داخل تقسيم معماري وزخرفي مكون من ثلاثة أقسام رأسية أكثرها اتساعا وارتفاعا الوسطى وهي التي شغلها المعمار من أسفل باب الدخول للإيوان وتوجها من أعلى بعقد قوسي من الخشب ترتكز رجلاه من الجانبين على حرمدانين يرتكزان بدورهما على عمودين رخاميين صغيرين (انظر اللوحة رقم ٢٠). يعلو فتحة الباب ثلاث شمسيات حجبت فتحاتها بالزجاج المعشق من الجص. ويكتنف فتحة الباب الوسطى من الجانبين دخلتان معقودتان غير نافذتين يعلوهما زخرفة شبكية

(١٧٧) انظر النص الوثائقي اللوحة رقم (١٩)

(١٧٨) سالم، مدارس فاس، ص ٢٠٤.

(١٧٩) Bell, "Inscription," p.17.

(١٨٠) انظر Terrosse, "Medersas," p.21.

من الجص[١٨١] (انظر اللوحة رقم ٢٠)، وقد ماثل المعمار بين هاتين الدخلتين في أسلوب معماري يتسم بالاتزان وهو يذكرنا بمثيلتها في واجهة قاعة الدرس بالمدرسة المصباحية ومدرسة سلا ومدرسة الصهريج، ويحتفظ إيوان القبلة بثريا مصنوعة من البرونز نقش على إطارها السفلي رسم السلطان أبي سعيد وهي تعد من التحف الفنية داخل عمارة المدرسة.[١٨٢]

الصحن : وصحن المدرسة مستطيل الشكل يمتد من الشمال إلى الجنوب ويتوسطه فواره رخامية مربعة الشكل يفور منها الماء ويتقدم الصحن من الجهة الجنوبية إيوان القبلة ومن الجانبين الشرقي والغربي تشرف عليه بوائك كتل الخلاوي .. أما الجهة الشمالية فهي التي تصل الصحن بدركاة كتلة الدخول (انظر الشكل رقم ٤).

وجاءت أرضية الصحن أقل من أرضية إيوان القبلة وكتلة الخلاوي بمقدار ١٧ سم وفرشت أرضيته بالزليج الملون باللون الأخضر والأحمر (أنظر اللوحة رقم ٢٠). وقد ماثل المعمار بين واجهات كتل الخلاوي المشرفة على الصحن من الداخل من حيث الارتفاع وبين ارتفاع واجهات الخلاوي، كما ربط بينهما برفرف خشبي مغطى من أعلى بالقرميد ويرتكز من أسفل على كوابيل خشبية.

كتلة الخلاوي : تقع كتلة الخلاوي على امتداد صحن المدرسة الداخلي من الجهتين الشرقية والغربية وقد ركبت حجرات الخلاوي في كل جانب على بائكة ثلاثية (أنظر اللوحة رقم ٢١). وقد ماثل المعمار بين واجهتي كتل الخلاوي المشرفة على صحن المدرسة من الناحية المعمارية والفنية (انظر اللوحتين رقمي ٢٠، ٢٣)، وتتكون كل كتلة من كتل الخلاوي من مستويين المستوى السفلي عبارة عن بائكة ثلاثية مكونة من ثلاثة عقود قوسية ملبسة في الخشب وله حافة مشرشرة محمولة أرجلها على دعامتين مربعتين في المنتصف وعمودين رخاميين صغيرين في الركنين (انظر اللوحة رقم ٢١). ويعلو هذا المستوى المستوى الثاني المكون من ثلاث نوافذ معقودة يغلق عليها أحجبة خشبية فتح في كل منها ضلفتان صغيرتان (انظر اللوحة رقم ٢٣). وقد وضع المعمار فتحات النوافذ الثلاث على سمت الجدار الخارجي مباشرة وذلك ليعطي اتساعا داخليا لحجرات الخلاوي ويفصل بين النوافذ الثلاثية أربعة دعائم وضعت على نفس امتداد روافع المستوى الأول (انظر اللوحتين رقمي ٢١، ٢٢). وقد كسيت جميع وجهات كتل الخلاوي من أسفل بالزليج ومن أعلى بالجص ولبست العقود بالأخشاب المزخرفة بنقوش محفورة غاية في الرقة والروعة (انظر اللوحة رقم ٢٥).

الميضأة : يكتنف المدخل الرئيس من الجهة الشرقية الميضأة وتصل اليها عن طريق الدركاة التي تتقدم كتلة الدخول الرئيسة (انظر الشكل رقم ٤). وتخطيطه المعماري مكون من مستطيل يتوسطه حوض صغير يحف به من ثلاث جهات حجرات صغيرة (مطاهر) وقد جددت عمارة هذه الميضأة في بداية هذا القرن.[١٨٣]

٦ ـ *مدرسة سلا ٧٤٢هـ / ١٣٤١م*

تقع مدرسة سلا قبلي المسجد الكبير بطالعة سلا وقد أمر ببنائها السلطان المريني أبو الحسن بن

---

(١٨١) تعتبر زخرفة شبكات المعينات من اهم العناصر الزخرفية الهندسية التي برع فيها المغاربة والتكوين الزخرفي للزخرفة الشبكية يعتمد على تكسية واجهات مسطحة بزخارف بارزة عبارة عن مجموعة من اشرطة متداخلة تنبت من القاعدة على هيئة عقود مفصصة متداخلة تحصر فيما بينها اشكال هندسية عبارة عن معينات، ويطلق المغاربة على هذه الأشكال اسم «الكتف، والدرج» والكتف هو الخط المنحني، أما الدرج فهو الزاوية القائمة الصغيرة وهي أشبه ما تكون بالهيكل العظمي بالنسبة للزخرفة الدهرية: انظر عبد العزيز مرزوق، **الفنون الزخرفية في المغرب والأندلس** (بيروت: دار الثقافة، د.ت)، ص ٨٧: توريس بلباس، **الفن المرابطي والموحدي**، ترجمة سيد غازي (الاسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٦م)، ص ٢٦: اندريه بيكار، **المغرب والحرف التقليدية الإسلامية في العمارة**، ترجمة سامي جرجس، (سويسرا: دار التوليبي، ١٩٨١م)، ص ١٨٤.

(١٨٢) سالم، **مدارس فاس**، ص ٢٠٤.

(١٨٣) انظر Terrosse, "Medersas," p.23

سعيد بن يوسف يعقوب[١٨٤] في عام ٧٤٢هـ / ١٣٤٢م وذلك وفقا للتاريخ المنقوش على لوحة الحبوس الكائنة على وجه الرواق الغربي من على صحن المدرسة من الداخل (انظر اللوحة رقم ٢٦). وتعد مدرسة سلا تحفة فنية رائعة على الرغم من صغر مساحتها وعمارتها فالمعمار استطاع أن يستغل المساحة المخصصة للبناء بشكل ينم عن تفهم كامل للمبنى ووظيفته حيث وفق في إبراز العناصر المعمارية بشكل يتسم بالاتزان والانسجام والتماثل[١٨٥]، كما نجح المعمار في الربط بين أعمال النقش الزخرفية والعناصر المعمارية والتي ترى بوضوح في واجهات المدرسة الداخلية من على الصحن (انظر اللوحة رقم ٢٩). وقد استحسن بعض المؤرخين عمارة المدرسة فوصفها الناصري بأنها على هيئة بديعة وصنعة رفيعة واودع جوانبها من أنواع النقش وضروب التخريم ما يحير البصر ويدهش الفكر ووقف عليها عدة أوقاف رصع أسماءها بالنقش والأصباغ على رخامة عظيمة.[١٨٦]

وفي الواقع فإن مدرسة سلا اتسمت عمارتها بشكل عام بالوحدة بين عناصرها المختلفة حيث نفذت فيها العناصر الرئيسة المكونة لعمارة المدرسة بنسب صغيرة تلاءمت مع المساحة الصغيرة المقام عليها المدرسة ونجح المعمار المغربي في أن يضفي على المدرسة اتساعا وعمقا وارتفاعا نتيجة لاستخدامه عناصر زخرفية شغل بها واجهات المدرسة كلها من الداخل (انظر اللوحتين رقمي ٢٧، ٢٨).

ويستطيع الناظر أن يدرك الربط بين عمارة المدرسة وزخرفتها وما ترتب عليها من إظهار المبنى بشكل ضخم وفخم في الوقت نفسه إذا ما وقف في صحن المدرسة واتجه بنظره الى إيوان القبلة حيث يرى أن المعمار قد ركب على إيوان القبلة من الخارج بائكة مكونة من ثلاث فتحات معقودة ميز الوسطى بأن جعلها أكثر ارتفاعا واتساعا (انظر اللوحة رقم ٢٧). وهذه البائكة أضفت على مدخل الإيوان عمقا كبيراً، علما بأن الباب الرئيس للإيوان صغير إذ يبلغ اتساعه ٥٤ر١م، وارتفاعه من أرض الإيوان إلى قمة العقد ١٦ر٢م، وهذا العمق جاء نتيجة وجود البائكة التي ركبت على واجهة الإيوان بشكل عام فجعلت باب الإيوان على هيئة الباب التذكاري أي الباب البارز عن سمة واجهته إلى جانب أعمال النقش التي أضفت على واجهة الإيوان ثراءً زخرفيا رائعاً (انظر اللوحة رقم ٢٨).

وقد حفظت لوحة الحبوس اسم المنشيء منقوشا بالخط النسخ المغربي على رخامة خضراء، وكذلك نقش عليها تاريخ الإنشاء .. ويتضمن نص الحبوس إقرار الواقف على كون المبنى قد خصص ليكون مدرسة لتعليم الطلاب وكذلك أوضح النص العقارات التي أوقفها المنشيء على عمارة المدرسة صونا لها من العبث وضمانا لبقائها (انظر اللوحة رقم ٢٦).

التخطيط العام : تتكون مدرسة سلا من مساحة مستطيلة الشكل زودت بمدخل بارز في الركن الشمالي من الجهة الغربية ومن الداخل تتكون من صحن يتقدمه إيوان الصلاة (قاعة الدرس) وعلى جانبي الصحن توجد وحدات الخلاوي التي جاءت مركبة من طابقين (انظر التخطيط رقم ٥).

وقد تداعت معظم أجزاء المدرسة المعمارية ولم يبق منها إلا بقايا من واجهاتها المطلة على الصحن، وكذلك مدخلها الرئيس.

كتلة المدخل : جاءت كتلة دخول مدرسة سلا بارزة عن سمة واجهتها وكذلك وضعت في موقع فريد مميز عن باقي مداخل المدارس المغربية والتي اعتاد المعمار أن يضعها في الضلع الشمالي المقابل لإيوان القبلة، بينما جاءت في مدرسة سلا في الركن الشمالي من الجهة الشرقية، وذلك ليوفر المعمار الضلع الشمالي ليزيد من عدد حجرات الطلبة ويتقدم المدخل عدة درجات ويغطيه من أعلى حطات القرميد.

إيوان القبلة : يقع إيوان القبلة في الجهة

(١٨٤) ابن مرزوق، **المسند الصحيح**، ص ٤٠٧؛ والناصري، **الاستقصا**، جـ٣، ص ١٧٥

(١٨٥) انظر Terrosse, "Medersas," p.15

(١٨٦) الناصري، **الاستقصا**، جـ٣، ص ١٧٥

الجنوبية وهو يعد الإيوان الرئيس والوحيد وتخطيطه الداخلي مكون من مستطيل مقسم إلى ثلاثة أقسام غير متساوية أكبرها الأوسط الذي تكتنفه من الجانبين دخلتان غير متساويتين (انظر الشكل رقم ٥). وترتفع أرضية الإيوان عن أرضية الصحن بمقدار ٢٥سم، ويغطي إيوان القبلة سقف خشبي مكون من ثلاثة أقسام عليها بقايا لزخارف قديمة ملونة، السقف يعتمد على إزار خشبي هابط، وكذلك يؤزر الجدران الداخلية لإيوان القبلة أزار مغطى بالزليج وهو يعد مثلاً فريداً بين المدارس المغربية(١٨٧)، ويتوسط الجدار الجنوبي بالقسم الأوسط المحراب الذي يقع على محور فتحة باب الإيوان المتصلة بالصحن (انظر اللوحة رقم ٢٧).

وكالعادة في قاعات الدرس فقد حجبت واجهة إيوان القبلة بالكامل عن الصحن والاتصال الوحيد يقع عبر فتحة باب الإيوان التي تصل إيوان القبلة بالصحن (انظر اللوحة رقم ٢٧).

وتتقدم إيوان القبلة من على الصحن بائكة ثلاثية مكونة من ثلاث فتحات معقودة، الوسطى أكثر ارتفاعا واتساعا وهي التي تتقدم باب الإيوان من الخارج، وقد توج المعمار هذه الفتحة من أعلى بعقد مدبب مفصص ذي دلايات صنع من الخشب وترتكز رجلاه من الجانبين على حرمدانين يرتكزان بدورهما على عمودين ملبسين بالزليج (انظر اللوحة رقم ٢٧). وتكتنف الفتحة الوسطى من الجانبين فتحتان جانبيتان معقودتان بعقود نصف دائرية أقل ارتفاعا واتساعا من الفتحة الوسطى وقد وازن المعمار وماثل بين الفتحتين من الناحية المعمارية والفنية (انظر اللوحة رقم ٢٨). ويتوج البائكة من أعلى رفرف خشبي بديع يعتمد على كوابيل خشبية نقشت عليها زخارف نباتية رائعة.

الصحن : يتكون صحن مدرسة سلا من مستطيل طوله ٨م وعرضه ٤م وهو بذلك يعد من أصغر مساحات صحون المدارس(١٨٨) وتتوسطه خصة «فوارة» وقد فرشت أرضية الصحن بالزليج، وهي تنخفض بمقدار ١٩سم عن أرضية إيوان القبلة. ويحيط بالصحن من جهاته الأربع أربع بوائك ماثل المعمار بينها بالتقابل. حيث ماثل المعمار بين واجهة بائكة إيوان القبلة مع البائكة المقابلة لها في الضلع الشمالي وجعل كلاً منها مكونا من ثلاث فتحات، كما ماثل بين واجهتي البوائك الجانبية فجعل كلا منهما تتكون من خمس فتحات أكبرها اتساعا وارتفاعا الوسطى (انظر الشكل رقم ٥).

ويتوج واجهات المدرسة المشرفة على الصحن كورنيش خشبي محمول على أزار وكوابيل خشبية أيضا نقشت عليها زخارف نباتية دقيقة (انظر اللوحة رقم ٢٨).

الخلاوي : تقع كتل الخلاوي على ثلاثة جهات من الصحن الداخلي للمدرسة هي الجهة الشرقية والغربية والشمالية (انظر الشكل رقم ٥). وقد ماثل المعمار بين واجهاتها المطلة على الصحن، وتتكون عمارة كل منها من بائكة مكونة من خمس فتحات ميز المعمار الوسطى بأن جعلها أكثر ارتفاعا واتساعا وتوجها من أعلى بعتب مستقيم خشبي بينما يكتنفها من الجانبين أربع فتحات موزعة اثنين في كل جانب، وهي أقل اتساعا وارتفاعا، وتتوج كل منهما من أعلى بعقد لبس بالجص وترتكز كل من الفتحة الوسطى والفتحات المعقودة على ستة أعمدة قصيرة غطيت من أسفل ببلاطات الزليج (انظر اللوحة رقم ٢٨). ومن أعلى بالجص (أنظر اللوحة رقم ٢٩). وركب فوق كل بائكة حجرات سكن الطلاب التي تشرف على صحن المدرسة من الداخل عبر نوافذ صغيرة. وقد ربط المعمار بين واجهات كتلة الخلاوي المطلة على الصحن وبين واجهات إيوان القبلة والإيوان المقابل له من أعلى برفرف خشبي ومن أسفل بالتماثل بين كلتيهما مما أضفى على المبنى قيمة جمالية فريدة تؤكد عبقرية المعمار والفنان المغربي معا، كذلك تؤكد على قدرتيهما من زخرفة الواجهات وفق أساليب فنية مدروسة (انظر اللوحتين رقمي ٢٩، ٣٠)

(١٨٧) انظر Terross. "Medersas." p.16.

(١٨٨) انظر Terrosse. "Medersas." p.16

٧ ـ *المدرسة العظمى بمراكش ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م*:

تقع هذه المدرسة بجوار جامع ابن يوسف بمدينة مراكش وقد شيدها السلطان ابو الحسن بن سعيد المريني في عام ٧٤٧هـ/١٣٤٦م[١٨٩]، ولذلك فهي تعرف بمدرسة ابن يوسف.[١٩٠] وتعد هذه المدرسة تحفة مراكش بعد جامع الكتبية، فهي تسحر الألباب بروعة عمارتها وتأنق زخارفها وقد امتدحها ابن ابي ذرع فقال (ومن وقف على هذه المدرسة وتأمل تنجيدها وتنميقها قد قدر هذا السلطان وعلم عظم همته ومحبته للعلم وأهله)[١٩١]. وحقا إن عمارتها تفوق الوصف لما تمتاز به ضخامتها وفخامة زخارفها وتؤكد على أصالة الفن المغربي .. كما توضح قدرة الفنان المغربي وتمكنه من سيطرته الفنية على المبنى وهو أسلوب سبق وشاهدناه على جدران مدرسة سلا والصهريج والعطارين والبوعنانية. ولذلك يصعب على الباحث أن يفرق بين مدرسة وأخرى. فالكثير من هذه المدارس قد شيدها منشيء واحد منذ أن كان وليا للعهد إلى أن أصبح سلطانا على المغرب. وقد أظهر معماره نبوغا فريدا متميزا في بناء المدارس لدرجة أننا لا نستطيع أن نقارن بين عمائر هذا السلطان وعمائر غيره من السلاطين ليس في المغرب فحسب بل في العالم الإسلامي أجمع. وتشهد له على ذلك مدارسه في فاس ومكناس ومراكش علما بأن بناء المدارس في المغرب لم يكن بالشيء الهين إذ أن بناءها يتطلب مالاً كثيراً بجانب توفير المنشيء لها الماء الذي يعز الى حد كبير في تلك البلاد ولايقدر على جلبه من أماكنه البعيدة سوى السلاطين بإمكاناتهم الكبيرة في الإنفاق، ولذلك كانت مدرسة ابن يوسف بمراكش من المدارس التي أنفق على بنائها أموالاً كثيرة. فهي تمتاز عن مدارس عصرها بكبر مساحتها التي تبلغ ضعف مساحة مدرسة العطارين والصهريج. وقد جلب اليها الماء من خارج مراكش لتصب في الصهريج الكبير الذي يتوسط صحنها،[١٩٢] وقد اعيد بناء هذه المدرسة في العصر السعدي على يد مولاي الأمير عبد الله.

الوصف المعماري : تتكون المدرسة من صحن أوسط مكشوف سماوي يحفه من الجانب الجنوبي إيوان القبلة ومن جوانبه الثلاثة الشرقية والغربية والشمالية ثلاث ظلات تحمل جميعها حجرات الخلاوي (انظر اللوحتين رقمي ٣١، ٣٢).

ويقع المدخل في الضلع الشمالي، وهو يؤدي من الداخل إلى دركاة مستطيلة تحتوي على ثلاثة مداخل، الأيمن يؤدي عبر سلم صاعد إلى حجرات الخلاوي، والأيسر يؤدي الى الملاحق، والمدخل الذي يقع في صدر الدركاة ولكن ليس في مواجهة فتحة الباب الرئيسة يؤدي إلى صحن المدرسة (انظر الشكل رقم ٦).

إيوان القبلة : يقع إيوان القبلة في الجهة الجنوبية من على الصحن الداخلي للمدرسة، وهو يتكون من مساحة مستطيلة غطيت بسقف خشبي، وبصدر جدار القبلة محراب ملئت دخلته وبناياته بزخارف جصية رائعة مجددة (انظر اللوحة رقم ٣٥)، وزين جدران القبلة حتى ارتفاع قامة الإنسان بتكسيات من بلاطات الزليج، كما فرشت أرضيته ببلاط الزليج، وبأعلى المحراب فتحت عدة نوافذ غشيت بأحجبة من الجص المعشق بالزجاج الملون، ويتصل إيوان القبلة بالصحن عن طريق ثلاثة مداخل .. المدخل الأوسط وهو الذي يفتح على الصحن مباشرة، وقد حجب المعمار الباب بحجاب من الخشب الخرط يحتوي على فتحة باب صغيرة (انظر اللوحة

---

(١٨٩) يذكر الناصري أن السلطان أبا الحسن نقل الماء إلى مدرسة سلا على سور كبير كان الماء يجري عليه من أعلى. وقد أوصل الماء إلى الفوارة التي تتوسط صحن المدرسة. ويؤكد الناصري بأنه شاهد بنفسه القنوات والقواديس وصفة بنائها عندما كان يجري إصلاحات في صحن المدرسة. انظر الناصري، **الاستقصا**، جـ٣، ص ١٧٥

(١٩٠) انظر Gaston Deverdun, *Inscriptions Arabes de Marrakech*, Editions Techniques Nord, Africain (Rabat, 1956), p.2.

(١٩١) ابن أبي ذرع، **الأنيس المطرب**، ص ١٧٥؛ وانظر الوزان: **وصف افريقيا**، جـ١، ص ص ١٠٣ـ١٠٤.

(١٩٢) Deverdun, *Inscriptions*, p.3.

(١٩٣) المنوني، **عصر بني مرين**، ص ١٩٩.

رقم ٣٨)، أما المدخلان الأخيران فيفتح كل واحد منهما على ظلة من الظلتين الجانبيتين (انظر اللوحة رقم ٣٨).

الصحن : يعد صحن مدرسة مراكش من أكبر صحون المدارس المغربية وهو يتكون من مستطيل مكشوف يمتد من الشمال إلى الجنوب ويلتف حول الصحن من جهاته الأربع أربع ظلات أكبرها عمقا.. ظلة القبلة، والتخطيط العام للمدرسة يذكرنا بتخطيط الخنقاوات التي شيدت وفقا لنظام المسجد الجامع، ومن أمثلتها في مصر خانقاة السلطان فرج بن برقوق حيث يتقدم صحن المدرسة إيوان القبلة في الجهة الجنوبية بينما شغلت كتل الخلاوي كلا من الأضلاع الشرقية والغربية والشمالية (انظر اللوحتين رقمي ٣٣، ٣٤).

وقد حافظ المعمار على وحدة تماثل عناصره المقابلة وذلك على غرار النظام السائد في مدارس فاس. (انظر اللوحة رقم ٣٨ والشكل رقم ٦)، ويتوج جميع الوحدات المعمارية المطلة على صحن المدرسة من أعلى رفرف خشبي محمول على أزار وكوابيل خشبية عليها زخارف نباتية محفورة (انظر اللوحتين رقمي ٣٧، ٣٨). وتظهر التلبيسات الخشبية على واجهات المدرسة المطلة على الصحن بشكل يماثل أمثلتها في مدرسة الصهريج والعطارين والمصباحية والبوعنانية (انظر اللوحتين رقمي ٣٦، ٣٨).

الخلاوي : تعد مدرسة ابن يوسف من أكبر المدارس التي خصصت لكتل الخلاوي وحدات معمارية ممتدة بطول امتداد الصحن إذ جاءت واجهات كتلتيهما محمولة على بائكة مكونة من سبع فتحات معقودة ترتكز على ثمان دعائم وقد ميز المعمار فتحة العقد الوسطى بأن جعلها أكثر اتساعا وجاءت عقود تلك البائكة من الخشب المحمول على حرمدانات من الجانبين (انظر اللوحة رقم ٣١). ويعلو تلك البائكة سبع نوافذ معقودة تفتح على حجرات الخلاوي الداخلية (انظر اللوحتين رقمي ٣٢، ٣٣).

ويلعب الخشب دورا رئيساً كعنصر معماري في بناء تلك المدرسة إذ اعتمد عليه المعمار في التغطيات بإيوان القبلة والإيوان المقابل وكذلك في عمل الروابط والعقود والزخارف والكوابيل والمشربيات والأبواب (انظر اللوحات أرقام ٣٦، ٣٩، ٤٠)، أما تكسيات الزليج والزخارف الجصية فقد كان لها السيادة في زخرفة واجهات المدرسة الداخلية إذ جعلها الفنان المغربي مهادا للنصوص الكتابية المنقوشة بالخط النسخ المغربي وبعضها بالخط الكوفي في داخل تكوينات زخرفية رائعة[١٩٤] (انظر اللوحات أرقام ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤).

٨ - *مدرسة مكناس ٧٤٧هـ/١٣٤٦م*

وتعرف بمدرسة القاضي وبالمدرسة الفيلالية أو المدرسة البوعنانية[١٩٥]، وتقع هذه المدرسة بمدينة مكناس بجوار الجامع الأعظم من الجهة الشرقية، وقد شيدها السلطان أبو الحسن بن أبي سعيد بن عبد الحق[١٩٦] في ٧٤٧هـ/١٣٤٦م. وهي تعتبر تحفة مكناس المعمارية إذ يكفي أن نقول أنها من بناء السلطان ابي الحسن المريني، ويقول ابن مرزوق عنها (إن مدرسة سبته غاية وأعجب منها مدرسة مراكش وتليها مدرسة مكناس).[١٩٧] أنفق على بنائها السلطان أبو الحسن أموالاً كثيرة، وقد جاء في الاستقصا [١٩٨] أن السلطان أبا الحسن ذهب إلى مكناس لكي يقف على عمارة مدرسته بنفسه، ويرى عملها وصنيعها وجيء له بالرسوم المتضمنة التنفيذات اللازمة وبيان تكاليفها فأمسك بها وأغرقها في صهريج صحنها.. وهذا النص يدلنا على أن هذا السلطان كان لا يبالي بما ينفق على عمائره حتى يضمن لها أن تخرج في أحسن عمارة وأجمل هيئة وكان له بالفعل ماتمناه من جعل مدرسة مكناس آية من آيات الفن والإبداع المعماري والزخرفي وتولى الإشراف على عمارتها قاضي مكناس من قبل السلطان

(١٩٤) Deverdun. *Inscriptions*. p.6

(١٩٥) محمد المنوني. **عصر بني مرين**. ص ١٩٩.

(١٩٦) الناصري. **الاستقصا**. جـ٣. ص ١٧٧.

(١٩٧) ابن مرزوق. **المسند الصحيح**. ص ٤٠٦.

(١٩٨) الناصري. **الاستقصا**. جـ٣. ص ١٧٧.

أبي الحسن.[١٩٩]

الوصف المعماري : تتكون المدرسة من صحن أوسط مكشوف يتقدمه من الجهة الجنوبية إيوان القبلة ومن جهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية كتل الخلاوي، والمدرسة من الناحية المعمارية تتشابه إلى حد كبير مع مدرسة أبي يوسف بمراكش إذ شيد تخطيطها على نمط الخنقاوات المتأثرة بتخطيطات المساجد الجامعة.

وعمارة المدرسة صورة مكررة من مدرسة أبي يوسف بمراكش من حيث المساحة الضخمة وتوزيع كتل الخلاوي على الصحن، وكذلك الاعتماد بشكل رئيس على استخدام الأخشاب في عمارة المدرسة (انظر اللوحتين رقمي ٤٥، ٤٧). واستخدام الجص والزليج في تكسيات الجدران الداخلية (انظر اللوحة رقم ٤٦). وكذلك الحفاظ على التماثل بين واجهات المدرسة المتقابلة على الصحن، وقد فرشت أرضية صحنها بالزليج وحجبت فتحات بوائكها من أسفل بأحجبة من خشب الخرط (انظر اللوحة رقم ٤٥)، ويتوسط صحنها صهريج كبير على غرار المدرسة السابقة بجانب أعمال الجص التي شغل بها واجهات المدرسة المطلة على الصحن (انظر اللوحة رقم ٤٨).

٩ - المدرسة المصباحية ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م

الموقع : تقع المدرسة المصباحية بمدينة فاس القديمة بجوار جامع القرويين، وكانت تعرف عند إنشائها بمدرسة الرخام.[٢٠٠] وقد شيدت المدرسة على يد السلطان أبي الحسن بن السلطان أبي سعيد عثمان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق[٢٠١] في عام ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م، وتعرف المدرسة عند العامة من أهل المغرب بالمدرسة المصباحية نسبة إلى شيخها أبي الضياء مصباح بن عبد الله الياصلوني الفقيه المشهور حينذاك والذي يعد أول من قام بالتدريس في المدرسة.[٢٠٢] وتحتفظ المدرسة على جدرانها الداخلية بلوح الحبوس «الوقفية» وهو عبارة عن لوح من الرخام مستطيل الشكل نقش عليه بالخط المغربي نص التحبيس (انظر اللوحة رقم ٤٩)، ويتضمن هذا النص اسم المنشيء وعلى إقرار الواقف باعتبار المنشأة كمدرسة.. كما أمدنا النص ببيان بالأسهم العقارية المملوكة للواقف وكذلك أسماء المباني الموقوفة على المدرسة وحدد النص نوع كل منها وبين أماكنها. ثم أثبت النص في نهايته على كون تلك الأسهم والمباني قد حبست لدى الواقف على المدرسة المذكورة واختتم النص التحبيس بالديباجة المتعارف عليها والتي تنص بالتوعد لكل من غير أو استبدل شيئا من التحبيس المذكور بالعقاب من الله سبحانه وتعالى[٢٠٣] (انظر نص الوقفية لوحة رقم ٤٩).

عمارة المدرسة : تعد المدرسة المصباحية من المدارس الكبيرة من حيث عدد ماتؤويه من الطلاب البالغ عددهم ١٢٠ طالباً تقريباً[٢٠٤]، وقد أصيبت المدرسة بتخريب شديد نتيجة عامل الزمن الذي أفقدها الكثير من عناصرها المعمارية وأصبح ماتبقي من أطلالها ينظر منه على عمارتها الأولى (انظر اللوحة رقم ٥٠).

والتخطيط المعماري للمدرسة متعدد الطوابق وأهم ماتبقى منه يتمثل في واجهة المدخل الرئيس وكذلك الواجهة الرئيسة الواقعة في الجهة الشمالية، ومن الداخل كتلة الصحن وقاعة الدرس الرئيسة وواجهات مساكن الطلاب (الخلاوي) وبقايا من العناصر الزخرفية المنحوتة في الجص وعلى الأعتاب الخشبية، أما عن مادة بنائها فقد شيدت جدران المدرسة بالآجر واستخدمت الأخشاب بشكل رئيس

(١٩٩) الناصري، **الاستقصا**، جـ٣، ١٧٧.

(٢٠٠) الجزنائي، **زهرة الآس**، ص ١١١؛ الناصري **الاستقصا**، جـ٣، ص ١٧٦.

(٢٠١) يشير ابن مرزوق أن الذي أنشأ المدرسة المصباحية هو السلطان أبو سعيد بينما يشير النص الوثائقي لوحة رقم (٤٩) أن المدرسة من تأسيس السلطان أبي الحسن؛ انظر ابن مرزوق، **المسند الصحيح**، ص ص ٤٠٥ - ٤٠٦.

(٢٠٢) الناصري: **الاستقصا**، جـ ٣، ص ١٧٦.

(٢٠٣) يذكر اسماعيل، ان السلطان أبا الحسن أمر بعمل نقش تحبيس المدرسة المصباحية مع نص تحبيس مدرسة دار المخزن، انظر اسماعيل: **الفنون الزخرفية**، ص٢١٦

(٢٠٤) Terross, "Medersas," p.14.

في التغطيات الداخلية (انظر اللوحات أرقام ٥٠، ٥١، ٥٢).

ولم يكن للمدرسة صومعة ولا مسجداً ولا محراباً نظراً لوجودها بالقرب من جامع القرويين. ويكتنف المدرسة من الجهة الشرقية ميضأة لا تزال باقية إلى اليوم (انظر الشكل رقم ٧).

القاعة الرئيسة (قاعة الدروس) : تقع القاعة الرئيسة في الجزء الجنوبي من الصحن وهي عبارة عن مساحة مربعة الشكل كانت مغطاة، إلا أن تغطيتها سقطت الآن وأرضيتها مرتفعة عن أرضية الصحن بمقدار ٢٥سم تقريبا مازالت تحتوي على بقايا من فرشها القديم المكون من البلاطات الخزفية .. ومن الجدير بالذكر أن القاعة الرئيسة في المدرسة لم تحتو على محراب نظراً لأن معمارها قد استند على قرب المدرسة من جامع القرويين فجعل طلاب المدرسة يمرون من زقاق ضيق يصل المدرسة بجامع القرويين وفيه كانوا يؤدون الصلاة مع الجماعة وأيضا يعقدون حلقات الدرس (انظر الشكل رقم ٧).

ويسجل هذا التخطيط المعماري ابتكاراً جديداً للمعمار المغربي بوجه عام والمريني بوجه خاص حيث وفق المعمار في استغلال المساحة المتاحة لبناء مدرسته لتضم أكبر عدد من حجرات سكن الطلاب بدلا من أن يخصص إيوانا كبيراً بمحراب للصلاة وهو تفكير معماري سليم حيث اعتبر مدرسته ملحقة بجامع القرويين أو العكس. وتتصل القاعة الرئيسة بالصحن عن طريق بائكة ثنائية مكونة من عقدين مرتكزين على ثلاثة أعمدة رخامية إلا أن العمودين الجانبيين تلاشيا الآن ولم يبق إلا العمود الأوسط (انظر اللوحة رقم ٥٠). ويعلو هذه البائكة ثلاث فتحات صفت في مستوى واحد عبارة عن شمسيات مستطيلة معقودة الشكل وحجبت بأحجبة من الجص المعشق بالزجاج الملون والتي لا تزال بقاياه قائمة الى اليوم (انظر اللوحة رقم ٥٠). ويتوج هذه الفتحات من أعلى عقد مخموس من الخشب اتخذ مظهرا زخرفيا (انظر اللوحة رقم ٥٠).

وقد امتازت واجهة القاعة الرئيسة بارتفاعها الشديد وذلك ليساوي المعمار بينها وبين سكن الطلاب المتطابق والواقع على الجانبين (انظر اللوحة رقم ٥٠). ويدل أسلوب بناء واجهة الدخول الى القاعة الرئيسة بهذا الشكل أسلوب مبتكر في المغرب يتضح فيه التأثير المشرقي والذي يذكرنا بواجهة ظلة القبلة بمدرسة السلطان قلاوون الواقعة بشارع النحاسين ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م بالقاهرة.

وتحتوي القاعة من الداخل على عدة فتحات استخدمت كمداخل فرعية تؤدي الى مجموعة الملاحق الواقعة خلف القاعة الرئيسة وبجانبها. ويوجد على يسار القاعة فتحة مستطيلة الشكل غير نافذة كانت تستخدم كخزانة (أنظر الشكل رقم ٧).

الصحن : ويتوسط الصحن المدرسة من الداخل وهو عبارة عن صحن أوسط مكشوف يتوسط أرضيته حوض رخامي (صهريج) نقل إليها من صحن مدرسة الصهريج[٢٠٥]، وقد فرشت أرضية الصحن بالزليج والتي لا تزال بعض أجزاء منه باقية (انظر اللوحة رقم ٥٠). ويتصل صحن المدرسة بالقاعة عن طريق بائكة ثانية محمولة عقودها على ثلاثة أعمدة لم يبق منها إلا العمود الأوسط (انظر اللوحة رقم ٥٠)، وعلى جانبي الصحن تقع كتلة الخلاوي والتي تشرف عليه من خلال ثلاثة مستويات رأسية (انظر اللوحة رقم ٥٠) وقد ماثل المعمار بين واجهات كتل الخلاوي المطلة عليه من الداخل وكان يتوج واجهات المدرسة من أعلى رفرف خشبي محمول على كوابيل إلا أن معظمه سقط الآن.

كتلة الخلاوي : وزع المعمار حجرات سكن الطلاب (الخلاوي) في المدرسة المصباحية في جميع الجهات وأصبحت عمارة المدرسة أقرب ما تكون بالفندق منها إلى المدرسة ولذلك أصبحت كتلة الخلاوي هي الكتلة الرئيسة داخل عمارتها، وقد وزع المعمار كتل الخلاوي الرئيسة على امتداد الصحن من جوانبه الثلاثة الشرقية والغربية والشمالية وجاء تخطيطها من حجرات متطابقة من ثلاثة أدوار (انظر اللوحة رقم ٥٠). وهناك مجموعة

(٢٠٥) لوتورنو، **عصر بني مرين**، ص ٤٣.

أخرى من الخلاوي تقع في الجانب الغربي والجانب الجنوبي من القاعة الرئيسة. (انظر الشكل رقم ٧). وقد ماثل المعمار بين كتلتي الخلاوي الواقعة على جانبي الصحن الرئيس حيث يشرف كل جانب على الصحن من خلال ظلة مكونة من ثلاث فتحات حمل سقفها على أربع دعائم آجرية مربعة عليها آثار تكسيات جصية قديمة ويعلو الدعائم جوائز خشبية محفورة (انظر اللوحة رقم ٥٢). ويعلو هذه الظلة طابقان كل طابق مكون من أربع حجرات منفصلة ويتقدم كل طابق ممر يشرف على الصحن الداخلي، وقد رفعت أسقف الممرات على دعائم وضعت على امتداد الدعائم الأرضية نفسها، ويفصل بين السقف والدعامة جوائز خشبية مازال عليها آثار للزخارف النباتية المحفورة (انظر اللوحتين رقمي ٥١، ٥٢).

أما واجهات الدعائم والجدران فكانت مغطاة بتكسيات جصية تلاشى معظمها الآن، ويصعد الى حجرات الخلاوي عن طريق السلم الصاعد الذي يقع على يسار المدخل الرئيس من الداخل (انظر اللوحة رقم ٥٣). أما حجرات الخلاوي الواقعة في الجهة الغربية والجنوبية من القاعة الرئيسة فهي تتكون من مجموعة حجرات متطابقة تلتف حول صحن صغير (انظر اللوحة رقم ٥٠)

ثانياً: مدارس النموذج الثاني:

١ - *المدرسة المتوكلة* ٧٥١ - ٧٥٦هـ / ١٣٤٩ - ١٣٥٥م:

وتعرف بالمدرسة البوعنانية نسبة الى منشئها السلطان أبي عنان فارسي بن أبي الحسن المريني. وتقع هذه المدرسة بمدينة فاس القديمة على مقربة من جامع القرويين بأعلى شارع الطالعة وهي تشرف على شارع رئيس كان يعرف باسم سوق قصر فاس[٢٠٦]، ولأول مرة يحتوي نص تحبيس مدرسة على تاريخين هما تاريخ بداية الإنشاء وتاريخ الفراغ من البناء حيث ورد النص مكتوبا بالخط النسخ المغربي على قطعة رخام مستطيلة الشكل مثبتة على واجهة المدرسة من الداخل بما نصه (وكان ابتداء بنائها في الثامن والعشرين لشهر رمضان المعظم عام واحد وخمسين وسبعمائة، والفراغ منه في آخر شعبان المكرم عام ستة وخمسين وسبعمائة)[٢٠٧] وعلى حسب نص الوثيقة فقد تم بناء المدرسة على يد ناظر الحبوس أبي الحسن بن أحمد بن الأشقر. وقد أثبت المنشيء في صدر لوح الحبوس إقراره بوظيفة المنشأة على كونها مدرسة ومسجدا جامعا معا بما نصه (أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة السنية المسماة بالمتوكلة.. المعدة لتدريس العلم وإقراء القرآن المفضلة بإقامة فرض الجمعة المخصوصة بالمرافق الشاملة والمحاسن المستبدعة).

والنص السابق يوضح أن المدرسة البوعنانية مفضلة على جميع المدارس السابقة لكونها جمعت في تخطيطها مسجدا جامعا لغرض صلاة الجمعة، أما عن عبارة المخصوصة بالمرافق فيقصد بها ماخصصه المعمار من بناء بعض العناصر المعمارية التي تنفرد بها عمارتها عن غيرها وهي إقامة صومعة لإعلاء الأذان، وكذلك منبر للخطبة وهما عنصران عز وجودهما بالمدارس السابقة. أما كلمة مستبدعة التي وردت في نص الوثيقة فهي تعني تخطيط القاعتين المبتكر إذ يعد وجودهما نموذجا ينفذ لأول مرة في تخطيطات المدارس المغربية (انظر الشكل رقم ٩).

وأخيراً يتضمن لوح الحبوس بيانا بالمنشآت الموقوفة على عمارة المدرسة للصرف عليها. ويبدو أن المدرسة قد تكلف بناؤها ما يقرب من ٢٤٨٠٠٠ألف مثقال، إذ يذكر الوزان أنه سمع من شيوخ المدرسة أن السلطان أبا عنان عندما أراد أن يطلع على كشوف الصرف قد أبدى دهشته لعظم النفقة وألقى بالكشف في صهريج المدرسة وقال (أحب ما هو جميل مهما غلا ثمنه فما يحبه المرء ما من ثمن لا يمكن دفعه).[٢٠٨] وهذا النص يشبه النص نفسه الذي

(٢٠٦) الجزنائي، **زهرة الآس**. ص ٥٣.

(٢٠٧) من الغريب أن الباحث لوتورنو يذكر أن السلطان أبا عنان شيد مدرسته في سنة لم نعرفها بالضبط ولكنها تقع بعد سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، في حين أن تاريخ الإنشاء والفراغ مذكور في نص الوثيقة: انظر لوتورنو، **عصر بني مرين**، ص ٤٤.

(٢٠٨) الوزان، **وصف أفريقيا**، جـ١، ص ١٧٩.

روي عن مدرسة مكناس والنصان يؤكدان معنى واحدا هو حرص المنشئين على البناء في أعظم هيئته دون النظر في التكاليف.

وتعد المدرسة البوعنانية آخر مدارس المغرب العظيمة، وهي تمتاز عن سائر مدارس المغرب بتخطيطها الفريد وكبر مساحتها وفخامة زخارفها.[٢٠٩] وقد بهرت عمارتها المستشرقين كما بهرت من قبل المؤرخين والرحالة فيقول (الفريد بيل) لقد أخذت المدرسة البوعنانية مكانة جامع القرويين إذ أراد منشئها أن يجعلها عاصمة المغرب الدينية والعلمية فوفر لها كل متطلبات العلم والدين[٢١٠]، ووصفها (تيراس) بأنها قطعة فريدة في شمال أفريقية.[٢١١] أما الوزان فوصف عمارتها بروعتها الفائقة وسعتها وجمالها حيث نقشت جدرانها بكتابات شعرية كتبت من الزليج بحروف كبيرة سوداء على أرضية بيضاء بحيث يمكن قراءتها من مسافة بعيدة وأبواب المدرسة كلها مصفحة من البرونز المصنوع بدقة وتزويق كبير، وأبواب الحجرات من الخشب المنقوش، وفي القاعة الكبرى المخصصة للصلاة منبر ذو تسع درجات مصنوع كله من خشب الأبنوس وطعم بالعاج، وهو يشكل في مجموعه تحفة عجيبة ويرى الناظر في الصحن بركة فاخرة من الرخام... ويخترق هذه المدرسة جدول ماء يسيل في قناة صغيرة مغطاة أرضيتها وجوانبها بالرخام والزليج.[٢١٢] (انظر اللوحات أرقام ٦٢، ٦٤، ٦٦).

الوصف المعماري : يقع المدخل الرئيس في منتصف الواجهة الشمالية وهو يشرف على الطريق السالك، ويتقدم مدخل المدرسة سباط محمول على عقدين (انظر اللوحة رقم ٦٨). وتخطيط كتلة الدخول تتكون من بابين متجاورين يؤديان الى رحبة مستطيلة بصدرها سلم صاعد يصب مباشرة في صحن المدرسة (انظر الشكل رقم ٩). وفرشت أرضية الرحبة والسلم بالزليج وعلى جانبي السلم من أعلى رواق عرضه متر تقريبا مسقوف بسقف خشبي يلتف حول الصحن والقاعتين ويصل الى المسجد (انظر الشكل رقم ٩). ويفتح هذا الممر من الجهة الشرقية على دهليز يوصل إلى الميضأة، وكذلك يصل إلى الجهة الغربية إلى مدخل صومعة (انظر الشكل رقم ٩). أما واجهة المدخل الرئيس من الخارج فقد حفلت بنقوش جصية وكتابية بديعة[٢١٣] (انظر اللوحة رقم ٦١).

المسجد الجامع : يقع المسجد الجامع في الجهة الجنوبية من الصحن، وتخطيطه الداخلي مكون من مساحة مستطيلة تمتد من الشرق الى الغرب قسمت إلى أسكوبين غير متساويين نتيجة لوجود بائكة مكونة من خمسة عقود حدوية ترتكز على أربعة أعمدة رخامية تسير عقودها موازية لجدار القبلة ويغطي كل أسكوب سقف جمالوني تسير حطاته من أعلى وفق التقسيم الداخلي للمسجد (انظر الشكل رقم ٨). ويتوسط جدار القبلة دخلة المحراب وهي دخلة عميقة مضلعة الشكل غطيت بنصف قبة محمولة على مقرنصات، ويتقدم دخلة المحراب من الخارج عقد حدوة فرس يرتكز من الجانبين على عمودين من الرخام مثمن الشكل (انظر اللوحة رقم ٦٥)، ويحتفظ المسجد بوجود بعض تيجان الأعمدة القديمة المنقوش عليها نصوص كتابية (انظر اللوحة رقم ٥٨).

ويوجد بصدر جدار القبلة من أعلى المحراب مجموعة نوافذ عليها أحجبة جصية معشقة بالزجاج الملون.

والمسجد من الداخل غشيت جدرانه بالتكسيات الجصية والبلاطات المزلجة في تناسق فني بديع، وعلى يمين المحراب يوجد منبر خشبي مكون من ريشتين زخرفتا بزخارف هندسية على هيئة حشوات مجمعة طعمت بالعاج وبعضها يغلب عليه أعمال الحفر الدقيق وهو يعد تحفة فنية داخل المسجد (انظر اللوحة رقم ٦٥).

ويشرف المسجد على الصحن الداخلي من خلال

(٢٠٩) سالم. **مدارس فاس**. ص ٢٠٧

(٢١٠) انظر Bel. *Incriptions*. p.14.

(٢١١) انظر Terrosse. "Medersas." p.18

(٢١٢) الوزان. **وصف افريقيا**. جـ١. ص ١٧٩.

(٢١٣) انظر Bel. *Incriptions*. p.37.

بائكة مكونة من خمس فتحات ترتكز على أربع دعائم ميز المعمار الفتحة الوسطى بأن جعلها أكثر اتساعا وارتفاعا وكذلك توجَّها من أعلى بعقد حدوة الفرس المنفوخ.. ويلي الفتحة الوسطى من الجانبين فتحات هما أقل اتساعا وارتفاعا وتليهما من الجانبين فتحتان أقل اتساعا فقط (انظر الشكل رقم ٩ واللوحة رقم ٥٩).

الصحن : وهو يتكون من مستطيل يمتد من الشمال إلى الجنوب ١٨م ومن الشرق الى الغرب ١٦٫٩٥م، ويعد صحن المدرسة تحفة فنية جمعت بين العمارة والفن إذ يبدو الصحن من خلال اللوحات صحنا عاديا إلا أنه قد أجري فيه مجرى نهر تأتي إليه المياه من وادي فاس وتمر بصحن الجامع من خلال قناة تقع بطول الضلع الجنوبي من الصحن أي أنها تفصل بين واجهة المسجد وصحن المدرسة وهناك قنطرتان يمر من عليهما المصلون إلى الجامع فيبدو المسجد وكأنه شيد على الماء (انظر اللوحة رقم ٦٧). ويتوسط صحن المدرسة خصة رخامية دائرية الشكل (فوارة) تفور منها المياه وفرشت أرضيته بالرخام (انظر اللوحتين رقمي ٥٥، ٥٧). وتشرف واجهات المباني المطلة على الصحن من خلال صفوف البوائك المتماثلة (انظر اللوحات أرقام ٥٧، ٥٩، ٦٠).كذلك توج المعمار جميع واجهات المباني المطلة على الصحن من أعلى برفرف خشبي محمول على أزار وكوابيل خشبية، وغطي من أعلى بحطات قرميدية (انظر اللوحتين رقمي ٥٤، ٥٦).

قاعتا الدرس: يكتنف الصحن من الجانبين الشرقي والغربي قاعتان تخطيطهما من الداخل مربعان وقد ماثل المعمار بين فتحتيهما المتقابلتين من على الصحن، حيث تشرف كل قاعة على الصحن من خلال فتحة باب يغلق عليهما ضلفتا باب من الخشب (انظر اللوحة رقم ٦٠).

كما ماثل المعمار بين موقع القاعتين حيث جعل كل منهما تقع وسط امتداد ضلع من ضلعي الصحن الشرقي والغربي[٢١٤] (انظر الشكل رقم ٩). وتكتنف كل قاعة من الجانبين فتحتان معقودتان من أعلى بعقود مقرنصة من الجص (انظر اللوحة رقم ٦٠).

وتوج المعمار واجهات القاعتين من على الصحن بثلاث نوافذ معقودة يغشي فتحاتها أحجبة من الجص المفرغ والمعشق بالزجاج الملون ويتوج تلك النوافذ عقد قوس من الخشب. وشغل الفنان صدر كل عقد في القاعتين بزخارف جصة رائعة (انظر اللوحة رقم ٦٣).

ويذكر مارسيه عن موقع القاعتين بأنهما يمثلان ظاهرة معمارية مشتقة من التطور الذي حدث من قبل في مدارس المشرق الإسلامي.[٢١٥] بينما يقر أحمد فكرى بأن كلا القاعتين يعبران عن ظاهرة تنفرد بها المدرسة البوعنانية بفاس وخلت منها جميع المدارس المغربية.[٢١٦] ونزيد على هذين الرأيين بأن تخطيط المدرسة البوعنانية بفاس وخاصة موقع القاعتين على التخطيط نموذج فريد ليس في عمارة المدرسة المغربية فحسب بل في جميع مدارس المشرق أيضا، وكما سبق أن أوضحت أن تخطيط القاعتين يعبران عن تطور محلي تسجله عمارة المدرسة في المغرب وله جذور معمارية تؤكد ذلك.[٢١٧]

(٢١٤) يرى عبد العزيز بن عبد الله، **تاريخ الحضارة المغربية**، جزآن، (الدار البيضاء: دار السلمي للنشر، ١٩٦١م)، ص ٢٥ أن المدرسة البوعنانية بفاس تشابه في الهندسة والترخيم مدارس الشرق.

(٢١٥) انظر Marces, *Architecture*, p.293.

(٢١٦) فكري، **مساجد القاهرة**، جـ٢، ص ١٨٩

(٢١٧) يأتي تخطيط القاعتين في المدرسة البوعنانية أشبه ما يكون من حيث موقعهما بالإيوانات الجانبية في المدارس المشرقية، واقول من حيث الموقع فقط وليس من ناحية تخطيطها المعماري إذ لا يوجد لهاتين القاعتين نموذج مشابه في المشرق مع الاختلاف الكبير في تخطيط الإيوانات الجانبية التي تفتح بكامل اتساعه على الصحن، بينما فتحات القاعات لا تمثل كامل اتساعها، وهناك اختلاف آخر من حيث التخطيط المربع وكذلك التغطية والأبواب التي تغلق على القاعتين كل هذه العناصر تنفرد بها القاعات الجانبية في المدرسة البوعنانية عن مثيلتها في التخطيط الإيواني بالمدارس المشرقية. راجع الاشكال المعمارية ارقام ١١، ١٨، ١٩، ٢٤ كنماذج للتخطيط الإيواني.

التخطيط المعماري للقاعتين من الداخل : يتكون التخطيط المعماري للقاعتين من الداخل من مربعين طول كل ضلع ٥ أمتار تقريبا وترتفع أرضيتهما عن أرضية الصحن بمقدار ١٧سم تقريبا، ويغطي كل قاعة سقف خشبي عل هيئة قبة أودع فيها الفنان المغربي كل ما يملك من أساليب فنية تذكرنا بمثيلتها في قبة قاعة السفراء بقصر الحمراء. وكذلك غطى الفنان جدران القاعتين من الداخل بتكسيات جصية، وعلى جانبي كل قاعة من الداخل توجد دخلتان عميقتان استغلت كالخزانة (انظر الشكل رقم ٩).

الخلاوي : وزع المعمار كتل حجرات سكن الطلاب في المدرسة البوعنانية على أضلاع الصحن الداخلي من ثلاث جهات الشرقية والغربية والشمالية (انظر الشكل رقم ٩). وتعد كتلة الخلاوي الرئيسة هي التي تقع في الجهة الشمالية من الصحن وتشرف على الطريق الرئيس من الخارج (انظر الشكل رقم ٩). وتتكون حجرات سكن الطلبة من طابقين ماثل المعمار بين واجهات كتلتيهما المطلة على صحن المدرسة وهي تشبه الى حد كبير مثيلتهما في مدرسة مراكش ومكناس، وبنسبة لباقي امتداد كتل الخلاوي على جانبي قاعتي الدرس في الجهة الشرقية والغربية، فهذا الشكل من حيث الموقع ظهر كثيرا في مدارس سابقة في المشرق الإسلامي، ومن أمثلتها مدرسة جفته منار السلجوقية بمدينة ارضروم القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي(انظر الشكل رقم ٢٨) ومن أمثلتها في مصر خانقاة بيبرس الجاسنكير (انظر الشكل رقم ٢٦) ومدرسة صرغتمش (انظر شكل رقم ٢٧).

المئذنة : تقع مئذنة المدرسة البوعنانية في الزاوية الشمالية الشرقية وتخطيطها المعماري يتبع تخطيط الصوامع المغربية المكونة من تخطيط مربع ينتهي من أعلى بحجرة الأذان (الجوسق) وعلى واجهات الصومعة الأربع من أعلى توجد الزخرفة الهندسية المكونة من أشرطة متشابكة تبدأ من نصفها العلوي حتى القمة وهذه الصومعة قريبة الشبه من صومعة مسجد القصبة الموحدي بمدينة مراكش سواء من الناحية المعمارية أو من ناحية زخرفتها ببلاطات الزليج الملونة باللون الأخضر (انظر اللوحة رقم ٥٤ والشكل رقم ٨).

المنجانة : يذكر الجزنائي أن السلطان أبا عنان قد صنع منجانة «ساعة» بطيقان وطسوس من نحاس مقابلة لباب مدرسته الجديدة التي أحدثها بسوق القصر من فاس وجعل شعار كل ساعة أن تسقط صنجة في طاس وتنفتح طاق، وذلك في أيام آخرها الشهر الرابع عشر لجمادى الأولى عام ثمانية وخمسين وسبعمائة، وقد صنعت هذه المنجانة على يد المؤقت علي بن أحمد التلمساني المعدل.[٢١٨]

وفي الحقيقة أن هذه الساعة تعد عملاً فنياً رائعا شغل به أبو عنان واجهة مدرسته من الخارج فجعلها أعجوبة عصره. والساعة مازالت باقية إلى اليوم على الرغم من عدم استخدامها (انظر اللوحة رقم ٦٨). والجدير بالذكر أنها لم تكن الساعة الأولى في المغرب إذ تحفل حجرة المواقيت بجامع القرويين بساعات مشابهة من حيث التصميم ولكن تنفرد ساعة المدرسة البوعنانية بموقعها الفريد على واجهة المدرسة من الخارج (انظر اللوحة رقم ٦٨).

٢ ـ *مدرسة الشراطين* ١٠٨١هـ/ ١٦٦٩م

تقع بمدينة فاس القديمة بالقرب من جامع القرويين في منطقة تعرف بمنطقة الشراطين.[٢١٩] وشيدت هذه المدرسة من قبل مولاي الرشيد الذي يعتبر أول سلطان في الدولة العلوية[٢٢٠]، وكان بناء المدرسة في عام ١٠٨١هـ/ ١٦٦٩م على أنقاض مدرسة قديمة كانت قائمة في نفس موضعها الحالي، وكانت تعرف بمدرسة البادين.[٢٢١] وتعد مدرسة الشراطين من أضخم مدارس المغرب من حيث المساحة إذ بلغ عدد ماتؤويه من طلاب في

(٢١٨) انظر الجزنائي: **زهرة الآس**، ص ٥٣.

(٢١٩) لوتورنو، **عصر بني مرين**، ص ٤٤.

(٢٢٠) ابن عبد الله، **الحضارة المغربية**، ص ٤٨.

(٢٢١) انظر Terrosse, "Medersas," p.27

خلاويها[٢٢٢] ١٣٠ طالباً، وهذا العدد الكبير لم تساوه أي مدرسة مغربية سابقة سوى المدرسة المصباحية حيث كانت تؤوي ١٢٠ طالبا.[٢٢٣]

الوصف المعماري : تتكون المدرسة من صحن أوسط مكشوف يتقدمه من الجهة الجنوبية إيوان القبلة الذي تكتنفه من الجانبين كتلتان من الخلاوي موزعة بالتماثل (انظر الشكل رقم ١٠).

كذلك يكتنف صحن المدرسة الداخلي من الجهة الشرقية والغربية والشمالية امتداد كتل الخلاوي مع ملحق الميضأة، ويتوسط كل من الجانب الشرقي والغربي مدخلان ميز المعمار المدخل الكائن بالجهة الشرقية بأن جعله من النوع المنكسر بينما المدخل الغربي يفتح مباشرة على صحن المدرسة من الداخل (انظر الشكل رقم ١٠).

وهناك مدخل ثالث يقع في الزاوية الشمالية من الجهة الغربية يؤدي إلى الميضأة (انظر الشكل رقم ١٠). على الرغم من أن مساحة المدرسة ضخمة إلا أن عمارتها الداخلية تفتقر إلى الثراء الزخرفي الذي كان يرى في المدارس المرينية السابقة.. ولعل ذلك يرجع إلى ضخامة المدرسة وما سيترتب عليه إذا زخرفت من ارتفاع للتكاليف، ولكن ما تمتاز به مدرسة الشراطين هو تنفيذ عمارتها بتخطيط جديد على الرغم من أنه يتبع تخطيطات النموذج الأول في المدارس المغربية والمكون من صحن وإيوان (انظر الشكل رقم ١٠).

ولكن الجديد في التخطيط ممثل في توزيع كتل الخلاوي بشكل متماثل على جانبي إيوان القبلة وليس على الصحن الداخلي كما هي العادة في توزيع كتل الخلاوي في المدارس المرينية (انظر الشكل رقم ١٠). وكذلك احتواء المدرسة على أكثر من كتلة دخول (انظر الشكل رقم ١٠). وقد استخدمت الأخشاب المنحوتة بشكل رئيس داخل التكوين المعماري الداخلي للمدرسة فصنعت منها التغطيات وأبواب المدرسة والكوابيل والأعتاب والجوائز ولكنها نحتت بزخارف غير دقيقة.[٢٢٤] كما استخدمت التكسيات الجصية في الحشوات التي تغطي بعض واجهات المدرسة الداخلية وكذلك في الإطارات التي تزين فتحات النوافذ الداخلية وقد صفحت أبواب المدرسة الخشبية بالنحاس (انظر اللوحات أرقام ٦٩، ٧٠، ٧١).

إيوان القبلة : يقع إيوان القبلة في الجهة الجنوبية من الصحن ويتكون تخطيطه الداخلي من مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب ويتوسط جدار القبلة محراب عميق عليه تكسيات جصية تتوج فتحة عقده من أعلى وكذلك يوجد بصدر المحراب زخارف جصية يرجح أنها قديمة، وأرضية الإيوان مرتفعة عن أرضية الصحن ويغطيه سقف خشبي محمول على جوائز وحالته سيئة للغاية. ويشرف إيوان القبلة على الصحن الداخلي من خلال بائكة ثلاثية مكونة من ثلاث فتحات معقودة بعقود حدوة الفرس، وقد ميز المعمار فتحة العقد الوسطى بأن جعلها أكثر اتساعا وارتفاعا من الفتحتين الجانبيتين وهي تذكرنا بمثيلتها في المدرسة المصباحية (انظر الشكل رقم ١٠).

الصحن : ويتكون صحن مدرسة الشراطين من مربع تفتح عليه من جهاته الأربع بوائك ناظر المعمار بين كل بائكتين متقابلتين بحيث تشرف بائكة إيوان القبلة والبائكة المقابلة لها في الضلع الشمالي على الصحن من خلال ثلاث فتحات معقودة، وقد ميز المعمار الفتحة الوسطى في كل من البائكتين بأن جعلها أكثر اتساعا وارتفاعا (انظر الشكل رقم ١٠).

وكذلك ماثل المعمار بين البائكتين الجانبيتين في الجهة الشرقية والغربية، وقد جاءت فتحتهما الوسطى أكثر ارتفاعا نظراً لأنها تفتح أمام المدخلين الجانبيين (انظر الشكل رقم ١٠ واللوحة رقم ٦٩).

وقد حملت جميع البوائك المطلة على الصحن على دعائم كسيت ببلاط الزليج ويتوسط أرضية الصحن حوض رخامي مربع الشكل وفرشت أرضيته بالزليج

---

(٢٢٢) Terrosse, "Medersas," p. 27

(٢٢٣) راجع المدرسة المصباحية، من البحث.

(٢٢٤) انظر Terrosse, "Medersas," p. 28

(انظر اللوحة رقم ٦٩). ويتوج جميع واجهات المباني المطلة على الصحن من أعلى رفرف خشبي محمول على كوابيل وقد غطت هذا الرفرف من أعلى حطات القراميد.

كتل الخلاوي : كما سبق أن أوضحنا أن المدرسة تعد أكبر مدرسة مغربية من حيث عدد ما تؤويه من طلاب ولذلك خصص المعمار مساحة المدرسة الداخلية بالكامل لبناء كتل الخلاوي، ولم يكفه التوسع الأفقي في بناء الحجرات فقام بالتوسع الرأسي وعلى ذلك جاءت الحجرات متطابقة من ثلاثة طوابق (انظر الشكل رقم ١٠).

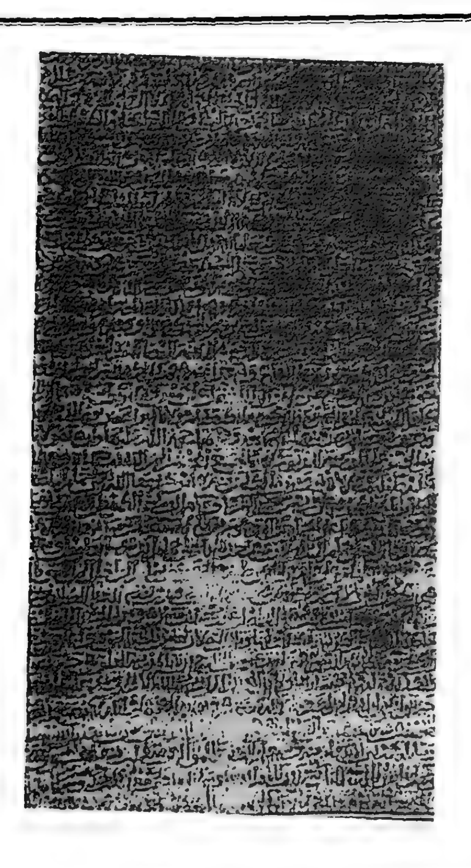
وأصبح تخطيط المدرسة أشبه ما يكون بالفندق، ويعد توزيع كتل الخلاوي بهذا التخطيط هو نموذج متطور لم يشاهد من قبل في تخطيطات كتل الخلاوي في المدارس المرينية ويتكون من أربع وحدات معمارية بعضها منفصل وبعضها متصل.

أما الكتلتان المنفصلتان فهما الواقعتان على جانب إيوان القبلة والذي ماثل المعمار بين كتلتيهما ويتكون تخطيط كل منهما من صحن مربع يلتف حوله مجموعة حجرات متطابقة من ثلاثة طوابق تشرف جميعها على صحنها الداخلي (انظر الشكل رقم ١٠).

بينما وصل المعمار بين كتلتي الخلاوي الواقعة في الجهة الشرقية والذي جاء تخطيطها مكونا من صحن يلتف حوله مجموعة حجرات متطابقة من ثلاثة طوابق وبين امتداد حجرات الخلاوي الممتدة على الضلع الشمالي (انظر الشكل رقم ١٠).

الخاتمة

من هذه الدراسة يتضح أن عمارة المدرسة المغربية قد سجلت بكل اعتزاز أجمل ماصنع الفنان المسلم وأبدع في المغرب الأقصى وخاصة في عمارة المدرسة التي ترجع إلى القرن ٧ـ٨هـ/١٣ـ١٤م، إذ أصبح ينظر إلى عمارة المدرسة في تلك الفترة كأعمال فنية كبيرة امتزجت فيها العمارة مع الفنون وأصبح من الصعب على المرء أن يجرد المبنى أو أن يتصوره بدون زخارفه التي ملأت واجهات المدرسة من الداخل والخارج، وإن كانت الأساليب الفنية التي نفذت بها زخارف المدارس المغربية تعبر عن تأثرها بالأساليب الفنية الأندلسية وخاصة في غرناطة ... إلا أن عمارة المدرسة من حيث التخطيط تؤكد أنها ابتكار مغربي محلي إذ أنه من الثابت أن العمارة الدينية في الأندلس لم تسجل نماذج سابقة لمدارس كالتي عليها مدارس المغرب في العصر المريني، وبناء على هذا لا يمكن أن نسلب المغاربة حقهم الكبير في إثراء العمارة الإسلامية وإبراز دورهم الرائد في سلسلة الأعمال الفريدة والتي سجلوها منذ القرن ٦هـ/ ١٢م، ممثلة في مساجدهم العملاقة الثلاثة بصوامعها الفريدة في الكتبية، وأشبيليه وحسان. بل واستمروا بعد ذلك بنفس القوة وأنتجوا لنا أجمل العمائر الجنائزية في العصر السعدي الممثلة في قبور السعديين بمراكش، وعلى هذا فإن جناح المغرب قد حفظ لنا عمائر خالدة، بجانب حفظه على فنون الأندلس وأساليبها الزخرفية، وإذا كنا قد فقدنا الأندلس كمواقع ومدن إسلامية، فالى المغرب يرجع الفضل في الحفاظ على الأندلس فنيا وثقافيا.



لوحة رقم (١).

«لوحة الحبوس» بمدرسة دار المخزن بفاس الجديدة.

«عن الفريد بيل»

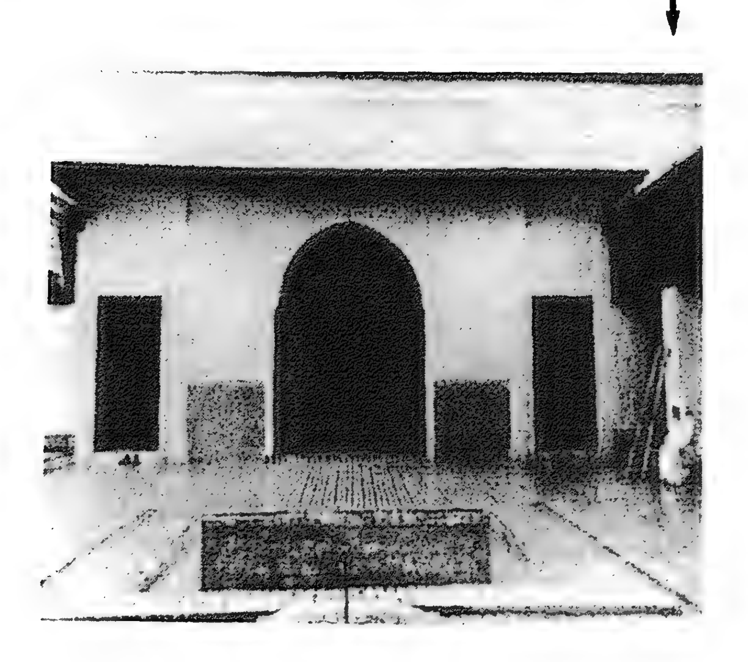


لوحة رقم (٢). مدرسة دار المخزن بفاس الجديدة وتفاصيل لكتلة الدخول من الصحن.

«عن الباحث»



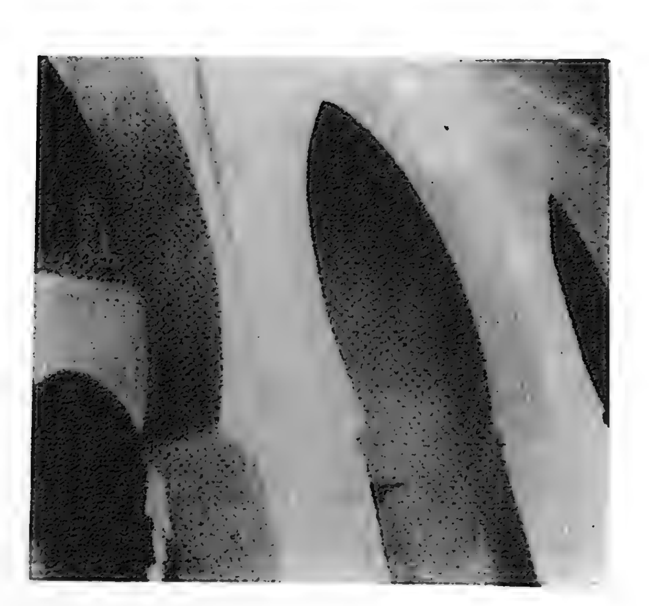
لوحة رقم (٤،٣). مدرسة دار المخزن بفاس الجديدة وتفاصيل لكتلة الصحن والخلاوي.
«عن د. عثمان إسماعيل»

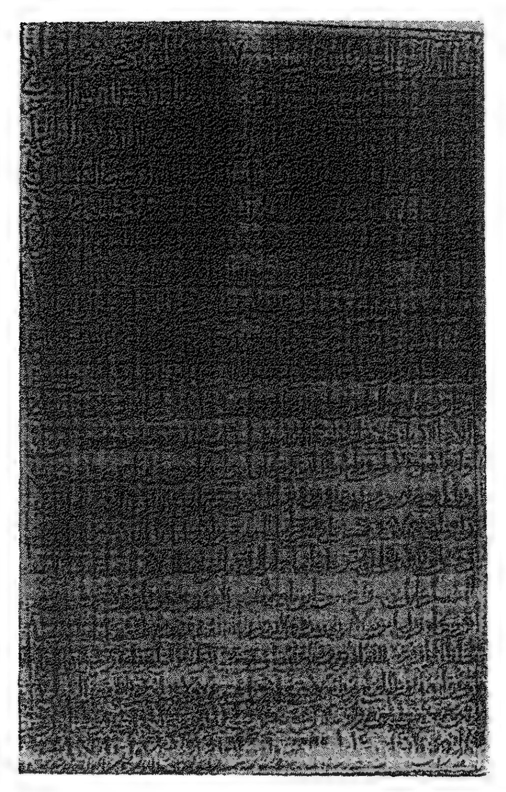




لوحة رقم (٦٠٥). مدرسة دار المخزن بفاس الجديدة وتفاصيل للبائكة التي تقسم إيوان القبلة إلى قسمين.

«عن د. عثمان إسماعيل»

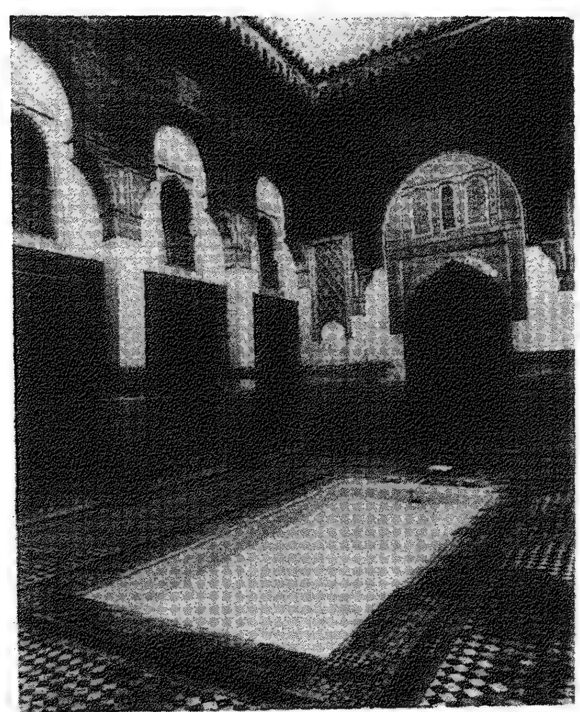




لوحة رقم (٧).

لوحة «الحبوس» بمدرسة الصهريج بفاس القديمة.

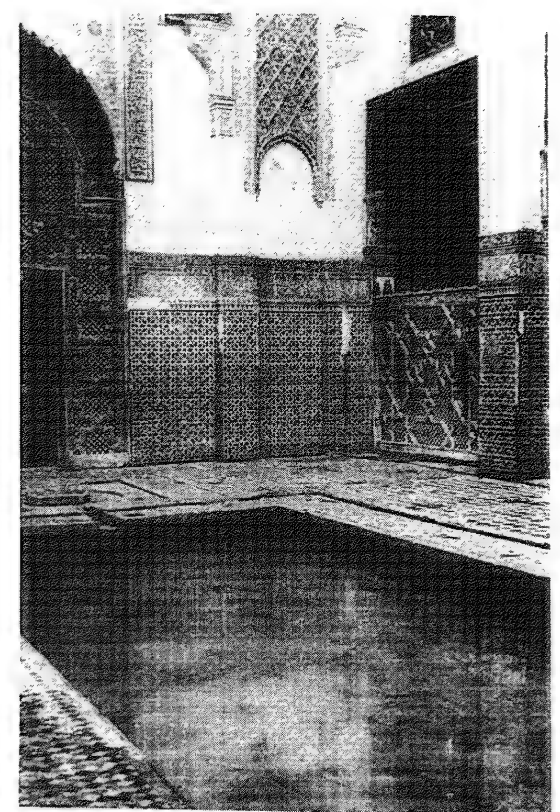
«عن الفريد بيل»



لوحة رقم (٨).

مدرسة الصهريج من الداخل وتفاصيل للحوض الرخامي وواجهة قاعة الدرس والخلاوي.

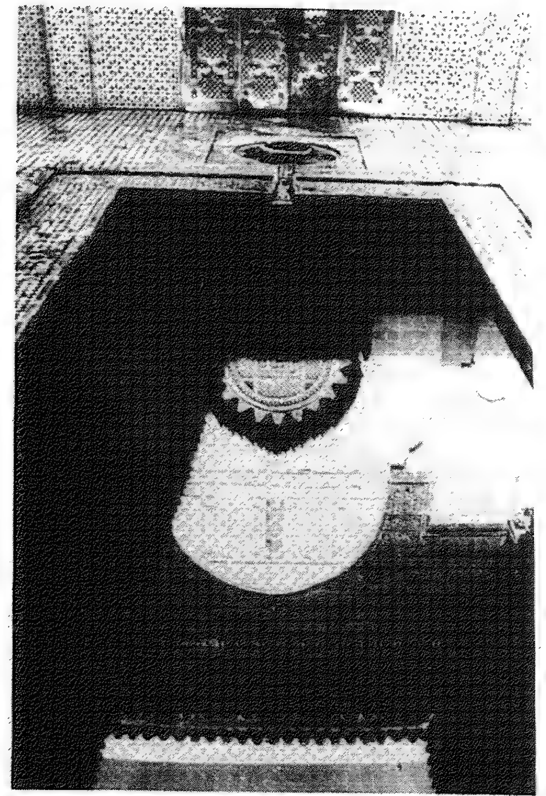
«عن الفريد بيل»



لوحة رقم (٩).

مدرسة الصهريج بفاس وتفاصيل لأعمال الزليج والجص والنجارة التي تشغل واجهات المدرسة الداخلية.

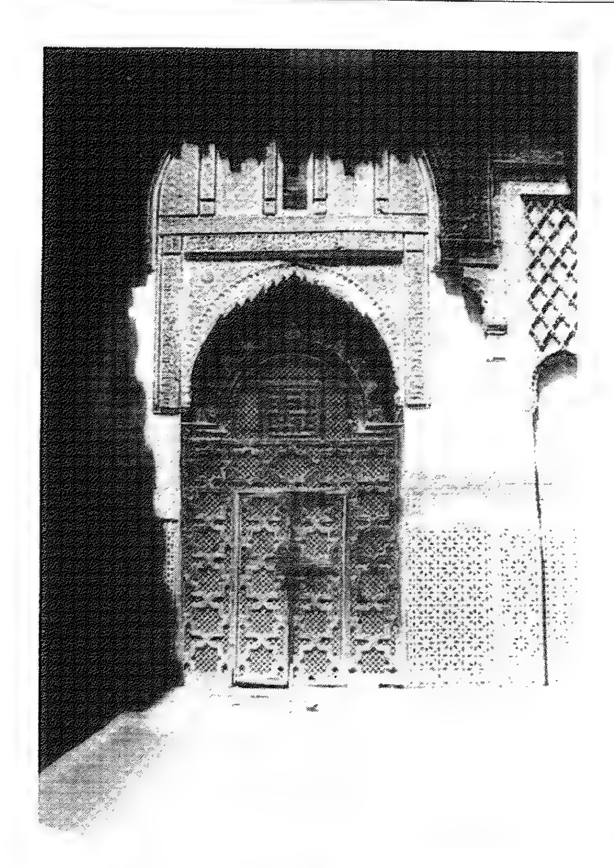
«عن الباحث»



لوحة رقم (١٠).

مدرسة الصهريج بفاس وصورة تمثل واجهة قاعة الدرس وهي تنعكس على الماء.

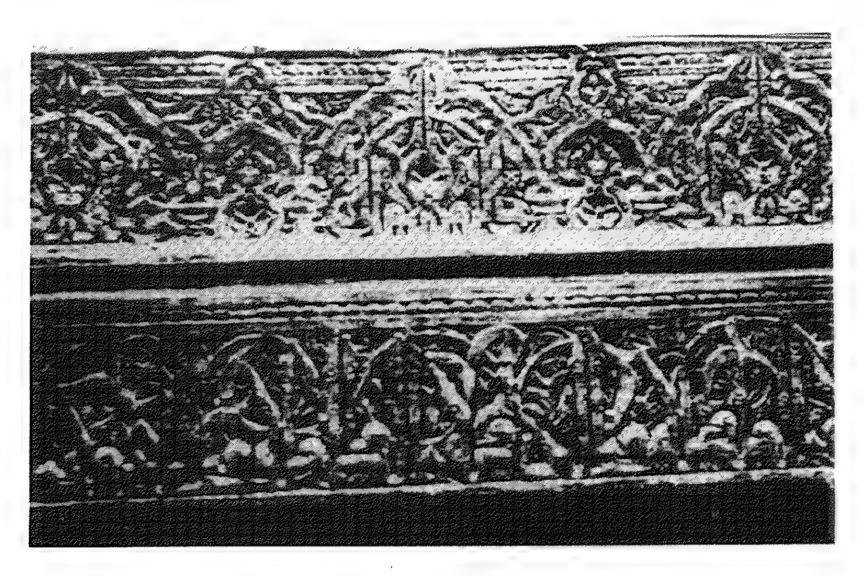
«عن بيكار»



لوحة رقم (١١). مدرسة الصهريج بفاس

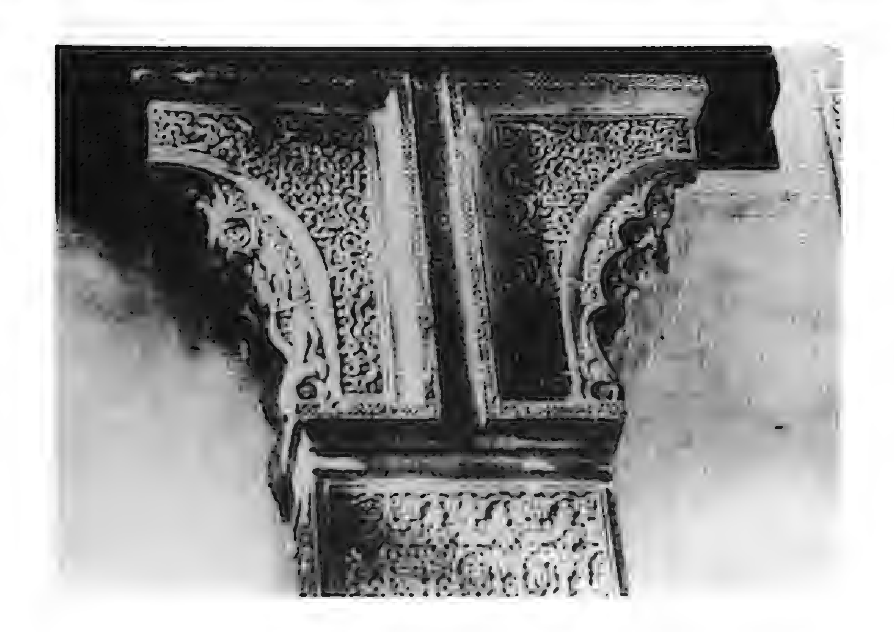
وتفاصيل لكتلة الدخول لقاعة الدرس

عن بيكار

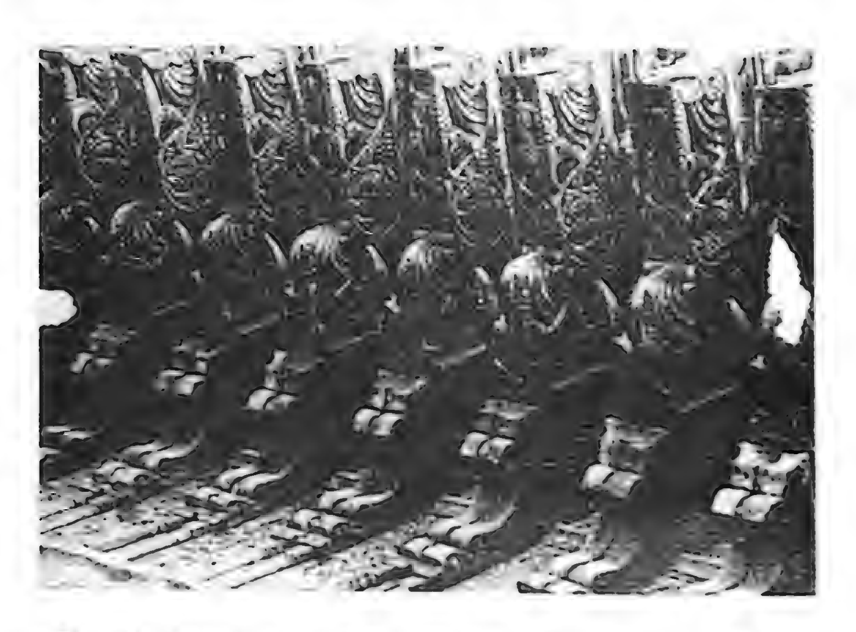


لوحة رقم (١٢). مدرسة الصهريج وتفاصيل الزخارف المحفورة على الأعتاب الخشبية.

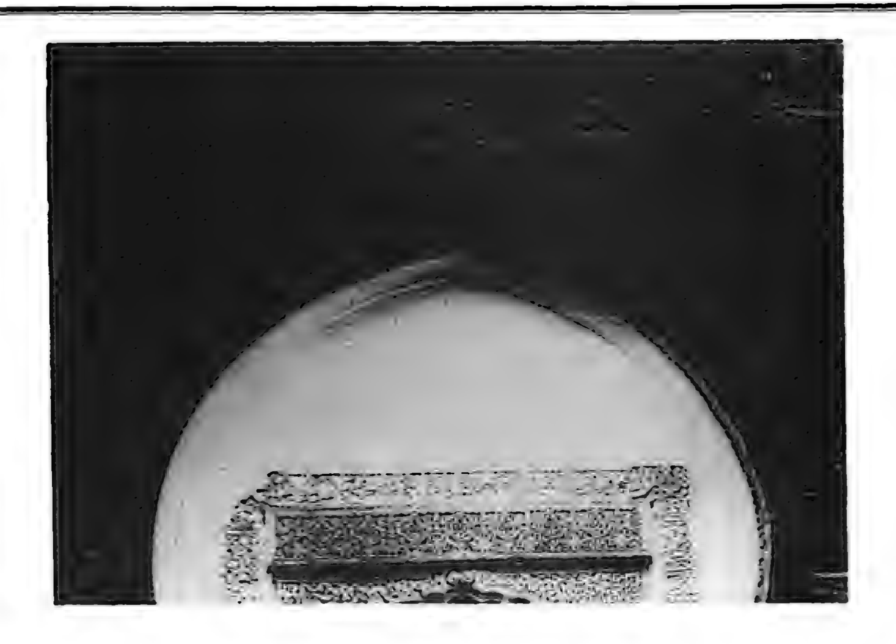
«عن هيل»



لوحة رقم (١٣) مدرسة الصهريج بفاس وتفاصيل للحرمدانات الجصية
«عن الباحث»

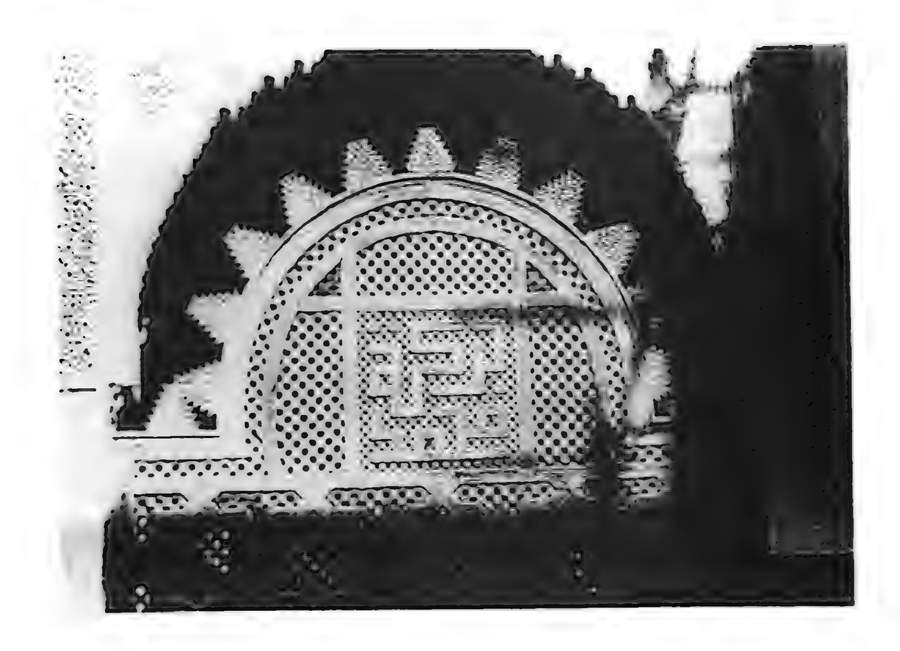


لوحة رقم (١٤) مدرسة الصهريج بفاس وتفاصيل للكوابيل الخشبية الحاملة للرفرف الخشبي
عن الباحث



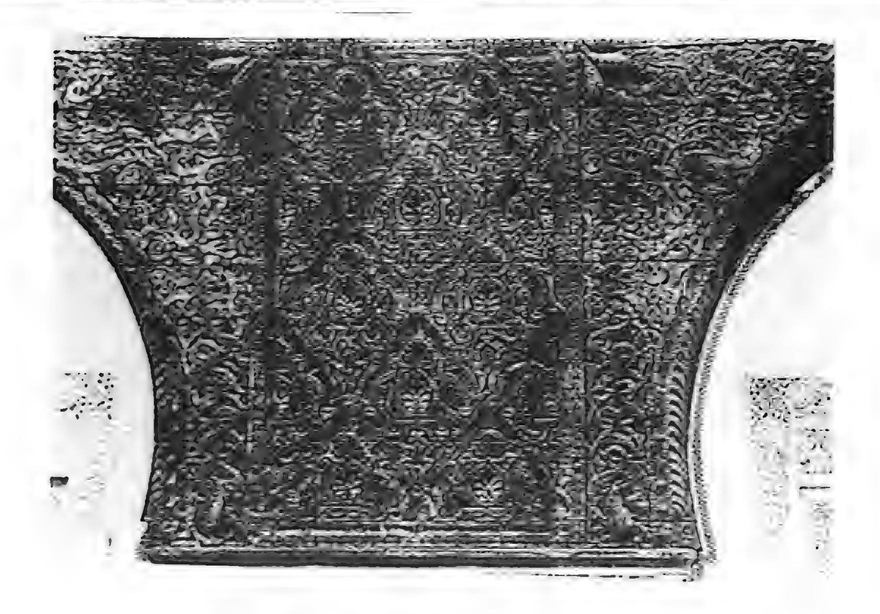
لوحة رقم (١٥) مدرسة الصهريج بفاس. تلبيسات خشبية في بنيقات العقود.

عن الباحث.



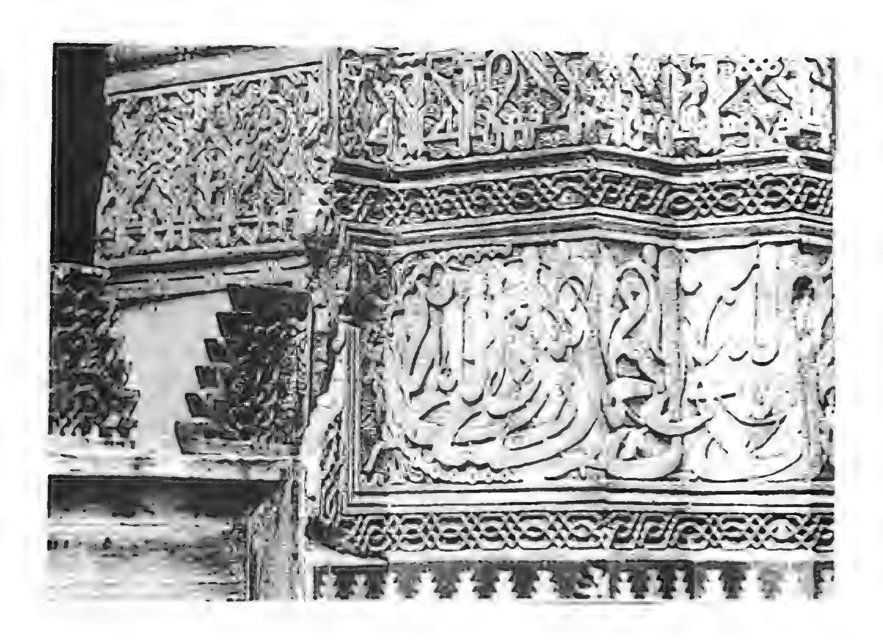
لوحة رقم (١٦). مدرسة الصهريج بفاس وتفاصيل لاعمال الخرط لباب قاعة الدرس.

.عن الباحث.



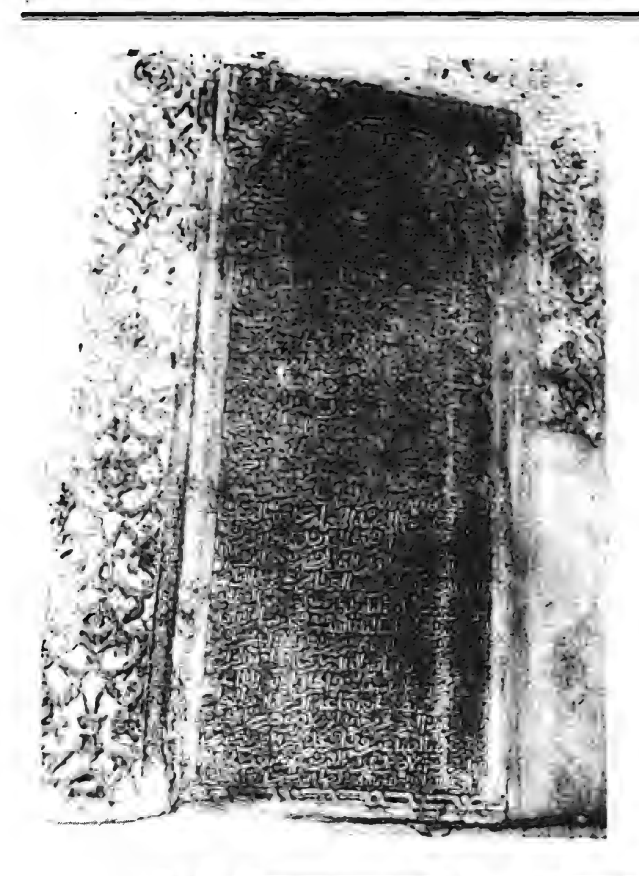
لوحة رقم (١٧). مدرسة الصهريج بفاس تلبيسات خشبية في النبيقات العقود.

عن هيل.



لوحة رقم (١٨). مدرسة الصهريج بفاس. نقوش كتابية نفذت على الجص. الشريط العلوي يحتوي على كتابة كوفية من النوع المورق والشريط السفلي عليه كتابة بالخط النسخ المغربي

«عن هيل».



لوحة رقم (١٩).

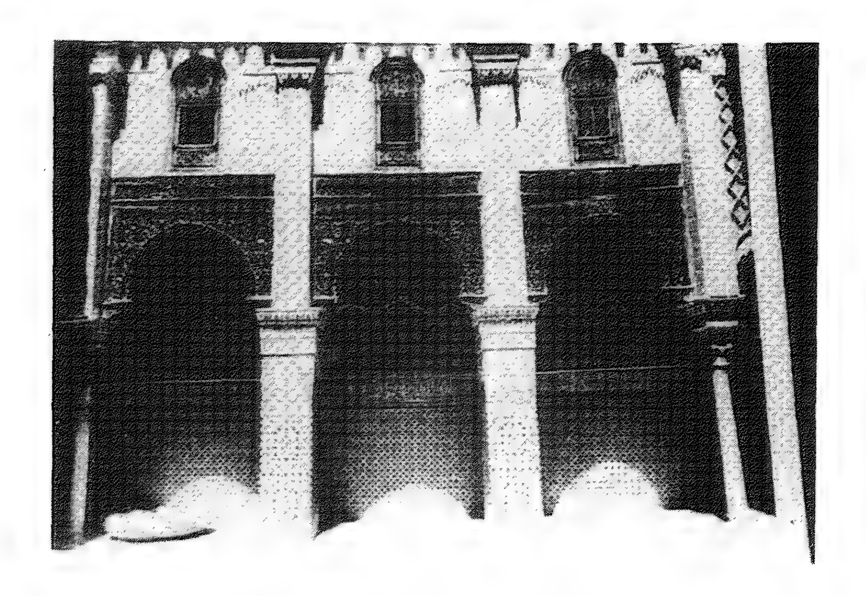
لوحة الحبوس بمدرسة العطارين بفاس.

«عن هيل»



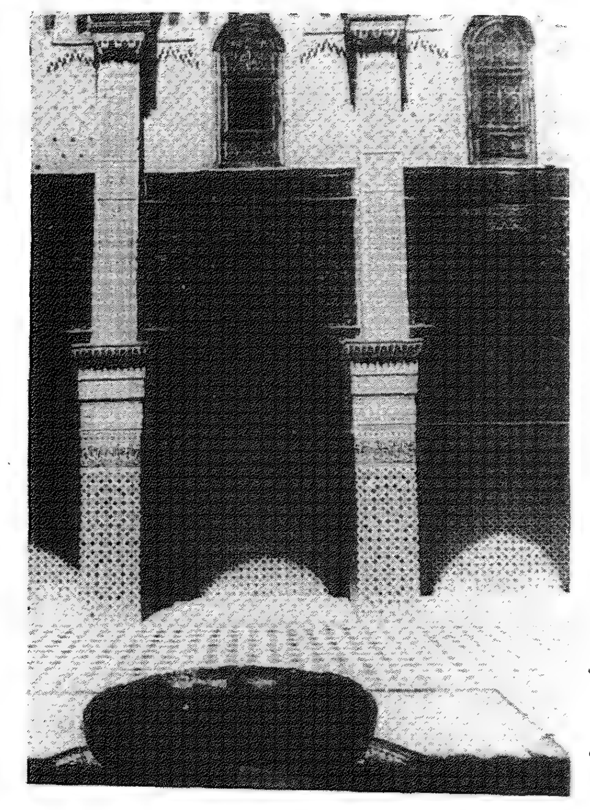
لوحة رقم (٢٠) مدرسة العطارين وتفاصيل لواجهة قاعة الدرس المطلة على صحن المدرسة

«عن الباحث»



لوحة رقم (٢١). مدرسة العطارين وواجهة كتلة الخلاوي في الجهة الجنوبية الغربية.

«عن الباحث»



لوحة رقم (٢٢).

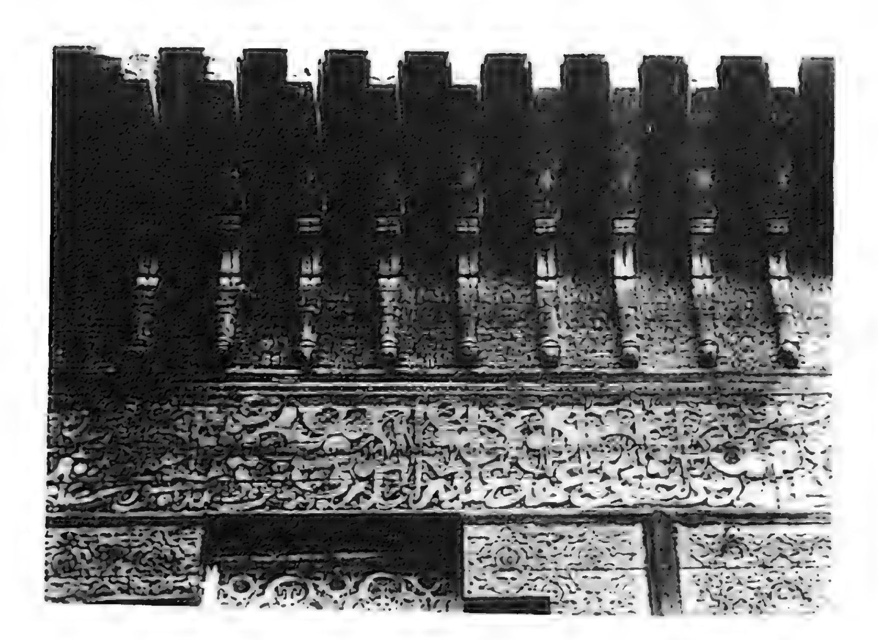
مدرسة العطارين بفاس وتفاصيل لواجهة حجرات الخلاوي المركبة على بوائك لست عقودها بالخشب وكسيت من أسفل بالزليج.

«عن الباحث»



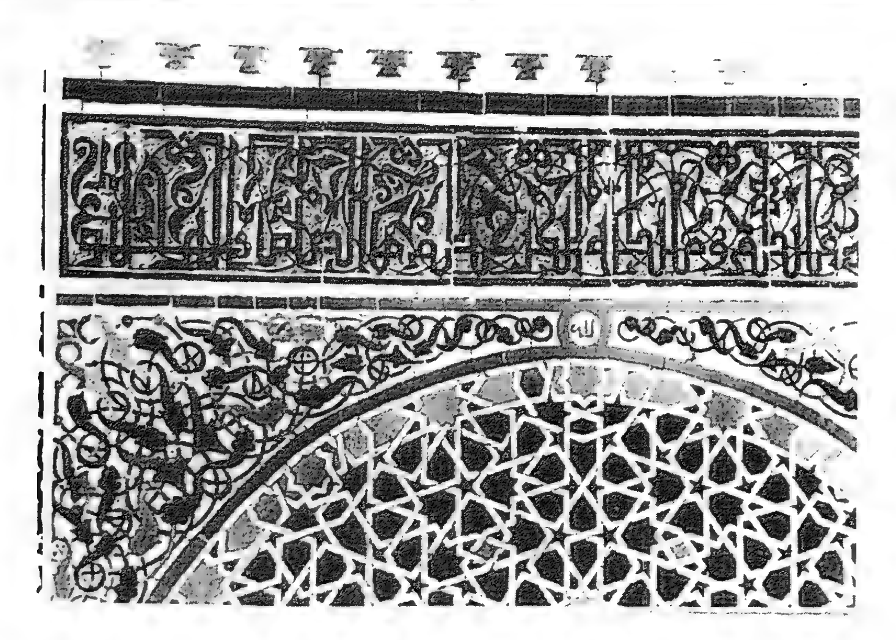
لوحة رقم (٢٣) مدرسة العطارين بفاس وتفاصيل لواجهة حجرات الخلاوي المركبة على بوائك لبست عقودها بالخشب وكسيت من أسفل بالزليج.

«عن الباحث»

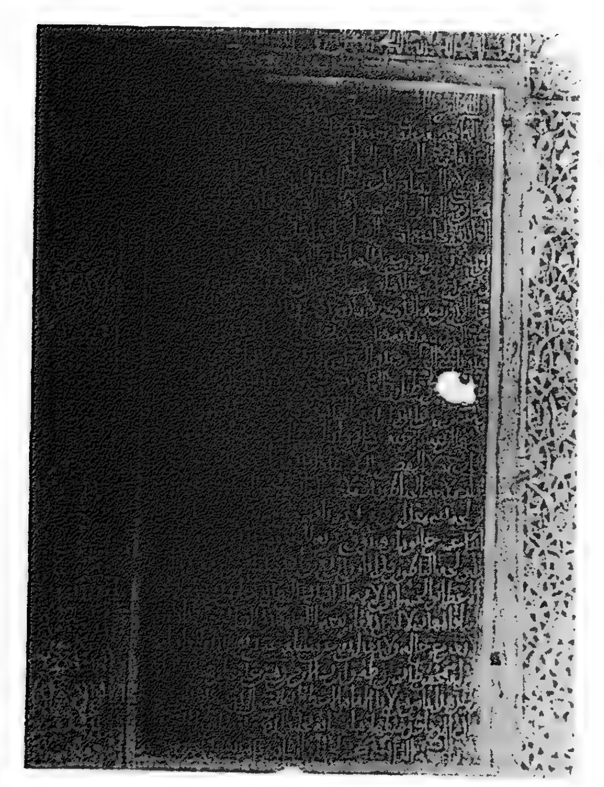


لوحة رقم (٢٤). مدرسة العطارين وتفاصيل الكوابيل الخشبية الحاملة لرفرف وعليها نقوش كتابية محفورة في الخشب يليها شريط كتابي من الجص مكتوب بالخط النسخ المغربي.

«عن الباحث»



لوحة رقم (٢٥). مدرسة العطارين بفاس وتفاصيل الزخارف المنفذة في الرخام عبارة عن شريط كتابي بالخط الكوفي المورق وزخارف نباتية في البنيقات وأخرى هندسية مفرغة في الجص.
«عن هيل»



لوحة رقم (٢٦). لوحة الحبوس بمدرسة سلا

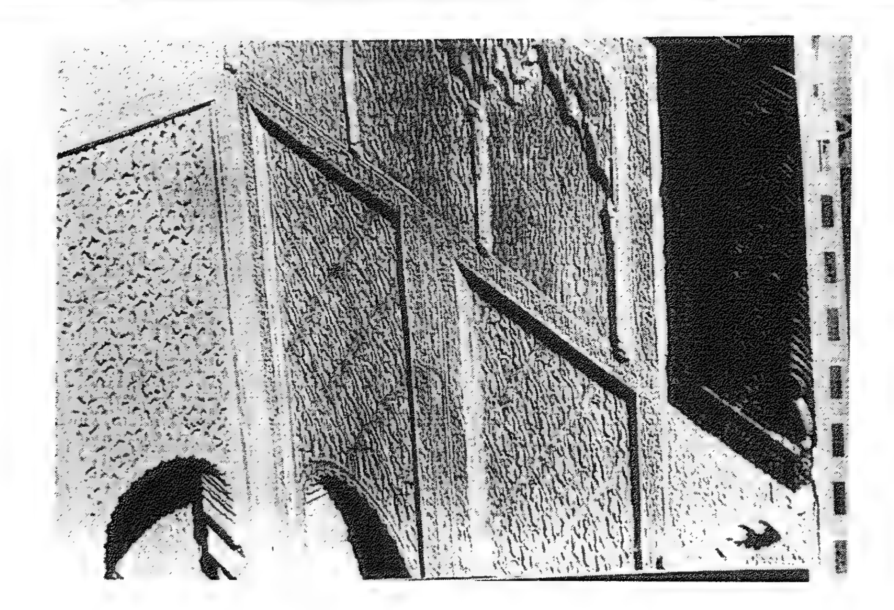
«عن الباحث»





لوحة رقم (٢٧، ٢٨) . مدرسة سلا من الداخل وتفاصيل لواجهة قاعة الدرس والبائكة التي تتقدمها كما تظهر أرضية الصحن والتتويج العلوي للرفرف الخشبي.

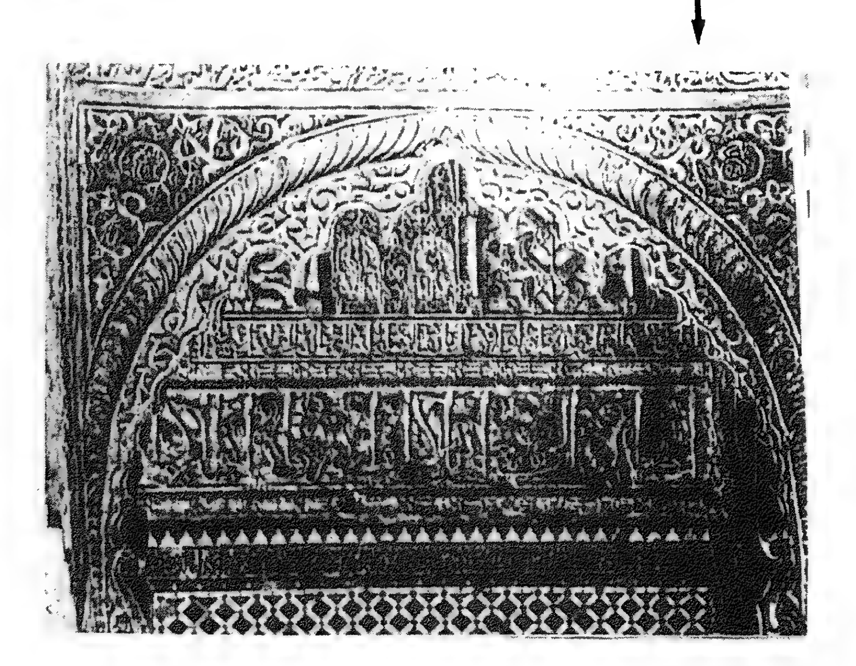
«عن الباحث»





لوحة رقم (٣٠،٢٩). مدرسة سلا من الداخل وتفاصيل لواجهات البوائك التي تشرف على الصحن مع تفاصيل للعناصر الزخرفية المنفذة في الجص.

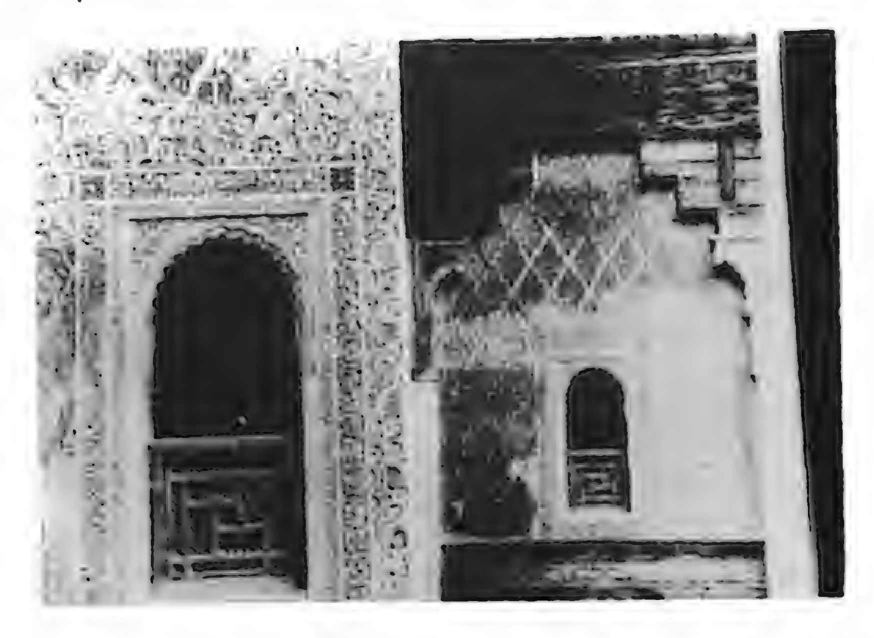
«عن هيل»





لوحة رقم (٣١). مدرسة ابو الحسن بمراكش وتفاصيل لواجهة إيوان القبلة وكتلة الخلاوي التي تشرف على الصحن

«عن الباحث»



لوحة رقم (٣٢). مدرسة ابو الحسن بمراكش وتفاصيل لبعض النوافذ بكتلة الخلاوي

«عن الباحث»



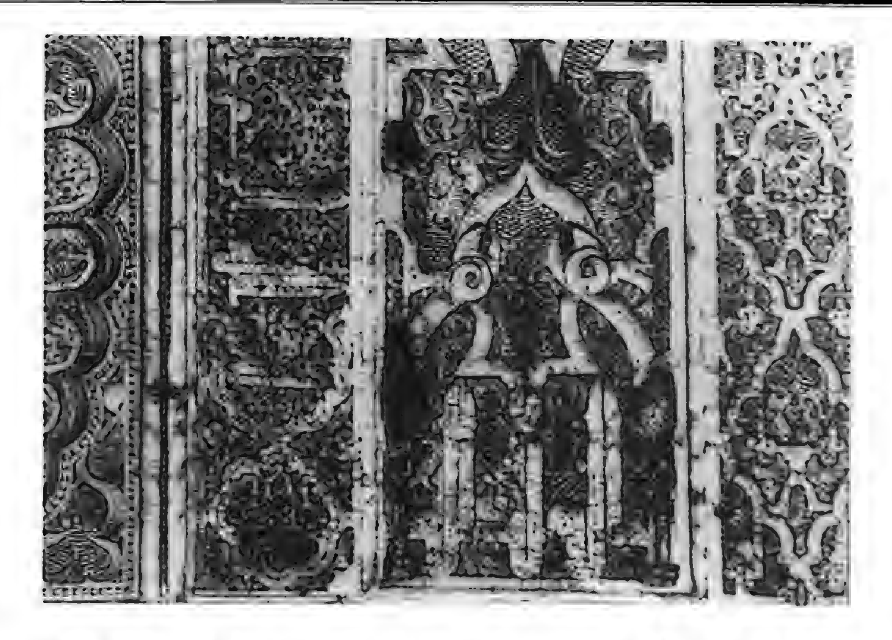
لوحة رقم (٣٣). مدرسة أبو الحسن بمراكش من الداخل وتفاصيل لكتلة الصهريج التي تتوسط أرضية الصحن الرخامية.

-عن بيكار-



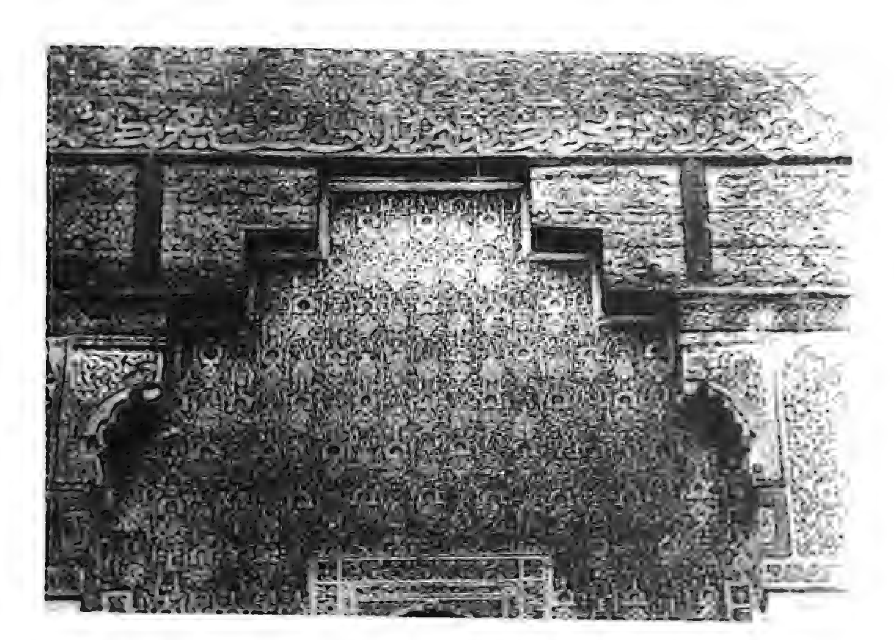
لوحة رقم (٣٤). مدرسة أبو الحسن بمراكش من الداخل وتفاصيل للواجهة الشمالية الغربية التي تؤدي إلى كتلة الدخول من الخارج.

-عن الباحث-



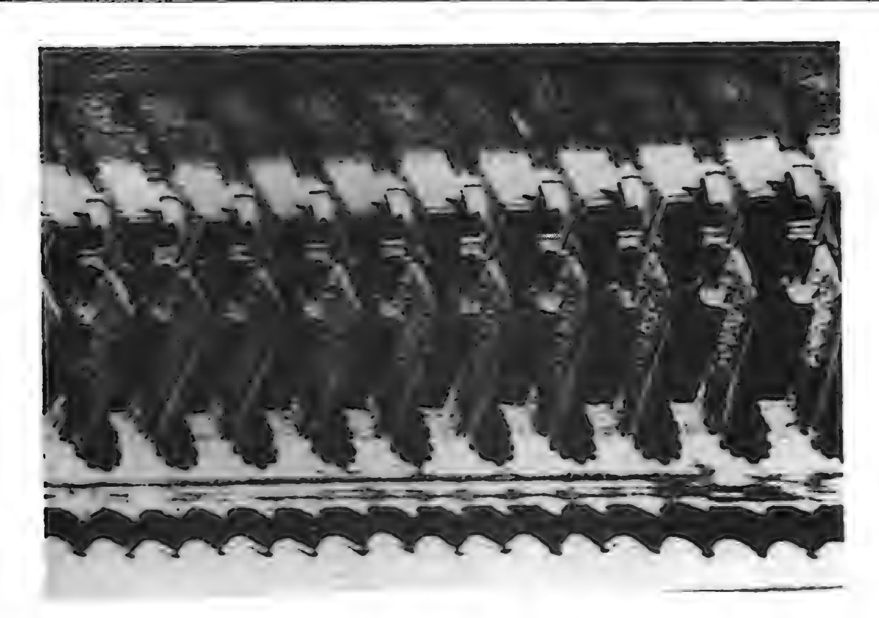
لوحة رقم (٣٥) مدرسة أبو الحسن بمراكش من الداخل وتفاصيل للزخارف الجصية التي تشغل واجهة المحراب بإيوان القبلة

-عن هيل-



لوحة رقم (٣٦) مدرسة أبو الحسن بمراكش من الداخل وتفاصيل للتلبيسات الخشبية التي تتوج واجهات حجرات الخلاوي

-عن هيل-



لوحة رقم (٣٧). مدرسة أبو الحسن بمراكش من الداخل وتفاصيل الكوابيل الخشبية التي تحمل الرفرف الداخلي الذي يتوج واجهات المدرسة الداخلية.

«عن هيل»



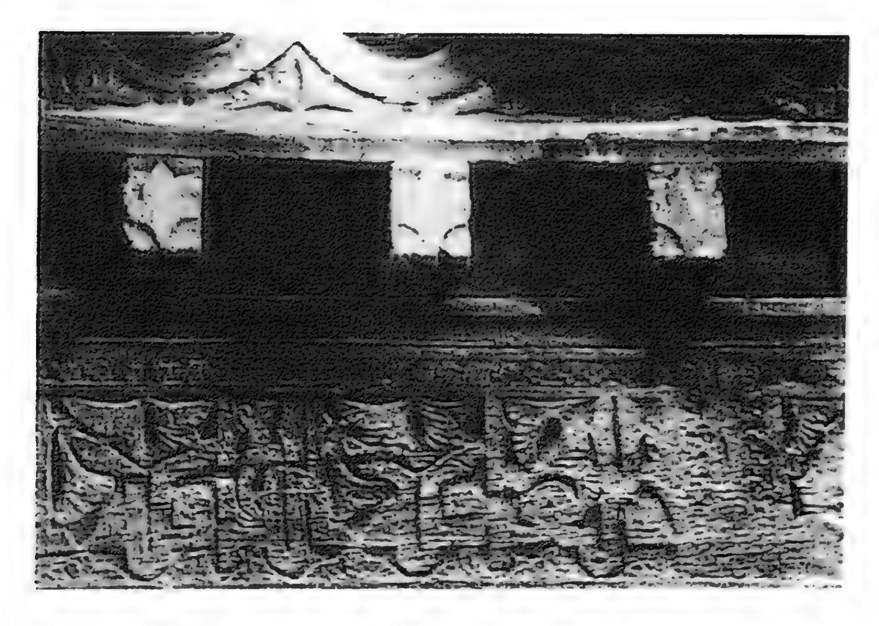
لوحة رقم (٣٨). مدرسة ابو الحسن بمراكش من الداخل وتفاصيل لواجهة إيوان القبلة وقد كسيت من اسفل بالزليج ولبست عقودها بالجص والأخشاب بجانب ملاحظة التماثل في توزيع العناصر الزخرفية.

«عن الباحث»



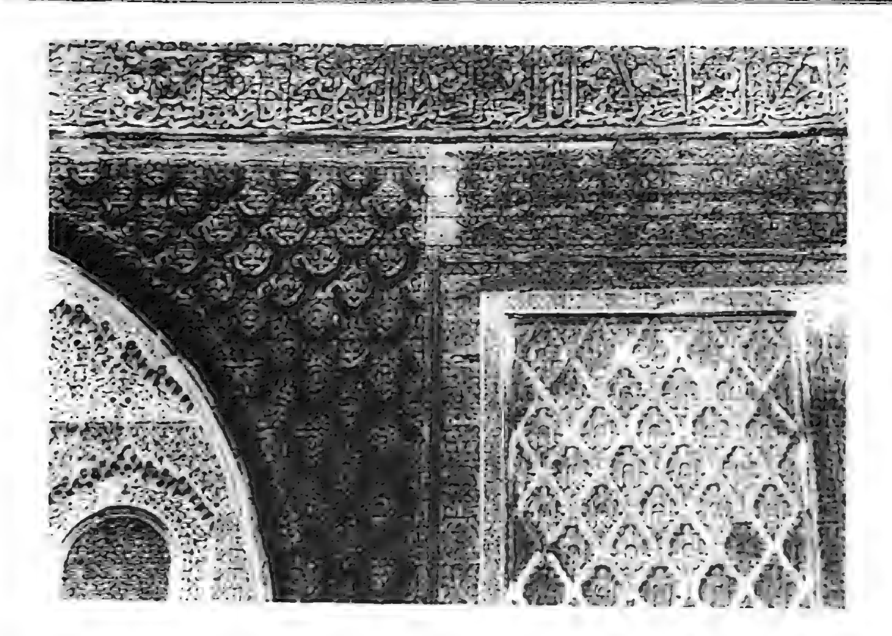
لوحة رقم (٣٩). مدرسة ابو الحسن بمراكش من الداخل وتفاصيل للأعتاب الخشبية المزخرفة بالحفر.

«عن هيل»



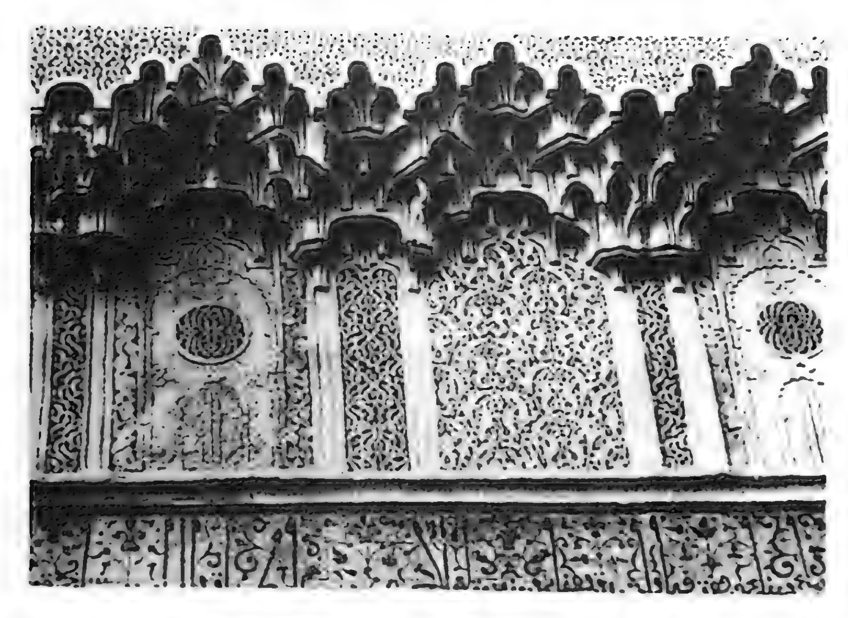
لوحة رقم (٤٠). مدرسة ابو الحسن بمراكش من الداخل وتفاصيل للروافع الخشبية الممتدة لحمل سقف حجرات الخلاوي.

«عن هيل»



لوحة رقم (٤١). مدرسة أبو الحسن بمراكش من الداخل وتفاصيل لأعمال الجص التي توضح التاثيرات الأندلسية.

«عن هيل»



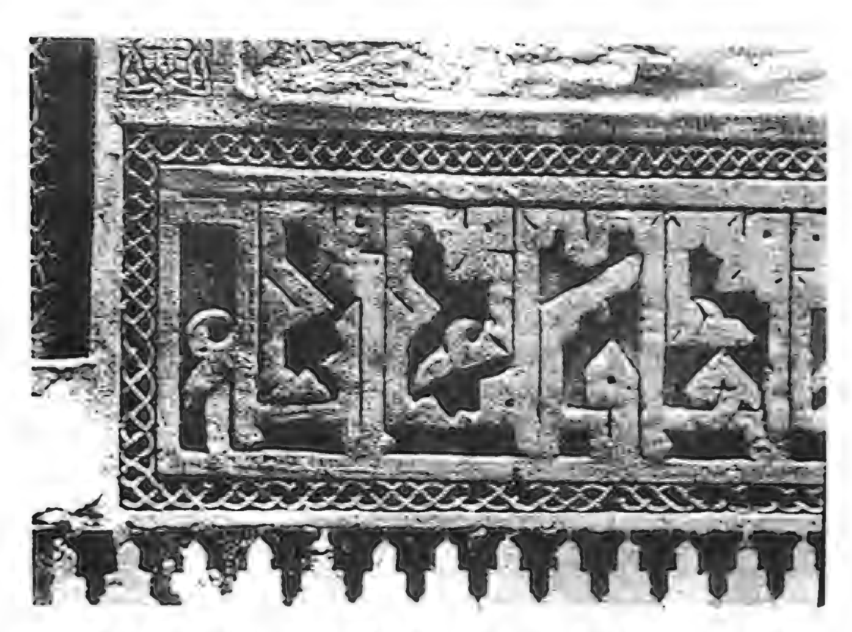
لوحة رقم (٤٢) مدرسة ابو الحسن بمراكش من الداخل وتفاصيل للزخارف المقرنصة والنباتية المنفذة في الجص والتي توضح التأثر الأندلسي.

«عن الباحث»



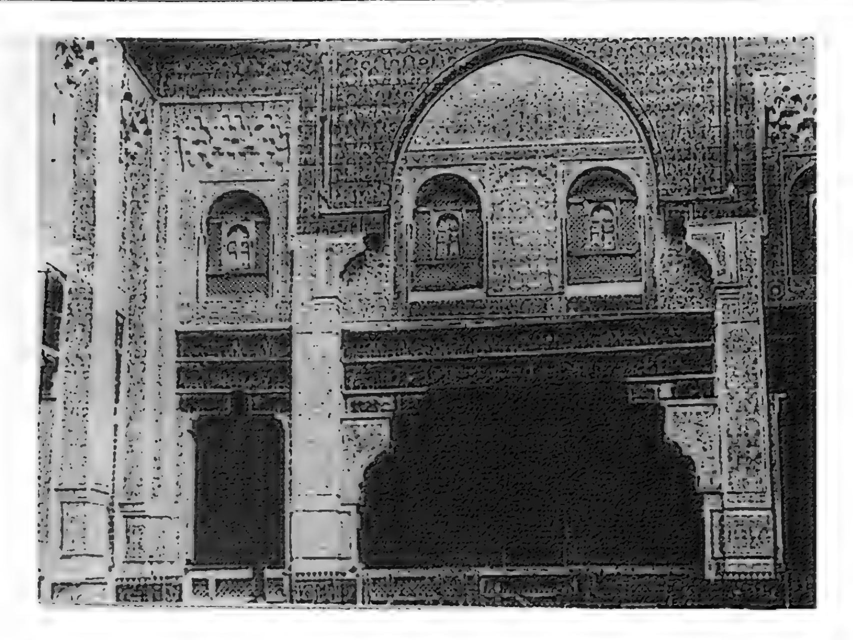
لوحة رقم (٤٣). مدرسة أبو الحسن بمراكش من الداخل ونماذج من الأشرطة الكتابية. المنفذة بالخط النسخ المغربي في الجص والرخام.

«عن هيل»



لوحة رقم (٤٤) مدرسة ابو الحسن بمراكش من الداخل وتفاصيل لنماذج من كتابات كوفية نفذت على الجص.

«عن هيل»



لوحة رقم (٤٥). مدرسة أبو الحسن بمدينة مكناس من الداخل وتفاصيل لواجهة الخلاوي وكذلك الأعمال الفنية الممثلة في أشغال الخشب والجص.

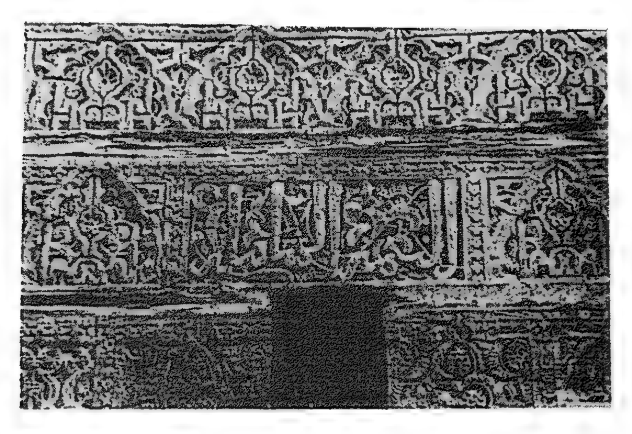
«عن هيل»



لوحة رقم (٤٦).

مدرسة أبو الحسن بمكناس من الداخل وتفاصيل لواجهات المدرسة المطلة على الصحن.

«عن بيكار»

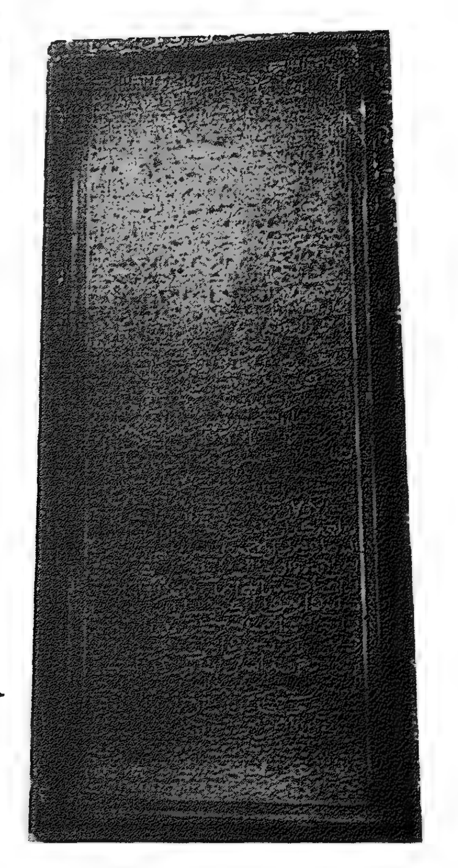


لوحة رقم (٤٧) مدرسة أبو الحسن بمكناس من الداخل وتفاصيل للنقوش الكتابية المنفذة على الاعتاب الخشبية بطريقة الحفر.

«عن الباحث»

لوحة رقم (٤٨). مدرسة أبو الحسن بمكناس من الداخل وتفاصيل لاعمال الجص التي شغل بها ألفنان المغربي واجهات المدرسة الداخلية وهي تعبر عن الثراء الزخرفي في ملء الفراغ وهي من التاثيرات الاندلسية

عن هيل

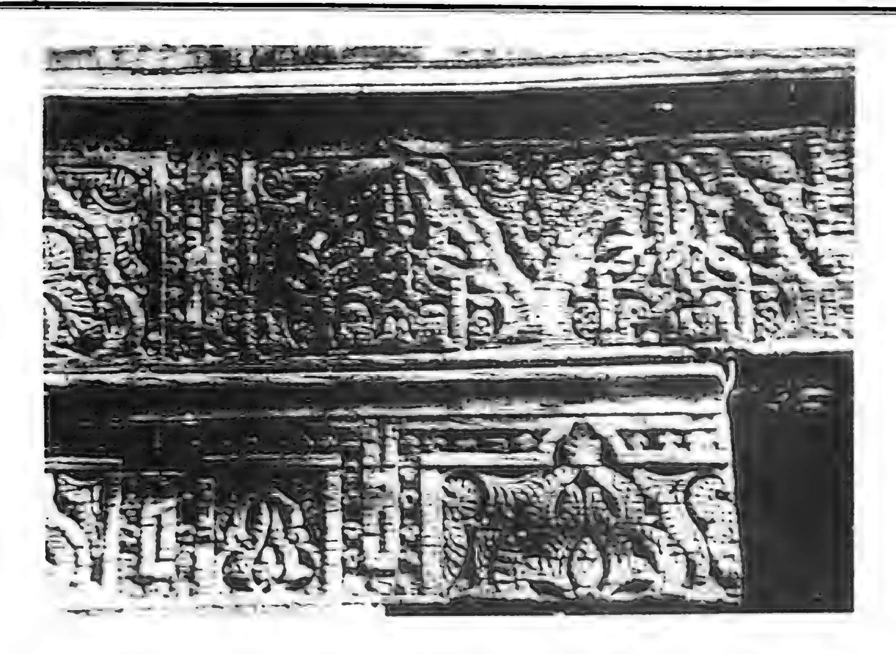


لوحة رقم (٤٩). لوحة الحبوس بالمدرسة المصباحية بفاس.

«عن الفريد بيل»

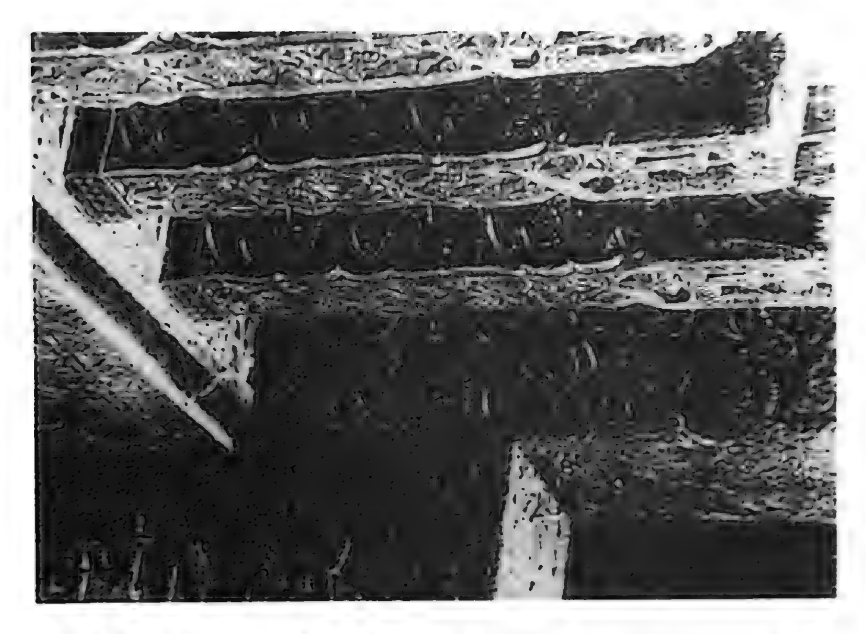


لوحة رقم (٥٠). المدرسة المصباحية من الداخل وتفاصيل لواجهة قاعة الدرس مع واجهات الخلاوي وكتلة الصحن. «عن ألفريد بيل»



لوحة رقم (٥١) المدرسة المصباحية من الداخل وتفاصيل للأعتاب الخشبية المزخرفة بالحفر والتي تتضمن نقوش كتابية كوفية.

«عن هيل»



لوحة رقم (٥٢) المدرسة المصباحية من الداخل وتفاصيل للكوابيل الخشبية الحاملة لأسقف الممرات الداخلية.

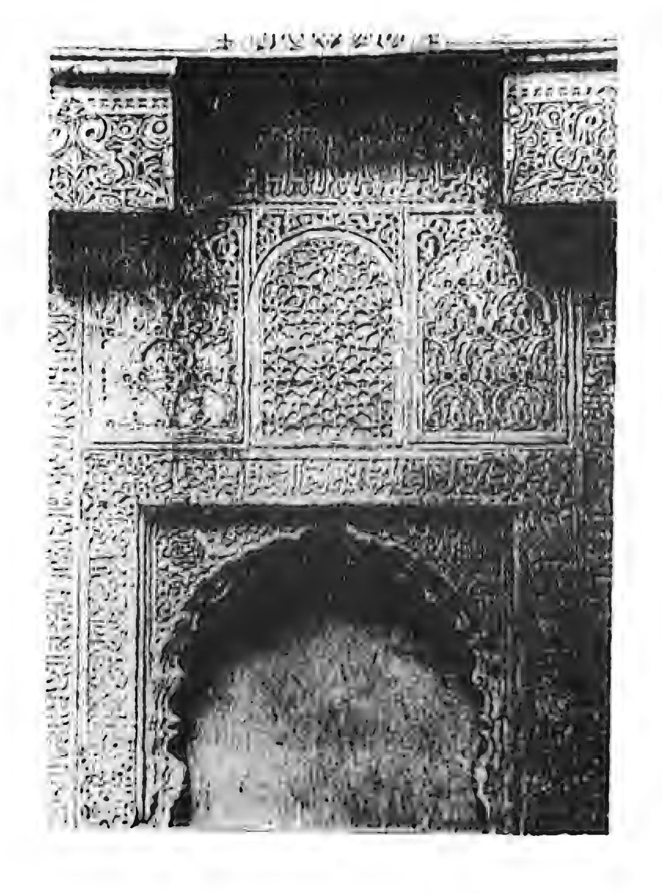
«عن هيل»



لوحة رقم (٥٤)

المدرسة البوعنانية بفاس من الداخل وتفاصيل لواجهة كتلة الخلاوي وجزء من ارتفاع الصومعة.

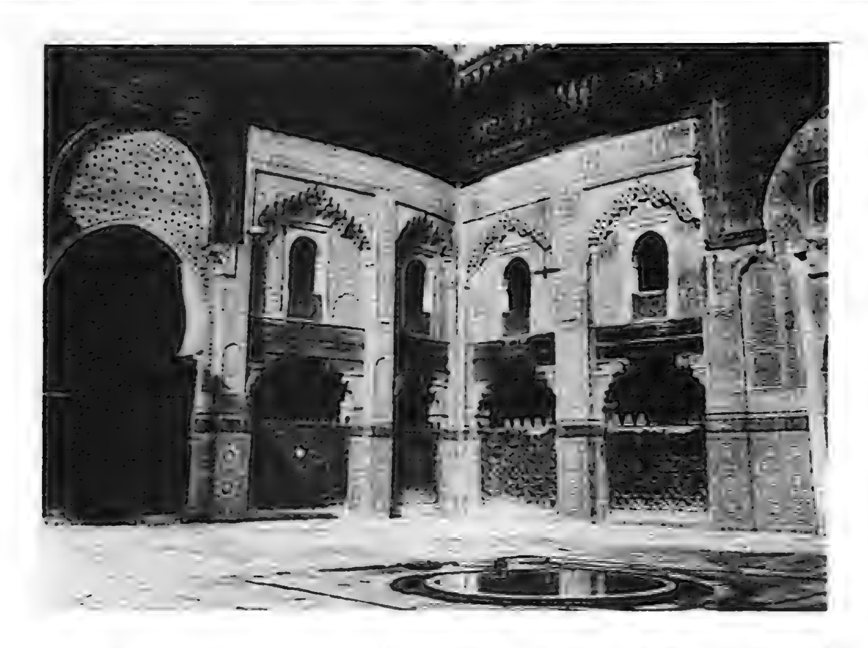
«عن الباحث»



لوحة رقم (٥٣)

المدرسة المصباحية من الداخل وتفاصيل لواجهة كتلة الدخول المطلة على الصحن بجانب ما توضحه اللوحة من الثراء الزخرفي المنفذ في الجص على الواجهات الداخلية

«عن الباحث»



لوحة قم (٥٧) المدرسة البوعنانية بفاس من الداخل وتفاصيل توضح اتصال الواجهة الشمالية بواجهة قاعة الدرس الغربية.

«عن بيكار»



لوحة رقم (٥٨) المدرسة البوعنانية بفاس من الداخل وتفاصيل لتاج عمود قديم بالمسجد عليه نقش تسجيلي يتضمن أمر الإنشاء.

«عن هيل»



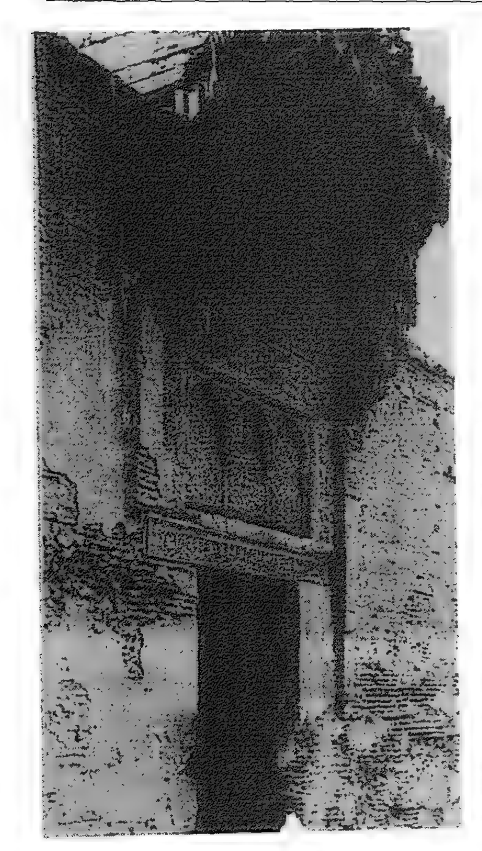
لوحة رقم (٥٩) المدرسة البوعنانية من الداخل وتفاصيل لزخارف الواجهة الشمالية والواجهة الغربية.

«عن الباحث»



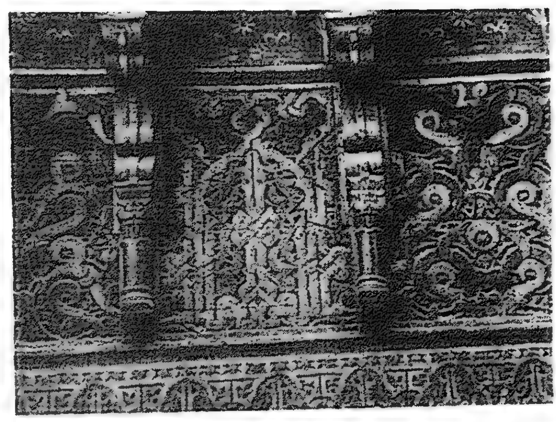
لوحة رقم (٦٠) المدرسة البوعنانية بفاس من الداخل وتفاصيل لواجهة قاعة الدرس الشرقية وقد اغلق عليها ضلفتا باب من الخشب مع تفاصيل لحجب البوائك الجانبية من اسفل باحجبة خشبية من الخرط.

«عن الباحث»



لوحة رقم (٦١) المدرسة البوعنانية بفاس من الخارج وتفاصيل لكتلة الدخول التي يتوجها من أعلى رفرف محمول على كوابيل مع تفاصيل لأعمال الزخرفة المنفذة على الجص

عن الباحث

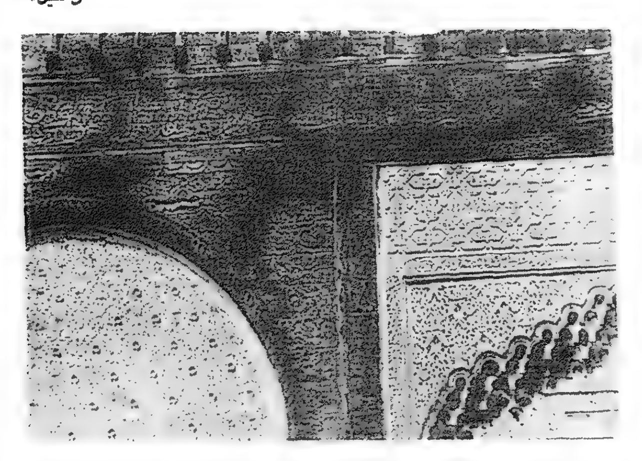


لوحة رقم (٦٢). المدرسة البوعنانية من الداخل وتفاصيل للزخارف الكتابية على صدر كتلة المدخل الرئيسة من أعلى.

«عن الباحث».

لوحة رقم (٦٣). المدرسة البوعنانية بفاس وتفاصيل للأعمال الفنية المنفذة في الخشب والجص.

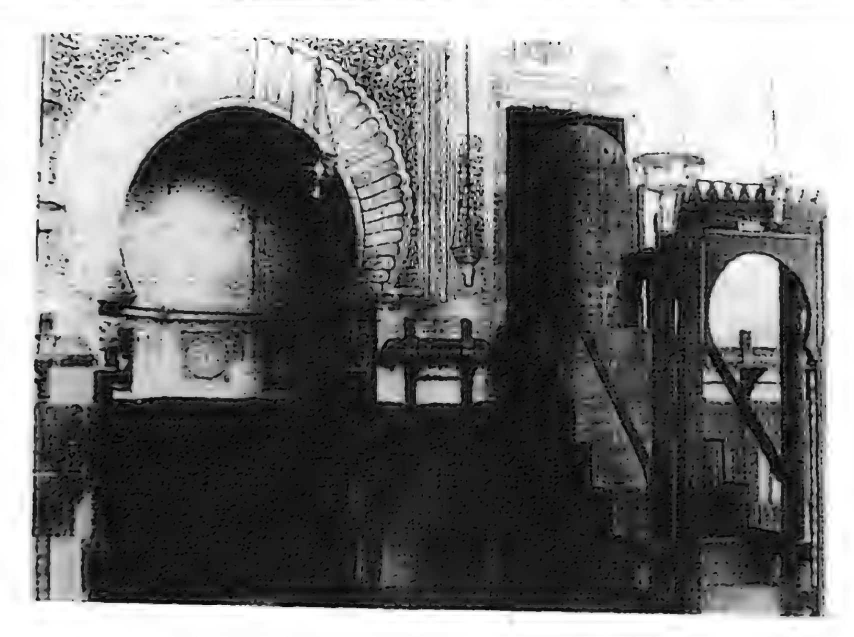
«عن هيل»





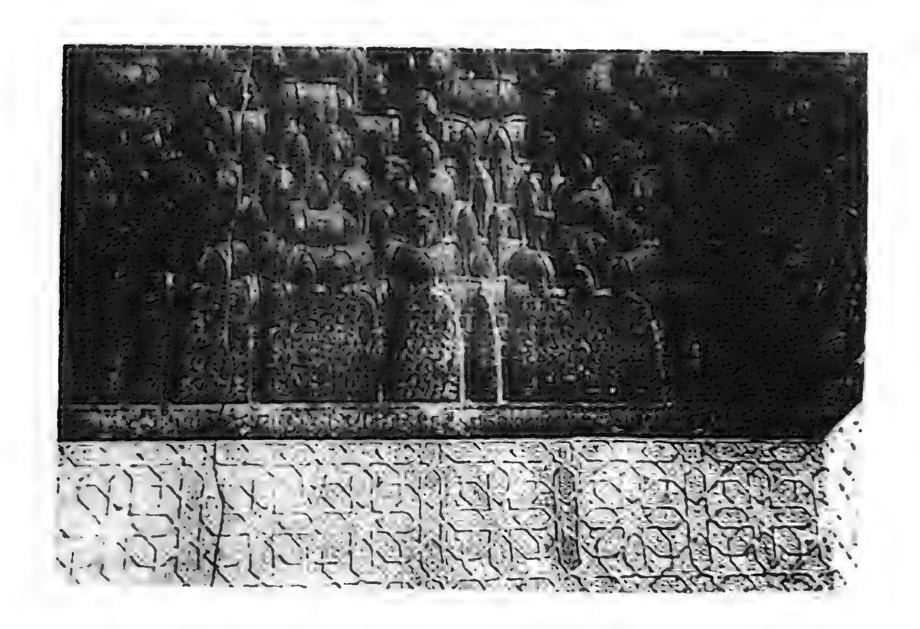
لوحة رقم (٦٤) المدرسة البوعنانية بفاس، الحجاب الخرط الذي يحجب باب المسجد من على الصحن.

«عن الباحث»



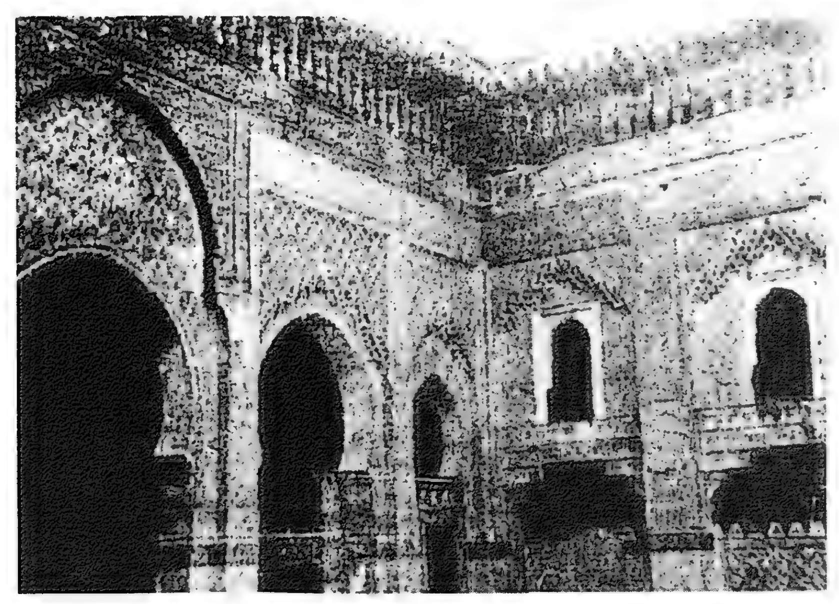
لوحة رقم (٦٥). المدرسة البوعنانية بفاس، المحراب الرئيس مع كتلة المنبر المتحركة.

«عن الباحث»



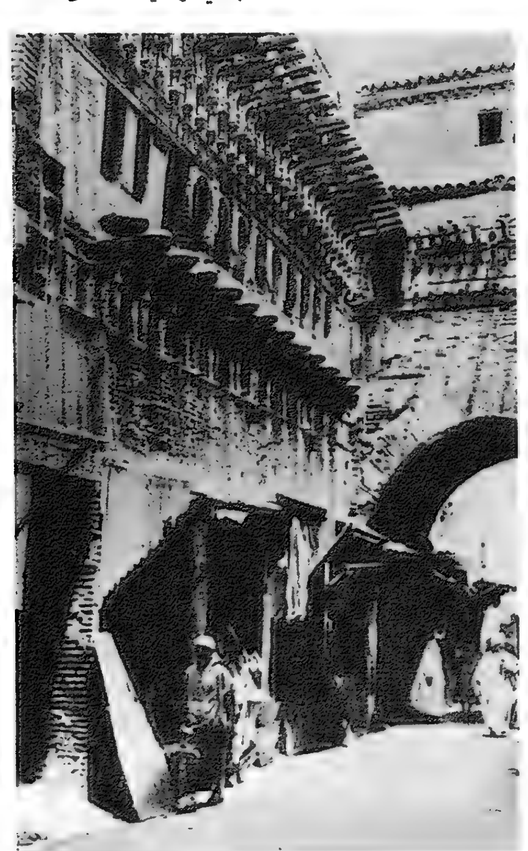
لوحة رقم (٦٦). المدرسة البوعنانية بفاس. تفاصيل من إزار السقف الخشبي المقرنص الذي يحمل القبة بالقاعة الشرقية.

«عن هيل»



لوحة رقم (٦٧). المدرسة البوعنانية من الداخل وتفاصيل للقناة والقنطرة التي تتقدم واجهة المسجد في أرضية الصحن.

«عن الباحث»



لوحة رقم (٦٨).

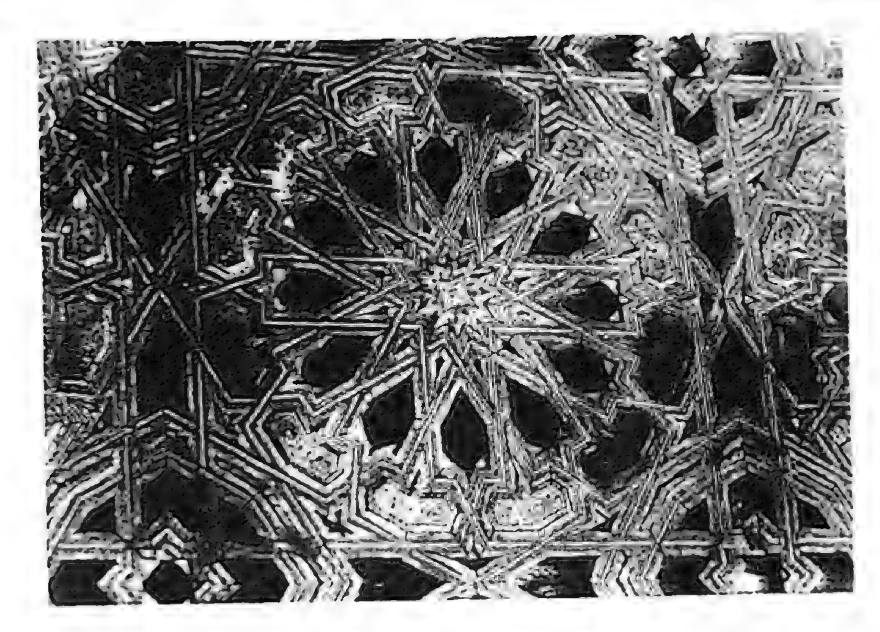
المدرسة البوعنانية بفاس من الخارج، الساعة المرينية القديمة المثبتة على واجهاتها.

«عن التازي»



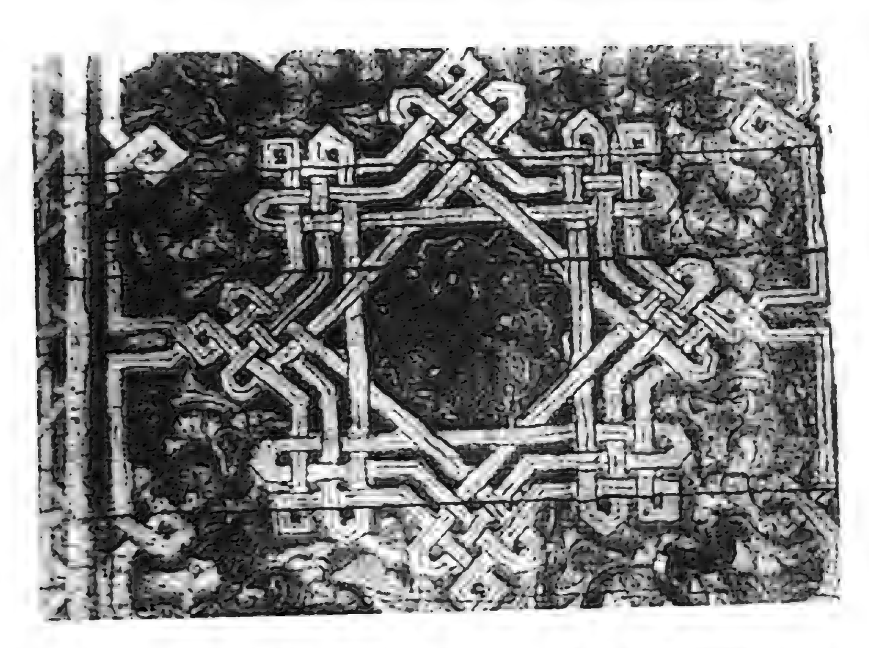
لوحة رقم (٦٩). مدرسة الشراطين من الداخل بفاس وتفاصيل لكتلة الدخول الرئيسة التي تفتح على الصحن مباشرة

«عن الباحث»



لوحة رقم (٧٠). مدرسة الشراطين، تفاصيل لطبقة بخمس منفذ في الرخام

•عن هيل•

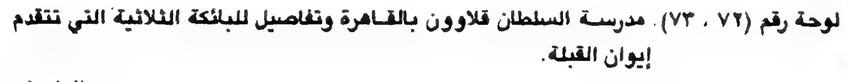


لوحة رقم (٧١). مدرسة الشراطين وتفاصيل لحشوة هندسية منفذة في الجص

•عن هيل•







لوحة رقم (٧٢ ، ٧٣). مدرسة السلطان قلاوون بالقاهرة وتفاصيل للبائكة الثلاثية التي تتقدم إيوان القبلة.

«عن الباحث»

شكل رقم (١).

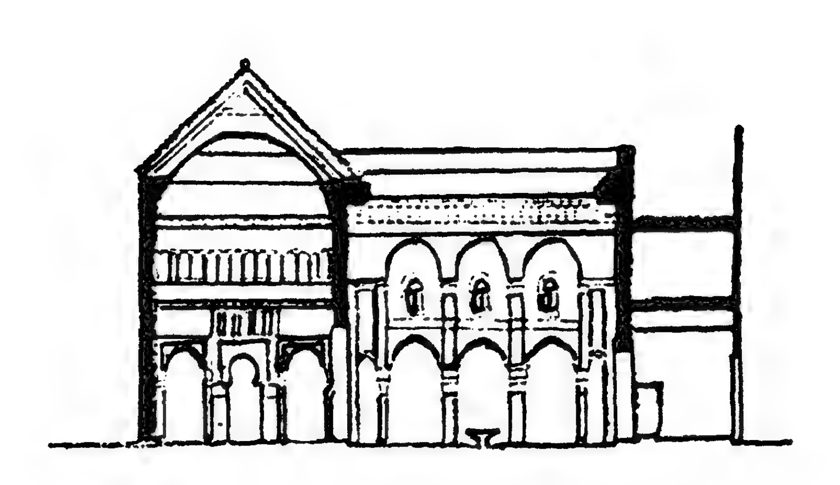
مسقط افقي لمدرسة دار المخزن بفاس الجديدة.

«عمل الباحث»

شكل رقم (٢).

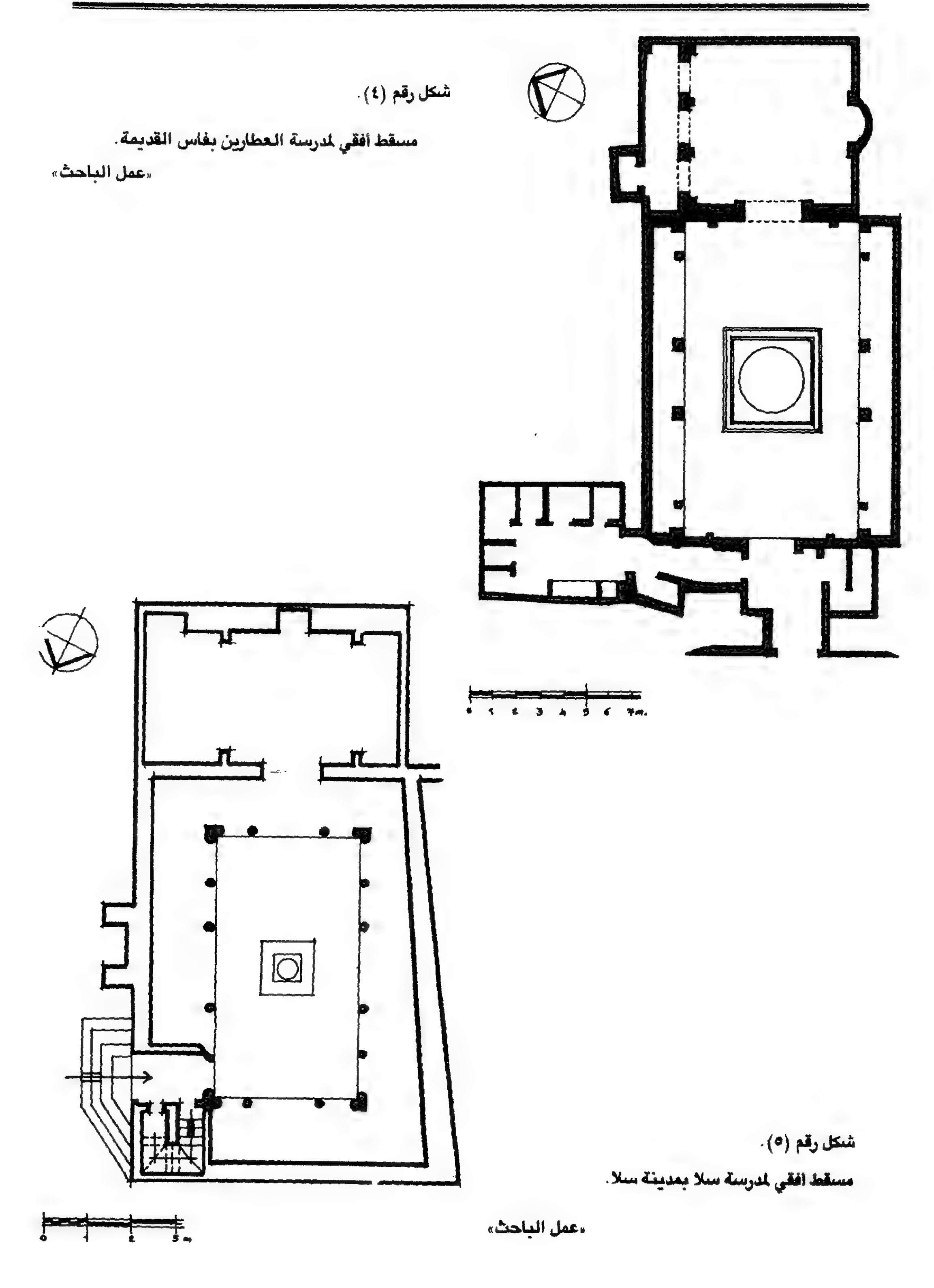
مسقط أفقي لمدرسة الصهريج بفاس القديمة.

«عمل الباحث»



شكل رقم (٣). قطاع راسي لمدرسة العطارين بفاس.

«عن Terrosse»



شكل رقم (٤).

مسقط أفقي لمدرسة العطارين بفاس القديمة.

«عمل الباحث»

شكل رقم (٥).

مسقط أفقي لمدرسة سلا بمدينة سلا.

«عمل الباحث»

شكل رقم (٦). مسقط أفقي لمدرسة ابو يوسف بمراكش.

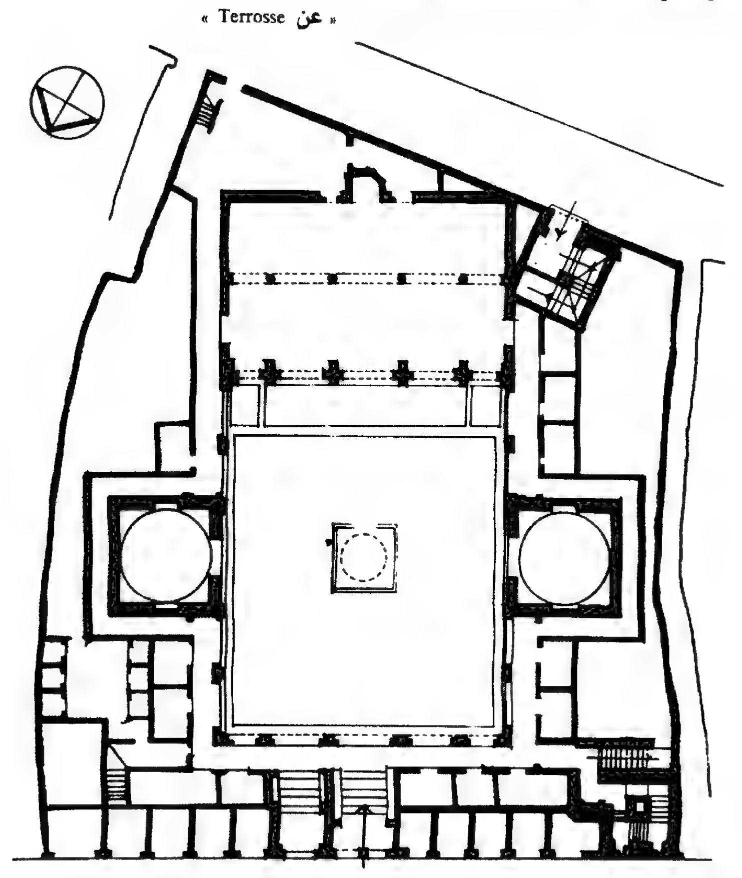
«عمل الباحث»

شكل رقم (٧). مسقط أفقي للمدرسة المصباحية بفاس القديمة.

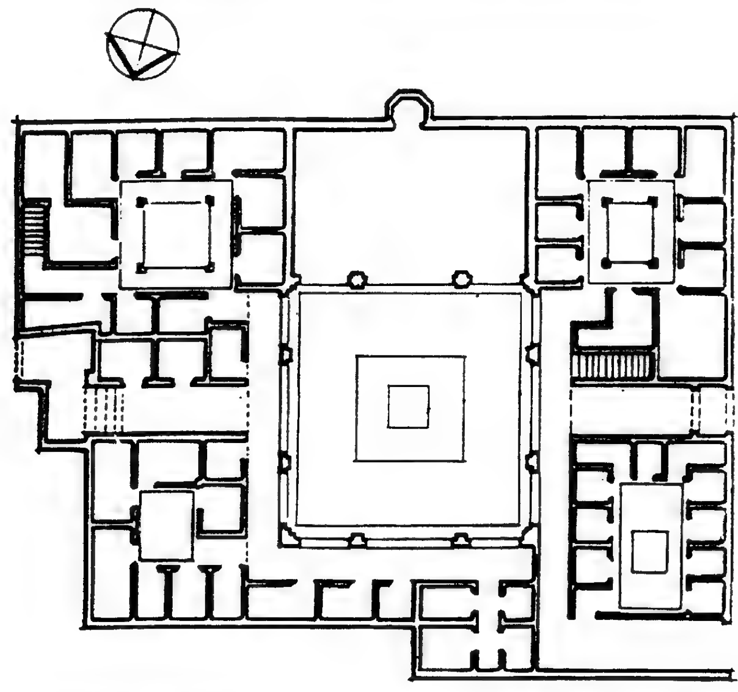
«عمل الباحث»



شكل رقم (٨). قطاع رأسي للمدرسة البوعنانية بفاس القديمة.
« عن Terrosse »

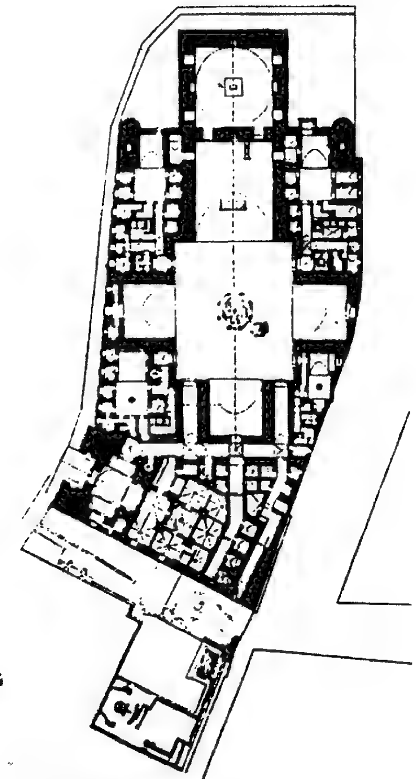


شكل رقم (٩). مسقط افقي للمدرسة البوعنانية بفاس.
« عن Terrosse »



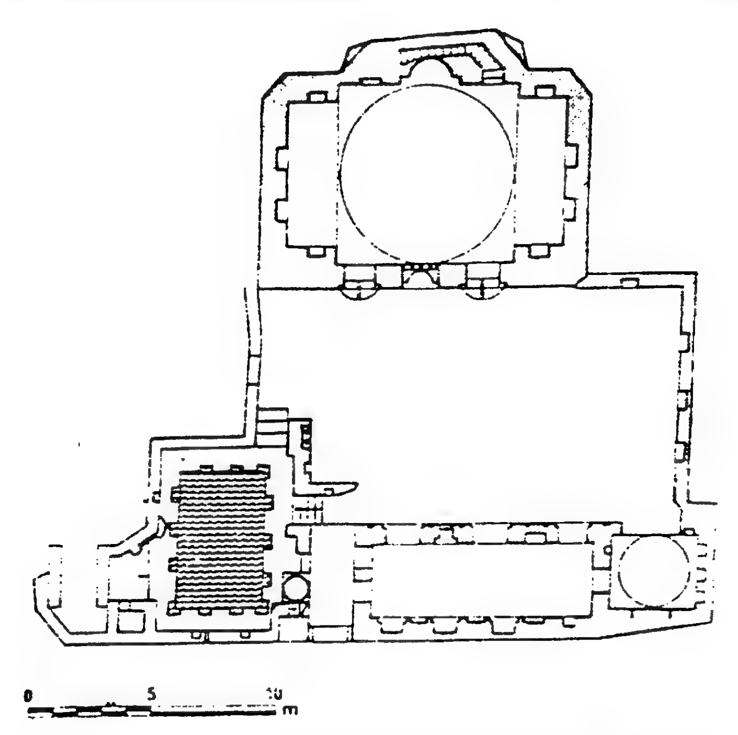
شكل رقم (١٠). المسقط الأفقي لمدرسة الشراطين بفاس القديمة.

«عمل الباحث»



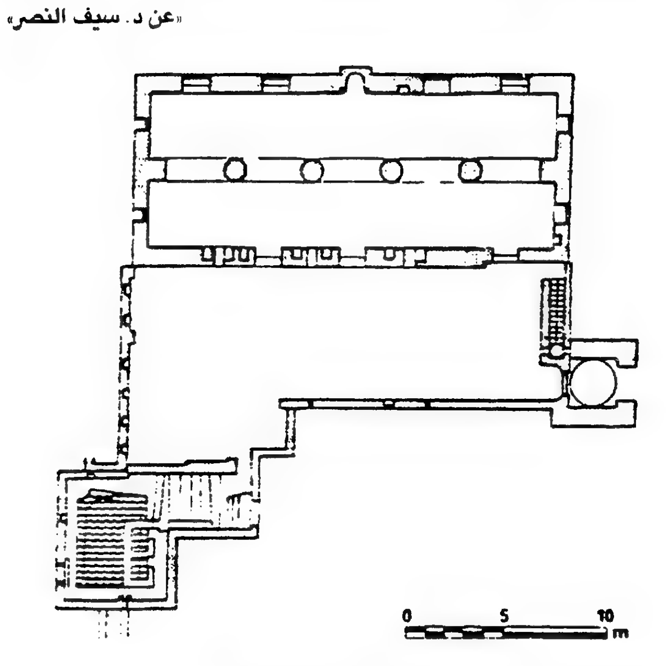
شكل رقم (١١). المسقط الأفقي لمدرسة السلطان حسن بن قلاوون بالقاهرة.

«عن شافعي»



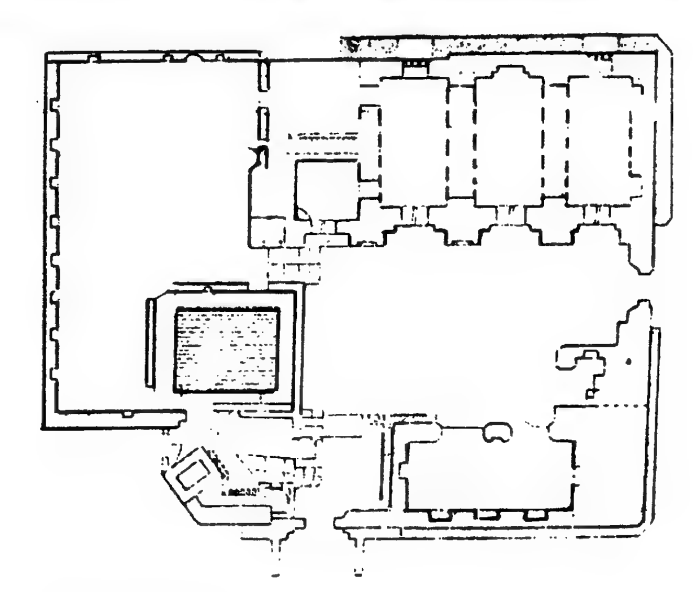
شكل رقم (١٢). مسقط أفقي للمدرسة الوهابية بزبيد.

«عن د. سيف النصر»



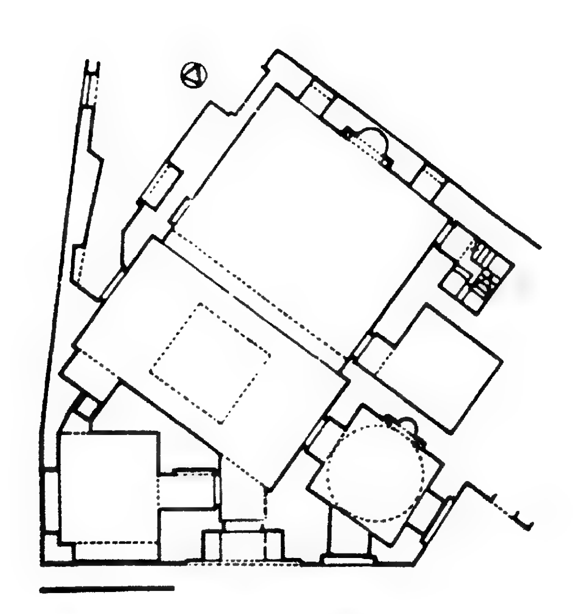
شكل رقم (١٣). مسقط أفقي للمدرسة الياقوتية بزبيد.

«عن سيف النصر»



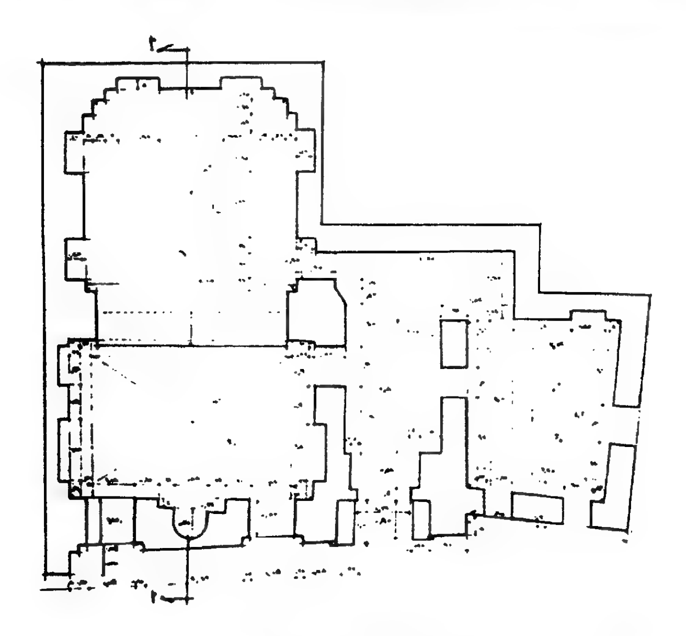
شكل رقم (١٤). مسقط أفقي للمدرسة الجبرتية بزبيد.

«عن سيف النصر»



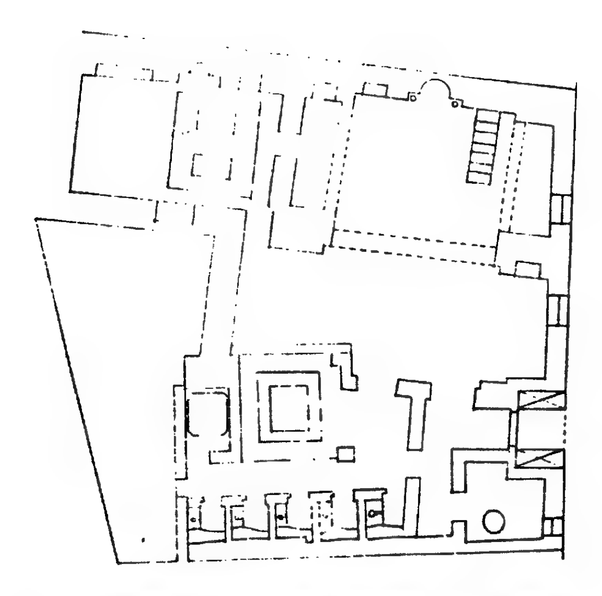
شكل رقم (١٥). مسقط أفقي لمدرسة ايتمش البجاسي بالقاهرة.

«عن صالح لمعي»



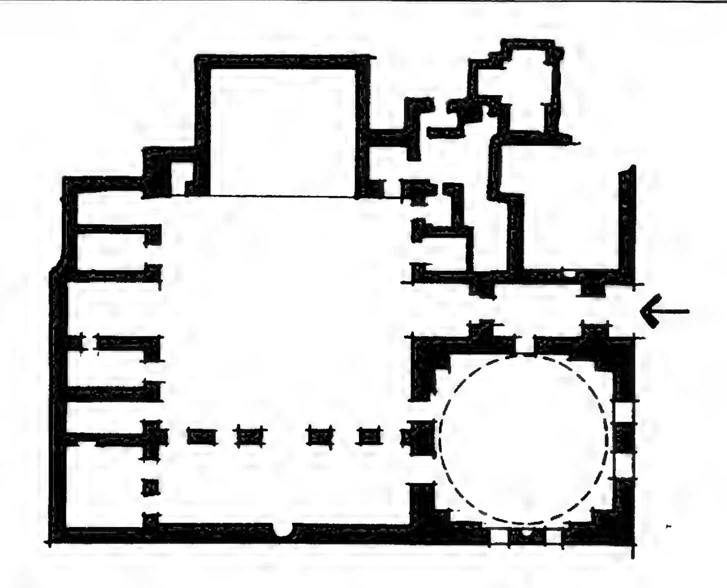
شكل رقم (١٦). مسقط افقي لمدرسة قطلوبغا الذهبى بالقاهرة.

«عن آمال العمري»



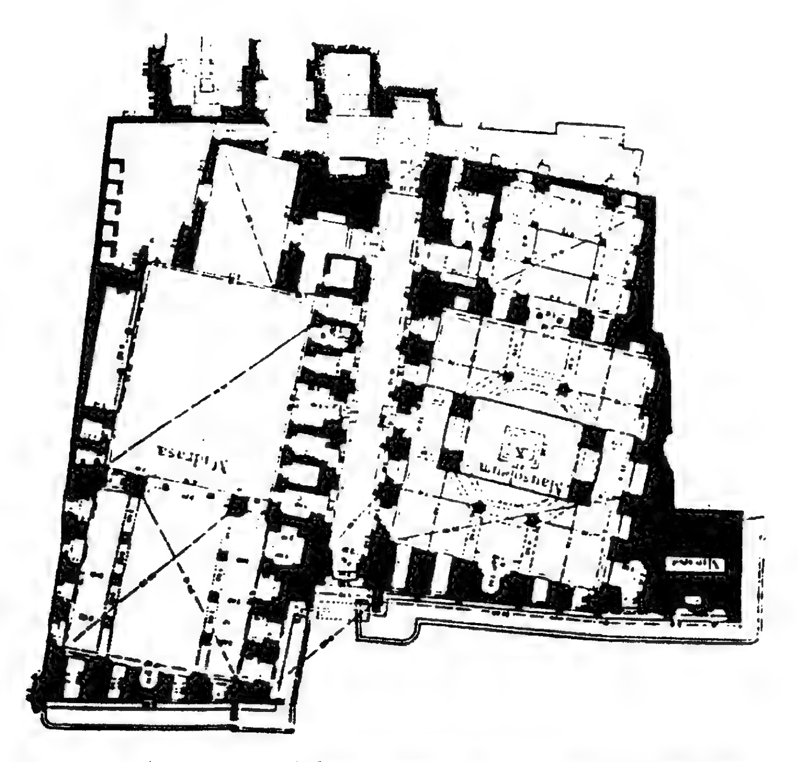
شكل رقم (١٧). مسقط افقي للمدرسة البقرية بالقاهرة.

«عن امال العمري»



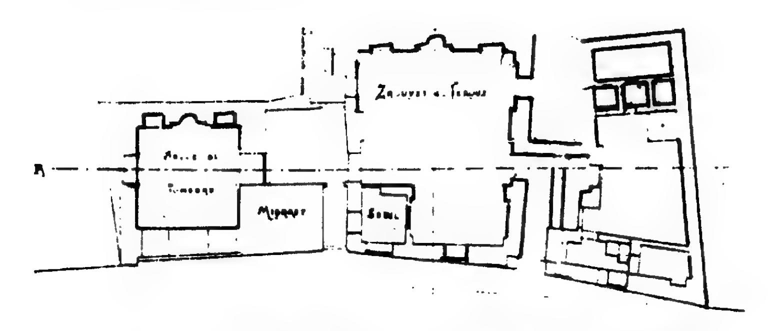
شكل رقم (١٨). مسقط أفقي للمدرسة النورية بدمشق.

«عن شافعي»



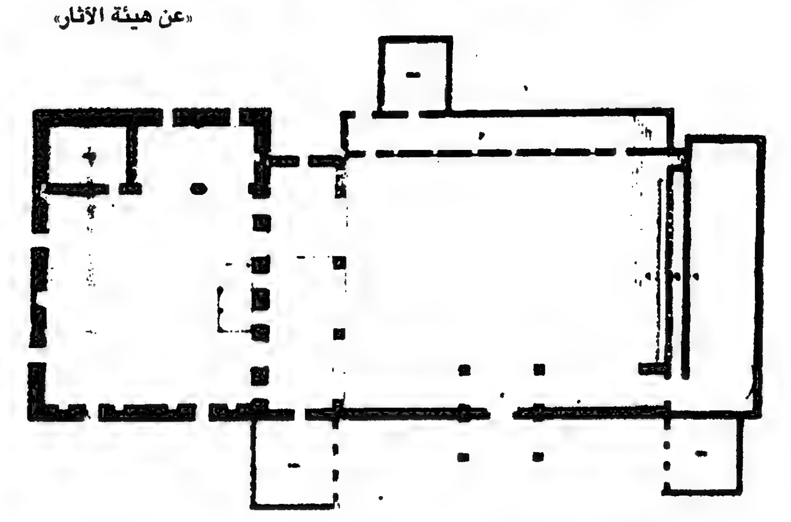
شكل رقم (١٩). مسقط أفقي لمدرسة وضريح المنصور قلاوون بالقاهرة.

«عن كريسول»



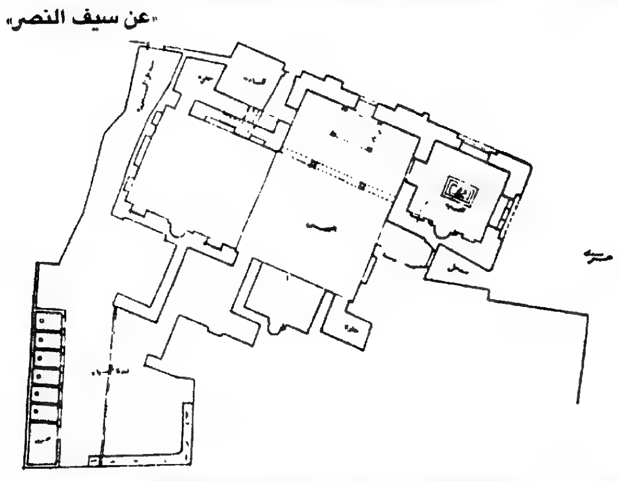
شكل رقم (٢٠). مسقط أفقي لمدرسة فيروز الساقي بالقاهرة.

«عن هيئة الآثار»



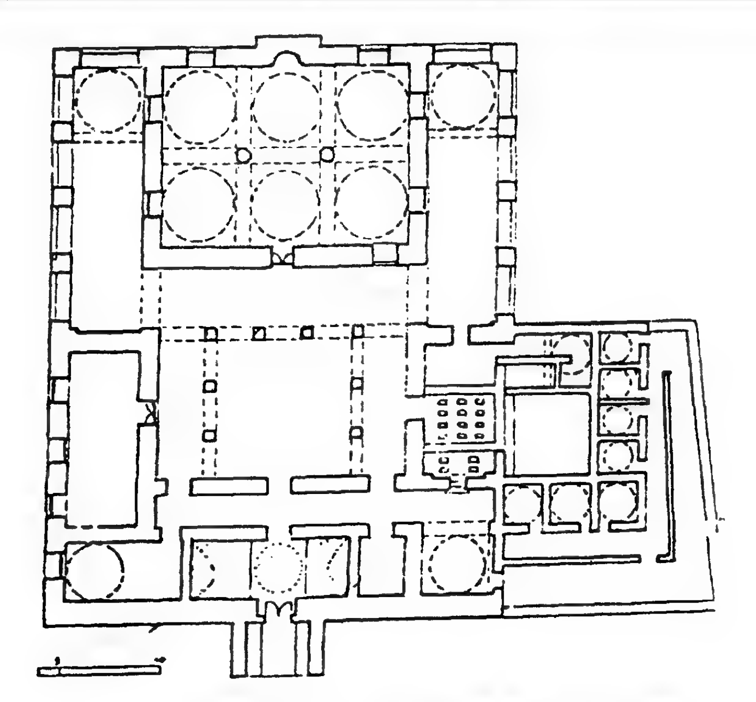
شكل رقم (٢١). مسقط أفقي للمدرسة البكيرية بصنعاء.

«عن سيف النصر»



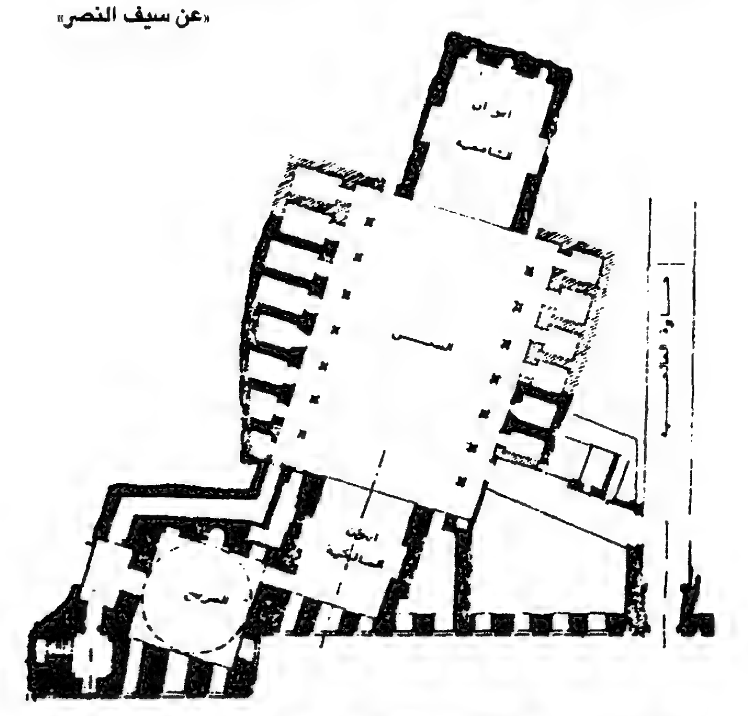
شكل رقم (٢٢). مسقط أفقي لمدرسة تاتار الحجازية ـ بالقاهرة.

«عن آمال العمري»



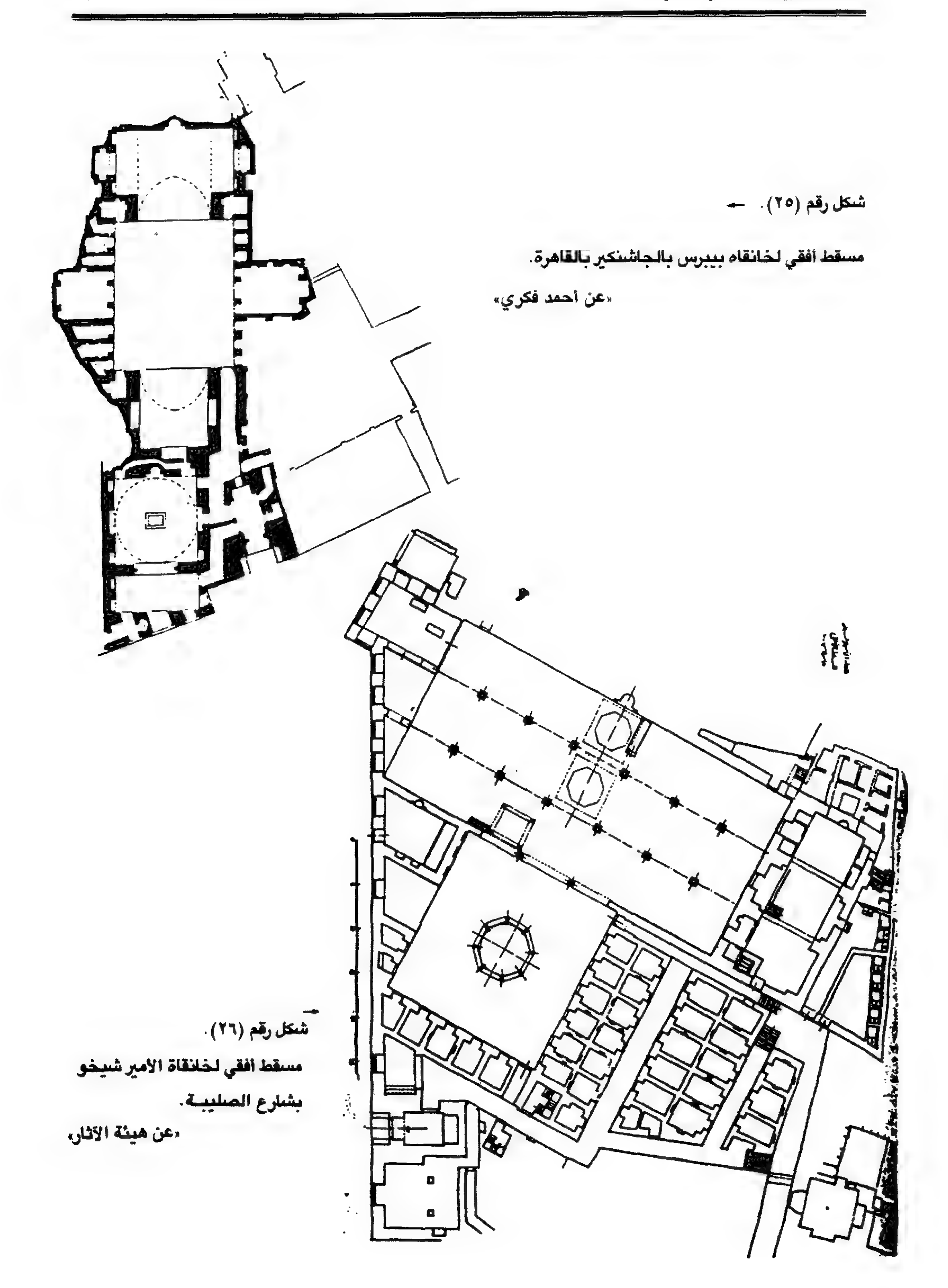
شكل رقم (٢٣). مسقط افقي للمدرسة المعتبية بتعز باليمن.

«عن سيف النصر»



شكل رقم (٢٤). مسقط افقي للمدرسة الصالحية بالقاهرة.

«عن شافعي»



شكل رقم (٢٥).

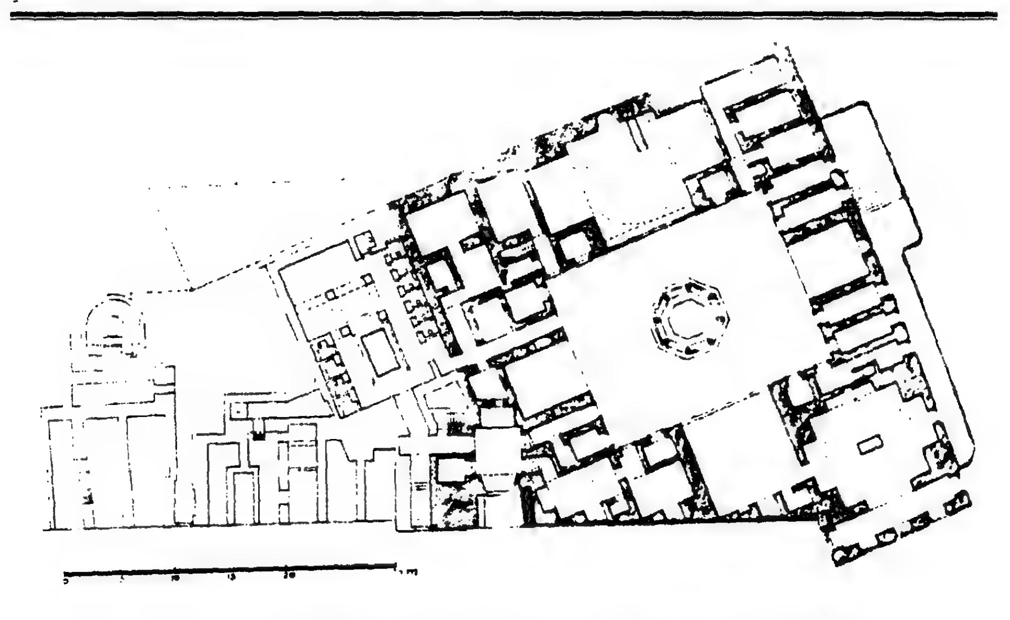
مسقط أفقي لخانقاه بيبرس بالجاشنكير بالقاهرة.

«عن أحمد فكري»

شكل رقم (٢٦).

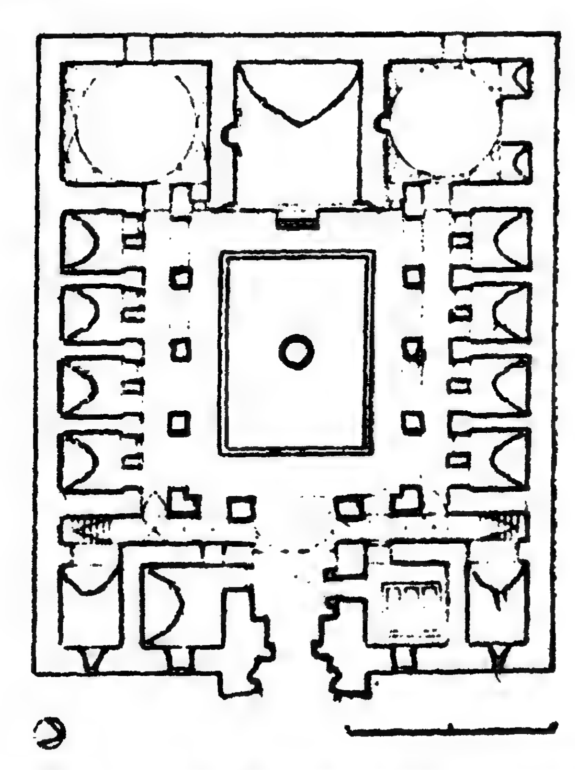
مسقط أفقي لخانقاة الأمير شيخو بشارع الصليبة.

«عن هيئة الآثار»



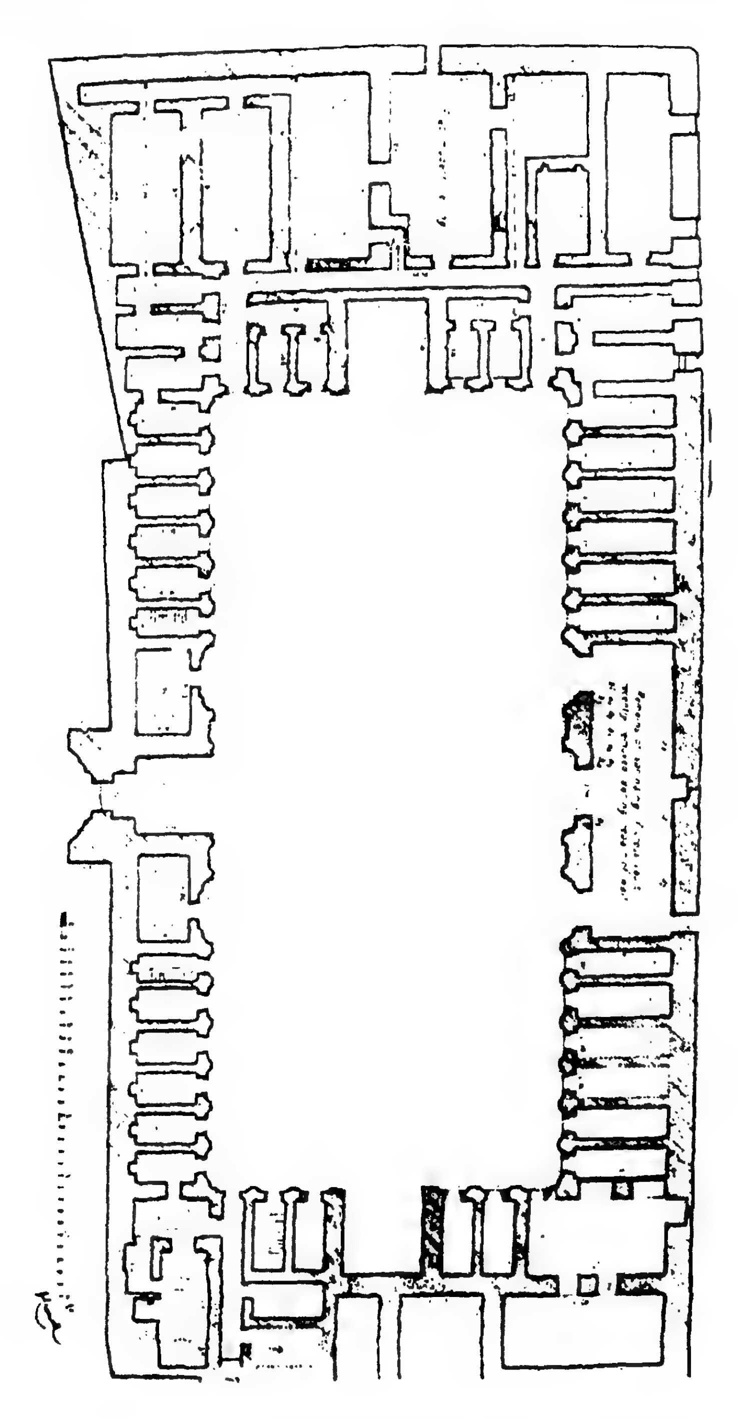
شكل رقم (٢٧). مسقط أفقي لمدرسة الأمير صرغتمش بشارع الصليبة.

«عن هيئة الآثار»



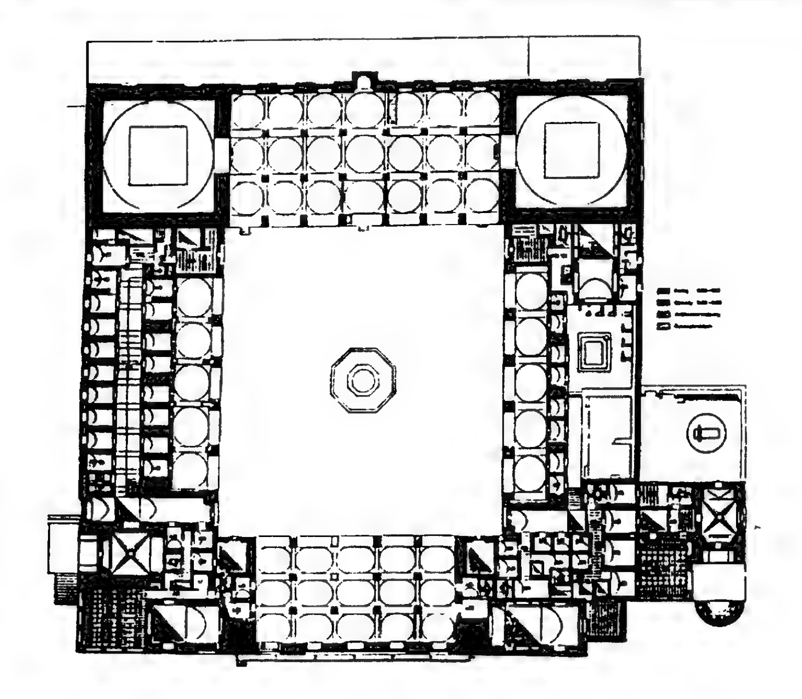
شكل رقم (٢٨). مسقط أفقي لمدرسة صرجالى بقونيان.

«عن اوقطاي اصلان آبا»



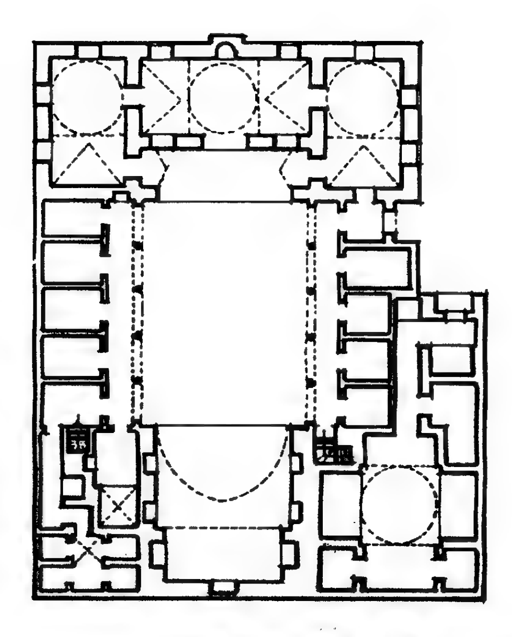
شكل رقم (٢٩). مسقط أفقي لمدرسة المستنصرية ببغداد.

«عن شافعي»



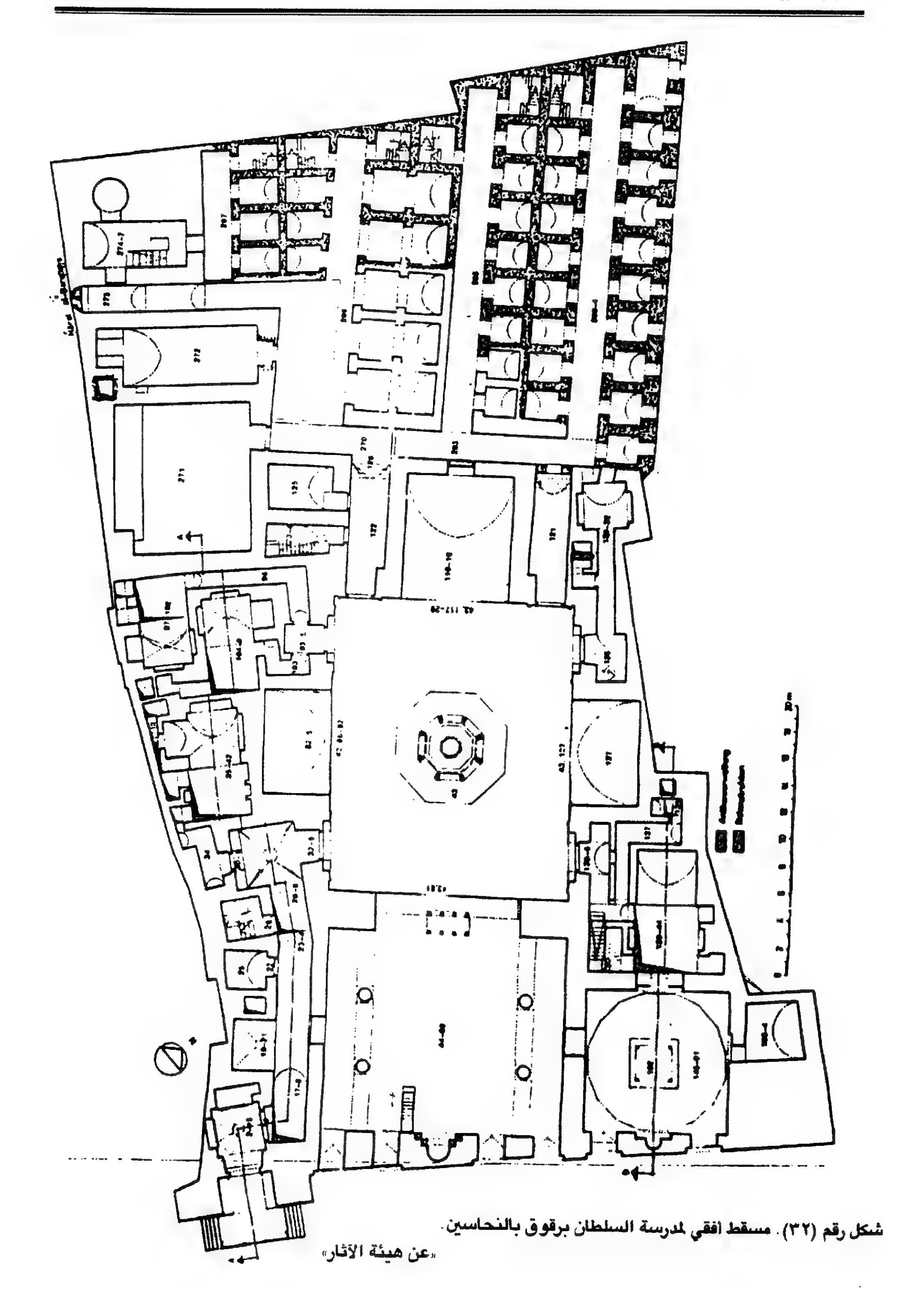
شكل رقم (٣٠). مسقط افقي لخانقاة الناصر فرج بقرافة المماليك.

«عن صالح لمعي»



شكل رقم (٣١). مسقط افقي لمدرسة ابن العديم بحلب.

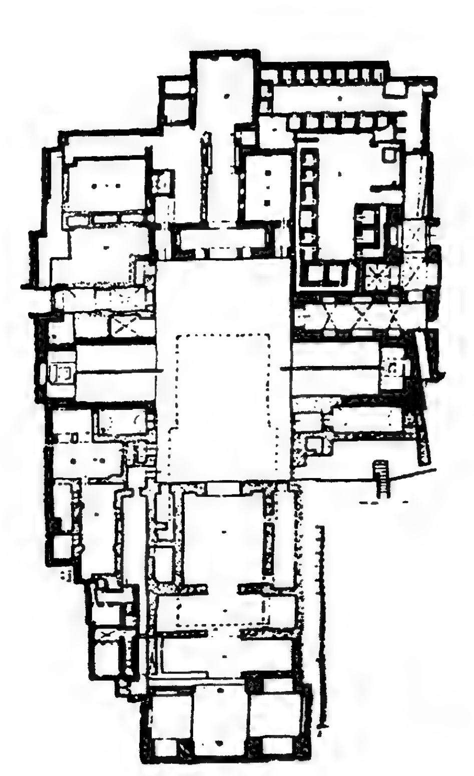
«عن الربحاوي»



شكل رقم (٣٢). مسقط أفقي لمدرسة السلطان برقوق بالنحاسين.
«عن هيئة الآثار»

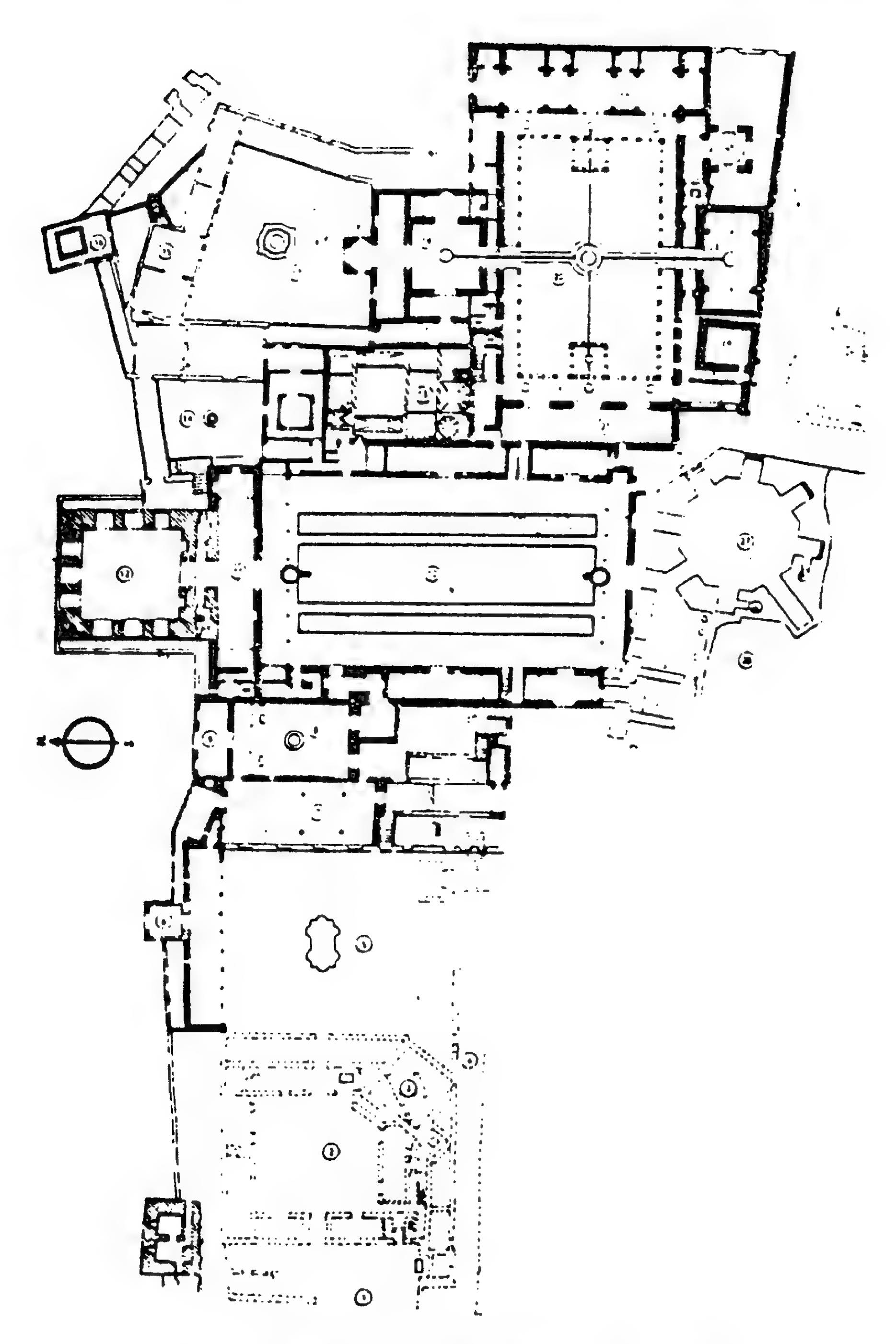
شكل رقم (٣٣). مسقط أفقي لرباط مصطفى باشا بالقاهرة.

«عمل الباحث»



شكل رقم (٣٤). مسقط أفقي للقصر الغربي الفاطمي بالقاهرة.

«عن أحمد فكري»



شكل رقم (٣٥). مسقط أفقي لقصر الحمراء بغرناطة.

«عن شافعي»

العصور، المجلد السادس، الجزء الأول، ١٦٩ ـ ١٨٩ (١٩٩١م)

أضواء جديدة على

تاريــخ الأســـرة الموســوية

من خلال ثلاثة نقوش كوفية من موقع السرين الأثرى ـ جنوب مكة المكرمة.*

للدكتور أحمد بن عمر الزيلعي

ملخص البحث : **يتناول هذا البحث ثلاثة من شواهد القبور الإسلامية المكتشفة في مدينة السرين الأثرية الواقعة على ساحل البحر الأحمر إلى الجنوب من مكة المكرمة. وتعود أهمية هذه الشواهد إلى أنها تميط اللثام عن حقائق مهمة تتعلق بتاريخ الأشراف الموسويين، وأنسابهم، وأماكن استيطانهم. فالشاهد الأول يحمل اسم أحمد بن محمد الثائر ،الذي لم يرد له ذكر في كتب أنساب آل أبي طالب. وبذلك فإنه يضيف إلى علم النسابين، وإلى سلسلة نسب الأشراف الموسويين اسما جديدا هو أحمد المذكور . كما إنه، من ناحية أخرى، يلقى أضواء جديدة على استيطان هذه الأسرة في مدينة السرين، ذلك الاستيطان الذي ربما يعود إلى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ النصف الأول من القرن الرابع الميلادي، وهذا أيضا لم يذكر في المصادر التاريخية. ويؤرخ الشاهد الثاني لأحد أمراء السرين من الأسرة الموسوية، هو يحيى بن علي بن الحسين الأمير بن محمد الثائر ، مما يعطي دليلا جديداً على أن هذه الأسرة لم يقتصر حكمها على مكة المكرمة، وإنما كان بعض افرادها يحكمون مدينة السرين. أما الشاهد الثالث، فصاحبته من أفراد الأسرة الموسوية أيضا. وتكمن أهميته في كونه يضيف إلى علم المهتمين بأنساب آل أبي طالب عقب الحسن المحترق بن محمد الأمير بن الحسين الأمير .. وهو ما تجاهلته المصادر التاريخية وكتب الأنساب. وتضمن البحث أيضا تحليلا لأسلوب كتابة هذه النقوش، وتطور أشكال الحروف وزخرفتها في مدينة السرين، ومقارنتها بأمثالها من النقوش المعاصرة لها في مدينة عثم الإسلامية التي لا تبعد كثيراً عنها.**

كانت مدينة السِّرَّيْن من الموانيء الإسلامية المهمة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر المطل على جنوب الحجاز . وكانت حين ازدهارها في العصور الإسلامية الوسيطة، تتبع إمارة مكة المكرمة، وتبعد عنها بحوالى ٢٠٠ كيلو متر إلى الجنوب، وتحتل موقعا جغرافيا مهما في سهل تهامة الخصيب بين مصبي وداي حَلْيَة ووادي عُلْيَب الشهيرين.[1] وتمثل من ناحية أخرى الواجهة البحرية الرئيسة لمنطقة السراة الغنية

(*) هذا البحث ضمن مشروع بحثي عن الكتابة الإسلامية يموله مركز البحوث بكلية الآداب ـ جامعة الملك سعود.

(١) واديان تهاميان مشهوران يبدأ الاول من جبل عَفَف ببلاد بني مالك ويصب في البحر الأحمر إلى الشمال من السرين، ويبدأ الثاني من جبال نَخْرة ببلاد زهران، ويصب في البرح الأحمر الى الجنوب من السرين. أنظر البركاتي،شرف بن عبد المحسن، **الرحلة اليمانية** (القاهرة، ١٩١٢)، ص١٤، كحالة عمر رضا، **جغرافية جزيرة العرب** (دمشق، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م)، ص٢٠٦.

St. J.B. Philby. *Arabian Highlands* (New York: Cornell University Press. 1952). p. 701, Ahmad b. ʿUmar Al-Zailaʿī "The Southern Area of the Amirate of Makkah (3rd. - 7th A. H. / 9 th - 13th Centuries). Its History. Archaeology and Epigraphy." *Ph.D. Thesis*, Durham University. 1983. pp. 110 - 112.

أنظر : الخريطة، شكل رقم (٢) من هذا البحث.

بحاصلاتها الزراعية وكثافتها السكانية، وملتقى طريقي الحج اليمني إلى مكة المكرمة بفرعيها الساحلي والوسطي أو الجادة السلطانية[٢] فغدت لذلك من أهم المحطات التجارية البرية على هذين الطريقين، ومن أهم الموانيء الإسلامية التي لعبت دورا مهما في تجارة البحر الأحمر شمالا وجنوبا متجاوزة في هذا الدور الموانيء المحلية في الحجاز واليمن إلى الموانيء الأخرى المطلة على البر الإفريقي.[٣]

غير أن هذه الأهمية ربما لم تتجاوز القرن السابع الهجري/ الثالث عشر للميلاد، إذ إن العوامل التي ادت إلى ازدهار مدينة السرين، ما لبثت أن اختفت نتيجة تحولات طرأت على طريقي الحج اليمني إلى مكة المكرمة، ونتيجة ظهور موانيء جديدة، قريبة من السرين، نافستها مكانتها البحرية. يضاف إلى ذلك تعرض المنطقة لمجاعات وعدم استقرار سياسي قضى على مابقي للسرين من ازدهار جنته خلال القرون الماضية.[٤]

ولئن كانت أهمية السرين البرية والبحرية قد اختفت في الوقت الحاضر، فإن قيمتهالدارسي الآثار لا تقل عن تلك المكانة التي تبوأتها أيام ازدهارها ذلك أن موقعها يعد من أهم المواقع الأثرية التهامية التي من المؤمل أن تجذب عناية الدارسين، حيث يزخر بكثير من المخلفات الأثرية من كسر الفخار، والخزف والزجاج، وأساسات الأبنية، والكتابات الإسلامية وغير ذلك.

على أن الكتابات الإسلامية المنقوشة على شواهد قبور السرين، تأتي في مقدمة آثارها الشاخصة من حيث الأهمية والكثرة، وقلما يزور المرء موقع السرين دون أن يكتشف أعداد جديدة من هذه الكتابات الشاهدية. يتضح ذلك بجلاء خلال زياراتي المتعددة للسرين على مدى حوالى ثلاث عشرة سنة، كان آخرها في شهر محرم عام ١٤١٠هـ / أغسطس ١٩٨٩م، حيث عثرت فيها على عدد من شواهد القبور، لفت نظري منها اثنان يحملان اسْمَيْ متوفيين من الأسرة الموسوية التي تولى بعض أفرادها إمارة مكة المكرمة بما في ذلك السرين، في الفترة من حوالي سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٧م إلى سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م.[٥]

وهذان النقشان، مع نقش ثالث عثر عليه سابقا في السرين تعتبر على جانب كبير من الأهمية، لما تضيفه من معلومات تاريخية مهمة تتعلق بأنساب الأشراف الحسنيين، ووجودهم بالحجاز، وحكمهم لها، ولما تحمله أيضا من قيمة فنية تتمثل في أساليب كتابتها التي تمثل مدرستين من مدارس تهامة الخطية، إحداهما تعود إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، والأخرى انتشرت في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر للميلاد، وبصورة خاصة في عشم المدينة الإسلامية التهامية القريبة من السرين، والواقعة على بعد حوالي سبعين كيلومترا، إلى الجنوب الشرقي منها.

وسنتحدث عن أهمية هذه النقوش التاريخية والفنية عند دراستنا، فيما يلي لكل واحد منها على حدة:

رقم (١)

شاهد قبر من الحجر الرملي، شكله شبه منحرف، مكسور في طرفه الأيمن من أعلى، وبه كسور أخرى

(٢) تبدا الطريق الساحلية من عدن، وتنتهي إلى جدة، ثم مكة المكرمة. والطريق الوسطى او الجادة السلطانية متوسطة بين البحر الأحمر والجبل، وهي تلتقي مع الساحلية في السرين، وتفترق منها متجهة إلى الخضراء، فيلملم إلى مكة. أنظر: عمارة ابن علي اليمني، **تاريخ اليمن**، ٢ط (صنعاء: المكتبة اليمنية للنشر، ١٩٨٥م)، ص ص ٧٠ ـ ٧٣، احمد بن عمر الزيلعي، **مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١ ـ ٤٧٨هـ)** (الرياض: عمادة شؤون المكتبات ـ جامعة الرياض، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)، ص ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٣) أنظر: Al - Zailai, "Amirate of Makkah", pp. 128 - 133.

(٤) Cf. Al - Zailai, "The Southern Area of the Amirate of Makkah", pp. 170 - 171.

(٥) عن حكم هذه الأسرة، أنظر: الفاسي، محمد بن أحمد بن علي، **شفاء الغرام باخبار البلد الحرام**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥)، جـ٢، ص ص ٣٠٦ ـ ٣١٠؛ أحمد السباعي، **تاريخ مكة**، ط٣ (مكة المكرمة: دار قريش، ١٣٨٧هـ)، جـ١، ص ص ١٧٢ ـ ١٨٢؛ الزيلعي، **مكة وعلاقاتها الخارجية**، ص ص ٤٢ ـ ٦١.

صغيرة، وتقشر في جهته اليسرى من أسفل، حالته غير جيدة بسبب عوامل التعرية التي أثرت في درجة وضوح الكتابة. عدد أسطره عشرة أسطر، كتب بطريقة النقش الكوفي البارز المزخرف جزئيا. وبهامشه ثلاثة أسطر من الكتابة الكوفية الغائرة تتضمن سورة الإخلاص. معدل الجزء المنقوش ٥٢×٤٠سم تقريبا. وهو غير مؤرخ، ولكنه ربما يعود إلى النصف الأول من القرن الرابع الهجري / النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي.

أنظر لوحة رقم (١ أ) ورقم (١ ب).

النص (في المتن)

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم
٢ ـ لقد كان لكم في رسول
٣ ـ الله أسوة حسنة لمن
٤ ـ كان يرجو الله واليوم
٥ ـ الآخر وذكر الله كثيرا[٦]
٦ ـ هذا قبر أحمد بن
٧ ـ محمد بن موسى بن عبد الله[ـه]
٨ ـ بن موسى بن عبد الله بن الحسـ[ـن]
٩ ـ بن الحسن بن علي بن أبي طالب
١٠ ـ صلوات الله عليه ورضوا [نه]

(في الهامش)

١ ـ قل هو الله أحد الله
٢ ـ الصمد لم يلد ولم يولد
٣ ـ ولم يكن له كفوا أحد[٧]

القيمة التاريخية

تنبع أهمية هذا النقش التاريخية من كون صاحبه المتوفى، أحمد بن محمد، يندرج في هذه السلسلة الطويلة من سلسلة نسب الأشراف الحسنيين، فهو أحمد بن محمد الأكبر أو الثائر بن موسى الثاني بن عبد الله الشيخ الصالح بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب[٨]، كما أنه من ناحية أخرى، يميط اللثام عن حقيقة مهمة تجاهلها بعض من تصدى لذكر عقب محمد الثائر بن موسى الثاني، تتعلق بأحمد، صاحب هذا الشاهد. فابن عنبه الذي يعد كتابه في الأنساب من بين أوفى واوثق ما كتب في أنساب الطالبيين، لم يذكر أحمد من بين أبناء محمد الثائر عندما يقول «وأما محمد الأكبر بن موسى الثاني ويقال له الثائر، على أنه خرج بالمدينة في أيام المعتز، فأعقب من خمسة رجال وهم: عبد الله الأكبر والحسين الأمير، وعلي، والقاسم الحراني والحسن الحراني».[٩]

وهكذا يتضح أن ابن عنبة اكتفى فقط بذكر هؤلاء الخمسة من أبناء محمد الثائر دون أن يضيف لهم ابناً سادساً، وإنما يضيف هذا الابن السادس إلى علم المهتمين بدراسة أنساب آل أبي طالب، هذا الشاهد الذي هو موضوع هذه الدراسة. وبذلك يصبح عقب محمد الثائر في ستة أشخاص بدلاً من خمسة على حد قول ابن عنبة، والسادس هو أحمد بن محمد الثائر المدفون في مدينة السرين.[١٠]

يضاف إلى ذلك أن هذا الشاهد يصحح بعض معلوماتنا عن وجود الأشراف الموسويين في السرين، فما نعرفه عن وجودهم في هذه المدينة عن طريق بعض المصادر الأدبية الميسورة لا يتجاوز أبا الحسن بن الحسين الأمير بن محمد الثائر، والد الحسن أمير

(٦) الآية ٢١، سورة الأحزاب.

(٧) سورة الإخلاص كاملة.

(٨) عن هذه السلسلة، انظر: ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، **جمهرة انساب العرب**، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م)، ص ٤٧؛ الفاسي، **شفاء الغرام**، جـ٢، ص٣٠٦؛ الفاسي، **العقد الثمين في تاريخ البلد الامين**. تحقيق ايمن فؤاد السيد. ط٢ (بيروت مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، جـ٣، ص٤٢٩. وانظر أيضا شكل رقم (١).

(٩) ابن عنبة، أحمد بن علي الداودي الحسني، **عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب**، تحقيق نزار رضا (بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت)، ص ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(١٠) أنظر: لوحة رقم (١١ ب)، سطر٦.

السرين.[١١] ولكن ورود اسم أحمد بن محمد الثائر على هذا الشاهد السريني يجعل وجود بعض أفراد الأسرة الموسوية في السرين، يسبق أقدم دليل لاستيطانهم فيها، وصلنا عن طريق هذه المصادر بثلاثة أجيال. وهذا بطبيعة الحال يشجعنا على إمكانية إعادة النظر في أول وجود لهم بها، وهل كان يسبق وفاة أحمد المذكور أعلاه ؟ وللإجابة عن هذا السؤال لا بد من معرفة الموطن الأول لبني موسى الثاني قبل انتقالهم إلى السرين، ثم متى كان ذلك الانتقال ؟ والذي نعرفه من خلال ما تمدنا به المصادر العربية الميسورة، أن أسرة موسى الثاني بن عبد الله الشيخ الصالح بن موسى الجون، كانت تسكن سويقة المعروفة حتى اليوم بينبع النخل.[١٢] فلما خربت سويقة في عهد الخليفة العباسي المستعين، بسبب خروج أخي موسى الثاني، محمد بن عبد الله ابن موسى الجون، عن طاعة الخلافة العباسية استوطن موسى المدينة المنورة.[١٣] ولكنه ما لبث أن قبض عليه في عهد الخليفة العباسي المعتز بالله، وحمل إلى سامراء، فتوفي مسموما وهو في طريقه إلى العراق، ودفن بزُبَالَة، المعروفة على طريق الحج العراقي، سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م[١٤]. فتفرق أبناؤه في بوادي الحجاز وحواضره.[١٥] وكان أحد هؤلاء الأبناء محمد الثائر الذي تسكت المصادر عن ذكره. ومالم نجد من المعلومات في هذه المصادر ما يكشف أو يحدد مصيره بعد وفاة والده، فإننا لا نستبعد أن يكون محمد الثائر أو ابنه الحسين الأمير، أو كلاهما معا قد استوطنا مدينة السرين منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / النصف الأول من القرن الرابع للميلاد،[١٦] وأن دفن أحمد بن محمد، صاحب هذا الشاهد، في مدينة السرين ربما كان نتيجة لهذا الاستيطان المبكر.

غير أننا لا نعرف شيئا عن شخصية أحمد هذا، وهل كان من أمراء السرين أم أنه كان فرداً عادياً؟ كما أن تجاهل ذكره من قبل المؤرخين والنسابين، وخلو اسمه من الألقاب التي تدل على الإمارة، يحولان دون الجزم بأنه كان أميراً للسرين وإن كان من غير المستبعد أنه كان من الشخصيات البارزة، أو أصحاب النفوذ لأن إمارة السرين ثم إمارة مكة المكرمة، كانت في عقب أخيه الحسين الأمير، كما سيأتي شرح ذلك مبسوطا أدناه.

الخصائص الفنية

يمثل هذا النقش من الناحية الفنية ذلك النمط للكتابات الكوفية البارزة التي انتشرت في مدينة السرين الإسلامية في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي حيث يتميز هذا النمط المتمثل في هذا النقش، بقصر الحروف وإتقانها والتزام كاتبه بمسافات محددة بين كلمات السطر الواحد، وبين كل

(١١) ابن عنبة، **عمدة الطالب**، ص ١٠٨. Al-Zaila'i, "The Southern Area of the Amirate of Makkah", p. 142.

(١٢) ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان** (بيروت : دار صادر ـ دار بيروت، ١٣٧٦هـ / ١٩٧٥م)، جـ٣، ص٢٨٦؛ الحميري: محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، ط٢ (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤م)، ص ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(١٣) الحميري، **الروض المعطار**، ص ٣٢٨؛ ابن عنبة، **عمدة الطالب**، ص١٠٢؛ يذكر ياقوت، ان الخارج هو محمد بن صالح ابن عبد الله المحض بن موسى الجون وأن خروجه كان في عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله، انظر ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ ٣، ص ٢٨٦.

(١٤) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي، **مروج الذهب**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤ (القاهرة: مكتبة السعادة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م)، جـ٣، ص ١٨١؛ ابو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، تحقيق السيد احمد صقر (القاهرة: دار إحياء التراث العربي، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م)، ص ص٦٧٨ ـ ٦٧٩.

وبذلك تكون وفاة موسى الثاني في خلافة المهتدي بالله، وليست في خلافة المعتز بالله الذي خلع نفسه في رجب سنة ٢٥٥هـ / يوليو ١٨٦٩م، وتولى الخلافة بدلا منه المهتدي بالله في التاريخ المشار إليه، انظر : المسعودي، **مروج الذهب**، جـ٣، ص ١٦٦، ١٨٢.

(١٥) ابن عنبة، **عمدة الطالب**، ص ١٠٢، ١٠٤، والصفحات التي بعدها في أماكن متفرقة.

(١٦) يذكر أيوب صبري باشا أن محمد الثائر أو الأكبر تولى حكم مكة، وخلفه في ذلك ابنه الحسين الأمير، ولكن المؤلف لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه، ولم أجد لما ذكره أساسا في المصادر المكية، التي وصلت إلى يدي، انظر : **مرآة جزيرة العرب**، تحقيق أحمد فؤاد متولي والصفصافي أحمد المرسي، ط١ (الرياض : دار الرياض للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م)، جـ١، ص ص٨٧ ـ ٨٨.

سطر والسطر الآخر ، وبفارق قليل في معدل الكلمات التي يتضمنها كل سطر ، إلى جانب وضوح الأحرف وبروزها، واتباع قاعدة متقنة في طريقة كتابة النص بأجمعه.

ولعل مما يلفت النظر في هذا النقش، هو حرص كاتبه على أن تكون الحروف التي تبدأ بها الكلمات، في مستوى واحد تقريبا، من حيث الإطالة، مع حرفي **الألف واللام** المبتدئين، ومن أمثلة ذلك قائم **الباء** في كلمة **بسم** (سطر ١)، وقائم **الكاف** في كلمتي **كاف** (سطر ٢، ٣) وقائم **الياء** في كلمة **يرجو** (سطر ٤) وقائم **الهاء** في كلمة **هذا** (سطر ٦) وهذه الإطالة تنطبق على نهايات بعض الحروف التي مدت عراقتها لتصبح في مستوى الحروف القائمة. ولعل ذلك لقصد التوازن، ومن ثم التجويد الذي حرص النقاش على الالتزام به. وجاءت طريقة كتابة لفظ الجلالة في هذا النقش، على نحو مميز ، حيث ساوى كاتبه بين **ألفها** المنفردة **ولامها** الأولى، في الارتفاع، ثم اخذت **لامها** الثانية في القصر والميل نحو اليسار لتتخذ شكلاً تدريجياً مع قائم **الهاء** التي جاءت هي الأخرى أقصر من **اللام** المجاورة ومائلة إلى اليسار نحو عقدتها المتصلة بها. ويلفت النظر أيضا طريقة كتابة **العين** المبتدئة التي جاء فكها العلوى ملامسا إلى حد ما لإحدى التوريقتين التي تزين فكها السفلي.

وفي سياق التزام النقاش بقاعدة واحدة في جل حروف النص، يلاحظ أن عقدة **الميم** جاءت في جميع الكلمات التي فيها هذا الحرف، على شكل دائرة كاملة الاستدارة، سواء أكانت مبتدئة أم متوسطة أم نهائية. أما عقدة **القاف** فتشبه عقدة **الواو** في كلمة **قبر** (سطر ٦)، في حين أنها جاءت على شكل قنديل في كلمة **لقد** (سطر ٢).

أما الزخرفة، فقد وجدت سبيلها إلى هذا النقش، حيث ظهرت معظم حروف كلمات النص متقنة الأطراف، ومفلطحة الرؤوس والأعقاب، منها ماهو على شكل مثلث مطموس، ومنها ماهو على شكل توريق ثنائي الفصوص. كما أن هناك بعض الأغصان المورّقة المنتشرة فوق بعض كلمات النص، مثل تلك التي تصعد من مؤخرة بعض الحروف، وتظلل الكلمات المنتمية إليها، يلاحظ ذلك في جميع الأسطر ، ما عدا السطر الثالث. ويلاحظ في هذا النقش أيضا ظهور وريدات صغيرة رباعية الفصوص لاعلاقة لها الحروف، مثل تلك التي ترى فوق كلمة **وذكر** (سطر ٥)، وكلمة **موسى** (سطر ٧)، وكلمة صلوات (**سطر ١١**).

ويحيط بالنصف الأعلى لهذا النقش، من ثلاث جهات، إطار بسيط بداخله سورة الإخلاص، نقشت بخط كوفي بسيط بالطريقة الغائرة، يليه من ناحية النص إطار آخر مكون من خطين بارزين معرضين، ويتربع على الإطار الذي فيه سورة الإخلاص من أعلى قوسان متداخلان في وسطهما وريدة رباعية الفصوص. وهذا النوع من الأقواس والوريدات يكثر وجوده على نقوش القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادي التي عثر عليها بموقع مدينة السرين نفسها.(١٧)

ولن نذهب بعيداً في مقارنة هذا النقش بغيره في محاولة لإيجاد تاريخ دقيق لفترة عمله، إذا أنه عثر في الموقع نفسه على نقش مؤرخ في سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢ - ٣م يحمل الخصائص الخطية والزخرفية نفسها التي يحملها هذا النقش، موضوع الدراسة حتى ليظن أنهما كتبا بيد نقاش واحد.(١٨) وإذا كان هذا النقش يختلف عن ذلك الذي هو موضوع المقارنة من حيث وجود إطار جزئي يحمل سورة الإخلاص، وكذلك شكل كتابة لفظ الجلالة، فإن النقش التوأم الذي عثر عليه على قبر المتوفاة نفسها، صاحبة النقش المؤرخ في سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢ - ٣م، يوجد عليه إطار من ثلاث جهات كتبت بداخله سورة الإخلاص، وتشبه فيه كلمة لفظ الجلالة، إلى حد ما مثيلاتها في هذا الشاهد، موضع الدراسة،(١٩) الأمر الذي يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن تاريخ عمله كان

(١٧) Cf. Al-Zaila'i, "The Southern Area of the Amirate of Makkah", pls. 27 - 29, nos. 32 - 34, 37.

(١٨) انظر للمقارنة : لوحة رقم (٤)

(١٩) انظر للمقارنة: لوحة رقم(٥)

في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي.

رقم (٢)

شاهد قبر من الحجر الرملي، مستطيل الشكل تقريبا، به أخاديد كثيرة في جانبه الأيمن وهامشه الأيسر، بسبب عوامل التعرية التي أثرت في طمس بعض كلمات النص، وعدم وضوح كلمات أخرى، عدد أسطره ثلاثة عشر سطراً بالخط الكوفي البارز، المزخرف جزئيا، وثلاثة أسطر أخرى غير مقروءة بهامشه، وهي بالخط الكوفي الغائر البسيط. معدل الجزء المنقوش ٥٩×٣٨سم تقريبا، وهو مؤرخ للثاني والعشرين أو الثالث والعشرين من شهر محرم سنة ٣٦١هـ/ الموافق للثاني عشر أو الثالث عشر من سبتمبر سنة ٩٧٢م.

أنظر لوحه رقم (٢أ)، ورقم (٢ب)

١ ـ بـ سم الله الرحمن الرحيم.
٢ ـ [قل] هو نبأ عظيم. أنتم عنه معرضون[٢١]
٣ ـ [هـ]ذا قبر الأمير أبي
٤ ـ [الحـ]سين يحى بن على بن ا
٥ ـ [لحسين] بن محمد بن موسى بن عبد
٦ ـ [الله بن مـ]ـوسى بن عبد الله بن ا
٧ ـ [لحسن بن ا] لحسن بن علي بن أبي طالب
٨ ـ ... مضجعه ورحم مطر
٩ ـ [حه توفي] رضي الله عنه لثمان بقين
١٠ ـ [من محـ]ـرم سنة احدى و
١١ ـ [ستـ]ـين وثلثمائة الحقة [الله]بسلفه
١٢ ـ الط[ـا]هرين. وصلى الله على محمد
١٣ ـ وآله وسلم.

القيمة التاريخية

يعتبر هذا النقش من النقوش المهمة التي عثر عليها في السرين، لأن المتوفى كان أحد الأمراء الموسويين الذين تقلبوا على حكم السرين، يدل على ذلك لقب الأمير (سطر٣) الذي يسبق اسمه والذي يدل صراحة على المنصب الذي كان يتقلده.[٢٢] ويدل على ذلك أيضا أن المتوفي من أسرة تقلدت الإمارة في الحجاز. وحمل كل منهم لقب الأمير، من هؤلاء جده الحسين الأمير، وعماه أبو هاشم محمد الأمير، وأبو جعفر محمد الأمير أيضا الذي سنأتي على ذكره، وأخوه الحسن بن علي الذي كان، شأنه شأن المتوفي، أميرا للسرين.[٢٣] وتولى إمارة السرين، من أسرته أيضا، ابن أخيه يحي بن الحسن بن علي. كما يشير ابن عنبة إلى ذلك صراحة.[٢٤] غير أننا لا نعرف على وجه التحديد من هو أول من ابتدأ حكم السرين منهم، ومن تولى هذا المنصب قبل الآخر؟ وليس في المصادر التي بين أيدينا ما يجيب على هذه المسألة، حتى ابن عنبة نفسه يكتفي فقط بإيراد أمراء السرين جملة دون أن يشير إلى سنوات حكمهم، ومددها، ومن تولى منهم الإمارة قبل الآخر. ومع أنه من الصعب الخوض في هذه الأمور لعدم توافر الأدلة، إلا أنه لا بأس من الاجتهاد في وضع ترتيب ـ على الأقل ـ لحكم هؤلاء. فإذا صح ما ذهبنا إليه سابقا من أن إمارة السرين كانت في هذه الأسرة منذ عهد الجد الأقرب لهم، وهو الحسين الأمير، فإن مقاليد الإمارة ربما

---

(٢٠) عرضت لدراسة هذا النقش في رسالة الدكتوراة التي تقدمت بها لجامعة درهام بانجلترا قبل عثوري على النقشين (١)، (٢) في العام الماضي المشار إليه آنفا. وكنت قد عزمت قبل الشروع في الكتابة، على جعل هذا النقش ملحقا بالبحث يأتي كالعادة، في نهايته. ولكن الترتيب التاريخي للمجموعة يقتضي أن يكون موضعه بينهما حتى تكتمل الصورة، لدى القاريء، عن هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين ترد أسماؤهم على هذه النقوش، وحتى تتم المحافظة على منطقية التسلسل التاريخي لوجود هؤلاء الأشخاص بمدينة السرين. لذا أعدت دراسة هذا النقش على نحو مختلف ـ إلى حد ما ـ عن ذي قبل، مع الرجوع بالطبع إلى دراستي السابقة التي لم تنشر حتى الآن، وذلك بقصد الإحالة فقط، انظر ما ذكرته في:
"The Southern Area of the Amirate of Makkah", pp. 365 - 368, pl. 29, no. 37.

(٢١) الآيتان ٦٧، ٦٨ من سورة ص.

(٢٢) عن لقب «الأمير» الدال على الوظيفة التي يتقلدها صاحب اللقب ومنها ولاية الأمصار. انظر:
حسن الباشا، **الألقاب الإسلامية** (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٨)، ص ص ١٨٠ ـ ١٨٤.

(٢٣) ابن عنبة، **عمدة الطالب**، ص ١٠٨. انظر شكل رقم(١).

(٢٤) ابن عنبة، **عمدة الطالب**، والصفحة نفسها، والشكل نفسه.

انتقلت بعده إلى ابنه علي، ثم ابنه يحي، صاحب هذا الشاهد الذي سنأتي إلى تاريخ حكمه فيما بعد.[٢٥] وخلفه في هذا المنصب أخوه الحسن بن علي، ثم ابنه يحي بن الحسن، وهذان الاثنان ينعتهما ابن عنبة بلقب أميري السرين ويضيف ابن عنبة إلى يحي بن الحسن هذا صفة أخرى هي أنه «كان جبارا قتل ولده بالعقوبة على طلبه الإمارة».[٢٦] ومع ذلك فقد كان له عقب، من المحتمل أن إمارة السرين بقيت فيه على الأقل خلال فترة حكم الأسرة الموسوية لإمارة مكة المكرمة الذي امتد إلى سنة ٤٥٣هـ /١٠٦١م، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وسيأتي ذكر أفراد هذه الأسرة فيما بعد.

أما تاريخ حكم صاحب الشاهد الأمير يحي بن علي، فإننا لا نعرف شيئا عن بدايته، وإن كنا بحكم تاريخ وفاته الذي ورد على شاهد قبره، نستطيع على الأقل تحديد نهاية حكمه، إن لم يكن قد خلع قبل ذلك. ولكن تحديد تاريخ وفاته جوبه بمشكلة أخرى، رغم وضوح اليوم والشهر والكلمتين الدالتين على رقمي الآحاد والمئات، وهي أنه، توفي «لثمان خلون من شهر محرم سنة إحدى... وثلثمائة.»[٢٧] ذلك أن الكلمة الدالة على أرقام العقود غير واضحة، ويصعب افتراضها رغم وضوح حرفي الياء والنون المتممة للعقود من عشرين إلى تسعين. وإذا كان لابد من الاجتهاد، فإننا نعتقد أن وفاة المذكور أعلاه كانت لثمان خلون من شهر محرم سنة إحدى وستين وثلاثمائة، أو إحدى وسبعين وثلاثمائة، ويبرر هذا الافتراض ظهور حكم هذه الأسرة بمكة المكرمة في حوالي سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م بقيادة ابن عم المتوفى، الأمير جعفر بن محمد الأمير بن الحسين الأمير الذي حكم مكة إلى أن توفي قبيل سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦ ـ ٧م.[٢٨] فربما كان يحي هذا واليا على السرين من قِبَلِ ابن عمه جعفر بن محمد، أمير مكة المكرمة المشار إليه أعلاه. ويؤيد هذا الافتراض عدم ظهور لقب «الأمير» أمام اسم أي من أمراء السرين قبل يحي المذكور في هذه الدراسة، إذا افترضنا أن للحسين الأمير وضعا خاصا ربما اكتسبه من البيعة له بعد وفاة والده سواء أكانت هذه الوفاة في السرين أم في خارجها، يضاف إلى ذلك أن أسلوب كتابة هذا الشاهد يمثل مدرسة ظهرت في السرين منذ حوالى منتصف القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر للميلاد، هذه المدرسة تركز على كتابة اسم المتوفى بحروف أكبر بكثير من باقي حروف النص. وسيأتي شرح ذلك مبسوطا أدناه عند دراسة الخصائص الفنية لهذا الشاهد.

الخصائص الفنية

مما يؤسف له أن هذا الشاهد تأثر كثيرا بعوامل التعرية التي أخفت بعض خصائصه الفنية. كما أخفت كثيرا مما فيه من حقائق تاريخية، واستبدلت ذلك بأخاديد وتعريجات وخطوط أخرى صغيرة، ليست من جنس الكتابة أو الزخرفة، طغت على النص، وأثّرت في تَبَيُّن بعض كلماته، وتَدَبُّر عناصره الزخرفية. ومع ذلك، فإن كثيرا من خصائصه الفنية تتفق مع سابقه، مثل طريقة كتابة لفظ الجلالة، وتفطيح رؤوس بعض الحروف، ولا سيما الأحرف القائمة، وإدخال بعض الزخارف التي تأتي بين السطور مثل شكل الوريدة الرباعية الفصوص والتي تلاحظ هنا فوق كلمة الحسين (سطر٤)، وكلمة عبد

(٢٥) انظر: لوحة رقم (١٢، ب)، وشكل رقم (١).

(٢٦) ابن عنبة، **عمدة الطالب**، ص ١٠٨.

(٢٧) انظر: لوحة رقم (١٢، ب).

(٢٨) الفاسي، **شفاء الغرام**، جـ٢، ص ٣٠٦، ٣٠٧. الفاسي، **العقد الثمين**، جـ ٦، ص ٤٥٨. لم نجد في المصادر الميسورة إشارة صريحة إلى وفاة جعفر بن محمد غير ما يذكره الفاسي نقلا عن ابن خلدون من أن عيسى بن جعفر كان أميرا على مكة سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦ـ٧م، مما استوجب الإشارة إلى أن تاريخ وفاة جعفر كانت قبيل التاريخ المشار إليه. ولكن السباعي في كتابه «**تاريخ مكة**» (جـ٢، ص ١٧٨)، يذكر أن عيسى بن جعفر تولى أمر مكة بعد أبيه في سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠ ـ ١م، فهل يعني ذلك أن الوالد توفي في هذه السنة؟ إننا نشك في ذلك، لأننا لم نعثر على هذ الخبر في المصدر الذي استقاه منه، ولأن الحادثة المرتبطة بهذا الخبر وردت قبل ذلك بحوالي أربعة عشر عاما. انظر: ابن فهد، نجم الدين محمد ابن محمد، **اتحاف الورى بأخبار أم القرى**، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط١ (القاهرة: منشورات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م)، جـ٢، ص ص ٤١٣ ـ ٤١٤.

(سطره) ولو أننا قلما نرى أثرا لاستخدام الأغصان المورقة التي شوهدت على نطاق واسع في النقش السابق.

غير أن أهم مايلفت النظر في هذا الشاهد، هو لجوء كاتبه إلى تكبير أحرف الكلمات المتضمنة الإشارة إلى قبر المتوفى، وإلى اسمه ولقبه بدرجة تختلف عن باقي أحرف كلمات النص الأخرى. وقد شاعت هذه الطريقة في نقوش السرين التي تعود تقريبا إلى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، واستمرت كذلك إلى حوالي مطلع القرن الذي يليه.(٢٩) ومن هنا جاء ترجيحنا السابق إلى أن تاريخ هذا النقش هو إما ٣٦١هـ / ٩٧٢م أو ٣٧١هـ / ٩٨١م، اعتمادا على هذه الظاهرة الخطية، بالإضافة إلى الأدلة التاريخية التي سبق الإشارة إليها.

رقم (٣)

شاهد قبر من الحجر الرملي، غير منتظم الشكل، كسر جزء منه في طرفه الأيمن من أعلى، واختفت باختفاء هذا الجزء المكسور حروف بعض الكلمات التي في نهايتي السطرين الثاني والثالث. حالته جيدة، وإن كانت كتابته غير واضحة بدرجة كافية حتى قبل التصوير. عدد أسطره خمسة عشر سطرا بالخط الكوفي البارز المورق. معدل الجزء المنقوش ٦٠×٢٤سم تقريبا. وهو مؤرخ في شهر شوال سنة ٤٤٣هـ / يناير ـ فبراير ١٠٥٢م.
أنظر: لوحة رقم (١٣)، ورقم (٣ب).

النــص:

١ ـ بسم
٢ ـ الله الرحمن [الر]
٣ ـ حيم. ولمن خاف مقـ[ـا]
٤ ـ م ربه جنتان. هذا قبر أم(٣٠)
٥ ـ كلثوم ابنت عبد
٦ ـ الله ابن على ابن
٧ ـ الحسن ابن محمد ابن
٨ ـ الحسين ابن محمد
٩ ـ ابن موسى ابن عبد الله
١٠ ـ ابن موسى ابن عبد الله
١١ ـ ابن الحسن ابن الحسن
١٢ ـ ابن علي بن أبي طالب
١٣ ـ توفيت في شهر شوال
١٤ ـ سنة ثلاث وأربعين وأربع
١٥ ـ مئة سنة

القيمة التاريخية

لا يخلو هذا النقش أيضا من القيمة التاريخية، فصاحبته أم كلثوم بنت عبد الله بن علي بن الحسن ابن محمد الأمير بن الحسين الأمير بن محمد الثائر، من الأسرة الموسوية التي سبقت الإشارة إلى أن حكام مكة وحكام السرين، كانوا من أفرادها. وعثورنا على هذا النقش في مدينة السرين يعني استمرار وجود هذه الأسرة فيها إلى حوالي منتصف القرن الخامس الهجري الحادى عشر الميلادي، وهي فترة متأخرة نسبياً عن تاريخ قيام دولتهم بمكة المكرمة التي أشرنا إلى تاريخ قيامها سابقاً. ولكن علينا قبل التسليم بانتماء هذه السيدة (أم كلثوم) إلى الأسرة الموسوية الحاكمة بمكة المكرمة، أن ننظر في سلسلة نسبها الأدنى لنرى أهي من أحفاد أبي هاشم محمد الأمير، جد الأمراء الهواشم، أم من أحفاد أبي جعفر محمد الأمير جد الأمراء الموسويين، وكلاهما من أبناء الحسين الأمير بن محمد الثائر ولا تفرق بينهما إلا الكنية، فالأول أبو هاشم والثاني أبو جعفر.(٣١) ومن المؤكد أن صاحبة هذا الشاهد ليست من أحفاد أبي هاشم محمد الأمير، لأن ابن عنبة يذكر صراحة أن محمدا هذا «أعقب من عبد الله وحده، وأعقب عبد الله بن أبي هاشم محمدا وحده»(٣٢) فربما كانت أم كلثوم من أحفاد أبي جعفر

---

(٢٩) انظر للمقارنة: لوحة رقم (٦)، ورقم (٧) أدناه.
(٣٠) الآية ٤٧، سورة الرحمن.

(٣١) Cf. al - Zailaʿi. "The Southern Area of the Amirate of Makkah", Pls. 29, 30,32, nos. 38, 39, 48.
(٣٢) ابن عنبة، **عمدة الطالب**، ص ١٠٨. انظر: شكل رقم (١).

محمد الأمير ، لأن محمدا هذا أعقب من رجلين هما: جعفر بن محمد، أول من مكن للأسرة الموسوية، بل للأشراف الحسنيين في حكم مكة المكرمة[٣٣] والحسن المحترق الذي نعتقد أنه الجد الثاني لأم كلثوم، صاحبة هذا الشاهد.[٣٤] وبذلك يضيف هذا النقش إلى علم المهتمين بأنساب الأشراف الحسنيين، عقب الحسن المحترق الذي تجاهله النسابون.

ويزيد من الأهمية التاريخية لهذا الشاهد، أن صاحبته ليست من بني علي بن الحسين، حكام السرين الأدنيين، وإنما من بني عمهم آل جعفر بن محمد بن الحسين الذين حكموا مكة المكرمة. وكان أول من تولى منهم إمارة مكة جعفر بن محمد، أخو الحسن المحترق، الجد الثاني لصاحبة الشاهد في حوالي سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م، وهو الذي أسس حكم الأشراف بها، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. فلما توفي في حوالي سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦ ـ ٧م، خلفه في الحكم ابنه عيسى بن جعفر ، وبقي كذلك إلى وفاته في سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م.[٣٥] ثم خلفه أخو الحسن بن جعفر بن محمد، المعروف بأبي الفتوح، واستمر في حكم إمارة مكة المكرمة إلى وفاته سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨ ـ ٩م.[٣٦] ثم خلفه ابنه شكر بن أبي الفتوح، وكان معاصرا لصاحبة الشاهد التي توفيت في حكمه سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٢م، فلما توفي شكر في سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م.[٣٧] انتقل الحكم من بعده إلى أسرة أخرى من أسر الأشراف الحسنيين من بني الحسين الأمير ابن محمد الثائر ، عرفت في التاريخ الإسلامي باسم الأشراف الهواشم،[٣٨] نسبة إلى أبي هاشم محمد بن الحسين الأمير بن محمد الثائر ، الجد الذي تلتقي أسرته (الهواشم) مع أسرة صاحبة الشاهد (بنو جعفر بن محمد) في جدهم المشترك الحسين الأمير .[٣٩]

الخصائص الفنية

يعد هذا النقش من الناحية الخطية، من النقوش المميزة التي عثر عليها في السرين والتي تعود إلى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادي، ولا يشبه في جمال خطه، وجودة تنفيذه أي من نقوش السرين التي تعود إلى هذه الفترة.[٤٠] فخطه جميل، وأحرفه رشيقة متقنة، ولم يدع النقاش سبيلا لزخرفة النص إلا اتبعه، حتى جاء لوحة فنية رائعة جمعت بين جودة القاعدة الخطية، وحسن التنفيذ ولولا رداءة الحجر الذي نقش عليه، لكان من أوضح النقوش التي عثر عليها في تهامة. وإذا كنا لم نجد له مثيلا في السرين من معاصريه، فإن أمثلته كثيرة في مدينة عشم المجاورة للسرين، والتي ذكرنا سابقا أنها تبعد عنها بحوالي سبعين كيلومترا إلى الجنوب الشرقي. ومالم يعثر في المستقبل على أمثلة له في السرين فمن المحتمل أن النقاش الذي نفذه جاء من عشم، فهو يتفق كثيراً

---

(٣٣) ابن عنبة، **عمدة الطالب**، ص ١١١.

(٣٤) السيد أحمد زيني دحلان، **أمراء البلد الحرام** (بيروت : الدار المتحدة للنشر والتوزيع، د.ت)، ص٢٨.

(٣٥) ابن عنبة، **عمدة الطالب**، ص ١٠٨. انظر : لوحة رقم (١٣، ب) وشكل رقم (١).

(٣٦) الفاسي، **شفاء الغرام**، جـ٢، ص ٣٠٧؛ دحلون. **امراء البلد الحرام**، ص ٢٨.

(٣٧) ابن فهد، **اتحاف الورى**، جـ٢، ص ٤٥٩. خرجت مكة من حكمه، ووليها شخص آخر من بني ابي الطيب يقال: إنه ابو الطيب داود بن عبد الرحمن السليماني، وذلك في مطلع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، عندما خرج على طاعة الحاكم، وطالب بالخلافة، وذهب إلى الرَّملة، عندما بايعه بنو الجراح، انظر : الفاسي، **شفاء الغرام**، جـ٢، ص ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩؛ العصامي، عبد الملك بن حسين: **سمط النجوم العوالي** (القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها، د.ت) جـ٤، ص ص ١٩٦ ـ ١٩٧؛ دحلان، **امراء البلد الحرام**، ص ص ٢٨ ـ ٢٩؛ الزيلعي، **مكة وعلاقاتها الخارجية**، ص ص ٥٠ ـ ٥٦.

(٣٨) انظر : الفاسي، **العقد الثمين**، جـ٥، ص ص ١٤ ـ ١٦؛ ابن فهد، **اتحاف الورى**، ص ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

(٣٩) ابن خلدون، عبد الـ ـن المغربي: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر** (بيروت : دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨م)، جـ٤، ص ٢١٩؛ دحلان، **امراء البلد الحرام**، ص ص ٣٠ ـ ٣١.

(٤٠) انظر : ابن عنبة، **عمدة الطالب**، ص ١٠٨، ١١١؛ السباعي، **تاريخ مكة**، جـ٢، ص ١٨٣؛ انظر : شكل رقم (١).

مع نماذج خمسة من عثم تعود إلى فترة عمل هذا الشاهد.[٤٠]

ولعل أهم ما يلفت النظر في هذا النقش، هو استخدام الزخرفة الخطافية التي تكثر في رؤوس بعض الحروف ونهاياتها مثل حروف **الجيم والحاء، والدال والعين، والفاء والقاف، والميم، والنون، والواو، والهاء**، وكذلك طريقة كتابة لفظ الجلالة (سطر٢، ٦، ٩، ١٠) على نحو يفصل بين **لاميها** الأول والثاني تقويس يشبه شكل المعين، مع نزول اللام الثانية التي تسبق **الهاء** النهائية في الكلمة نفسها، عن مستوى خط استواء الكتابة ثم إطالة قائم **الهاء** إلى أعلى بحيث يكون مساويا في الطول لقائمي **الألف واللام**. وهذه الظاهرة تلاحظ في جميع أشكال كلمات النص التي تنتهي بحرف **الهاء**، ويلفت النظر أيضا طريقة رسم **العين** المتوسطة (سطر١٤) التي جاءت قنطرتها مخسوفة إلى الداخل، **والهاء** المتوسطة (س١٣) التي جاءت حبكتها فوق خط استواء الكتابة، وكذلك **الهاء** الراجعة (سطر ٦، ٩، ١٠، ١١، ١٢) التي نقشت على شكل زخرفة ثلاثية الفصوص، ولو أنها قائمة الزوايا. أما حرف **اللام ألف** الوحيد في السطر الرابع عشر، فذات عكنين واضحين، ويرتكز قائماها على قاعدتها التي جاءت على شكل مثلث. وكتبت **الألف والراء** في كلمة **أربعين** (سطر١٤) بشكل مختلف عن مثيلاتها في باقي النص.

وتنتشر في النقش زخارف قوامها دوائر منقوطة المركز، توجد حيثما توجد الفراغات التي يبدو أن فكرتها نشأت لسد هذه الفراغات. ويحيط بالنص، من ثلاث جهات، إطار بسيط على شكل محراب، حنيته مدببة. وفكرة المحراب المدبب هذه، توجد على كثير من النقوش التهامية، بعضها أكثر اتقانا وجمالا من هذا الذي يؤطر هذا الشاهد، وبعضها الآخر لا يعدو أن يكون خطا بسيطا على النحو الذي نراه في هذا الشاهد، أو دونه.[٤٢] ويشبه هذا النقش في كثير من خصائصه الخطية والزخرفية مجموعة من نقوش عثم الإسلامية التي أشرنا إليها سابقا والتي تعود تقريبا إلى فترة عمل هذا الشاهد. نذكر من ذلك نقشاً عشمياً مؤرخاً في شوال سنة ٤٣٤هـ / ابريل ـ مايو ١٠٤٣م، إلا أنه لا يحتوي على دوائر زخرفية كتلك التي تتناثر بين السطور والفراغات في هذا الشاهد السريني.[٤٣] وإذا كان ذلك النقش العشمي موضوع المقارنة، خاليا من الدوائر الزخرفية التي وجدت أصلا لسد الفراغات، فإن نقشاً عشمياً آخر مؤرخاً في شهر رجب سنة ٤٣٧هـ/ مارس ١٠٤٦م يمكن اعتماده نموذجا للمقارنة، لأنه يجمع بين هذا النوع من الدوائر الزخرفية، وبين الخصائص الخطية المتمثلة في هذا النقش، موضوع الدراسة.[٤٤] جميع كلمات ابنة وابن في هذا النص وردت مسبوقة بحرف **ألف**[٤٥]، فإذا استثنينا منها تلك الكلمات التي جاءت في أوائل الأسطر، فإن باقيها، من وجهة نظر إملائية، غير صحيح.

---

(٤١) انظر للمقارنة احمد عمر الزيلعي «حاكم السرين (راجع «بن قتادة ودوره في العلاقات المصرية اليمنية في مكة»، **مجلة العصور**، المجلد الأول، (دار المريخ، يناير ١٩٨٦م / ١٤٠٦هـ)، الجزء الاول، ص ٣٢. (شاهد قبر من السرين مؤرخ للثالث من رمضان سنة ٤٠٣هـ الموافق للثامن عشر من مارس سنة ١٠١٢م)، وانظر شاهدا آخر من السرين مؤرخا في شهر ربيع الأول سنة ٤٣٣هـ / نوفمبر ١٠٤١م في Al - Zaila'i, "The Southern Area of the Amirate of Makkah", p. 413, pl. 35, no.62.

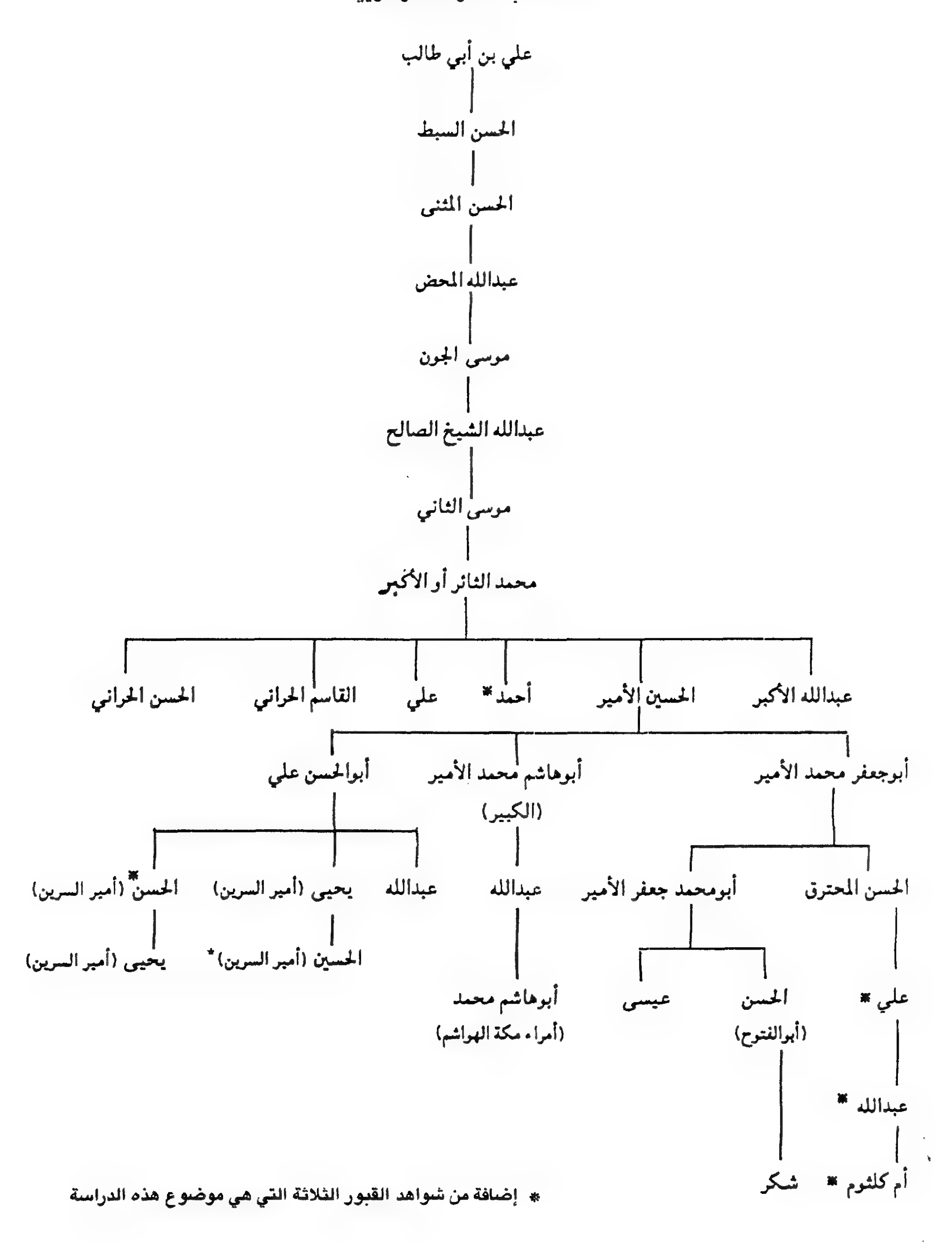
(٤٢) Al - Zaila'i, "The Southern Area of the Amirate of Makkah", pls. 36, 37, nos.63,64,66, 67, 68.

(٤٣) Al - Zaila'i, "The Southern Area of the Amirate of Makkah", pls. 23, 26, 35, 36, nos. 15, 16, 25 - 28, 63 - 66.

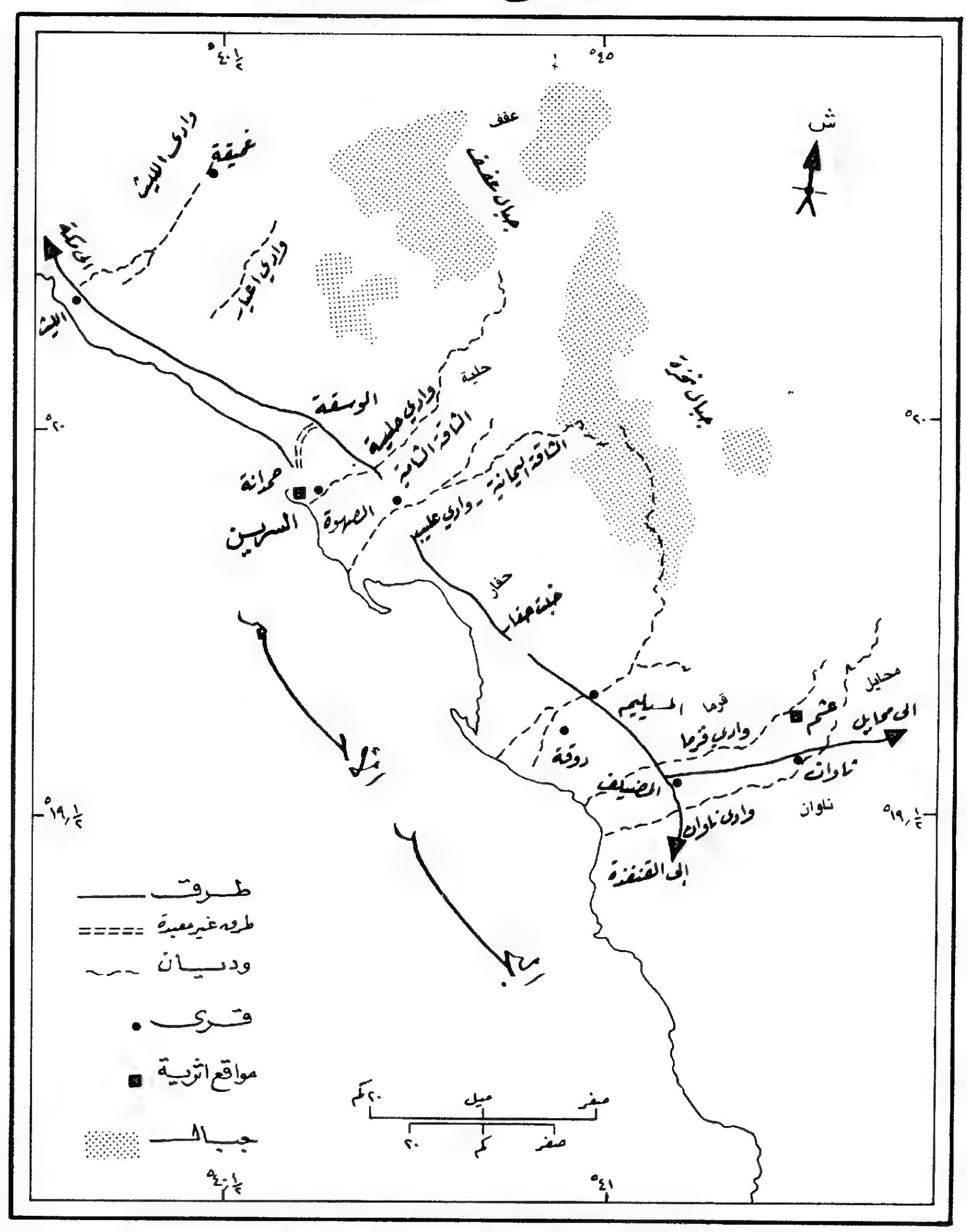
(٤٤) انظر للمقارنة لوحة رقم (٩)، وايضا رقم (٨).

(٤٥) انظر لوحة رقم (١٠).

سلسلة نسب الأشراف الموسويين



موقـــع الســـريـــن

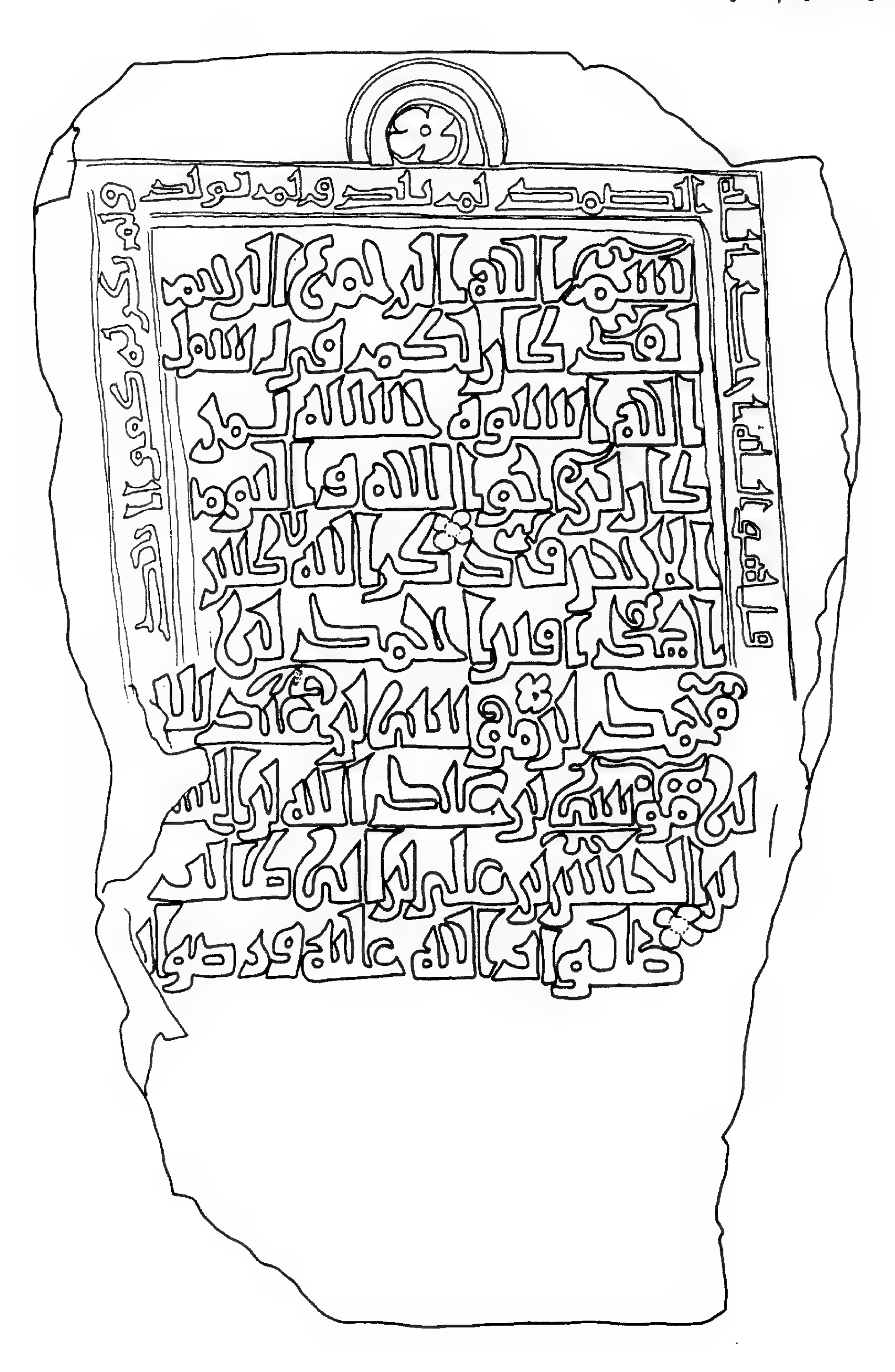


شكل رقم (١) عن بحث نشر للمؤلف نفسه بمجلة العصور ، المجلد الأول، الجزء الأول، يناير ١٩٨٦م/ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ، ص٣٠

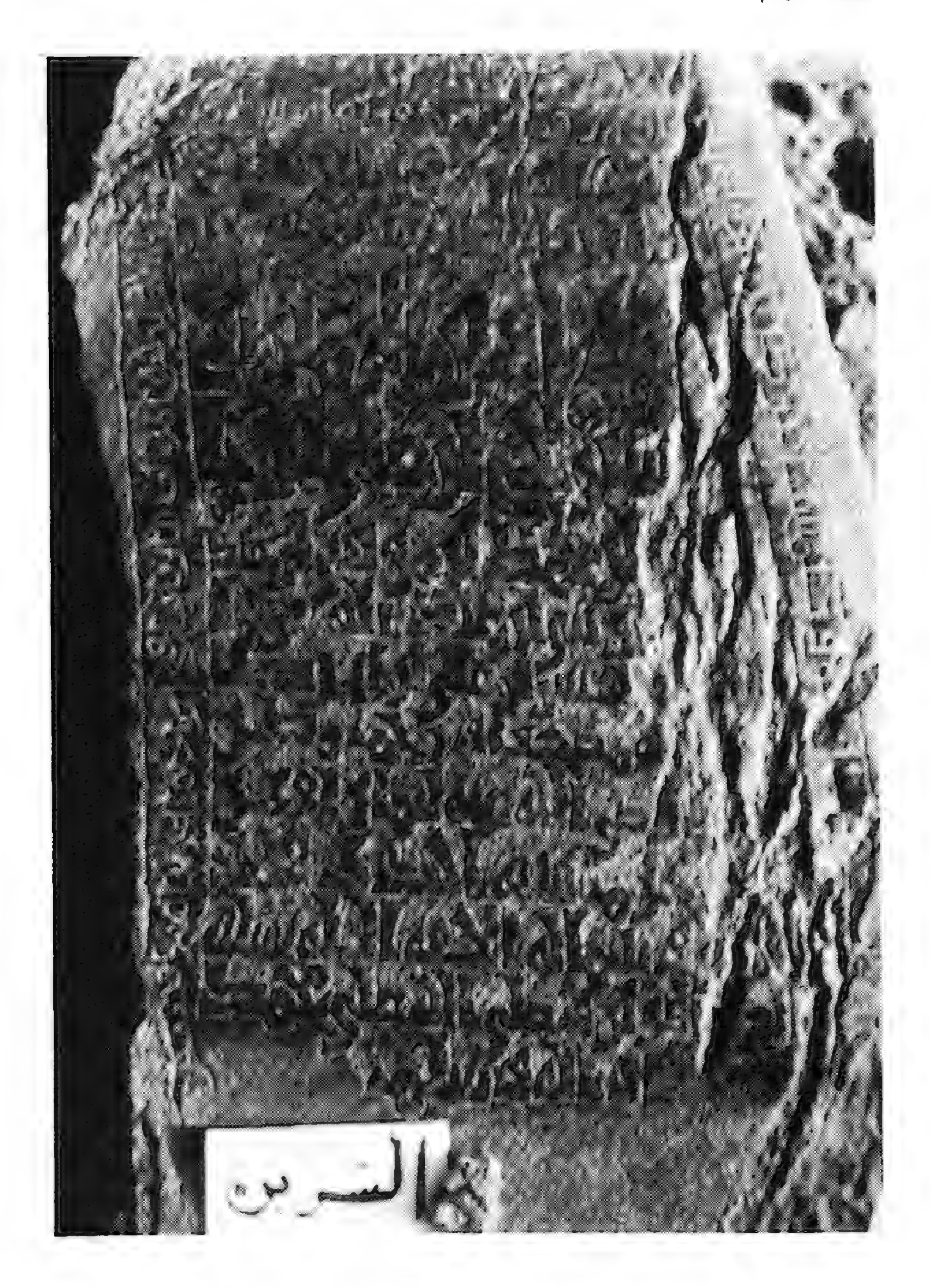
[لوحة رقم ١١]



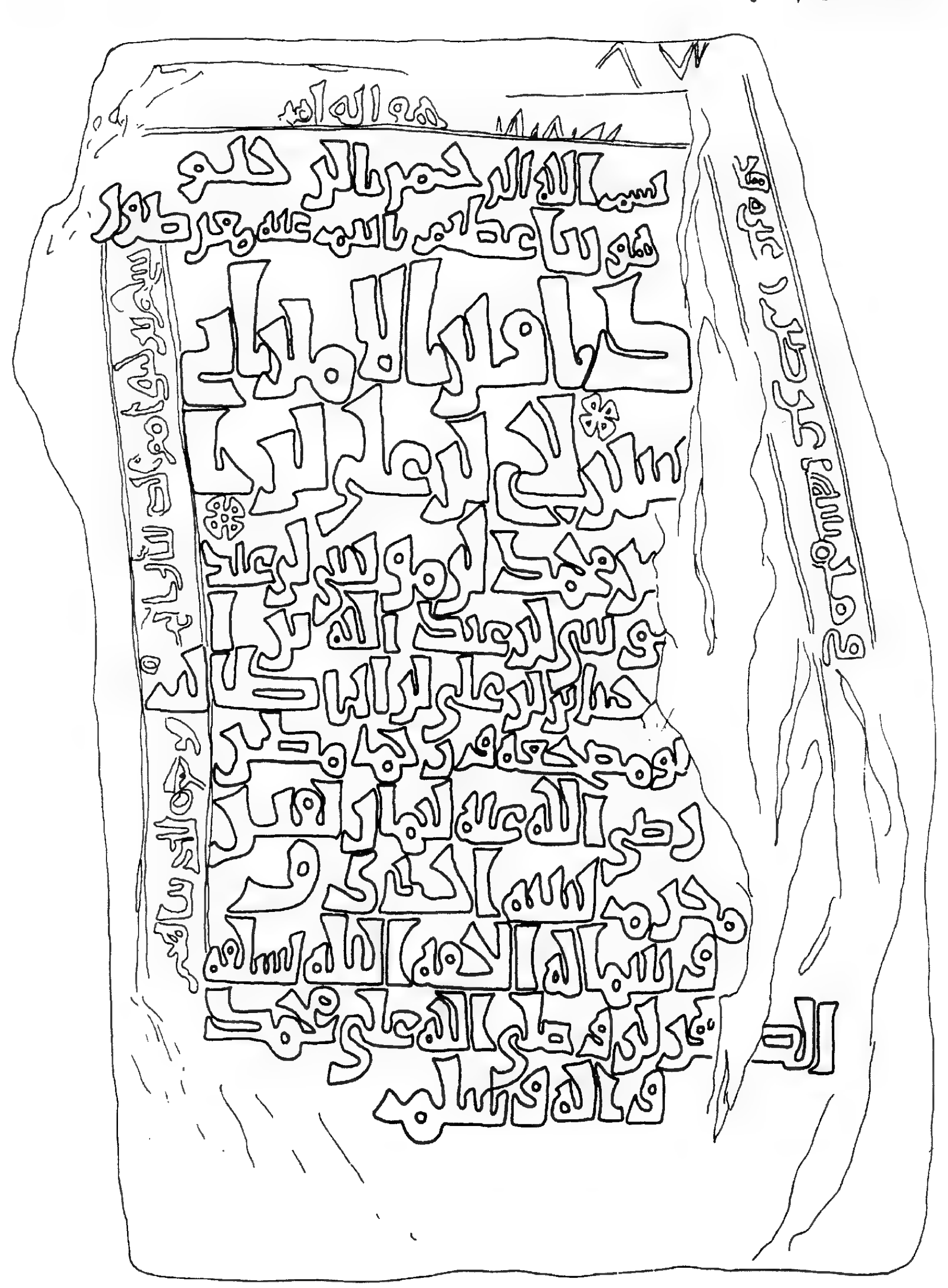
[لوحة رقم ١ب]



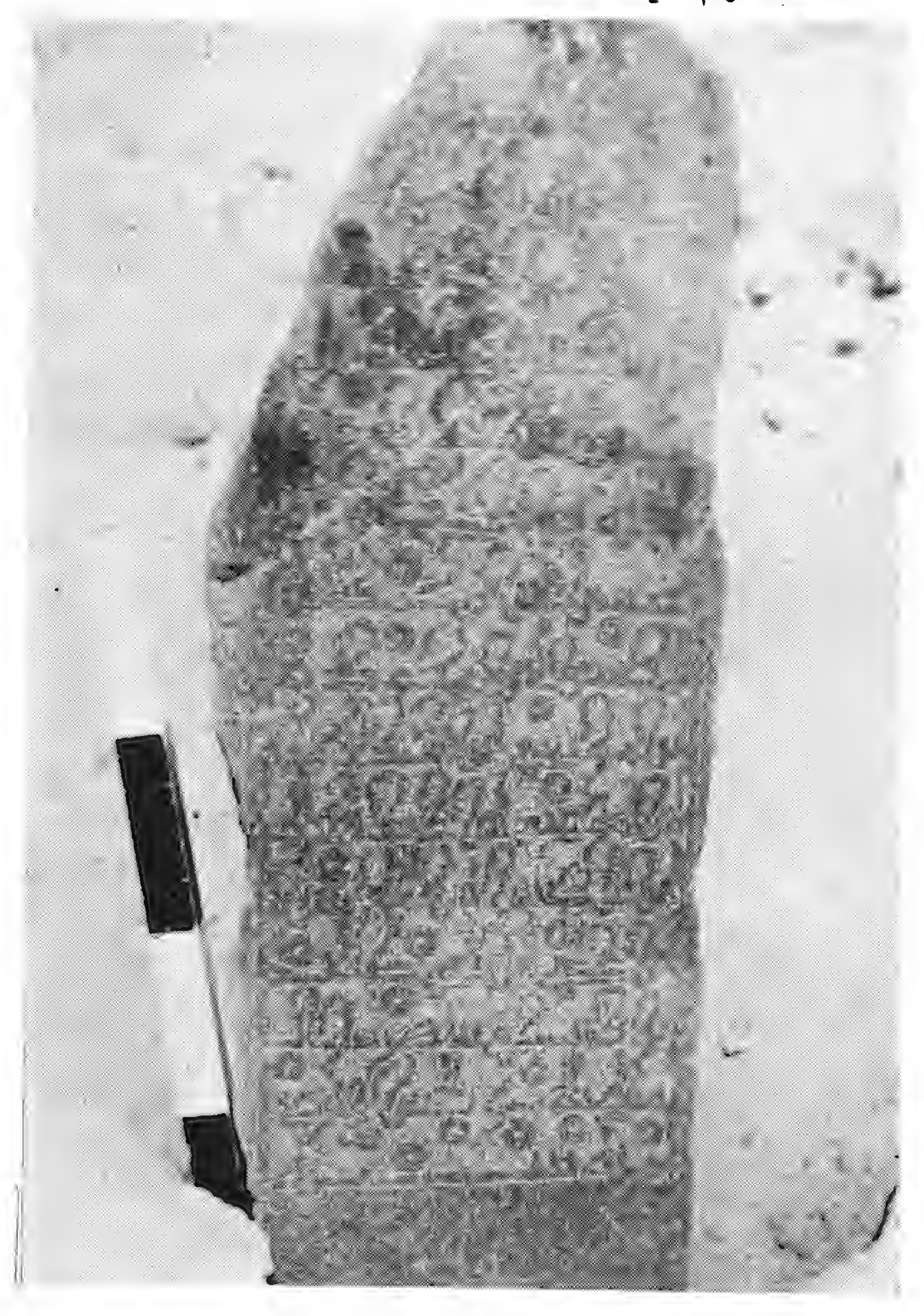
[لوحة رقم ١٢أ]



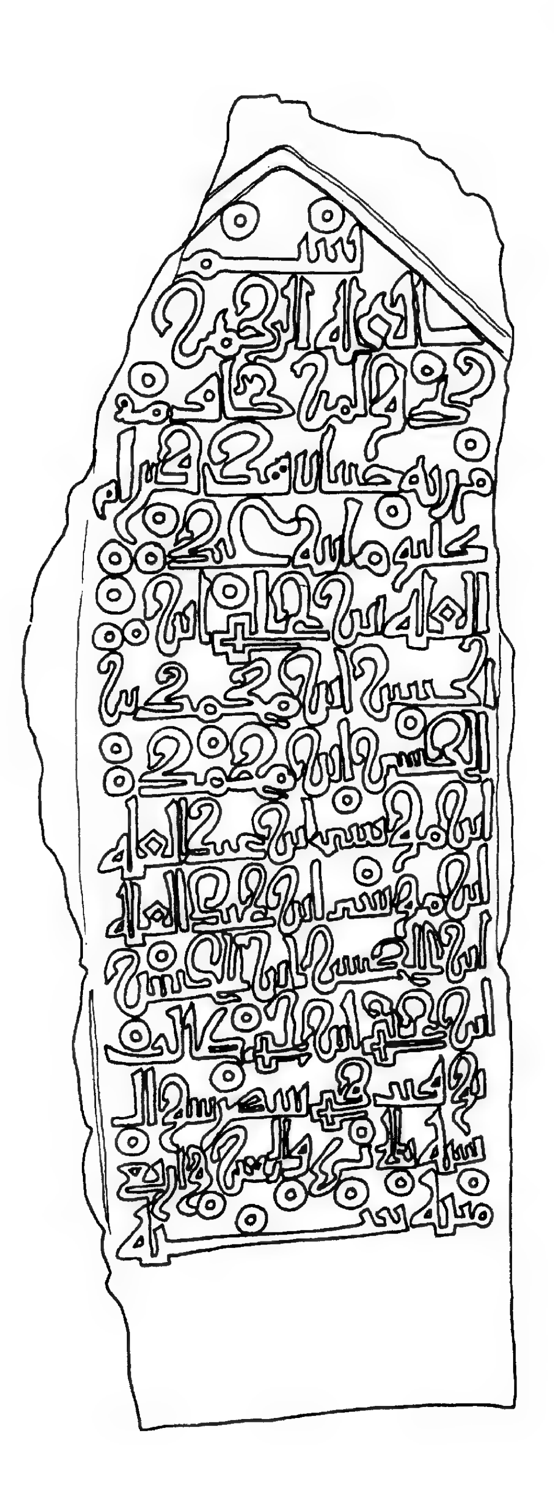
[لوحة رقم ٢ب]



[لوحة رقم ١٣]



[لوحة رقم ٣ب]



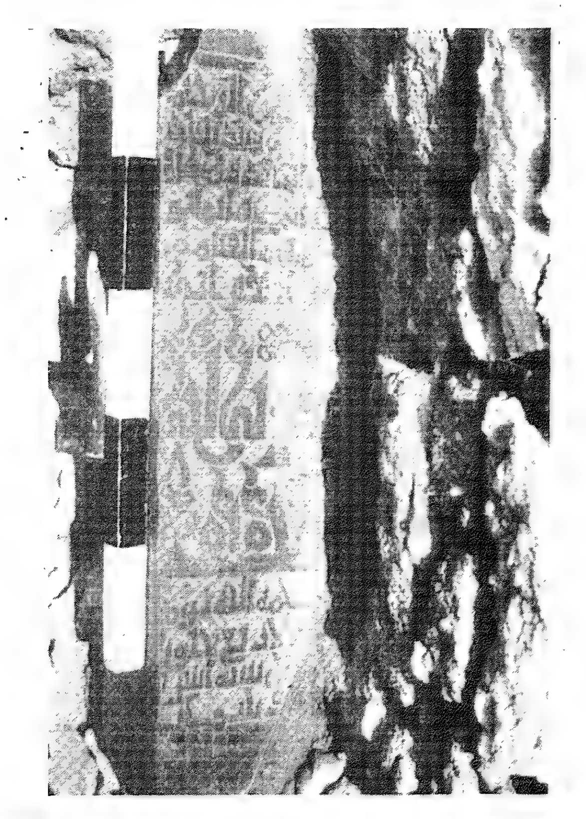
ملاحق للمقارنة

[لوحة رقم ٤ للمقارنة]



[لوحة رقم ٥ للمقارنة]





[لوحة رقم ٦ للمقارنة]



[لوحة رقم ٧ للمقارنة]

[لوحة رقم ٨ للمقارنة]



[لوحة رقم ٩ للمقارنة]



[لوحة رقم ١٠ للمقارنة]

العصور ، المجلد السادس، الجزء الأول، ١٩١ ـ ٢٠٥ (١٩٩١م)

نشأة اللغة العربية الفصحى[١]

بقلم حاييم رابين

ترجمة وتعليق الدكتور عثمان بن صالح الفريح

ملخص البحث : يناقش البحث أصل اللغة العربية الفصحى. فهو يرى فيها لغة الشعر وأنها لغة الأعراب في البادية ويشير إلى ما يرى من أن موطنها هو نجد واليمامة والجزيرة الفراتية، تقابلها كِنْدَةَ من وجهة نظر أخرى لكونها موطن الشاعر إمرىء القيس. ويتطرق البحث إلى لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة، ويرى أن القرآن كان بلغة الشعر ، لغة البادية، مع شيء قليل من لهجة قريش، والتي لا يراها أنها أفصح اللهجات. وفي ذلك، وكما نوه الكاتب نفسه، مخالفة للرأى السائد وسط اللغويين العرب القدامى بأن لهجة قريش كانت أصح اللهجات، ولذا نزل بها القرآن الكريم. ثم تطرق المؤلف إلى العلاقة بين اللغة العربية الفصحى والعربية الجنوبية والشمالية، فقال بضعف صلة اللغة العربية بلسان الجنوب (حِمْيَر)، وجواز صلتها بالعربية الشمالية المعروفة قديما بالثَّمودية واللَّحيانية والصَّفوية والتي قد تؤدي المعرفة بها إلى معرفة الكثير عن العربية الفصحى.

أما المصادر التي اعتمدها المؤلف كمادة لدراسة اللغة العربية، وكما رتبها زمنيا، هي الشعر الجاهلي والقرآن الكريم والسنة، والبرديات والوثائق الراجعة للقرن الأول الهجري.

وربما تساءل القاريء عن الحكمة في ترجمة بحث قديم كهذا البحث، فيه الرأى المعروف للمستشرقين، والكتابيِّين بصفة خاصة، عن القرآن الكريم والسنة المطهرة، والجواب عن ذلك التسـاؤ ل أن هذا البحث على قدمه، حافل بتساؤلات عن اللغة العربية إن لم يقبل الباحث العربي المعاصر إجابات الكاتب وأمثاله لها فإنها تدعوه نفسه للبحث عن إجابات لها. إلى جانب ذلك فإن البحث يلخص الأفكار الرئيسة التي دار حولها الاستشراق في زمن المؤلف وقبله، ومازال يتأثر بها الاستشراق حاليا، كما يشير إلى أهم المؤلفات المعتمد عليها آنذاك والتي قد تهم الباحث العربى الحريص على حصر هذه المَراجع ومتابعتها، أما رأى الكاتب وأمثاله في القرآن الكريم والسنة المطهرة فلم يعد مثل هذا يزعج الباحث المسلم الآن لأنه أصبح مألوفا معروفا والرَّد عليه سهل، كما أنه لابد من عرض آراء المستشرقين، و إن ساءتنا، لحصرها والتصدي لها مجتمعة.

إن مايرجع إلى البحث الحديث من معلوماتنا عن بنـاء اللغة العربية محدود جداً، أما الجزء الغالب فإننـا ندين بالفضـل فيـه إلى العلماء المسلمين في القرون السابقة للزمخشري (١٠٧٥ ـ ١١٤٣م).

وكتاب النحو الذي يستخدم الآن في أوروبا، وهو النحو العربي لرايت (Wright's Arabic Grammar) يعود أصلاً إلى كتاب «النحو العربي» لكسباري Grammatica Arabica (C.P. Caspari) المطبوع سنة

(١) هذه ترجمه لبحث الدكتور حاييم رابين بعنوان:
"The Beginning of Classical Arabic". *Studia Islamica* 3-4 (1955), p p. 19-37

وسوف يوضع لفظ «المترجم» لتعيين تعليقاته على البحث في نهاية كل تعليق، والأقواس المعقوفة هكذا: [ ] للإضافات التي يقتضيها المعنى، توضيحا للنص الانجليزي. ولذا فإنه جعل أرقام الهوامش الأصلية وهوامش التعليقات متسلسلة.

١٨٤٨م. وقد اعتمد فيه الأخير اعتمادا رئيساً على الزمخشري مع بعض التعديلات بناء على ملاحظات فليشر (H.L. Fleischer) وقد عمد رايت في مراجعتين له للكتاب، وبشكل واسع، إلى معطيات اللغويين المسلمين، ومؤلفات الباحثين الأوربيين التي استفادت من تلك المعطيات.

إن مراجعة سميث (R. Smith) ودي خويه (De Goeje) للطبعة الثالثة للكتاب لم تغير في إطاره العام شيئاً، لذا فإننا لا نبالغ إذا قلنا إن الطالب الجامعي، في يومنا هذا، يُقدَّم له من دروس النحو ماكان يقدم للطلاب في المدارس العباسية المتأخرة.

كما أن الدراسات التي قام بها كارل بروكلمان (Brocklemann) [٢] و روكندورف (Reckendorf) [٣] وبلاشير (Blachere) [٤] ابتعدت في أسلوبها عن الأسلوب المعروف في القرون الوسطى، ولكنها لم تفارقه نهائيا. فإذا ما أخذ المرء في الاعتبار الهجر التام الذي هجرت به الدراسات اللغوية المعاصرة للأسلوب التقليدي لدراسة نحو اللغات الأوربية، فانه لا يملك إلا أن يستغرب عندما يجد أن التصنيفات (النحوية) التي قام بها سبويه وخلفاؤه في القرن التاسع الميلادي لا تزال سارية.

ويتضح في الواقع، ومن خلال الفحص العميق، أن نتائج البحث العلمي المكثف المعاصر كان هدفها إظهار بعض الشواذ في القواعد التي كان أرساها النحاة العرب، التي تجمعت حول القواعد التقليدية كما تتجمع الانحرافات حول مُنْحَنَى إحصائي.

وليس ذلك بِعَرَضِي، كما أنه ليس راجعا كليا إلى الدقة والتمكن لدى اللغويين العرب، وإنما هو راجع إلى المكانة المرموقة التي احتلتها دراسة مؤلفات هؤلاء اللغويين في تعليم من كتبوا بالعربية. يضاف إلى ذلك قراءتهم المتكررة للنصوص التي بنى عليها أولئك اللغويون تحليلاتهم: القرآن، والشعر القديم، واللغة العربية، ومنذ العصر الأموي على أقل تقدير، لم تعد لغة المخاطبة، ومثلها كل اللغات الأدبية الخالصة، فإنها محافظة. وفيما أعلمه فإن المكانة التي تحتلها القواعد النحوية المنتظمة في تعلمها لَشَيْءٌ فريد بين اللغات.

وفي علم اللغويات الحديث فإن الموضوع الذي ثار حوله جدل كثير كان الكيفيات النفسية في عقولنا التي تَعْمَلُ بها اللغة الخاصة (Langue)، وهي النظام اللغوي وراء قدراتنا الخطابية الفردية، أو اللغة الإنسانية (Langage) [٥] ومما لا شك فيه أنه فيما يخص اللغة العربية، فإن اللسان Langue يتألف أساسا من مجموعة مترابطة من التقريرات العلمية، التي انطبعت في ذهن العربي منذ صباه. ولقد لاحظ روكندوف[٦] أن ليس من المحتمل إحراز أي تقدم في دراسة تراكيب الجمل في اللغة العربية مادام ذلك لا يقدم إلا مجرد أفكار عادية، ولا يقدم دراسات عن فترات مستقلة أو عن مؤلفين، والحقيقة أن الأفكار العادية تلك متطابقة مع النظام الذي يتبعه اللغويون، في حين أن الدراسات المفصلة تقدم أنظمة تشمله إلى حد بعيد، إلا أن مجموعة من الانحرافات قد تعطي، في الحقيقة، بناء مختلفاً اختلافا بيِّنا. وعلى العموم، فإذا بقي اللسان (Langue) كما هو، على طول المدى بحيث لا يسمح لأي انحراف من ذلك القبيل كي يصبح جزءا منه فإن معالجة تطورية تاريخية تبدو مستحيلة. ومن جهة أخرى، فإن الألفاظ والأساليب التي درسها اللغويون دراسة مستفيضة، لم يثبتوها بنفس الجمود الذي حصل بالنسبة للنحو. ولذلك يلاحظ فيها تطور مستمر، وأن المرء ليأمل أن تؤدي الأسس الراسخة التي أرساها يوهان فوك (Fück) في كتابه «العربية»[٧] إلى تطور سريع في البحث في هذا المجال.

---

(٢) *Grundriss der Vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen*, II.1908.

(٣) *Die syntaktischen Verhältnisse des Arabischen*, 1895 - 8: *Arabische Syntax*, 1921.

(٤) M. Gaudefroy - Demombynes and R. Blachère. *Grammaire de*

(٥) المقصود من الاصطلاح Langage هو الوسيلة التي يعبر بها الإنسان عن نفسه، بأصوات مسموعة مصطلح عليها أو برموز ترسم مصطلح على دلالاتها المعنوية أيضا، أي التعبير عن النفس مخاطبة أو كتابة. «المترجم».

(٦) *L'arabe classique*, 1937.

(٧) *Arabische Syntax*, p. iii

وفيما يختص بالتراكيب، فإنه لا أمل للبحث العلمي في الوصول إلى نتائج مستقلة عما كان قد توصل إليه اللغويون العرب إلا في تناوله لفترة من فترات اللغة (العربية) قبل أن يصبح تأثيرهم مسيطرا، وهي فترة، بطبيعة الحال، ذات أهمية خاصة لكونها مرحلة التكوين للغة الأدبية. ويبدو من الوهلة الأولى أن تلك مهمة يمكن القيام بها، حيث إنه بين أيدينا تراث أدبي من تلك الفترة (من القرن السادس حتى الثامن الميلادي) شامل بالقدر الذي يسمح لنا بفحص كل وجه من وجوه اللغة. وعلى أية حال فحالما ننظر بدراية في تلك المصادر فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو : ما الذي نفحصه نحن ؟.

وتقع المادة المشار اليها في أربع مجموعات:

١ ـ الشعر الجاهلي، وشعر صدر الإسلام، أما بالنسبة للشعر الجاهلي فقد أثيرت حول صحته الشكوك، وإنا وإن جاز لنا اعتبار كل مجموع الشعر الجاهلي صحيحا، فيجب ألا يغيب عنا احتمال أن يكون بيت واحد ما، أو قصيدة ما، مما نَحَلَهُ المتأخرون. وقد نقَّح المحققون كلا من الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام وذلك مايراه المرء لا في الروايات المتعددة فحسب وإنما في الحالات غير القليلة التي تكون فيها أبيات ما قد استشهد بها النحويون لبعض الشواذ اللغوية، وعند مراجعتنا لديوان الشاعر المعني نجد نفس البيت معدلا فيه تعديلا طفيفا يزيل ذلك الشذوذ اللغوي[8] وعلى الرغم من كل ذلك فلدينا هنا مصدر من المرتبة الأولى لدراسة لغة ما قبل الإسلام.

٢ ـ القرآن : وهنا أيضا فإن الاختلافات في الرواية عديدة، ومما لا يؤثر على النحو ، وأن هناك قدرا معلوما من التنقيح فيه [9] على أيدي اللغويين مسلما به، نحو إدخال الهمزة في خط يمثل نطقا لا يهمز.[10] ومن جهة أخرى فإن الاختلافات في رواية المفردات لم تشمل إلا جوانب محددة، ذلك لأن هياكل المفردات المكونة من الصوامت قد صينت بشدة من التبديل منذ اعتماد[11] النسخة العثمانية في حوالي ٦٥٠ميلادية.[12]

٣ ـ الحديث [الشريف] : لقد استخدم روكندورف الحديث استخداما واسعا مصدرا لدراسة التراكيب النحوية، وكذلك فعل بلوخ مثله مؤخرا[13]، والذي استشهد بشواهد جلها من هذه الطائفة لتمثل النثر مقابلا للشعر . وهنا [تأتي] مسألة صحة [الأحاديث]، والتي كان جولدزيهر أول من أثارها، فالإجابة المقبولة

(٨) نعم هذا حدث، ويحدث الآن في الشعر النبطي (الشعر العامي في أواسط الجزيرة العربية) وريث الشعر الجاهلي· أنظر خالد الفرج، **ديوان النبط** (دمشق: مطبعة التَّرقي، ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م)، الجزء الأول، ولكنه في الحالتين تغيير محدود. «المترجم».

(٩) (التعبير الانجليزي هو working - over ، وتعني «الدراسة المكثفة بالمراجعة والتنقيح» وهو مالم يحدث إطلاقا، إذ لو تم ذلك فهو تبديل في القرآن، إنما الذي حدث هو ضبط الرواية. «المترجم».

(١٠) ذلك راجع إلى لهجة الحجاز التي تسهل الهمز ، ولغة تميم التي تهمز ، وانتصر الهمز ، يقول عيسى بن عمر : لا آخذ من لغة تميم إلا الهمز ، وقصة الخارجي حينما خطب على منبر الرسول صلى الله عليه وسلم وهمز حسب لغته فأنكر عليه أهل المدينة ذلك. والمسألة خيار في هذه الظاهرة الصوتية، أنظر ابن خالويه، **الحجة في القراءات السبع**، تحقيق عبد العال مكرم، ط٢ (بيوت والقاهرة: دار الشروق، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م)، ص ٦٩، ٧٠، ٨١، ١٥٩. «المترجم».

(١١) الترجمة الحرفية لهذا التعبير هو «التنقيح العثماني» "Othmanic revision" لكن النص الانجليزي الأصلي يحمل في طياته إيحاءً بمراجعة للقرآن الكريم تتشابه والمراجعات التي تمت لكتابي العهد القديم والعهد الجديد لدى اليهود والنصارى. وبما أن ماتم في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه كان تدوينا وليس تنقيحا لنسخة سابقة فقد استخدمنا التعبير السليم أعلاه وهو «اعتماد»، مع هذا التنويه. «المترجم».

(١٢) وبعد فترة من ضبط الصوامت ضبطت الصوائت، حيث قام بهذه المهمة نصر بن عصام ويحي بن عمر تلميذا الصحابي أبي الأسود الدؤلي ثم قام الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) بتغيير تشكيلهما، ولكن لم يشكل بتشكيلة القرآن، وسمي تشكيله (تشكيل الشعر) ثم شكل به القرآن بعد ذلك (انظر : الداني، **المحكم في نقط المصاحب**)؛ وأحمد الهاشمي، **المفرد العلم** (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ص ص ٦ ـ ٧. «المترجم».

(١٣) *Vers und Sprache im Altarabischen* (Basle. 1946) (= *Acta Tropica Suppl.5*).

لدى عامة الباحثين هي النفي.[١٤] فبالرغم من الافتـراضات الحالية، والتي تُرجِعُ كثيرا من هذه الأحاديث إلى أول القرن الثاني الهجري، أي قبـل تطور الدراسـات اللغـويـة، فإن الدراسات التـي قـام بهـا ج.ل. بـولارد (J.L. Pollard) طالب الدراسات العليا في أكسفورد ـ والذي كان موتـه المبكـر خسـارة كبـرى لدراسـاتنـا ـ قد أثبتت أن الأحـاديث كمـا وصلتنا عند البخاري ومسلم. قد بُدِّلت كثيرا بإدخال عناصر حوشية ولهجية فيها، بعضها مأخوذ من الشعر، ولا تزال تخلو منها الصيغ القديمة لهذه الأحاديث.[١٥]

٤ ـــ عدد محدود من البرديات والوثائق التي تعود إلى القـرن الأول والتي تضمنتهـا المـؤلفات التـاريخيـة، وتضم هذه الفئـة الرسـائـل والمعاهدات التي قيل إن كتاب [الرسول صلى الله عليـه وسـلم] قد استعملوهـا،[١٦] وإذا ماكـانت صحيحـة فستغدو برهانا قيما جدا للغة المستخدمة وقت نزول القرآن.

ويتفق العلمـاء المسلمـون من القـرون الوسطى حول نقطتين:

- أن اللغة التي نظمت فيها القصائد مطابقة للغة التي كان يتخـاطب بها البدو في وسط الجزيرة العربية وشرقها.
- أن لغة القرآن كانت هي اللغة التي تحدث بها محمد [صلى الله عليه وسلم]، أي لهجة قريش.

وحيث إنهم يتمسكون بأن لغة القرآن هي نفسها لغـة تلك القصائد إلى قدر كبير، وإنها تمثّل اللغة العـربيـة في أعـلى درجـاتها ونقائها وصفائها، فقد استنتـج البعض أن لهجـة قريش كانت هي أصح لهجـات اللغة العربية[١٧] وفي الوقت نفسه لم يغفل اللغـويـون عن حقيقة الفوارق المهمة الموجودة بين اللهجـات المختلفـة، بل على العكس من ذلك فإنهم اجتهدوا جدا في جمعها، وبقدر يسمح ببناء جزئي للهجات.[١٨]

وفي عصرنـا الحـديث فإن هنـاك شعـورا بأن التقـريرين السابقين متنافران، أحدهما مع الآخر، وإن لم يكن ذلك هو الشعـور السـائـد وسـط كل الباحثين ففي بعض الحالات يقبل أحد التقريرين على علاته ويرفض الآخر. فقد استنتج طه حسين[١٩] من قبوله هُوُيَّتَيْ اللغة العربية الفصحى ولهجة قريش أن كل الشعـر الجاهلي، فيما عدا الشعر المنسوب إلى

---

(١٤) أنظر بصفة خاصة J. Schacht. *Origins of Muhammadan jurisprudence*, (Oxford, 1950).

(١٥) هنا لابد من التساؤل حول المقصود بالأحاديث التي ترجع إلى بداية القرن الثاني الهجري. أي أحاديث يقصد، الصحيحة أم الموضوعة؟ فالصحيحة لا ترجع إلى ذلك التاريخ، بل قبله، وهي محفوظة منقولة بالرواية المعتمدة التي أخضعت للجرح والتعديل كما هو معروف، ولا شك في صحتها. أما إذا قصد تاريخ تدوينها، فهذا وإن تأخر فهو ليس بتأريخها الأصلي الذي قيلت فيه، والذي هو زمن الرسول صلى الله عليه وسلم. لذا فإن في القول المشار إليه أعلاه خلط بين الصحيح والموضوع، وبين زمني القول والتدوين.

أما فيما نسب للباحث بولارد فإن فيه خطورة كبيرة، بطعنه في صحة الأحاديث في البخاري ومسلم، ذلك لأنه يوحي بأن تغييرا معتمدا في متونها تم زيفا، بإدخال تعابير والفاظ قديمة من غير لغة العصر التي دونت بها حتى تتصف بصفات عصر الرسول صلى الله عليه وسلم السابقة للتدوين. وهذا طعن في صحة الأحاديث سنداً ومتناً، وفي علمائها. بينما المعلوم أن ما أخضعت له السنة من جرح وتعديل لرواتها لم يكن له مثيل في أي علم من العلوم في تاريخ البشرية. «المترجم».

(١٦) جمعها محمد حميد الله M. Hamidullah. *Documents sur la diplomatie musulmane*, etc (Paris, 1934).

اضافة الى هامش (١٦):

المترجم. والمرجع معروف في العربية بعنوان: **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة** (القاهرة: لجنة التأليف والنشر، ١٩٥٦م).

(١٧) راجع رابين C.. Rabin, *Ancient West - Arabian*, (London, 1951), pp. 21-30

إن الأساس النظري لهذا الرأى، والمذكور بأنه راجع في أصله لابن فارس، **المرجع نفسه**، ص ٢٢. فالظاهر في واقع الأمر أنه راجع للفراء. راجع كاله

P. Kahle, *JNES* 8 (1949), 70 col. 1

(١٨) وعلـى سبيل المثـال فـان دورم (P. Dhorme) فـي *Langues et écritures sémitiques*, 1930, p. 53 وغـراى (L.H. Gray) *Introducion to semitic Comparative Linguistics*, 1934, p. 5. يقبلان قبولا مطلقا مطابقة العربية الفصحى للهجة مكة. بل ان فوك في (Fück) Arabiyya, pp. 2-3 غامض نوعا ما في هذه النقطة، بالرغم من أنـه مقـر بأن لهجة مكة ربما اختلفت عن اللهجات البدوية. اختلاف هذه اللهجات فيما بينها.

(١٩) **الأدب الجاهلي**، القاهرة، ١٩٢٧م

الحجازيين هو شعر منحول،[٢٠] ومن جهة أخرى فإن ك. فولرز[٢١] قد قبل الرأي [القائل] بأن بدو نجد واليمامة تكلموا نَمَطاً من اللغة العربية الفصحى، واستنتج ألا يكون القرآن صِيغَ بهذه اللغة، وإنما جعل موائما لها بقدر واسع من التهذيب. أما هيئته الأصلية [للقرآن] فقد شاء فولرز أن يراها في القراءات الشاذة التي تعطي صورة خليطا للسان شعبي منتم من حيث بنائه إلى اللهجات الدارجة، وليس إلى القديمة منها، وكان قد استغنى من علامات الإعراب.[٢٢]

ومن المدهش أن كلا من فولرز وطه حسين قد ضمنا في تقريرهما عن المسألة فصولا مطولة عن اللهجات العربية القديمة في جزيرة العرب، وذلك لأن علاقة اللغة العربية الفصحى باللهجات هي التي ستعطي حل المسألة.

وإني اعتقد أن فتتشتاين هو أول من زعم أن اللغة العربية الفصحى لم تكن لغة الشعراء الذين استخدموها في أشعارهم. وقد قبل وجهة النظر هذه كل من ناقش القضية على الإطلاق من الكتّاب الأوربيين المعاصرين، سواء من اعتقد اعتقاد فتتشتاين، بأن اللغة العربية الفصحى تختلف عن اللهجات القديمة، أو من رأى أنها مبنية على واحدة أو أكثر من اللهجات الحقيقية.[٢٣]

ولقد أصبح من المألوف هذه الأيام أن يطلق على هذه اللغة «اللغة الشعرية» المستعملة في التداول الرسمي (Poetic *Koinē*) وهو مصطلح غير مريح كلية، ذلك لأن لغة الشعر *(Koinē)* اليونانية، في واقع الأمر، كانت لغة مخاطبة بينما اللغة العربية الفصحى، من

(٢٠) قارن هذا بما قاله ص ١٤ حيث رجح أن شرق وأوسط الجزيرة هو المكان الأصلي للغة الأدبية حيث الحيرة، ونرى كثيراً من الباحثين يرون الشعر في قريش أتاهم من الشرق، ومنهم د. عبد الله الطيب، **المرشد إلى فهم أشعار العرب**، ط٢ (بيروت، ١٩٧٠م)، ص ص ٧٥١، ٧٥٥ ـ ٧٥٧.

إلا إذا كان يعتقد أن اللغة الأدبية كما في تقعيدها عند النحاة قد بنيت على شعر منحول تمت صاغته في نجد واليمامة والجزيرة الفراتية. فإذا كان يعتقد ذلك فلماذا لم تبن اللغة الأدبية في تقعيدها على شعر قريش، الذي اعترف هو أنه خالص من الانتحال. وفي كلا الحالين، لم يسلم من التناقض. «المترجم».

(٢١) *Volkssprache und Schriftsprache im alten Arabien*. 1906.

(٢٢) لابد من الوقوف الفاحص في هذه الفقرة لأنها تمثل رأيا أساسا للمستشرقين، وبخاصة من نهاية القرن الماضي والنصف الأول من هذا القرن وهو مرفوض عندنا. وبالفقرة نقاط تستحق الرد بما هي أهل له ففي رأي فولرز فإن القرآن هو ما يأتي:

أ) أن القرارات الشاذة فيه هي الأصل، وأن القراءات الرئيسة المعتمدة هي المنقحة.

ب) أن القرآن نقح تنقيحا كبيرا حتى خرج من اللسان الشعبي المذكور الى الشكل من العربية الفصحى الذي كان يتكلمه أهل نجد واليمامة.

وفي ذلك طعن في صحة القرآن الكريم، لغة وسندا، وعليه يكون ما بأيدينا ليس كلام الله كما أوحاه وإنما كلاماً مصنوعاً خضع للتنقيح في فترة متأخرة عن زمن الرسول صلى الله عليه وسلم.

جـ) من العبارات الانجليزية المستخدمة ما لا يُقْبَلُ، نحو أولا: وصفه القرآن بأنه Conceived ، وهي مناقضة في معناها لكلمة Revealed «أُوحِيَ». واللفظة الأولى تعني الوصول إلى شيء ما بالاجتهاد الشخصي والتفكير والمهارة، على ضوئها يصبح القرآن صنعة لا وحيا وهو قول يضاهي قولا آخرا يرد فيما بعد (انظر التعليق (٣٥)، وغيره مما هو مشار إليه هناك. ثانيا، القول بأن القرآن:

"was made to conform with it by an extensive process of revision."

يدعي بأن القرآن خضع لتهذيب كبير جداً حتى أصبح موائما للغة نجد واليمامة وهو قول مرفوض لمخالفته الحقيقة. ومتأثر في منبعه للمألوف في تاريخ العهد الجديد، كتاب النصارى، الذي خضع لتنقيحات وصياغات جديدة خلال العصور، بما في ذلك قرننا هذا، وقبيل سنوات (وانظر التعليق (٣٥) أيضا. فالقرآن فوق قدرات البشر، ولم تدخله يد التهذيب والتنقيح لعدم حاجته لذلك، كما وأنه كلام الله بلفظه المحفوظ.

د) نسبة فولرز القرآن إلى لسان خال من الإعراب يتفق مع قول غريب سيرد فيما بعد، مفاده أن القرآن لم ينزل معربا، وإنما ادخل فيه الإعراب فيما بعد. وسنعلق على القولين معاً هناك (انظر التعليق (٣٩)، «المترجم».

(٢٣) هناك مجموعة من الآراء في رابين (Rabin)، ص ١٧. ومن المثير حقا رأى لكاسكل (W. Caskel) بأن العربية (Arabiyya) نبعت وسط الشعوب المستقرة في شمال غرب الجزيرة العربية ونقلت منها الى وسطها كوجه من وجوه التبني (*ZDMG* 103 (1953). p.34) والمترجمة في *Studies in Isl. Cultural History*, *Amer. Anthrop. Society* Memoir No 76. April 1954. p.43.

هذه الناحية، تشبه اللغة اليونانية الهومرية.[٢٤] وقد ناقش بلاشير بتفصيل في كتابه «تاريخ أدب العرب»[٢٥] هذه اللغة، وأورد أمثلة عديدة من مثل تلك اللغات الشعرية المنفصلة في مجتمعات أخرى.[٢٦]

وكان فلايش (Henri Fleisch) [٢٧] وبلاشير (R. Blachere) [٢٨] ورابين (Ch. Rabin) [٢٩] في الأربعينات، قد توصلوا، كل بمفرده فيما يبدو، إلى النتيجة القائلة بأن لغة القرآن أبعد من أن تكون مكيَّة خالصة[٣٠] نقِّحت فيما بعد (فولرز Vollers)، أو عُدِّلت تعديلا طفيفا لتوائم أسلوب الشعر[٣١] وأنها لم تكن سوى لغة الشعر (Poetic *Koinē*) [٣٢]، أما مخالفاتها للغة الشعر فقد فُسِّرت على أنها سقطات غير واعية في لهجة مكة(وأنظر التعليق ٣٥ النقطة أ) وبعض هذه [المخالفات / السقطات] يمكن تفسيرها، وكما فعل فوك (Fück) [٣٣] بالجدة والصعوبة في أفكاره [أي : القرآن] وإلى كونه في حقيقة الأمر ربما المحاولة الأولى لكتابة نثر عربي . وفي واقع الأمر ، فإن السمة الأخيرة هذه كان قد عرضها هـ. بيركلاند (H. Birkeland) [٣٤] بوضوح تام، وبأشباه مقابلة لها من تاريخ اللغة العبرية، وهو، وإن كانت مناقشاته [للموضوع] لا تمس موضوع التعبير ، لكنها تؤيد النظرية المطروحة أعلاه[٣٥]. وكاتجاه معاكس، في الوقت نفسه، اندفع كاله (Kahle) [٣٦] إلى إحياء نظرية فولرز (Vollers) . وقد قال نولدكه (Noeldeke) [٣٧] أنه إذا كان الرسول [صلى الله عليه وسلم] وأصحابه قد قرأوا القرآن من دون إعراب، فإن ذلك

---

(٢٤) إن في هذا إضعاف لحيوية اللغة العربية الفصحى، يجعلها شيئا ميتا غير حي لا يستخدم إلا في الشعر . والسؤال كيف يبرر رواج الشعر والشعراء في الجاهلية وصدر الإسلام إن لم يكن الخاصة والعامة يفهمون أشعارهم لكونها بلغتهم الحية التي يفهمونها. إن الدور المعروف للشعراء في المجتمعات العربية قبل الإسلام وبعده ينفي هذا الوصف تماما. «المترجم».

(٢٥) Vol. 1. Paris, 1952. pp. 66 - 82.

(٢٦) **المرجع نفسه**، ص ص ٨٠ ـ ٨١.

(٢٧) *Introduction á l'étude des langues semitiques* (Paris, 1947), pp.97 - 101.

(٢٨) *Introduction au Coran* (Paris, 1947), pp.156 - 69.

(٢٩) **المرجع نفسه**، ص ص ٣ ـ ٤ (كانت المخطوطة قد ارسلت الى الناشر في ١٩٤٧م).

(٣٠) هذا قد قال به الكثير من العلماء المسلمين منذ القرن الأول عند البحث في حديث (أُنزلَ القُرآنُ على سَبَعةِ احرُف) اما لغة القرآن ليست لهجة قريش وحدها، فهذا شيء يوافق عليه أكثر الدارسين العرب قديمهم وحديثهم، انظر : أحمد علم الدين الجندي، **اللهجات العربية في التراث** (ليبيا وتونس : الدار العربية للكتاب، ١٣٩٨هـ)، ص ٧١٣. أما كونه قد أخضع باكراً، أو لاحقاً، فهو كلام يناقض ما رجحه ص٣ من أن المصحف العثماني قد صينت صوامته من التحريف، ومعروف أن مصحف عثمان جمع من غير تشكيل سنة ٣٠هـ ـ راجع: ابن الجَزَري، **النشر في القراءات العشر** (مصر : مطبعة البابلي، د.ت)، ١/٧؛ والرافعي، **تاريخ آداب العرب**، ط٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٤هـ)، ص ٢/٣٢ وما بعدها. ثم شكل بعد فترة يسيرة من تدوينه لا تمثل شيئا في عمر اللغات (أنظر التعليق (١٢).«المترجم».

(٣١) وكذلك بروكلمان، *Grundriss*, I, 1908, p. 25.

(٣٢) وهو رأى بروكلمان في ١٩٤٧م، حسبما جاء في هامش لفلايش، **المرجع نفسه** ص ١٠٠.

(٣٣) **المرجع نفسه** ص ٣.

(٣٤) ولكن أنظر ما يأتي بعد ذلك *Sprak og religion hos jader og Arabere* (Oslo, 1949), pp. 35-41.

(٣٥) الموضوع الذي يستحق التعليق هنا، ليس إن كان القرآن بلغة قريش أم لا، أو كانت لغته مكيَّة خالصة أم لا، وإنما في جعل القرآن مؤلفا واعتباره محاولة لكتابة نثر عربي. وذلك واضح في:

أ) اتفاق الثلاثة، مستقلين، في الأربعينات بأن القرآن بلغة الشعر ، وأن به مخالفات للغة الشعر في بعض المواقع تفسر لدى البعض بسقوطه سقوطا غير واعٍ أو مقصود (Unconscious backsliding) في لغة مكة. معنى هذا الكلام نسبة القرآن الكريم إلى قائل متأثر بلغة مكة، قاله بلغة الشعر ، وهي ليست لغة مكة، ولكنه لتأثره بلغة مكة سقط فيها سقطات غير واعية أو مقصودة، خارجا بذلك عن لغة الشعر .

ب) جواز كون القرآن أول محاولة لكتابة نثر عربي.

والقرآن ليس بكلام البشر ، ولم ينزل بلغة لا يفهمها العرب، خاصة بالصفوة وإنما بلسانٍ عَرَبيٍّ مُبِيْنٍ وَاضِحٍ لا يفسر كما فسر في موضع آت (أنظر التعليق (٤٨). يفهمه كل العرب باختلاف لهجاتهم. ثم هو ليس بنثر ، لا كمحاولة أولى ولا ثانية كما أنه ليس بشعر . وقد وصف بهذا الوصف (أنه لا بشعر ولا بنثر) منذ نزوله. وهنا، كما سبق، فإن تأثير الدراسات العبرية اللغوية والدينية والنصرانية واضح فيما صدر من احكام على القرآن، يسير يَداً بيدٍ مع ماجاء في فقرة سابقة (أنظر التعليق (٢٢)، من محاولة لتطبيق التجارب اللغوية العبرية والدينية اليهودية والنصرانية على لغة القرآن. «المترجم».

(٣٦) *The Cairo Geniza* (London, 1947), pp. 78 - 84; *Goldziher Memorial* Volume, 1, Budapest, 1948, pp. 163 - 82; *JNES* 8 (1949), 65 - 71.

(٣٧) Neue Beiträge zur sem. Sprachwissenschaft, 1910, p. 2.

التقليد لم يكن ليزول بلا أثر. وقد ادعى كاله أن انطباع نولدكه هذا يرجع الى جهله بمصادر قديمة معينة. وقد أورد أحاديث عديدة كثيرة من كتب التجويد المؤلفة سنة ٤٠٠هـ (٣٨) تقريبا، كثير منها [الأحاديث] معروف من مجاميع سابقة، تحث الناس على قراءة القرآن بإعراب، كما أورد عبارات من أقوال الفراء النحوي الكوفي المتوفي سنة ٢٠٧هـ في المعنى نفسه. ومن ثم فقد توصل كاله إلى نتيجة صائبة تمام الصواب، وهي أن القرآن في القرن الثاني الهجري لم يكن يقرأ بإعراب دائما. لكنه ليس من السهل مسايرته في استنتاجه الآخر القائل؛ بأن ذلك يثبت بأن القرآن كان يقرأ على هذا النحو منذ البداية وأن الإعراب كان قد أدخله [فيه] القراء الذين كانوا قد درسوا العربية الفصحى في الشعر ومن اتصالهم بالقبائل البدوية.(٣٩)

إن مقصد الأحاديث النبوية المشار إليها والتي تعد بالثواب الألهي لقراءة القرآن بإعراب تام أو جزئي(٤٠)، تُظهرُ بوضوح، أن المقصود هو تلاوة غير المتعلمين، وليس القراء المتدربين. ويقابل الإعراب اللحن، ومن ثم فإنه يمكن أن نستنتج أن الحض [على القراءة بإعراب تام أو جزئي] لا يسير بالضرورة إلى الحذف التام لحركات الإعراب وإنما إلى الخطأ فيه. ولدينا روايات عديدة تثبت أنه حتى سادة العرب كانوا يخطئون كثيرا في هذه الناحية، وأن الخشية من [الوقوع في] معاني فيها كفر نتيجة الخطأ في حركات الإعراب الى جانب حلاوة التلاوة كانا سببا في الحرص على قراءة القرآن بإعراب.

وفي الواقع فإنه لا يهم كثيرا، أن تكون هذه الأحاديث راجعة حقا إلى عصر الرسول [صلى الله عليه وسلم] ولم توضع في القرن الثاني الهجري، إذ أنه لا بد أن يكون من بين أصحاب الرسول [صلى الله عليه وسلم] من كان من بيئات لغوية مختلفة أدت بهم إلى اللحن.

ولعله من المحتّمل أيضا أن تكون عادة القراءة بلا إعراب عادة قديمة. وكما هو معلوم، فإن الإعراب مهمل في التهجي العربي حيث تكتب جميع الكلمات وكأنها قد جاءت في موضع ابتداء أو وقف في بداية الجمل أو أواخرها(٤١)، ويرجع ذلك إلى عادة الإملاء ببطء مع نطق الكلمات بتقطيع تلقائي. ولكن، إذا ما كانت الكتابة بطيئة، فإن قراءة الخط الكوفي، بحروفه المتشابهة، لا يمكن أن تكون قراءة سريعة، وعليه فلربما كانت نفس التعديلات(٤٢) قد أجريت عليه. وبينما تقل أهمية هذه التعديلات في الرسائل الخاصة والكتب، فإنها، بطبيعة الحال، غير محبذة في القرآن والشعر . في النثر العادي، ترتب الجمل بحيث لا يكون هناك مجال للبس في المعنى لترك حركات الإعراب، والتي صارت ترفا نتيجة لذلك. أما الشعر فقد أباح لنفسه قدرا من فصل للكلمات المركبة(٤٣) المعتمدة اعتمادا كليا في دلالاتها على حركات الإعراب.

إن الإصرار على وجود الإعراب أو عدمه يتجاهل

(٣٨) الحسن بن محمد المالكي، **التمهيد في معرفة التجويد**. تشستربيتي. المخطوط MS no. J. 152.

(٣٩) لقد أصاب المؤلف في تحفظه على قول كاله (Kahle)، وإن كان الموقف موقف رفض له تماما. وفي القرآن مواضع لا تحصى، لا يستقيم فيها المعنى من غير إعراب، وأخرى لا يظهر الحسن والبلاغة فيها من غير إعراب، هذا عدا المواقع التي يُوقِعُ اللَّحن فيها في محظورات بل وكبائر وكفر . والنقطة الأخيرة أشار إليها المؤلف في الفقرة التالية مباشرة وواضح سوء الاستنباط، أو القصد فيه، عند كاله. فما حدث في القرنين اللذين ذكرهما، كان دعوة لتجنب اللَّحن لما دخل في العربية الفصحى من لحن للأسباب المعروفة للجميع والتي لم تكن موجودة من قبل. ولا يجوز سحب اللاحق بظروفه الطارئة المختلفة على السابق. «المترجم».

(٤٠) كذا، وليس كما أورده كاله بقوله «كل من يقرأ جزءاً بإعراب وجزءاً بلحن» (So, and not, as Kahle has it "whoever reads a part, with *i'rāb* and a part with lahn")

(٤١) تعبير غير واضح المعنى، لكنه ربما المقصود منه البدء والانتهاء أي كون الكلمة في أول الجملة أو في آخرها. أو أن تكون الكلمة بادئة بحركة ومنتهية بسكون. وربما كان الأخير هو الأرجح. «المترجم».

(٤٢) المؤلف غامض في هذا الموضع، ولا يُعرف بالتحديد ماهو المقصود بالتعديلات من النص الانجليزي نفسه. «المترجم».

(٤٣) الكلمة "*tmesis*" التي استخدمها المؤلف تعني فصل أحد جزئي الكلمة المركبة عن الآخر، كفصل «تأبط» عن «شرا» مثلا لضرورة الشعر، بالإتيان «بتأبط» في موقع و«شرا» في موقع بعدها في البيت نفسه او البيت الذي يليه. «المترجم».

حقيقة أن لهجة قريش لم تكن ببساطة لغة عربية فصحى ينقصها الإعراب. وليس من السهل اليوم أن نحول قطعة من العامية العربية المعاصرة إلى لغة أدبية بإضافة حركات الإعراب[٤٤]، ومهما كان الأمر فإن لهجة قريش لابد وإن كانت أبعد عن الفصحى من أي من اللهجات العامية المعاصرة، والتي ترجع جذورها في نهاية الأمر إلى العربية الفصحى أو من لهجة شعبية عربية ذات صلة وثيقة بها، ولو كان القرآن قد كتب[٤٥] بلهجة قريش أو «بلسان شعبي» (Vulgar tongue) ، فإن أي قدر من التنقيح لا يمس محيط صوامتها لا يمكنه أن يقربها من العربية الفصحى بالقدر الذي هي عليه الآن. وما على المرء إلا أن يضع في اعتباره الاضطراب الذي أحدثته الظاهرة القرشية المطردة بحذف الهمزة في تهجي الكلمات.[٤٦] ولو كانت لغة القرآن قد استكانت أحيانا للغة الشعر الأدبية (Literary *Koinē*) ، أي اللغة العربية الفصحى، فإنها لابد وأن تكون قد قبلت الإعراب أيضا، وهو [الإعراب] السمة التي بلغ من أهميتها أن سميت بالاسم الذي يعني استخدام اللغة نفسها، [وهو] الإعراب.

وربما أصاب فوك (Fück) [٤٧] في رؤيته في الكلمات من السورة ١٦ «وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» دليلا على أن محمداً [صلى الله عليه وسلم] كان واعيا بأنه كان يستخدم اللغة العربية البدوية، ذلك لأن كلمة «عرب» (كذا) في غير ذلك الموضع من القرآن تعني البدو.[٤٨]

والسؤال الذي يستغرب المرء في عدم طرق أحد له هو: ما الذي دعا محمدا [صلى الله عليه وسلم] ليخاطب قومه بلغة نبعت في مجتمع بدوي وكانت تستخدم آنذاك لأغراض محددة فيه، وفي مناطق بعيدة عن مكة نوعا ما؟[٤٩] وبالطبع فقد أصبح من المعروف منذ أمد طويل أن قبول لغة ما لتكون لغة عامة ليس له علاقة بالخصائص الخاصة للهجة المختارة، وإنما ذلك محكوم بالمكانة الاجتماعية التي تستخدم تلك اللهجة، أو محكوم، في بعض الحالات، بالسلطة الدينية التي تستخدم تلك اللهجة في التعبير

---

(٤٤) بلى يمكن ذلك، أنظر القصيدتين النبطيتين عند الحاتم، **خيار ما يلتقط من شعر النبط**، ط ٣ (الكويت، ١٣٨١هـ)، ص ١/ ٦٠ و ١/ ٢٣ مثلا، لتدرك مدى صحة ذلك بالتجربة. «المترجم».

(٤٥) كلمة المؤلف هي composed ومعناها «كُتِبَ، صُنِّفَ، أُلِّفَ» وهي تساير نهجه كمستشرق لا يؤمن بالتنزيل. لكنها غير مقبولة لنا لما لا حاجة لشرحه. قارن التعليقات ٤٨، ٥١، ٥٣، ٥٤. «المترجم».

(٤٦) سبق التعليق على هذا، ومعلوم أن تسهيل الهمزة وتحقيقها ظاهرة صوتية، موجودة لدى القراء حتى اليوم، فمن شاء سَهَّل، ومن شاء حقَّق، ولا ينبني عليها كبير استنتاج. «المترجم».

(٤٧) **المرجع نفسه**، ص ٢ .

(٤٨) هنا مخالفة أخرى غير مقبولة تصور النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كتب القرآن بلغة يدرك أنها هي لغة البدو . فكلمة using (كان يستخدم) التي وردت في النص الانجليزي لا يقصد منها الاستخدام العام للغة وإنما لغة القرآن. وإن كان هذا هو رأي فوك (Fück) فإنه رأي المؤلف أيضا لأنه وافقه فيه، أولا، ولتكراره له بصورة أخرى لاحقا، ثانيا (انظر التعليقين (٤٩) و (٥١). «المترجم».

أما الخطأ الذي وقع فيه فوك (Fück) وجاراه فيه المؤلف أيضا فهو خلطة بين «عرب» و «أَعْرَاب»، إذ أن معنى الأولى أشمل من معنى الثانية، ومعنى الثانية مقصود به جزء من العرب هم البدو، غير الحضر . لذا فبالنسبة لـ «عربي» ليست من «أعراب» وإنما من «عرب». أما «عرب» هكذا، فلم ترد في القرآن كما أدعى فوك (Fück) ولا في أي جزء منه ولا مكان لقوله: «ولأن في غير هذا المكان 'since elsewhere' ...الخ»، لأنها توهُّمٌ بورود كلمة «عرب» في القرآن، بينما هي لم ترد فيه أبداً. كما أن كلمة «أعرابي» لم ترد أيضا. فكما يرى فوك (Fück) وغيره، فلغة القرآن «أعرابية»، وهي ليستِ كذلك، ولم يقصدها القرآن الذي وصف نفسه بأنه «لِسَانٌ عَرَبِيٌّ» وذلك في الآية التي أوردها فوك نفسه (النحل: ١٠٣)، وأنه جاء «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِيْنٍ»، ولم يصف نفسه بأنه «لُسَانٌ أَعْرَابِيٌّ» أو أنه جاء «بِلِسَانٍ أَعْرَابِيٍّ». والفرق واضح، وغرض فوك (Fück) أوضح. والمقصود من «عَرَبِيْ» الواردة في القرآن شيئان، أولهما أنه ليس بأعجمي وثانيهما، أنه بلغة كل العرب، باديهم وحاضرهم، وليس بلغة الأعراب (البدو) كما شاء أن يراه فوك (Fück) ولا بلسان قبيلة دون أخرى. فالآية (وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِيْنٌ) هنا جاء فيها «عَرَبِي» لمقابلة لفظة «أَعْجَمِيْ» قبلها تماما في: «لِسَانُ الَّذِيْ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيْ»، فَعَرَبِيْ «يُقَابِلُ» أَعْجَمِيا. وترى المقابلة المقصودة واضحة في: «أَعْجَمِي وَعَرَبِي» (فصلت: ٤٤). «المترجم».

(٤٩) رأي المؤلف موافق تماما لرأيه المؤيد لفوك (Fuck) والوارد في التعليقين (٤٨) و (٥١). فقوله هنا «ليخاطب» لا يقصد منه الحديث، وهو السنة القولية، وإنما القرآن، لأن الموضوع الذي يتحدث عنه المؤلف هو القرآن. وواضح أنه يجعل من الرسول (صلى الله عليه وسلم) كاتباً للقرآن، وبلغة غير اللغة التي نشأ في محيطها. (وأنظر التعليق (٥٣). وهو رأي مرفوض بطبيعة الحال لما لا يحتاج إلى ذكر . «المترجم».

عن أمـورها. وتوضح سيرة الرسول [صلى الله عليه وسلم] في بعض أوضـاعهـا أن قريشـا كانت تعتز بعلاقات النسب بينها وبين القبائل البدوية، كما كانت على أي حال حريصة على اجتذاب البدو الى أسواقها ومنـاسبـاتهـا الدينية. ولذا فمن المحتمل أن يكون اعتزاز الأرستقراطية البدوية بنفسها كان أمرا مقبولا عنـد سكـان المـدن إلى الحد الذي قبلوا فيه اللغة والشعـر اللذين كانـا وسـامين ثقافيين من أوسمة الشرف في ذلك المجتمـع. ويـؤيـد ذلك موقف محمد [صلى الله عليه وسلم] من حسان بن ثابت وكعب بن زهير. مع أنه لا بد أن نتذكر أن كليهما ينتميان إلى الفترة المدنية عندما كان النبي [صلى الله عليه وسلم] حريصـا على بسـط سلطانـه على القبـائل البدوية. واحتمـال آخـر هو أن الإرسـاليات المسيحية التي انطلقت من الحيرة، قد عمدت الى لغة الشعراء التي كانت ذات أهمية في ذلك البلاط لتكون وسيلة لنشر الديـانة المسيحية في جزيرة العرب. ولذا فإنها ربما كانت اختيارا طبيعيا، لأنها كانت لهجة مفهومة على نطاق واسـع وذات اعـتبـار. فإذا ما كانت تلك الإرساليات حقا قد استعملت ترجمة للإنجيل فيما قبل الإسلام في اللغة العربية الفصحى[٥٠]،[٥١] ولابد وأن كانت لديهم مادة مكتوبة فإن وجود أدب مكتوب بها لربما ساعد على خلق مكانة مرموقة لها، وشجع أولئك الذين أدركوا قيمة الكتابة، من أمثال التجار القرشيين، على استخدام اللغة نفسها ـ وإلى جانب ذلك فإن وجود بعض النصارى في مكة أمر لا يُشَكُّ فيه. وإن كانت الوثائق التي بلغتنا على أنها رسائل محمد [صلى الله عليه وسلم] ومعاداته قد نالها قدر من التغيير فإنها، وفيما يبدو، تعطينا دليلا قويا على أن أقدم استخدام اللغة العربية الفصحى في الوثائق في مكـة كانت قد رسخت تماما آنذاك، ومهما كانت غرابـة المـواد التي استخـدمها الصحابة في كتابة الوحي،[٥٢] فإن حقيقة كتابة الوحي تشير إلى وجود مجتمـع كان أفـراده قد سبقـوا في اعتمـادهم على المكتـوب أكثـر من اعتمادهم على الذاكرة، وأن لغة الوحي كانت قد أصبحت لغة شائعة مقبولة، وبتهجئة ثابتـة نوعـا ما. ولربما جاز لنا أن نتحدث عن لغة «ديـوانيـة» مكية، قاصرة لاستخدامها في الشؤون الأدبية. وتفسر هذه النظرية لماذا رفض محمد [صلى الله عليه وسلم] الشعراء بشدة، وهو يستخدم لغتهم في الوقت نفسه، فاذا كان قد تعلم (Received) لغة الشعر (Poetic *Koinē*) في فترة ما (at one remove) فلربما أنه لم يكن يدرك هذه الصلة[٥٣] وأخيرا فإنه ربما كان هناك شيء من الحق في الادعاء بتفوق لغة

---

(٥٠) راجـــع: Violet, OLZ 4 (1901), 384 - 403; A. Baumstark, *Oriens Christianus* 18 (1934), pp.55 - 66; B. Levin, *Die griechisch - ara - bische Evangelien - Ueberselizung*, 1938.

إن التشابه الكثير بين ماني القرآن والعهد الجديد الذي اكتشفه و. رودلف وآرنز W. Rudolph, *Abhangigkeit d.k. von Judentum und Christentum*, Stuttgart, 1922); K. Ahrens, "Christliches im Q.", *ZDMG* 84 (1930), pp. 15-68, 148 - 90.)

ليفترض وجود مصدر مكتوب باللغة العربية، وليس مجرد دعوة شفهيـة [٥١]. ويعتقـد فلْهَـا وْزِنْ أن النصـارى كانوا أول من استخدم اللغة العربية كلغة تراثية *(Reste arabischen Heiden-tums, p. 232)*

(٥١) يوحي هذا القول، وما تقدم في المتن، بأن ما كان من أوجه شبه في بعض ماجاء في القرآن من أخبار السيد المسيح والحواريين إنما كان بتأثيرمن العهد الجديد (انجيل النَّصارى) في نسخة مكتوبة باللغة العربية إطَّلع عليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتأثر بها. وهو إيحاء مرفوض بطبيعة الحال، إذ أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليس بمؤلف للقرآن، وإنما هو رسول أُوحِيَ إليه. ونحن وإن لم نطلع على المرجعين المذكورين لنعرف ماذا فيهما مما أخذاه كأوجه شبه، ذلك لبعد المرجعين عن متناول أيدينا، وكذلك وإن سلمنا جدلاً بصحة ماجاء في العهد الجديد، بالرغم من أن هذا الكتاب ليس بوحي في صورته الحالية، بلا شك، فإننا نقول إن كان التشـابـه في أمـر بمعروف ونهي عن منكر، فذلك لأن الشارع واحد، وإن كان التشابه في أخبار السيد المسيح عليه السلام وحوارييه فذلك لأن الله هو الذي قصَّ على الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأخبار. أما افتراض نسخة للعهد الجديد مكتوبة بالعربية بناء على التشابه المذكور فلا حجة له. ونحن لا نستبعد وجود نسخة بالعربية لأَحَدِ العهدين الجديد والقديم أو كليهمـا، وإذا وجدا، فليس اعتمادا على تلك الحجة الضعيفة، وإنما لطبيعة الحال وضرورات التعبد لدى النصارى العرب. لكن امر الرسول لزيد بن ثابت واسامة بن زيد لتعلم السريانية، يؤكد انه لم تكن هناك نسخة بالعربية، وإلا لَمَا أَمَر بتعلُّم السريانية. «المترجم».

(٥٢) قطع البـردي، القحاف، جريد النخيل، رقاع الجلد، والخشب، راجع نولدكه Geschichte des Qorans, 2nd ed., II, 13

(٥٣) الواضح جداً أن المؤلف يقصد وصف القرآن للشعراء (الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٥). والموقف في هاتين الآيتين ليس موقف الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما قول الله في الشعراء. لكن المؤلف كمستشرق ينسب القرآن لا لله سبحانه وتعالى وإنما للرسول صلى الله عليه وسلم، فيجعل الرسول صلى الله عليه وسلم رافضا للشعراء من ←

قريش وأنها تشتمل على الأفصح في اللهجات الأخرى كافة، ودامت هذه الادعاءات تخص اللغة المكتوبة لا اللغات المحكيَّة. ومع هذا كله، فإن قدرا كبيرا مما قيل لنا عن اللهجات القبلية الأخرى يرجع إلى ظلال المعاني في الاستعمالات الأدبية للقبيلة أكثر من رجوعه إلى لهجتها المحكية. وإذا ما قبلت هذه النظرية، فإنها قد تؤثر في نظرتنا للسمات الحجازية في لغة القرآن. فكثير من هذه السمات قد لا يكون أبدا راجعا لعدم تمكن النبي [صلى الله عليه وسلم] من «العربية» (Arabiyya) وإنما قد تكون مما استخدمه باعتباره سمات مقبولة لموروث لغوي محلي.(٥٤)

وإني لأعجل فأضيف بأن هذا الاقتراح يترك خيوطا كثيرة غير معقودة الأطراف، ويبدو لي، من ناحية أخرى، أن نظرية «فولرز» و «كاله» قد تعثرت تعثراً تاماً في هذه المسألة بالذات. فإذا كان كل من محمد [صلى الله عليه وسلم] والأرستقراطية المكية قد استعملوا لهجتهم المحلية استعمالاً مطلقا مستثنيا غيرها، وأن سكان المدينة أشباه البدو(٥٥) لم يروا خللا في نزول القرآن «بلهجة شعبية»، فما الأسباب التي أدت إلى قبول لغة البدو، لغة مطلقة السيادة، في القرنين الأول والثاني الهجريين(٥٦) والأرستقراطية المكية في عنفوان مجدها، ونجم البدو آخذ في الأفول؟

وإذا حق لنا أن نفترض تأثير قوى اجتماعية، لا دليل لنا عليها، في القرن السابق لمحمد [صلى الله عليه وسلم]، فإنه لا يجوز لنا أن نفعل ذلك عن فترة واقعة وقوعا تاما في ضوء التاريخ.(٥٧) وإلا تكن سيادة لغة الشعر قد بسطت بسطا تاما قبل الفتوحات، فإني لا أرى لها مجالا تبسط فيه بعدها، ومن ناحية أخرى، إذا كانت المكانة السامية للرواية الحامية للاستعمال الصحيح للغة الأدبية المتفق عليها، قد أناطتها الطبقة العربية الحاكمة بالموالي، فإننا نستطيع أن نفهم لماذا لجأ هؤلاء الموالي إلى رجال كالخليل بن أحمد لإتقان اللغة، ثم إلى البدو مصادر لدراستهم الأولية في اللغة.

وتلقى بحوث بلوخ (Bloch) (٥٨) أضواء جديدة على القضية، فمع أنه قد حصر نفسه في ترتيب الكلمات [في الجملة] إلا أنه وكما يبدو أثبت أن لغة الشعر لا تمثل في إطار العربية الفصحى نوعية شعرية خاصة كالتي تمثلها لغة الشعر في إطار اللغة العبرية التوراتية(٥٩) ولكنه أبان أن هناك بعض الألفاظ والصيغ مفضلة لأنها تأتلف في الأوزان بيسر(٦٠)، وأن الشعر بصفة عامة يستخدم تركيبات نادرة ندرة واضحة في النَّثر. وبلوخ (Bloch) نفسه يستشهد بالمقولة الشهيرة لبرغشتراسر بأن أهم خاصية لتركيب الجملة في اللغة العربية هي حصر الاختيارات الواسعة في التراكيب السامية المبكرة في عدد ثابت محدد.(٦١) لذا فإن هذا الاتجاه في التطور قد أُظْهر بأنه استمر في نشأة النثر العربي من لغة الشعر.

← جهة ومستخدما للغتهم، لغة الشعر، من جهة أخرى. ثم يعلل الأمر برأيه إن كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد تعلَّم لغة الشعر في وقت ما، فإنه لم يكن مدركا لذلك، أي لعلاقة لغة القرآن بلغة الشعر. وكما هو واضح فهو قول خاطيء نابع من منطلق خاطيء أيضا. ومثله ماجاء من قبل (أنظر التعليقات ٤٨، ٤٩، ٥١) وما سيجيء من بعد (أنظر التعليق (٥٤). «المترجم».

(٥٤) ما أراد الكاتب قوله هو أن هناك سمات ظاهرة في القرآن ليست من سميات لغة البادية، وإنما هي حجازية، وان دخول السِّمات الحجازية في لغة القرآن ليس لعدم تمكن الرسول صلى الله عليه وسلم تمكنا تاما من لغة البادية، وإنما لكون هذه السمات جزءاً من الموروث اللغوي المحلي السائد، وبذا دَخَلَتْ في القرآن. وهنا ملاحظتان واضحتان لا حاجة للتفصيل فيهما، الأولى، هي تأكيد القول المتكرر للمستشرقين بنسبة القرآن للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو باطل، ورد في أكثر من مكان في البحث، والثانية، تعلق هذه النقطة بأخرى سابقة (التعليق ٣٥) عن سقوط لغة القرآن سقطات غير واعية في لهجة مكة. «المترجم».

(٥٥) سكان المدينة أهل زراعة في غالبهم، وأهل مكة أهل تجارة، ثم إن أهل المدينة (الأوس والخزرج) من اليمانية التي سبقت مضر إلى الحضر، ومن هنا عيَّرتهم المضرية (اليمانية ما بين ناسج بُرْدٍ ونافخ كير). «المترجم».

(٥٦) تم الاستشهاد بالشعر لأمرين: ١ ـ لأنه أكثر محافظة على القديم من النثر. ٢ ـ لأنه أعلق في الحافظة، فهو أقل تأثرا. أما الميل إلى أشعار البادية فهو اختيار فقط، لأن البادية أكثر صفاء. «المترجم».

(٥٧) لمزيد من المعلومات عن هذا، أنظر، محمد دروزة «محاولة في تقدير زمن استواء اللغة العربية الفصحى»، **مجلة مجمع اللغة العربية** بمصر الجزء ٣٣، لعام ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م. «المترجم».

(٥٨) أنظر هامش ٦ والمتن أعلاه.

(٥٩) *Cf.* G. R. Driver, *Hebrew Poetic Diction*, Supplements to *Vetus Testamentum*, 1 (1953), 26-39.

(٦٠) ص ص ٧ ـ ١٠.

(٦١) *Einlettugn in die semitischen Sprachen*, 1928. p. 135

ومن الواضــح أنه علينا قلب منهج بلوخ فلا نعامل الشعر على أنه حالة خاصة للغة مستخدمة أساسا للنثر، وإنما العكس بأن النثر، في اللغة العربية، على أقل تقدير، استعمال خاص لتعابير مقرونة بالشعر عادة. فالتراكيب الحرة في القصائد والقرآن ـ ويبدو أن ذلك ينـطبق على أكثـر السمـات القـرآنية التي أوردهـا نولدكـه[٦٢] ـ هي الأصـل، بينما التراكيب الثابتة الأقل حرية في أسلوب النثر هي من خواص الأخير. أما التركيب الوحيد الذي لم يجد له بلوخ نظيرا في النثر، وهو جملة «إذا الشرطية» التي يأتي بعدها الاسم،[٦٣] فمن الظاهر أنه تركيب قديم احتفظ بخاصيتي التوكيد والإشارة في الآداة.[٦٤] وثمة سمة قديمة أخرى وضحها كاسكل (W. Caskel)[٦٥] وهي أن ظاهرتي اكتفاء الاسم بحالتين *(diptotes)* أو ثلاث *(triptotes)* من أحوال الإعراب «لم يكن قد ميز بينهما بعد في الشعر الجاهلي».[٦٦] ولربما صار هذا اختلافا مثيرا لو ثبت أن التمييز بين هاتين الظاهرتين نشأ في إطار اللغــة العـربيــة، أو حسب هذه النـظرية، في العربية (Arabiyya). لكنه قبل أن تكون ظاهرة اكتفاء الاسم بحـالتـين من أحـوال الإعـراب معـروفة في الأوغـريتيـة[٦٧] وأن الأكـديـة القديمة، لخلوها من الإعراب مع أسماء [الأعلام][٦٨]، تبدو وكأنّها ظاهرة مشـابهـة. [وهنـا] ربما كان من الأفضل، ولو لمرة واحـدة محـاكـاة اللغـويـين العـرب في تفسير هذا الاضـطراب بأنـه ضرورة شعـرية. ولعل انتشارها الواسـع يعود إلى الاستعمال المتعدد لها في لهجات قبـائـل الشعـراء ولعل ذلك هو المسؤول أيضا عن التنوع المربك في حركات الإعراب في الجمل.[٦٩]

وهناك مشكلة مهمة أثارتها قائمة بلوخ (Bloch) [الحـاويـة] للصيـغ والتركيبات العامة غير الملائمة للشعر لأنها مركبة من تعاقب لثلاثة مقاطع قصيرة تناسب عدداً قليلًا من البحور العربية، وأخرى من أربعة مقاطع قصيرة لا تناسب أيا منها، نحو : فعل، فعلانا (كذا بالنص) ملكك، ففعله.[٧٠] إن وجود مثل هذه الصيغ يبدو حجة قوية على النظرية القائلة بأن اللغة، وإلى حد كبير، كان قد خلقها الشعراء[٧١] إذ لابد وأن كان التركيب المقطعي موجودا في اللهجة أو اللهجات التي قامت عليها لغة الشعر، والتي لم يجد الشعراء لأنفسهم حقا في تغييرها. وإن لم تستخدم هذه الصيغ في أي بيت من الشعر إطلاقا، فإنها ظلت موجـودة فعـلا في النظام، في انتظار استخدامها في النثر حين ظهوره، والذي ليس ملزما باتباع أي نوع من الوزن.

ويبـدو أنه لم يحدث تقدم في السنوات الحاضرة لحـل معضلة موطن اللغة الأدبية المشتركة. وليس لدينا من المادة العلمية ما يجعلنا نضعها تماما في أي مكـان غير المنـطقـة العامة الشاملة لنجد واليمامة والجـزيـرة الفـراتية. إن مكانة الحيرة مركزا قديما للشعـر، وإن أقـدم مجمـوعة شعرية كانت مقرونة بحـرب البسـوس، التي دارت رحاها في منطقة نهر الفرات، [كل ذلك] يعطي أفضلية لذلك المكان من تلك المنطقة [العامة]. وفي مقابل ذلك فان أمرأ القيس، وهو أحد الشعراء الأوائل، كان من كندة. وكما يبدو فإن مملكـة كندة كانت المنطلق الطبيعي لظهور فن عربي قومي.

إن المفتـاح الحقيقي، بطبيعـة الحال، يجب أن تقدمه [لنا] مقارنات للهجات العربية القديمة، ولقد نشط الاهتمام بهذه اللَّهجات في السنوات الأخيرة، وفي الفترة الواقعة بين ١٩٤٠ و ١٩٥٠م ظهر لنا مالا يقل عن أربعة أعمال ضخمة في الموضوع، قام بها كل

---

(٦٢) Neue Beitrage zur semit. Sprachwissenschaft, 1910, pp. 5 - 23; G.H. Bousquet, *Remarques critiques sur le style et la syntaxe du Coran* (Paris, 1954).

(٦٣) ص ١٠٥.

(٦٤) راجع، على سبيل المثال، رابين، **المرجع نفسه**، ص ٣٨.

(٦٥) راجع المحاضرة المشار اليها اعلاه، هامش ١٣ والمتن، ص ٣٧ من نسختها الانجليزية، وص ٢٩ من نسختها الألمانية.

(٦٦) وعلى سبيل المثال أنظـر : Wright II, 387 - 8.

(٦٧) C.H. Gordon, *Ugaritic Grammar*, 2nd ed., 1947, p. 43.

(٦٨) *W. Von Soden, Grundriss d. Akkadischen Gramm.*, 1952, p. 81, Par 63 f.

(٦٩) E. G. Wright, II, 40C, 97A.

(٧٠) ص ص ٧ ـ ١٠.

(٧١) يبدو هذا، وغيره، أنه رأى بروكلمان في E..I.I, 408b

من كوفلر (Kofler) [٧٢] وإبراهيم أنيس[٧٣] وحمودة[٧٤] وحاييم رابين[٧٥]، إن مجموعة كوفلر هي أفضل مجموعة من حيث المواد والمراجع بالرغم من خلوها من تقويم [لها] جغرافيا[٧٦]، وقد ركّز أنيس على المسائل الصوتية محاولا أن يظهر شيئا مثل علم مقارن للصوتيات العربية. وقد اعتمد حمودة على مصدر مهم لم يستعمله الآخرون وهو تفسير محمد ابن يوسف أبو حيان للقرآن[٧٧] أماني دراستي، القائمة على علم الجغرافيا اللغوية، فهي محاولة للتعرف على الظواهر المشتركة لمجموعة من اللهجات في المرتفعات الغربية، مع اهتمام خاص بلهجة الحجاز.

إنَّ هذه الدراسات الأربع قد استقصت، استقصاء جيدا، الى قدر ما، المعلومات الممكن استخلاصها من اللغويين العرب عن النحو وتركيب الجمل في اللهجات. وما زال مجال العمل مفتوحا فيما يختص بالمفردات والذي من الجائز أن يمدنا، وكما هو الحال في الدراسات اللغوية الجغرافية الأوربية، بمعايير الجغرافية اللهجات أفضل مما يمدنا به النحو. وعلى كل حال فمما يؤسف له أن كل هذا العمل لم يقربنا شيئا من حل لمعضلة لغة الشعر. ولم يبرز من أية لهجة أو مجموعة من اللهجات مما تمت دراسته مايدعونا إلى القول بأن هذه اللهجة أو تلك هي مهد اللغة العربية [المشتركة]. بل على النقيض من ذلك فإن تلك المناطق التي ترعرع فيها الشعر ـ منطقة الجزيرة الفراتية، تميم، والمناطق النجدية المحاذية للحجاز ـ ظهر أنها كانت تتحدث لهجات بعيدة كل البعد عن اللغة الشعرية. ومن المستبعد أن تمدنا دراسة الألفاظ بنتائج أوضح من غيرها ذلك لأن استعارة الألفاظ سهلة كما أصبح متفقا عليه ومنذ أمد طويل أن اللغة الشعرية مستعارة، وبقدر كبير، من لهجات مختلفة.

وتزيد اللغات المنقوشة في جزيرة العرب الغموض عمقا، فبعد العرض العلمي المنسق الذي قدمه لنا هوفنر (Hofner) [٧٨] لنمو اللغة العربية الجنوبية فإنه لم يعد هناك أدنى شك في أن لدينا لغة متميزة تمام التميز عن اللغة العربية، وقد أوضحت دراسات وولف ليسلاو (W. Leslau) [٧٩] أن لغة جنوب الجزيرة العربية تشكل مع اللغة الأثيوبية، وربما الأكدية، مجموعة واحدة، ومن هنا فإن أي صلة لغوية لها باللغة العربية تصبح مستبعدة. وتومىء بعض النتائج التي وصلت إليها دراسات رابين (Rabin) [٨٠] وعز الدين الياسين[٨١] إلى وجود بعض الروابط بين اللغة العربية واللغة السامية الشمالية الغربية. وقد أصبح مقبولا بصفة عامة أن اللغة العربية تشكل جزءا من فرع منفصل من اللغات السامية التي يطلق عليها السامية الجنوبية أو السامية الجنوبية الغربية. ومن الخصائص المميزة لهذا الفرع الاحتفاظ بمقدار كبير من الصوامت الأسنانية وجموع التكسير. وقد أصبح من المعروف أيضا أن الصوامت الأسنانية مما يميز الأوغاريتية، اللغة السامية الشمالية العربية التي عرفت منذ عام

---

(٧٢) Reste altarabischer Dialekte. *WZKM* 47 (1940) - 49 (1942). al-together 188p.

(٧٣) اعتمد فيها أنيس أيضا على معجم لسان العرب، **اللهجات العربية** (القاهرة، حوالي ١٩٤٦م)، ١٨٢ص.

(٧٤) **القراءات واللهجات** (القاهرة، ١٩٤٨)، ٢٢٦ ص.

(٧٥) أنظر حاشية رقم (٩) من الكتاب المذكور.

(٧٦) هناك دراسة مختصرة، سائرة نوعا ما على النسق الجغرافي ومعتمدة على ما ذكره كوفلر، قام بها لتمان (E. Littmann) في مقالته بعنوان «بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي»، **مجلة كلية الآداب**، المجلد ١٠، العدد ١٠، العدد ١ (مايو، ١٩٤٨م)، ص ص ١٠ ـ ٤٤.

وهناك دراسة أخرى ذات أهمية لحصر سمات لهجة واحدة قام بها بتراشك K. Petracek. "Material zum altarabischen Dialekt von al-Madina". *Archiv Orientalni* 22 (1954). 460. 6

(٧٧) أنظر نولدكه. *Geschichte des Qorans*. 2nd ed.. 243.

(٧٨) *Altsudarabische Grammatik* (Leipzig. 1943).

(٧٩) *South - East Semitic*. JOAS 63 (+ - 14). *Vocabulary Common to Accadian and S. - E. Semitic. ib.* 64 (1944). pp. 53-8.

(٨٠) قارن على سبيل المثال "Archaic Vocalization in some Biblical Hebrew Names." *Journal of Jewish Studies* I (1948). 22-6. "The Ancient Arabic Dialects and their Relationship to Hebrew". Melilah II (1945). 243 - 55 (in Hebrew): *Ancient West - Arabian*. pp. 196 - 9.

(٨١) The Lexical Relation between Ugaritic and Arabic (New York. 1952).

١٩٢٩م. وكما يكاد يكون مؤكدا، فإن جموع التكسير تطور متأخر، قليل الفائدة كمعيار لإيضاح أي صلة لغوية. لكن الأمر مختلف بطبيعة الحال عند السؤال عن القدر الذي استعارته اللغة العربية من المفردات العربية الجنوبية، أو مدى تأثرها في أسلوبها باللغة العربية الجنوبية.[٨٢]

وحيث إن اللهجات المتعددة في جنوب الجزيرة العربية، ليست وثيقة الاتصال باللغة العربية، فإن هناك احتمالا كبيرا في وجود علاقة وثيقة بين اللغة العربية واللغات المتعددة المعروفة لدينا فقط من خلال النقوش والمخربشات (Graffiti) القصيرة في الشمال الغربي لجزيرة العرب، وإلى حد ما، في ما يجاورها على ساحل الخليج الفارسي (كذا بالأصل) وتعرف هذه اللغات «العربية المبكرة» بالثمودية واللحيانية والصفوية[٨٣] وقد ازدادت في السنوات الحالية أعداد المخربشات التي تم التعرف عليها، كما سارت الدراسات النحوية قدما[٨٤]، وقد استنتج من الإشارات إلى الأحداث المتنوعة أن المخربشات بهذه اللغات قد استمرت تنقش حتى القرن الثالث الميلادي[٨٥]، وربما استمرت حتى مجيء الرسول [صلى الله عليه وسلم][٨٦] ومن هنا فهي ليست بعيدة عن الزمن الذي تنسب اليه المعلومات المدونة على أنها ترجع إلى اللهجات القديمة أو الفترة التي أصبح من المعروف، بشكل عام، أنها بداية الشعر العربي.

فهذه اللغات تشبه اللغة العربية شبها قريبا في النظام الصوتي. وألفاظها متشابهة، إلا أن فيها تمايزا. ولما في هذه النقوش من القصر والرتابة فإن الإحاطة بنحوها لا تزال ناقصة. ولكن هذه اللغات تبين أن فيها مخالفات للغة العربية ملفتة للنظر، فمثلا أداة التعريف هـ (ـ أحياناً هن ـ) تشابه العبرية. والصلة الثقافية بين هذه اللغات وأوعية الشعر العربي المتأخرة عنها تثبتها ثبوتا كبيرا، تلك الثروة المشتركة من أسماء الأعلام، التي يمكن أن تستقصى أصولها في النقوش الآشورية حول المعارك مع «عريبي» في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، على حين أن بعضا من تلك الأسماء مازال حتى وقتنا الحاضر عند البدو في جزيرة العرب، وشمال افريقيا.

ومن الغريب أن هذه اللغات أو اللهجات لا تسلط أضواء على التطور اللغوي، للغة العربية. إنها مجموعة مختلفة كل الاختلاف عن اللهجات التي ذكرها اللغويون العرب، وليس فيها أي من الخصائص المميزة مما يمكن تلمس أثره في تلك اللهجات. ويبدو أن سبب ذلك يعود جزئيا، إلى أن المنطقة التي أجروا فيها دراساتهم، والتي أطلق عليها فيما بعد قبائل قضاعة، لم تشارك في الانتاجات الشعرية في القرن السادس الميلادي[٨٧]، ولم يكن معترفا بها على أنها جزء من المنطقة التي كانت عربيتها سليمة.[٨٨] ومع ذلك فهناك بعض المعطيات

---

(٨٢) قال أبو عمرو بن العلاء: ما لسان حِمْيَرَ وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا أنظر. إبن سلَّام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق محمود شاكر (القاهرة: المكتبة التجارية، د.ت)، ١/١١، ومثله عند ابن خلدون، **مقدمة** (القاهرة: المكتبة التجارية، د.ت)، ص٥٥٧. إذاً لسان اليمن عند قدماء العرب من العربية، ورفض الاستشهاد، إنما هو مقصود على أقاصيه دون شماله، يؤيد ذلك الشواهد نفسها. «المترجم».

(٨٣) وصدر بعد ذلك دراسة ف. وينت (F.V. Winnett) بعنوان «النقوش العربية» في القسم الثاني من الكتاب F. V. Winnett and W.L. Reed, *Ancient Records from North Arabia* (Toronto: University of Toronto Press, 1970) وهناك دراسة متعلقة بهذه النقوش هي الماجستير المنشورة لمحمود محمد الروسان بعنوان: **القبائل الثَّمودية والصفَوية** (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م). ويرى د. عبد الرحمن محمد الطيب الأنصاري أن النقوش المسماة الثمودية والصفوية إنما الأجدر أن تسمى نقوش البادية وأن يسمى الخط الذي كتبت به «خط البادية وحداة القوافل» أنظر عبد الرحمن الطيب الأنصاري، **«قرية» الفاو: صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية** (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٩٨٢م)، ص ٢٢. «المترجم».

(٨٤) G. Ryckmans, *Le Muséon* 61 (1948), 137 - 213; A.V d. Branden, *Les inscriptions thamoudéennes*, 1950; E. Littmann, *Thamud und Safa*, 1943.

(٨٥) وهناك سطر ثمودي على لوحة نبطية من ٢٦٧م/ Rodinson, *Sumer* 2 (1946) 137 - 55

(٨٦) F. V. Winnett, *JAOS* 73 (1953), 41. يؤرخ وينت نقشا صفويا بعام ٦١٤م.

(٨٧) راجع لامنز Lammens, *L' Arabie Occidentale*, p. 308.

(٨٨) تقعيد النحو في العراق، وهم بنوه على توافر الشواهد عندهم، أو في أماكن يذهبوا إليها لهذا الغرض، فاختاروا بعض البقاع، ولم يكن منها هذه المنطقة، وليست مخصوصة وحدها بذلك، وهذا لا يعني عدم الاعتراف بها، بدليل أن ثقيفا من ثمود على رأي، أنظر ←

حول لهجات قضاعة. وليس في أي منها ما يتوافق مع ما نعـرفه عن تلك اللغات العربية القديمة الثلاث، وكما هو معلوم فإن في التراث العربي القديم الكثير عن العرب البائدة، وهي القبائل التي انقرضت بلا صلة عرقية لها مع أي من قبائل العصور التاريخية. ومثل تلك القبائل كانت موجودة حقا مثل جرهم التي نسب لها مصدر من القرن الثاني الهجري(٨٩)، أربعا وعشرين كلمة وتختلف بعض اللهجات التي درسها اللغويون اختلافا كبيرا إلى الحد الذي يوحي بأنها تنتمي إلى طبقة أقدم. والواقع أنه فيما يخص لهجة حِمْيَرَ المتحدث بها في مرتفعات اليمن ولهجة الأزد في المنـاطق الساحلية المنعزلة في عمان شرقا وفي عسير جنـوبا(٩٠) فإن الخارطة [اللغوية] توضح أن هاتين اللهجتين بقايا من انتشارات [للغات] عربية شمالية سابقـة محـاطة ببحار من [لغات]، أكثر «عروبة»، متأخرة عنها زمنا.

وكان قد زُعِمَ يوما ما أن الجزيرة العربية هي مهد الشعوب السامية، وبالمثل فقد زُعِمَ أن اللغة العربية، أي اللغة العربية الفصحى، تختلف اختلافا يسيرا عن اللغة السامية المبكّرة، وكانت تبدو وكأنها بركة هادئـة مقـارنـة بالتـطور العاصف للغات السامية الأخرى. إن إدراك حقيقة أن الجمل لم يستأنس إلا في بداية الألف الأول قبل الميلاد، وأنه من الراجح أن الاستيـطان البشري للجـزيرة العربية بدأ من تلك الواقعـة،(٩١) أسفـر عن تصـور متـزايد القبول في الجزيرة العربية كمكان للهجرات منها وإليها، وملتقى لعنـاصر عرقيـة مختلفـة آتيـة من مناطق مختلفة. فأثمرت هذه الحركات أخلاطا لغوية(٩٢) وخارطة لغوية متقـاطعـة الخـطوط، وجـزرا، ورواسب متفرقة من هجـرات سابقـة. لقـد حاولت تفسير الهوة اللغوية الرئيســة في الجـزيرة العربية قبل الإسلام، ما بين لهجات غرب الجزيرة ولهجات شرقها، بأنها ناتجة عن التقاء مجموعات لغوية متباينة السلالات.(٩٣)

فاللغة العربية ترى واقفة في نهاية تطور [لغوي] لا في أوله. وعندما يصبح هذا التطور [اللغوي] أكثر وضـوحـا، كما هو مؤمل له أن يكون بعد أن بدأت الاستطلاعات الأثرية للجزيرة العربية، فإن جذوره القديمة قد تكون ممتدة حقا.

إضافة متأخرة (للنص)

إن البحث المهم لبـركلاند (H. Birkeland)(٩٤) عن أنماط النبر في اللغة العربية والذي لم أطلع عليه إلا بعـد فراغي من المقـالة، يضيف مسألة أخرى عن صلة اللهجات القديمة بالعربية (Arabiyya). فالمؤلف يـرى (ص ١٢) أن النبـر التنفسـي الثابـت (Fixed expiratory stress) في العـاميات المعاصرة في سوريا والعراق ومصر كان قد أضيف مؤخرا لمرحلة من مراحل اللغة كانت فيها أصوات الحركات وحروف المـد في المـواضـع نفسهـا التي كانت فيها هذه في العـربية الفصيحة، لكنها كانت آنذاك قد استغنت عن الهمـزة في الكلمـات المنتهيـة (بـالصوت) «اء» [الهمـزة بعـد ألف المد]. ثم يأتي المؤلف بعد ذلك للاستنتاج بأن هذه المرحلة المبكرة للغة، لم يكن بها نبر تنفسي أبدا. لكن هاتين الصفتين، الخلو من النبر التنفسي وفقـدان الهمـزة، هما من سمات اللهجات العـربيـة الغـربية. ومن جهة أخرى فإننا نجد أن اللهجات القديمة العربية الشرقية بها نبر تنفسي وأن القصر الناتج عنها يثبت أنها كانت في المواضع نفسها تماما التي هي عليها الآن في العاميات المذكورة آنفا.

المبرد، **الكامل** (بيروت: مكتبة المعارف، د.ت)، ١/٢٧٦، ومع ذلك استُشهد بأشعارها. هذا من حيث العموم، أما بخصوص قضاعة نفسها فقد استَشهَد سيبويه وحدة لتسعة من شعرائها ربما عن طريق الرواية، انظر، جمعة، **شواهد الشعر في كتاب سيبويه**، ط١ (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م)، ص ٢٩٣. «المترجم».

(٨٩) راجع رابين، **المرجع نفسه**، ص٧.

(٩٠) **المرجع نفسه**، ص ص ٤٢ ـ ٦٣.

(٩١) عن هذا الخلاف انظر: محمد دروزه، **تاريخ الجنس العربي** (صيـدا وبيروت، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م)، مجـ ١ ص ١٩و ٢٥، وغـريغوريوس بهنام، «العلاقة الجوهرية بين العربية والسريانية»، **مجلة المجمع العربي بدمشق** مجلد ٣٣ الجزء ٤، ١٩٥٨م.

(٩٢) يقـال ان طيء اتخـذت لسان صحار التي سادتها، كما يروي ياقـوت، **معجم البلدان**، جـ١، ص ١٢٧، كما أن لهجة هذيل تكشف عن تأثـير قوي عليها من العربية الشرقية. انظر رابين، **المرجع نفسه**، ص٧٩.

(٩٣) **المرجع نفسه**، ص ص ١ ـ ٢.

(٩٤) Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen, 11, 1908

لذا فإنه لمن المؤكد إلى قدر معقول أن اللهجات الشرقية قد احتفظت بهمزة «اء» وبخاصة لما يقال من أنها في حالات قليلة تقابل «ا» (ألف المد) الحجازية بـ «اء»[٩٥] ولأن النحاة العرب لا يعرفون فكرة النبر، وأن بنية الأسماء ذوات «اء» هي مما لا يحدث فيه إدغام، فإننا لا نعرف كيف كانت تنبر هذه الكلمات في اللهجات الشرقية القديمة.

على أي حال فإن وضع اللهجات العامية يرينا خليطا غريبا من صفات شرقية وغربية. وأحد التفاسير لذلك هو أن النبر إثبات انتشر في حركة «موجبة» من الخليج الفارسي [كذا في الأصل]، وأنها وصلت موطن العربية (Arabiyya) المشتركة في وقت متأخر مما لم يمكنها من التأثير على نطقها، وأثرت على الهلال الخصيب ومصر ولكن بعد آن كانت لهجاتها المتكلم بها قد فقدت همزاتها المتأخرة. وهذه النظرية تتفق مع اكتشافات بيركلاند (Birkeland) في العاميات المغربية من وجود نمط النبر الثابت مركبا فوق نمط آخر لنبر ثابت أو، لكلمة أخرى، أنها وصلت هذه العاميات ولكن بعد مرحلة طويلة من التطور (ص٢٨). والحال في اللهجات الشرقية، وفيما أعلم، متفق تماما مع الافتراض القائل بأن النبر التنفسي الثابت كان حدثا متأخرا نسبيا. ولربما كان ناتجا عن الاحتكاك بمتكلمي الآرامية، وهي اللغة التي يلعب فيها أثر النبر دورا بارزا.

(٩٥) Die Syntaktischen Verhältnisse des Arabischen, 1895-8; Arabische syntar, 1921.

العصور ، المجلد السادس، الجزء الأول، ٢٠٧ ـ ٢١٢ (١٩٩١م)

هـردوت والربـة الـلات

للدكتور **مصطفى كمال عبد العليم**

في القسم الخاص بالمناقشات والتعليقات في العدد الأخير من مجلة « العصـور » (المجلد الخامس ـ الجزء الثاني ذو الحجة ١٤١٠هـ ـ يوليو ١٩٩٠م) نشر تعليق للدكتـور خالد الناشف بعنوان «هردوت والربـة اللات» استغـرق الصفحـات من ٤٠٩ إلى ٤١٦. وتوقعت أن يكون هذا التعليق إسهاما، بنحو أو بآخر، في توضيح بعض المسائل المهمة المتصلة بهذه الربة، فإذا به نقد لجزئية من مقال لي تَفَضَّلَتْ بنشره مجلة « العصـور » (الجزء الأول من المجلد الثـاني جمـادي الأولى ١٤٠٧هـ ـ يناير ١٩٨٧م، ص ص ٧ ـ ٢٣). وكـان هذا المـقـال محـاولة متـواضعة، لا أعرف إن كان غيري قد سبق إليها، لجمـع ما تناثر في أحاديث هرودت من إشارات إلى العرب وبلادهم في القرن الخامس ق.م. وهي محاولة مهمة في نظري، لأنها تضيف، في هذا الوقت الباكر، معلومات توارت في عدد من الكتب التي انقسمت إليها هذه الأحـاديث. والمعـروف أن هردوت كان يذكر، بوصفـه من المصـادر الأدبيـة الأولى، كلمـا تناول البـاحثون موضوع ثروة جنوب الجزيرة العربية في تاريخها القديم في النباتات العطرية ونشاط العرب في زراعتها وتجارتها. وعلى حين أغفل هردوت الحديث عن ممالك جنوب الجزيرة وما حققته من تقدم سياسي وحضاري في فترة سبقت أحاديثه بعدة قرون، نجده يتحـدث عن علاقات عرب في شمال الجزيرة ببعض دول الشرق القديم دون أن يحدد لهم اسماء فجاءت كلمـة عرب مبهمـة لا تكاد تفصح عن هويتهم ومن عساهم يكونون.

ولما وجدته يذكر في الفقرة الواحدة والثلاثين من الكتاب الأول، وفي الفقرة الثانية من الكتاب الثالث ربتهم اللات، وإن كان ذلك بصيغتـين مختلفتـين تذكرت رأياً قال به أولمستيد في كتابه عن الامبراطورية الفارسية أن هردوت وهو يتحدث عن العرب إنما كان يتحدث عن الأنباط وإن كان لم يذكر اسمهم صراحة. وهذه مقولة مهمة يتوقف على الأخذ بها إثبات وجود الأنباط في الوقت الذي كتب فيه هرودت أي في القرن الخامس ق.م وهو وقت مبكر بالنسبة لغالبية المهتمين بدراسة تاريخ الأنباط فهم يؤجلون ظهورهم في شمال الجزيرة إلى فترة لا تبعد كثيرا عن القرن الثالث ق.م ومن هنا جاء اهتمامي في تلك الجزئية من مقالي مركزاً على احتمال الأخذ بمقولة أولمستيد وذلك إذا تتبعنا الدراسات التي دارت حول هذه الربة بوصفها الربة الرئيسة عند الأنباط.

وعنـد مراجعتي لبعض المـراجـع التي اهتمت بمناقشة موضوع اللات، وجدت أن مؤلفيها شغلوا بمباحث لغوية فرأيت أن ألخصها للقارىء وبإيجاز حرصت ألا يخل بفحواها ولو كنت قد أردت المضي في متابعتها لفعلت تماماً ما فعله كاتب المقال من نقل كل ما كتبوه ومن نفس مراجعي التي رجعت إليها وأشرت إليهـا في مقالي. ولكنني آثرت، كما أسلفت، الاكتفاء بإثبات خلاصة دراساتهم، وتوصلت من خلال فهمي لها إلى رأي متواضع لم يستطع كاتب المقال إنكاره (ص ٤١٦ العمود الأول).

وأجد لزاماً عليّ أن أجعل لردي جانبين أحدهما يتعـرض لمآخذ ظنها كاتب المقال وثانيهما مناقشة بعض المسائل اللغوية.

يكاد كاتب المقال أن يعيب عليّ رجوعي إلى الترجمة العربية لكتاب رنيه ديسّو René Dussaud, *Les Arabes en Syrie avant l'Islam* (Paris, 1907.) والتي قام بها الأستاذ عبد الحميد الدواخلي وراجعها الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة، يرحمهما الله، ونشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة في عام ١٩٥٩م بعنوان «العرب في سوريا قبل الإسلام» (يشير كاتب المقال إلى طبعة ثانية لهذه الترجمة صدرت في بيروت في عام ١٩٨٥م) وقد رجعت إلى الطبعة الأولى واثقاً في صاحبها ومكانته العلمية كأستاذ في علوم اللغة وموقنا بأنها تغنيني عن الأصل الفرنسي الذي لم يكن ميسوراً لي عند إعداد مقالي. وعلى عكس ما أراده كاتب المقال، وبغير حق، جاءت الترجمة العربية صحيحة دقيقة وليس هناك ما توهمه كاتب المقال من خطأ أحب أن يظهره فأجهد نفسه فأثبت النص العربي الوارد في ص ١١٤، ولكنه عند نقل الفقرة الأولى، وهي المأخوذة عن الفقرة ١٣١ من الكتاب الأول، وجد بعد كلمة ألئتّا المكتوبة باليونانية رقم (١) وهو إحالة على حاشية بهذا الرقم أسفل الصفحة كما هو متبع. وإذا بكاتب المقال، وعلى غير المألوف، يقحم هذه الحاشية على نص الفقرة حتى أنها لتبدو كما لو كانت جزءاً منها. وعندما أثبت في ص ١١٥ النص الفرنسي لتلك الفقرة أهملها تماماً مكتفيا بالحاشية لأمر رآه وافيا ببغيته لتجريح الترجمة العربية. ثم نجده يسقط من الصفحة الفقرة الثانية من النص الفرنسي بأكملها والسطر الأول ومعظم السطر الثاني حتى عبارة «وفي هذه الحالة...» ثم يكمل النص الفرنسي بعد هذه العبارة.

والواقع أن الأستاذ المترجم أكثر دقة وأقرب إلى الصحة من كاتب المقال، وبذلك تشهد ترجمته الممتازة للحاشية رقم (١) ص ١١٤ فقد فهم تماماً مقولة المؤلف الفرنسي نصا وروحا فهما دقيقا فنقله إلى العربية بصيغة بليغة. ذلك أنه في مقابل العبارة الفرنسية: Ce passage d'Hérodote a souffert قال: «وهذا النص لهردوت اعتراه بعض التغيير» وفهم بالطبع أن ماجاء بعد هذه العبارة إنما هو شرح وتوضيح لهذا التغيير فقال «فاسم مثرا Mithra يذكر على أنه اسم إلهه.» والرسم المخطوط لاسم ألئتّا (والاسم مكتوب بحروف يونانية) قد ذكر لورود كلمة موليتّا (مكتفيا أيضا بكتابة الاسم بحروف يونانية) في نفس الجملة «وعبارة الرسم المخطوط لاسم ألئتّا قد ذكر لورود كلمة موليتّا» عبارة عربية يفهمها المتذوق لبلاغة اللغة العربية العارف بأساليبها وتعني أن الخطأ الذي شاب صيغة ألئتّا إنما يرجع إلى حملها على كلمة موليتّا (الآشورية) وإن ذلك يغني تماما عن استعمال عبارة الصيغة غير الصحيحة (la form incorrecte) التي يصر كاتب المقال، وبعناد على استعمالها وإلّا يكون المترجم قد أخطأ. وسأناقش فيما بعد ما بين ألئتّا وموليتّا من صلة وتشابه. ويريد كاتب المقال أن يحملنا على تصديقة بأن ديسّو إنما حكم بخطأ ألئيتّا ومن ثم وجب استبعادها. ولو أراد ديسّو ذلك لنص على ذلك في المتن وليس في حاشية كما فعل.

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى ما يسميه كاتب المقال المقطع والذي يبدأ بعبارة: (وفي هذه الحالة Dans ce cas) فاننا نقول إنه كما أسلفنا، أسقط من الأصل الفرنسي فقرة مهمة نقلها هو نفسه عن ترجمة الأستاذ المترجم في العمود الثاني من ص٤١١: «ولو صح أن هردوت أورد هذه الصورة، (ويكتبها المؤلف الفرنسي بحروف يونانية فقط وكذلك فعل الأستاذ المترجم، ويكتبها كاتب المقال بحروف لاتينية Alilat وكان ينبغي أن يكتبها بالعربية الإلات وهذا ما فعله الأستاذ المترجم عندما وردت الكلمة بحروف يونانية في الفقرة الثانية من الكتاب الثالث والمذكورة في آخر سطر من الفقرة الأولى من النص العربي ونقله كاتب المقال في العمود الثاني ص ٤١١ ولكنه لم يعن بوضع الهمزة في الإلات كما فعل المترجم)، وكانت كتابتها صحيحة لأصبحت مرادفة للكلمة المكتوبة بحروف عبرية 'el-'elat (ولاحظ الهمزة)، الإلات (ويكتبها كاتب المقال بالعربية ال ـ الـ ا ت ويسقط الهمزة أيضا)، وهو إدغام وسط بين الإلاهت (وهي مكتوبة بحروف عبرية ويكتبها كاتب المقال إل ـ ال أهـ ت ويسقط الهمزة كذلك) والإدغام التام اللّات (وهي في النص المترجم مكتوبة بحروف عبرية.)» وأسقط كاتب

المقـال من أول الفقـرة الثـالثـة من النص العربي المتـرجم عبارة «وربما أمدتنا هذه المقارنة باشتقاق كلمة اللات، ولكن يجب علينا أن نتساءل عما إذا كان هذا الإدغام قد وجد فعلا زمن هردوت.» وبعد هذه العبارة تأتي الجملة التي أولها «وفي هذه الحالة» وهي المقابلة في النص الفرنسي (Dans ce cas) وكان ينبغي على كاتب المقال أن يترجم من النص الفرنسي ما جاء بعدها، حتى يتبين على الأقل ماذا يقصد بهذه الحالة. إذا تابعنا النص العربي تكون الإشارة إلى الإدغـام الذي يتساءل ديسّو إن كان قد وجد فعلا زمن هردوت. وبنـاء عليـه جاءت التـرجمة العربية واضحة وإن كانت في صيغة تساؤل، أي :صورتين نأخـذ بهمـا؟ أهي ألنّتا أو الإلات وأيهما أصبحت اللات؟ وهـذا التعبـير في العـربية هو في الواقع، لو أحسن كاتب المقـال تأمله، ترجمـة صحيحة وفيها شرح للعبارة الفرنسية.

les deux Graphies Alitta et Alilat seraient á corriger en Allāt.

وواضـح أن ديسّـو يثبت القراءتين معا ألنّتا والإلات ويـلقي ظلا من الشـك على كلتيهمـا وإن تصحيحهما باللات إنما هو مقيد بشرط. وهذا الشرط وإن كان كاتب المقال قد فشل في توضيحه واكتفى في آخر العمود الأول من ص ٤١٢ بأن وضع عبارة « في حالة تحقق الشرط ». ويكون الأستاذ المترجم أقرب منه إلى فهم النص الفرنسي وإذا كان ديّسو قد تشكك في الصـورتين ألنتّا والإلات معاً فإنه لم يستطع أن ينكر وجودهما. ولا يكون قد أقر بما يريده كاتب المقال أن يقر به بتخطئة كلمة Alitta ألنتّا. ولا يكون الأمر محسوماً، على حد قول كاتب المقال، بالنسبة له ولا شأن لنا بإقناع هذه الكاتب في عبارته ألنتّا أو كما كتبهـا بحـروف لاتينـة Alitta بأنها قراءة خاطئة. والأمـر محسـوم بالنسبة لديسّو وذلك لأنه يعتبرها خطأ في النسخ مفسراً ذلك ـ في وقته بشكل مقنع في نظري ـ في هامش ١. فديسّـو يرى أن الناسخ قد تأثر بكلمة موليتّا في النص فنسخ كلمة Alitta بدلا من Alilat ويدعم رأيه بخطأ (كذا) آخر حصل في المقطع، ألا وهو أن ميترا ليست بربة والواقع، كما سنرى فيما بعد، أن ليس للناسخ أي علاقة بإثبات Alitta بدلا من Alilat. وإنما هو هردوت نفسه هو المسؤول عن ذلك وهذا ما ذهب إليه الأستاذ وينيت. ونلاحظ أيضا أنه في نفس العمود الثاني من ص ٤١٢ التي أورد فيـه كاتب المقال رأيه المتقدم تحت رقم ١ ـ كرر في رقم (٢) تقـريبـا ما جاء في التـرجمة العربية بقوله بحـدوث الإدغـام الذي نشـأت عنـه كلمة اللات. والغـريب أن كاتب المقـال تحت رقم (٣) من نفس العمـود انتهى ـ دون أن يشعر ـ إلى رفض ديسّو لكلتـا الصـورتين. وكان ديسّو قد أوضح أنهما، ما كانتـا الأصل الذي تطورت إليه كلمة اللات. ولكن يؤخذ على ديسّو انه لم يحسم القضية بشكل مُرضٍ وتركها معلقة. وقد اقترب أكثر الى تفكير ديسّو وأقول أن هردوت سمع اللإلات وسمع موليتّا وسمع العرب يقولون اسما ما فقابله على موليتّا ومن ثم نتج الاسم ألنتـا. وتكـون القضية عندئذ إذا ربطنا بين اللات وبين الصورتين أو الصيغتين الذين سمعهما هردوت يكـون التساؤل منطقيا أي الصيغتين تكون أصلاً للات. ويكون بذلك الأستاذ المترجم قد التزم بالنص الفرنسي ولم يسقط منه شيئاً كما تصور كاتب المقال وأبقى على عبارة:

(on serait obligé de l'admettre ....)

وواضـح أن l' إنمـا تعود إلى الشرط أي شرط القبول بوجوب تصحيح الصورتين اللتين ورد بهما اسم ربـة واحـدة. وقـد علق ديسّـو التسليم بهذا التصحيـح بشرط أن تكـون صورة اللات هي التي سادت شمـال الجـزيـرة ثم انتقلت إلى النصـوص السبئية. ولذلك فاني انصح كاتب المقال باعادة النظر في كل ما كتبـه في ص ٤١٢. وبذلك يكون الأستاذ الدواخلي قد فهم تماما عن ديسّو وأدى ما أراد قوله بعبارة عربية سليمة البناء لا يخطيء فهمها القارىء العربي.

ومع ذلك، ومع كل الضجة التي أثارها كاتب المقال بإنكار ديسو صورة ألنتّا نجده مدركا أو غير مدرك، يقول في العمود الثاني ص ٤١٦ بالحرف الواحد : «إذ مهمـا كان رأى ديسّـو مقنعا بالنسبة للصورة

الشاذة alitta ...» فهو بذلك يظلم ديسّو إذا نسب إليه إلغاء قراءة هذا الاسم الذي يشعر القارىء بأن الكاتب يضيق به كل هذا الضيق.

وأزيد على ذلك بأن كاتب المقال إذا كان مقتنعا بإلغاء صورة Alitta فَلِمَ جشّم نفسه، كما قال في التذييل، مشقة الكتابة إلى الدكتور هوجمان (من جامعة توبنجن) أحد اختصاصي الدراسة الكلاسيكية ليفيده عن أسباب الاختلاف في طبعات هردوت بالنسبة للفقرة ١٣١ من الكتاب الأول فجاء جوابه، ولا أدري إن كان كاتب المقال قد أذهلته الإجابة، بأن صيغة ألتا موجودة في المخطوطات ولكن جون سيلدن في عام ١٦١٧م ! (ولا أدرى علام استخدامه لعلامة التعجب بعد ذكر هذا التاريخ. هل ذلك لأنه تاريخ ممعن في القدم ؟) هو أول من اقترح قراءة Alilat بدلا من Alitta وقال ان هذه القراءة دخلت طبعة اكسفورد (طبعة Hude) (ولم يذكر التاريخ) غير ان روزن (Rosen) وهو مؤلف آخر نشرة لهردوت (!) (علامة التعجب من عندي) قد قام بإخراج Alilat من النص مرجحاً Alitta أي الصورة الموجودة في المخطوطات. وأشار الكاتب في حاشية ٣١ ص ٤١٦ إلى أن كاتب روزن صدر في ليبزج في عام ١٩٨٧م. وكان ينبغي أن يضع علامة تعجب هنا. وطبيعي ألا يكون روزن هو مؤلف آخر نشرة لهردوت لأن كتابه صدر في عام ١٩٨٧م ذلك أن الكاتب في حاشية ٨ ص ٤١٠ أشار إلى كاتب ألماني آخر أصدر في ميونخ وزيورخ طبعة أحدث لهردوت في عام ١٩٨٨م. وكنت أتمنى لو أن الكاتب استوضح من أستاذ توبنجن لماذا أعاد روزن صورة أليتّا وهل ظهرت في طبعة ١٩٨٨م هذه الصورة أم صورة الإلات. ومادام قد رجع اليها كما قال بذلك في حاشية (٨) ص ٤١٠ كان عليه أن يبين لماذا فضل صاحبها هذه الصورة في حين أن طبعة ١٩٨٧م فضلت صيغة ألتّا. ويتفرع عن هذا كله القول بانه بين عامي ١٦١٧ و١٩٨٧م كانت هناك طبعة رجع إليها ديسّو في عام ١٩٠٧م وطبعة أخرى في عام ١٩٤٠م رجع إليها وينيت وذكر اسم الربة، في كل منهما، بصورة ألتّا، ولم يشر أي من العالمين إلى الطبعة التي رجع إليها ولا إلى ناشرها واكتفيا بذكر رقم الكتاب ورقم الفقرة، مثلما فعلت، لأن ذلك هو نهج المشتغلين بالدراسات الكلاسيكية، ولا أدرى إن كان كاتب المقال يعرف التزام ناشري النصوص الكلاسيكية في أي مكان بتقسيمها إلى كتب أو فصول وفقرات حتى أن الباحث يكفيه الإشارة إلى مارجع إليها منها موضحا فقط بارقام الكتب والفصول والفقرات فلا داعي أذن لحيرة الكاتب في أن يعرف الطبعة التي رجعت إليها. ولا أريد أن ادخل مع الكاتب أيضا في جدل حول ما يعيب الطبعات التي يحرص ناشروها على أن تتضمن نشر النص باللغة اليونانية أو اللاتينية ومعه ترجمته بلغة حديثة ما دام الناشر ملتزم بقواعد النشر العلمي التي تهدف إلى تحقيق النص ليأتي صحيحا سليما. من ذلك مثلا ما قاله جودلى A.D. Godley في المقدمة التي صدر بها الجزء الأول من أحاديث هردوت والتي نشرت في أربعة أجزاء في مجموعة L.C.L. Loeb Classical Library (p.xvii) قال الكاتب في ص ٤١٠ أنها لديه، من أنه اعتمد على نص شتين H. Stein الذي تضمن ملاحظات باللغة الألمانية، في حين أن الكاتب لم يوضح النص الذي اعتمده الناشر الألماني في النسخة التي تتوافر لديه أيضا. وأسأل الكاتب إن كان النص اليوناني في هذه الطبعة الألمانية قد ذكر في الفقرة ١٣١ من الكتاب الأول اسم الربة السماوية - اورانيا مقرونا باسم الربة الإغريقية أفروديتي مع ملاحظة ان جودلي في نشرته الإنجليزية فعل ذلك ويحيل إلى الفقرة ١٠٥ من الكتاب الأول ليبرر ما فعله إذ ورد في تلك الفقرة وصف افروديتي بأنها السماوية (اورانيا). ونجد الكاتب في نقله لتلك الفقرة١٣١ في ص ٤١١ يفعل ما فعله جودلي بأن أضاف افروديتي إلى الربة السماوية والنص اليوناني خلو منها. فهل جاء ذلك أيضا في الطبعة الألمانية. في جميع الحالات كان يجب على الكاتب أن يلحظ ذلك وأن ينوه به، وإلا ساورني الشك في أنه رجع فقط إلى طبعة جودلي. وأسأل عن هدفه من ترجمة ما ترجم من فقرتي ١٣١ من الكتاب الأول والفقرة الثانية من الكتاب الثالث وكان يكفيه أن الربة وردت في الفقرتين بصورة أليلات كم يكتبها. على أي

حال حسنا فعلا لأن القاريء يستطيع أن يتبين مدى التزامي بالنص اليوناني.

في أعلى ص ٤١٠ (العمود الأول) يرى الكاتب أن انطلاقتي الأصلية عن الربة التي ورد اسمها بصورتي ألنّتا وأليلات كنت متأثراً إلى حدما بطرح وينيت للموضوع، على حد تعبيره، وهذا غير صحيح ولا أدري ما الذي أوحى إليه بهذا التجفل غير الصائب. فهذا تساؤل خاص بي ولا علاقة له بوينيت وإنما كنت، كما يشهد الكاتب نفسه في حاشية ٧ ص ٤١٠، كنت أحاول أن اتبين إمكانية الربط بين ما قال به أولمستيد بأن عرب هردوت هم الأنباط. ومرة أخرى لا داعي أن ينسب اليّ الكاتب مالم أدعه لنفسي فقد حرصت أن أثبت لأولمستيد مقولته وبكل وضوح (راجع ص ٩ حاشية ١٠) فليس إذن ثمة ما يدعو الكاتب ان يقول في حاشيته يبدو أن صاحب التساؤل هو أولمستيد!!.

ولا يرضى الكاتب عن استعمال صيغة ألنّتا ويريد أن يقنعنا بخطأها بالرغم مما وضح من أسلفنا ذكره أن هذه الصيغة موجودة، وبشهادته، في طبعات لهرودت. وفي (حاشية ٣ ص ٤٠٩) يحاول أن يظهر خطأ استعمال الأستاذ الدواخلي للهمزة، وهذا ينسحب عليّ أيضا لقوله بمتابعتي له. وأقول أن نقل كلمة يونانية إلى اللغة العربية لا يخضع لقاعدة محددة ثابتة. ويهتم المهتمون بالدراسات الكلاسيكية مراعاة الصوت الذي كانت تنطق به الكلمة بقدر الإمكان طبقا للعصر والمكان. وقد يكون إبراز الهمزة هنا، في ألنّتا وغيرها من صور تلك الربة كما سبق وأن لفت النظر إلى أن الكاتب لا يهتم بالهمزة، أمراً مهماً إذا كانت الكلمة مكتوبة في نص ديسّو وعند غيره بحروف عبرية فإن ظهور الهمزة أمر ضروري وما كان ليغيب عن أستاذ متمكن من اللغويات ضرورة التقيد بالصوت الذي ينطق به الكلمة أو الاسم.

ومن المثير حقاً تعليق الكاتب في الحاشية رقم (٧) ص ٤١٠ على ما ذكرته في مقالي حاشية رقم ١١ ص ٩ من أن أولمستيد لم يتنبه إلى ما كتبه وينيت عن الأنباط الخ... بقوله أن أولمستيد كان قد توفي في عام ١٩٥٤م كما أفاده بذلك أستاذ هيدلبرج مع أن كتاب وينيت صدر في عام ١٩٧٠م. وهذه معلومات مهمة بلا شك ولا تخلو من طرافة ولو كان هناك كتاب عن وفيات المؤرخين على غرار كتاب «وفيات الأعيان» لكنت قد عدلت عن استخدام عبارة «ولم يتنبه اولمستيد». ومع ذلك ليس هناك ما يبرر انزعاج الكاتب والمبادرة إلى سؤال ذلك الأستاذ من هيدلبرج. فالقضية ليست مَنْ مات قبل مَنْ وإنما القضية هي أننا بصدد فكرة رآها اولمستيد تتعلق بعرب هردوت وهل هم الأنباط. وعن الأنباط دارت مناقشة وينيت. ولا أريد أن أقول لو كان الأجل قد امتد بأولمستيد بعد صدور كتاب وينيت ربما ظفرنا بمناقشة علمية طريفة ومهمة. وإزاء كل ذلك كان لابد من الاهتمام بالمناقشة التي أدارها كل من ديسّو (١٩٠٧م) ووينيت (١٩٤٠م) عن الصورة التي ظهر بها اسم معبودة عرب هردوت في شكل ألنّتا، ومتابعة سعي كل منهما، مع تباعد زمنيهما، إلى إثبات الصورة الحقيقية التي كانت عليها الربة اللات في القرن الخامس ق.م.

وفي ص ٤١٢ ذكر الكاتب إني ذكرت الربة بصورة الثلالات وعدّ ذلك (في حاشية ١٨) خطأ مطبعيا، ثم عاد في المتن ليقول بخطأ الكلمة لأن هذا الاسم لم يظهر عند المؤلفين القدامى منهم والمحدثين. وردي على ذلك اني اكتب بالعربية فأدخلت على اسم ألإلات أداة التعريف العربية «الـ» فلو فصلناها عن الكلمة لبقي الاسم سليما. بدون أن تعلو الهمزة النبرة. وأكرر أن إبراز الهمزة مهم وهو لا يثنيها لأنه يترجم عن اللاتينية التي اهملت استخدام رمز الهمزة ولا بد وأن يكون الكاتب مدركا لهذه الحقيقة.

وقد ذكر الكاتب في حاشية ١٢ ص ٤١١ خاصا بالاله الفارسي مترا أو مثرا من أنه كان يجب عليّ إصلاح خطأ هردوت عندما ذكر أن مترا ربة وليست باله. وهذه الملاحظة فيها الكثير من الافتعال. واحيل القاريء إلى حاشية (١) ص ١١٤ في الترجمة العربية لديسّو والتي سبق وأن ناقشناها، وجاء فيها «هذا النص لهردوت قد اعتراه بعض التغيير فاسم مترا يذكر على أنه اسم الهة الخ...» أو ليس هذا بكاف لفهم خطأ هردوت لكل من يعرف أن مترا إله

وليس بالهة؟! ولذلك من العجب أن الكاتب يخصص الحاشية (١٢) ص ٤١١ ويقول فيها «هكذا أيضا في النص الفـرنسي». وكان من المفروض أن يعلق عبد العليم على هذا الخطأ في نص هردوت ولكنه عرض هذا المقطع دون تعليق تاركا في حيرة من أمره القاريء الذي يعرف ان مترا ليس ربة وطبيعي ألا أعلق مثلما فعـل ديسُّـو نفسـه ومترجمه الأستاذ الدواخلي لأن المفهوم من منطوق العبارة أنه يؤخذ على هردوت ذكر مترا على أنه الهة أو ربة. والواقع أنه مادار بخلدي قط أن الأمر في حاجة الى تعليق وممكن أن نترك ذلك القاريء في حيرة وهو الذي يعرف أن مترا اله وليس ربة.

في ص ٤١٢ العمـود الأول. ينفى عليّ الكـاتب ذكرى لكتاب توفيق فهد وكتاب وينيت وريد كمراجع عامة عن اللات. وأنا لم أقل عامة وإنما قلت عموما. وهـدفي أن أرشـد القـاريء الذي يريـد التوسع في موضوع اللات، إلى الرجوع الى المراجع التي تهتم بهـذا الأمـر. ويلوح لى، كمـا يظهر من حاشية ٢٢ ص ٤١٤ أن الكاتب ما كان يدرى ما هو كتاب توفيق فهد.

ويتصـل بهـذه النقطة مأخذ عجيب يأخذه عليّ الكـاتب عنـدما يعيب عليّ في ص٤١٦ استخدامي لأربعة من المراجع فقط ثم ينزل بها إلى اثنين لأنه يقول في حاشية ٢٩ من تلك الصفحة ما نصه: «إذا تذكرنا انه لا يعرض ما يكتبه ريد وتوفيق فهد فهما مرجعان فقط اي ديسّو ووينيت. ولا أدرى إن كان الكاتب مدركا أنه متحامل غير منصف فغير صحيح أنني لم أعـرض في مقـالي لما جاء عن توفيق فهـد وللقاريء أن يعود. ليقرأ بنفسه، إلى مقالي ص ٢١ حاشية ٥٠ ما نقلته عن هذا المؤلف . فاذا تبين ذلك للكـاتب أيضا عليه ان يتفضل مشكورا برفع عدد المـراجـع الى ثلاثة اما بالنسبة لريد فاسمه مقترن بوينيت في كتابهما حتى إنى في الرجوع إلى احدهما كنت اذكر الكتاب منسوبا لهما معا وهذا أمر يضيق به صدر الكاتب بعض الشيء. وما دام الأمر كذلك فليرجـع الكـاتب عدد مراجعي الى أربعة كما كان. وأتساءل ماذا يعيب عملى إذا زاد عدد المراجع عن أربعة أو نقص عنها. المهم أننى استطعت من خلالها إيضاح الفكرة التي أردات أن أبسطها للقاريء بل لا أبـالغ إذا قلت أن الكاتب لم يكن في استطاعته أن يكتب ما كتبت في موضوع اللات لو لا أننى أرشدته إليها بطريق مباشر أو غير مباشر. ولذلك أسأله ماذا أضـاف من مراجع عليها. ثم أعرج إلى قوله المثير للدهشـة والتعجب «أن عبد العليم يستخدم أربعة مراجـع فقـط وذلك في موضـوع مطروق بكثرة بين أوسـاط المتخصصـين. أو الاختصـاصين على حد تعبـيره - في حقول مختلفة يعددها...الخ» فما دام الكـاتب على هذا القدر من العلم بأمر ما كتب عن اللات وفي هذه الحقول المتعددة فلماذا لم يستخدم بعض هذا الذي كتب ليضيف الكثـير والجـديد في الموضوع فنحمد له حسن صنيعه وإسهامه معنا في استكمال ما أوجزنا في هذه الجزئية من مقالنا.

أما قوله أن اقدم مرجع رجعت إليه يرجع تاريخه إلى عام ١٩٧٠م فأمر مثير للدهشة أيضا وقول يلقى على عواهنـه وينبغى ألا يعتد به. ومن الطبيعي أن تكون هناك دراسات ودراسات وليس في العلم كلمة أخيرة ولن تكون. وأعود فأسأله، وما أكثر ما سألته، ماذا قدم هو من مراجع حديثه اللهم إلا إذا كان ذلك البحث للدكتور فوزي زيادين ضمنه مقالا لم يذكر الكاتب عنوانه نشر في كتاب ضم عدداً من الأبحاث وكان الناشر له ليلى كحيل وكريستيان أوجيه صدر في عام ١٩٨١م راجع حاشية الكاتب (٣٠) ص ٤١٦. ومـا ذكـره الدكتـور فوزي زيادين، أو ما نقله عنه الكـاتب، يكـاد أن يهـدم معظم ما أقام عليه نقده وتجريحه لأنه يثّبت استعمال اسم ألتَّا التي تؤرقه وتقلقه أشد القلق واترك القاريء وكلي ثقة في فطنته، ليقـرأ بنفسه ما كتبه الكاتب في آخر العمود الأول وبداية العمود الثاني من ص ٤١٦ «مهما كان رأى ديسّـو مقنعا بالنسبة للصورة الشاذة (؟) ألتّا، (ويكتبها باللاتينية Alitta فإنها، وهذه طبيعة الأمور، وجدت تفسيرا جديداً (وهو تفسير الدكتور فوزي) لم يفكر فيه ديّسو أنذاك (عام ١٩٠٧م) ومفاده أن هذه الكلمة لها علاقة بالأصل العربي (أو السامى) عليّ (والأصـح علا) مما يناسب معنى كلمة أورانيا أي

السمــاويــة» اذن فكــاتبنا، بعد أن أجهد نفسه في محاولة مضنية ليثبت خطأ ديسو لإبقائه على قراءة الاسم ألتّا يعود ويثبته له، وهو فرح، لأن الدكتور فوزي زيــادين وجـد تفسيرا لها في عام ١٩٨١م لم يخطر على بال ديسّو .

وما دام الكاتب قد أقر بوجود ألتّا فان عليه أن يوافق على النص الذي اعتمده ديسّو للفقرة ١٣١ من الكــتــاب الأول. وتصبــح القضيــة التي تستحق المنـاقشــة هي لماذا قاس هردوت ألتّــا على موليتــا الأشورية أو بعبارة أخرى إذا كانت ألتّا ترجع الى الحمل على موليتا الا يوحى هذا بوجود صلة بينهما ؟

ونجد الإجابة أو تفسير ما ذهب إليه هردوت ما قاله الكــاتب نفسه في ص٤١٥ بأن الفرع الشرقي للغات السامية لا يعرف حرف الهاء (في كلمة Al-lâhetā الآرامية او السريانية النطق) والتي تحولت إلى اللات. وكلمة رب في الأكادية ilum ومؤنثها التوم Iltum ومن السهــل تصــور تحــولها إلى موليتا وعلى كاتبنــا ان يتأمل وبترٍو ماذكره هو نفسه في العمود الأول من ص ٤١٥ بصفة خاصة.

وأقول باختصار شديد، إذا كانت موليتّا أشورية والتوم أكادية، فبالتالي تكون موليتّا مشتقة من الجذر (ال). وكانت كل هذه المعطيات، وبلا شك أمام ديسّو، فاذا به يدعها جانبا، وهو بصدد البحث عن أصل اللات في حين كان يجب أن يبحث عنه في الجذر (ال) الأكادي و (ا ل هـ). وإذا كان الجذر واضحا أمامه هل يعقـل أن يستبعـد ألتّــا تماما. والحال كذلك، بالنسبة للأستاذ وينيت فقد استبعد كلية صيغة ألتّا مع أنها تحتوي على الجذر (ال) وذلك في الوقت الذي يرفض فيــه (ال) كأداة تعريف عربية فأرجع اسم الربة الى الأصل الأرامي وبنطقه السرياني allaheta وكان ينبغي على كاتب المقال، وهو يناقش الجذرين (ال) و (ا ل هـ)، أن يطبق دراستــه على القضيــة المثارة، ولما كان قد استبعد صيغة ألتّا متأثرا في ذلك بديسّو من احتمال ألا تكون أصلا للات مع انها هي الصيغـة الوحيدة التي أشتقت من الجذر الأكادى (ال). والذي منــه صيغت موليتــا الأشورية، والتي قاس عليها هردوت الاسم الذي سمعه من العرب. ولو أن كاتبنــا فهم فهماً حسنا ما قاله ديسّو الفرنسية ونقله الأستاذ الدواخلي بعربيته الجميلة الواضحة بدلا من أن يشغل بتجريح ترجمته، لما استنبط أن ديسّو استبعد صيغة ألتّا تماماً ـ ولا أريد أن أكرر ما قاله وينيت بحكمه بخطأ لحق بهذه الصيغة واعتبر هردوت نفسه مسؤولا عنه. ولعل كاتبنا يعيد النظر في كل ما جاء في مقــاله خاصــا باللات وصيغــة ألتّــا الشاذة في نظره في ضوء ملاحظتي هذه، وفي ضوء كل مايجب أن يفهمــه عن ديسّــو في نصــه الفرنسي أو العربي وفي ضوء كل ماكتبه وينيت في مبحثين يفصل بينهما ثلاثون عاماً.

وأحب أن أوكد أنني، أثناء إعداد مقالي أمعنت النـظر في دراســات ديسّو ووينيت وتتبعتها بشغف وعمق ولم أشأ أن أرهق، القاريء بالمناقشات اللغوية التي لازمت هذه الدراســات فاكتفيت بتلخصيهــا وطرحت سؤالا بقــولى «أليس من المعقول أن يكون هردوت قد أثبت، عمن نقل عنهم، اسم ربة بعينها، كان العــرب يعــرفونها باسم اللات، وإن هذه الربة تقابلها عند الأغريق الربة أفروديتي أورانيا أيا كانت الصــورة التي وردت بهــا عنــده ألتّا أو الئلات ؟ (العمود الثاني ص ٢٠ من مقالي). وأضيف موضحاً أن هرودت سمع الئلات وسمع موليتا وسمع العرب يقولون صيغة فقاسها على موليتّا فانتج اسم ألتّا. ولو ربطنا بين اللات وبين هاتين الصورتين، فلا بد وأن يكــون احداهما أصلا لها، وبذلك إذا كنت قد التقيت في هذا الرأي مع رأي وينيت فإنه يكون لي حظ الباحث المتواضع.

Consultants

All MSS should be addressed to:

- Mars Publishing House,
P. O. Box : 10720, Riyadh 11443,
Saudi Arabia
The Arabic Publishing & Distribution House Ltd.
49 Goldhawk Road
London W12 8 QP
England

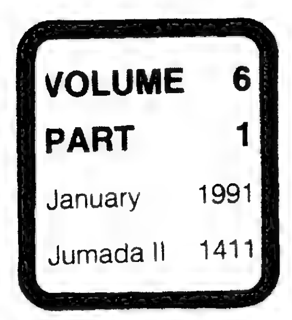
ANNUAL SUBSCRIPTION RATE:

- Saudi Arabia	S.R. 100
- All Arab Countries	U.S.$ 35
- All European Countries	U.S.$ 40
- U.S.A. & Canada	U.S.$ 45
- Australia & South Asia	U.S.$ 50

P.O. Box 10720, Tel. 4647531 - 4658523, Fax 4757939, Telex 493129 MARS SJ.



A Semi - annual Journal of Historical, Archaeological and Civilizational Studies


VOLUME 6
PART 1
January 1991
Jumada II 1411



Published by: **Mars Publishing House London**



مجلة علمية نصف سنوية، مُحكّمة، تعنى بنشر البحوث التاريخيّة والآثاريّة والحضاريّة

المجلد السادس
الجزء الثاني
يوليو ١٩٩١ م
ذو الحجّة ١٤١١ هـ



تصدر عن: دار المريخ للنشر - لندن

* ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي أصحابه


بسم الله الرحمن الرحيم

المستشارون

المراسلات والاشتراكات لجميع دول العالم يتفق بشأنها مع

ـ دار المريخ للنشر ـ ص. ب ١٠٧٢٠ الرياض ١١٤٤٣ ـ المملكة العربية السعودية

ـ الدار العربية للنشر والتوزيع ـ ٤٩ جولد هوك رود، لندن ـ W128QP ـ المملكة المتحدة.

الاشتراكات السنوية

ـ المملكة العربية السعودية (١٠٠) ريال سعودي

ـ الدول العربية (٣٥) دولاراً أمريكياً أو ما يعادلها

ـ الدول الأوروبية (٤٠) دولاراً أمريكياً

ـ أمريكا وكندا (٤٥) دولاراً أمريكياً

ـ أستراليا وجنوب شرق آسيا (٥٠) دولاراً أمريكياً.

العصور، المجلد السادس، الجزء الثاني، ٢١٧ ـ ٤٢٨ (١٩٩٠م)

المحتويات

القسم العربي

● بحوث

● مناقشات وتعليقات

● نقد كتب



العصور . المجلد السادس. الجزء الثاني، ٢٢٣ ـ ٢٣٠ (١٩٩١م)

نقـوش نبطيـة من العُـلا*

في المملكة العربية السعودية

للدكتور سليمان عبد الرحمن الذييب
والدكتور عبد الله آدم نصيف

ملخص البحث : **يشتمل هذا البحث على دراسة تحليلية لأربعة نصوص نبطية نقشت على حجر وجد خلال حفريات غير منظمة في تل اثري في العُلا قريبا من الخريبة الموقع الرئيس لمدينة ديدان العاصمة اللحيانية التي فقدت مركزها السياسي والتجاري بعد سيطرة الأنباط على الحجر، وقد تم في هذا البحث قراءة الكلمات التي اشتمل عليها كل نص وترجمة معانيها، كما بذلت محاولات جادة لقراءة الأحرف غير الواضحة والأحرف غير المكتملة ومقارنتها، ومقارنة الكلمات التي صيغت من هذه النصوص بما ورد في نصوص أخرى مشابهة سواء النبطية منها أو السريانية أو ما شاكلها.**

تشتمل العُلا ـ المعروفة قديما بديدان ـ على عدد من المواقع الأثرية المتناثرة هنا وهناك حول الخريبة الموقع الرئيس للعاصمة اللحيانية القديمة (ديدان)، غير أن هذه المواقع لم تخضع مثل الخريبة للفحص والدراسة، وأمام تلعة الحماد المحاذية للأجزاء الجنوبية وبالتحديد غرب سكة الحديد المعطلة (أنظر الخارطة١)، يوجد في الضفة الغربية لمجرى الوادي موقع أثري صغير تنتشر على سطحه كسر الفخار والحجارة، وقد بنى أهل العُلا في وسطه قلعة تعرف بقلعة بئر وطيف وهي ضمن عدد من القلاع الأخرى التي بنيت حول بلدة العُلا في الثلاثين من القرن الهجري المنصرم وتحتل مساحة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٥ر١٠متر ومن الشرق إلى الغرب ٨٠ر٤متر، وفي أثناء البحث عن الحجارة المشذبة والجاهزة للبناء كشف أحد المواطنين في عام ١٣٩٧هـ /١٩٧٧م عن حجر منقوش بالخط النبطي وعن حوض حجري دائري وغطائه (لوحة١) وحجم الحوض صغير جداً مقارنة بالأحواض التي كشفت عنها حفريات مشابهة في الحجر المركز الرئيس للأنباط في تلك المنطقة وبالتحديد في الموقع المسمى في خارطة جوسين وسافنياك بالزميلة.[1] ويبلغ قطر الحوض ٨٦سم وارتفاعه ٦٠ سم وسمك جداره ٥سم

(*) يود المؤلفان أن يقدما جزيل شكرهما إلى الدكتور J. Healey قسم الدراسات الشرقية، جامعة مانشستر، انجلترا على تفضله بمراجعة هذا البحث وللمقترحات التي ابداها.

الاختصـــارات

Cantineau = J. Cantineau., *Le Nabateen*, 1930; Harding, *Index* = G. Harding., *An Index and Concordance of Pre-Islamic Arabian Names and Inscriptions*, 1971., Stark, *PNP* = J. Stark, *Personal Names in Palmyrene Inscriptions*, 1971., al-Khraysheh, *PNN* = F. al-Kharysheh., *Die Personennamen in den nabataischen Inschriften des Cropus Inscriptionum Semiticarum*, 1986., Levinson, *NAI* = H. Levinsony, *The Nabataean Aramaic Inscriptions*, 1974; Klugkist, *MAS* = A. Klugkist., *Midden. Aramese Schnften in Syrie. Mesopotamie', Perzié en Aangrenzende Gebieden, 1982;* Abbadi = S. Abbadii *Die Personennamen der Inschriften aus Hatra*, 1983; Js = A. Jaussen, R. Savignac, *Mission Archeologique en Arabie*, 1909. 1914; Ryckmans = G. Ryckmans., *Les noms Propers sud-semitique*, 1934; Euting, Nab J. Euting, *Nabataische Inscriften aus Arabien* 1885: *BIA* = Bulletin of the institute of Archaeology.; MME = *Manuscripts of the Middle East.*

(١) A. Jaussen and R. Savignac, *Mission Archeologique en Arabic* (Paris: La Societe de Fouilles Archeologique, Atlas, 1914), Pl. XXXVII; P. Parr, G. Harding, G. and J. Dayton, "Preliminary Survey in N.W. Arabia, 1968", *BIA* No. 10 (1972), p. 26, Pl.2.

ويلاحظ أن غطاء الحوض بدون مقبض ويوجد به فتحة صغيرة ولا نستطيع التكهن بالغرض الذي صنع من أجله، ومما يؤسف له حقا أن هذا التل الأثري المهم قد تعرض في عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م للإزالة كلياً تقريباً من جميع جهاته وذلك لغرض استصلاح الأراضي للزراعة فقد جرف التراكتور التل الأثرى بأكمله من الجهة الشرقية للقلعة والتي كشف فيها عن النقوش النبطية والحوض الحجري، الأمر الذي جعل إمكانية التعرف على هوية المكان فيما بعد أمراً صعباً (أنظر لوحة ٢و٣). ويشتمل الحجر المنقوش بالخط النبطي، والذي وجد في هذا المكان، على أربعة نقوش[٢] ولكن بفحص هذه النقوش النبطية الأخرى المكتشفة في العلا والتي سبق نشرها نجد أنها لا تدل على احتلال نبطي للعلا (ديدان) غير أن هذا لا ينفي استقرار عدد من المواطنين الأنباط في ديدان التي لا تبعد عن الحجر سوى خمسة عشر كيلا.

وقبل دراسة هذه النقوش الأربعة نود أن نشير على عجل إلى ماهية قطع الفخار المنتشر بكثرة على سطح الموقع فلعله يلقى ضوءاً على تاريخ هذا المكان وهذه النقوش وبفحص عدد من الشقف الفخارية وجد أن معظمها من أنماط مختلفة لفخار خشن البنية وأغلبها عليها زخارف محززة، ويبدو أن معظم هذه الشقف يعود تاريخها إلى فترة متأخرة تقع ما بين القرن الأول ق.م والقرن الثالث الميلادي.

تحليل النصوص

لقد نقشت هذه النصوص الأربعة على حجر رملي أحمر مربع الشكل بمقاس ٤٥×٤٥ سم وبسمك قدره ٢٠سم بالرغم من أن الحجر مربع الشكل إلا أنه من الواضح أن حوافه مهشمة مما جعل قراءة النقشين الأول والرابع صعبة نوعا ما (لوحة ٤)

النقش رقم (١)

النص:

١ - أ ب و ب ر م ت ن و أ خ و ك ب ي د ق و م ى

٢ - ب ر ج ر م أ ل هـ ى ب ر ى ك ل ع ل م ب ط (ب)

الترجمة:

١ - أبْوبن م ت ن و أخوك بواسطة يد(عمل) ق و م ى

٢ - بن ج ر م أ ل هـ ى. مُبارك إلى الأبد بالخير.

التعليق:

لقد كتب النقش بطريقة سيئة خصوصا الجزء الأول من السطر الأول مما جعل قراءة النقش وتفسيره أمراً ليس سهلا.

أ ب و وهي القراءة الأكثر قبولا، وهو اسم علم من كلمة واحدة ويعني «أ ب» وقد ورد اسم مشابه له في المصادر العربية وهو أبى تغير لأب أو مشتق من الأبُّ بمعنى المرعى[٣] وفي النقوش النبطية الأخرى ورد اسم مشابه (أ ب أ)[٤] أ ب أ و أ ب ى و أسمين ظهرا في النقوش الثمودية[٥]، وفي النقوش الحضرية نجد الاسم أ ب و[٦] وكذلك في النقوش التدمرية أ ب أ[٧].

م ت ن و وهو اسم علم مسبوق بالاسم ب ر كلمة للدلالة على النسب وقد ورد في النقوش النبطية

(٢) لقد نشرت صورة لهذه النصوص دون أن تدرس في كتاب:
A. Nasif, *Al-'ula: An Historical and Archaeological Survey with Special Reference to Its Irrigation System* (Riyadh: King Saud University Press, 1981), pl. CL XVII.

(٣) ابن دريد، أبي بكر محمد بن الحسن، **الاشتقاق**، وشرح عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مؤسسة الخانجي، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م).

(٤) J. Cantinean, Le *Nabateen* (Paris, 1930), p. 55; F. Khraysheh, *Die Personennamen in den Nabataischen Inschriften des Corpus Inscritionum semiticarum* (Dissertation, Marburg/Lahn, 1986), p. 24.

(٥) G. Harding, *An Index and Concordance of pre-Islamic Arabian Names and Inscriptions* (Toronto: Near and Middle East Series, 1971), p. 17.

(٦) S. Abbadi, *Die Personennamen der Inschriften aus Hatra* (Dissertation, Tubingen Zarka, 1983), p. 72

(٧) J. Stark, *Personal Names in Palmyrene Inscriptions* (Oxford: The Clarendon Press, 1971), p. 63

الأخرى.[٨] وأفضل تفسير لهذا الاسم رغم اقتراح ستارك[٩] الذي فسر الاسم بأنه اسم مختصر مشتق من الجذر السامي ن ت ن بمعنى «أعطى أو قدم» هو أنه قد اشتق من نفس الجذر العربي مَتُنَ أي «صلب أو قوي».[١٠]

وعليه فهو اسم علم من كلمة واحدة يعني «الصلب أو القوي».

أ خ و ك وهي كلمة متكونة من الاسم أخ الذي سبق أن ظهر في النقوش النبطية الأخرى[١١]، مع الضمير المتصل لشخص الثاني الذي عرف في كل من الآرامية اليهودية الفلسطينية[١٢] واللغة العربية. وحسب معلوماتنا فإن هذه الظاهرة اللغوية تظهر هنا في النقوش النبطية لأول مرة.

ب ى د وهذه الكلمة هي أصعب ما في هذا النقش فقراءتها تحتمل عدة احتمالات. الاحتمال الأول أن نعتبر هذه الكلمة تتكون من علامتين: الأولى تقرأ «ح» وقد ورد شكل مقارب لهذه العلامة في النقوش النبطية الأخرى وهي في العادة عبارة عن خطين عموديين متصلين بخط أفقي تقريبا من وسط هذين الخطين العموديين.[١٣] لكن في مثالنا هذا نجد الخطين العموديين متصلين بخطين أفقيين وهذا الشكل مقارب لشكل علامة «الحاء» في الآرامي القديم.[١٤] يلي ذلك العلامة الأخرى المكونة لهذه الكلمة والتي يحتمل أن تقرأ «د» أو «ر» نظرا للتشابه الكبير بين هذين الحرفين[١٥]، وهكذا فإن هذه الكلمة تقرأ حد أو ح ر لكننا نرجح القراءة الأولى نظراً لأنها قد ظهرت في النقوش النبطية الأخرى وتحمل معنى «واحد».[١٦]. ونظرا لعدم توافق هذا التفسير مع القراءات السابقة واللاحقة في النص لذا فانه يصعب في الواقع الاستناد عليه. والاحتمال الثاني أن نعتبر هذه الكلمة تحتوي على ثلاث علامات تقرأ كالتالي:

الأولى تقرأ «هـ»[١٧] ثم بكل تأكيد «ى» و «ر» وهكذا تقرأ الكلمة هـ ى ر أو هـ ى د وهاتان الكلمتان لم تردا من قبل في النقوش النبطية الأخرى مما يجعل قبولهما أمراً صعباً، والاحتمال الثالث والذي ربما يحل لنا معضلة قراءتها هو اعتبار أنها تتكون من ثلاث علامات: الأولى ربما كانت شكل غير طبيعي لحرف «ب» خصوصا إذا اعتبرنا الخط الأفقي الأعلى قد أضيف بطريق الخطأ وقد ورد شكل مشابه وتمت قراءته على أنه حرف «ب»[١٨] يلي ذلك العلامتان التاليتان وتقرءان على التوالي «ى»، «د» وبذلك تقرأ هذه الكلمة ب ى د يعني «بيد» المكونة من حرف الجر الباء والاسم يد وقد وردت في النقوش النبطية الأخرى.[١٩] وهذه القراءة رغم صعوبتها تجعل سياق المعنى أكثر قبولا.

ق و م ى اسم علم بصيغته هذه يظهر للمرة الأولى في النقوش النبطية فالصيغة الاعتيادية هي

(٨) Khraysheh, *PNN*, pp.116 - 7.

(٩) Stark, *PNP*, p. 98.

(١٠) ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب** (بيروت: دار صادر، ٦/١٩٥٥م)، الجزء ١٣، ص٣٩٨.

(١١) H. Levinson, *The Nabataean Aramaic Inscriptions*, unpublished Ph.D. thesis, New York University (1974), p. 123.

(١٢) W. Stevenson, *Grammar of Palestinian Jewish Aramaic* (Oxford: Clarendon Press, 1962), p. 38.

(١٣) J. Euting, *Nabatäische Inschriften aus Arabien* (Berlin: Herausgegeben mit Unterstutzung der Koniglich Preussischen Akademie der Wissenschaften, 1885), p. 23; A. Klugkist, *Midden - Aramese Schriften in Syrie, Mesopotamie, Perzie en Aangrenzende Gebieden* (Rijksuniversiteit et Groningen, 1982), pp. 22 - 223.

(١٤) G. Cooke, *A Text-book of North - Semitic Inscriptions* (Oxford: Clarendon Press, 1903), pl. XIII, column No: 3; J. Gibson, . *Textbook of Syrian Semitic Inscriptions*, vol. 2. *Aramaic Inscriptions* (Oxford: Clarendon Press, 1985), p. 178.

(١٥) J. Haaley, "Nabataeen to Arabic: Calligraphy and Script development Among the pre-Islamic Arabs," *Manuscripts of the Middle East* (1990, Forthcoming), table, 1.

(١٦) Levinson, *NAI*, p. 156.

(١٧) Klugkist, *MAS*, p. 223, column No. 3 (Noord - Arabic); Healey, *MME*, table, I; column No. 14.

(١٨) Klugkist, *MAS*, p. 223, column No: 3 Noord - Arabic).

(١٩) Cantineau, p. 102.

ق ي م ي بالياء وليس الواو[٢٠] وهذا الاسم كلمة واحدة ربما تعود (رغم انه من الصعوبة تفسير الواو) إلى الاسم العربي قَيِّم بمعنى «الأبرز أو الأعلى أو المسيطر» والتي اشتقت من الجذر قوم[٢١] وعلى كل حال فإن هذا الاسم ظهر بشكل جيد في النقوش السامية الأخرى.[٢٢]

ج ر م أ ل هـ ي اسم علم مسبوق بالاسم ب ر بمعنى «بن» كلمة لدلالة على النسب. والاسم جملة فعلية (فهو من الأسماء المكونة من فعل واسم الة) وتعنى «ألهى قرر» أو «قرار الاله».
الجذر ج ر م أي «قرر» معروف في السريانية[٢٣] وعلى كل حال فان الاسم قد ظهر في النقوش النبطية الأخرى.[٢٤]

ب ر ي ك وهو اسم مفعول في العربية من الفعل السامي ب ر ك أى «بارك»، وقد ورد في النقوش النبطية الأخرى.[٢٥]

ل ع ل م وهي كلمة تعني «إلى الأبد» والتي تتكون من حرف الجر اللام والاسم المذكر المفرد ع ل م والتي تعنى «سرمدي - أبدي - نهائي».[٢٦] وهذه الكلمة قد ظهرت في النقوش النبطية الأخرى.[٢٧]

ب ط ب وهي تعبير موجز يعني «بالخير» وهي متكونة من حرف الباء والاسم المذكر المفرد، ط ب «جيد».[٢٨] وحسب معلوماتنا فانها للمرة الأولى التي يرد فيها هذا التسلسل حيث أن التسلسل المعروف من خلال النقوش النبطية الأخرى هو ب ط ب ل ع ل م.[٢٩]

النقش رقم (٢)

النص:

م ن ص ل م ب ر ف ش م أ

الترجمة:

من ص ل م بن ف ش م أ

التعليق:

رغم أن هذا النقش قد كُتب أسفل النقش السابق إلا أنه لا علاقة بينهما سوى أنهما قد نقشا على الحجر نفسه وبنفس القلم النبطي خصوصا وأن الأسلوب الذي نقش به يختلف عن السابق. فالنقش يبدأ بحرف الجر المعروف م ن «من» نلاحظ أن شكل النون هنا تطابق شكل النون النبطية التي تأتي في نهاية الكلمة.[٣٠]

---

(٢٠) Cantineau, p. 143-4; A. Negev., "Nabataean Greek and Thomudic Inscriptions from the Wadi Haggag - Jebel Musa Road" *IEJ* 31 (1981), pp. 66-71.

(٢١) ابن مظور، **لسان العرب**، الجزء ١٢، ص ص ٤٩٦ - ٥٠٦

(٢٢) الاسم ق ي م و وجد في النقوش التدمرية (أنظر Stark, PPN, p. 100) ، وفي السريانية (أنظر A. al-Jadir, *A Comparative Study of the Script Language and Proper Names of the Old Syriac Inscriptions*, unpublished Ph. D. Thesis, Wales University, 1983. وفي النقوش الحضرية (انظر: Abbadi, p. 159) وفي النقوش الصفوية (أنظر : Harding, *Index*, p. 492) حال الاسم ربما يكون كما اقترح كانتيو على علاقة بالالة ش ي ع أ ل ق و م والذي عُرف بأنه صديق أو حامي الشعب وقد عُبد لدى الانباط ص١٤٢، ولمزيد من المعلومات أنظر: G. Ryckmsns, *Les nom Propers Sud - Semitique* (Louvain Bureaux de Museon, 1934), Tom I, p. 34.
كما وقد عُبد لدى القبائل التي استخدمت القلم الصفوي، انظر بهذا الخصوص محمود الروسان، **القبائل الثمودية والصفوية: دراسات مقارنة** (الرياض: عمادة شؤون المكتبات - جامعة الملك سعود، ١٤٠٧هـ)، ص ص ٤٣٦ - ٤٣٨.

(٢٣) H. Costaz, *Dictionnaire Syriaque - Francais* (Beyrouth: Imprimerie Catholique, 1963), p. 54.

(٢٤) Khrayshedh, *PNN*. 56; Canhneau, pp. 78 - 79.

(٢٥) A. Negev, "Nabateon Inscriptions from Aʿvadat, (Oboda)" *IEJ* 13 (1963), p. 124; Contineau; p. 75.

(٢٦) Canhneau, p. 131 وهناك كتاب يناقش فقط هذه الكلمة وهو: Das Wort, Jennie, *ʿolam in alten Testament*, (Berlin, 1953) (انظر بهذا الخصوص فواز طوقان، «مسلة شيع ملك مؤاب» **حولية مديرية الآثار الأردنية**، ١٥ (١٩٧٠)، هامش ص ٣٦.

(٢٧) E. Littmann. "Nabataean Inscriptions from Egypt. *BSOAS* 16 (1954), p. 226".

(٢٨) Contineau, p. 101.

(٢٩) JS, inscription Nos. 254, 281; *Corpus Inscriptionum Semiticarm*, Pars II. Tomus 1-2, Inscrptiones aramaicas continens (Paris, 1983), inscription No. 820:1.

(٣٠) Euhng, *Nab*, p.23

ص ل م رغم أنه يمكن قراءتها أيضا **ص ن م** فمن المعروف أن شكل حرف اللام النبطي يكون في العادة أطول من الأحرف الأخرى إلا في بعض الحالات كمثالنا هذا وقد سبق أن قرأ شكل مشابه له لاماً.(٣١) **ص ن م و** اسم علم ورد مرة واحدة في النقوش النبطية الأخرى.(٣٢) أما الاحتمال الأول **ص ل م** والذي نرجح قراءته نظراً لظهوره بشكل واضح في النقوش الصفوية(٣٣) فهو إما أن يكون اسم علم يحتوي على أحد عناصر الالهة الوثني صلم(٣٤) أو انه اسم علم من كلمة واحد تعنى «الشجاع أو القوي».(٣٥) على كل حال فإن كلتا القراءتين مقبولتان ولا تؤثران في المعنى العام للنقش.

ف ش م أ وهو اسم علم مسبق بالاسم **ب** ويقارن باسم العلم **ف ش م** الذي ظهر في النقوش الثمودية.(٣٦) ويمكن تفسير الألف الأخيرة في الاسم **ف ش م أ** على احتمالين: الأول أن تكون الألف ليست إلا علامة التعريف(٣٧)، الثاني: وهو الأكثر قبولا بين العلماء المختصين من أن الألف هي للدلالة على أن الاسم هو اسم مختصر.(٣٨)

النقش رقم (٣)

النص:

ب ل ى د ك ى ر ز ى د و ب ر ت ى م و

الترجمة

بلى، ليتذكر زَيْدُ بن تيمُ

التعليق:

لقد كتبت أحرف هذا النقش بطريقة جيدة رغم أنها غير متناسقة كبعض النقوش النبطية المكتشفة من نفس المنطقة وأهمية هذا النقش تكمن في الهيئة التي كتبت فيها الأحرف والتي تقودنا إلى الاعتقاد بأن النقش ربما يعود إل حوالي القرن الثاني الميلادي.(٣٩)

ب ل ى وهو صيغة للتأكيد تماثل في العربية بلى، وهذه الكلمة منتشرة بشكل كبير في النقوش النبطية غالبا ما يبدأ النقش بها.(٤٠)

ز ى د و اسم علم مسبوق بكلمة **د ك ى ر** في حالة المبنى للمجهول تقابل صيغة مفعول في العربية وهو اسم مختصر ويعني «زيادة من الاله)» والاسم موجود بشكل ملفت للنظر في النقوش النبطية الأخرى.(٤١) فزَيْدُ ويزيد، أسماء أعلام ما

---

(٣١) Klugkist. *MAS*, p.223. Column No. :I (Noord Arabie).

(٣٢) Canhneau, p. 140 وقد ورد أيضا الاسم في النقوش الآرامية القديمة كنقش برركب انظر فاروق إسماعيل. **لغة نقوش الممالك الآرامية: دراسة في ضوء اللغات السامية** رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة حلب، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص ١٥٤.

(٣٣) Harding. *Index*, p. 374.

(٣٤) وقد عُبد لدى الآراميون القدماء، ويعود إلى الكلمة الاكادية **ص ل م و** بمعنى «أسود ـ ظلام» ولمزيد من المعلومات حول هذا الآلهة انظر: S. Dalley, "The God Salmu and the Winged Disk," *Iraq* 48 (1986). pp. 85-101; S. Dalley,"Stalae from Taima and the God Slm (Salmu)", *PSAS* 15 (1985), pp. 27-34.

(٣٥) Ryckmans, p. 184 صُلَيْمي. بطن من قبائل زهران بن كعب (انظر عمر كحالة، **معجم القبائل القديمة والحديثة** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، الجزء الثاني، ويقول ابن دريد انهم سموا صُلَيْمي لاصطلامهم لكل من حاربهم. والأصلم هو المقطوع الأذنين (انظر ابن دريد، **الاشتقاق**، ص ٥٠٠).

(٣٦) Harding, *Index*, p. 467.

(٣٧) رمزي، بعلبكي، **الكتابة العربية والسامية. دراسات في تاريخ الكتابة وأصولها عند الساميين** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨١م)، ص ١٧٨ (الهامش).

(٣٨) للمزيد من المعلومات حول تفسير الأسماء المختصرة Hypocoris-tica انظر H. Huffmoh. *A Morite Personal Names in the Mari Texts: A Structural and Lexical Study* (Baltimore: The Johns Hopkins Press, 1965), pp. 130 - 140

(٣٩) Healey, *MME*, Table No. 1.

(٤٠) Canhneau, p. 71.

(٤١) F. Winnett and W. Reed, *Ancient Records from North Arabia* (Toronto: Near and Middle East Series, 1970), incriphon Nos. 26, 44, 67, ; E. Littmann and D. Meredith, "Nabataean Inscriptions from Egypt II," *BSOAS* 16 (1954), p. 221; A. Negev, "A Nabataesh Sanctuary at Jebel Moneijah Southern Sinai," *IEJ* 27 (1977), p. 223.

زالت منتشرة ومعروفة بين الأسماء العربية الحالية[٤٢] وهي مشتقة من المصدر زاد يزيداً.[٤٣]

ت ي م ر اسم علم مختصر يعني «خادم (الاله)» ويقابل في العربية تيم.[٤٤] والاسم ورد في النقوش النبطية الأخرى.[٤٥]

النقش رقم (٤):

النـــص:

× × × ل م × ش ل م

الترجمــــة:

× × × ل م - × تحيات

التعليــق:

لقد كتب هذا النقش بطريقة سيئة، ومما زاد في صعوبة قراءته أو التعرف على أحرفه هو تهشم حواف الحجر مما أدى إلى فقدان الأجزاء السفلى لهذه العلامات ويتضح هذا في الجزء الأول من النقش. فالثلاثة الأشكال الأولى في حالة يصعب قراءتها تأكيدا أو تخمينا إلا أن العلامة الرابعة ربما تكون حرف رغم أن جزءها السفلي مفقود حيث إن شكل خطها العمودي المتموج يوحي بأنه حرف اللام.[٤٦]أما الحرف التالي فالجزء الواضح منه يدل على أنه الجزء العلوي لحرف الميم النبطية [٤٧] ثم علامة من الصعب تصورها يلي ذلك الجزء العلوي لحرف الشين ثم حرف «ل». أما الحرف الأخير في هذا النقش فهو «م» خصوصا وأن الحرفين السابقين له هما الشين واللام وبهذه تكون الكلمةالوحيدة التي يمكن قراءتها ش ل م وتعني «تحيات» وهي منتشرة بشكل ملحوظ في النقوش النبطية.[٤٨]

---

(٤٢) الأندلسي، ابن محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، **جمهرة انساب العرب** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٣م)، ص ٣٤٩، ٣٩٦؛ Y. Abdullah, *Die Personennamen in al- Hamdani's Al - Iklil und ihre Parallelen in den altsudarabischen Inschriften. Ein Beitraq zur jemenitischen Namengebung* (Dissertation, Tubingen, 1975), p. 62, 98.

(٤٣) ابن دريد، **الاشتقاق**، ص ٥٣٧.

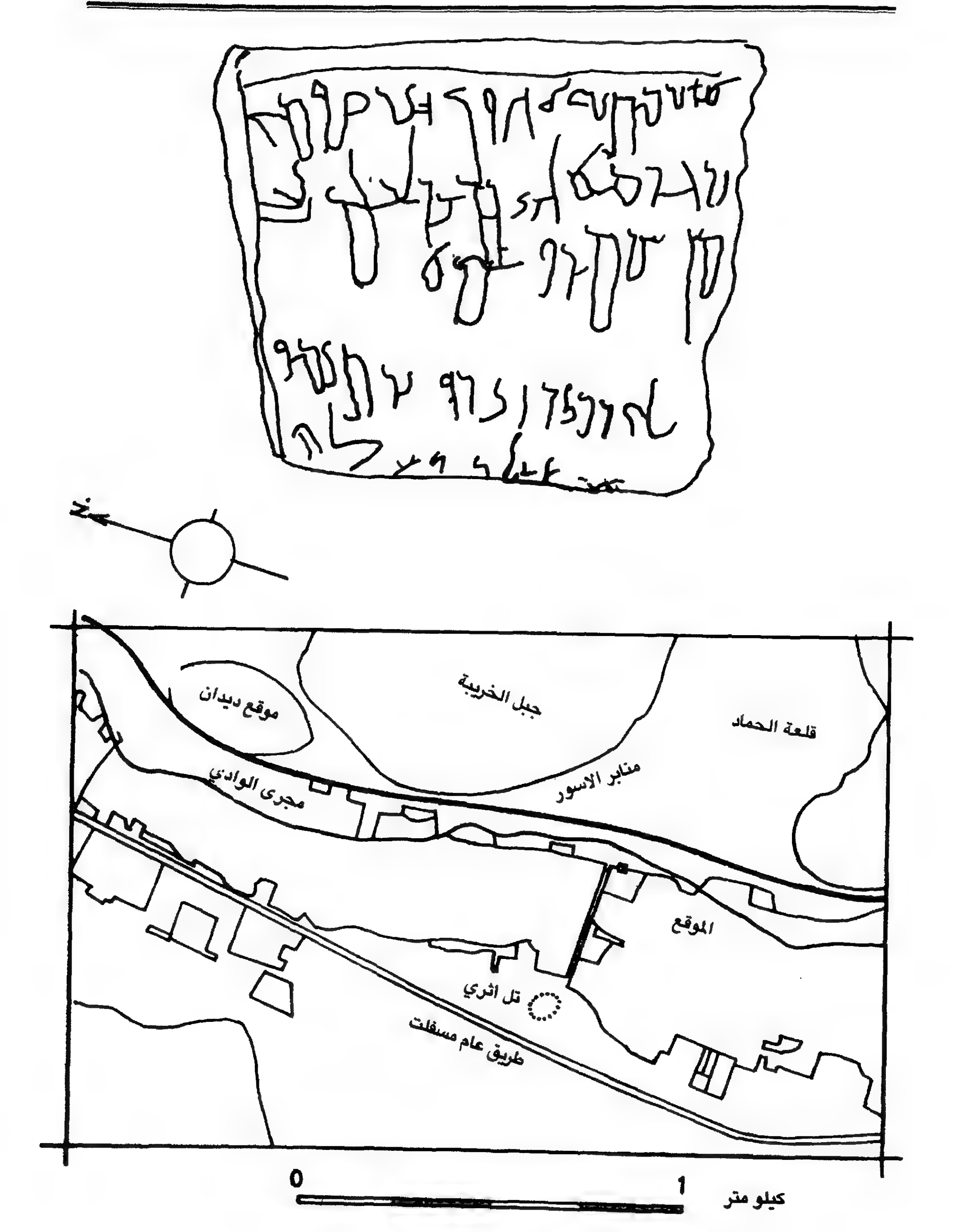
(٤٤) ابن دريد، **الاشتقاق**، ص ٩٦.

(٤٥) Canhneaue, p. 155 ، والاسم منتشر في معظم النقوش السامية ولمزيد من المقارنات (انظر: S. al-Theeb, *A Comparative Study of Aramaic and Nabataean Inscriptions from North - West Saudi Arabia*, unpublished Ph.D. thesis, Durham University, 1989, pp. 326 - 327).

(٤٦) Klugkist, *MAS*, p. 222, Column, No. 9; Euting, Nab, p. 23

(٤٧) Euting, Nab, p. 23.

(٤٨) Canhneau, pp. 150 - 151.


خ
موقع ديدان
جبل الخريبة
قلعة الحماد
منابر الاسور
مجرى الوادي
الموقع
تل اثري
طريق عام مسفلت
0
1
كيلو متر









العصور . المجلد السادس، الجزء الثاني، ٢٣١ ـ ٢٦٤ (١٩٩١م)

المقاومة الشعبية للغزوة الصليبية

في بلاد الشام «٤٩١ ـ ٦٩٠هـ / ١٠٩٧ ـ ١٢٩١م»

للدكتور علي السيد علي محمود

ملخص البحث : **يعرض هذا البحث للتجربة التي عاشها المسلمون في مواجهة الحركة الاستعمارية الاستيطانية التي شنتها جماعات غفيرة من أبناء الغرب الأوربي على بلدان الشرق الإسلامي، وكيف كانت هذه المقاومة كرد فعل لهذه الحركة. إذ كان على المنطقة العربية أن توجه كل مواردها وإمكاناتها للوقوف في وجه مخططات العدو والتي تمثلت في المذابح الرهيبة، وطرد السكان الوطنيين من بلادهم، وإنشاء العديد من المستوطنات الصليبية وإحلال جماعات من الغرب الأوربي محلهم، والاستيلاء على مصادر الثروة والإنتاج وحرمان أبناء البلاد منها إلى جانب المحاولات العديدة لبث الفرقة بين المسلمين حتى يضمن المحتل بقاءه.**

ولقد أدرك المعاصرون أن الأحداث التاريخية المجيدة لا تصنعها الصدفة وحدها وأنما تصنعها جهود الأجيال المتعاقبة. لذا فقد كان عليهم أن يطوروا من أساليب مقاومتهم بما يتناسب مع مخططات عدوهم، الذي حرص الغرب الأوربي على دعمه بالمال والسلاح والرجال. والتحمت جموع الشعب العربي وعلى رأسها الفقهاء والشعراء والمثقفين في كل مكان لاستنفار الجهود، ولاستنزاف موارد العدو، وضرب خطوط مواصلاته وإمداده وتموينه، وبث الفزع بين صفوفه..

ولمواجهة حركة الاستيطان الصليبي، فقد تحمل من خضّع من السكان المحليين لهذا الحكم الدخيل كل أنواع القسوة والوحشية، وضربوا أروع الأمثلة للفداء والتضحية والبطولة والشجاعة التي سجلها لهم التاريخ على مر الأجيال وشهد لهم بها الأعداء قبل غيرهم. ونحن إذ نعرض لهذا الموضوع نأمل أن نكون قد وفقنا في سرد جانب من تراثنا الحافل بالأمجاد والبطولات والتضحيات والله الموفق.

المقاومة كاستجابة للتحدي الذي فرضه الوجود الصليبي

من المعروف أن الشرق الأوسط تعرض في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد لحركة استعمارية استيطانية من قبل الغرب الأوربي، وهي التي اشتهرت في التاريخ باسم الحركة الصليبية. وأن نجاح الصليبيين لم يكن راجعاً إلى كثرتهم العددية، حيث تشهد المصادر اللاتينية نفسها على قلة أعداد الذين وصلوا فعلا من أبناء الغرب الأوربي إلى بلاد الشام[1]، وما تلا ذلك من الاستيلاء على الرها وأنطاكية وبيت المقدس ثم طرابلس وتوسعهم شرقا حتى الجزيرة والفرات، وغربا

(١) Foulcher of Chartres, *A History of the Expedition to Jerusalem, 1095 1127*, trans. by Franes Rita Ryan, edited with an introduction by Harolds Fink, Knoxville University of Tennesse Press, 1969, p. 110; William of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Sea*, trans. by Emily Atwater Babcock & A. C. Wery (New York: Columbia University Press, 1943), Vol I, p.348.

بامتداد ساحل بلاد الشام. وقبل أن نستطرد في حتمية المقاومة كنوع من المواجهة للعدو الصليبي، ونظراً لتشابه الأحداث التاريخية التي يمر بها الوطن العربي في ظل الغزوة الصهيونية باعتبارها وجوداً أجنبياً غريباً عن المنطقة العربية يحرص الغرب الأوربي على تدعيمه ومساندته وامداده بالسلاح والرجال. فنحن عندما نعرض لهذا الموضوع فإنما لنؤكد على أن تراثنا التاريخي مليء بالعبر والعظات، التي يمكن أن نستلهم منها الكثير في مواجهة تحديات العصر الذي نعيشه نظراً للتشابه الكبير بين ما كان وما هو قائم الآن في ظل الغزوة الصهيونية، كما أننا نريد أن نؤكد أنه كان على المنطقة العربية أن توجه كل مواردها على كل المستويات لخوض هذا الصراع الذي كان بالفعل صراع وجود، لأن التاريخ لا تصنعه الصدفة، وأنما يصنعه جهد الناس. أما عن حتمية المقاومة الشعبية، فقد أدرك المعاصرون أن الاخفاقات في مواجهة الغزوة الصليبية ترجع إلى عدة عوامل، منها أن المسلمين إذا كانوا قد خاضوا بعض المعارك الأولى والمفرقة ضد الصليبيين، فلم تكن هذه المعارك حاسمة، وأن القيادات السياسية لم تدرك حقيقة مهمة وهي انه كان لديها احتياطي لا ينفد من القوة البشرية، وأن أكثر الهزائم قسوة لم تكن تعني أكثر من مجرد معركة خاسرة يتلوها تقهقر إلى قواعد آمنة بعيدة عن متناول الجيوش الصليبية[٢]، بعكس الحال عند الصليبيين الذين كانوا عادة ما يعبئون كل قواتهم البشرية تقريبا في حالات الهجوم الرئيسة، فقد كانت الهزيمة الواحدة ربما تعني خسارة المعركة أو الحرب بل وضياع الجيش الصليبي نفسه، وهذا بالضبط ما حدث في يوليو سنة ١١٨٧م / ٥٨٣هـ في موقعة حطين عندما كان معنى الهزيمة هو ضياع الكيان الصليبي[٣]، يضاف إلى ذلك عدم تجانس الجيش الإسلامي في تلك الفترة، حيث كان يضم عناصر تركية وكردية وتركمانية وعربية وغيرها من العناصر الإسلامية، كما افتقد هذا الجيش إلى القائد الذي يستطيع أن يزيل ما بين هذه العناصر من حزازات أو نعرات كما أنه كان قد جرى تعديل جوهري على نظام الجيش منذ القرن الثالث الهجري / التاسع للميلاد في ظل نظام الإقطاع الحربي الذي ظهر منذ ذلك الحين، وبذلك تبدلت القاعدة العسكرية للأمة الإسلامية تبدلا عميقاً. فبعد أن كانت الأمة الإسلامية كلها أمة تحت السلاح، أصبح تكوين الجيوش يعتمد أساساً على الأمراء، وتشجيع دائم على التمرد وتأسيس الإمارات المستقلة. وكان نواة كل جيش من هذه الجيوش الخاصة بالقادة والأمراء تتكون أساساً من العبيد، والذين كانوا غالباً من الأتراك والديلم سكان المناطق الجبلية إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين، كذلك وجدت بعض جماعات من التركمان والأكراد يضاف إلى ذلك بعض أبناء القبائل العربية والذين كانوا بمثابة قوات شبه مستقلة.[٤]

ويمكننا القول أن وصول الصليبيين إلى مشارف بلاد الشام في حد ذاته، قد أحدث هلعاً كبيراً في قلوب الأهالي ذلك أن الناس شعروا لأول مرة أنهم أمام خطر من نوع جديد لم يألفوه من قبل، خصوصا إذا وضعنا في اعتبارنا أنه في الوقت الذي أخذت فيه جيوش الصليبيين طريقها إلى بلاد الشام، كانت بعض الأساطيل الحربية وبخاصة بعض الأساطيل الإيطالية، والفلمنكية والسكندنافية تمد لهم يد العون.[٥] هذا في الوقت الذي كان فيه الانقسام قد أصاب العالم الإسلامي وكان له أثره الواضح في إضعاف قوة المسلمين والذي تمثل في فرض التفتت والتجزئة، مما حول العالم الإسلامي إلى دويلات

(٢) علي السيد علي، «ملامح الجانب العربي في المواجهة ضد الغزو الصليبي، **مجلة المستقبل العربي**، العدد ١٠٢ لعام ١٩٨٧م، ص ٤٢.

(٣) يوشع براور، **عالم الصليبيين**، ترجمة قاسم عبده قاسم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م)، ص ص ١١٩ ـ ١٢٦.

(٤) ابن القلانسي ، أبو يعلي حمزة، **ذيل تاريخ دمشق**، وهو تتمة لتاريخ هلال الصابي تتلوه نخب تواريخ ابن الأزرق الفارقي وسبط ابن الجوزي والحافظ الذهبي، تحقيق هـ م آمدروز (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨م)، ص ص ٦٠-٦٤؛ هاملتون جب، **صلاح الدين الايوبي** (بيروت، ١٩٧٣م)، ص ص ٦٠ ـ ٦٤.

(٥) Raymond d' agiles, *Recueil des Historiens des Croisades*, Hist. Occid., Publ, Academi des Inscriptions et Belles Lettres (Paris, 1841), Vol 3, p.242.

صغيرة متشاحنة[٦] في ظل خلافتين متصارعتين، هما الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة، وأن ينتقل الصراع بينهما إلى أخطر مراحله عندما تحاول إحداهما وهي الخلافة الفاطمية الاستعانة بالعدو الصليبي ليملك بيت المقدس ويكون حاجزا بينها وبين قوات السلاجقة التي تدين بالولاء للخلافة العباسية.[٧] كما كانت المنطقة تعج بالقبائل العربية التي حافظت على معظم مقوماتها، ومن أبرز هذه القبائل بنو نمير وبنو عقيل بإقليم الجزيرة وبنو كلاب بشمال الشام وبنو كلب بوسطه، وبنو طي بشرق الأردن، وقد أخذ نفوذ هذه القبائل يقوى في الفترة التي نحن بصددها، مما ضاعف من الانقسامات في هذه البلاد[٨] ذلك أن هذه القبائل العربية كانت قد نقمت على السلاجقة سيطرتهم على البلاد وسلب ما كان لها من سطوة، وأخذت تتحين الفرص للانتقام منهم وقد وجدت هذه القبائل فرصتها في مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام، لذلك اتبعوا معهم سياسة المسالمة والمهادنة، ومدوا لهم يد المعونة في فترات كثيرة، وإذا كان الصليبيون قد قبلوا في البداية مسالمة ومهادنة هذه القبائل العربية فإنما كان ذلك إلى حين أن تثبت أقدامهم ببلاد الشام وتتوطد دولتهم، مما دفع هذه القبائل العربية فيما بعد إلى تغيير موقفها[٩]، كذلك أثار تدفق اللاجئين إلى المقاطعات الإسلامية في أعقاب الغزو الصليبي، مشاعر الاستياء ضد القيادة السياسية، والتي عبر عنها كثير من المؤرخين المعاصرين وصوروها لنا في العبارات التالية: كانت الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت أجنادهم وصولتهم، وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف أهلها عن كف عاديتهم وتتابعت غزواتهم وساموا المسلمين سؤ العذاب واستطار في البلاد شرر شرهم، وامتدت ممتلكاتهم من ناحية ماردين وشبختان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماه وحمص ودمشق[١٠]، أي أنه لم تمض سنوات قليلة من ١٠٩٧ ـ ١٠٩٩م حتى صار في أيديهم الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام، هذه الرقعة التي بلغ امتدادها من الشمال إلى الجنوب نحو خمسمائة ميل، وبلغ عرضها حوالي خمسين ميلاً[١١]، واشتدت ثائرة المسلمين بسبب مادأب عليه الصليبيون من مواصلة غاراتهم على أملاك المسلمين يوما بعد يوم، وعلت أصوات الاستياء على منابر المساجد وفي صلاة الجمع، وسطرت الكتب التي تتناول واجب الجهاد، كما دبجت الرسائل التي تداولها الجميع عن قدسية بعض المدن الإسلامية، وخاصة بيت المقدس كنوع من استنفار الجهود لاستردادها، وبذلك كان التحدي الذي واجهه المسلمون في عقر دارهم، ومغالاة الصليبيين في التنكيل بالمسلمين في مذابح بشرية رهيبة وإبادة جماعية وراء الصحوة العربية الإسلامية، وتعبئتها للحرب وإعلانها الجهاد، كما كانت تلك الصحوة استجابة لحالة التنبيه والإفاقة التي عاشها العرب والمسلمون عقب الإغفاءة التي تمكن خلالها الصليبيون من إذلال جميع القوى العربية والإسلامية، وإصابتها في هيبتها وكرامتها[١٢]. لهذا كان التحدي الذي فرضه

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور، «بعض أضواء جديدة على العلاقات بين بيزا وتونس»، **مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة**، المجلد ٢٦ (ديسمبر ١٩٦٤م)، ص ٢٧.

(٧) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي الجزري، **الكامل في تاريخ** (القاهرة، ١٣٥٧هـ)، جـ ١٠ ص ٢٧٢، جـ ١١، ص ٨٦؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (د. م، د. ت).

(٨) ابن العديم، كما الدين احمد العقيلي، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، نشر سامي الدهان (دمشق، ١٩٤٥ ـ ١٩٥١م)، جـ٢، ص ص ١٠٧ ـ ١١٢؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **العبر وديوان المبتدأ والخبر** (بولاق، ١٢٨٣هـ)، جـ٢، ص ٣٥٥؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد، **صبح الأعشى في صناعة الانشا** (القاهرة، ١٩١٣م)، جـ٤، ص ١٧٠.

(٩) ابن العديم، **زبدة الحلب**، جـ٢، ص ١٣٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى** (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٦م)، جـ١، ص ١٦٦.

(١٠) أبو شامه، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسي، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين** (القاهرة، ١٢٨٧هـ)، جـ١، ص ٣٠.

(١١) Stanley Lane - Poole, *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem* (New York: G. P. Putnam, 1898), pp.26 - 31.

(١٢) محمد محمد مرسي الشيخ، **الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها** (الاسكندرية: دار الثغر، ١٩٧٤م)، ص ٢.

العدوان الصليبي والذي عبر عن نفسه في حماس جماهير العرب والمسلمين في كل مكان للتلخص من نير العبودية التي أمسوا فيها مع وجود الصليبيين في بلادهم، وكان توطين النفس على متابعة الجهاد في صراع مرير طويل، من خلال وعي بالذات، ومن خلال إدراك لحقيقة العدو وأهدافه، فتوحدت جميع طوائف المجتمع وأفراده وانطلقت طاقاتهم.

التمسك بالأرض في مواجهة حركة الاستيطان

وهنا يجب الإشارة إلى أن السنوات العشر الأولى من الغزوة الصليبية، وما حدث فيها من هجرات إما نتيجة المذابح الجماعية، التي ارتكبها الصليبيون في بعض المدن مثل انطاكية ومعرة النعمان وسروج وقيسارية[١٣] أو لما أحدثته تلك المذابح من هول وفزع للكثيرين من أهل المدن مثل الرملة وارتاح ومنبج ومغادرة أوطانهم[١٤] وما أدى إليه ذلك من ضياع كثير من الأرض، فضلا عن ظهور مشكلة اللاجئين والذين اكتظت بهم بعض المدن الإسلامية، بحيث نسمع أن مدينة مثل دمشق قد ضاقت بالسكان بعد أن غدت مقراً للاجئين الذين تكاثفوا بها وصار عدد سكانها ضعفي ما تستوعبه مدينة مثلها[١٥] هذه السنوات العشر كانت كفيلة بأن يتعلم السكان المحليون في كل مكان درساً لم ينسوه أبداً وهو عدم ترك أراضيهم والتخلي عنها أمام أي غزو وهو ما عرف في ذلك العصر باسم الجغل، والأدلة على أنهم استفادوا فعلاً من هذا الدرس كثيرة، وهذا الأسلوب غالي الثمن كان واحدا من الوسائل للإعلان عن الشرعية والتمسك بالأرض في مواجهة أقصى الظروف وفي مواجهة عدو لا يرحم لم يكتف بسياسة تفريغ كثير من المدن من سكانها عن طريق ما أحدثه من مذابح جماعية، بل وما لجأ إليه من سياسة توطين أبناء الغرب الأوربي وإحلالهم محل السكان المحليين في كثير من المدن التي هجرها أهلها. ليس هذا فحسب، بل الأخطر من هذا هو قيام الصليبيين بتكوين مستعمرات استيطانية عن طريق إحلال مستوطنين جدد من شتى أنحاء الغرب الأوربي، والذين قاموا في هذه المستوطنات بتأسيس مجتمعات زراعية أوربية في الشرق، وكان معنى هذا ضياع كل حق في الأرض بمرور الزمن، والأمثلة عديدة على هذه المستعمرات الاستيطانية، ويحفل بها تاريخ الحركة الصليبية نذكر بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر. فما من يوم كان يمضي إلا ويزداد السكان المحليون قناعة بمدى الخطر المحدق بهم وإدراكا لأبعاد المخطط الاستعماري الاستيطاني الذي يهدف إليه أبناء الغرب الأوربي، والذي تمثل في إقامة العديد من المستعمرات الاستيطانية لهم مستغلين وجود بعض المباني أو مواد البناء أو موارد المياه، وهذه الحقيقة تفسر لنا السبب في استمرار وجود أسماء فلسطينية مثلا في فترة الحكم الصليبي، على الرغم من أنها أصبحت تكتب باللغة الفرنسية القديمة أو اللاتينية مع ما طرأ عليها من تحريف في النطق[١٦] وعلى المدى الطويل فقد ساعدت هذه المستعمرات الاستيطانية على حركة جذب سكانية واستيطانية لبعض أبناء الغرب الأوربي ليفدوا إلى الشرق، وسرعان ماعمر هؤلاء النزلاء الجدد بعض القرى التي كان هجرها أهلها أو أجبروا على إخلائها، واستوطنها هؤلاء لأنهم كانوا بالدرجة الأولى من المزارعين.[١٧] فمن المستعمرات الاستيطانية الزراعية التي أقامها الصليبيون في المناطق التي احتلوها نتيجة لسياسة الجغل هذه كانت ألبيرة كواحدة من تلك المستوطنات التي تم تأسيسها بالقرب من مدينة بيت المقدس أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادى عشر

---

(١٣) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ**، ص ص ١٢٥ ـ ١٤٤.

(١٤) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ**، ص ص ١٣٩ ـ ١٦٣؛ ابن الأثير **الكامل**، جـ ٨، ص ١٨٢.

(١٥) ابن طولون الصالحي، **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، تحقيق محمد أحمد دهمان (دمشق، ١٩٤٩م)، القسم الأول، ص ص ١ ـ ٣.

(١٦) J. Prawer, *Crusader Institutions* (New York, 1985), pp. 104 - 105.

(١٧) William of Tyre, *A History*, Vol 1. p. 250; Prawer, *Crusader*, pp. 105- 106.

للميلاد[١٨] وهي التي أقامها جماعة من الصليبيين كنموذج يحتذى به في بناء مستعمرات استيطانية على النمط نفسه في كل مكان، وعلى وجه الخصوص في الرملة والقبيبية، وفي الفترة من ١٠٩٩ ـ ١١٠٠م كانت ألبيرة واحدة من ضمن إحدى وعشرين مستوطنة كان قد وهبها الدوق جودفري دى بوايون لكنيسة القبر المقدس. وهناك أنزل الرهبان بعض الفلاحين الأحرار من أصول غربية وزودوهم بقطع من الأرض ليبنوا عليها منازلهم، كما وزعوا عليهم الأراضي الزراعية لزراعتها مقابل أن يدفعوا لهم ضريبة العشور وقسما من المحصول[١٩] وحوالى عام ١١٥٥م بلغ عدد النزلاء بها حوالى تسعين أسرة، أي ما يقارب ٣٥٠ شخصاً، ثم وصل عددهم الى ٥٠٠ شخص ترجع أصولهم إلى كل البلدان الأوربية التي شاركت في الحروب الصليبية، ولكن بصفة رئيسة من فرنسا وجنوب أوربا، من اوفرن وبروفانس وبرجنديا وجاكسون، وليموج، والبندقية، وسانت جوتييه، وقطالونيا، وفالنسيا ولومباردى. هذه المستوطنة أخذت على عاتقها زراعة الكروم، وتربية الماشية وزراعة البساتين، كما وجد بها بعض المستوطنين الذين امتهنوا بعض الحرف مثل الحدادة والنجارة وأعمال البناء، وصناعة الأحذية، وكان على المستوطنين دفع ضريبة العشور للكنيسة بالإضافة إلى ضريبة الأرض التي قدرت بنسبة من المحصول تراوحت ما بين ثلث ونصف المحصول أحيانا وضرائب أخرى يدفعها الحرفيون منهم[٢٠]، ومثال آخر نعطيه عن تلك المستوطنات الزراعية التي أقامها الصليبيون في بلاد الشام والتي أصبحت تشكل تهديداً خطيراً على الأقل من حيث المبدأ لجماعات السكان المحليين من المزارعين والمشتغلين بالزراعة، ألا وهو إقامة مستوطنة في بيت جبريل، وهذا المكان وهو بيت جبريل لم يكن يتمتع بحصانة طبيعية فقد كان يقع عند سفح جبل في الجهة الشمالية الغربية منه، وكانت تحصيناته عبارة عن سور وباشورة وخندق وعدة أبراج وقد تم منحه لفرسان القديس يوحنا لمدة خمسة عشر عاما، لكن حوالى عام ١١٥٤م نسمع عن تأسيس مستعمرة استيطانية في هذه المنطقة والتي كانت تعتبر إحدى أماكن تمكيس القوافل أي إحدى المناطق الجمركية التي تحصل عندها الرسوم الجمركية على القوافل الواردة من بلاد المسلمين والصادرة إليها. وبلغ عدد سكانها عند تأسيسها ٣٢ عائلة أي مابين ١٠٠ ـ ١٥٠ شخصاً[٢١]، منها ست عائلات من العائلات الصليبية التي كانت تعيش في فلسطين منذ أن خضعت للحكم الصليبي، أما باقى أفراد العائلات الأخرى فقد كانوا من النزلاء الجدد الذين تجمعوا من كل أنحاء الغرب الأوربي، من اوفرن ولمباردى بواتو وقطالونيا والفلاندرز، وهم من القادمين الجدد حيث تدل أسماؤهم على ذلك، وحصل كل مستوطن فيهم على قطعة أرض زراعية تقدر بحوالى ٦٢ هكتاراً لزراعتها وبنى على جزء منها منزلا يستقر فيه، في مقابل أن يدفع الفرد منهم ضريبة سنوية تعادل عُشر المحصول الذي يزرعه أو الفاكهة بالإضافة إلى بعض الضرائب الأخرى.[٢٢] وإذا تفحصنا هؤلاء المستوطنين نجد أنهم جميعا من الصليبيين الأحرار، كما أنهم لم يخضعوا للنظام الإقطاعي، فهم قد امتلكوا الأرض وكان لهم الحق في بيعها متى شاءوا على الرغم من أنهم كانوا يدفعون إيجاراً لتلك الأرض للاسبتارية كما أنهم كانوا يدفعون ضريبة الأرض وفقا لنسبة معينة من الإنتاج وليست محددة بمقدار الأرض، وبالطبع فإنهم لم يكونوا من العسكريين ولم يشكلوا مستوطنات عسكرية لأن ثلاثين أسرة أو أزيد قليلا لن تفيد في الدفاع العسكري إلا قليلا. ولكنها محاولة لإقامة مستوطنات زراعية في اقتصادها وسكانها مثل غيرهم من سكان المستوطنات الصليبية العديدة الأخرى من الفلاحين الأوربيين وأصحاب

(١٨) E. de Rozier, (ed.), *Cortulaier de l' eglise du Saint Speulcre de Jerusalem* (Paris, 1849), p. 251.

(١٩) Peter W. Edbury (ed. *Crusade and Settlement* (Cardiff: University Press of Cardiff, 1985), pp. 147 - 148.

(٢٠) Rozier, *Cortulaire*, p. 240; Prawer *Crusader,*, pp. 127 - 128.

(٢١) C.R. Conder, *Palestine Exploration Fund* (London, 1890), p. 39.

(٢٢) H.E. Mayer, *The Crusades* (Oxford, 1972), pp. 152 - 152; Prawer, *Crusader*, pp.119 - 123.

الحرف، والهدف من إقامتها واضح يمكن أن نتعرف عليه من خلال الوثيقة التي تم إصدارها من قبل طائفة الاسبتارية، لكي يتم تعميرها، وزراعة أراضيها حتى تزدهر هذه المستوطنة، وفي الوقت نفسه وهو الأهم للتقليل من الاعتماد على عناصر السكان المحليين الذين سكنوا بعض القرى الأخرى التي خضعت للحكم الصليبي ومحاولة جذب عناصر أوربية وإحلالها محلهم كلما أمكن ذلك.(٢٣)

ولم يكن هدف الصليبيين هو الاكتفاء بتوطين أبناء الغرب الأوربي في الأراضي الزراعية في الشرق بدلا من سكانها المحليين في المناطق التي خضعت لهم، بل تعدى ذلك إلى المناطق الخاضعة لحكم المسلمين والمجاورة لهم. إذ يذكر المؤرخ اللاتيني الشهير وليم الصوري أن حكام الصليبيين لجأوا في حالات كثيرة إلى طرد بعض المسلمين باستمرار لإحلال عناصر أوربية محلهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنهم ببنائهم لكثير من القلاع والحصون التي شنوا منها هجماتهم المتكررة والكثيرة على بلاد المسلمين قد ألجأوا المزارعين المسلمين في المناطق المتاخمة لهم إلى هجرة أراضيهم، وذلك بسبب خوفهم من الإغارات المتلاحقة التي جعلتهم يحجمون عن الزراعة في كثير من الأحيان على الرغم من أن الكثير منهم قبلوا في البداية دفع أتاوة سنوية لاتقاء شر الصليبيين إلا أن هجماتهم لم تنقطع مما أفقدهم أراضيهم الخصبة والتي كانت على جانب كبير من الفائدة لسكان المدن الإسلامية.(٢٤) وحتى لا يتبادر إلى ذهن القارىء أن سياسة الجعل أي الهروب أمام الخطر الصليبي كانت هي الأسلوب الوحيد والأمثل الذي لجأ إليه سكان القرى والمدن وإنما هي حالة اختص بها عدد قليل من القرى والمدن، وتشهد على ذلك المصادر اللاتينية فالمؤرخون اللاتين الذين صحب بعضهم الحملة الصليبية الأولى يقرون في صراحة عنف المقاومة التي لاقاها الصليبيون في معظم الأماكن التي حلوا بها، ومن ذلك ما تشير إليه هذه المصادر من أنه عقب استيلاء الفرنج بالحيلة على انطاكية فإن حصارهم لمدينة عرقة دام ثلاثة أشهر إلا يوماً واحداً والدليل على شدة المقاومة وعنفها أن عرقة، وهي مدينة صغيرة، قد طال حصارها إلى هذه المدة في الوقت الذي حاصرت فيه قوات الصليبيين المدينة براً وصلت عدة سفن انجليزية وأخرى جنوية وظلت تمد الجموع الصليبية المحاصرة لها بالذخيرة الوفيرة والقمح والنبيذ واللحم والجبن والشعير والزيت.(٢٥) ويدلل المؤرخ المجهول على عنف المقاومة وشدة ما لحق بالصليبيين من خسائر بقوله وفي خلال هذا الحصار سعد كثير من رجالنا بالشهادة، وكان من بينهم انسلم دى ريبومونت ووليم بيكاردي وكثيرون غيرهم ممن لا أعرفهم(٢٦)، كما ضرب المدافعون عن كثير من المدن أروع أمثلة البطولة والفداء ويعترف المؤرخ المجهول بذلك عند حصارهم لمدينة بيت المقدس مثلا فيقول أما في الداخل فقد حمى وطيس القتال بين المدافعين عن المدينة وبين رجالنا وأخذوا يرمونهم بالنار الإغريقية والأحجار وواضح أن أهل المدينة عندما استنفذوا كل وسيلة في الدفاع وبعد أن انهارت حامية المدينة وأستسلمت فإن عدداً كبيراً منهم قد لجأ إلى المسجد الأقصى للاحتماء به حيث هاجمهم الصليبيون فقتلوا البعض وأبقوا على الذين أحسنوا بهم الظن(٢٧) ويجب أن نذكر أيضا أن كثيرين من أبناء الشعب العربي قد آثروا البقاء في أراضيهم على الرغم مما تعرض له عدد كبير من قتل وفتك وتعذيب نتيجة للعمليات الحربية التي صاحبت الحملة الصليبية الأولى وهؤلاء أدركوا من الوهلة الأولى أن بقاءهم أمام هذه الأخطار وتمسكهم بأرضهم ماهو إلا تدعيم لكيانهم، وأن تمسكهم بالأرض هو الشرعية ذاتها هذا في الوقت الذي تشير فيه كثير من المصادر اللاتينية بوجه خاص إلى أن

(٢٣) Prawer, *Crusader*, p. 124

(٢٤) William of Tyre, *A History*, Vol 1, pp 408 - 409, 453 - 469.

(٢٥) مؤلف مجهول، **اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**، ترجمة حسن حبشي (القاهرة، ١٩٥٧م) ص ١١٢، ١١٤.

(٢٦) مؤلف مجهول، **اعمال الفرنجة**، ص ١١٣: Foulcher of Chartres, *A Hist.*, p. 270.

(٢٧) مؤلف مجهول، **اعمال الفرنجة**، ص ص ١١٦-١١٨.

الصليبيين خيروا هؤلاء الذين فضلوا البقاء في أرضهم بين القتل أو التنصر، فعندما سقطت مدينة أنطاكية في أيديهم في الثالث من شهر يونيه ١٠٩٨م فإن المسلمين الذين تحصنوا بقلعة المدينة لم يقبل منهم الصليبيون إلا إعتناق المسيحية أو القتل وبذلك اكرهوا على التنصر[٢٨] وإن كانت المصادر لم تذكر بعد ذلك مصير هؤلاء الأشخاص هل ظلوا على المسيحية أم أنهم استغلوا فرصة هدوء الأحوال نسبيا في أعقاب عمليات الغزو وعادوا إلى ممارسة دينهم وهو الإسلام. وفي تصورنا أنهم قبلوا هذه الفكرة كوسيلة للتمسك بالأرض للدفاع عنها عندما تحين الفرصة. كما يذكر المؤرخ المجهول أن الصليبيين بعد ذلك قاموا بالإغارة على بعض القرى المجاورة لأنطاكية وبخاصة تلك القرى الخاصة بالمسلمين بالقرب من تل منس وألقوا القبض على جميع فلاحي تلك الناحية، وقتلوا من أبى اعتناق النصرانية أما أولئك الذين آثروا البقاء وأعلنوا عن استعدادهم للتحول إلى المسيحية فقد خلوا سبيلهم وأبقوا على حياتهم.[٢٩] ومن الأمثلة الدالة فعلا على أنهم استوعبوا الدرس ولم يفرطوا في الأرض مهما كان الثمن الذي دفعوه في سبيل ذلك، ما تشير إليه بعض المصادر المعاصرة من أنه في عام ٦١٤هـ/١٢١٢م من أن أهل بيسان وسائر الأعمال التي حولها لم يجفلوا إلى مكان عندما قصدهم الفرنج وبذلوا فيهم السيف ونهبوا البلاد والرساتيق أي القرى وأخذوا جميع غلاتها وحواصلها وغنموا من المسلمين مالاً يحصى كثيره ونهبوا ما بين بيسان وبانياس وبثوا السرايا في القرى.[٣٠] ومن الأساليب الطريفة التي تفنن الصليبيون فيها للإقلال من الاعتماد على العناصر المحلية في الزراعة وربما قد دفعهم إلى ذلك عدم إقبال أبناء الغرب الأوربي على استيطان المناطق الريفية بالشكل الذي كان يأمله حكام الفرنج ماتشير إليه المصادر اللاتينية المعاصرة من أنه لم يكن هناك مخرج سوى الاستعانة بالعناصر المسيحية وبخاصة من الأرمن لطرد السكان المسلمين من الأراضي الزراعية في المناطق التي خضعت لهم في بلاد الشام وإحلال هذه العناصر محلهم، حيث تذكر هذه المصادر أن الحاكم الأرمني ثوروس دهش عند زيارته لملك بيت المقدس أملريك، عندما وجد أن مساحات كبيرة من الأرض الزراعية كانت في أيدي فرق الرهبان الفرسان مثل الاسبتارية والداوية وغيرها، وأن القرى بها سكان مسلمون، لذلك قبل ثوروس أن يرسل من أرمينيا ثلاثين ألفاً من أبناء الأرمن لكي يدافعوا عن تلك الأراضي ويطردوا منها سكانها المسلمين ويحلوا محلهم في زراعتها والاستفادة من خيراتها وإن كانت مثل هذه الخطوة لم يقدر لها النجاح بسبب ما نشب من خلاف بين رجال الدين الأرمن واللاتين حول تحصيل رجال الدين اللاتين لضريبة العشر من هؤلاء الأرمن مما أدى إلى فشل المشروع.[٣١]

لقد وضع أصحاب الأرض هذه الحقائق نصب أعينهم، ووعوا الدروس المستفادة تمام الوعي فلم يفرطوا في الأرض ولم يهجروها مهما كانت الصعاب ومهما كان الثمن، ودليلنا على هذا ما تشير إليه بعض المصادر المعاصرة على سبيل المثال وما حدث عام ١١٥٦م عندما اشتط الأمير الصليبي في المنطقة المحيطة بنابلس وبخاصة في إقطاع مجدليابا قرب نابلس، اشتط في إلحاق الأذى وتوقيع العقوبات البدنية على الفلاحين المسلمين، والتي وصلت إلى درجة تقطيع الأرجل، إلى جانب أنه رفع ضريبة الرأس إل أربعة أمثال ما كان مقررا عليهم، وتحمل المزارعون المسلمون تلك المظالم بصبرهم الذي يضرب به المثل من أجل هدف واضح وهو عدم ترك الأرض، لأن الأرض تعني الشرعية في البقاء والوجود.[٣٢]

---

(٢٨) Foulcher of Chartres, *A Hist;* p. 10.

(٢٩) مؤلف مجهول، **أعمال الفرنجة**، ص ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٣٠) William of Tyre, *A History,* Vol. 1, pp. 453 - 457; Prawer, *Crusader,* p.119.

(٣١) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، **مفرج الكروب في اخبار بني ايوب**، نشره وحققه جمال الدين الشيال حتى نهاية سنة ٦١٥هـ في ثلاث اجزاء (القاهرة: دار القلم، ١٩٦٣م)، جـ٣، ص ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٣٢) ابن طولون: **القلائد الجوهرية**، ص ص ٢٦ـ٢٨.

وفي سبيل ذلك تحملوا أشد أنواع المعاناة سواء في المدن أم القرى التي خضعت للحكم الصليبي.

أهل المدن ومعاناتهم

مما لاشك فيه أن الحملة الصليبية الأولى قد فتحت الباب أمام أعداد لا بأس بها من أبناء الغرب الأوربي ليستقروا في الشرق العربي، وان يستحوذوا على كثير من مصادر الثروة والإنتاج في المدن والموانيء والمناطق الريفية التي خضعت لهم. وقد عز على أبناء الأمة العربية أن يجدوا بلادهم وقد استولى عليها الفرنج يتم تقسيمها إما إلى إقطاعات سواء منها الإقطاعات التي نالها العلمانيون، أم تلك التي نالها رجال الدين والكنيسة، أو طوائف الرهبان العسكرية مثل الاسبتارية والداوية وغيرها وإما عن طريق الامتيازات التي حصل عليها أبناء المدن الإيطالية التجارية وغيرها من المدن التجارية الأوربية، نتيجة لما قدموه من مساعدات حربية في أثناء عمليات الغزو، وكان من نتيجة تلك الامتيازات حصولهم على أحياء كاملة في كثير من المدن والموانيء في بلاد الشام.(٣٣)

ولم يكتف العدو الصليبي بالاستيلاء على مصادر الثروة والإنتاج في البلاد التي خضعت له، بل تعمد إذلال أبناء الشعب العربي عن طريق سلسلة من الممارسات التعسفية، ولعل أقسى أنواع هذه المعاناة التي قاساها السكان المحليون من مسلمين ومسيحيين وهم الغالبية تلك التي تتعلق بشعائرهم الدينية إذ انهم لم ينعموا بممارسة شعائرهم الدينية في كل البلدان التي خضعت للحكم الصليبي، فبالنسبة للمسلمين من السكان المحليين، حول الصليبيون الكثير من المساجد بعد أن استولوا على ذخائرها إلى كنائس وبخاصة المساجد الكبرى منها، ولم يبق للمسلمين في كثير من المدن سوى بعض المساجد الصغيرة والقليلة جداً في نفس الوقت بالنسبة لما كان عليه الحال قبل مجيء الصليبيين(٣٤) فقد تحول المسجد الأقصى في مدينة القدس إلى هيكل سليمان، والذي اتخذ منه أبناء طائفة فرسان الداوية أو المعبد مركزاً رئيساً لهم، بينما تحولت قبة الصخرة إلى هيكل للسيد المسيح، وفي مدينة طرابلس قام الصليبيون بتحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة، وكذلك الحال في عسقلان حيث تحول مسجدها الرئيس المعروف بالمسجد الأخضر إلى كنيسة للقديسة ماريا القبطية وهكذا الحال في كل مدينة خضعت لهم(٣٥)، بل وتشير بعض المراجع إلى أنه في بداية الغزوة الصليبية تقرر منع المسلمين من دخول مدينة بيت المقدس والإقامة فيها، وإن كانت هناك بعض الحالات الاستثنائية التي سمح لهم فيها بالتردد عليها لممارسة بعض الأعمال التجارية أو زيارة المسجد الأقصى(٣٦)، وإن كنا نرى أن مثل هذه القيود قد خفت بمرور الوقت، فقد ذكر أسامة بن منقذ زياراته المتعددة لمدينة بيت المقدس، وقيامه بالصلوات في المسجد الأقصى، في مكان أخلاه له فرسان الداوية ليصلي فيه، وإن كان يذكر أنه لم ينعم دائما بالصلاة فيه بسبب تعصب بعض فرسان الداوية وبخاصة من القادمين الجدد من الغرب الأوربي(٣٧)، كذلك تشير بعض المراجع الأوربية إلى أن بعض الأمراء الصليبيين من المتعصبين كثيرا ماكانوا يجبرون المسلمين الذين يشتغلون لديهم على الاستمرار في العمل أيام الجمع وبذلك يمنعونهم من التوجه إلى المساجد لأداء صلاة الجمعة، مما كان يؤذي مشاعرهم وأنهم قبلوا ذلك منهم على مضض.(٣٨)

---

(٣٣) Benvenisti, *The Crusaders in the Holy Land (Jerusalem, 1970),* pp. 181 - 183.

(٣٤) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، **الرحلة** (بيروت، ١٩٦٤م)، ص ص ٢٤٩ ـ ٢٥٢؛ Mayer, *The Crusades,* p. 178; J. Richard, *Le Royaume Latin de Jerusalem* (Paris, 1953), p. 131.

(٣٥) William of Tyre, *A History,* Vol. 1. p. 507; Prawer, *Crusader.* pp. 181 - 183.

(٣٦) J. Prawer, *"The Settlement of the Latins in Jerusalem,"* Speculum XX VII, (1952), .p 494.

(٣٧) أسامة بن منقذ، **كتاب الاعتبار**، نشره وحققه فيليب حتي (برنستون ـ الولايات المتحدة، ١٩٣٠م)، ص ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٣٨) Mayer, *The Crusades,* pp. 177 - 178.

ولم يكن ما حل بالمسلمين في المناطق التي خضعت للحكم الصليبي بخـاف على إخـوانهم في المنـاطق الإسلامية المجاورة، لذلك نراهم وقد أدركوا فداحة الخـطر الصليبي قد أعلنـوا في خطب الجمـع وفي كتاباتهم وأشعارهم ومنتدياتهم رفضهم لكل القيادات المتخـاذلة. فقـد خرج «المستنفرون من دمشق مع قاضيها زين الدين بن سعد الهروى، فوصلوا بغداد وحضروا في الديـوان وقـطعوا شعورهم، واستغاثوا وبكـوا، وقـام القاضي في الديوان وأورد كلاما أبكى الحاضرين، وندب من الديوان من يمضي إلى العسكر السلطاني ويعرفهم بهذه المصيبة»[٣٩]، وما حدث في أول جمعـة من شهـر شعبـان سنة ٥٠٤هـ حيث «حضر رجـل من الأشراف الهاشمية من أهل حلب وجمـاعـة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان ببغـداد، فاستغـاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبـر وكسروه وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الفرنج وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال، ومنعوا الناس من الصلاة، والخدم والمقدمون يعدونهم عن السلطان بما يسكنهم من إنفاذ العساكر والانتصار للإسلام من الفرنج والكفار، وعادوا في الجمعة الثانية إلى جامـع الخـليفـة وفعلوا مثـل ذلك من كثـرة البكـاء».[٤٠] وبـذلك يمكننـا القول أنه قام العلماء والدوائـر المتدينة بخلق مناخ للرأي العام الضاغط كان من المتعذر معه وفي ظله تجنب المواجهة المباشرة للتحـدي الذي فرضه الوجود الصليبي على الأرض العـربيـة.[٤١] حيـث ضاقت صدور أهـل الدين والصـلاح وزاد إنكـارهم لمثل هذه الأحوال المنكرة والأسباب المستبشعة، لما أمست فيه البلاد من تبعية وذل، وما اضطر إليه أهل البلاد في كثير من المدن إلى مصانعة الفرنج دفعا لشرهم.[٤٢]

وفيما يتعلق بالمسيحيين المحليين في البلاد التي خضعت للحكم الصليبي، فمن المعروف أنه تعددت طوائفهم المختلفة من أرمن، وروم أرثوذكس، وسريان أرثوذكس وغيرهم، ويهمنا أن نشير هنا إلى أهم هذه الطوائف المسيحية المحلية، وفقا لما تشكله من أكثرية عددية. إذ من المعروف أن الروم الارثوذكس كانوا الأكثر عدداً بين الطوائف المسيحية المختلفة ببلاد الشام[٤٣]، بل أنهم كانوا أكثر بكثير من الصليبيين في كثـير من المـدن التي خضعت لهم ببـلاد الشـام، وبخاصة في مدينة انطاكية، التي كان معظم أفراد سكانها من أبناء هذه الطائفة، هذا إلى جانب وجود أعـداد كبـيرة منـهـم في كل من اللاذقيـة وبيت المقدس[٤٤]، ولقد قام الصليبيون بإقصاء كبار رجال دينهم عن مناصبهم وإحلال رجال دين من اللاتين منهم، وخـاصـة بطريـرك أنـطاكيـة، وبطريرك بيت المقدس، بالإضافة إلى حملهم على أن يؤدوا ضريبة العشر للكنيسة اللاتينية، إلى جانب إغفال شعائرهم الدينية في الكنائس الكبرى مما زاد من روح العداء بين الطرفين وزاد في نفس الوقت من معاناة أبناء هذه الطائفة[٤٥]، والمعروف أن أبناء هذه الطائفة كانوا من أصل عربي، وأنهم كانوا يفضلون الحكم الإسلامي على سيـطرة اللاتـين الكـاثـوليـك من أبناء الغرب الأوربي، وتشـير بعض المـراجع أنه ثمة اتصالات سرية تمت عندما قام صلاح الدين الأيوبي بمحاصرة مدينة بيت المقدس عقب وقعة حطين، وتعهد هؤلاء لصلاح الدين بفتح أبـواب بيت المقـدس للمسلمـين.[٤٦]

كذلك شكَّـل السريـان الأرثوذكس أكثرية عددية بالنسبة لغيرهم من الطوائف المسيحية المحلية في كل من طرابلس، وجبيل، وبيروت، وعكا في أثناء الحكم

(٣٩) ابن الجوزي، أبو الفرج بن علي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** (حيدر أباد: الدكن، ١٣٥٩هـ)، ص ٩، ١٠٨؛ ابن تغري بردى، جمال الدين يوسف أبو المحاسن، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٩م)، جـ ٥ ص ١٥٠.

(٤٠) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ**، ص ١٢٣.

(٤١) براور، **عالم الصليبيين**، ص ٦٩.

(٤٢) ابن القـلانسي، **ذيـل تاريـخ**، ص ٣١٢؛ ابن الأثـير، **الكامل**، جـ٢٨٦؛ أبو شامة، **كتاب الروضتين**، جـ١، ص ٣٠.

(٤٣) D. Murray, *Syria and Palestine* (London, 1858), Vol I, p.X III.

(٤٤) L.A. Zee, *The Crusades* (New York, 1960), p. 135.

(٤٥) بسام كرد علي، **سورية ولبنان جغرافيا** (دمشق، ١٩٤٩م)، ص ١٤٢.

(٤٦) علي السيـد علي، **المقـدس في العصر المملوكي** (القـاهـرة، ١٩٨٦م)، ص ص ٨٧ ـ ٨٨.

الصليبي لهذه البلاد، كما وجدت منهم أعداد في كل من الرها وأنطاكية وبيت المقدس. وقد تعرض هؤلاء السريان الأرثوذكس لتدخل الصليبيين في شؤونهم الدينية، وبخاصة في تعيين رجال دينهم، كما تعرضت ثروات بعض كنائسهم لكثير من عمليات النهب والسلب التي قام بها الصليبيون. وبالمثل يمكن أن يقال عن طائفة النساطرة، وإن كانت لا تشكل أكثرية عددية من سكان المدن والبلاد التي خضعت للحكم الصليبي، الا أن أبناءها عاشوا في عداء صريح مع الصليبيين، وكانوا غير متعاونين معهم على عكس بعض الأقليات الأخرى من أرمن وموارنة. وكان السبب في هذا راجع إلى ما لمسوه من فارق كبير في المعاملة من المسلمين وتحت حكمهم، ومايتمتع به إخوانهم في كثير من المدن التي خضعت للحكم الإسلامي وبين معاملة الصليبيين لهم.(٤٧)

وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن عواطف كثير من أبناء الطوائف المسيحية المختلفة ببلاد الشام كانت مع إخوانهم المسلمين، وإنهم أحسوا بفداحة الخطر الصليبي مثلما أحس به إخوانهم المسلمون، فالأرض أرضهم جميعا والقضية قضيتهم بصرف النظر عن تصرف قلة من أبناء طوائف أخرى وهم الموارنة، فهم لم يشكلوا إلا نسبة ضئيلة بالنسبة لغيرهم من المسيحيين في ذلك العصر. وكيف لا تتحد عواطفهم جميعا وقد رأوا أن الصليبيين كانوا إذا ما حلوا ببلد عربي يأتون على الأخضر واليابس ويقترفون الفحشاء ويسيلون الدماء أنهاراً ويرتكبون من الجرائم البشعة ما تقشعر من هوله الأبدان، ثم يقومون بعد ذلك بصبغ الجهات التي يغتصبونها بصبغة لاتينية كاثوليكية بحتة، بعد أن يزيلوا منها الشعائر الإسلامية والمسيحية الشرقية.(٤٨)

كانت هذه بعض الممارسات التعسفية التي عانى منها السكان المحليون من مسلمين ومسيحيين والتي تتعلق بشعائرهم الدينية، وقبل الشروع في توضيح أوجه المعاناة الأخرى يجب أن نذكر أن بعض المؤرخين ممن تصدوا للكتابة عن الصليبيين في بلاد الشام قد استغلوا عبارة وردت عند الرحالة ابن جبير للقول بان السكان المحليين والصليبيين عاشوا معا وسادت بينهم العلاقات الطيبة طوال فترة حكم الفرنج ببلاد الشام.(٤٩) ومنهم من قال بان مقدار الضرائب التي كان يتم دفعها للصليبيين كانت أقل بكثير من تلك التي يتم دفعها لحكام المسلمين، أنه مادامت الضرائب التي كان يتم دفعها فإن الحكام الصليبيين كانوا لا يتدخلون في حياتهم(٥٠)، ويبدو لنا أنه قد غاب عن هؤلاء المؤرخين حقيقة الأوضاع التي عاشتها جموع السكان والتي سنوضحها في السطور التالية، هذا فضلا عن أن الاعتماد على العبارة التي أوردها ابن جبير وحدها غير كاف بالمرة، ذلك لأن الفترة التي قضاها ابن جبير في زيارته لهذه البلاد في طريق عودته من رحلة الحج فترة لا تعدى عدة أيام، وهي ليست كافية باي حال من الأحوال لتقصى الحقائق وأخذ فكرة واضحة عن حقيقة الأحوال بل أن ابن جبير نفسه يجسد لنا مدى المعاناة التي كان يعاني منها السكان المحليون تحت نير التحكم الصليبي بان أهم ما اتصفت به حياتهم هو «الذلة والمسكنة الذميمة، ومنها سماع ما يفجع الأفئدة»،(٥١) بل نستطيع أن نؤكد أن زيارته هذه وما لمسه خلالها من سوء أحوال السكان المحليين ومدى معاناتهم قد كان لها انطباع سيء على نفسه، وضح هذا الانطباع أشد الوضوح في عبارته التي قالها وهي «الحذر من دخول بلادهم، والله تعالى المسئول حسن الأقالة.»(٥٢) ثم كيف للمؤرخ أن يفسر تلك الثورات التي قام بها السكان في القرى وفي المدن

---

(٤٧) لمزيد من التفاصيل عن موقف ومعاناة أبناء الطوائف المسيحية راجع السيد علي، **المجتمع المسيحي في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية**، رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة القاهرة، ١٩٦٩، ص ص ٣٢ ـ ٤٦.

(٤٨) جوزيف نسيم، **العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية الأولى** (الإسكندرية، ١٩٦٧م)، ص ٢٦٧.

(٤٩) E. Rey, *Colonies Franques en Syrie aux xll et xlll Siecles* (Paris, 1883), pp. 96 - 97.

(٥٠) J. Prawer, *The Latin Kingdom of Jerusalem* (Jerusalem, 1972), p. 343.

(٥١) ابن جبير، **الرحلة**، ص ص ٢٤٩ ـ ٢٥٢.

(٥٢) ابن جبير، **الرحلة**، ص ٢٥٢.

ضد الحكم الصليبي كلما سنحت لهم الفرصة، وما أحدثوه من دمار وخراب، وامتناع عن زراعة الأرض وهو ما سوف نوضحه بالتفصيل في الصفحات القادمة كوسيلة من وسائل المقاومة الشعبية ضد المعاناة، هذا في الوقت الذي يؤكد فيه هذا الفريق من المؤرخين أن خضوع هؤلاء السكان لحكام من الإفرنج لم يكن سوى تغيير في الحكام وهو ما اعتاده السكان منذ أزمان بعيدة في الشرق.

وعلى أية حال فقد تجلت المعاناة أول ما تجلت في مظاهر الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون بوجه خاص في المدن التي خضعت لحكم الفرنج، من ذلك تحويل أسرى المعارك للاستفادة بهم في عمليات تبادل الأسرى أو الحصول على فدية كبيرة.[٥٣] أما سبايا الحرب من النساء فقد جرت العادة أن يتحولن إلى جاريات، مثال لذلك ما تشير إليه بعض المصادر اللاتينية من أن النساء المسلمات اللاتي بقين على قيد الحياة في أعقاب استيلاء الفرنج على مدينة قيسارية عام ١١٠١م، فقد تحولن جميعا إلى جاريات، وكلفن بإدارة الطواحين التي كانت منتشرة بكثرة في المدينة[٥٤] ومنهن من كن يشتغلن بالخدمة في منازل أسيادهن من الفرنج. كما جرت محاولات عديدة لإغرائهن لنيل الحرية شريطة أن يعتنقن الديانة المسيحية، وعلى أية حال فهي حالات شاذة ولم يشر إليها ثقات المؤرخين المعاصرين، وإن كان قد أشار إليها بعض المؤرخين المتعصبين كالمؤرخ ريتشارد في كتابه عن مملكة بيت المقدس اللاتينية[٥٥] أما من تمسكن منهن بدينهن فإن هؤلاء عشن حياة الرق بكل ما فيها من ذل وعبودية ومهانة، واكتظت بهن أسواق كثير من المدن التي خضعت للحكم الصليبي مثل عكا وغيرها من المدن الأخرى، وشكلن سلعة رائجة للتجار الإيطاليين وبخاصة تجار جنوة.[٥٦]

وخير ما يعبر عن سوء أحوال العبيد والجواري من المسلمين الذين كانوا تحت أيدي الصليبيين في بلاد الشام، ما تشير إليه بعض المصادر من ذلك الوصف المثير للأسى والحزن الذي يصفهم به ابن جبير في قوله «ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم أسرى المسلمين، يرسفون في القيود ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك في أسواقهن خلاخيل الحديد فتنفطر لهن الأفئدة ولا يغني الإشفاق عنهن شيئا.»[٥٧]

ومن ضروب الاضطهاد التي نسمع عنها، والتي تعرض لها سكان المدن على الخصوص ما تشير إليه المصادر المعاصرة من كونهم كانوا يحيون حياة كلها ذل ومهانة في ظل الحكم الصليبي، وخير مثال على ذلك مايرويه لنا مجير الدين الحنبلي من قول: «وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين وكانوا في ذل كبير من مساكنة الإفرنج ففرج الله عنهم أي بفتح صلاح الدين الأيوبي لهذه المدن عقب موقعة حطين الشهيرة».[٥٨] هذا إلى جانب ما تعرضوا له في أعقاب العمليات الحربية من مصادرات لأموالهم وثرواتهم بشكل فاق طاقاتهم، والأمثلة على ذلك كثيرة وعديدة، ولنأخذ منها ما حدث في مدينة صيدا التي سقطت في أيدي الصليبيين في الخامس من ديسمبر عام ١١١٠م خصوصا بعد أن أدرك الصليبيون أهمية السكان المحليين في الحياة الاقتصادية[٥٩]، وكانت مدة الحصار عليها سبعة واربعين يوماً، ورتب بلدوين الأول ملك بيت المقدس الأحوال بها والحافظين لها ورجع إلى عاصمة مملكته، ثم عاد بعد مدة يسيرة إلى صيدا فقرر على من أقام بها نيفا وعشرين ألف دينار، فأفقرهم واستغرق أموالهم وصادرمن علم أن له بقية منهم.[٦٠]

---

(٥٣) أسامة بن منقذ، **كتاب الاعتبار**، ٧١ ـ ٨٢، ابن جبير، **الرحلة**، ص ٢٥٢، ٢٥٣، W. Miller, *Essays on the Latin Orient* (Cambridge, 1921) p. 527 Richard *LaRayoume*, p. 123

(٥٤) Foulcher of Chartres, *A History*, 153 - 155.

(٥٥) Richard, la *Rayoume*, p. 124.

(٥٦) Richard *La Rayoume*, pp. 123 - 125

(٥٧) ابن جبير، **الرحلة**، ص ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٥٨) الحنبلي ، القاضي مجير الدين، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** (النجف: منشورات المطبعة الحيدرية، ١٩٦٨م) ص ٢٣٦.

(٥٩) Foulcher of Charters, *A History*, pp. 199 - 200; William of Tyre, *A Hist.*, Vol. 1, pp. 486 - 488.

(٦٠) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ**، ص ١٧١.

يضاف إلى هذا تعرضهم لغدر الصليبيين بهم، مثال ذلك ما حدث عام ١١٥٧م من أن جماعة من الرعاة التركمان، كانوا قد حصلوا على إذن من ملك بيت المقدس بلدوين الثالث برعى ماشيتهم وخيولهم وجمالهم في منطقة الأردن حول بانياس، فكانت الخيول الكثيرة التي امتلكها أولئك الرعاة قد أثارت طمع بلدوين نفسه، فنسى الأمان الذي أعطاه لهم وفكر في سلبهم إياها، فكان أن هاجم الصليبيون أولئك الرعاة المسلمين، واعملوا فيهم السيف، فقتل من قتل وأسر من أسر، وتحقق للصليبيين ما أرادوا من إسلاب «واستاقوا جميع ماوجدوه وأفقروا أهله منه مع ما أسروه من تركمان وغيرهم، وعادوا غانمين آثمين»[٦١] وعلى حد قول أحد المؤرخين الأوربيين أنه إذا جاز للمسلمين أن يصبروا على قيام دولة للصليبيين في بلادهم، فإنهم لا يطيقون قيام دولة من اللصوص في أراضيهم[٦٢]، وتكررت عمليات الغدر هذه وبخاصة من القادمين الجدد من الغرب الأوربي، مثال ذلك ماتشير إليه بعض المصادر العربية في حديثها عن حملة عكا سنة ٦٨٩ - / ١٢٨٩م التي كان قد أعدها السلطان المملوكي المنصور قلاوون لكنه توفي قبل القيام بها، وأن السبب فيها قدوم حملة عام ١٢٨٩م وهي التي تسمى بالحملة الإيطالية، التي ارسلتها البندقية، وقد هاجم أفرادها الفلاحين المسلمين بعكا وقتلوا كل التجار المسلمين الذين بداخلها رغم الأمان المعطى لهم[٦٣]، وما حدث قبل ذلك عام ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م حيث أمر الأمير ريموند حاكم أنطاكية بالقبض على التجار المسلمين في أنطاكية وكذلك كل المسلمين المقيمين فيها، ويبدو أنه اتخذ هذا الإجراء كتمهيد للحملة التي أزمع القيام بها عند قدوم الإمبراطور البيزنطي الذي وصل إلى انطاكية في أعقاب هذه الإجراءات، وتم التحالف بينه وبين أميرها ريموند، وقاما بشن الهجوم على المناطق الإسلامية المجاورة وراح ضحية هذه الحملة المشتركة عدد كبير من السكان المسلمين.[٦٤]

ويفسر لنا الراهب اللاتيني بيركارد الذي عاش في جبل صهيون في بيت المقدس فترة من الزمن السر في قيام هؤلاء الفرنج باضطهاد السكان الوطنيين والغدر بهم بقوله: «وللحق يجب أن نشير أن شئتبنا وهم اللاتين كانوا أسوأ من غيرهم من الشعوب الأخرى التي عاشت في الشرق اللاتيني. والسبب في هذا حسب اعتقادي أن أعداداً كبيرة منهم كانوا ممن تركوا أوطانهم هربا مما اقترفوه من آثام، فقد كان منهم اللصوص، وقطاع الطرق والزناة، وهم خليط أتوا من كل مكان، من المانيا، وايطاليا، وفرنسا، وانجلترا، واسبانيا ومن كل أنحاء العالم، وكل ماحدث لهم أنهم غيروا فقط المناخ الذي كانوا يعيشون فيه، ولم يغيروا من أساليبهم أو عقليتهم. وبمجرد استقرارهم في هذه البلاد فإنهم عادوا إلى ماكانوا عليه، بل أسوأ مما كانوا فيه، بل أن أبنائهم قلدوهم في جرائمهم وبذلك كان الأبناء أسوأ من الآباء..»[٦٥]

وقبل أن نستعرض معا أحوال السكان المحليين في المدن التي خضعت للحكم الصليبي، والحرف التي مارسوها والأعباء المالية الملقاة على عاتقهم، يجب أن نشير إلى حقيقة مهمة وهي أن الصليبيين لم يشيدوا مدنا جديدة في بلاد الشام طوال فترة حكمهم والتي استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان، وإن كان قد حدث نوع من الاتساع في بعض المدن، إما لتخصيص مساحات منها لأبناء المدن الإيطالية وإحاطتها بأسوار لعزلها عن بقية أحياء المدن التي وجدوا فيها، أو نتيجة لازدحام الصليبيين في بعض المدن مثل عكا وصور كنتيجة لحركة المد الإسلامي

(٦١) ابن القلانسي، **ذيل التاريخ**، ص ٣٣٧.

(٦٢) **الحركة الصليبية** جـ٢، ص ٦٦٧، نقلا عن باركر، **الحروب الصليبية**، ص ٨٩.

(٦٣) ابن عبد الظاهر، محي الدين، **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**، تحقيق مراد كامل (القاهرة، ١٩٦١م)، ص ١٧٧؛ بيبرس الدوادار، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق زبيدة محمد عطا (الرياض، ١٣٩٤هـ)، جـ٩، ص ٢٥١.

(٦٤) W. G. Stevenson, *The Crusaders in the East* (Cambridge, 1907), p. 140.

(٦٥) Burchard of Moutsion, *"A Description of the Holy Land"* *PP. T. S* (London, 1897), Vo., *XII*, pp.102 - 103.

وتقليص وجودهم عقب معركة حطين عام ١١٨٧م، بحيث غدت عكا عاصمة لمملكة بيت المقدس وتركزت فيها جموعهم إلى أن تم طردهم نهائيا عام ١٢٩١م.[٦٦]

ولكي تتضح لنا صور المعاناة التي عاناها السكان في المدن، سنأخذ الأحياء الخاصة بالإيطاليين، وهي التي حصل عليها أبناء المدن التجارية الإيطالية أمثال جنوة، وبيزا والبندقية، أما لقي وغيرها نظير ما قدموه من مساعدات حربية للاستيلاء على أهم المدن والموانيء الساحلية في بلاد الشام، نجد أن كل حي من هذه الأحياء كان يمثل في الغالب حوالي ثلث المدينة، ونلاحظ أن كل حي فيها تم الاستيلاء عليه بما فيه من سكان ومرافق وقد أصبح ملكا خالصا لهذه المدينة أو تلك. وانه حرم على السكان المحليين الاشتغال بتجارة الجملة، وأنها أصبحت وقفا على الملاك الجدد[٦٧]، مثال ذلك ان البنادقة في مدينة طرابلس وحدهم كانوا يتمتعون بحق امتلاك متاجر الجملة، يتاجرون فيها في القمح، والخضر والزيت وأشياء أخرى للاستهلاك المحلي، بالإضافة إلى احتكارهم لتجارة الصادر إلى بلاد الغرب الأوربي وغيرها من البلاد، والتي كانت قبل مجيء الصليبيين في أيدي التجار المحليين سواء في ذلك منتجات المدن التابعة لهم أم سلع الشرق والآتية من أسواق دمشق وغيرها، وأنه تحتم على السكان الوطنيين أن يمارسوا فقط بعض الحرف والصناعات داخل تلك الأحياء، وذلك لإشباع حاجات أهل الحي من جهة، وتقديم خدماتهم للتجار الأجانب، وأن يعملوا لديهم كأجراء، فعلى سبيل المثال فإن أرباب الحرف كانوا عمالا مهرة، لذا نسمع عن اشتغالهم في دور صناعة الحرير والزجاج في كثير من المدن لحساب التجار الإيطاليين، ففي مدينة صور مثلا قامت على أكتافهم مختلف الصناعات، مثل صناعة المنسوجات، وصناعة الأصباغ، وصناعة الزجاج، وصناعة السكر، وصناعة الخزف، وصناعة المشغولات المعدنية[٦٨]بل يمكننا القول إنه لم يكن هناك مصدر من مصادر الثروة إلا وآل إليهم، ففي المدن الساحلية وحيث كان صيد الأسماك يشكل أحد الأنشطة المهمة التي تدر دخلا كبيراً نسمع عن احتكارهم له، ففي مدينة صور نسمع أنه حوالي نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد، كان هناك أسطول لصيد الأسماك تابع لأسرات ذات أصل بيزي، وأنه كان يعمل على هذا الأسطول عدد من أبناء السكان المحليين.[٦٩] وقد شاركهم في احتكار هذا النشاط أيضا أبناء طوائف الرهبان العسكرية من الاسبتارية والداوية، حيث يذكر الرحالة اللاتيني ثيودريك Theodrich أن طائفتي الداوية والاسبتارية كان لكل منهما في مدينة عكا أسطولا بحريا للصيد ونقل الركاب، فضلا عن دار لبناء السفن وإصلاحها على شاطيء البحر.[٧٠]

وفي مدن أخرى مثل يافا، وبيروت، وصور، وعكا، وطرابلس، وانطاكية وهي التي كان لدور الصناعة فيها شهرتها العريقة سواء في الشرق أم في الغرب في إنتاج المنسوجات الحريرية ذات الشهرة والجودة الفائقة، حيث كانت تنتج من الأقمشة والجياد والعتابي والتستري والأصبهاني وما شكالها[٧١]، فضلا عن مصانع الخزف والفخار ذات الشهرة العالمية، والتي تشير مجموعة قوانين بيت المقدس إلى أنها تركزت بصفة خاصة في كل من يافا وبيروت وصور وعكا، كل دور الصناعة هذه وغيرها آلت ملكيتها إلى الفرنج بوجه عام، وإلى أبناء المدن الإيطالية في الأحياء التي امتلكوها بوجه خاص،

(٦٦) William of Tyre, *A History, II*, p.6; Rey, *Colonies*, pp. 211 - 215; Riley Smith, *The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem 1174 - 1277* (London, 1973), pp. 69 - 79.

(٦٧) Smith, *The Feudal*, p.81; Prawer, *Crusader*, pp. 180 - 182.

(٦٨) Jacques De Vitry, *The History of Jerusalem*, in P.P.T.S. (London 1896), p. II; Burchard, *A Description*, p. 16; Rey, *Colonies*, pp. 72 - 73.

(٦٩) Rey, *Colonies*, pp. 212 - 215.

(٧٠) S. Theodrich, *Description of the Holy Places*, in P.P.T.S. (London, 1895), Vol. V., p. 59.

(٧١) الإدريسي، أبو عبد الله محمد، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٩م)، المجلد ٢، ص٦٤٥، Burchard, *A Description*, p. 215.

وعمل أصحابها كعمال فيها.[٧٢]

بل إن مقاطع الأشجار في الغابات المنتشرة في كثير من بلاد الشام استولى عليها أبناء الغرب الأوربي ضمن ما استولوا عليه من مصادر الثروة المختلفة، وذلك بحكم الغزو، نذكر من ذلك على سبيل المثال غابات الصنوبر في السويدية، والتي كان يحمل منها خشب الصنوبر إلى سائر الأقطار الشامية وغيرها.[٧٣] كما وقع في أيديهم أهم غابات الأشجار الأخرى بأنواعها مثل السرو، والأرز، والعرعر، وهي التي كانت لها شهرتها في العصور الوسطى في بلاد الشام، مثل غابة عسقلان، وغابة ارسوف، وغابات جبل لبنان، وغابات عكا.[٧٤]

ولم يكن احتكار الفرنج قاصرا على مصادرة الثروة والإنتاج، بل إننا نسمع عن احتكارهم لكثير من مرافق الخدمات العامة في المدن والأحياء الخاصة بالإيطاليين، حيث تشير كثير من المراجع إلى أن جميع مدن بلاد الشام في ذلك العصر كانت زاخرة بالحمامات العامة، والأفران، والطواحين وغيرها من المرافق التي كانت تؤدي خدماتها لعامة الناس، والتي كانت بلا شك في أيدى أبناء البلاد قبل مجيء الصليبيين، ولكن في ظل نظام الإقطاع الذي أوجده الصليبيون ونظام الملكية الخاص بالمدن الإيطالية آلت ملكية هذه المرافق إلى أبناء الغرب الأوربي، وكان يقوم على تشغيل هذه المرافق السكان المحليون من أبناء البلاد، وبذلك تحولوا إلى إجراء يعملون فيها، والدليل على هذا ما حدث في بيروت على سبيل المثال عام ١٢٢٣م من أن حاكمها الأمير يوحنا منح الجنوية فيها حق استخدام الحمامات العامة الموجودة في المدينة مرة في الأسبوع، وفي هذه المرة كان يتم منع بقية الناس من دخول هذه الحمامات، أي أن مثل هذه المرافق كانت ضمن ممتلكات الحكام، ويعمل فيها من يعمل من الأهالي كأجراء.[٧٥] وحتى الأسواق الرئيسة في المدن فقد آلت ملكيتها إلى الصليبيين وكذلك الفنادق والخانات العديدة وهي من ضمن المرافق ذات الطبيعة التجارية والتي آلت ملكيتها للتجار الإيطاليين وغيرهم من الحكام اللاتين، وكان يسمح للتجار المسلمين الوافدين من المدن الإسلامية بالتردد على هذه الأسواق والفنادق لبيع ما يجلبون من بضائع نظير دفعهم رسوم جمركية تراوحت ما بين ٤,٦٪، ١٢,٥٪[٧٦]، كما كانت المبالغ التي يتم تحصيلها من هذه المرافق تشكل دخلا طيبا لحكام الفرنج ولأبناء المدن الإيطالية كذلك، ففي عام ١٢٤٣م مثلا كانت ثلاثة حمامات في مدينة صور تحقق دخلاً للبنادقة يقدر بحوالى ٢٦٥ ديناراً في السنة، بينما نسمع أن أحد الأفران في مدينة المرقب كان يدر دخلا يقدر بحوالي ١٥٠ ديناراً في السنة، وفي مدينة عكا نسمع عن فرن يدر دخلا للبنادقة كغيره من الأفران يقدر بحوالي ١٥٠ ديناراً سنويا، بينما كان الفرن الخاص بجنوة في حيهم في عكا يدر دخلا يقدر بحوالى ٣٦٦ ديناراً سنويا.[٧٧]

ومما لا شك فيه أن مثل هذه المبالغ وإن كانت تبدو لنا الآن بسيطة إلا أنها بمقاييس ذلك العصر كان لها وزنها وقيمتها، وأقل ما يقال أن أصحاب البلاد الأصليين حرموا من تلك المصادر، بينما استمتع بها العدو الدخيل كما تجدر الإشارة إلى أنه في كل مدينة من المدن التي خضعت للحكم الصليبي وجد كثير من الباعة من المسلمين وغيرهم، والذين تركز وجودهم في كثير من الأسواق، وهي أسواق تخصصت كل منها في بيع سلعة واحدة، وبخاصة تلك السلع التي تمد السكان باحتياجاتهم من المواد الاستهلاكية، من أطعمة وفواكه وخضر ولحوم وأسماك وطيور ودواجن وغيرها. والجدير بالذكر أن مثل هذه الأسواق عقب استيلاء الصليبيين عليها اعتبرت ملكا إما للحكام من ملوك بيت المقدس أو

(٧٢) Jean d' Ibin, *Assises des Jerusalem*, t. II, in R.H.C. : (Lois, Paris, 1841), p. 179; Rey, *Colonies*, pp. 212 - 215.

(٧٣) الادريسي، **نزهة المشتاق**، جـ٢، ص ٦٤٦.

(٧٤) زكى النقاش، **العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية** (بيروت، ١٩٥٧م)، ص ص ٩٦ ـ ١٧٤؛ Rey, *Colonies*, pp. 236 - 239.

(٧٥) Smith, *The Feudal*, p. 77.

(٧٦) Smith, *The Feudal*, p. 74.

(٧٧) Smith *The Feudal*, pp. 86 - 89.

لحكام الإمارات التي أسسها اللاتين في الشرق، أم طوائف الرهبان الفرسان من الداوية والاسبتارية وغيرها، وبالتالي كان يسمح لهؤلاء الباعة بالوجود فيها نظير ضرائب معينة يتم دفعها لهؤلاء الحكام.(٧٨) وهذه الأسواق كانت تخضع لرقابة صارمة من قبل المحتسب والذي ورد ذكره عل وجه الخصوص في مدينة صور، والذي كان من ضمن اختصاصاته العديدة الإشراف على الموازين والمكاييل، وتحقيق العدالة، وجمع الضرائب المستحقة للسادة الإقطاعيين والحكام. وهذه الأسواق خضعت لنوعين من الضرائب، هما ضريبة الأسواق المفروضة على البضائع والتجار، وضريبة أخرى تم فرضها على استخدام الموازين والمكاييل،(٧٩) هذه الضريبة على الموازين والمكاييل كانت تشكل دخلا طيبا، فقد بلغت الضريبة المقررة على الموازين في مدينة صور مبلغا يقدر بحوالي ١٩٠٠ دينار، بينما بلغت الضريبة المقررة على استخدام المكاييل المستخدمة في الحبوب وزيت الزيتون حوالي ٣١٠ دنانير سنويا. ومما لاشك فيه أن هذه الضرائب وغيرها كانت تشكل عبئا ماليا على كاهل السكان المحليين وأرباب الحرف المختلفة، إذ نسمع أن مثل هذه الضرائب كان يتم اقتسامها بين البائع والمشتري.(٨٠)

ومن الضرائب الأخرى والتي تمثل أحد الأعباء المالية وفي الوقت نفسه تشير إلى المعناة ماتشير إليه بعض المصادر من وجود ضريبة تم فرضها على الآلات الموسيقية، مثل الأبواق والدفوف، والطبول، والمزامير وغيرها والتي بلغ مقدارها ٥٠٠ دينار سنويا في مدينة عكا بينما بلغت الضرائب التي تم فرضها على الجزارين وعمال المذبح والمسلخ حوالى ٤٠٠ دينار وعلى زيت السمسم ١٦٠ ديناراً، وعلى السمك ٧٠ ديناراً، وعلى الألبان ٢٢ ديناراً، بالإضافة إلى عدة ضرائب مماثلة تم فرضها على الصابون، والشموع والتوابل في مملكة بيت المقدس الصليبية بخلاف غيرها من الإمارات الأخرى.(٨١)

كما تشير بعض المصادر إلى أن المسلمين في المدن التي خضعت للحكم الصليبي خضعوا كغيرهم من السكان المحليين من أبناء الديانات الأخرى لضريبة الدفاع، والتي تم فرضها عام ١١٨٣م لمواجهة تحركات صلاح الدين، وأن هذه الضريبة كان يتم تحصيلها بواقع ٢٪ من دخل الأفراد، أو على شكل ضرائب يتم دفعها على مشترياتهم.(٨٢) هذا إلى جانب خضوع السكان المحليين من مسلمين وغيرهم لدفع ضريبة العشور، وإن كانت بعض المراجع تشير إلى أن هذه الضريبة كان يدفعها الصليبيون فقط في المدن المختلفة(٨٣)، باستثناء فرق الرهبان العسكرية من داوية واسبتارية وغيرهم، إلا أننا نرى أن السكان المحليين قاموا بدفع هذه الضريبة مجبرين، والدليل على هذا واضح من خلال ما حدث في المؤتمر الذي تم عقده في مدينة نابلس وحضره جاراموند Garamond بطريرك بيت المقدس والملك بلدوين الأول عام ١١٢٠م، بهدف اتخاذ الإجراءات الضرورية لإصلاح الأحوال الخلقية والروحية المتدنية التي وصلت إليها البلاد وتمت الموافقة على أن يتنازل البارونات عن هذه الضرائب التي كانوا يحصلونها، على أن تقوم كنيسة بيت المقدس بتحصيلها، كما كانت هذه المبالغ تشكل جزءا من دخل ملك بيت المقدس والتي عرفت باسم الضرائب الملكية، وكان ملك بيت المقدس يقوم بتحصيلها من الرعايا القاطنين في كل من مدينة بيت المقدس، ونابلس، وعكا وفي هذا المؤتمر تم التنازل عنها لكنيسة بيت المقدس كنوع من المساهمة في حركة الإصلاح المنشودة. وتجدر الإشارة إلى أنه في المؤتمر نفسه صدر القرار رقم ١٦

(٧٨) Prawer, *The Latin Kingdom*, pp.408 - 410.

(٧٩) G.L.F Tafel, and G.M. Thomas (ed), *Urkunder Zur alteren Handels Und Staatsges chichte der Republik Veneding Mit besonderer Berucksichtiqung auf Byzanz und die Levanto*, (1856 - 57), 11, pp.359 - 362.

(٨٠) Tafel - Thomas, *Urkuner*, II, p.367; Prawer, *The Latin Kingdom*, pp. 410 - 411.

(٨١) Tafel - Thomas. *Urkunder*, II, p. 367; Prawer, *The Latin Kingdom, p. 412.*

(٨٢) W. Heyd, *Hist. du Commerce du levant au Moyen Age* (Leipzig, 1926), II, p. 262.

(٨٣) Prawer, *The Latin Kingdom*, p. 377.

والذي ينص على أن أي رجل مسلم أو إمرأة مسلمة يرتدي أو ترتدي ملابس الإفرنج يقدم أم تقدم للمحاكمة(٨٤)، وربما كان اتخاذ بعض المسلمين للزي الصليبي كوسيلة من وسائل التخفي وتعدد أساليب المواجهة مع العدو وتعبيرا عن حالة السخط والاستياء التي عاشوها في ظل المعاناة شديدة الوطأة أوكنوع من تقليد السادة في ملابسهم، لذا كان مثل هذا التحريم كنوع من القيود في ارتداء أزياء بعينها بين عناصر المجتمع المختلفة، بينما لم يلتزم الفرنج أنفسهم بمثل هذه القيود في كثير من الأحيان.

يضاف إلى الأعباء المالية السابقة أن السكان المحليين من مسلمين وغيرهم سواء من عاش منهم في الأحياء الخاصة بالمدن الإيطالية العديدة، أو من عاشوا خارجها، كانوا مطالبين بدفع رسوم للمحاكم التي تقضي في المنازعات المختلفة التي قد تنشب بينهموبين غيرهم،أو نظير نشر العدالة في المدينة أو في الحي الإيطالي(٨٥) ليس هذا فحسب ، بل انهم كانوا ملزمين بدفع إيجارات عن منازلهم التي يقطنون فيها من قبل مجيء الصليبيين، وكذلك الحوانيت التي يمارسون فيها حرفهم المختلفة، وقام موظفوا المحاكم البرجوازية والمحاكم الوطنية في كل مدينة من المدن التي خضعت للحكم الصليبي بتحصيل هذه الإيجارات في مواعيد محددة من كل عام، فبعضها كان يتم تحصيله شهريا أوكل ثلاثة أشهر، والبعض الآخر سنويا(٨٦)، أما بالنسبة للمتلكات التي آلت لطوائف الرهبان العسكرية فقد كان يتم تحصيل إيجارها عن طريق موظفين تابعين لهذه الطوائف، فعلى سبيل المثال جرت العادة لدى طائفة فرسان الداوية أن يحيزوا الممتلكات الخاصة بهم بوضع حرف T عليها إذ يدل هذا على أنها من ممتلكات الداوية أو فرسان المعبد The Templers ، ويقومون بتحصيل إيجاراتها من قاطنيها سواء من السكان أم الباعة والحرفيين عن طريق موظفين من قبلهم لهذا الغرض.(٨٧)

وبعد أن استعرضنا معا في السطور الماضية مدى تدخل الصليبيين في ممارسة السكان المحليين لشعائرهم الدينية، وضروب الاضطهاد التي حلت بهم، وحياة الذل والعبودية التي عاشوها، وتعرضهم لغدر الفرنج المستمر بهم، إلى جانب الاستيلاء على مصادر الثروة والإنتاج في المناطق التي خضعت لحكمهم، وكذلك الاستيلاء على المرافق العامة ومؤسسات الحياة الاقتصادية، بالإضافة إلى كثرة أنواع الضرائب التي فرضت على هؤلاء، لنا أن نتساءل ألم تكن هذه هي المعاناة في أشد وأقسى صورها ؟ وهل يمكن في ظل هذه الظروف أن تكون العلاقات بين الطرفين طيبة كما يزعم بعض المؤرخين الذين سبقت الإشارة إليهم ؟ هذا فيما يتعلق بسكان المدن إما سكان القرى فقد كانت لهم قصة أخرى سنخصص لها السطور التالية.

أهل القرى ومعاناتهم

كانت الغالبية العظمى من سكان القرى في بلاد الشام من المسلمين بالإضافة إلى أقلية من المسيحيين المحليين ممن كانوا يعملون بالزارعة، ولم يسلم الجميع من ثقل وطأة الالتزامات المتعلقة بالإنتاج الزراعي في ظل الحكم الصليبي(٨٨)، لقد عاش سكان القرى هؤلاء مرتبطين بالأرض في القرى العديدة في المناطق التي خضعت للحكم الصليبي، وهم الذين عرفوا عند الفرنج باسم المزراعين Rustici أو اسم الفلاحين Villani.(٨٩)

وفي ظل نظام الإقطاع الزراعي الذي أوجده الصليبيون آلت ملكية القرى إليهم، بمن عليها وما عليها، بل أنه جرت العادة أنه عند انتقال القرية أو الضيعة من سيد إلى سيد آخر ـ وهذا ما حدث في

(٨٤) Michaud. *Hist. of the Crusades.* Trans from French by W. Robson (London, 1852), Vol.3, pp. 367 - 369; Smith. *The Feudal*, p. 69.

(٨٥) Michaud, *History*, Vol. 3, pp. 367 - 369.

(٨٦) Michaud, *History*, Vol3, p. 385 - 391.

(٨٧) Benvenisti. *The Crusaders*, p. 55.

(٨٨) A. Beugnot, "*Memoire sur le regime des terres dans les principautes Fondees in Syrie par les Frances a le suite des croisades*" in BEC, XV (1854), p. 410; Richard,*LaRayoume*, p. 122.

(٨٩) Smith, *The Feudal*, p. 40.

حالات كثيرة عندما تنازل كثير من النبلاء عن قراهم لهيئات الفرسان الرهبان ـ جرت العادة أن تنتقل الأرض بمن عليها من الفلاحين إلى السيد الجديد على أنهم اتباع له، هذا مع وجود بعض القرى التي ظلت في حوزة المواطنين المحليين وإن كان من الصعب الجزم بقول فاصل فيما يتعلق بحجم هذه القرى بالنسبة لغيرها من القرى والتي آلت ملكيتها لحكام من الفرنج، وإلى جانب أنه جرت العادة لدى الصليبيين أن يترك أصحاب الإقطاعات أو ملاك الضياع الأرض الزراعية لمن عليها من الفلاحين لإدراتها ويعيشون هم بعيداً عن القرى، كما كانت الأرض موزعة على الفلاحين على أساس نظام «المشاع» وهذا النظام لا يزال موجودا في بلاد الشام إلى اليوم، بحيث لم يتم تجزئة الأرض على الفلاحين على شكل حصص تقوم أسر الفلاحين بزراعتها[٩٠]، إلا أنه يجب الإشارة إلى أن حدود كل قرية وكل ضيعة كانت واضحة ومعروفة، حيث كان يتم رسم حدودها وتحديد زمامها بالحجارة وبشكل واضح[٩١]، وذلك وفق مقاييس متعارف عليها، سواء منها القيراط العربي «الإسلامي» وهو مقدار الأرض التي يمكن حرثها في يوم بواسطة زوج من حيوانات الحرث، وجرت العادة أن يتم به قياس مزارع الكروم إلا أنه لم يستخدم في قياس البساتين، وإما بطريقة قياس هي من وضع الفرنج، هو القياس الذي عرف باسم acaruca carrucate وهو وحدة للقياس تعادل حوالى ٣٥ هكتاراً[٩٢]. أو بوحدة قياس ثالثة، تشير بعض المراجع إلى انها مازلت مستعملة إلى اليوم، ويقصد بها وحدة القياس المستخدمة في الأراضي التي تزرع قمحا، ويتم تقديرها بمقدار القمح الذي يمكن أن يبذر ولكنه كان يختلف من مكان لآخر، فبالقرب من مدينة صور، على سبيل المثال، كانت عبارة عن تلك المساحة من الأرض التي يمكن بذرها بمقدار modii من القمح، وبالقرب من مدينة عسقلان كانت تقدر بما يبلغ ١٢ modii علما بان ال modious الواحد يعادل حوالى ٢٣٠ كيلو من القمح أو إنتاج هكتار من الأرض في السنة.[٩٣]

أما عن نظام الزراعة، فإنه يبدو أنه اتبع نظام الزراعة الفصلية أو الحولية، حيث تتم زراعة قطعة من الأرض لمدة عام وتترك لمدة عام آخر بلا زراعة. وكانت الأرض التي تتم زراعتها تبذر فيها بذور القمح أو الشعير في منتصف شهر نوفمبر بينما كانت الأرض التي يطلق عليها إجمالا الأرض المنزرعة، كانت تتم زراعة نصفها بالخضروات، ويترك النصف الآخر بلا زراعة وهي الأرض المراح. وفي بعض المناطق كانت هذه الأرض المراح تزرع بمحصول مثل السمسم والذي كان يمكن حصاده في شهر مايو، ومن المحتمل أيضا أنه كان يتم زراعتها بمحصول صيفي[٩٤]، وفي الأراضي التي خضعت لطوائف الرهبان العسكرية من اسبتارية وداويه كان أبناء هذه الطوائف الدينية يقدمون لفلاحيهم البذور والمعدات، على أن يتولى الفلاحون زراعة الأرض ورعاية المزروعات ثم يتم اقتسام المحصول بنسبة معينة بين الطرفين عادة ماكانت الثلثين والثلث.[٩٥]

كما تجدر الإشارة إلى أن عدد الأسر في كل قرية من القرى التي خضعت للحكم الصليبي لم يكن كبيراً جداً، حيث كانت هناك بعض الأسر يتراوح عدد أفرادها مابين ثلاثة أو أربعة أشخاص، بوجه عام فإن الأرض الزراعية في تلك الأيام كانت قليلة السكان بمقارنتها بعصرنا الحالي، وكمثال على قلة عدد السكان في القرى ماجاء على لسان أحد الموظفين البنادقة في مدينة صور قوله: أنه يوجد في منطقة عسقلان ٧٢ قرية في أكبر قرية فيها ستجد مائتي أسرة بينما هناك العديد من القرى الصغيرة التي ستجد فيها أقل من عشرين أسرة.[٩٦] أما عن دخل

(٩٠) Smith, *The Feudal*, p. 41.

(٩١) Smith, *The Feudal*, p. 42.

(٩٢) Tafel - Thomas, . *Urkunder, II*, p. 368; Prawer, *The Latin Kingdom*, p. 37; Smith, *The Feudal, p. 45.*

(٩٣) Smith, *The Feudal*, p. 42; Prawer, *The Latin Kingdom*, p. 373.

(٩٤) Smith, *The Feudal*, p. 45.

(٩٥) Prawer, *TheSettlement*,p. 377

(٩٦) Tafel - Thomas, *Urkunder, II*, p. 398; Prawer, *The Settlement*, p. 316.

القرية، فإن كانت المعلومات التي لدينا لا تمكننا من عمل تقدير دقيق لدخل القرية من الزراعة ـ وهو الذي كان يتم اقتسامه بين السادة الإقطاعيين أو الملاك من جهة والفلاحين من جهة ثانية ـ لكن من خلال العديد من الحالات يبدو أن متوسط دخل القرية من الزراعة كان يتراوح مابين ثلاثة آلاف وخمسة الآف دينار. ومن الطبيعي أن تكون هناك بعض القرى التي حققت دخلا أكبر من هذا، إما بسبب حجمها أو لإنتاجها المتميز من بعض المحاصيل أو بسبب قربها من المراكز العمرانية. فعلى سبيل المثال فإن إنتاج قرية «الدامور» تم تقديره بمبلغ ١٢,٠٠٠ دينار كما أن قرية كفر كانا في الجليل بلغ ٢٤,٠٠٠ دينار وفي بعض قرى بيت المقدس تم تقدير دخل القرية بحوالي خمسة الآف دينار.(٩٧)

وفي تصورنا أن مثل هذا الدخل المرتفع لبعض القرى انحصر في القرى التي كثرت بها مياه الري وحيث كانت زراعة قصب السكر هي دعامة الإنتاج الزراعي فيها، وجرت العادة أن تكون معاصر قصب السكر وسط الحقول، حيث يتم جمع المحصول، ويتم بيع جزء منه على شكل أعواد لكل من يرغب في الحصول عليه، بينما تذهب معظم مقادير القصب إلى المعاصر ثم يتم عصره في تلك المعاصر التي يعمل عدد منها بقوة اندفاع تيار المياه، بينما البعض الآخر يتم تشغيله بواسطة الدواب أو البشر. وكذلك الحال بالنسبة للقرى التي يزرع فيها مقادير كبيرة من الكروم والذي استخدمه الصليبيون والمسيحيون المحليون بكثرة.(٩٨)

بالإضافة إلى تجفيف مقادير كبيرة من الكروم ليصبح زبيبا، وربما ساعد على ارتفاع دخل بعض القرى ما وجد فيها من مزارع الزيتون ومعاصره والتي كثيرا ما تشير إليها المصادر المعاصرة، بينما نسمع عن بعض القرى أنها كانت تمتلك مناطق للغابات يتخللها العديد من الأشجار المثمرة ذات الأهمية، مثل شجر التين وشجر الخرنوب كما وجدت أعداد من أشجار التفاح، ولكنها لم تكن من الكثرة التي قد نتصورها، ولكنها ساعدت بشكل أو آخر على ارتفاع دخل تلك القرى، إلا أنه تجب الإشارة أيضا إلى أنه كلما ارتفع دخل القرية كلما زادت نسبة الأعباء المالية الملقاة على عاتق سكانها، حيث يُلاحظ الباحث انه كلما كان يجمع سكان القرى بيّن الزراعة التقليدية وبين زراعة الكروم وأشجار الزيتون أو الأشجار المثمرة كلما ارتفعت الأعباء المالية من ضرائب مختلفة سوف نشير إليها عما قليل وبشكل يختلف عما إذا قاموا بزراعة الأرض فقط بالمحاصيل التقليدية، خصوصا ما يتعلق منها بالضرائب التي تفرض على الطواحين ومعاصر القصب، ومعاصر الكروم، ومعاصر الزيتون والأشجار المثمرة.(٩٩) حيث أشارت بعض المصادر اللاتينية إلى أن القرى التي كانت تنتج قصب السكر على ضفاف نهر الأردن، وفي كثير من أنحاء بلاد الشام التي خضعت للحكم الصليبي مثل صور وطرابلس وغيرها، كانت الضرائب التي تفرض عليها تشكل أهم الموارد المالية للسادة الإقطاعيين في هذه المناطق.(١٠٠)

أما عن أحوال الفلاحين فإن أول ما نلاحظه أن امورهم القضائية كانت بأيديهم، إذ نسمع عن وجود محكمة مختصة بأبناء القرية تسمى «محكمة الريس» وهو بمثابة العمدة أو المختار، وكان أعضاؤها يحكمون حسب قوانين الإدارة الصليبية الخاضعين لها، مع مراعاة العرف المحلي وتقاليد أهلها(١٠١)، وعن هذا الريس Rays فمن المعروف أنه كان ينوب عن السيد الإقطاعي في القرية، حيث اعتاد الأسياد أن يعيشوا في المدن، لذا فإن كل قرية كان يتم إدارتها بمجلس من كبار رجالها يرأسهم أحد الأشخاص وهو الذي أطلق عليه اللاتين اسم «الريس» وهذا اللفظ مستمد من لفظة رئيس عند المسلمين، وقد كان هذا الريس ينوب عن سكان القرية في علاقاتهم بالسلطات

(٩٧) Prawer, *The Settlement*, p. 377, 378.

(٩٨) Smith, *The Feudal*, pp. 49 - 50; Rey, *Colonies*, pp. 216 - 222.

(٩٩) Smith, *The Feudal*, pp. 40 - 45.

(١٠٠) Burchard, *A Description*, pp. 10 - 16. De Vitry, *The Hist.* pp. 27 -30; W.B. Fleming, *The History of Tyre* (Columbia, 1915), p. 95; Prawer, *The Latin Kingdom*, p. 364.

(١٠١) زكي النقاش، **العلاقات الاجتماعية**، ص ١٥٩.

الحاكمة، ويعمل على تنفيذ أوامر السيد الإقطاعي، ويحافظ على الأمن والنظام في القرية، وفي كل الأحوال فإن الريس كان بمثابة الوسيط بين الحاكم والمحكومين، مع مسؤوليته عن استتباب النظام والأمن في مجتمع القرية الذي يرأسه. وتجدر الإشارة إلى أن نظام رؤساء القرى كان معمولا به ومعروفا قبل مجيء الفرنج إلى الشام، ومن الناحية النظرية فإنهم كانوا مختارين من قبل السادة النبلاء ويشغلون مناصبهم هذه برضاهم وعادة ما كان الريس يشغل منصبه هذا مدى الحياة، ويتوارث أفراد أسرته منصبه الواحد تلو الآخر.

وفي إحدى القرى التابعة لمدينة صور نجد هذا الريس يتفاوض مع سيده الإقطاعي حول ضخامة الضرائب المفروضة على أهل القرية. وهو يمثل الفلاحين في علاقاتهم مع السيد الذي تتبعه القرية، ويمكن أن نراه يحضر أمام هذا السيد نيابة عنهم، يحمل النقود والفواكه من الأشجار ومن الأرض كعينة لنوع الإنتاج الخاص بالقرية، ومع هذا لم يكن معفيا من الالتزامات المالية نحو السيد الإقطاعي مثله مثل بقية الفلاحين.[١٠٢] كما كان على هذا الريس وكبار رجال القرية أن يؤكدوا ولاءهم باستمرار للسيد الإقطاعي وفي كل مرة يزور فيها قريتهم، وذلك بتقديم ألوان الطعام الفاخر له وحاشيته كما كان عليهم أن يستقبلوه ويقدموا له كمية من النقود الفضية، وبعض القمح والزيتون وعندما يتنازل هذا السيد عن إقطاعه فإنه كان يطلب من الريس وكبار رجال القرية بل والفلاحين أيضا أن يقسموا يمين الولاء للسيد الجديد، وأن يثبتوا له ولاءهم باستمرار. ويتم هذا القسم عن طريق ما يلقنه لهم أحد المترجمين.[١٠٣]

ويرى بعض المؤرخين أن هذا الريس قد تمتع بعدة امتيازات في مقابل ثقة السيد الإقطاعي فيه وتعليل ذلك باستحواذه على أرض أكبر من غيره من الفلاحين، بعضها كان يتم إعفاؤه من الضرائب الطارئة أو الاضطرارية، ويعيش في منزل أكبر من غيره من الفلاحين الآخرين، ففي البترون Betheron وهي إحدى قرى صور، كان «الريس» فيها بحوزته عدة أشجار للزيتون ومزرعة للكروم، وكان لديه عشر الأرض المنزرعة، على الأقل بما يعادل ضعف ما استحوز عليه أي فرد من أفراد القرية، نصف هذه الأرض كان يعفى من ضريبة الخراج، كما كان يسكن منزلا حجمه ليس معروفاً، ولكن في سنة ١١٨٤م فإن هذا الريس استضاف الرحالة ابن جبير ومن معه من أفراد القافلة في غرفة كبيرة في منزله[١٠٤]، إلا أننا نقول أنه قد فات هؤلاء المؤرخين أن هذا العمدة أو المختار أو الريس وقبل مجيء الصليبيين كان يشترط فيه أن يكون أحد أعيان القرية، ليكون مطاعا فيها، فضلا عن أن منزله كان بمثابة المضيفة أو الاستراحة التي ينزل فيها كبار الشخصيات أو الضيوف، وكل عابر سبيل، وهذا ما ظل الحال عليه ولا يزال إلى اليوم، وإن أضيفت إليه أعباء في ظل الحكم الصليبي وهي التي أشرنا إليها في التزامه بتقديم ولائه المستمر للسيد الإقطاعي، هذا إلى جانب ما تحمله أحيانا من أعباء في سبيل التوفيق بين رغبات السيد الإقطاعي والفلاحين، حيث كان ملزما بتنفيذ رغبات السيد من حيث زراعة محاصيل بعينها، وكان عليه أن يوزع زراعة هذه المحاصيل المختلفة على الفلاحين، بحيث يحدد لكل فلاح نوع المحصول الذي يجب عليه أن يزرعه.[١٠٥] أما عن الأعباء المالية التي كان على الفلاحين القيام بها نحو السادة من أبناء الغرب الأوربي، فإن أول ما يلاحظه الباحث هو تلك الأعباء التي كانت معروفة في الغرب الأوربي في ظل نظام الإقطاع ونقلها الصليبيون معهم إلى الشرق، وهذا ماسوف يتبين لنا من خلال ماكان يقدمه الفلاحون من التزامات إجبارية، فقد كان السيد الإقطاعي في الشرق أيضا يتمتع بحق فرض غرامات على كل من يرتكب إثما أو خطأ، فضلا عن أنه كان يحصل على ضريبة جماعية كان يتم تحصيلها من جميع سكان الضيعة أو القرية، والتي كان يتم تحصيلها على شكل مبالغ يتساوي الجميع

(١٠٢) Smith, *Feudal*, pp. 47 - 48.
(١٠٣) Prawer, *The Latin Kingdom*, p. 368.
(١٠٤) Smith, *The Feudal*, pp. 48 - 49
(١٠٥) Prawer, *The Latin Kingdom*, p. 370.

في دفعها، كما كان على الفلاح أن يدفع ثلاث مرات في السنة هدية لهذا السيد عن كل هكتار من الأرض، هذه الهدية كانت تتكون من الدجاج، والبيض، والماعز، والجبن، والحطب، وعلى سبيل المثال ففي أحدى القرى القريبة من صور فإن كل فلاح كان ملزما أن يدفع لسيده الإقطاعي ٣ دجاجات، و٣ دنانير، و٣٠ بيضة، ورطل من الجبن ثلاث مرات في السنة، ومن الطبيعي أن نسمع أن كل هذه الأشياء اختلفت من قرية إلى أخرى ومن ضيعة إلى أخرى، إلا أنه جرت العادة بأن يقدم الفلاحون هذه الهدايا في عدة مناسبات، منها موسم الحصاد، وعيد رأس السنة، وعيد الفصح[١٠٦]، ولم يكن تقديم هذه الهدايا قاصراً على النبلاء الإقطاعيين فقط، بل قام الفلاحون بتقديمها لأبناء المدن الإيطالية، ففي إحدى الوثائق الخاصة بالبنادقة نجد ذكراً لهذه الهديا التي يتم دفعها بصفة شخصية، وكان يتم تحصيلها عن كل هكتار من الأرض الزراعية بمعدل دجاجة، وعشرة بيضات، ونصف رطل من الجبن، واثنى عشر ديناراً عن كل حمل من الحطب. وكذلك قدموها لطوائف الرهبان العسكرية، فعلى سبيل المثال فإنه في عهد الملك املريك ملك بيت المقدس، فإن طائفة الرهبان التيوتون كان يحصلون من كل فلاح على قدر من القمح One robba وعلى قدر مماثل من الشعير.[١٠٧] ومن الأعباء المالية التي فرضها الصليبيون على الفلاحين المسلمين بوجه خاص كانت تلك الضريبة النقدية التي عرفت باسم ضريبة الرأس capitation tax[١٠٨] وتجد الإشارة إلى أن تلك الضريبة تم تحديدها بقطعة من العملة البيزنطية التي كانت معروفة آنذاك وهي النوميسما Nomisma علما بأن قيمة تلك العملة كانت تساوي ماوزنه ٢٣٠ كيلو حاليا من القمح، وهذه الضريبة هي التي ذكرها الرحالة ابن جبير عندما قال إن الفرنج قد فرضوا ضريبة للرأس على كل مسلم هي دينار وخمسة قراريط، أي أن هذا المبلغ نفسه هو ما يعادل النوميسما في ذلك الحين.[١٠٩] وينبغي أن نشير إلى أن هذه الضريبة لم يكن يدفعها رب الأسرة فقط، وإنما كان يدفعها كل ابن من أبنائه متى بلغ سن الرشد وهي سن الخامسة عشر، وإذا كانت هذه الضريبة قد تبدو معقولة ومقبولة، إلا أن وجه الخطورة فيها يتضح عندما يبلغ أبناء الفلاح سن الرشد، فعند ذلك تتضاعف هذه الضريبة عدة مرات مع ملاحظة عدم وجود زيادة مقابلة لها في الأرض. أو حتى في الدخل وبالتالي كانت تشكل عبئا ثقيلاً على كاهل كل فلاح[١١٠]، ويتضح لنا مدى ثقل وطأة هذه الضريبة في الأحوال التي كان يشترط فيها الحكام الصليبيون في رفع نسبتها، نذكر على سبيل المثال ما حدث عام ١١٥٦م عندما رفع سيد إقطاع مجدلبابا بالقرب من نابلس نسبة تحصيل ضريبة الرأس إلى أربعة أمثال ما كان يجمعه، وتحمل المزارعون تلك المظالم بصبرهم الذي يضرب به المثل.[١١١]

كما كان على الفلاحين في المناطق التي خضعت للحكم الصليبي، أن يدفعوا للأمير الصليبي التابعين له ضريبة أطلق عليها ضريبة الخراج carragium والتي تراوحت ما بين ربع وثلث المحصول الذي تنتجه الأرض في كل مرة تتم فيها زراعتها، بالإضافة إلى نسبة من إنتاج مزارع الكروم، وأشجار الزيتون والفاكهة، هذه النسبة تراوحت مابين ربع ونصف الإنتاج الكلي من هذه الحاصلات الزراعية.[١١٢] هذه الضريبة، وهي ضريبة الخراج، كان يتم جمعها بالطريقة التالية: كان السيد أو من ينوب عنه يزور القرية عندما يتم جمع المحصول في الأرض المخصصة للحصاد، ويتم توزيع المحصول إلى أكوام بالنسبة المشار إليها، وإذا كانت القرية تخضع لعدد

(١٠٦) Smith, *The Feudal*, p. 45; Prawer, *The Latin Kingdom*, p. 375

(١٠٧) Tafel - Thomas, *Urkunder*, II; p. 383; Prawer, *The Settlement*, p.375.

(١٠٨) Smith, *"Some Lesser Officials in Latin Syria"* E.H.R. (1972), p.13.

(١٠٩) ابن جبير، **الرحلة**، ص ٢٥٤; Prawer, *The Settlement*, 373;

Richard, *La Rayoume*, p. 124.

(١١٠) Richard, *La Rayoume*, p. 125.

(١١١) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ص ص ٢٦ ـ ٢٨.

(١١٢) Smith, *The Feudal*, p. 12; H.E. Mayer, *Latins Muslims and Greeks in The Latin Kingdom of Jerusalam* (London, 1978), Vol. 3, p. 208.

من السـادة، فإنـه كان يتم التقسيم عليهم جميعا بنفس النسبة.(١١٣)

ولا نغـالي إذا قلنـا أن السـادة الإقطاعيين من الفـرنج قد تفننوا في تحصيل الأموال من الفلاحين تحت مسميات عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، أن سكان القرى في عكا مثلا كانوا يدفعون ضرائب كانت تتراوح ما بين ٤,٦٪، ١٢٪ على جميع السلع التي يشتـرونها من التجار الإيطاليين، وهم الذين تركزت في أيديهم التجارة الداخلية والخارجية في البلاد التي خضعت لحكم الفرنج، بل إنه في حالة قيام هؤلاء السكان بشراء سلع من الأسواق الموجودة داخـل الأحيـاء الخـاصـة بالإيطاليين، فإنهم عند مغادرتهم لهذه الأسواق، كان يتم تحصيل ضرائب جمركية على ما اشتروه، وإن كان يقال أن مثل هذا الإجراء الذي كان يتبع في مملكة بيت المقدس كان الهدف منه عدم تشجيع السكان الوطنيين على الشراء من أسواق بالأحياء الإيطالية، إلا أنه لا يمكن إنكار أن مثل هذه الضرائب كان تمثل عبأً مادياً لا شك فيه (١١٤)، كما نسمع أنه في كثير من القرى احتكر الأمير الصليبي ما بها من طواحين لطحن الغلال، ومعاصر لعصر الزيتـون، و كان أهـل القـرية ملزمين بطحن مالديهم من غلال في تلك الطواحين، وعصر زيتونهم في تلك المعـاصر نظير دفـع ضرائب معينـة(١١٥)، وفي الحـالات القليلة والنادرة والتي سمح فيها السادة الإقـطاعيـون لبعض أهـالي القرى بامتلاك معاصر للزيتون، أو طواحين لطحن الغلال، فقد كان عليهم أن يدفعـوا نصف دخـل هذه المعـاصر وتلك الطواحين للحـاكم الفرنجي الذي تقع بلدتهم ضمن إقطاعه، ليس هذا فحسب بل إنه كان في مقابل أن يسمح لهم بإصـلاح هذه المعاصر أو تلك الطواحين، فقد كان عليهم أن يدفعـوا ما يطلبـه منهم من مبـالغ نظير السماح لهم بذلك.(١١٦) ومن الأعباء التي كانت واقعة على كاهـل كثـيرين من سكان القرى، ما تشير إليه المراجع من أن المياه كانت نادرة بالطبع، وأن معظم القـرى البعيـدة عن الأنهار كانت تعتمد على مياه الأمطار في ري مزروعاتها، أما تلك القرى التي كانت قريبة من مياه الأنهار، والتي تحتاج إلى مياه الري لزراعة قصب السكر مثلا، أو البساتين، فقد كان على أهل هذه القرى أن يدفعوا المبالغ التي يحددها الأمير الإقـطاعي الصليبي، وهذه المبالغ كانت في ارتفاع مستمر، الا أنهم كانوا مضطرين لدفعها حتى ترتوي محاصيلهم(١١٧)، ليس هذا فحسب، بل نسمع أنهم، أي سكان القرى، كانوا يدفعون مبالغ نقدية للسادة الإقطاعيين نظير تمتعهم باستخدام صهريج القرية، كما كانوا يدفعون ضريبة على الموازين والمكاييل، بل إن الفلاحين كانوا يدفعون ضريبة على الحطب، هي عبارة عن دجاجة صغيرة عن كل هكتار يحصدونه، وعن كل محصول من المحاصيل المختلفة التي يمكن أن تتم زراعتهـا فيـه.(١١٨) ومن بين الأعباء المالية التي تحملهـا الفلاحون، يجب أن نذكر تلك المبالغ التي كان يتم تحصيلها على المحاصيل عند نقلها إلى مخـازن الغلال أو الأجران، كما كانت هناك ضريبة على النحـل والعسـل، وضرائب تدفـع عن المـاشية والأغنام، وفي المناطق التي بها غابات أو مراعي، كان يتم دفع ضرائب عليها، وعلى الحطب الذي يتم جمعه لاستخـدامـه في الطهي أو التـدفئة.(١١٩) ومن بين الأعبـاء الملقـاه على عاتق سكـان القرى كان نظام السخـرة، ونقصـد به العمل الجبري دون أجر في الأراضي التي استـأثـر بهـا الأمـراء الصليبيون، وبخاصة تلك التي خصصت لزراعة قصب السكر، أو أشـجـار الزيـتـون، أو الكـروم، أو أشجـار الفـاكهـة.(١٢٠) لقد تكبد الفلاحون هذه السخرة في الأرض الزراعية، وقدموها مكرهين لمغتصب أجنبي احتـل تلك الأرض بالقـوة وفرض إرادته على أبناء

---

(١١٣) Smith, *The Feudal*, pp. 44 - 45; Tafel - Thomas, *Urkunder*, II p. 375.

(١١٤) Smith, *The Feudal*, p. 74.

(١١٥) Simth, *The Feudal*, p. 183.

(١١٦) Smith, *The Feudal*, p. 50.

(١١٧) Smith, *The Feudal*, p. 50.

(١١٨) Smith, *The Feudal*, p. 45.

(١١٩) Tafel - Thomas, *Urkunder*, II, pp. 275 - 398.

(١٢٠) Mayer, *Latin , Muslims*, p. 183; Smith, *Some lesser*, p. 12.

البلاد الأصليين لينعم بكل خيراتها، بينما هم يعيشون على الكفاف، وعانوا مرارة الاحتلال ومذلة القهر والعدوان.[(١٢١)] وقد أخذت أعمال السخرة هذه عدة أشكال، أي أنها لم تكن قاصرة على العمل في الأراضي التي استأثر بها السادة الإقطاعيون، والذي جرت العادة أن يقوم الفلاحون بالعمل فيها يوما عن كل هكتار من الأرض التي في حوزتهم. وتجدر بنا الإشارة إلى أن هذه الأراضي قد استأثر بها أيضا بعض رجال الدين، فقد جاء في وثيقة ترجع لعام ١١٣٢م تم بمقتضاها تنازل أمير طبرية عن قطعة أرض لرجال الدين في القبر المقدس تم النص فيها على أن يقدم الفلاحون هذا العمل الجبرى مرة كل اسبوع في قطعة الأرض هذه، كذلك أخذ هذا العمل الجبري شكل نقل نصيب السيد الإقطاعي من موسم الحصاد إلى أماكن التخزين الخاصة به، جنبا إلى جنب مع السخرة في إصلاح الطرق، وقنوات الري، بالإضافة إلى ما نسمع عنه في بعض القرى التي بها مصائد للأسماك حيث كلفوا بصيد السمك من هذه المصايد، سواء كانت إحدى البحيرات، أم إحدى البرك، أم أحد فروع الأنهار لحساب السيد الإقطاعي يوما في الأسبوع، ولمدة ثمانية أيام في أثناء الصوم الكبير.[(١٢٢)]

ومن الأعباء التي عانى منها الفلاحون كثيراً تلك التي دفعوها لكثير من الموظفين الذين كان يستخدمهم السيد الإقطاعي، ويأتي في مقدمة هؤلاء الموظفين «الترجمان» أو المترجم إلى جانب بعض الكتبة الذين كانوا عادة إما جامعي الضرائب أو المختصين بالشؤون المالية وهم يشبهون الموظفين الفاطميين الذين كانوا يجمعون الخراج والجوالى، وقد وجد هؤلاء الموظفون في كثير من المدن مثل أرسوف، ويافا، وعسقلان، وبيروت، وقيسارية، والجليل، وحيفا، ونابلس، والناصرة، والرملة وصور وغيرها بحيث تراوح عددهم مابين ١٤، ٢٥ موظفاً بعضهم كان من اللاتين والبعض الآخر كان من العرب وما يهمنا من ذكر هؤلاء الموظفين أنهم فضلا عن كونهم كانوا بمثابة مراقبين لمنع هجرة الفلاحين لقراهم، وعدم التهرب من دفع ما يطلب منهم نقداً أو عيناً إنهم كانوا يقومون برسم الحدود الخاصة بممتلكات كل سيد إقطاعي وتسجيل أسماء الفلاحين الموجودين في ممتلكاته، ولمنع هروب أي فلاح من ضيعة لأخرى إلا أنهم كانوا يشكلون عبئا ماليا على الفلاحين، فعلى سبيل المثال كان الترجمان يحصل على ما يعادل ٢٣٠ كيلو من القمح ومثلها من الشعير عن كل هكتار من الأرض المنزرعة، وعند اقتسام المحصول بين الفلاحين وبين السيد الإقطاعي فقد كان يحصل على قدر يعادل ستة أمثال هذا المقدار المشار إليه من نصيب الفلاحين نظير حضوره القسمة، كما كان على سكان القرية أن يعطونه المؤونة له ولحصانه عندما يتجول حول قريتهم، وإذا مات حصانه فإنهم كانوا مطالبين بمنحه ١٥ ديناراً ليشتري بها حصانا آخر على سبيل التعويض[(١٢٣)]، وتحمل أهل القرية أعباء مماثلة لهؤلاء الكتبة، فقد كانوا يحصلون أيضا على قدر معلوم من المحاصيل التي يتم حصادها، وحصة من الحطب عقب جمع المحصول عن كل جمل يحمل المحصول إلى أرض الحصاد، وعلى أهل القرية أن يزودوهم بحاجتهم وخيولهم من الطعام والشراب، وعليهم نعل خيولهم بالحداوي...، وتعويضهم عما يفقد أو يموت لهم من خيول[(١٢٤)] وبالإضافة للأعباء المالية والمادية السابقة، فقد كانت هناك معاناة نفسية هي أشد وطأة على نفوس الفلاحين من غيرها، والتي تمثلت في حالات القهر والتعسف وصلف الحكام الصليبيين. مثال ذلك ما حدث في بعض القرى المحيطة بنابلس في إقطاع مجد لبابا، ما اشتط الإقطاعي الصليبي في إلحاق الأذى وتوقيع العقوبات البدنية على سكان القرى التابعة له، وكلهم كانوا من المسلمين، والتي

(١٢١) محمد فتحي الشاعر، **احوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية**، (بورسعيد، ١٩٨٩م)، ص ١٧.

(١٢٢) Smith, *The Feudal*, p: 46.

(١٢٣) Smith, *The Feudal*, pp. 55 - 57. T. Deleville le Roulex, *Les Archives, la Bibliotheque et la TressrDe l' order De Saint - Jean De Jerusalem a Malce* (Paris, 1883), p. 127.

(١٢٤) Smith, *Some Lesser*, pp. 21 - 24.

وصلت إلى حد تقطيع الأرجل، هذا بالإضافة إلى أنه رفع نسبة تحصيل ضريبة الرأس إلى أربعة أمثال ما يجمعه الأمراء الصليبيون الآخرون في باقي الأقاليم، وتحمل الفلاحون تلك المظالم كنوع من مثابرة النفس على تحمل الشدائد في سبيل البقاء، غير أن الكيل طفح عندما تدخل هذا السيد الإقطاعي وعرقل إقامة الشعائر الدينية، واضطهد خطيب قرية جماعيل في نفس المنطقة وهي منطقة نابلس، ونتيجة لذلك فقد غادر السكان المسلمون في ثمان قرى وطنهم سراً، وأسسوا ضاحية الصالحية بالقرب من دمشق وجعلوا همهم الجهاد.(١٢٥) ومثال آخر ما يشير إليه بعض المؤرخين من أبناء الغرب الأوربي من قيام كثير من أصحاب الإقطاعات من الصليبيين بإصدار أوامرهم إلى الفلاحين المسلمين بترك صلاة الجمعة والعمل في الحقول.(١٢٦) وفي تصورنا أن ما لجأ إليه الفلاحون في هذه القرى السالفة الذكر، وهي حالة نادرة، وقيامهم بهجرة قراهم، لم يكن السبب فيه وحده مجرد انه قد ضاقت أمامهم سبل الحياة نتيجة لكثرة الأعباء الملقاة على عاتقهم، وماتعرضوا له من قسوة وبطش واستعلاء السادة الإقطاعيين عليهم، بقدر ماكان الدافع لهم هو تحطيم صلف هؤلاء الصليبيين وإشعارهم بمدى أهمية وجود هؤلاء الفلاحين، وضروة احترام مشاعرهم الدينية، وربما كان مثل هذا التصرف هو السبب فيما نسمع عنه عند بعض المؤرخين المعاصرين أمثال أسامة بن منقذ من حرص بعض الأمراء الصليبيين على فلاحيهم.(١٢٧)

تعدد أساليب المقاومة:

سبق أن أشرنا إلى أن المقاومة الشعبية للغزوة الصليبية كانت استجابة للتحدي الذي فرضه استقرار الفرنج في بقاع الأرض العربية، وظنهم أنهم خالدون باقون في هذه الديار فتكاثروا واقتسموا الولايات فيما بينهم، واستقدموا من بلادهم الأوربية الإمدادات والأسلحة في البر والبحر، فاطبقوا على سكان البلاد، وجثموا فوق أرضيهم بالحرب حينا، والدسائس أحياناً.(١٢٨) لذا أدرك المعاصرون ضرورة توطين النفس على متابعة الجهاد في صراع طويل ومرير أقل ما يوصف به هذا الصراع هو «صراع النفس الطويل»، من خلال وعي وإدراك لحقيقة العدو وأهدافه، فتوحدت جميع طوائف المجتمع وانطلقت طاقاتهم. كذلك عنى المعاصرون عناية فائقة بفنون الحرب التي عرفت أيامها، فاستكثروا من السلاح والعدة والحيل، وابتكروا أشياء في هذا الباب أدهشت الفرنجة وبالفعل فإن مواجهتهم للغزوة الصليبية كانت معاناة على مدى عدة اجيال، وكان عليهم أن يوجهوا كل مواردهم على كل المستويات لخدمة هذا الصراع الذي كان بالفعل صراع وجود، وتثبت التجربة أنه لابد من توفير كل الإمكانات، ولابد من العمل الإيجابي، لأن التاريخ لا تصنعه الصدفة، وإنما يصنعه جهد الرجال.

وفي تصورنا أن المقاومة الشعبية أدركت في ذلك الحين طبيعة المجتمع الصليبي الذي أقيم على الأرض العربية، وعلاقة هذا المجتمع بالظهير الأجنبي الذي يمد بالبشر والعتاد في الغرب الأوربي، وحيث بدى أن هم الغرب هو القضاء على القوى الإسلامية كقوة فعالة في تحريك الأمور في هذه البقعة من الأرض.(١٢٩) وخصوصا أنه بعد ان تم للفرنج الاستيلاء عل بيت المقدس، فقد أخذ كثير من أبناء الغرب الأوربي في الوفود إلى الشرق حيث اجتاحت أوربا موجة عارمة من الفرحة حملت الكثيرين على التماس السعادة الروحية في أداء فريضة الحج وزيارة الأحرام المسيحية المقدسة وفضل كثيرون منهم البقاء فترة في هذه البلاد.(١٣٠) وهنا يجب أن نذكر أن المقاومة الشعبية قد طورت من أساليب مقاومتها بما يتواءم مع المتجددات على الساحة في مواجهة العدو، فإذا كنا قد أشرنا ولو بشكل عارض

---

(١٢٥) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، القسم الأول، ص ص ٢٦ - ٢٨.

(١٢٦) Mayer, *The Crusades*, pp. 177 - 178.

(١٢٧) أسامة بن منقذ، **كتاب الأعتبار**، ص ٩٢.

(١٢٨) ابن العديم، **زبدة الحلب**، جـ٣، ص٧ من المقدمة.

(١٢٩) مؤلف مجهول، **أعمال الفرنجة**، ص٥.

(١٣٠) مؤلف مجهول، **اعمال الفرنجة**، ص ١٣٠.

إلى أن المقاومة تمثلت منذ بداية الحملة الصليبية الأولى في شكل الجموع الشعبية التي شكلت خطوط الدفاع عن كثير من المدن، فإنها في هذه المرحلة الجديدة اتخذت لنفسها ميدانا جديداً، وهو خطوط الاتصال التي تربط هذا العدو بالظهير الأوربي، وإنزال الخسائر الفادحة على كل من يسلكها، ويشهد بذلك الرحالة سايولف Saewulf الذي زار بلاد الشام عام ١١٠٢م إذ يذكر أن الطريق من يافا إلى بيت المقدس والذي كان على القادمين من الغرب الأوربي عن طريق يافا أن يقطعوه في حوالى يومين، هذا الطريق كان من الخطورة بمكان بسبب أفراد المقاومة الشعبية الذين كانوا يتخذون من المغاور والكهوف الجبلية كمائن لهم يترقبون فيها ليل نهار وصول جماعات من أبناء الغرب الأوربي، وهم الذين عرفوا بالحجاج فيخرجون لمهاجمتهم، وبخاصة تلك الجماعات الصغيرة والتي لا تقدر على مقاومتهم، أو الذين يتصادف تخلفهم عن جماعات الحجاج، ونتيجة لإغاراتهم المفاجئة والمتكررة فإنك ترى كثيراً من الجثث الآدمية مبعثرة على طول الطريق بعد أن مزقتها الحيوانات المفترسة، وقد يتعجب البعض لعدم دفن جثث أبناء الغرب الأوربي هؤلاء، لكن سرعان ما يزول العجب عندما يدركون أن الصخور الصلبة لم تترك مجالا لوجود ارض ترابية يمكن حفر مدافن فيها. وحتى لو وجدت تلك الأرض فمن الذي سيجازف بترك الجماعة ليحفر قبرا لرفيق له، فلو فعل ذلك فإن عليه أن يحفر قبرا آخر لنفسه.(١٣١)

ومن الأمثلة العديدة على إنزال الخسائر بأبناء الغرب الأوربي القادمين إلى الشرق وإصابة الطرق التي يسلكونها بنوع من الشلل ما حدث عام ٥٠٦/ ١١١٣م، عندما سمع أهالي مدينة صور ـ ولم تكن قد وقعت بعد في أيدي الصليبيين ـ بمجيء مجموعة من أبناء الغرب الأوربي لزيارة مدينة بيت المقدس، والبقاء في الشرق فترة من الزمن، بلغ عدد هذه الجماعة ١٥٠٠ شخص، عندئذ أبحر حوالي خمسمائة من أهل مدينة صور في عدد من المراكب، وإن كانوا قد رجعوا عندما وصلتهم الأخبار بأن هؤلاء الفرنج قد عادوا أدراجهم إلى عكا عندما وصلتهم الأخبار بذلك الخطر الذي يتهددهم، إلا أنه يمكن القول أن هذا الأسلوب من المقاومة قد شمل البر والبحر(١٣٢)، كذلك ما حدث عام ٥١٣هـ/ ١١١٩م، ففي ربيع هذا العام وصلت جماعة من الحجاج الغربيين يقدر عددها بسبعمائة من الأشخاص، فقامت جماعة من مسلمي صور وعسقلان بمهاجمتهم وهم في طريقهم إلى بيت المقدس، وقتلوا ثلاثمائة شخص، وأسروا ستين آخرين.(١٣٣) كما يشير ابن الفرات إلى أن هذا الأسلوب استمر حتى أيام الحملة الصليبية الثالثة، وقد كان مؤثراً بلا شك، ففي ذكره لحوادث سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١ ـ ١١٩٢م يذكر أن سكان قرية الزيب شمالي مدينة عكا، كانوا يجهزون السفن ويخرجون إلى عرض البحر ويقطعون الطريق على سفن الإفرنج وما تحمله من وافدين جدد.(١٣٤) ولا نغالي إذا قلنا أن شدة الهجمات التي تعرضت لها جماعات الحجاج المسيحيين الغربيين من قبل المقاومة الشعبية، وما أنزلته بهم من خسائر فادحة، كانت وراء قيام رئيس طائفة الداوية برحلته عام ١١٢٨م إلى الغرب الأوربي، وبخاصة إلى إنجلترا وفرنسا ليبحث عن متطوعين للانضمام لتلك الطائفة، والتي أخذت على عاتقها حماية الحجاج هؤلاء، وكان أن عاد عام ١١٢٩م ومعه جماعة كبيرة من فرسان الغرب الأوربي.(١٣٥) ومما لا شك فيه أيضا أن هذا الأسلوب الذي اتبعته المقاومة الشعبية قد حتم على الفرنج إنشاء العديد من التحصينات، ويشهد على ذلك فترة حكم الملك فولك الانجوى ملك بيت المقدس، وبخاصة السنوات من ١١٣٢ ـ ١١٣٦م حيث كثرت

(١٣١) Thomas - Wright, *The Travels of Saewulf A.D. 1100 and 1103 in Early Travels in Palestine* (London, 1848), p. 36.

(١٣٢) W. G. Stevenson, *The Crusaders*, p. 62.

(١٣٣) W. G. Stevenson, *The Crusaders*, pp. 67 - 68.

(١٣٤) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، **تاريخ ابن الفرات (البصرة**: نشر حسن محمد الشماع، ١٩٦٧م) المجلد الرابع، الجزء الأول، ص ٤.

(١٣٥) Stevenson, *The Crusaders*, p. 127.

الإغارات على الحجاج الغربيين في الطريق من يافا إلى بيت المقدس، مما اضطر فولك إلى بناء قلعة عند بيت نوبا وتحصينها عام ١١٣٣م لحراسة هذا الطريق، وفيما بعد أقام عددا من الحصون حول بيت المقدس، كما بنى قلعة أخرى في بيت جبريل عام ١١٣٦م، وكانت هذه القلعة بداية لسلسلة من القلاع والحصون التي امتلكتها طائفة الاسبتارية في المناطق المجاورة لعسقلان لحماية الحجاج الوافدين من الغرب الأوربي.(١٣٦)

ويبدو لنا أن المقاومة الشعبية كانت في الوقت نفسه قد وجهت نشاطها إلى ضرب الطرق المؤدية من طرابلس إلى فلسطين، حيث وردت إشارات عن استنجاد حكام طرابلس الصليبيين بطائفة الاسبتارية منذ عام ١١٤٢م، وذلك في عهد الأمير ريموند حاكم طرابلس. وهكذا أصبح الاسبتارية المدافعين الرئيسين عن وادي البقاع وحماية الطرق المارة به.(١٣٧)

كذلك واضح أنه أمام كثرة هذه الحصون والقلاع التي شيدها الصليبيون لحماية هذه الطرق، كان على المقاومة الشعبية أن تطور من أسلوبها ووسائلها، لذلك نسمع عن توجيه ضربات للطرق التي يسلكها الفرنج في مناطق أخرى، مثال ذلك ما حدث عام ١١٣٢م، ففي أثناء الفترة الي أقامها الملك فولك الأنجوى في أنطاكية لتنظيم شؤونها، نسمع عن جماعة من المسلمين التركمان قد هاجموا معرة مصرين وكفر طاب وهذا دليل على أن المقاومة الشعبية من المسلمين أرادت أن تثبت لهذا الملك الذي أقام هذه السلسلة من التحصينات أنها قادرة على إنزال ضرباتها بالفرنج ليس فقط عبر الطرق في الجنوب، ولكن في الشمال أيضا، وفي الوقت نفسه نسمع عن جماعة أخرى قد ألحقت هزيمة فادحة بالأمير بونز حاكم طرابلس، وحاصرته في قلعة بارين(١٣٨) ومما لا شك فيه أن المقاومة الشعبية قد استفادت من الطرق الواصلة ما بين دمشق وشمالي فلسطين لإنزال ضرباتها بالفرنج. خصوصا وأن أية قوة من رجال المقاومة كانت تنطلق من دمشق إلى بانياس في الجولان تصبح على مشارف الطرق الرئيسة المؤدية إلى صور وصيدا كما يمكنها أيضا الاندفاع عبر مجرى نهر الأردن الأعلى لتبلغ سهل عكا، مستغلة عدم وجود موانع طبيعية بالإضافة إلى قلة التحصينات التي أقامها الفرنج في هذه المناطق، فضلا عن أنه منها يمكن الوصول إلى الطرق المؤدية إلى الموانيء الساحلية الرئيسة لملكة بيت المقدس بسهولة ويسر، وهذه الطرق أيضا استخدمها حكام المسلمين خلال الغزوات الرئيسة التي شنوها على ممتلكات الفرنج، مثل الغزوة التي قام بها مودود حاكم الموصل وطغتكين حاكم دمشق عام ١١١٣م، وصلاح الدين الأيوبي في الأعوام ١١٨٢م، ١١٨٣م، ١١٨٧م.(١٣٩)

وعلى أية حال يمكننا القول أن هذه السلسلة من الحصون والقلاع كان لها تأثيرها في تخفيف الخسائر التي لحقت بالصليبيين، إلا أنها لم تمنعها تماما، بما يؤكد أنها كانت وسيلة فعالة ومؤثرة في الوقت نفسه، ففي عصر السلطان المنصور قلاوون يخبرنا ابن الفرات في ذكره لحوادث سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م ما يفيد بقاء هذا الأسلوب بقوله: «وفيها خرج ملك الفرنج بقبرس لقصد الساحل غازيا فرمته الريح إلى جهة بيروت فخرج منها وقصد الإغارة على تلك الجهات فكمن له أهل جبل الخروب وخرجوا عليه فقتلوا من أصحابه وأسروا ثمانين رجلاً وأخذوا له شيئا كثير من المال والخيل والبغال فركب في البحر وتوجه إلى صور ولم يلبث أن هلك وصارت روحه إلى جنهم وبئس المصير».(١٤٠)

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الأسلوب من المقاومة

(١٣٦) Stevenson, *The Crusaders*, p. 136.

(١٣٧) Stevenson, *The Crusaders*, p. 147.

(١٣٨) William of Tyre, *A History*, I., p. 481; Stevenson, *The Crusaders*, pp. 131 - 132.

(١٣٩) ر. سي. سميل، **فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر**، ترجمة محمد وليد الجلاد (دمشق، ١٩٨٥م)، ص ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(١٤٠) ابن الفرات، **تاريخ**، المجلد السابع، ص ٢٧٧.

لم يكن قاصراً على الرجال فقط، بل شاركهم فيه النساء أيضا كلما سنحت لهن الفرصة بذلك.[١٤١] ومن المعروف أنه منذ قدوم الصليبيين إلى بلاد الشام كان هم المقاومة الشعبية رصد تحركات هذا العدو ومحاولة التغلغل داخل صفوفه، والتعرف على إمكاناته، واتخاذ الأسلوب الأمثل الذي ينزل به كل خسارة ممكنة، وهذا ما يؤكده لنا صاحب «الجستا» في عدة مواضع.[١٤٢] كذلك يذكر أنه عندما شرع الصليبيون في حصار بيت المقدس، وطال حصارهم لها، فان رجال المقاومة الشعبية «عملوا من ناحيتهم على نشر المرض بين رجالنا بافسادهم مياه الينابيع والعيون في المناطق المحيطة بمدينة بيت المقدس» وواضح أن هذا الأسلوب لا يقل-تاثيراً عما تتبعه الجيوش الحديثة في عصرنا من إرهاق العدو وإلحاق أكبر الأضرار به باستخدام المواد الكيماوية وغيرها في إفساد موارد مياه العدو، ونشر الأمراض بين صفوفه.[١٤٣] كما يمكن القول أن المقاومة الشعبية لعبت دورا فيما هو معروف في عصرنا الحالي باسم حرب استنزاف العدو، مثال ذلك ما حدث عام ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م عندما كان بلدوين الثاني ملك بيت المقدس يحاصر مدينة صور، وكان أفراد المقاومة الشعبية يعملون تحت سمع وبصر وحماية حكام دمشق، حيث يذكر أن القلانسي ذلك في قوله «وخرج ظهير الدين من دمشق حين عرف نزولهم على صور وخيم ببانياس وبث سراياه ورجاله الحرامية في أعمال الإفرنج وأطلق لهم النهب والقتل والسلب والإخراب والحرق طلبا لإزعاجهم وترحيلهم عنها» أي أن حاكم دمشق استغل أفراد المقاومة في إحداث نوع من الاضطرابات والدمار في صفوف الصليبيين.[١٤٤]

ولنأخذ بعض الأعمال التي قام بها رجال من المقاومة الشعبية، وهي أعمال تشبه إلى حد كبير ما تقوم به الفرق الخاصة في الجيوش الحديثة أو فرق الصاعقة وغيرها، مثال على ذلك ما يرويه أسامة بن منقذ من قول «ومن عجيب ما اتفق في السرقة أن رجلا كان بخدمتي يقال له على بن الدودوية من أهل متكير نزل يوما الإفرنج لعنهم الله، على كفر طاب، وهي إذ ذاك لصلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني رحمه الله. فخرج هذا على بن الدودوية دار بهم وأخذ حصانا ركبه وخرج به يركض، وهو يسمع الحس خلفه ويعتقد أن بعضهم قد ركب في طلبه، وهو مجد في الركض والحس خلفه حتى ركض قدر فرسخين والحس معه. فالتفت يبصر ماخلفه في الظلام، وإذا بغله كانت تألف الحصان قد قطعت عقودها وتبعته فوقف حتى شد فوطته في رأسها وأخذها وأصبح عندي في حماه بالحصان والبغلة. وكان الحصان من أجود الخيل وأحسنها وأسبقها[١٤٥]، وما يشير إليه ابن شداد أيام صلاح الدين الأيوبي من قول «ولما كان يوم الاثنين الثاني والعشرين من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة أحضر اللصوص فرسا وبغله قد دخلوا إلى خيم العدو وسرقوهما منهم، وكان قد ديون «رتب» رحمة الله عليه ـ ثلاثمائة لص من شلوح العرب يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وخيولهم، ويسرقون الرجال أحياء، وذلك أنه يكون الواحد منهم نائما، فيوضع على حلقه الخنجر، ثم يوقظ فيرى الشلح والخنجر في يده، وقد وضعه في نحره، فيسكت ولا يتجاسر أن يتكلم، فيحمل وهو على هذا الوضع إلى أن يخرج من الخيمة، ويؤخذ أسيراً، وتكلم منهم جماعة فنحروا، فصار من إصابة ذلك سكت واختار الأسر على القتل..»[١٤٦] وفي موضع آخر يذكر أسامة بن منقذ «وشاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الإفرنج لعنهم الله، نزلوا علينا بالفارس والراجل، وبيننا وبينهم العاصي وهو زائد زيادة عظيمة لا يمكنهم أن يجوزوا إلينا ولا نقدر نحن نجوز إليهم، فنزلوا على الجبل بخيامهم، ونزل منهم قوم إلى البساتين، وهي من جانبهم، وعملوا خيلهم في القصيل وناموا. فتجرد شباب من شيزر وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا إلى أولئك النيام،

(١٤١) أسامة بن منقذ، **كتاب الاعتبار**، ص ١٢٩.

(١٤٢) مؤلف مجهول، **اعمال الفرنجة**، ص ص ٥٠ ـ ٥١.

(١٤٣) مؤلف مجهول، **اعمال الفرنجة**، ص ١١٦.

(١٤٤) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ**، ص ١٧٨.

(١٤٥) أسامة بن منقذ، **كتاب الاعتبار**، ص ٤٥.

(١٤٦) اسامة بن منقذ، **كتاب الاعتبار**، ص ص ٩١ ـ ٩٢.

فقتلوا بعضهم. وتكاثروا على أصحابنا فرموا نفوسهم إلى الماء وجازوا.»[١٤٧] ومثال آخر يؤكد لنا أن مشاعر أبناء القاومة الشعبية في الأرض المحتلة كانت دائما مع إخوانهم المسلمين. وذلك أن السلطان صلاح الدين الأيوبي عندما شرع في محاصرة قلعة شقيف أرنون في أبريل عام ١١٨٩م عقب موقعة حطين، فإن حاكمها وهو في الوقت نفسه حاكم صيدا الأمير رينو جرنييه، دخل في مفاوضات مع صلاح الدين، وطلب منه أن يمهله ثلاثة أشهر لكي تستسلم القلعة، وعندما شعر صلاح الدين بمراوغته وعدم صدقه، عندئذ تقدم أحد المسلمين وكان يعمل كاتبا عند هذا الأمير، وعرض أن يقبض على رينو يحضره مكبلا إلى صلاح الدين، فوافق صلاح الدين وتم إعداد الكمين، والقبض عليه وتم إرساله إلى السجن في دمشق وظل به إلى أن استسلمت القلعة في أبريل عام ١١٩٠م.[١٤٨] هذا بالإضافة إلى ما يشير إليه مجير الدين الحنبلي في ذكره لواقعة حطين سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٧م من أنه «رؤى بعض الفلاحين وهو يقود نيفا وثلاثين أسيراً من أسرى الفرنج قد ربطهم في طنب خيمته وباع منه واحداً بنعل لبسه في رجله. فقيل له في ذلك، فقال: احببت أن يقال باع أسيراً بمداس.[١٤٩] كما يشير إلى أن أفراد المقاومة كان لهم دورهم في إثارة حماس زعماء المسلمين حتى وهم يعانون من الأسر. من ذلك ما يقال عن السلطان صلاح الدين الأيوبي أنه «لما كثرت فتوحاته في الساحل وأوجع فيهم بسهامه وسطوته، وكان لا يتجاسر على فتح بيت المقدس لكثرة ما فيه من الأبطال والعدة لكونه كرسي دين النصرانية. وكان في بيت المقدس شاب مأسور من أهل دمشق كتب هذه الأبيات وأرسل بها إلى الملك صلاح الدين على لسان القدس فقال:

يأيها الملك الذي	لمعالم الصلبان نكس
جاءت اليك ظلامه	تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت	وأنا على شرفي منجس

فكانت هذه الأبيات هي الداعيه له إلى فتح بيت المقدس، وأن السلطان وجد في ذلك الشاب أهلية فولاه خطابة المسجد الأقصى.[١٥٠] ومثال آخر من العديد بين الأمثلة عن دور المقاومة في إثارة حماس الحكام ما حدث عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م في أعقاب وفاة صلاح الدين الأيوبي، وانشغال أبناء البيت الأيوبي بما نشب بينهم من خلافات، أن ثغر جبيل وهو من جملة الفتوحات الصلاحية، كان مستحفظه رجل كرديا، فارغبه الفرنج، وبذلوا له مالا، فسلم الثغر إليهم، فظهر الضعف عن استخلاصه، وخرج الملك الأفضل صاحب دمشق، وخيم على البقاع ليستخلصه فتعذر ذلك عليه، فعندئذ عبر بعض الأمراء عن لسان حال المقاومة الشعبية للملك العزيز صاحب مصر بقولهم «توانيت فطرقت البلاد واستولى عليها الفرنج» فعندئذ صمم على الحركة، وخرج بمضاربه وجحافله.[١٥١]

ولم يكن دور المقاومة الشعبية قاصرا على حرب الاستنزاف وإثارة حماس الحكام المسلمين، بل إنهم شاركوا في صد إغارات العدو الصليبي، بل ومهاجمة هذا العدو كوسيلة من وسائل الدفاع. مثال ذلك ما يرويه أحد المؤرخين المعاصرين سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٠م عندما علم ظهير الدين اتابك دمشق بان بلدوين الأول ملك بيت المقدس كان يعد العدة لقصد ناحية حوران من عمل دمشق للعبث فيها والإفساد. فعند المعرفة بذلك والتحقق له شرع ظهير الدين اتابك في الاستعداد لذلك.. وخرج لملاقاتهم قرب طبرية فاجتمع إليه خلق كثير من أحداث دمشق والشباب الأغرار ورجال الغوطه والمرج والأطراف وأحداث الباطنية المعروفين بالشهامة والبسالة من حمص وغيرها والعقبة وقصر حجاج والشاغور خلق كثير رجاله وخيالة بالسلاح التام والناهض مع المتطوعة المتدينين وشرعوا بالمصير للحاق المصاف قبل اللقاء.[١٥٢] كما كان للمقاومة الشعبية دورها في رصد تحركات العدو، ورصد أعداده وعدته، وفرق جيشه

(١٤٧) John Lamonte, *The Lords of Sidon* (New York, 1936), p. 197.

(١٤٨) الحنبلي، **الانس الجليل**، جـ١، ص ٣٢١.

(١٤٩) الحنبلي، **الانس الجليل**، جـ١، ص ص ٣١٨ - ٣١٩.

(١٥٠) ابن واصل، **مفرج الكروب**، جـ٣، ص ٢٦.

(١٥١) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ**، ص ص ٢١٢ - ٢١٣.

(١٥٢) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ**، ص ٢٠٠.

المختلفة وإخبار حكام المسلمين لعمل الاحتياطات اللازمة، فمن ذلك ما تشير إليه بعض المصادر المعاصرة من أنه في سنة ٥١٣هـ/ ١١١٤م «وردت الأخبار ببروز روجير صاحب انطاكية منها في من جمعه وحشده من طوائف الإفرنج ورجالة الأرمن من سائر أعمالهم وأطرافهم بحيث يزيد عددهم على العشرين ألف فارس وراجل سوى الاتباع وهو العدد الكثير في اتم عدة وأكمل شكة وأنهم قد نزلوا في الموضع المعروف بسرمنا وقيل دانيث البقل بين انطاكية وحلب، فحين عرف المسلمون ذلك طاروا إليهم بأجنحة الصقور إلى حماية الوكور مما كان سببا في انتصار المسلمين عليهم بقيادة نجم الدين ايل غازي بن ارتق صاحب حلب[١٥٣]، وما حدث عام ٥١٩هـ/ ١١٢٠م عندما وصلت الأخبار من ناحية بغدوين ملك الإفرنج صاحب بيت المقدس بالاحتشاد والتاهب والاستعداد لقصد ناحية حوراسن من عمل دمشق للعبث فيها والإفساد وشرع في شن الغارات على الجهات القريبة من دمشق والمضايفة لها وقطع الطرقات على الواردين إليها. فعند المعرفة بذاك والتحقق شرع ظهير الدين أتابك في الاستعداد للقائه والاجتماع على جهاده وكاتب أمراء التركمان ومقدميهم وأعيانهم بأعلامهم صورة الحال ويستنجد بهم عليه ويبذل لهم الإحسان والأنعام وبرز في عسكره وقد ورد عليه خبر قربهم من طبرية قاصدين أعمال البلد من مرج الصفر، ويشير في المصدر نفسه إلى أن وصول الأخبار من رجال المقاومة الذين كانوا يعملون كعيون للمسلمين، واتخاذ الاحتياطات لمواجهة هذه الغزوة كانا من أهم الأسباب في إفشال مخطط الفرنج.[١٥٤] ومثال آخر ماحدث عام ٥٢٣هـ/١١٢٢م عندما طمع الصليبيون في دمشق بعد وفاة حاكمها أتابك ظهير الدين وتولية ابنه تاج الملوك بورى، فأكثروا الحديث في قصدها وبثوا رسلهم إلى الأعمال في جمع الرجال والاحتشاد فاجتمع إليهم سائر من حوته بلادهم من الرها وأنطاكية وطرابلس والساحل ووصلهم في البحر ملك كند هو الذي قام مقام بغدوين الهالك في الإفرنج ومعه خلق كثير فاجتمعوا ونزلوا على بانياس وخيموا عليها وشرعوا في تحصيل المير والازواد للإقامة وتواترت الحكايات عنهم ممن شاهدهم وأحصى عددهم إنهم يزيدون على ستين الفا فارسا ورجالا وأكثرهم الرجال.[١٥٥] وعندما تأكد تاج الملوك بورى من صحة الخبر الذي نقله له بعض أفراد المقاومة الشعبية، أعد العدة واستعان بفرق من التركمان واستكثر منهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن بانياس طالبين دمشق، ونزلوا على جسر الخشب والميدان المعروف المجاور له وخيموا هناك، فوقفت قوات تاج الملوك بوري في مواجهتهم، لكن جيش الفرنج لم يتحرك لعدة أيام من مكانه. وهنا يلعب أفراد المقاومة دورهم في كشف أخبار العدو حيث علموا أن الذي أوجب تاخر زحف الفرنج «أنهم قد جردوا أبطال خيلهم وشجعان رجالهم للمصير مع البغال إلى حوران لجمع المير والغلال التي ستعان بمثلها على الإقامة والنزال وأنهم لن يتحركوا إلا بعد عود المذكورين» فكان لهذا الخبر أثره الواضح في الخطة التي وضعها بورى، حيث قرر عمل كمين عند ناحية براق لأن الفرنج سيمرون عليها عند عودتهم بالمير والغلال، وفعلا نجحت الخطة وتم الإيقاع بهذه القوة وامتلأت أيدي الكمين من الكراع والسلاح والأسرى والغلمان وأنواع البغال وهو شيء لا يحصر: فيذكر ولا يحد فيعد ولم يسلم منهم إلى معسكرهم إلا القليل من الخيالة ، مما كان سببا في انسحاب قوتهم الرئيسة التي أزمعت مهاجمة دمشق[١٥٦]، ولقد استفاد حكام المسلمين كثيراً من المعلومات التي زودتهم بها المقاومة الشعبية، وبخاصة من أفرادها من بين سكان الأرض المحتلة. وإن كانت الأمثلة السابقة تشير إلى ذلك، إلا أننا سنورد بعض الأمثلة للتأكيد على أن سكان الأرض المحتلة ـ أي الذين خضعوا للحكم الصليبي ـ قد أدوا دوراً على جانب كبير من الأهمية في هذا المجال، وأنهم كانوا بمثابة جهاز المخابرات الذي يخدم الحكام المسلمين، وبخاصة عندما يشعرون بوجود قائد مسلم يحمل

---

(١٥٣) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ**، ص ص ٢١٢ ـ ٢١٤.

(١٥٤) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ**، ص ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(١٥٥) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ**، ص ٢٢٥.

(١٥٦) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ**، ص ٢٣٦.

راية الجهاد، وهذا ما نستطع أن نستنتجه مما حدث في كثير من الحالات، فعلى سبيل المثال كانت إمارة أنطاكية في الفترة من عام ١١٣٥م ـ ١١٣٦م تعاني من صراع نشب فيها حول الحكم، حيث وجدت بها مجموعتان متنافستان ومتصارعتان؛ وعندما علم المسلمون بها بعودة عماد الدين زنكي من بغداد حيث كان الخليفة قد استدعاه إذا بهم يطلعونه على ما آلت إليه الأحوال بها ليستفيد من ذلك، وفعلا سرعان ما كلف قائده الأمير سوار بمهاجمة ممتلكات إمارة أنطاكية، وفعلا قام هذا الأمير بمهاجمتها... وبطريقة لم تشهدها في تاريخها، حيث أعمل السيف والحريق في كل أنحاء الإمارة، وبطول المنطقة الساحلية الممتدة إلى اللاذقية، بحيث التهمت النيران العديد من القرى، كما حصل على الكثير من الغنائم وعاد بها إلى حلب.(١٥٧) ومثال آخر نضربه على ما قام به رجال المقاومة داخل الأرض المحتلة لإحباط محاولات الفرنج لإلحاق الأذى بالمسلمين، وهو ماحدث عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي ، عندما أتت الأخبار أن الأمير ارناط الصليبي يريد مهاجمة قافلتي الحج الشامي والمصري في طريق عودتهما من الحجاز، فعندئذ خرج صلاح الدين بقواته وأقام قريبا من الكرك ليشغل خاطر ارناط ليلزم مكانه إلى أن وصلت القافلتان، وبذلك فوت عليه فرصة نهب ركب الحجاج.(١٥٨) هذا إلى جانب ما تشير إليه بعض المصادر من أنه حدث في شهر رمضان ٥٨٧هـ / ١١٩١م أن الملك ريتشارد قلب الأسد كان قد خرج في فوارس مخفرا للخطابة والحشاشة وهنا ارسل بعض أفراد من المقاومة بهذا الخبر لصلاح الدين الأيوبي، الذي رصد له كمينا بناءً على هذه المعلومات «وكاد يؤخذ الملك، لكن فاده أحد خواصه بنفسه، بأن أظهر حسن لباسه، فظن أنه الملك فأسره».(١٥٩)

يضاف إلى هذا ما تشير إليه المصادر المعاصرة من أن المقاومة الشعبية كان لها دورها في استرداد بعض المدن التي خضعت للحكم الصليبي وتسليمها لصلاح الدين الأيوبي عقب موقعة حطين ٥٨٤هـ/ ١١٨٧م. فقد سبق أن أشرنا إلى جهود بعض السكان المحليين في مساعدة صلاح الدين في فتح القدس، والآن نشير إلى مدينة أخرى وهي جبلة والتي كانت في أيدي الفرنج، فعندما نازلها صلاح الدين، فإن المسلمين بها بزعامة قاضيها سلموها لصلاح الدين. وفي ذلك يقول ابن العديم الحلبي: «فما أن تم نزول العسكر حتى تسلم البلد، سلمها إليه قاضيها وأهلها، وكانوا مسلمين تحت يد الفرنج، فعملوا عليها وسلموها. وبقيت القلعة ممتنعة. وقاتل القلعة، فسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر (جمادى الأولى)»(١٦٠) وفي أعقاب الحملات الحربية كان للمقاومة دورها في مهاجمة مؤخرة الجيوش الصليبية، من ذلك ما يرويه ابن القلانسي في سنة ٥٠٤هـ/ ١١٠٥م عندما انسحبت قوات الفرنج من شيزر بعد أن طال حصارهم لها، ورحلوا إلى افامية ولم ينزلوا فيها بل تعدوها وتبعهم المسلمون عند معرفة رحيلهم وتخطفوا أطرافهم ومن ظفروا به سائراً على آثارهم(١٦١)، وما حدث كذلك عام ٥٣٦هـ/ ١١٣٧م عندما قام أفراد المقاومة الشعبية بتتبع فلول جيش طرابلس الصليبي بقيادة الأمير بونز عقب هزيمته أمام جيش دمشق الذي هاجم مدينة طرابلس، ففر الأمير بونز وبعض أصحابه إلى جبال لبنان، وقام الأهالي في هذه المنطقة بالقبض عليهم وقتل الأمير بونز وبعض أصحابه، مما كان سببا لتعرضهم لانتقام ابنه ريموند الذي خلفه في الحكم بعد ذلك (١٦٢)، كما تشير بعض المصادر العربية إلى

---

(١٥٧) ابن العديم، **زبدة الحلب**، جـ٢، ص ٩٢؛ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، نشره وحققه محمد مصطفى زيادة (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٩م)، جـ١، قسم ١، ص ٩٣.

(١٥٨) ابن الفرات، **تاريخ**، جـ٢، مجلد ٤، ص ٣٧.

(١٥٩) ابن العديم، **زبدة الحلب**، جـ٣، ص ١٠٣؛ ابن الأثير، **الكامل**، جـ٩، ص ص ١٩٠ ـ ١٩١؛ ابن واصل، **مفرج الكروب**، جـ٢، ص١٧٨.

(١٦٠) ابن القلانسي، **ذيل التاريخ**، ص ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

(١٦١) Stevenson, *The Crusaders*, p. 137.

(١٦٢) ابن شداد، القاضي بهاء الدين، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة، ١٩٦٢م). ص ص ١٣٥ ـ ١٩٢.

جهود المقاومة الشعبية وبخاصة عندما تتعرض بعض المدن الساحلية لحصار العدو الصليبي، مثال ذلك ما حدث في عكا في الحملة الصليبية الثالثة، عندما اشتدت محاصرة الفرنج لها برا وبحرا وهنا تظهر براعة رجال المقاومة ممن يجيدون السباحة والغوص وهم الذين تسميهم المصادر المعاصرة «العوام» وهم بمثابة الضفادع البشرية «الذين يقومون بحمل الرسائل من الحكام إلى حامية المدينة ومن بها يذكر منهم ابن شداد عواما مسلما كان يقال له عيسى، كان يدخل إلى عكا بالكتب والنفقات على وسطه ليلا، على غرة من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو... وكانت عادته أنه إذا دخل البلد طار طير عرفوا بوصله» ومنهم من كان يحمل الرسائل من داخل المدينة إلى صلاح الدين وفيها كل ما يود معرفته عن أحوال المحاصرين بها، فقد حمل أحد العوام رسالة إلى صلاح الدين يوم الأحد ثاني عشر جمادى الآخر سنة ٥٨٧هـ جاء بها على لسان أهل عكا إنا قد تبايعنا على الموت ونحن لا نزال نقاتل حتى نقتل، ولن نسلم هذا البلد ونحن أحياء فابصروا كيف تصنعون في شغل العدو عنا، ودفعه عن قتالنا فهذه عزائمنا، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلينوا له، فأما نحن فقد فات امرنا.(١٦٣) كما أن هذه المقاومة الشعبية لعبت دوراً مهماً في كشف بعض العناصر الموالية للفرنج أو المتآمرة معهم. ولدينا العديد من الأمثلة على ذلك، إلا أننا سنورد بعضا منها مراعاة لطبيعة البحث. إذ يرجع إلى المقاومة الفضل في كشف المؤامرة التي دبرتها بعض العناصر الموالية للفرنج في دمشق عام ٥٢٤هـ / ١١٢٩م عندما أحس هؤلاء المتآمرين برغبة عماد الدين زنكي في ضم دمشق إليه لتكوين جبهة موحدة لمواجهة الخطر الصليبي، فعند ذلك اتفق المتآمرون على تسليم دمشق للفرنج الذين شرعوا فعلا في محاصرتها معتمدين على تسهيل هذه العناصر الاستيلاء عليها، إلا أن بعض المخلصين من أبناء دمشق من المسلمين كشفوا هذه المؤامرة، وتم القبض على هذه العصبة المتآمرة وقتل أفرادها، وعندما أخذت قوات الفرنج في محاصرة المدينة فعلا، فقد اصيبت بخيبة أمل عندما بلغها اكتشاف هذه المؤامرة وقتل المتآمرين معهم(١٦٤)، كذلك ما حدث من تخاذل مجير الدين حاكم دمشق في مساعدة عسقلان عندما تعرض لغزو الفرنج لها عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٣م والذي أدى إلى سقوطها في أيديهم، فضلا عن خلافاته مع نور الدين محمود الذي خلف أباه عماد الدين زنكي ومجاهدة الفرنج، ومحاولة تكوين جبهة متحدة في مواجهتهم، مما ساعد على إيجاد جماعة من دمشق قررت ان تضع نور الدين محمود في مكانه المناسب. ولقد لعب أيوب والد صلاح الدين دوراً كبيراً في تحريك هذه الفكرة وكان حاكما لبعلبك. مما أدى في النهاية الى قيام جماعة من سكان دمشق بفتح أحد أبوابها لقوات نور الدين محمود، كما قامت القوات التي كان يقودها أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين بتسلق أحد أسوار المدينة والذي خلا من المدافعين بقصد تسهيل الاستيلاء عليه. فما كان من مجير الدين إلا أن سلم قلعة دمشق دون مقاومة تذكر. وبذلك تحققت المفاجأة التي لم يعمل الفرنج لها حساب وهم حماة مجير الدين، كذلك تحقق حلم نور الدين في ضم دمشق إلى حلب كخطوة مهمة على طريق الوحدة. وتحقق أمل المقاومة الشعبية في إخراج دمشق وأهلها من تحت وطأة تهديد الفرنج لها، وتخاذل حكامها في مواجهتهم، وقبولهم دفع أتاوة سنوية لهم في سبيل شراء مسالمتهم.(١٦٥) ليس هذا فحسب بل أن المقاومة الشعبية داخل الأرض المحتلة كان لها دورها الفعال في كشف بعض المؤمرات التي كانت تحاك ضد حكام المسلمين من قادة حركة الجهاد، مثال ذلك ما حدث عام ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م عندما تآمر الأمير سيف الدين كوندك المغولي الأصل، وكان قد ولي منصب نائب السلطنة في الديار المصرية تآمر مع جماعة من الأمراء الظاهرية بيبرس، والسعيدية نسبة إلى الملك السعيد بن الظاهر بيبرس على قتل السلطان المنصور قلاوون، فعندئذ وصلت

(١٦٣) Stevenson, *The Crusaders*, pp. 172 - 179.

(١٦٤) Stevenson, *The Crusaders*, pp. 127 - 128.

(١٦٥) ابن الفرات، تاريخ، المجلد الثامن، ص ٢٠٧.

إلى السلطان كتب المناصحين من عكا يقولون له احترز على نفسك فان عندك جماعة من الأمراء قد اتفقوا على قتلك. وكاتبوا الفرنج وقالوا لهم لا يصالحوا فالأمر لا يبطيء فاحترز السلطان على نفسه(١٦٦) وفي العبارة التي وردت في هذه الرسالة هو أنهم كاتبوا الفرنج ما يدل دلالة واضحة على أن هؤلاء المناصحين ليسوا من الفرنج كما أن عكا في ذلك الحين كانت عاصمة مملكة بيت المقدس الصليبية، إذاً فالرسالة من داخل الأرض المحتلة. وكانت النتيجة أن السلطان قام بالقبض على هؤلاء المتآمرين وكانوا ثلاثة وثلاثين اميراً وأمر باعدامهم. وفي المناطق الريفية التي خضعت للحكم الصليبي عبرت المقاومة الشعبية عن نفسها كذلك في شكل حركات التمرد والعصيان والثورات التي قام بها الفلاحون كلما سنحت الفرصة لهم بذلك عندما كانت تتعرض ممتلكات الصليبيين للأخطار ويذكر بعض المؤرخين الأوربيين على سبيل المثال أن سكان القرى المسلمين في إمارة أنطاكية ومنذ بداية تأسيس هذه الإمارة في عهد الأمير بوهين كانوا على استعداد دائم للثورة ضد الحكم الصليبي عند أول فرصة تسنح لهم بذلك(١٦٧)، وإن كان الأستاذ ماير يذكر أن حركات التمرد التي قام بها هؤلاء الفلاحون كانت نادرة، ويعلل ذلك بقوله أنهم اعتادوا حياة القنية التي كانت موجودة قبل الغزوة الصليبية(١٦٨) وفي رأينا أن حركات التمرد والعصيان وإن كانت قليلة فإن السبب في ذلك لا يرجع أبدا إلى أنهم اعتادوا حياة القنية كما يزعم، بل راجع بالدرجة الأولى إلى طبيعة هؤلاء الفلاحين المسالمة، وإلى إدراكهم أنهم وهم العزل من كل سلاح كانوا أمام عدو عسكري الطابع وأن نتيجة الدخول في صراع مباشر معه ليست مضمونة العواقب. وليس معنى هذا بأنهم لم يثوروا ضد الحكم الصليبي أو استسلموا تماما، فقد سبق أن أشرنا إلى هجرة أهالي بعض القرى لقراهم كنوع من التأديب للحاكم الصليبي الذي اشتط في معاملتهم رغم تمسكهم بالأرض ، وإدراكهم لمخطط الفرنج الذي كان يهدف إلى إحلال مزارعين من الغرب محل الفلاحين المحليين . ثم لدينا العديد من الأمثلة على ثورة هؤلاء الفلاحين في كل مكان، ففي سنة ١١١٣م أعلن أهل القرى في فلسطين حالة التمرد والعصيان عندما تعرضت مملكة بيت المقدس الصليبية لهجوم المسلمين بقيادة مودود صاحب الموصل وطفتكين صاحب دمشق بل وساعدوهم في مهاجمة مدينة نابلس(١٦٩) وسجل المؤرخ اللاتيني فولشر ما حدث في أعقاب الهزيمة التي لحقت ببلدوين الأول ملك بيت المقدس أمام القوات المشتركة لمودود وطغتكين وما يهمنا منها هو موقف الفلاحين المسلمين في أواسط فلسطين، والذين رحبوا بهذه القوات الإسلامية وأعلنوا الثورة في كل مكان ضد الحكم الصليبي(١٧٠) كما سجل وليم العومرى مناسبة أخرى ثار فيها فلاحوا العويرة بالقرب من البتراء وقاموا بالاستنجار بالسلاجقة عام ١١٤٥م ضد الحكم الصليبي، واستجاب الأتراك السلاجقة لهم وقاموا باحتلال القلعة الموجودة هناك، وبادر الملك بلدوين الثالث على الفور إلى تجهيز قوة وسار على رأسها إلى مسرح الأحداث، ونجح بعد حصار قصير في طرد الأتراك منها. وأمام خشية بلدوين من تكرار المحاولة فقد قام بتقوية القلعة وزودها بحامية صليبية قوية وأمدها بالمؤن الوفيرة والعتاد.(١٧١) وتعددت ثوراتهم وحالات العصيان والتمرد هذه، إذ نسمع عن قيام مملكة بيت المقدس الصليبية بحملات تأديبية في المناطق البعيدة على حدودها كما حدث سنة ١١٤٤م عندما قام الفلاحون في القرى الموجودة في وادى موسى في جنوب شرق الأردن باستدعاء الجيوش الإسلامية والاستيلاء على القلعة الصليبية هناك، وقامت الحملة الصليبية التأديبية بمعاقبة أهالي هذه المنطقة بقطع أشجار

(١٦٦) Stevenson, *The Crusaders*, p. 72.

(١٦٧) H.E. Mayer, , *The Crusaders*, Trans , by J. Gilingham (Oxford, 1972), p. 177

(١٦٨) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ**، ص ١٨٦؛ أسامة بن منقذ، **كتاب الاعتبار**، ص ص ١٢٨ ـ ١٤٠؛ سميل، **فن الحرب**، ص ٣٠٣.

(١٦٩) Foulcher of Chartres *A History*, p. 427.

(١٧٠) William of Tyre, *A History*, II pp. 112 - 113.

(١٧١) Mayer, "*Studies in the History of Queen Melisend of Jerusalem in Dumberton Oaks Papers*," 26 (1972), pp. 95 - 183.

الزيتـون التي يعتمـدون عليهـا بشكـل رئيس في حيـاتهم.[١٧٢] وما حدث كذلك إبان رحلة أسامة بن منقـذ إلى الشـام سنة ١١٥٤م كانت هناك حركات تمرد وعصيان بين سكان القرى المسلمين في المنطقة المحيطة بنابلس[١٧٣] كما أن ثورات هؤلاء الفلاحين في القرى التي خضعت لحكم الفرنج كانت تتجدد من وقت لآخر، وخصوصا عندما كانت تتعرض ممتلكات الصليبيين للأخطار أو يشعر هؤلاء الفلاحون بقرب قدوم جيش إسلامي مثال ذلك ماحدث عام ١١٢٣م، عنـدما وقع بلدوين الثاني ملك بيت المقدس في أسر المسلمـين، وتم اختيار يوستاس جرنييه أمير صيدا وصيا على العرش واستغل الفاطميون فرصة غياب ملك بيت المقدس وشنوا هجوما بريا وبحريا على ميناء يافا، مما كان من أهم العوامل التي شجعت سكان القـرى المسلمين على الثورة والعصيان ضد الحكم الصليبي، على أمل الخلاص، ولا ندرى ماذا حدث في أعقاب فشل الهجوم الفاطمي، إلا أنه من المتوقع أن يكـون هؤلاء السكان قد تعرضوا لكثير من عمليات القمـع والتأديب على أيدي الفرنج.[١٧٤] وفي أعقاب انتصار صلاح الدين الأيوبي في حطين، فقد اضطر الصليبيون إلى إخلاء منطقة نابلس بعد ثورة قام بهـا الفـلاحـون المسلمـون تأييـداً للقـائد المسلم المنتصر.[١٧٥] ولعل خير ما يعبر عن مدى تأثير حركات التمرد والعصيان التي قام بها الفلاحون في القرى الخاضعة للفرنج، تلك العبارة الشهيرة التي ذكرها وليم الصورى يصف هؤلاء الفلاحين بقوله «وما من عدو أسـوأ من العدو المقيم بين ظهرانينا»[١٧٦] كما تشير بعض المصادر والمراجع اللاتينية إلى وجود كثير من حالات التمرد والعصيان في المناطق التي عرفت باسم بلاد المنـاصفـات، وهي التي تمت إدارتهـا بطريقـة مشتـركـة بين حكـام المسلمـين والفـرنج، وبخاصة في الجزء الخاضع للحكم الصليبي منها، وهي التي قام بها المزارعون المسلمون بسبب تبرمهم من كثـرة جبـاية الرسوم والضرائب، كما أن وجود الدولة الإسـلاميـة المجـاورة التي يتقاسم الفرنجة الريع معها كان عاملا مشجعا على التمرد.[١٧٧] وأخيرا يجب أن نشـير إلى دور آخـر من أدوار المقـاومـة الشعبية قام به أفراد طبقة المثقفين في ذلك الزمان، ولن يتسـع المجـال لذكر قادة الحركة الفكرية لكننا سنكتفي بالإشارة إلى بعض منهم على سبيل المثال، فلتقرأ ماكتبـه بهـاء الدين بن شداد في كتـابـه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، لنرى قيادة فكرية واعية حرص صلاح الدين أن يكون الى جواره طوال السنوات الخمس الأخيرة من حياته وهو الذي ألّف لصلاح الدين كتاباً في الجهاد وأحكامه وآدابه، وقـدمـه له فأعجبه وكان يلازم مطالعته. وبعد وفاة صلاح الدين اتجه ابن شداد إلى حلب ولعب دوراً كبيراً في التقريب بين الأخوة أولاد صلاح الدين وكانوا جميعاً يرجعون إلى رأيه ويستمعون إلى نصحه. وهو الذي لعب دوراً كبـيراً في التـوفيق بين أفراد البيت الأيوبي في مصر والشام كلما نشب نزاع بين بعضهم والبعض الآخـر، ولهـذا كان دائم التنقل بين حلب والقاهرة لتحقيق هذا الهدف.[١٧٨] كما تشير بعض المصادر المعاصرة إلى قيام كثير من الآباء من الطبقة المثقفة بسرد الأحداث التاريخية لأبنائهم تختلط فيها الأمجاد بالدسائس، والفتن بالفتوحات، وكانت تلك الأخبـار تهـز مسامع من يحضر مجالسهم، بحيث تخرج من تلك المجالس أشخاص على قدر كاف من فهم التاريخ الخاص بهذه الفترة، لذا عندما اتيحت لهم الفرصة للمشاركة في الحياة العامة نجد منهم من كان يمشى في السفـارات، ويتـوسـط في الصلح بين الملوك، ويعقـد معهم مجـالس الشـورى، ويقضي في الأمور المهمة التي كان مصير البلاد يتعلق بها آنئذ. ولنضرب مثـالا لذلك بابن العـديم الحلبى المـؤرخ

(١٧٢) E. Sivan, "*Refugies Syro - Plaestiniens du temps des Croisades*" *in Revue des etudes islamiques* (1967), pp. 137 - 140

(١٧٣) William of Tyre, *A Hist.*, II pp.432 - 435; Foulcher of Charters, *A History.*, pp. 316 - 368.

(١٧٤) سميل،فن الحرب، ص ١٠١

(١٧٥) William of Tyre, , *A Hist.*, II. p.48.

(١٧٦) سميل، فن الحرب، ص ١٠٨.

(١٧٧) سميل، فن الحرب، ص ١٠٨.

(١٧٨) ابن شداد، **النوادر السلطانية**، ص ص ٤ ـ ٥، ٢٦، ١٦٩ ـ ١٩٢.

المشهور «ت ٦٦٠هـ» من خلال كتابه زبدة الحلب إذ نلاحظ أنه دوَّن في أربعمائة صفحة أحداث خمسة قرون تكلم فيها عن البلاد منذ الفتح الإسلامي حتى موت نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، بينما أفرد للسبعين سنة الجزء الثالث من كتابه وهي السنوات من ٥٦٩ ـ ٦٤١هـ بما يؤكد أن القرون الخمسة لم تؤثر في نفس ابن العديم وتشغله كما شغلته هذه الأعوام السبعون المتأخرة. وهي الأعوام التي كانت فيها البلاد في مفترق الطرق أو في مهب الرياح، رياح الطامعين والحاقدين والحكام المغرورين والجهلة والغافلين عن الخطر الصليبي الذي يجثم فوق الأرض العربية.[١٧٩] وتتالت هذه القيادات الفكرية بعد عصر الأيوبيين، ففي عهد قطز كان العز ابن عبد السلام، وفي عهد بيبرس كان هناك.. عشرات في مصر وبلاد الشام وكلهم قاموا بدورهم، ونجحت القيادة الفكرية في تعبئة الناس، ويلاحظ كل من درس هذه الفترة أن الحكام حرصوا على الالتحام بهذه القيادات الفكرية.

لقد عبرت المقاومة الشعبية عن نفسها على لسان واحد من قادة الحركة الفكرية من الشعراء في مناسبات شتى من ذلك ما قاله ابو الحسن علي بن الساعاتي في قصيدة يمدح فيها السلطان صلاح الدين الأيوبي عقب توقيع صلح الرملة بين المسلمين والفرنج عام ٥٨٨هـ / ١١٩٢م بعد أن سئم الطرفان فترة القتال وكثرة الخسائر في الأرواح والأموال.

منعت ظباء المنجنى بأسوده
وأشد ما أشكوه فتك ظبائه
فعلت بنا وهي الصديق لحاظها
كظبي صلاح الدين في أعدائه
سل عنه قلب الانكليز فان في
خفقاته ماشئت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع
ولسال سيل لنداه في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما
لترنم الناقوس في أفنائه[١٨٠]

كذلك عبَّر هؤلاء عن لسان المقاومة من مخاوفها من تخاذل بعض حكام المسلمين فيما كتبه كثير من مؤرخي ذلك العصر وفقهائه. من ذلك ما كتبه ابن شداد عقب وفاة صلاح الدين «اشتغل كل من أهل بيته وأولاده بناحية، ودفع الخلف بينهم، وأعرضوا عن النظر في المصلحة العامة للمسلمين، فلو قدر الله تعالى بقاءه أي صلاح الدين لكان أغلب الظن، أن العدو لا يبقى له في البلاد الشامية ثغر ولا بلد»[١٨١] وكأنه بهذه العبارة قد أدرك ما ندركه نحن الآن ما للتاريخ من وظيفة حضارة في خدمة المجتمع، إذ فيه كثير من العبر والعظة، وفيه كثير من حل مشكلات المستقبل التي ستواجه أبناء هذه الأمة، بالعودة إلى تاريخ البلد وتمثل فعالهم.. منهم من وقف موقف المعارضة والمقاطعة للحكام المتخاذلين، ففي أعقاب وفاة صلاح الدين أيضا، وهو الذي كان تجسيداً لآمال الأمة. وعندما دب النزاع بين أبنائه فإن كبار قادة الحركة الفكرية رأوا في مقاطعة هؤلاء الحكام أبلغ وسيلة للتعبير بها عن سخطهم على تصرفاتهم، ليكون ذلك عبرة لهم. هذا الأسلوب يعبر عن موقف القاضي الفاضل أبلغ تعبير، حيث تشير المصادر المعاصرة إلى أنه تنزه عن ملابستهم ومخالطتهم واعتزل بنفسه عنهم. لما رأى اختلال أحوالهم وفساد أمورهم وإذا كانت هذه المقاطعة هي الوسيلة للتعبير عن عدم الرضا حتى تنصلح أحوال الحكام فمما لا شك فيه أن هذه المواقف لقيت الاستحسان من كثير من طبقة المثقفين المعاصرين، فإنهم عندما يذكرونها فذلك دليل على رضائهم عن هذا الموقف وتأييدهم له. فعلا لقد كان موقف القاضي الفاضل يعبر عن رغبة المسلمين جميعا في كل مكان، وهو ما أدى إلى وقوع الصلح بين الملك العزيز صاحب مصر وأخيه الأفضل صاحب دمشق وعمهما العادل سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٤[١٨٢] وما حدث عام ٦٢٦هـ /١٢٢٢م عندما سلم الملك الكامل الأيوبي القدس إلى الفرنج، فثارت ثائرة المسلمين عامة، والقيادة الفكرية خاصة، وندد كثير منهم بهذا الحدث مما أثار الملك الناصر داود

(١٧٩) ابن العديم، **زبدة الحلب**، جـ٣، ص ص ٧ـ ٩ من المقدمة

(١٨٠) ابن الفرات، **تاريخ**، جـ٢، ط ٨٦.

(١٨١) ابن شداد، **النوادر السلطانية**، ص ٨٦.

(١٨٢) ابن الفرات، **تاريخ**، جـ٢، ص ص ٨٦ ـ ١٢٤.

فقام بعسكره إلى المقدس واسترده فكان أن مدحه جمال الدين يحيى بن مطروح بقصيدة قال فيها:

المسجد الأقصى له عادة ... سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا بالكفر مستوطنا ... أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا ... وناصر طهره آخرا[١٨٣]

ولم يكن التنديد بالمتخاذلين من الحاكم قاصراً على الملوك بل تعداه الى صغار الحكام، مثل ذلك ماحدث سنة ٥٩٤هـ عندما وقع تفريط من حاكم بيروت الأمير عز الدين أسامة كان من نتيجته استيلاء الفرنج على قلعة بيروت فلعن الناس أسامه لتفريطه فيها. وقال القاضي عماد الدين الأصفهاني الكاتب:

إن بيع الحصون من غير حرب ... سنة سنها ببيروت سامه
لعن الله كل من باع ذا البيع ... واخزى بخزيه من سامه

وإن كانت عملية اللعن هذه كانت شائعة في ذلك العصر، إلا أنها لم تكن قاصرة على المتخاذلين من الحكام أو المتعاونين مع الأعداء كوسيلة من وسائل المقاومة بل أنها انصبت على الفرنج أنفسهم، فهذا ابن الفرات مثلا ما في مرة يذكر فيها الفرنج الا وتراه يقول «لعن الله من مضى منهم وخذل من بقى فيهم» وهو بهذا يحذر كل من تسول له نفسه التعامل معهم إلى أن اللعنة ستصيبه هو أيضا.[١٨٤]

وكما جاء التعبير على لسان قادة الحركة الفكرية نحو المتخاذلين من الحكام ولعنهم، فقد عبروا عن رأيهم في بعض الحكام الذين حملوا لواء الجهاد، والأمثلة على ذلك عديدة وكثيرة، وماورد منها في حق المشهورين منهم كثير وكثير، إلا أننا سنشير إلى بعض ممن لم تسلط عليهم الأضواء ولنأخذ ما قيل عن الملك العزيز عماد الدين عثمان صاحب مصر وابن الناصر صلاح الدين الأيوبي «ت ٥٩٥هـ» من أنه كان في غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية، والإحسان إليهم ـ فكانت الرعية تحبه محبة شديدة، فجعوا بموته فجيعة عظيمة. إذ كانت الآمال متعلقة بأبنه بأنه يقوم مقام والده ويسد مسده.[١٨٥]

هذه بعض الأمثلة القليلة عن دور القيادة الفكرية والذي يصلح أن يكون بحثا منفردا بذاته، إلا ان الحقيقة تبقى واضحة دائما في أن القيادة الفكرية ممثلة في مثقفي ذلك الزمان لم تتأخر عن المشاركة في قيادة وتعضيد المقاومة الشعبية إما بعلمهم وأقلامهم وإما بأرواحهم[١٨٦]

---

(١٨٣) اليونيني، قطب الدين ابو الفتح موسى بن محمد بن احمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي (ت ٧٢٦هـ ـ ١٣٢٦م)، **ذيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** (الهند ـ حيدر اباد: الدكن، ١٩٥٤م)، المجلد الأول، ص ص ١٤١ ـ ١٤٣.

(١٨٤) ابن الفرات، **تاريخ**، جـ٢، ص ص ١٣٣ ـ ١٤٠

(١٨٥) ابن الفرات، **تاريخ**، ص ١٤٥؛ ابن واصل، **مفرج الكروب**، جـ٣، ص ٨٣.

(١٨٦) حامد زيان غنيم، **العلماء بين الحرب والسياسة في العصر الأيوبي** (القاهرة، ١٩٧٨م)، ص ص ٦ ـ ١٠.

العصور. المجلد السادس، الجزء الثاني، ٢٦٥ ـ ٢٩٧ (١٩٩١م)

الأشراف الغوانم، أمراء المخلاف السليماني
وعلاقاتهم ببني رسول في اليمن (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م-٨٠٣هـ / ١٤٠١م)

للدكتور أحمد بن عمر الزيلعي

ملخص البحث : **يعتبر هذا البحث محاولة أولية لدراسة الأوضاع السياسية في المخلاف السليماني، أو منطقة جازان في عهد أسرة الأشراف الغوانم، إحدى أسر الأشراف السليمانيين الذين استوطنوا المخلاف السليماني، وأسسوا لهم فيه حكماً وراثياً منذ زمن بعيد. وهم ينسبون إلى الشريف غانم بن يحيى بن حمزة، وينقسمون إلى فروع أربعة، اتخذ كل فرع منهم وادياً من أودية المخلاف التي كانت بمثابة إقطاعات لهم، يديرون شؤونها، ويتزعمون عشائرها، ويتوارثون حكمها، ولكنهم جميعاً يدينون بالزعامة المطلقة للفرع الذي اتخذ من جازان العليا مقراً له، واحتفظ دون غيره بنسبته إلى الشريف غانم، أي الأشراف الغوانم.**

وكانت علاقات الأشراف الغوانم مع بنى رسول مبنية على الاعتراف المتبادل القائم على الواقع التاريخي والميراث السياسي الذي اكتسبه السليمانيون منذ عهد بعيد، وعلى الشرعية العباسية التي منحت لبنى رسول من خلفاء بني العباس، فاحترم الرسوليون استقلال الأشراف الغوانم بترابهم، وبإدارة شؤونهم الداخلية دون تدخل من جانبهم. واعترف السليمانيون بالرسوليين على أساس الشرعية الممنوحة لهم من الخلافة العباسية باعتبارهم نوابا عنها في حكم اليمن.

غير أن هذا الاعتراف المتبادل يخلو من وجود سبب للنزاع والتخاصم بين الجانبين، عندما حاول الرسوليون إسناد منطقة حرض التي كانت جزءا من المخلاف السليماني، وتقع تحت سيطرة أمراء جازان ـ إلى ولاة يحكمونها من جانبهم. فقامت لذلك حروب طويلة بين الجارين بهدف السيطرة على حرض وكانت تلك الحروب سجالا بينهم، وكان مصير حرض متأرجحاً تبعاً لذلك، حتى تمكن الأشراف الغوانم من استردادها، وإعادة توحيد المخلاف السليماني تحت حكمهم.

مقدمة:

ينتسب الأشراف الغوانم إلى جدهم الأكبر الشريف غانم بن يحي بن حمزة بن وهاس بن الطيب داود بن عبد الرحمن بن أبي الفاتك عبد الله بن داود ابن سليمان بن عبد الله الشيخ الصالح بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثني بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب[1] وهم يعرفون

(١) ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، **جمهرة انساب العرب**، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص ٤٧؛ عمر بن يوسف (الملك الأشرف)، **طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب**، تحقيق ك. و. سترستن (دمشق: مطبعة الترقي، ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م)، ص ١٠٨؛ محمد بن حيدر النعمي، **الجواهر اللطاف المتوجة بهامات الأشراف من سكان صبيا والمخلاف**، مخطوط (جامعة الملك سعود، مجموعة العقيلي)، ص ٢٩، ٥٠.

بآل أبي الطيب أو ببني سليمان نسبة إلى سليمان بن عبد الله المذكور.[٢]

استوطن الأشراف السليمانيون المنطقة المعروفة تاريخياً باسم المخلاف السليماني التي تتكون منها حاليا معظم منطقة جازان بجنوب غرب المملكة العربية السعودية.[٣] وكانت بداية استيطانهم بتلك المنطقة في أواخر القرن الثالث الهجري/نهاية القرن التاسع الميلادي، ثم ما لبثوا أن حققوا لهم فيها وضعاً سياسياً واجتماعياً مكنهم من إقامة حكم وراثي لهم بتلك المنطقة منذ أواخر القرن الرابع الهجري/ أوائل القرن الحادي عشر للميلاد.[٤] واستمر حكمهم بها حتى سنة ٩٤٣هـ /١٥٣٦م، عندما قضى الشريف أبو نمي محمد بن بركات (ت ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م) أمير مكة المكرمة، على حكم الأسرة القطبية بمنطقة جازان وضم بلادهم إلى مكة، وبعد ذلك بسنتين دخلت المنطقة بأسرها تحت نفوذ الخلافة العثمانية.[٥]

غير أن حكم السليمانيين لتلك المنطقة لم يكن متصلا، أو على الأقل لم يصلنا على نحو يجعله يبدو لنا كذلك، ويمكن تقسيمه إلى فترات ثلاث: هي الفترة المبكرة التي تشمل حكم بني سليمان الأوائل بمن فيهم الشريف غانم، جد الأسرة موضوع هذا البحث. وكان آخر حكام هذه الفترة الشريف المؤيد بن قاسم ابن غانم الذي توفي أو قتل في سنة ٦١٦هـ/ ١٢٢٠م، وبموته انقطع ذكر بني سليمان إلى حين كما سيأتي.[٦] والفترة الثانية، هي فترة الأشراف الغَوَانِم، وتلي الفترة الأولى من حيث الترتيب التأريخي، وهي أشد فترات بني سليمان غموضاً،

(٢) أحمد بن علي الداودي الحسني المعروف بابن عنبة، **عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب** (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، دون تاريخ)، ص ١٠١؛ النعمي، **الجواهر اللطاف**، مخطوط، ص ٢١: الحسن بن احمد المشهور بعاكش، **الديباج الخسرواني بذكر أعيان المخلاف السليماني**، مخطوط، (جامعة الملك سعود، مجموعة العقيلي)، ص ٧.

(٣) المخلاف السليماني، نسبة إلى سليمان بن طرف الحكمي الذي حكم المنطقة في الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري /أواخر القرن العاشر للميلاد. ودمج مخلافي عَثَّر أو عَثْر إلى الشمال، ومخلاف حكم إلى الجنوب، في مخلاف واحد، سمي المخلاف السليماني، نسبة إليه. وأصبحت حدود هذا المخلاف تمتد من حَليْ بن يعقوب شمالاً إلى ما بعد وادي حَرَض، في الجمهورية العربية اليمنية، جنوباً. وتعرف معظم أراضي المخلاف في الوقت الحاضر باسم منطقة جازان، وهي تمتد شمالا إلى إمارة البِرْك أو بِرْك الغِمَاد، وجنوبا إلى الشُّرْجَة، أو ساحل المُوسَّم، الواقع حاليا على حدود المملكة العربية السعودية مع اليمن. وكان حكم بني سليمان يشمل فيما مضى، منطقة جازان الحالية في المملكة، ووادي حرض وقراه في الجمهورية اليمنية، ويضم من المدن والمواقع الإسلامية المشهورة مدينة حرض وناحيتها، والهَلِّيَّة، والشرجة وابا عريش، وصَبْيَا، وبَاغِتَة، وعثر، وبَيْش، والرَّاحَة، بالإضافة إلى مدينة جازان أو الدَّرْب، العاصمة التاريخية لمنطقة الدراسة، وتقع في أعلى وادي جازان، إلى الشمال الشرقي من مدينة أبي عريش الحالية. وهي تختلف عن مدينة جازان الساحلية التي غدت حالياً العاصمة الإقليمية لمنطقة جازان. انظر: عمارة بن علي اليمني، **المفيد في اخبار صنعاء وزبيد**، تحقيق محمد بن علي الاكوع، ط٣ (صنعاء: المكتبة اليمنية للنشر، ١٩٨٥م)، ص ٦٣، وانظر الهامش رقم (٥) في الصفحة نفسها؛ تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد السمان، **بهجة الزمن في تاريخ اليمن**، تحقيق مصطفى حجازي (بيروت: دار العودة - صنعاء: دار الكلمة، د.ت، ص ص ٢٧- ٢٨؛ محمد بن أحمد العقيلي، **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية - مقاطعة جازان (المخلاف السليماني)**، (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م)، ص ١٤، ١٥.

(٤) النعمي، **الجواهر اللطاف**، مخطوط، ص ص ٥٦، ٦١؛ عاكش، **الديباج الخسرواني**، مخطوط، ص ٤؛ محمد بن احمد العقيلي، **تاريخ المخلاف السليماني او الجنوب العربي** (الرياض: مطابع الرياض، ١٣٧٨هـ /١٩٥٨م)، جـ ١، ص ٢٠٢.

(٥) انظر: عبد الله بن علي الشقيري النعمان، **العقيق اليماني في حوادث ووفيات المخلاف السليماني**، مخطوط (جامعة الملك سعود، مجموعة العقيلي)، ص ص ١٧٩، ١٨٢ - ١٨٥؛ بدر الدين محمد بن إسماعيل بن محمد الحسني الكبسي، **اللطائف السنية في اخبار الممالك اليمنية**، ص ص ١٦١ - ١٨٢؛ النعمي، **الجواهر اللطاف**، مخطوط، ص ٤٠؛ العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ ١، ص ٢٩١، ٣٠٨.

(٦) يأتي الشك في ذلك من روايتين، إحداهما يوردها ابن حاتم، ومفادها أن الشريف المؤيد التقى بقائدين أيوبيين هما: الخوارزمي، والمؤيد النظامي في السنة المذكورة، وقتلهما، والرواية الثانية تفيد بأن المؤيد هو الذي قتل على يد القائدين المذكورين. وقد ناقشت الروايتين في بحث ستأتي الإشارة إليه في الهامش الذي سيلي بعد، ورجحت رواية ابن حاتم على غيرها. انظر: الأمير بدر الدين بن حاتم اليماني، **السمط الغالي الثمن في اخبار الملوك من الغز باليمن**، تحقيق ركس سميث (لندن: لوزاك، ١٩٧٤م)، ص ١٧٤؛ العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ١، ص ص ٢١٢ - ٢١٣؛ محمد بن علي مسفر العسيري، **الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي**، ط١ (جدة: دار المدني، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص ١٣٧.

وحلقاتها أكثر تناثراً، وسنحاول في هذا البحث الاجتهاد قدر الطاقة في جمع ما تناثر من حلقاتها، وفقد من أشتات معلوماتها.[٧] ثم تليهما فترة ثالثة، هي الفترة المعروفة تاريخاً بحكم الأشراف آل قطب الدين لتلك المنطقة، وبانتهاء تلك الفترة ينتهي حكم الأشراف السليمانيين لمنطقة جازان. أو المخلاف السليماني في العصور الإسلامية.[٨]

ويهمنا من هذه الفترات الثلاث، الفترة الثانية التي يطلق على حكامها الأشراف الغوانم من باب التخصيص، أو الأشراف السليمانيين من باب التعميم؛ لأن أفراد هذه الأسرة من أحفاد السليمانيين الأوائل، ويتصلون بهم من حيث النسب والميراث السياسي؛ فمن حيث النسب أوضحنا سابقاً انتساب هذه الأسرة إلى الشريف غانم، واسطة العقد في حكام بني سليمان الأوائل، وأشهرهم في المصادر الأدبية، لمغامراته وحروبه في اليمن حتى أنه كني في بعض تلك المصادر بأبي الغارات.[٩] أما من حيث الميراث السياسي، فإن الأشراف الغوانم هم ورثة أحد أحفاد الشريف غانم، وهو المؤيد بن قاسم بن غانم الذي أشرنا سابقاً إلى وفاته أو مقتله في سنة ٦١٦هـ / ١٢٢٠م، في عهد الملك المسعود، حاكم اليمن من قبل بني أيوب، وانقطع بموته ذكر أسرته من بعده حتى وفاة الملك المسعود في سنة ٦٢٦ / ١٢٢٩م وسقوط دولة بني أيوب في اليمن، وقيام دولة بني رسول على أنقاضها.[١٠]

غير أن الحديث عن الميراث السياسي، واتصال الحكم في هذه الأسرة أو عدمه بعد وفاة الشريف المؤيد، يجرنا إلى مناقشة قضية مهمة التبست على بعض المؤرخين والباحثين المحدثين، فابن المجاور، على سبيل المثال، يذكر أن الأيوبيين قضوا على بني سليمان في سنة ٦١٥هـ / ١٢١٩م، وأنهم تفرقوا بعد ذلك «وانقرضوا ولم يبق لهم في البلاد ذكر».[١١] ويذكر بعض الباحثين المحدثين أن الأيوبيين قضوا على آخر حكام بني سليمان في السنة المذكورة، وأن البلاد دخلت بصورة نهائية في حكمهم.[١٢] ويرد على هذين القولين بأن بني سليمان لم ينقرضوا وأنهم لا يزالون حتى اليوم يكونون إحدى الفئات الكبيرة لسكان منطقة جازان.[١٣] كما أنهم، من ناحية أخرى،

(٧) كَتَبْتُ بحثاً بعنوان: «بنو سليمان، حكام المخلاف السليماني، وعلاقاتهم بجيرانهم (بعد عام ٣٩٢ ـ ٦٢٦هـ / ١٠٠٢ ـ ١٢٢٨م)» تناولت فيه الفترة الأولى من عهود بني سليمان، وقبل للنشر في **حوليات كلية الآداب ـ جامعة الكويت**، وصححت تجارب طبعه، وأعدّ للنشر في سبتمبر ١٩٩٠م ولكن الأحداث التي ألمت بالمنطقة حالت دون نشره، وسينشر قريبا إن شاء الله بعد أن زالت تلك الأحداث. وكتبت بحثا آخر تناولت فيه الفترة الثالثة، وهي فترة الأسرة القطبية (٨٠٣ ـ ٩٤٣هـ / ١٤٠٠ ـ ١٥٣٧م)، وقبل للنشر في مجلة عربية محكمة. وتهيبت من الإقدام على الكتابة في الفترة الثانية التي هي موضوع هذه الدراسة، لضحالة معلوماتها، وعدم وضوح الأسر الحاكمة فيها، ولكنني في النهاية تغلبت على ذلك التهيب، وعزمت على تقديم ما أستطيع تقديمه، ليكون باكورة عمل لمن يأتي بعدي من الدارسين لتاريخ هذه المنطقة التي طواها النسيان.

(٨) ظهرت في العصر العثماني على مسرح الأحداث بمنطقة جازان، أسرة من بني سليمان تعرف بالخواجيين، واستطاعت تكوين حكم وراثي لها في تلك المنطقة، وهي جديرة بدراسة مستقلة ممن يعنون بالدراسات العثمانية أنظر النعمي، **الجواهر اللطاف**، مخطوط، ص ٢١؛ العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ١، ص ص ٣١٨، ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(٩) انظر على سبيل المثال: عمارة اليمني، **المفيد**، ص ص ١٨٠، ٢١١ ـ ٢١٣؛ عبد الرحمن بي علي بن محمد الديبع، **قرة العيون بأخبار اليمن الميمون**، تحقيق محمد بن علي الأكوع (القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٧٤هـ)، جـ٢، ص ٣٥٥؛ يحيى ابن الحسين بن القاسم بن محمد، **غاية الأماني في أخبار القطر اليماني**، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ومحمد مصطفى زيادة (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م)، جـ١، ص ٢٨٨.

(١٠) عن وفاة الملك المسعود بمكة المكرمة، وقيام دولة بني رسول انظر: ابن حاتم، **السمط**، ص ص ١٩٤ ـ ١٩٥، ٢٠٢؛ أبو الحسن علي ابن الحسن الأنصاري الخزرجي، **العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك**، ط٢ (صنعاء: زارة الإعلام والثقافة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)، ص ص ١٨٩، ١٩٣ ـ ١٩٤؛ محمد عبد العال أحمد، **بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما** (الاسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الأسكندرية، ١٩٨٠)، ص ٣٩؛ G.R. Smith, *The Ayyubids and Early Rasulids in the Yemen* (London: EJW. Memorial Trust, 1978), pp. 89-90.

(١١) جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب، **تاريخ المستبصر**، تحقيق لوجرين (ليدن: بريل، ١٩٥١)، ص ٥٧؛ وانظر أيضا: النعمي، **الجواهر اللطاف**، ص ٦١.

(١٢) العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ١، ص٢١٣؛ محمد العسيري، **الحياة السياسية**، ص ١٢٧.

(١٣) أنظر العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ١، ص ص ٨٦ ـ ٩٣؛ عاتق بن غيث البلادي، **بين مكة واليمن، رحلات ومشاهدات**، ط ١ (مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧، ٢٦٢.

استمروا في حكم المخلاف، والمحافظة على استقلالهم به زمناً طويلاً في عهد بني رسول كما سيأتي بعد.

الغوانم وبنو رسول والشرعية العباسية

تشير بعض المصادر إلى أن المخلاف السليماني كان، خلال الفترة المعاصرة لبني رسول في اليمن، موزعا بين عدد من أسر الأشراف السليمانيين هم: الغوانم في جازان، وآل قاسم في بَيْش، وآل وهاس في بَاغتَة، وآل ذروة في صَبْيا، والقاسميون في ضَمَد، والهضاميُّون في ضمد العليا،[١٤] أي أن المخلاف كان موزَعاً ـ على حد قول بعض من نقل عن تلك المصادر ـ على عدد من الإقطاعات أو الدويلات الصغيرة التي لا رابط بينها، وترتبط، من ناحية أخرى، ارتباطاً مباشراً ببني رسول الذين عملوا على تفتيت أجزاء المخلاف منذ عهد مؤسس دولتهم السلطان الملك المنصور، من أجل سهولة سيطرتهم عليه، وربطه بعجلتهم، بل إن بعضهم يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يقرر أن الملك المنصور كان يحكم المخلاف حكماً مباشراً، وأنه كان يبعث إليه عمالاً من قبله لتولي إدارة شؤونه، وأن هذا الوضع ظل قائماً طوال عهد بني رسول، ثم عهد خلفائهم بني طاهر.[١٥]

ومع أننا لا نستطيع إنكار التوزيع العشائري لأسر الأشراف السليمانيين المذكورين، ومعظمهم من أحفاد الشريف غانم، على أودية المخلاف السليماني على شكل زعامات أو إقطاعات صغيرة، إلا أن ما قيل عن ربط المنطقة بشكل مباشر ببني رسول، وإرسال الأخيرين لعمال من قبلهم يديرون شؤونها الداخلية ـ يحتاج إلى إعادة نظر.[١٦] ولابد من وضع هذا القول في إطار علامة استفهام مهمة تستحق الإجابة، وهذه العلامة الاستفهامية هي: ما حقيقة ما يذكره بعض هؤلاء الباحثين المحدثين عن خضوع هذه المنطقة بأسرها لبني رسول، ثم من بعدهم لخلفائهم بني طاهر؟ والواقع أن الإجابة على هذا السؤال التي سنأتي إليها فيما بعد، تفتقر إلى كثير من الأدلة التاريخية التي عز وجودها في بطون المصادر المعاصرة لتلك الفترة، بما في ذلك المصادر اليمنية، ناهيك عن المخلاف السليماني الذي لم يدون تاريخه في تلك الفترة، ولم تصلنا أي معلومات عن مصادر محلية تتناول تاريخ هذا الإقليم أو الترجمة لأعيانه حتى يتمكن الباحثون الآن من وضعه في سياق تاريخي منظم، ومتصل في حلقاته، كما هو الحال بالنسبة لجاريه، الحجاز من الشمال، واليمن من الجنوب اللذين وصلنا الشيء الكثير عن تاريخهما المحلي؛ وهو أمر سهل على الباحثين تناول موضوعاته، والخوض فيه على نحو كبير.[١٧] وعلى العكس من ذلك، فإن تاريخ المخلاف، وافتقاره إلى المصادر المحلية، جعلته كثير الغموض متناثر الحلقات. وإذا أمكن، بعد جهد جهيد، جمع تلك الحلقات ولم شتاتها، ووضع الفترات السابقة في سياق تاريخي مترابط ـ على الرغم مما فيه من فجوات ـ فإن تاريخ الفترات اللاحقة التي تسبق قيام الأسرة القطبية، أشد غموضا، وحلقاته أكثر تفككا مما يصعب على الباحث الجزم بكثير من الوقائع التاريخية أو حتى تقديمها،

(١٤) الملك الأشرف، **طرفة الاصحاب**، ص ص ١٠٨ ـ ١١٢؛ حسين ابن عبد الرحمن بن محمد بن الأهدل، **علماء اليمن**، مخطوط، (المتحف البريطاني، رقم ١٣٤٥)، ورقة ١١ب: النعمي، **الجواهر اللطاف**، مخطوط، ص ص ٢١ـ٢٢؛ عاكش، **الديباج الخسرواني**، مخطوط، ص ص ٦ـ٧.

(١٥) أنظر. العقيلي، **ديوان الشاعر القاسم بن هتيمل**، تحقيق محمد ابن احمد العقيلي (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م)، ص ص ١٣ـ١٤ وما بعدهما في أماكن متفرقة؛ **ديوان الشاعر الجراح بن شلجر الذروي**، تحقيق محمد بن أحمد العقيلي (الرياض: مطابع الرياض، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م)، ص ٤٥ وفي أماكن متفرقة.

(١٦) يمكن استثناء مدينة حرض وناحيتها التي شهدت ـ على فترات متقطعة ـ تعيين بعض الولاة من قبل بني رسول منذ أواخر أيام الملك المنصور. ثم احتفاظ بني رسول ـ في بعض الأحيان، ولظروف أمنية خارجية ـ بحاميتين على طريق الحج إحداهما في الراحة، والأخرى في البرك، وسيأتي بيان ذلك فيما بعد.

(١٧) حظي اليمن والحجاز بعدد من المؤلفات التاريخية التي تناولت عصورهما الإسلامية المختلفة من حيث التاريخ، وسير المشاهير من أعلامهما، نذكر من ذلك على سبيل المثال: مؤلفات ابن حاتم، وإدريس، وابن عبد المجيد والخزرجي، والديبع، وغيرهم بالنسبة لليمن، والفاكهي والأزرقي، والفاسي، وآل فهد، والمراغي، والسخاوي، والسمهودي بالنسبة للحجاز. وحظى هذان القطران ايضا بدراسات حديثة لا تقل أهمية عما كتب عنهما في العصور الإسلامية.

على أية حال، دون حذر، فما كتب عن المخلاف في هذه الفترات يكاد يكون معدوماً. والمصادر التاريخية التي اهتمت - كما أسلفنا - بالتاريخ المحلي للمناطق المجاورة في كل من الحجاز واليمن، تضن بكثير من معلوماتها عن المخلاف، وعلاقته بهذين القطرين. والمصدر المحلي الوحيد الذي عول عليه في أحداث المخلاف السليماني في القرن السابع الهجري/ الحادي عشر للميلاد، هو ديوان الشاعر القاسم بن هتيمل الذي سبقت الإشارة إليه، ولو أن هذا المصدر شأنه في ذلك شأن المصادر الشعرية الأخرى يغفل جانباً مهماً من المنهج التاريخي، هو تحديد الزمان.

ومهما يكن من أمر، فإن بني رسول عندما نفضوا أيديهم من التبعية للأيوبيين في حكم اليمن، وأعلنوا استقلالهم بها - كما أسلفنا - في سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠ - ٣١م، مدوا سيطرتهم على معظم المناطق والحصون اليمنية التي كانت خاضعة لبني أيوب.[١٨] وبدأوا ينافسون الأخيرين في السيطرة على الحجاز التي نجحوا في نقل ميادين المعارك بينهم وبين الأيوبيين إليها، بدلاً من اليمن التي بقيت بمنأى عن صراعات الخصمين.[١٩] ثم عقدوا معاهدة مع الأشراف الحمزيين على المناصرة والمعاضدة.[٢٠] واستطاعوا بذلك تأمين عدم وجود أي منافس لهم في اليمن، بحيث ظهر جلياً تغلبهم على معظم المشكلات التي كانت تواجه دولتهم الجديدة، ولم يعد أمامهم إلا أن يسعوا جادين - كما هي عادة الطامحين من حكام الأقاليم السنيين في ذلك الزمان - إلى الحصول على اعتراف الخلافة العباسية بهم، طمعاً في إضفاء الشرعية على دولتهم، وحفاظاً على وحدتها، وعلى إيجاد سند شرعي يعزز بقاءهم في السلطة، ويقوي قبضتهم على المناطق التي تحت أيديهم، ويساعدهم بالتالي على التوسع في مناطق أخرى خلاف تلك التي تحت سيطرتهم، باسم الخلافة العباسية. فأرسل السلطان عمر بن رسول مبعوثاً في سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٤م، إلى الخليفة المستنصر بالله العباسي (ت ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م)، ومعه هدية قيمة للخليفة نفسه، حيث طلب إليه المبعوث اليمني أن يعترف بالسلطان الرسولي نائباً عنه على اليمن، وأن يرسل إليه تشريفة وهدية على جري العادة.[٢١]

استقبل الخليفة مبعوث السلطان بالإيجاب، وشرط عليه أن يذهب السلطان بنفسه إلى مكة المكرمة، لمقابلة أمير الحج العراقي في عرفات، ومنه يتسلم التشريفة، وأمر النيابة باليمن.[٢٢] ولما عاد مبعوث السلطان الرسولي إلى اليمن. وأخبر مولاه بما شرطه عليه الخليفة، رحل الملك المنصور عمر بن رسول على النجب إلى مكة المكرمة حاجاً، وفي الوقت نفسه، منتظراً بشوق وصول التشريفة. وأمر النيابة.[٢٣] ولسوء حظه لم يتمكن الحاج العراقي من الوصول إلى مكة المكرمة، بسبب اختلال الأمن في الطريق إليها، فعاد المنصور إلى اليمن خالي الوفاض.[٢٤] ولكنه ما لبث أن تلقى في العام التالي تشريفتين من الخليفة العباسي، وصلته إحداهما عن طريق البر، ووصلت الأخرى عن طريق البحر، ومعهما رسائل بالاعتراف به نائباً عن الخليفة العباسي.[٢٥]

(١٨) انظر: ابن عبد المجيد، **بهجة الزمن**، ص ص ٨٦ - ٨٧؛ عبد الرحمن بن علي بن محمد، الديبع، **بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد**، تحقيق عبد الله الحبشي (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٧٩م)، ص ٨١.

(١٩) انظر: محمد عبد العال أحمد، **بنو رسول**، ص ص ١٠٠، ٣٣٩-٣٤٦؛ محمد العسيري، **الحياة السياسية**، ص ص ١٩٤-١٩٦؛ أحمد بن عمر الزيلعي «حاكم السرين (راجح بن قتادة) ودوره في العلاقات المصرية اليمنية في مكة المكرمة»، **مجلة العصور**، مج١، جـ١، لندن: دار المريخ (١٩٨٦م/ ١٤٠٦هـ)، ص ٢٥.

(٢٠) ابن حاتم، **السمط**، ص ٢٠٣؛ ابن عبد المجيد، **بهجة الزمن**، ص ٨٦؛ الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ١٩٤.

(٢١) الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ١٩٥؛ الديبع، **قرة العيون**، جـ٢، ص ٦.

(٢٢) ابن حاتم، **السمط**، ص ٢٠٦؛ أبو الحسن علي بن الحسن الأنصاري الخزرجي، **العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن**، مخطوط، (مكتبة الجامع الكبير الغربية بصنعاء، رقم ٣٣٨)، ورقة ٤٨ب.

(٢٣) الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ١٩٥؛ الديبع، **قرة العيون**، جـ٢، ص ٦.

(٢٤) أبو الحسن علي بن الحسن الأنصاري الخزرجي، **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**، تحقيق محمد بسيوني عسل (القاهرة: مطبعة الهلال بالفجالة، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، جـ١، ص ٥٤، الخزرجي، **العقد الفاخر**، مخطوط، ورقة ٤٨ب.

(٢٥) ابن حاتم، **السمط**، ص ٢٠٧، الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ١٩٦.

وبموجب هذا الاعتراف يصبح السلطان الرسولي مطلق اليد في السيطرة على جميع الأراضي التي تقع تحت يده في اليمن والحجاز بصفته نائباً عن الخلافة العباسية في بغداد. وطبيعي أن يكون المخلاف السليماني الذي يفصل بين الحجاز واليمن، داخلاً في المناطق التي يشملها النفوذ الرسولي المستمد شرعيته من الخلافة العباسية. ولكن هل كان المخلاف السليماني يحكم حكماً مباشراً من قبل الرسوليين، ويتولى إدارته ولاة يعينهم سلطان بني رسول ؟ أم إنه كان خاضعاً لزعماء محليين من الأشراف السليمانيين الذين كانوا يعترفون فقط بالتبعية الاسمية لبني رسول باعتبارهم نواباً للخلفاء العباسيين؟ ويكاد يكون في حكم المؤكد أن الاحتمال الأخير الذي يطرحه الشق الثاني من السؤال السابق، هو الأرجح؛ لأنه لم يغير شيئاً من طبيعة الوضع الذي كان قائماً قبل بني رسول. فالسليمانيون اعتادوا على الاستقلال بترابهم، وعلى توارث حكمه جيلاً بعد جيل، مع الاعتراف بالخلافة العباسية، أو من يمثلهم من الحكام السنيين، من زياديين، ونجاحيين وأيوبيين. ويعتبر سلاطين بني رسول، وإن اختلفوا مع الأيوبيين على مناطق الحكم والنفوذ، امتداداً لسابقيهم من حيث الاعتراف بالتبيعة للخلافة العباسية، والدعاء باسم الخليفة القائم، والذود عن سلطانه، وتنفيذ سياسته ومحاربة الخارجين عليه. أما كون المخلاف السليماني خضع في هذه الفترة لسيطرة بني رسول المباشرة، طبقاً لما أسلفنا من أقوال بعض المؤرخين، فلا نعتقد بصحته؛ لأن المصادر التي وصلت إلى أيدينا لم تشر إلى أن الملك المنصور ولى أحداً أمور المخلاف السليماني، أو أنه أقطع أراضيه لأي من رجاله طوال الفترة الممتدة من توليه الحكم إلى قبيل وفاته بأشهر فقط أي في سنة ٦٤٧هـ / ١٢٥٠م، كما سيأتي. وفي المقابل، أسهبت هذه المصادر في ذكر الأماكن التي أقطعت لرجال السلطان في اليمن التي هي فعلا تحت حكمه المباشر، بما في ذلك الأماكن الواقعة مباشرة إلى الجنوب من حدود المخلاف السليماني مثل القَحْمَة، والمَهْجَم، والمَحَالِب التي أقطعت بالتعاقب لعدد من القادة الرسوليين بمن فيهم الملك المظفر الذي أصبح سلطاناً بعد وفاة والده الملك المنصور.[٢٦] وهكذا يتضح أن سكوت المصادر اليمنية المعاصرة لبني رسول، عن ذكر أي اقطاعات أو مقطعين في المخلاف السليماني، وذلك على غير عادتها بالنسبة لليمن والحجاز مثلا، يعني أن المخلاف ربما لم يقع تحت سيطرة الرسوليين المباشرة وإنما كان خاضعاً لأسرة محلية تحكمه بالتوارث كما سيأتي، وهذا الاحتمال يجيب بالنفي على أهم طرف من السؤالين اللذين سبق طرحهما، استنادا إلى أقوال بعض المؤرخين المشار إليهم آنفا.

غير أن هناك إشارة يتيمة يوردها ابن حاتم ومفادها أن ابن البصرى، وهو أحد القادة الرسوليين المعروفين، كان له إقطاع حَرَض والهَلّية في سنة ٦٤٧هـ / ١٢٥٠م، وأن هذا الإقطاع تم في آخر حياة الملك المنصور، أي قبل وفاته بشهرين في ذي القعدة من السنة نفسها.[٢٧] ومعلوم أن حرض والهلية كانتا ضمن المخلاف السليماني، وكانتا في معظم الأحيان السابق ذكرها، بيد حاكم المخلاف حتى نهاية عهد الشريف المؤيد بن قاسم الذي أشرنا إلى وفاته في سنة ٦١٦هـ / ١٢٢٠م.[٢٨] كما أن الملك المظفر يوسف ابن عمر بن رسول الذي خلف والده في السلطنة والذي أسهبت المصادر في ذكر أخبار إعادة توحيده لليمن، واسترداد البلاد التي كانت خاضعة لسيطرة والده، لم تذكر في المقابل، أنه وصل إلى المخلاف، أو أنه ضمه بشكل مباشر إلى الأراضي التي أعاد توحيدها، مما يدل على أنه لم يكن ضمن سلطان والده، ولا تحت يده في حياته، ويدعم، من ناحية أخرى، وجهة نظرنا السابقة حول نفي ما قيل من دخول هذا الإقليم تحت السيطرة المباشرة لبني رسول. أما بالنسبة لحرض التي كانت قد أقطعت لابن البصرى في أواخر أيام والده، الملك المنصور،

(٢٦) ابن حاتم، **السمط** ص ص ٢١٩ ـ ٢٢٤، الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ص ٦ ـ ١٧ في أماكن متفرقة.

(٢٧) ابن حاتم، **السمط**، ص ٢٣٤.

(٢٨) العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ ١، ص ص ٢١٢ ـ ٢١٣؛ «بنو سليمان»، بحث للمؤلف مقبول للنشر، ص ٤٠.

فقد استردها المظفر في سنة ٦٤٨ / ١٢٥٠ ـ ٥١م، وأقطعها لشخص يدعى الأمِيْنِي، بدلا من صاحبها ابن البصري الذي حامت حوله الشبهات، حول عدم إخلاصه للملك المظفر في كفاحه ضد خصومه للوصول إلى الحكم، وممالاته لأخيه ومنافسه الملك المفضل قطب الدين، وإن كان المظفر قبل عذره، وصفح عن زلته.(٢٩)

غير أن تصرف السلطان المنصور ومن بعده ولده السلطان المظفر في حرض، وذلك بإقطاعها لبعض رجال الدولة الرسولية، ربما جلب عليهما غضب الأشراف السليمانيين، مما كان سبباً في قيام خلافات كثيرة فيما بينهم وبين الرسوليين، نتجت عنها حروب طويلة بين الفريقين استمرت شطراً كبيراً من عهد السلطان الملك المظفر سنأتي إلى ذكرها فيما بعد. وتجدر الإشارة إلى أن السلطان المظفر شأنه في ذلك شأن والده، حرص على الحصول على تفويض من الخليفة العباسي المستعصم بالله، فتم له ذلك مرتين: في عام ٦٤٩هـ / ١٢٥١م، وعام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م،(٣٠) بل إن حرص المظفر على التقمص بثوب الشرعية العباسية حمله على الخطبة للخليفة العباسي، وضرب السكة باسمه حتى بعد مقتله على يد المغول في سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨م.(٣١) ومع ذلك، فإن بني سليمان قاوموا سياسة بني رسول الرامية إلى ضم مدينة حرض، وإدارتها من قبلهم، كما سيأتي تفصيله بعد.

أسر الأشراف السليمانيين وزعامة الغوانم للمخلاف

قبل الدخول في صراعات بني رسول والسليمانيين

يجدر بنا معرفة الأسرة التي آل إليها حكم المخلاف خلال هذه الفترة المتسمة بضحالة المعلومات، والخالية من التواريخ، ومن تسلسل الأحداث والوقائع التاريخية، وهل كانت كل أسرة من أسر الأشراف السليمانيين المار ذكرها للتو، تحكم بمفردها، وتتصرف في شؤونها الداخلية والخارجية بطريقة مستقلة عن الأخرى! أم إنه كان لكل أسرة وضع خاص في المنطقة التي تقع تحت نفوذها، بحيث تتوارث الحكم فيها، وتتصرف في شؤونها الداخلية، وتلتف جميعها تحت لواء أسرة واحدة بعينها، كانت لها الزعامة الشاملة، أو الإمارة في عموم المخلاف!

وقبل الإجابة على هذه التساؤلات يتعين علينا أن نستعرض أقسامهم، وتسلسل أفرادهم، لنقرر عما إذا كانت الزعامة العامة في المخلاف كانت بيد أسرة من تلك الأسر، أم إن كلا منها كانت تعمل مستقلة عن الأخرى. ويهمنا من تلك الأسر السابقة أربع، هم الغوانم في جازان، والقاسميون في بيش، وبنو ذروة في صبيا، وبنو وهاس في باغتة؛ لأن أفراد هذه الأسر ينتمون إلى حكام المخلاف الأوائل، وينتهي نسب كل منهم إلى الشريف غانم بن يحيى بن حمزة، أمير جازان في حوالي النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد، كما تقدم. يضاف إلى ذلك أنه برز من أفراد بعض هذه الأسر قادة لعبوا أدواراً مهمة في أحداث المنطقة التي دارت في المخلاف وفي شمال اليمن، بين الأشراف السليمانيين من جهة، وبين العمال الرسوليين من جهة أخرى. هذا إلى أن حكم المخلاف لم يخرج من ذرية الشريف غانم المذكور حتى نهاية الأسرة القطبية في سنة ٩٤٣هـ /

---

(٢٩) ابن حاتم، **السمط**، ص ٢٦٢؛ وأنظر أيضا، ص ٢٤٦.

(٣٠) الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ص ٢١٩ ـ ٢٣٢؛ الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ٣٦؛ ابن الحسين، **غاية الأماني**، جـ ١، ص ٤٣٧.

(٣١) لم تقتصر الخطبة باسم الخليفة العباسي المقتول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م على السلطان المظفر، بل تعدى ذلك التقليد إلى جميع سلاطين بني رسول، الذين خلفوه في حكم اليمن. أنظر الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، جـ١، ص ٦٩؛ يحيى بن أبي بكر بن محمد العامري، **غربال الزمان في وفيات الأعيان**، تحقيق محمد ناجي زغبي العمر (دمشق: دار الخير للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص ٥٣٣؛ محمد عبد العال أحمد، **إحياء الخلافة العباسية** (القاهرة: مركز الدلتا للطباعة، ١٩٨٧م)، ص ص ٦٥ ـ ٧٤. أما بالنسبة لكتابة اسم الخليفة العباسي المستعصم على الدراهم الرسولية بعد مقتله، فقد عثر على مجموعة من هذه الدراهم في مؤسسة النقد العربي السعودي بالرياض، تحمل اسم الخليفة المستعصم، وتتراوح تواريخها من سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م، أي بعد وفاة المستعصم بسنة، إلى سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧ ـ ٨م. في عهد السلطان الرسولي الملك المجاهد علي بن داود. ولي في هذا الموضوع بحث، تحت الإعداد، يعتمد على مجموعة خاصة من الدراهم الرسولية التي ضربت في العواصم اليمنية، بعد وفاة الخليفة المستعصم، وتحمل اسمه.

١٥٣٦م، تلك الأسرة التي تنتهي بنهايتها فترة حكم بني سليمان المتصل لتلك المنطقة.

ولعل أهم، وأقدم مصدر بين أيدينا عن هذه الأسرة، بل لعله المصدر الوحيد الذي يعالج أنساب الأشراف السليمانيين، وتسلسل أفرادهم وأسرهم في تلك الفترة، هو **طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب** للسلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن رسول (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م)،[٣٢] حيث يذكر صاحب هذا الكتاب أن أولى هذه الأسر، هي أسرة الغوانم، وينسبهم إلى هاشم بن غانم بن يحيى بن حمزة.[٣٣] ويذكر أن من أولاد الأمير هاشم (قاسم)، ولد ولده الأمير وهاس بن محمد بن هاشم (قاسم) بن غانم بن يحيى، وينعته بأنه صاحب جازان.[٣٤] ثم يذكر أيضاً أن للأمير وهاس من الأولاد ستة نفر، منهم. الأمير جمال الدين هاشم «وهو اليوم صاحب جازان» على حد قول المؤلف.[٣٥] أنه كان أميراً لجازان في حياة الملك الأشرف الذي لا نعلم على وجه التحديد متى ألف كتابه! وإن كان من الثابت أنه ألفه عندما كان أميراً، وقبل توليه السلطنة أي قبل سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م.[٣٦]

أما الأسرة الثانية التي ترجع بأصولها إلى غانم المذكور، فهي أسرة بني وهاس، أصحاب باغتة المعروفة الآن في جهة الملحا إلى الشمال من صبيا،[٣٧] وهم من أولاد الأمير أحمد بن غانم بن يحيى بن حمزة.[٣٨] وأولهم وهاس بن سليمان بن منصور بن أحمد بن غانم، وله من الأولاد خمسة نفر، أكبرهم سليمان بن وهاس الذي قيل بأنه توفي ودفن مع والده وهاس بن سليمان، ولهم ذرية كثيرون بالمخلاف في حياة المؤلف الملك الأشرف.[٣٩] ويغلب على الظن أن أشراف باغتة هؤلاء هم والغوانم فرعان لأصل واحد قريب، ويصعب التفريق فيما بينهم حتى أن بعض المؤرخين ينعتهم باسم حكام باغتة وجازان[٤٠]، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بأنهم أسرة تعاقب أفرادها على كرسي الإمارة بالمخلاف السليماني، حتى النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر للميلاد، كما سيأتي فيما بعد.

يلي هذه الأسرة القاسميون، أصحاب وادي بيش المعروف إلى الشمال من صبيا، وهي الأسرة الثالثة من أسر الأشراف السليمانيين التي تنتسب إلى الأمير قاسم بن غانم بن يحيى بن حمزة.[٤١] وأولهم الأمير علي بن قاسم بن غانم صاحب بيش. وله من الأولاد سبعة نفر: الأمير يحيى، ولعله أكبرهم، ثم الأمير غانم

(٣٢) عن هذا الكتاب انظر: أيمن فؤاد السيد، **مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي** (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٧٤م)، ص ص ١٣١ ـ ١٣٢، حسين بن عبد الله العمري، **مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني** (دمشق: دار المختار للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠)، ص ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٣٣) الملك الأشرف، **طرفة الأصحاب**، ص ١٠٨: في ابن عنبة، **عمدة الطالب**، ص ١٠٢، قاسم بن غانم بن يحيى بن حمزة، ونحن نرجح ماجاء عن أبي عنبة لكونه صاحب اختصاص في أنساب آل أبي طالب، ولأن ماجاء عنه يتفق مع المصادر اليمنية الموثوقة، وبعضها ينقل عن مصادر معاصرة لفترة الشريف قاسم بن غانم المذكور. انظر ابن حاتم، **السمط**، ص ١٦: الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ص ١٤٧ ـ ١٤٨: الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ٣٧٦.

(٣٤) الملك الأشرف، **طرفة الأصحاب**، ص ١٠٨.

(٣٥) الملك الأشرف، **طرفة الأصحاب**، ص ١٠٨.

(٣٦) انظر الديبع، **قرة العيون**، جـ٢، ص ٥١.

(٣٧) انظر: ابن هتيمل، **الديوان**، ص ٦٦ في الهامش.

(٣٨) لم يرد أحمد بن غانم عند ابن عنبة، إلا أن يكون أحمد المؤيد بن قاسم بن غانم، أمير المخلاف الذي توفي، أو قتل في حوالي سنة ٦١٦هـ/ ١٢٢٠م، كما قدمنا. انظر: **عمدة الطالب**، ص ١٠٢. وورد اسم منصور بن أحمد في السفارة التي أرسلها السليمانيون إلى الخلافة العباسية طمعا في نجدتها لهم ضد بني مهدي الذين قتلوا أميرهم وهاس، وخرجوا ديارهم، وانتهكوا حرماتهم، على النحو الذي سبق شرحه.

(٣٩) الملك الأشرف، **طرفة الأصحاب**، ص ١٠٠: النعمي، **الجواهر اللطاف**، مخطوط، ص ٥٠.

(٤٠) انظر: النعمان، **العقيق اليماني**، مخطوط، ص ١٢٨؛ الكبسي، **اللطائف السنية**، ص ١٦٣: النعمي، **الجواهر اللطاف**، مخطوط، ورقة ٣١، ورقة ٣٢. إذا صح هذا الاحتمال، فربما ينتسبون إلى أحمد المؤيد بن قاسم (هاشم) ابن غانم، وليس إلى المنصور بن أحمد بن غانم، لأن أحمد المذكور أخو محمد بن قاسم (هاشم)، وأقرب من المنصور بن أحمد من حيث الالتقاء بين الأسرتين. انظر: ابن عنبة، **عمدة الطالب**، ص ١٠٢؛ وانظر أيضا: الملك الأشرف، **طرفة الأصحاب**، ص ص ١٠٨ ـ ١٠٩: ثم جداول النسب الملحقة بالبحث.

(٤١) ينسبهم النعمي إلى حسن، أو حسين بن يحيى بن أبي الطيب، انظر: **الجواهر اللطاف**، مخطوط، ص ٢٢.

والأمير سليمان، وأبو غانم أحمد الملقب مؤيد الدين، وعبد الله وعيسى ويوسف.(٤٢)

أما الأسرة الرابعة والأخيرة من أسر الأشراف السليمانيين بالمخلاف، فهم الأمراء آل ذروة، أهل وادي صبيا الواقع إلى الجنوب من وادي بيش المشهور، منهم: قاسم بن علي بن محمد بن غانم الذروي، وله من الأولاد ثمانية نفر هم: بدر الدين الصياد، وهو الذي تآمر في عشيرته بعد وفاة والده.(٤٣) وعماد الدين خالد، وحسين، ومهدي، وأحمد المؤيد، وشمس. وكان لهم ذرية كثيرون بالمخلاف في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر للميلاد.(٤٤) وتجدر الإشارة إلى أن الملك الأشرف أهمل ذكر الأمير خالد بن علي بن محمد بن غانم، أخي الأمير قاسم، ونعتقد أنه أكبر منه سناً، وكان أميراً على وادي صبيا قبل أخيه قاسم.(٤٥) وأهمل أيضا ذكر اثنين من أبناء الأمير قاسم هما : عبد الله المنصور بن قاسم بن علي الذي كان فارس بني ذروة في حياته، وتوفي مقتولاً في عهد والده،(٤٦) والأمير علم الدين بن قاسم بن علي الذوي الملقب بالخواجي، وكان حياً بعد وفاة والده الأمير قاسم.(٤٧)

ونعود بعد هذا الإيجاز لأفراد الأسر السليمانية بالمخلاف، إلى الأسئلة المطروحة سابقا حول مَن من هذه الأسر كانت لها الزعامة بالمخلاف السليماني ؟ وهو في الواقع سؤال تصعب الإجابة عليه بالنظر إلى شح المعلومات المتعلقة بتاريخ المنطقة. ولكننا في حدود ما أتيح لنا الاطلاع عليه من هذه المعلومات الشحيحة، نعتقد أن الزعامة للمخلاف كانت من نصيب الأسرة الأولى، وهي أسرة الغوانم، لارتباط هذه الزعامة بالعاصمة جازان، فوجودهم في العاصمة ربما يعين أن لهم السيطرة على الإقليم بكامله. فإذا صح هذا الاعتقاد فمعنى ذلك أن زعماء الأسر الثلاث الباقية كانوا يمثلون دور أمراء صغار أو شيوخ يتزعمون عشائرهم، ويديرون الإقطاعات الصغيرة أو الأودية التي تحت أيديهم، ويدينون بزعامة الأمراء الغوانم الذين يتخذون من جازان العاصمة مقراً لهم، ولو أنه ظهر من بين هؤلاء الأمراء الصغار قادة عظام من أمثال خالد وقاسم ابني علي الذرويين. ونلاحظ ولاء هؤلاء القادة السليمانيين، أو زعماء الإقطاعات للأمراء الغوانم، وعملهم تحت إمرتهم، من هذه القصيدة التي قيلت على لسان أكبر هؤلاء القادة، وأولهم في هذه الفترة، وهو الأمير خالد بن علي الذروي. وكانت موجهة إلى أمراء جازان محمد بن هاشم، وابنيه وهاس وأحمد البدر ومنها:(٤٨)

وَسَادَةٍ ذَادَةٍ غُرٍّ غَطَارِفَةٍ
إِنْسٌ إِذَا نَزَلُوا جِنٌّ إِذَا رَكِبُوا
وَأَنْتَ يَا رَائِحاً تَهْوِى بِهِ قُلُصٌ
كَالَجَابِ أَخْلَقَ مِنْهُ الشَّوْبُ وَالقَرَبُ
شَاطَرْتُكُم حُلَبَ المَكْرُوهِ مُحْتَمِلاً
ثِقَلَ المَتَاعِبِ إِذْ لَا يُحْمَلُ التَّعَبُ
كَمْ قُدْتُهَا فِي رِضَاكُمْ ذَاتَ زَلْزَلَةٍ
زَجْرَاجَةِ المَوْتِ يَهْوِي فَوْقَهَا الصَّخَبُ
فَإِنْ رَضِيتُمْ فَلَا خَصٌّ وَلَا دَعَةٌ
وإِنْ عَصَيتُم فَأَيْنَ النَّصْرُ وَالغَضَبُ
يَاقَوْمَنَا إِنْ جَحَدْتُمْ سَعْيَنَا لَكُمْ
طُولَ الزَّمَانِ فَعِنْدَ اللّهِ نَحْتَسِبُ

وهذه القصيدة التي تحمل عتابا صريحا على أمراء جازان، يتضح منها أن الأمير خالد كان يقود الجيوش في سبيل رضاء الممدوحين، وإن كانت تظهر بعض المواقف غير المنصفة من جانب أمراء جازان التي عدها الأمير خالد جحوداً للمساعي التي بذلها في سبيل رضاهم، وتثبيت حكمهم، باعتبارهم أمراء عموم المخلاف السليماني الذي يندرج تحت إمرتهم، ويدين بولائهم، جميع أمراء الإقطاعات الخاضعة

(٤٢) الملك الأشرف، **طرفة الأصحاب**، ص ١١٠: النعمي، **الجواهر اللطاف**، مخطوط، ص ٥٠.
(٤٣) ابن هتيمل، **الديوان**، ص ٨٤: وأنظر أيضا عاكش، **الديباج الخسرواني**، مخطوط، ص ١١.
(٤٤) الملك الأشرف، **طرفة الأصحاب**، ص ص ١١٠ ـ ١١١.
(٤٥) ابن هتيمل، **الديوان**، ص ٤٩، ٦٥، ٧٤.
(٤٦) ابن هتيمل، **الديوان**، ص ٤٢، ٤٣، ٨٧، ٨٨.
(٤٧) ابن هتيمل، **الديوان**، ص ٤٤.
(٤٨) ابن هتيمل، **الديوان**، ص ص ٣٩ ـ ٤٠.

لزعماء الأسر السليمانية السالفة الذكر. يضاف إلى ذلك أن أسرة الغوانم هذه من أبناء حكام المخلاف السابقين، وهم الورثة الحقيقيون لمن سبقهم من الأمراء الذين حكموا المخلاف حتى الربع الأول من القرن السابع الهجري / الثاني عشر للميلاد. وربما بقي الأمر فيهم باعتبارهم ورثة للمرتضي وللمؤيد، أميري المخلاف السابقين، يتضح ذلك من قصيدة أخرى عثر عليها في ديوان الشاعر القاسم بن هتيمل، تتضمن مديحا لحاكم جازان الأمير وهاس بن محمد ابن هاشم (قاسم) بن محمد بن غانم، وتقرر حقيقة أنهم أمراء المخلاف عامة، وأنهم ورثة أمرائه السابقين، ومما جاء في بعض أبياتها:[٤٩]

قُلْ للأَمِيرِ أَبِي مُحَمَّدْ
وَهَّاسِ ذِي الشَّرَفِ المُمَجَّدْ
وَلَدِ الإِمَارَةِ والفُتُوَّةِ
والمُرُوءَةِ حِيْنَ يُنْقَدْ
نِعْمَ الأَبُ الزَّاكِي أَبُوكَ
وَنِعْمَ ذَاكَ الأَبُّ والجَدّ
أَحْيَيْتَ مَجْدَ المُرْتَضَى
وَسَنَنْتَ مَا سَنَّ المُؤَيَّدْ
مَلِكٌ يُجَانِبُ أَهْلَهُ في اللّهِ
مَنْ صَلَّى وَوَحَّد

للأحداث التي اشتركوا فيها، أو ارتبطوا بشكل أو بآخر بها. ولكن لا بأس من الاجتهاد في وضع ترتيب تأريخي يوضح سابقية هؤلاء الأمراء أو القادة، بعضهم على بعض، ويوضح من ناحية أخرى تحديد تواريخ بعض هذه الأحداث تبعاً للقرائن المصاحبة لها، أو تبعاً لوفيات بعض الأشخاص الذين خاضوها أو ارتبطوا بشكل أو بآخر بها، وكذلك تبعاً لتغيير مواقعهم الوظيفية أو القيادية خلال فترات حياتهم.

فبالنسبة إلى ترتيب أمراء المخلاف الذين تعاقبوا على حكمه بعد وفاة الشريف المؤيد بن قاسم التي سبقت الإشارة إلى أنها كانت في حوالي سنة ٦١٦هـ/ ١٢٢٠م ـ نعتقد أن أمور المخلاف ربما آلت بعد وفاته إلى إبنه يحيى بن أحمد المؤيد بن قاسم بن غانم، وإن كنا لا نعرف شيئا عن حياته، ولا عن الدور الذي لعبه بعد وفاة والده، وكل ما يعرف عنه أنه توفي في مكة المكرمة، ودفن في مقبرة المعلاة في جمادى الآخرة سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م. على حد قول مؤرخ مكة، تقي الدين الفاسي الذي أورد ترجمته من شاهد قبره، وعليه كتابة يصفه نصها بأنه: «الأمير السعيد السيد الشهيد المفارق للأهل والأحباب»[٥٠] ولا تعرف أسباب وفادته إلى مكة المكرمة، وموته غريباً عن وطنه، وهل كان مطروداً، أم إنه جاءها حاجاً أو وافداً في

ابن محمـد، ويصفه بأنه صاحب جازان.[٥٢] ويفهم من سياق ما يورده الملك الأشرف عن هؤلاء الأمراء أن وهـاساً، كان أميراً على جازان قبل تأليف كتابه الذي نعتمد عليه في هذه السلسلة، لأنه يذكر ضمناً أن إمارة جازان عند إعداد كتابه المذكور، كانت من نصيب ابن وهاس. وهو جمال الدين هاشم بن وهاس ابن محمـد، ويصفه بأنه أمير جازان اليوم،[٥٣] أي عنـد إعداده لكتابه الذي يعتقد بأنه ألفه قبل عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م ـ كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ـ وهو العام الذي تسلم فيه السلطنة بعد وفاة والده الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول.[٥٤]

أمـا القـادة من الأشراف الذرويين، فيعتقد بأن أولهم هو علي بن محمـد الذروي، الذي قام بإدارة أمور المخلاف في أثناء أسر ابن عمه الملك المؤيد من قبـل الأيوبيين في سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٨م.[٥٥] ولما توفي علي الذروي، خلفـه في مشيخة عشيرته وقيادة فرسان بني سليمان ابنه خالد بن علي الذروي، ثم أخوه القاسم بن علي الذروي، ثم ابن الأخير محمد الصياد الذي ربما بقي حيا إلى ما بعد سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م. وهي السنـة التي يحتمـل أن الشاعر القاسم بن هتيمل توفي فيها، أو في التي بعدها[٥٦]، لأننـا لم نعثر في ديوان الأخير على أي قصائد رثاء قيلت في موت الأمـير محمد الصياد، خلافاً لما درج عليه ذلك الشاعر الذي عكف طوال حياته على رثاء من مات من أفراد هذه الأسرة عند وفياتهم، بالقدر الذي صاغه فيهم من مديح عندما كانوا أحياء.[٥٧]

الغوانم والرسوليون والنزاع على حرض

أوضحنا للتو أن السلطان الملك المنصور، عمر بن علي بن رُسول، ثم ابنه الملك المظفر، يوسف بن عمر، لم يوليا أحداً من قبلهما حكم المخلاف السليماني، ولم يقطعا أراضيه لأي من رجالهما. كما لم يرد ذكر المخلاف ضمن الأراضي التي وحدها عمر بن رسول، أو ضمن تلك التي استردها ابنه الملك المظفر، بعد أن انفـرط عقد السلطنة الرسولية، وانحسر نفوذها عن معظم ماكان تحت يد والده من الأراضي، إثر اغتياله في سنة ٦٤٧هـ / ١٢٥٠م. كما أن المصادر التي بين أيدينا، لم تشر إلى أن السلطان الملك المنصور أرسل أيـا من قواده إلى المخـلاف في حرب ضد الأشراف الغوانم، ولم تفصح أيضا عن قيام أي مواجهة بين بني رسول وبين الأخيرين طوال عهد مؤسس الأسرة الرسـوليـة الذي أشرنا إليه سابقاً إلى حصوله على تفويض من الخلافة العباسية بحكم بلاد اليمن، وما تقـع تحت يده من الأراضي شمـالا حتى الحجـاز. ولكون هذه المصادر تسكت عن ذكر أي مواجهة بين الطرفـين، فمن المحتمـل أن العلاقة كانت ودية بين

(٥٢) الملك الأشرف، **طرفة الأصحاب**، ١٠٨.

(٥٣) الملك الأشرف، **طرفة الأصحاب**، ١٠٩.

(٥٤) عن وفاة السلطان المظفر وتولي ابنه الملك الأشرف مقاليد السلطنة من بعـده، انـظر: أبو المحاسـن جمال الدين يوسف بن تغري بردي، **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور**، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، ط ١ (القاهرة: عالم الكتب، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) جـ٢، ص ٦٠٦؛ الديبـع، **قرة العيـون**، جـ ٢، ص ص ٤٨، ٥١؛ محمد عبد العال أحمد، **بنو رسول**، ص ١٦٢.

(٥٥) العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ ١، ص ٢١٢. عن أَسْر الملك المؤيد من قبل الأيوبيين، أنظر: ابن حاتم، **السمط**، ص ١٤٢.

(٥٦) توفي الشاعر تقديرا في سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦ ـ ١٢٩٧م، انظر ابن هتيمـل، **الديوان**، ص ٧، من مقدمة المحقق، محمد أحمد عيسى العقيلي، وانظر للعقيلي أيضا: **أضواء على الأدب والأدباء في منطقة جازان** (مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي، ١٤٠٠هـ)، ص ص ٢٨ـ٣٦. وللشـاعـر ابن هتيمل، ترجمة كاملة في كتاب **العقد الفاخر**، الخزرجي، مخطوط، ١٨٢ ـ ورقة ١٨٥.

(٥٧) رثى الشـاعـر الأمـير قاسم بن علي الذروي الذي قتل على يد شخص اسمه عاطف، بعدة قصائد مثبتة في ديوانه؛ منها واحدة يعزي فيها الشريف محمد الصياد، ابن المقتول، وخليفته في زعامة عشيرته، ويحث قومه على طاعته والولاء له:

تَأَسَّ فَمَا مُصَابُكَ مِنْ مُصابِ ... فَيَوْمُ أَبِيْكَ يَوْمُ أَبِي تُرَابِ
وَلَا تَجْزَعْ فَإِنَّ الدَّهْرَ يرضِي ... وَيَغْضَبُ فِي المَجِيءِ وفِي الذَّهَابِ
إِذَا اسْتَعْرَضْتَهُ مِنْ حَالَتَيْهِ ... أَجَلْتَ الفِكْرَ فِي العَجَبِ العُجَابِ
تَرىٰ البَازِيَّ والأَسَدَ الغَضَنْفَر ... صَرِيْعاً بِابْنِ آوىٰ والغُرَابُ

. . . . . .

وإِنْ يُقْتَلْ عُوَيطِفُ وهُوَ أدنىٰ ... واحْقَرُ مِنْ بُوَاءٍ بالصُّوَابِ
فَقَدْ قُتِلَ ابْنُ مُلْجِمَ فِي عَلِيٍّ ... وَمَا يُوفِي ابْنُ مُلْجِمَ فِي ذُبَابِ
حَمَيْتُمْ جَانِبَيْ صَبْيَا بِحَرْبٍ ... سَحَائِبُهَا مَوَاطِرُ كالسَّحَابِ
وَسُسْتُمْ أَهْلَ دَوْلَتِكُمْ بِحَمْلِ ... الجِفَانِ وبِالطِّعَانِ وبِالضِّرَابِ
فَرُومُوا أَمْرَ سَيِّدِكُمْ وَكُونُوا ... لَهُ مِثْلَ الرَّبَابَةِ والرَّبَابِ
فَإِنَّ مُحَمَّدَ الصَّيَّادَ فِيْكُمْ ... كَعُنْوانِ الكِتَابِ مِنَ الكِتَابِ

عن تلك المراثي، انظر: **الديوان**، ص ص ٨٤ ـ ٨٦، ٨٧ ـ ٨٨، ٨٩ ـ ٩٤، الخزرجي، **العقد الفاخر**، ورقة ٨١ب، وورقة ١٨٢.

حكام المخلاف والرسوليين طوال عهد السلطان عمر ابن رسـول، وإن كان الأخـير أقطع حرضاً والهلية، وهما جزء من المخلاف السليماني، لاثنين من رجاله قبل وفاته بشهرين، كما سبق توضيحه. ولا شك أن هذا الإجراء يعتبر بالنسبة للأشراف الغوانم، تعدياً على حقوقهم، وانتقاصاً من سيادتهم على جزء مهم من أراضيهم، يتجاوز في نظرهم التفويض الذي منح لابن رسول من الخلافة العباسية، ويستحق بالتالي الرد وعدم الاستكانة أو السكوت عليه.

غير أننا لا نعرف شيئا عن رد فعل بني سليمان على هذا الإجراء الذي ينال من سيادتهم وهيمنتهم على جميع أراضي المخلاف، وهل كان ذلك الرد سريعا قبـل موت الملك المنصور، أم أنه تأخر حتى وفاته، وانتقـال مقـاليـد السلطنة إلى ابنه السلطان الملك المظفـر!. وفي كلتا الحالتين، فإن الأشراف الغوانم شنوا غارة على حرض بقيادة الشريف خالد بن علي الذروي، حيث تمكنوا من استردادها سريعاً، وتوغلوا جنوباً في الأراضي الواقعة فعليا تحت نفوذ بني رسول، وقـد خلد هذا النصر شاعـر المخـلاف السليماني، القاسم بن هتيمل بقصيدة يمدح بها الشريف خالد، ويذكر فيها بعض أحداث هذه الغارة، ومنها:[٥٨]

حَرَضـاً حُزْتَـهُ وَأَوْقَـدْتَ بالرَّاحَـ
ـةِ بَعْدَ المَـعِيْنِ ناراً حَزَازاً
حُزْتَـهـا عُنْـوَةً وَعَـانَـدَكَ الإخْـوَا
نُ فِيْـهـا فَحَـازَهَـا مَنْ حَازَا

ويبدو من الشطر الأخير في البيت الثاني: حدوث خلاف بين بني سليمان بعد موقعة استرداد حرض، ربمـا بين من تكون هذه المدينة من نصيبيه وضمن إقطاعه من أفراد الأسرة السليمانية، وربما بين مؤيد للدخول في حرب مع بني رسول، وبين معارض لذلك، والرضوخ للأمر الواقع، خاصة، وأن بين أفراد تلك الأسر من هم أصدقاء شخصيين للملك المظفر الذي من المرجح أن تلك المعركة حدثت في عهده.[٥٩] ومهما يكن من أمر، فإن هذا الخلاف ربما ترك أثراً سيئاً في نفس الأمير خالد بن علي الذروي، قائد تلك المعركة، الذي شعر بالإحباط من موقف عشيرته، يتضح ذلك من الأبيات الأربعة الأخيرة من القصيدة نفسها التي كانت بمثابة لوم مبطن من الشاعر للفريق المعارض، وتعزية أو تهوين للأمراء على الأمير خالد تجاه موقف معارضيه. وهذه الأبيات هي:[٦٠]

فَأرِحْ واسْـتَـرِحْ فَمَـا نِلْتَ مَا نِلْتَ
مِنَ المُـتْـرَفِـيْنَ إلاَّ ابْـتِـزَازَا
خَلِّ أَهْـلَ الـمِـخْـلاَفِ عَنْـكَ فَقَـدْ
خَلاَّ القَـتَـادَاتُ يَنْبُـعـاً والحِجَـازا
أَنْـتَ تَبْـغِي بالسَّيْفِ والرُّمْـحِ إعْـزَ
ازاً قُبَـيْـلَ لاَ يَطْلُبُ إلا عُزَازَا
كُلَّمـا رُمْـتَ أنْ يَكُـونُـوا صُدُوْراً
جَعَـلَتْـهُـمْ نُفُـوسُـهُـمْ أَعْـجَـازَا

ويـغلب على الظن أن الغـوانم طلبـوا العـون والمساعدة من الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة (ت حوالي ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م)، وأنهم لم يحصلوا ا منه على طائل. وعندما اجـلى الغـوانم العسـاكـر الرسـوليـة عن حرض واستردوها من قبضتهم، بعث الأمير خالد الذروي برسالة إلى الأمير شمس الدين المذكور يخبره فيها بالانتصار على أعدائه، ويعاتبه على عدم تقديم العون الذي طلبه الغوانم منه، وأشفع رسالته تلك بقصيدة قيلت على لسـان الأمـير خالد إلى الأمـير الحمزي، شمس الدين ومنها.[٦١]

أَمِـن مُبْـلِغٍ عَنِّـي أئِـمَّـةَ مَعْشَري
بَنِي حَمْـزَةٍ أَهْلِ الخَمِيْسِ العَرَمْرَمِ
وَمَـنْ عِزُّهُـمْ عِزِّي وَعِـزِّي عِزُّهُـمْ
وَمَنْ لَحْـمُهُمْ لَحْمِي وَمَنْ دَمُهُمْ دَمِي
بِأنَّـا شَبَبْنَـا الحَـرْبَ حَتَّى تَضَرَّمَتْ
وَقَـدْ طَالَـمَـا شَبَّـتْ وَلَمْ تَتَضَرَّمِ

---

(٥٨) ابن هتيمل، الديوان، ص ٦٥.

(٥٩) من الأصدقاء الشخصيين للملك المظفر أمير باغتة، وهاس بن سليمـان، وكـان كثـير الوفادة على الملك المظفر. انظر: النعمي، الجـواهـر اللطاف، مخطوط، ص ص ١٢١ ـ ١٢٢، العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢١٨.

(٦٠) ابن هتيمل، الديوان، ص ٦٥.

(٦١) ابن هتيمل، الديوان، ص ص ٧٤ ـ ٧٥.

فَأَنْـزَلَهُمْ صِدْقُ الجِـلَادِ وَبَـأْسُنَـا
عَلىٰ حُكْمِـنَـا فِي غِلْظَةٍ فِي التَّحَـكُّمِ

أَتَـتَ خَيْـلُنَـا عَشْرُونَ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ
وَهُـمْ مِائَتَـا عِلْجٍ فَصِيْـحٍ وَأَعْجَمِ
سَدَ كُنَـا هُمُ فِي غَمْـرَةٍ جَاهِـلِيَّـةٍ
نُدَاعِسُ فِيْـهَـا كُلَّ أَعْـجَـمَ طَمْـطَمِ
تَرىٰ الخَيْلَ تُرْدِي فَارِساً نَحْوَ فَارِسٍ
كِفَـاحَـاً. وَيَمْشِي ضَيْغَمٌ نَحْوَ ضَيْغَمِ

صَدَقْـنَـاهُـمُ بِالطَّعْنِ حَتَّى تَعَـوَّجَتْ
صُدُوُر الْمَـذَاكِي بِالْوَشِيْـجِ الْمُقَـدَّمِ
بَنِـي عَمِّـنَـا حَتَّـىٰ متـىٰ وإلىٰ مَتىٰ
تَخَـلُّفـكُـمْ عَنْ نَصْرِنَـا وإلىٰ كَمِ
دُعِـيْتُمْ إلىٰ الحُسْنىٰ فإِنْ تَتَقَـدَّمُـوا
إلىٰ فِعْـلِهَـا فَالفَضْـلُ لِلْمُـتَـقَـدِّمِ
كِلُوهُـمْ إِلَيْـنَـا إِنْ خَذِلْتُـمْ فَإِنَّـنَـا
إلىٰ ضُرِّهِـمْ أَهْـدَىٰ مِن الْيَـدِ لِلْفَـمِ
فَكَـمْ عَائِـذٍ عَنَّـا وَعَـنْكُمْ وَبَـائِـعٍ
حَمِـيَّـتُـهُ فِيْـنَـا وَفِـيْـكُـمْ بِدِرْهَـمِ
فَإِنْ تَرْزُقُـونَـا الغَـوْنَ نَظْفَرْ وإِنْ يَكُنْ
سِوَاهُ فَمَنْ لَمْ يُرْزَقِ العَـوْنَ يُحْـرِمِ

وهذه القصيدة التي ربما قيلت بعد هذه المعركة التي استرد فيها الغوانم مدينة حرض، أو ربما قيلت بعد معركة أخرى من تلك المعارك التي نشبت بين الغوانم والرسوليين بسبب محاولة الأخيرين إقطاع ناحية حرض لأحد قادتهم، أو احتفاظهم بحامية في رَاحَة بني شَرِيْف، على طريق الحج اليمني إلى مكة المكرمة، كما سيأتي. أما تاريخ هذه المعركة، فلم يشر إليه في المصادر التاريخية المتاحة، ناهيك عن الشعر الذي من المعروف أنه لا يعير الزمان اهتماماً، وإن كانت القصيدة المشار إليها، تتضمن في أحد أبياتها الإشارة إلى انها حدثت في أوائل شهر محرم الحرام:ـ.

وَلَمَّـا عَلِمْـنَـا الكُـفْـرَ مِنْـهُـمْ وَأَنَّهُمْ
جِهَـادُهُـمْ فَرْضٌ عَلىٰ كُلِّ مُسْلِـمِ
وَتَـرْنَـاهُـمُ فِي قَتْـلِهِـمْ فِي مُحَـرَّمٍ
حُسَيْنـاً. فَجِئْنَـاهُمْ لِأَوْلىٰ مُحَرَّمِ.[٦٢]

فإذا كانت هذه الحادثة، قد جاءت رداً على تعيين ابن البصري حاكماً على حرض في أواخر أيام الملك المنصور كما أسلفنا، فمن المحتمل أن معركة استرداد حرض وقعت في أوائل شهر محرم سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م، اي مباشرة بعد وفاة الملك المنصور، وفي أثناء محاولات الملك المظفر استرداد ملك والده، والتخلص من انصار أخيه الملك المفضل.[٦٣] أما إذا كانت بعد ذلك، فلابد أنها وقعت قبل سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م؛ لأن هذا العام شهد وفاة الأمير شمس الدين الحمزي،[٦٤] وبالتالي فمن المؤكد أن هذه الحادثة والقصيدة التي تؤرخ لها وقعتا في حياة الأمير وليس بعد مماته. وإذا جاز لنا ترجيح أحد الاحتمالين، فإن الاحتمال الأول هو الراجح، لأن ابن البصري قدم على السلطان الملك المظفر، وسأله الذمام، فأذم له. وعندما استقرت له الأمور، اقطعه حَيْس ومَوْزَع بدلا من حرض التي رجحنا أن بني سليمان استردوها.[٦٥]

غير أن الملك المظفر ربما استرد مدينة حرض في السنة نفسها، وفي خضم الأحداث المحيطة بتمكنه من استرداد ملك والده، والنجاحات المتواصلة التي حققها في سبيل ذلك، أو أنه ربما أوكل أمر استردادها إلى صاحب إقطاعها الجديد الذي خلف

---

(٦٢) يقصد الشاعر قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما في العاشر من شهر محرم، وربما كان ذلك مراعاة للمدوحين لنسبتهم إلى الحسن بن علي بن أبي، أخي الحسين بن علي رضي عنهم اجمعين.

(٦٣) عن جهود المظفر في استرداد ملك أبيه، والوصول إلى السلطنة، انظر: ابن عبد المجيد، **بهجة الزمن**، ص ص ٨٨ ـ ٩٢؛ الديبع: **قرة العيون**، جـ٢، ص ص ٢١ ـ ٢٨.

(٦٤) عن وفاة المتوكل شمس الدين احمد بن الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة، أنظر: حسين بن أحمد العرشي، **بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام**، تحقيق الأب انستاس ماري الكرملي (القاهرة: مطبعة البرتيري، ١٩٣٩م)، ص ٤٩.

(٦٥) ابن حاتم، **السمط** ص ٢٤٦، ٢٦٢.

ابن البصري، وهو الأَمِيْني.[٦٦] ويبدو أن الأميني الذي لا يعرف في المصادر المتاحة إلّا بلقبه هذا، ولعله جاء من أمين الدولة ـ تمكن من مباشرة إقطاعه بنفسه، ولعله دخل في حروب مع الغوانم، وأخذ يهددهم في عقر دارهم في المخلاف، ووصل في بعض حروبه معهم إلى قرية الجُرُوْب بالقرب من مدينة صبيا الحالية.[٦٧] ولكن الغوانم بقيادة القاسم بن علي الذروي، أخي خالد بن علي السابق الذكر، نجحوا في صد الأميني عن ديارهم، وشنوا حملة موفقة على حرض، تمكنوا فيها من هزيمة الأميني واسترداد جميع مناطق نفوذهم بما فيها مدينة حرض نفسها. وللأسف الشديد أن هذه الأحداث لم تسجل في المصادر التاريخية الميسورة، ولكنها وصلتنا عن طريق قصيدة عثر عليها في ديوان الشاعر القاسم بن هتيمل، ومنها قوله:[٦٨]

يُجْتَنىٰ اليُمْنُ مِنْ يَمِيْنِ أَبي خَالِدٍ
وَالْيَسْرُ كُلُّهُ مِنْ يَسَارِهْ
كانَ يَوْمُ الجُرُوبِ أَشْنَعَ مِنْ كَسْرَةِ
كِسْرَىٰ وَالْفُرْسِ فِي ذِي قَارَةْ
فَالأَمِيْنِيُّ مِنْ برازِكَ وَلّىٰ
عَنْ عَلِيٍّ فِي كَفِّهِ ذُو فِقَارِهْ
وَرَأَىٰ فِي الفِرَارِ فِي يَوْمِ رَحْبَانَ
فَكَانَتْ حَيَاتُهُ فِي فِرَارِهِ[٦٩]
وَذَلَفْتُم إِلىٰ المَعِيْنِ إِلىٰ بَيْشٍ
فَلاَقىٰ وُقُوعَكُمْ بِمَطَارِهْ
لاَذَ بالدَّرْبِ ثُمَّ أَدْلَجَ يَسْتَرْ
جِفُ لَمَّا نَزَلْتُمْ لِحِصَارِهْ
وَتَعَزَّزْتَ فِي الرَّجِيْعِ عَلىٰ قَوْمٍ
أَذَلُّوا العَزِيْزَ فِي أَمْصَارِهْ
وَأَذَاقُوا الحَمْزِيَّ كَيْمَا يَبُزُّوا
مُلْكَهُ مِن بَرَاشَةٍ وُظَفَارِه.[٧٠]

ويعتقد أن هذه الحوادث وقعت قبل سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٢م، لأن الأميني، صاحب إقطاع حرض، لم يكن فيها في أواخر هذه السنة، ولم يسند إليه أي إقطاع آخر بعد هزيمته في يوم رحبان بحرض، وإنما كان ضمن مقدمي الجيش الرسولي الذين أرسلهم السلطان الملك المظفر في السنة المذكورة تحت قيادة الأمير شمس الدين إلى الجوف، ولم يسمع عنه بعد هذه الحادثة.[٧١] كما أن المصادر الميسورة لم تشر إلى أن السلطان الرسولي أقطع حرضا لأي من رجاله بعد الأميني، وإن كنا نعتقد بوجود احتكاك ما بينهم وبين بني سليمان قبل سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، بسبب النزاع على إدارة حرض وامتلاكها. ولعل الرسوليين استعادوها في وقت ما بعد طرد الأميني منها، ثم استردها السليمانيون بدورهم من عمال بني رسول، يتضح ذلك من هذه القصيدة التي قيلت في مدح الأمير القاسم بن علي الذروي، ومنها:[٧٢]

أَغَرُّ رَسُوليٌّ يُزَرُّ قَمِيْصَهُ
عَلىٰ خَيْرِ مَوْلُودٍ وَأَكْرَمِ وَالِدِ
يُسَاعِدُهُ القَلْبُ الأَصَمُّ وسَيْفُهُ
إِذَا كَانَ فِي الدُّنْيَا قَلِيْلَ المُسَاعِدِ
شَهِدْتَ أَبَا المَنْصُورِ واللّهُ شَاهِدٌ
بِمَا قُلْتُهُ واللّهُ أَكْبَرُ شَاهِدِ
لَمَّا نَقَمَتْ أَبْنَا سُلَيْمَانَ ثَأْرَهَا
وَلاَ جَاهَدَتْ فِي اللّهِ لَوْ لَمْ تُجَاهِدِ
أَتَاحَتْ لأَهْلِ السَّاعدِ المَوْتَ بَعْدَمَا
غَدَتْ حَرَضُ رَأْساً وَلَيْسَ بِسَاعِدِ
وَقَدْ ظَنَّتِ الأَتْرَاكُ أَنْ لَيْسَ مَخْرَجاً
إِلَيهِمْ وَالاَ غَزْوَ مِنْ بَعْدِ خَالِدِ[٧٣]
فَوَافَيْتَهُمْ فِي عُصْبَةٍ طَيِّبِيَّةٍ
كِرَامَ اللِّحىٰ عِنْدَ الْتِحَامِ الشَّدَائِدِ

(٦٦) ابن حاتم، **السمط**، ٢٦٢.

(٦٧) العقيلي، **المعجم الجغرافي**، ص ٧٠.

(٦٨) ابن هتيمل، **الديوان**، ص ص ٦٠-٦١.

(٦٩) الجُرُوب من قرى الحسيني بالقرب من صبيا، والرَّجِيْع من قرى الجَعَافرة بين قريتي البُطَيْح والحَقَاوية، ورَحْبان، واد يروي مزارع مدينة حرض، ومجراه يمر من تحت المدينة، ويوم الجروب، ويوم الرجيع، ويوم رحبان، لعلها من الأيام التي شهدت حروبا طاحنة بين الرسوليين والأشراف السليمانيين، وانتصر فيها الأخيرون على أعاديهم. انظر: الذروي، **الديوان**، ص ٨٤: العقيلي، **المعجم الجغرافي**، ص ٧٠، ١٠٧.

(٧٠) يشير الشاعر إلى قوم خصوم ممدوحه، وأنهم تغلبوا على الأيوبيين في مصر، وعلى الأمير شمس الدين أحمد بن المنصور بالله في براشة وظفار، ومع ذلك هزمهم الأشراف السليمانيون بقيادة القاسم بن علي الذروي، وأجلوهم عن ديارهم.

(٧١) انظر ابن حاتم، **السمط**، ص ٣١٦.

(٧٢) ابن هتيمل، **الديوان**، ص ص ٤٨ ـ ٥١.

(٧٣) الساعد، يطلق على الناحية التي فيها مدينه حرض، وقيل: اسم ←

إِذَا أَصْدَرُوهَا كُنْتُ آخِرَ صَادِرٍ
وَإِنْ أَوْرَدُوهَا كُنْتُ أَوَّلَ وَارِدِ
وَلَمَّا الْتَقَى الجَمْعَانِ أَيْقَنَ كَبْشُهُمْ
بِصَعْقَةِ مَطْرُودٍ وَقُوَّةِ طَارِدِ
وَعَانَقَ حَدُّ السَّيْفِ كُلَّ مُعَاوِدٍ

المتوفي بعد الأول بسنة أو بسنتين.[٧٥] وهما ممن أكثر الشاعر من مديحهما، ونال كرمهما في حياتهما.[٧٦]

ومن الوقائع التي قامت بين عمال بني رسول والغوانم بسبب السيطرة على حرض في أيام السلطان

وَدَمَغْتَهُمْ بالخَيْلِ حَتَّى يَلْحَقُوا
بِحَدِيْدِ بَأْسِكُمُ ثَمُودَ وَعَادِ

ـ ـ ـ ـ

أما ما ذهبنا إليه من احتمال أن هذه الواقعة الواردة في القصيدة المشار إليها، كانت بعد سنة ٦٦٢هـ /١٢٦٣م، فقد بني هذا الاحتمال على الإشارة في بعض أبياتها إلى المهدي وآل الهادي. ويغلب على الظن أن المهدي هو الإمام المهدي لدين الله إبراهيم بن تاج الدين بن بدر الدين من آل الهادي، الذي قام بالإمامة في سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، ولبث جل عهده في صراع مع بني رسول حتى أسروه في سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م، وأودعوه سجن تعز، فمكث فيه حتى وفاته في سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤ ـ ٨٥م.[(٧٨)]

وهكذا يعتقد أن تلك الواقعة بين عمال الملك المظفر وبني سليمان، والمعاصرة للإمام المهدي وعشيرته من آل الهادي، حدثت في الفترة ما بين سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م إلى سنة ٦٧٢هـ /١٢٧٣ ـ ٧٤م، أي قبل وقوع الإمام المهدي في الأسر بسنتين؛ لأن هذه السنة الأخيرة شهدت أحداثا أخرى تتعلق بمدينة حرض خاصة، والمخلاف السليماني بصفة عامة. فقد كان أمير حرض من قبل السلطان الملك المظفر، في هذه السنة، أي في سنة ٦٧٢هـ /١٢٧٣ ـ ٧٤م، هو الأمير عزيز الدين أَلْطُنْبُغَا، وهو أول أمير لحرض يرد ذكره في مصدر تاريخي منذ تعيين الأميني أميراً عليها في سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وكانت بعض جهات حرض تخضع خضوعاً مباشراً له، وبعضها الآخر له عليها جباية معلومة.[(٧٩)] فحدث أن استدرجه أحد مشايخ تلك الجهات الأخيرة، وذلك بأن طلب إلى الأمير الطنبغا أن يصحبه مجموعة من رجاله لتسليمهم ما ينبغي عليه دفعه للأمير. فلما خرجوا إلى موضعه، وكان عددهم أربعين فارساً، ومثلهم راجلين، هاجمهم بالاشتراك مع قومه، فقتل أحد الفرسان، واستولى على خيل الباقين وشتت جموعهم.[(٨٠)] فقرر الطنبغا الثأر لرجاله، فطلب من الأمير أبي سيفين، أمير باغتة أن ينجده بمائة فارس من بني عمه السليمانيين والعلويين، بالإضافة إلى مائتي فارس ومائة راجل من الغز. وعندما تقدموا إلى ديار المخالفين على أمير حرض، انهزم الغز شر هزيمة، وقتل منهم سبعون فارساً وسبعون راجلاً. وكانت هذه الهزيمة بممالاة من أبي سيفين الذي كان بيده علم العسكر الرسولي، فأظهر الهزيمة نكاية بالرسوليين، الأمر الذي أثار عليه حنق عزيز الدين الطنبغا.[(٨١)]

وعندما تشتت العسكر الرسولي لا يلوي على أحد، تمكن شريف آخر يدعى علي بن خالد من لم شتاته وإرجاعه إلى حرض. فبالغ أميرها في إكرامه، وكافأه مكافأة سخية، ثم عاد إلى بلده، وفي أثناء عودته، عرج على باغتة، وقابل الأمير أبا سيفين بها، وأخبره بإكرام عزيز الدين الطنبغا له، فطلب منه أبو سيفين العودة إلى حرض، لينال بدوره شيئا من إكرام أميرها. وعلى الرغم من امتناع الشريف علي بن خالد من العودة إلى حرض فإن أبا سيفين ألح عليه حتى وافق على صحبته. فذهب أبو سيفين، ومعه ابنه، وابن أخيه بصحبة الشريف علي بن خالد إلى حرض. وما أحس أميرها إلا بوجدهم في داره، على الرغم مما بذله من أموال طائلة لمن يأتي له بأبي سيفين للموجدة التي وجدها عليه، بسبب خيانته لعسكره. فألقي القبض عليهم جميعاً وأودعهم السجن.[(٨٢)]

ولما علمت زوجة أبي سيفين بسجن زوجها وولدها استنجدت بالأعراب وبالأشراف، فهبت لنجدتها قبائل العرب من المخلاف والحجاز حتى بلغ مجموع هذه القبائل سبعين قبيلة غص بهم خيت الخموس الواقع بين جازان وباغته. فشاع القلق والأرجاف في حرض، وخاف أميرها وعساكره من هذه الجموع المحتشدة. فطلبوا من أبي سيفين أن يبعث لهذه القبائل التي جاءت لنجدته، كتبا يحثهم فيها على العودة من حيث أتوا. فكتب لهم بناء على رغبة الأمير،

(٧٨) العرشي، **بلوغ المرام**، ص ص ٤٩ ـ ٥٠، الواسعي، **تاريخ اليمن**، ص ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٧٩) ابن حاتم، **السمط**، ص ٤٣٢.

(٨٠) ابن حاتم، **السمط**، ص ٤٣٣.

(٨١) ابن حاتم، **السمط**، ص ٤٣٤.

(٨٢) ابن حاتم، **السمط**، ص ٤٣٦.

وقال له: «قد كتبت امتثالا، وأنا أعلم أنه لا يثمر ولا يجدى، لو كتبت ألف كتاب بعده؛ لأن هذا جمع مختلف من كل جهة، ولو كنت في باغتة أيضا ما استطعت إرجاعهم، فضلا عن أكون في السجن».(٨٣) فأرسل الأمير من يوصل كتاب أبي سيفين إلى زعيم أولئك العرب حسن بن موسى، أمير حلي من بني حرام،(٨٤) فلما قرأ حسن الكتاب، قال لرسل أمير حرض: «ارجع إلى أميرك، وقل له: إن أحب أن يقف، أو أحب أن ينحو بنفسه فليس هو في الحساب ولا من معه، وإنما قصدنا زبيد وعدن».(٨٥).

فلما عاد الرسل إلى حرض، وأخبروا أميرها برد هؤلاء الأعراب، اتخذ قراراً لا رجعة فيه، وذلك بأن عمد إلى شنق أبي سيفين وابنه، وكحل ابن أخيه، وترك الشريف علي بن خالد مسجوناً.(٨٦) ثم أخذ في تحصين مدينته، ونصب الأشراك الخداعية حولها، وعمل على تغوير المياه والموارد، وتسميم ما بقي منها، وعين من يقوم بتخذيل هذه الجموع الحاشدة، وبث الفرقة والبغضاء بين فئاتها المختلفة، وشحن دور المدينة بالرماة، والنشابين، والنفاطين، وغير ذلك من وسائل الدفاع التي لا يعرفها العرب، ولا يطيقون مقاومتها، في الوقت الذي أحاطت تلك الجموع بمدينة حرض إحاطة السوار بالمعصم، وفرضت عليها حصاراً شديداً من كل جانب.(٨٧)

وعلى الرغم من شدة الحصار المفروض على مدينة حرض، وكثرة تلك الجموع ومجيء الأمير داود بن المنصور الزيدي (ت ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م) لنصرة زوجة أبي سيفين،(٨٨) فإن الأمير عزيز الدين الطنبغا ورجاله تمكنوا من تفريق الأعداء وتشتيتهم بما استخدموه من وسائل دفاعية لا قبل للعرب بها، كدبابيس النفط، والأشواك المسممة، ونحو ذلك، مما أجبرهم على ترك حرض وشأنها، والعودة إلى أوطانهم بمن فيهم الأمير داود بن المنصور ورجاله.(٨٩) وقد امتدح ابن حاتم ـ مؤرخ هذه الفترة والوحيد من بين المؤرخين اليمنيين الذين وصلت أعمالهم إلى أيدينا، وانفرد بهذه الرواية ـ شجاعة عزيز الدين، وحسن تصرفه، بقوله: «فلله در الأمير عزيز الدين في هذه القضية فلقد ثبت فيها، ولم يستخف، وأعانه الله تعالى.»(٩٠)

غير أن ابن حاتم الذي ركز على إبراز دور ألطنبغا، لم يوضح لنا من هو شيخ القبيلة الذي استدرج عسكر أمير حرض ؟ وماهي بواعث عمله هذا ؟ ومن هو أبو سيفين أمير باغتة ؟ وكيف يثق به ألطنبغا ؟ ويسلمه علم عسكره، وهو يعلم ما بينهم وبين بني سليمان من عداوات ؟ وهل بقي الأخير أميراً على حرض بعد هذه الحادثة أم أنه تركها ؟ وهل حدث رد فعل منظم من قبل أهل المخلاف رداً على كسرتهم تلك، وثأراً لشنق أبي سيفين ونجله. كل هذه الأسئلة تفتقر إلى إجابات محددة يغفلها ابن حاتم، ويصعب على المرء في ظل ضحالة المعلومات عن هذه الفترة، التوصل إلى أجابات محددة عنها، ولكن لا بأس من الاجتهاد في محاولة لتقديم بعض التفسيرات للأحداث المحيطة بهذه الوقعة.

---

(٨٣) ابن حاتم، **السمط**، ص ٤٣٧.

(٨٤) انظر: أحمد بن عمر الزيلعي، «بنو حرام، حكام حلي وعلاقاتهم الخارجية»، **مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود**، مج ١، عدد ١ (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م)، ص ١١٣. بنو حرام نسبة إلى حرام بن كنانة بن خزيمة بن مدركة، أسرة محلية حكمت حلي بن يعقوب في العصور الإسلامية الوسيطة، وكانت علاقاتها وثيقة بأمراء المخلاف السليماني ثم ببني رسول، وأشراف مكة، ولبث بعض أفرادها في الحكم حتى العصور الحديثة. انظر: ابن الأهدل، **علماء اليمن**، مخطوط ورقة ٤ب: الخزرجي، **العقد الفاخر**، مخطوط، ورقة ١٨٤؛ أحمد الزيلعي، «بنو حرام» ص ص ١٠١ ـ ١٢٢؛ Ahmad Umar Al- Al-Zailaᶜi "The Southern Area of the Amirate of Makkah, (3rd - 7th / 9th - 13th centuries), Its History, Archaeology and Epigraphy" (Ph.D. Thesis, Durham University, 1983), pp. 479-482.

(٨٥) ابن حاتم، **السمط**، ص ٤٣٧.

(٨٦) ابن حاتم، **السمط**، ص ٤٣٨.

(٨٧) ابن حاتم، **السمط**، ص ٤٣٨.

(٨٨) جاء الأمير داود بن المنصور بالله بناء على رغبة زوجة أبي سيفين التي طلعت إليه وقالت: «إني طلبت نصرة العرب، فلم ينصروني، ولابد أن تنصرني أنت وتأخذ البلاد، فكل شيء يكون للأمير، فهو لك، ولا أريد منك سوى الأمير ولده..» فأجابها إلى ذلك، وجمع الجموع، انظر: ابن حاتم، **السمط**، ص ٤٤٠.

(٨٩) ابن حاتم، **السمط**، ص ٤٤٥.

(٩٠) ابن حاتم، **السمط**، ص ٤٤٥.

ولعل أهم ما يمكن استنتاجه من هذه الحادثة هو كراهية أهل المخلاف السليماني للحكم المباشر لبني رسول، ولعساكرهم من الغز، وما فعله شيخ القبيلة المذكور برجال أمير حرض، يعد نكاية تعبر عن تلك الكراهية، ناهيك عن عدم إخلاص أبي سيفين في المعركة التي كان طرفاً فيها إلى جانب الرسوليين، والاستجابة المنقطعة النظير من قبل قبائل العرب لاستغاثة زوجة أبي سيفين الرامية إلى إطلاق سراح زوجها، وابنها من أسر الطنبغا، والتي تعدت مهمتها تلك إلى التهديد بالوصول إلى زبيد وعدن، وإسقاط الدولة الرسولية طبقا لإجابة أمير حلي، حسن بن موسى التي سبقت الإشارة إليها.

أما شيخ القبيلة الذي استدرج العساكر الرسولية إلى دياره، والتنكيل بهم، فإننا لا نعرف عنه، ولا عن قبيلته شيئا؛ وإن كنا بحكم الإشارة في هذه الرواية إلى «كور الجماجم» يمكن تحديد موقع هذه القبيلة. فكور الجماجم اسم لموقع غير معروف في المصادر الجغرافية المتاحة، وإن كان العقيلي يذكر في معجمه أن الكور أحد الأودية الواقعة في جنوبي منطقة جازان،[٩١] فإذا كان اسم هذا الموقع «كور الجماجم» جاء من اسم هذا الوادي لموقعة منه، فإن قبائله في ذلك الوقت هي من قبائل الخلاف السليماني المعروفة بكراهيتها ومقاومتها حكم أجنبي يأتيها من خارج حدودها. وهي لا تبعد كثيرا عن مدينة حرض في اتجاه الشمال، وإن إقدامها على عملها المشار إليه تجاه الطنبغا ما هو إلا تعبير عن عدم رضاها بالدخول في طاعة أمير عين عليها مباشرة من قبل سلطان بني رسول الملك المظفر.

أما الأمير أبو سيفين المذكور في هذه الحادثة بكنيته فقط، فهو مجهول في المصادر المتاحة، وإن كان وصفه بأمير باغتة يعطي ذريعة للاجتهاد؛ فقد سبقت الإشارة إلى أن أمراء باغتة في ذلك الوقت، هم فرع من الغوانم يعرفون ببني وهاس، واشتهر منهم في تلك الفترة اثنان هم: وهاس بن سليمان بن منصور ابن أحمد بن غانم بن يحيى بن حمزة، وابنه سليمان الكبير. وكان وهاس قد اشترك في معارك تحرير حرض السابقة مع باقي أبناء عمه من الغوانم ضد عمال بني رسول. وهو الذي قيل في مديحه، تقديراً لما ابداه في إحدى تلك المعارك من شجاعة، هذه القصيدة التي جاء في بعض أبياتها:[٩٢]

إلىٰ ابْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ مَنْصُورَ أَرْقَلَتْ
بِنَا أَرْحَبِيَّاتٌ مَرَافِقُهَا فَتْلُ

إِذَا بَلَغَتْ وَهَّاسَ قِبْلَةَ قَصْدِهَا
فَمَا بَعْدَهُ بَعْدٌ وَلَا قَبْلَهُ قَبْلُ

-- -- -- --

شَمَائِلُ وَهَّاسِيَّةٌ غَانِمِيَّةٌ
هِيَ الْفَرْعُ مِنْ رُوحِ الإِمَارَةِ وَالأَصْلِ

أُنَاسٌ كِرَامٌ بِالنُّفُوسِ لَدَىٰ القَنَا
وَلَكِنَّهُمْ فِيهِمْ بِإِغْرَاضِهِمْ بُخْلُ

دَلَفْتَ لِحَرْبِ الخَالِعِينَ بِعَارِضٍ
أَحَمَّ الحَوَاشِي وَدْقَةِ الخَيْلِ وَالرَّجْلِ

بِكُلِّ حَمِيِّ الأَنْفِ يَهْدُرُ شِدْقُهُ
وَتُزْبِدُ لَحْيَاهُ كَمَا يَهْدِرُ الفحلُ

فَوَلّىٰ إِيَاسٌ وَالرِّمَاحُ تَنُوشُهُ
كَأَنَّ بِهِ خَبْلٌ وَلَيْسَ بِهِ خَبْلُ

تَرَاهُ لِخَوفِ القَتْلِ يَرْعَشُ جِسْمُهُ
وَمِنْ دُونِهِ الْبَابُ الْمُضَبَّبُ وَالقُفْلُ

وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ جَرَىٰ قَبْلَ مَا جَرَىٰ
عَلَيْهِ وَلَكِنْ مَا لِسَائِمَةٍ عَقْلُ

وَلولاَ دُخُولُ الدَّرْبِ أَصْبَحَ عَانِياً
وَفِي رِجْلِهِ قَيْدٌ وَفِي رِجْلِهِ غِلُّ

ويعتقد أن اشتراكه في هذه الوقعة كان مبكراً، لارتباطها بفخر الدين إياس الشلاح، وهو من رجال الملك المنصور ومماليكه، وكان واليا على مكة من قبل الأخير في سنة ٦٣٩هـ /١٢٤١-٤٢م، وبقي بها حتى سنة ٦٤٦هـ /١٢٤٨م، عندما عزله عنها في تلك السنة، وأقطعها لابن المسيب.[٩٣] ولم نجد له ذكرا في الأحداث التي جرت بعد عزله عن إمارة مكة،

(٩١) العقيلي، المعجم الجغرافي، ص ١٩٨؛ المخلاف السليماني، جـ ١، ص ص ٣٢ - ٣٣.

(٩٢) ابن هتيمل، الديوان، ص ص ٦٩ - ٧٠.

(٩٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ ٨، ص ١٦٠، ١٧٥.

ولا نعرف شيئا عن تاريخ وفاته، وإن كان في حكم المؤكد أنه كان من المماليك الذين استعملهم الرسوليون بعد ذلك، وربما عاش إلى أيام السلطان الملك المظفر، واشترك في معارك المخلاف السليماني مع الأميني السالف الذكر بين سنة ٦٤٨ ـ ٦٥١هـ / ١٢٥٠ ـ ١٢٥٣م، لكون هذه القصيدة مثل سابقتها التي ورد فيها اسم الأميني، مرتبطة في بعض أبياتها بالدرب التي أوضحناها سابقا أن المقصود بها دَرْب النَّجا، أي مدينة جازان العليا، عاصمة المخلاف السليماني في هذه الفترة. يضاف إلى ذلك أن الأمير وهاس كان وقت وقوع هذه المعركة في عمر الشباب بدليل قول الشاعر:

دَلَفْتَ لِحَرْبِ الخَالِعِينَ بِعَارِضٍ
أَحَمِّ الحَوَاشِي وِدْقَةِ الخَيْلِ والرَّجْلِ

أما ولده سليمان بن وهاس، فقد اشتهر في حياة والده بفضل موقفه من الدفاع عن الشاعر القاسم بن هتيمل عند محاولة القبض عليه بناء على أوامر من الملك المظفر، وقصة القبض على ابن هتيمل مشهورة في كتب الأدب المحلي للمنطقة، ويتناقلها الأهالي ممن لهم اطلاع على الأدب، جيلا بعد جيل.[٩٤] وذلك بفضل تلك القصيدة التي مدح بها ابن هتيمل الأمير وهاس والتي حفظت لنا هذه القصة على مر الأجيال. ومما جاء في هذه القصيدة السينية قوله:[٩٥]

لَا تَطْلُبِ الرِّزْقَ إِنْ فَاتَتْكَ عَارِفَةٌ
إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهَّاسِ

القَائِلِ الفَاعِلِ الطَّلْقِ الغَضَنْفَرَةِ
البَحْرِ الخِضَمِّ الأَشَمِّ الشَّامِخِ الرَّاسِي
فَخْراً بَنِي غَانِمٍ دَرَّتْ لَكُمْ نِعَمُ الدُّنْيَـ
ـا انْثِيَالاً. بِلَا مَسْحٍ وإِبْسَاسِ
أَيَامُنَا بِكُمُ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ
فَنَحْنُ فِي جُمَعٍ مِنْهَا وَأَعْرَاسِ
كَمْ مِنْ يَدٍ لَكَ عِنْدِي قَدْ بَدَدْتَ بِهَـ
ـا وَسْوَاسَ كُلِّ ذَمِيمِ الخُلْقِ دَسَّاسِ
أَخْرَجْتَنِي مِنْ لَهَاتِ اللَّيْثِ مُنْتَقِذاً
جُوبَايَ مِنْ بَيْنِ أَنْيَابٍ وَأَضْرَاسِ
فَلَوْ أَطَاعَكَ جِيرَانِي بِفِعْلِهِمِ
فِي عَجْزِهِمْ ضَرْبَ أَخْمَاسٍ بِأَسْدَاسِ
مَارُحْتُ فِي أَسْرِ أَجْنَادٍ سَوَاسِيَةٍ
مَرَاحَ زَيْدَانَ فِي أَسْرِ ابْنِ بُرْطَاسِ
هَدِيَّةً يَتَحَظَّى بِي مُقَدِّمُهَا
عِنْدَ المُظَفَّرِ أَوْ عِنْدَ ابْنِ دَعَّاسِ

فهل أبو سفين هذا هو الأمير وهاس ؟، وهل ابنه سليمان هو الذي قتل معه شنقاً على يد رجال عزيز الدين ألطنبغا ؟ والواقع أنه من الصعب الإجابة بشكل محدد على هذا السؤال. ولكن هناك بعض القرائن التي تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن أبا سيفين وابنه المقتول معه، ماهو إلا وهاس وابنه سليمان المذكورين أعلاه، بدليل أن المؤلف وصف الأول بأنه أمير باغتة، وليس لباغتة أمير آخر في هذه الفترة غير وهاس، أو أبنائه. يضاف إلى ذلك، وهو الأهم، أن

(٩٤) خلاصة هذه القصة، أن الأمير وهاس كان في ضيافة الملك المظفر عندما بعث بسرية من الخيل إلى جازان لجلب الشاعر القاسم بن هتيمل لما علمه من اتصاله بأمراء حلي، والتعريض به عندهم بقوله:

إِنَّ المُلُوكَ بَنِي يَعْقُوبَ قَاطِبَةً   طُرًّا وَكُلُّ مُلُوكٍ غَيْرُهُمْ سُوَقُ

فلما علم ابن هتيمل بوصول السرية لأخذه، التجأ إلى بيت الأمير وهاس، فمنعه منهم ابنه سليمان بن وهاس، وكان صبيا لم يبلغ الاحتلام. فلما عادت السرية أخبرت السلطان أن سليمان تعرض لهم بخيل ورجال، واستخلص الشاعر منهم قسرا. فلام السلطان الأمير وهاس على مافعله ابنه. فقال الأمير وهاس: إن ابني صبياً لم يدرك، ولا يعقل أن يقاومهم. فأمر السلطان بإحضاره، وأقر بأنه استخلص الشاعر بمفرده، وتحدى أفراد السرية لمبارزته، فعفا عنه السلطان، وأكرمه. ولما حضر الشاعر، وسأله السلطان عن البيت السابق المنسوب إليه قال: أطال الله عمر السلطان إنما قلت: «وكل ملوك غيرهم سبقوا» فاستحسن السلطان تخلصه، وعفا عنه رعاية للأمير السليماني، فقال ابن هتيمل قصيدته السينية المذكورة في المتن. انظر: النعمي، **الجواهر اللطاف**، مخطوط، ص ص ١٢١ ـ ١٢٢؛ العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ ١، ص ٢١٨؛ وانظر أيضا: مقدمة الشارح في ديوان ابن هتيمل، ص ص ٢٧ ـ ٢٩.

(٩٥) ابن هتيمل، **الديوان**، ص ص ٦٥ ـ ٦٧.

الملك الأشرف يترر أن سليمان بن وهاس الذي يصفه بسليمان الكبير توفي مع والده، دون أن يذكر أسباب الوفاة[٩٦]، مما يغلب على الظن أنه توفي مع والده مقتولا في الحادثة المذكورة، ولكن الملك الأشرف الذي غدا فيما بعد ولي عهد السلطان، وثاني رجل في الدولة، ربما تحاشى ذكر القتل الذي كان على يد أحد مماليكه، ورجال دولته؛ لأن الخوض في هذا الأمر من شأنه أن يثير مشاعر بني سليمان، ويثير بالتالي مشاعر سكان المخلاف الذين يدينون بولائهم التقليدي لأمرائهم السليمانيين.

أما كيف يثق عزيز الدين ألطنبغا بأبي سيفين أو وهاس، إن صح ما ذهبنا إليه، فربّما يعود إلى بعض الروابط الشخصية الجيدة التي كانت تربط وهاس بالملك المظفر، ثم ببعض مماليكه، ومنهم الطنبغا نفسه، بدليل قيام وهاس بزيارة الملك المظفر غير مرة، ومنها تلك التي كانت في زبيد والتي تزامنت مع محاولة القبض على الشاعر القاسم بن هتيمل، وهو ملتجأ ببيت وهاس في أثناء غيبة الأخير في زبيد في زيارته تلك للملك المظفر.[٩٧] ويؤكد هذه العلاقة الشخصية بين السلطان وأمير باغتة ما جاء في محاورة سليمان بن وهاس مع الرجال الذين جاءوا للقبض على الشاعر بن هتيمل عندما قال لهم: «إن ابن هتيمل قد استجار بنا والسلطان يجب رعايتنا ووالدي في حضرته، فأرجو أن تتركوه وللسلطان رأيه فينا وفيه».[٩٨] ويؤكدها أيضا قول الشريف علي بن خالد الذي نزل ضيفا على أبي سيفين في باغتة، عندما طلب منه الأخير العودة معه إلى حرض لينال جائزته من أميرها: «أنت أيها الشريف عَلّام الدولة، وصاحب الأمير، ولو وصلت إليه لاستصغرت إليّ عند إحسانه إليك».[٩٩] وهكذا نلاحظ أن العلاقة الشخصية كانت جيدة بين الأمير أبي سيفين من جهة، والسلطان المظفر والأمير عزيز الدين ألطنبغا من جهة أخرى. ولكن حسن علاقة أبي سيفين الشخصية بكل من السلطان والأمير عزيز الدين لم تخفف مشاعر الكراهية والبغضاء تجاه استحواذهما على حرض، والرغبة في إلحاق الهزيمة بعساكر الغز، وإحراز النصر عليها من قبل المعارضين لها من قبائل المخلاف، ثم العمل على زعزعة موقفها، وتعريض وجودها في حرض للزوال. غير أن الأمور سارت إلى غير ما يهوى أبي سيفين عندما راهن بحياته وحياة ابنه على هذا الموقف الذي عده الأمير ألطنبغا متخاذلا.

أما عن وجود بني رسول في حرض، فإننا لا نعرف عنه شيئا على وجه التحقيق، بعد ذلك الانتصار الذي حققه أميرها الطنبغا على قبائل المخلاف، ومن لف لفها من القبائل المجاورة لها من الشمال، وهل كتب لهذا الوجود الاستمرار، أم أنه تعرض مرة أخرى، لرفض أهل المخلاف السليماني، ومقاومتهم التي لم تكد تنقطع طوال الفترات السابقة وكلما نعرفه بعد تلك الحادثة ما يذكره ابن حاتم من أن داعي الشرقد انقطع وأنه «لم يحدث حادث بعد ذلك».[١٠٠]

غير أن الأمير عزيز الدين نفسه لم يستمر طويلا في إمارة حرض بعد هذه الحادثة، ذلك أنه كان في سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٤ ـ ٧٥م مع العسكر الرسولي الذي سافر إلى شرق اليمن لمحاربة الأشراف الزيديين.[١٠١] ومع أن هذه الحرب انتهت بالصلح بين الرسوليين والأشراف، فإن ابن حاتم لم يشر إلى عودة الطنبغا إلى حرض، ولا حتى إلى مصيره بعد هذا الصلح. كما لم تشر المصادر التي بين أيدينا، غير كتاب ابن حاتم، إلى أي من ذلك، أو إلى أن سلاطين بني رسول عينوا أميراً آخر على حرض خلفاً لأميرها السابق. ولم تشر أيضا، لا شعراً ولا نثراً، إلى أن الأشراف الغوانم استردوا حرضاً بعد مقتل أبي سيفين، وهزيمة الاعراب المشار إليها. ومن المحتمل أن سكوت المصادر اليمنية المعاصرة لتلك الفترة أو القريبة منها، والتي تركز تركيزاً ملحوظاً على أمراء الإقطاعات يحكم

(٩٦) الملك الأشرف،طرفة الأصحاب، ص ١١٠.

(٩٧) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢١٨.

(٩٨) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢١٨.

(٩٩) ابن حاتم، السمط ص ٤٣٥

(١٠٠) ابن حاتم، السمط ص ٤٥.

(١٠١) ابن حاتم، السمط ص ٤٥٣.

أن بعض كتابها من رجال الدولة وقادة العسكر[١٠٢] يعني أن حرضا خرجت من أيديهم، وأن الغوانم تمكنوا من استردادها. كما أن شعر ابن هتيمل الذي نظم أصلا لا لتسجل الحوادث، وإنما لمديح بعض الشخصيات الذين لعبوا دوراً فيها، طمعا في نيلهم، لم يسعفنا بما يعين على إزاحة الستار عن تاريخ المنطقة التي أعقبت أحداث سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣ ـ ٧٤م.

ويبدو أن شخصيات ابن هتيمل اختفت عن المسرح السياسي للمخلاف السليماني فالقاسم بن علي الذروي توفي مقتولا في حلبة الميدان على يد شخص اسمه عاطف، لا نعرف شيئا عن انتماءاته القبلية أو السياسية[١٠٣]، وابنه محمد الصياد الذي خلفه في رئاسة عشيرته، ربما لم يبد نشاطا قياديا يحقق له المكانة التي حققها والده. وجمال الدين هاشم بن وهاس، أمير المخلاف في ذلك الوقت، لم يكن له ذكر في المصادر المتاحة، ناهيك عن اختفاء أمير باغتة، وابنه الكبير عن المسرح السياسي بوفاتهما مقتولين في وقت واحد، كما تقدم، ولا ندري من خلفهما من أهل بيتهما في زعامة عشيرتهما.

ومهما يكن من أمر، فإن وضع حرض التي غدت مثار نزاع بين السليمانيين والرسوليين على مدى حوالي نصف قرن مضى، كان مجهولاً خلال الفترة التي أعقبت مقتل أبي سيفين وابنه. ويغلب على الظن أن مصيرها كان متأرجحاً طوال تلك الفترة، وإن كان يعتقد أنها كانت بيد الرسوليين عند وفاة الملك الأشرف سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، وتولي أخيه السلطان الملك المؤيد مقاليد السلطنة بعده.[١٠٤] لأن المصادر تذكر أن الملك المسعود، أخي السلطان المؤيد، كان مقطعا على الأعمال السردديه، وأنه أظهر الخلاف على أخيه المؤيد في تلك السنة، وتوجه إلى الشمال حيث أوقع الهزيمة بأهل المَحَالِب، واستولى على حرض، وطلب العون من أشراف المخلاف السليماني ضد أخيه المؤيد، فأجابوا طلبه.[١٠٥] فربما كان استيلاؤه عليها من عمال السلطان المؤيد وليس من الغوانم، وإلا لما طلب العون منهم، ولما وجد منهم استجابة، تلك الاستجابة التي ربما ترجع إلى وعود وعدهم بها تتعلق بتمكينهم من السيطرة على حرض، إن هو انتصر على أخيه المؤيد، ووصل إلى كرسي السلطنة. ولم تقتصر استعانة الملك المسعود على أشراف المخلاف السليماني، بل وصلته جموع

---

(١٠٢) من امثلة هؤلاء الكتاب بدر الدين بن حاتم، والملك الأشرف الأول عمر بن يوسف الملك المظفر، وعماد الدين إدريس الحمزي، وتاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد، وكلهم من رجال الدولة.

(١٠٣) يفهم من بعض المراثي التي قيل في الأمير القاسم بن علي الذروي، أنه قتل على يد شخص يدعى عاطفا، من ذلك قول ابن هتيمل:

فَإنْ يُقْتَلْ عُوَيْطِفُ وهُو أدْنى ... واحْقَرُ مِنْ بُوَاءٍ بالصُّوَابِ
فَقَدْ قُتِلَ ابْنُ مُلْجِمَ فِي عَليٍّ ... وَمَا يُوفِي ابْنُ مُلْجِمَ فِي ذُبَابِ

وقوله معزيا ابنه محمد الصياد الذي خلفه في زعامة قومه:

مُحَمَّدُ لَا تَجْزَعْ لِمَصْرَعِ قَاسِمٍ ... فَمَا آفَةُ السَّادَاتِ غَيْرُ الزَّعَانِفِ
وَهَبْ فِي التَّأسِّي أنَّ قَاسِمَ حَمْزَةٌ ... فَحَرْبَةُ وَحْشِيٍّ كَحَرْبَةِ عَاطِفِ

انظر: ابن هتيم، **الديوان**، ص ص ٨٥، ٩٤. وكان القاسم قد وقع، اثناء حروب بني سليمان مع الرسوليين، في الاسر، وأودع السجن بتعز، ومكث فيه زمنا إلى أن أطلق سراحه. وينسب إليه وهو في اسر الرسوليين قوله:

مَنْ لِصَبٍّ هَاجَهُ نَشْرُ الصَّبَا ... لَمْ يزِدْهُ البَيْنُ إلاَّ نَصَبَا
وَاسِيْرٍ كُلَّمَا لَاحَ لَهُ ... بَارِقُ القِبْلَةِ مِنْ صَبْيَا صَبَا
ولِطَرْفٍ ارِقٍ إنْسَانُهُ ... دُوْنَ مَنْ يَشْتَاقُهُ قَدْ حُجِبَا

وهي قصيدة طويلة، ومن غرر قصائد شعراء المخلاف، أنظر: ابن هتيمل، **الديوان**، ص١٠؛ النعمي، **الجواهر اللطاف**، مخطوط، ص ٣٥؛ عبد الملك بن حسين العصامي، **سمط النجوم العوالي في انباء الاوائل التوالي** (القاهرة: المطبعة السلفية، دون تاريخ)، جـ٤، ص ص ٢٧٠ ـ ٢٧٣، ويذكر العصامي أن السلطان أحمد بن إسماعيل الرسولي بعث بتلك القصيدة إلى الشريف بركات بن حسن بن عجلان، أمير مكة المكرمة، مع رسالة يطلب فيها منه إفراغ دور مكة، وملاقاته في حلي بن يعقوب، فاعتبر الشريف ذلك بمثابة تهديد له، وبعث إليه بقصيدة مماثلة تتضمن كثيرا من معاني التهديد، أنظر: المصدر نفسه، ص ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(١٠٤) عن وفاة السلطان الأشرف الأول، وتولي أخيه المؤيد مقاليد السلطنة من بعده، أنظر: الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ص ٢٧٩ ـ ٢٨١، محمد عبد العال أحمد، **بنو رسول**، ص ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(١٠٥) الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ٥٨، ابن الحسين، **غاية الاماني**، جـ ١، ص ٤٧٩.

كبيرة من الجوف والجبال، ومن أنحاء مختلفة من شمال اليمن.[١٠٦] فجهز السلطان المؤيد جيشاً لحرب الملك المسعود، جعل على رأسه أخاه الملك المنصور.[١٠٧] فلما التقى الجمعان في سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م بين المحالب وحرض، أدرك الملك المسعود ألا قبل له بقتال جيش السلطان، فأذعن للصلح، وسلم نفسه، ومعه ولده أسد الإسلام، للعسكر السلطاني الذي حمله إلى تعز.[١٠٨] غير أن مصير حرض، وموقف السلطان المؤيد من بني سليمان لم يتضحا بعد هذه الحادثة، وإن كان يعتقد أنها عادت لبني رسول، خاصة أن قوات السلطان وحشوده العسكرية كانت كبيرة جدا، ولا قبل لبني سليمان بها، وأن حليفهم الملك المسعود هزم واقتيد أسيرا إلى تعز.[١٠٩] وهكذا باءت محاولة بني سليمان تلك بالفشل، وأصبح واضحاً لهم، بدعمهم للملك المسعود ضد أخيه السلطان المؤيد، أنهم وضعوا رهانهم على حصان خاسر.

غير أن هذا الفشل لم يفت في عضد حكام المخلاف السليماني، حيث قاموا في سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١ ـ ٢م بهجوم مباغت على الحامية الرسولية المرابطة في الراحة، وقتلوا مقدم الحامية خَلُبًا، وأخذوا أربعين فرسا من رتبته.[١١٠] وكان بنو رسول يحتفظون بحاميات صغيرة في بعض محطات طريق الحج إلى مكة المكرمة مثل البِرْك، وحِليْ، والسِّرِيَّنْ، إلى جانب الراحة.[١١١] وكانت هذه الحامية التي يتخذ من الراحة بوادي بيش مقرا لها، مكونة من مئة فارس، وقام بهذه الهجوم عليها فرع من الأشراف السليمانيين المعروفين ببني علي، من ذروة الذين اشتهر منهم سابقاً القائدان خالد بن علي الذروي، وأخوه القاسم بن علي الذروي اللذان أخذا على عاتقهما الدفاع عن المخلاف ضد وجود بني رسول فيه. ولما علم السلطان المؤيد بأخبار الهجوم، أصدر أوامره إلى الشريف عماد الدين إدريس الذي كان إليه إقطاع القحمة في ذلك الوقت، بالتوجه نحو المخلاف للثأر لحاميته من بني سليمان.[١١٢] وعزز القوة التي مع الشريف إدريس بعسكر من الحلقة المنصورة بالإضافة إلى مشد زبيد، وأمير حرض التي كانت بيد الرسوليين في السنة المشار إليها آنفا.[١١٣] فسارت العساكر السلطانية إلى الراحة، وتمكنوا من دخولها في آخر السنة المذكورة، وطردوا عساكر بني سليمان، وتبعوهم إلى اللؤلؤة، الشُّقَيْق حاليا، وأجبروهم على طلب الصلح[١١٤]، فتم لهم ذلك على أن يعيدوا الخيل التي أخذوها من الرتبة، ويسمحوا لبني رسول الإبقاء على حامية رمزية لهم في الراحة، ولكن ليس تحت قيادة زعيم من الغز، وإنما بقيادة شريف من بني سليمان ينوب فيها عن السلطان.[١١٥] فعاد العساكر السلطانية بعد أن تسلم الراحة منهم الشريف علي بن

(١٠٦) الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ٥٨، الكبسي، **اللطائف السنية**، ص ٩٣.

(١٠٧) ابن عبد المجيد، **بهجة الزمن**، ص ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(١٠٨) الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ٢٨٥؛ الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ٥٨.

(١٠٩) عماد الدين إدريس الحمزي، **كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار**، مخطوط (مكتبة المتحف البريطاني، رقم ٤٥٨١)، ورقة ١٩٣؛ ابن عبد المجيد، **بهجة الزمن**، ١٠٧.

(١١٠) الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ٢٩٤.

(١١١) السُّرَيْن: موقع إسلامي أثري على ساحل البحر الأحمر، بينه وبين مكة المكرمة حوالي ٢٤٠كم، وحلي: واد وموقع يعرف بحلي بن يعقوب إلى الجنوب من السرين بحوالي مائة كيلومتر، والبرك: إلى الجنوب من حلي بحوالي خمسين كيلو مترا. تعاطف حكام هذه المواقع مع بني رسول في حروبهم ضد الأيوبيين؛ انظر: أحمد الزيلعي، «المواقع الإسلامية المندثرة بوادي حلي» **حوليات كلية الآداب**، الحولية ٧، الرسالة ٣٩ (الكويت: جامعة الكويت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص ص ١١ ـ ٢٣، الزيلعي «بنو حرام»، ص ص ١٠٩ ـ ١١٠، راجح بن قتادة، «حاكم السرين» ص ص ٢٥ ـ ٢٨،

Al- Zaila'i, "The Southern Area", 94-171, 471, -482.

(١١٢) عماد الدين إدريس، **كنز الأخيار**، مخطوط، ورقة ١٩٤؛ الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، جـ١، ص ٢٣٠.

(١١٣) ابن عبد المجيد، **تاريخ اليمن**، ص ص ١١٢ ـ ١١٣؛ الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ٢٩٤؛ الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ٨٩.

(١١٤) عماد الدين إدريس، **كنز الأخيار**، مخطوط، ورقة ١٩٤؛ العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ ١، ص ٢٢١.

(١١٥) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، جـ ١، ص ٢٣٠؛ الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ٨٩؛ العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ ١، ص ٢٢١.

سليمان بن علي نيابة عن السلطان الملك المؤيد.[١١٦] ومن المحتمل أن موقف بني سليمان من الحامية الرسولية بالراحة ليس سببه وجود الحامية نفسها، بقدر ماهو وجود شخص غريب عنهم على رأسها، هو المقدم خطلبا، أما عندما قبل العسكر الرسولي بوجود شريف منهم على رأسها نيابة عن السلطان، فإن بني سليمان لم يجدوا غضاضة في ذلك «وتخلوا عن الراحة» كما يقول عماد الدين إدريس قائد الحملة الرسولية التي قدمت للثأر لمقتل المقدم خطلبا.[١١٧]

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الهزيمة التي مني بها بنو سليمان في عقر دارهم على يد الرسوليين، كانت من أولى الهزائم، وأكثرها وضوحا في المصادر التاريخية الميسورة منذ خروج الأيوبيين من اليمن، ووصول بني رسول إلى السلطة في سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠ ـ ٣١م. كما أنها فرضت أمراً وقعاً، هو القبول بوجود حامية أجنبية ترابط على أرضهم، حتى ولو كان وجود هذه الحامية مشروطا ببقائها تحت قيادة شريف منهم، وكانت مهمتها لا شأن لها بالوضع الداخلي لمنطقة جازان، وإنما لحفظ الأمن في طريق الحج والتجارة بين مكة المكرمة واليمن، وكذلك تحسبا لأي غزو خارجي يأتي اليمن عن طريق الحجاز ولاسيما من مصر التي كانت علاقة سلاطينها في تلك الفترة مع بني رسول على غير مايرام.[١١٨]

وعلى الرغم من تلك الهزيمة التي حلت ببني سليمان بعد قتلهم المقدم خطلبا، والصلح الذي تم بينهم وبين خصومهم الرسوليين، فإن قبائل المخلاف لم يكفوا عن التعرض لبني رسول، ولرجالهم في حرض، وفي خارجها، ففي سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤ ـ ٥م، اعترضت قبيلة جهينة، وهي من القبائل العربية المشهورة التي كانت بعض فخوذها تقطن سواحل منطقتي جازان والقنفذة حتى اليوم،[١١٩] عساكر الرسوليين المرافقة لموسى بن أبي بكر بن علاء الدين في أثناء عودته من مدينة البرك، بعد أن قام بتعمير أسوارها، إثر الإشاعات التي وصلت إلى اليمن في أواخر سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٤م، عن وصول عساكر مصرية ضخمة إلى مكة المكرمة، وخوف الرسوليين من أن تكون هذه العساكر موجهة ضدهم.[١٢٠] وكان برفقة العساكر الرسولية، الشريف طاهر بن أبي نمي قاصداً السلطان المؤيد.[١٢١] فتمكنت هذه القبيلة من إلحاق الهزيمة بالعساكر السلطانية بالقرب من اللؤلؤة ـ الشقيق حاليا ـ وقتل الشريف طاهر والاستيلاء على أثقالهم ودوابهم[١٢٢]. وقد مرت هذه الحادثة دون أن يكون هناك أي رد فعل يذكر من جانب بني رسول، في حدود ما وصل إلى علمي. ولعل عدم وجود رد فعل رسولي على تلك الحادثة أو تأخره، جرأ قبيلة أخرى من قبائل المخلاف هي قبيلة النُّجُوْع على مهاجمة ناحية حرض في سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧ ـ ٨م، ولكن رد فعل بني رسول كان سريعا هذه المرة، حيث جرد السلطان نحوا من ثلاثمائة فارس من حلقة المنصورة، وبعثهم إلى حرض، فتمكنوا من الإغارة على النجوع، وتشتيت شملهم.[١٢٣] وليس معروفاً في المصادر الميسورة إن كانت هذه الغارات موجهة من قبل أمراء منطقة جازان في ذلك الوقت، أم أنها كانت مغامرات قبلية غايتها السلب والنهب. كما أنه من غير المعروف إن كانت حرض بيد والى من قبل بني رسول في أثناء غزو النجوع لها، أم أنها كانت في يد غيرهم؛ لأن عهدنا بآخر أمير عين عليها من قبل بني رسول، ويدعي ابن بهرام، كان قبل غزو النجوع لها بسنتين،

---

(١١٦) عماد الدين إدريس، **كنز الأخيار**، مخطوط، ورقة ١١٩٤؛ ابن عبد المجيد، **بهجة الزمن**، ص ١١٣؛ الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، جـ ١.

(١١٧) عماد الدين ادريس، **كنز الأخيار**، مخطوط، ورقة ١١٩٤.

(١١٨) عن علاقة المماليك ببني رسول في تلك الفترة، أنظر: محمد عبد العال أحمد، **إحياء الخلافة العباسية**، ص ٦٦ والصفحات التي بعدها.

(١١٩) انظر البلادي، **بين مكة واليمن**، ص ١٧٢.

(١٢٠) عماد الدين إدريس، **كنز الأخيار**، مخطوط، ورقة ١٩٥ب؛ الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، جـ١، ص ٣٤٩.

(١٢١) الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦؛ ابن الحسين، **غاية الأماني**، جـ ١، ص ٤٨٥.

(١٢٢) عماد الدين إدريس، **كنز الأخيار**، مخطوط، ورقة ١٩٥ب؛ الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، جـ١، ص ٣٦٠.

(١٢٣) عماد الدين إدريس، **كنز الأخيار**، مخطوط، ورقة ١١٩٦؛ الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ٣١٠.

أي في أوائل سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م،[١٢٤] وربما جاء رداً على ذلك التعيين.

خروج حرض واقتصار نفوذ الغوانم على منطقة جازان

لعل مما تجدر الإشارة إليه، أن جميع المصادر التاريخية المتاحة، ومعظمها مصادر يمنية رسمية، تغفل الإشارة إلى أسماء الأمراء السليمانيين. (الأمراء الغوانم) طوال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، كما تغفل الأحداث المتعلقة بمنطقة جازان إلا في حدود ما يتصل منها بسلاطين بني رسول. وهذه الأحداث على قلتها، فإن هذه المصادر - وبالرغم من معاصرة بعض مؤلفيها لها - لا تشير في ثناياها إلى أمراء جازان بالاسم، وإنما بالإشارة فقط إلى مناصبهم كقولها: «أمير جازان» أو «صاحب جازان» أو إلى فئاتهم مثل: الأشراف السليمانيين أو «أشراف المخلاف السليماني» أو «أهل المخلاف السليماني» وما يتفرع عن هذه الفئات الكبرى من فئات أصغر منها، كالإشارة إلى أسماء بعض القبائل، أو العشائر، سواء من الأشراف أو من غيرهم، مع أنه في حكم المؤكد أن إمارة منطقة جازان ظلت متصلة في أسرة الغوانم، يتوارثونها كابرا عن كابر حتى أواخر ذلك القرن، حيث انتقلت منهم إلى أسرة آل قطب الدين، وهم أيضا من الغوانم، ولكنهم اشتهروا بنسبتهم إلى جدهم الأقرب، الأمير خالد بن قطب الدين الذي سنأتي إلى ذكره فيما بعد.[١٢٥] والواقع أن عدم ذكر هؤلاء الأمراء بأسمائهم في الأحداث المتعلقة بمنطقة جازان، أو المخلاف السليماني، أو بتلك المتصلة ببني رسول - تجعل الباحث يجد صعوبة في الجزم بأن الإمارة كانت، عند وقوع هذه الأحداث، في هذا الأمير أو ذلك، بالرغم من توافر أسماء أفراد هذه الأسرة من خلال سلسلة نسبهم الطويلة والثابتة في المصادر التي عنيت بأنساب الأشراف السليمانيين والتي سبقت الإشارة إليها.

أما حرض التي كانت مثار نزاع حروب بين الأشراف الغوانم وسلاطين بني رسول حتى انسلاخ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر للميلاد، فإن وضعها في الفترة التالية مختلف عن ذي قبل، إذ أن القرن الثامن الهجري /الرابع عشر للميلاد شهد تتابعاً متقطعاً لولاتها من قبل بني رسول[١٢٦]، في الوقت الذي اختفت فيه محاولات الغوانم للاستيلاء عليها، أو على الأقل، لم تصل إلينا تلك المحاولات التي تمت من جانبهم، مما يعني أنها خرجت من أيديهم، وأنهم قنعوا فقط بسيطرتهم على منطقة جازان. كما إن ازدياد عصيان القبائل القاطنة فيما يعرف باسم الجهات الشامية، وهي سِهَام، وسُرْدد،

(١٢٤) انظر: عماد الدين إدريس، **كنز الأخيار**، مخطوط، ورقة ١٩٥ب؛ كان في حرض أمير من قبل بني رسول في سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤ - ٥م، ثم غادرها إلى صعدة مددا لأحد قادة بني رسول هناك. وفي سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥ - ٦م، كان فيها مقدم ورتبة من قبل بني رسول، ومع ذلك دخلها الأشراف الزيديون بقيادة آل شمس الدين في السنة نفسها، ونهبوها ثم رجعوا منها من فورهم، ولا ندري هل عَيَّن فيها الرسوليون من يدير شؤونها بعد ذلك، أم أنها بقيت بدون والٍ، مما أغرى بها أهل المخلاف السليماني على النحو الذي سبق شرحه. انظر: الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ٣٠٧؛ ابن الحسين، **غاية الأماني**، جـ ١، ص ٤٨٥.

(١٢٥) تذكر المصادر التي عنيت بتاريخ المخلاف أن آخر الأمراء الغوانم هو الأمير المقلم، ومنه انتقلت الإمارة إلى فرع آخر من فروع الأشراف الغوانم، يعرف بآل قطب الدين، أو الأمراء آل قطبة. انظر: النعمان، **العقيق اليماني**، مخطوط، ص ١٢٨؛ الحسن بن أحمد المعروف بعاكش، **الذهب المسبوك في ذكر من تولى المخلاف السليماني من الملوك**، مخطوط (جامعة الملك سعود، مجموعة العقيلي)، ص ١١؛ النعمي، **الجواهر اللطاف**، مخطوط، ص ٣٢. ويذكر العقيلي أن المُقَلّم هو وهاس بن سليمان، ونحن نعتقد أن هذا غير صحيح، لأن وهاس بن سليمان، وفد على المظفر في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، والمقلم تسلم منه القطبيون حكم الإمارة في نهاية القرن الثامن، أو أوائل القرن التاسع الهجريين، وبينهما أكثر من قرن من الزمان، إلا أن يكون المقلم مقلما آخر، أو وهاس بن سليمان غير وهاس الذي وفد على المظفر. انظر: العقيلي **المخلاف السليماني**، جـ ١، ص ٢٠٨؛ وأنظر أيضا: النعمي، **الجواهر اللطاف**، مخطوط ورقة ١٢١ - ١٣٢.

(١٢٦) عن بعض ولاة حرض من قبل بني رسول في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر للميلاد، انظر: الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ٣٦١، ٣٧٨، ٣٨٨، ٤١٤؛ ابن الحسين، **غاية الأماني**، جـ٢، ص ص ٥١٨ - ٥١٩، ٥٢٣.

ومَـوْر، ورَخْبَان،(١٢٧) طوال الفترات التالية من عهد بني رسـول ثم عهـد بني طاهر من بعدهم، جعلت منطقة حرض مهدا للخارجين على السلطنة والطامعين في ملك تهامة اليمن ونقطة انطلاق للأئمة الزيدية في صراعهم ضد بني رسول.(١٢٨) وقد ساعد هذا الوضع أمراء منطقة جازان على الاحتفاظ باستقلالهم، بعيدا عن تدخلات سلاطين اليمن في شؤونهم الداخلية، بل إن هذا الوضع ربما وجد تشجيعا منهم بدليل تقديم العون من حين لآخر إلى بعض الخارجين على سلطة زبيد وتعز، كما سيأتي وهكذا، فإن الوضع الجديد في حرض ربمـا أصبح بالنسبة للغوانم يشكل حاجزاً بينهم وبين المناطق التي تقع تحت سيطرة بني رسول من جهة، وبين المشكلات التي تثيرها قبائل الجهات الشامية من جهة أخرى.

لكون منطقة حرض خرجت في هذه الفترة من يد بني سليمـان، فإننا سنضرب صفحا عن الأحداث التي دارت عليها إلا ما كان له علاقة بمنطقة جازان. وأهلهـا، وأمـرائها الغوانم. ويتصل بخروج حرض أيضـا من قبضـة الأشراف الغوانم إلى قبضة بني رسول أو الأئمة الزيدين، هو أن يقتصر منهجنا على استخدام «منطقة جازان» فقط فيما يلي من صفحات هذا البحث للدلالة على المنطقة التي نعني بدراستها، بدلا من المخلاف السليماني الذي يعني هذه المنطقة بالإضافة إلى ناحية حرض اللتين كانتا معاً تشكلان ما يعـرف تاريخيـا باسم المخلاف السليماني، كما عرضنا لذلك سابقا.

وعلى أية حال، فإن الأشراف الغوانم، حكام منطقة جازان، الذين تسكت المصادر التاريخية عن ذكرهم حوالي عشرين عامـاً، مالبثـوا أن ظهروا على مسرح الأحـداث بعـد وفـاة الملك المـؤيـد سنـة ٧٢١هـ / ١٣٢١م، وانتقـال عرش السلطنـة إلى ابنه الملك المجاهد، علي بن داود بن يوسف بن عمر بن رسول الذي لم تكن الأوضاع مستقرة له باليمن في أوائل عهده ـ(١٢٩) حيث اشترك الأشراف السليمانيون، مع قوات أخـرى مستـرزقة من الأشراف الحمزيين، في قتـال العساكر المناوئة للسلطان المجاهد، ومعظمهم من المماليك الذين كانوا يشكلون القوة الضاربة في جيوش سلاطين بني رسول، والذين خرجوا هذه المرة على السلطان المجـاهـد منـاصرين لابن عمـه الملك الظاهر لكرهيتهم للمجاهد، ولبغضهم لبعض رجاله الذين أسـاءوا التصرف مع المـماليـك.(١٣٠) وكـان اشـتـرك الأشراف السليمانيـون والحمزيين في هذه الأحداث التي وقعت في سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م، بناء على طلب من أنصـار السلطان الملك المجـاهد، وفي مقدمتهم قائده الزعيم بن الافْتِخار، واثنان من أبناء أخي السلطان نفسـه، همـا الملك المفضـل شمس الديـن، والملك الفـائـز قطب الديـن.(١٣١) فالتقى الأشراف السليمـانيـوين والحمـزيـون بالعسـاكـر المملوكيـة في موقع اسمه جَاحِف بوادى سِهَام، في شهـر ذي الحجة من السنة المذكورة، وتمكنوا من هزيمة المماليك، وقتل خيار قادتهم، وهددوا بالزحف على مدينة زبيد نفسها.(١٣٢) غير أن فلول المماليك، عندما أحسوا بانفلات الأمر من أيديهم، أخذوا من

(١٢٧) عن تلك الجهات وعصيـان قبـائلها انظر: الخزرجي، **العقد الفاخر**، مخطوط، ورقة ١٧ب، ورقة ١١٨، ورقة ١١٤٨، وفي أماكن متعددة: **العسجد المسبوك**، ص ص ٣٤٩، ٣٦٢، ٣٧٧، ٣٩٥ ـ ٤٠٠، ٤٠٦، ٦١٣ ـ ٦١٤.

(١٢٨) عن بعض محاولات الأئمة الزيدية تهديد المناطق الرسولية عن طريـق حرض، انـظر: الخـزرجـي، **العـسـجـد المسبـوك**، ص ص ٣٧٠، ٤١٤، ٤٥٢، ٤٥٥ ـ ٤٥٩؛ الكبسي، **اللطائف السنية**، ص ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(١٢٩) عن انتقـال السلطنة من الملك المؤيد إلى ابنه المجاهد، وعدم استقـرار الأوضـاع للأخـير في أول عهـده، انظر: الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ص ٦٥ ـ ٧٧؛ أبو محمد عبد الله الطيب بامخـرمـة، **تاريـخ ثغر عدن**، (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٣٦م)، ص ١٣٩ ومـابعـدهـا؛ محمـد عبـد العال أحمد، **بنو رسول**، ص ص ١٨٥ ـ ١٩٩.

(١٣٠) انـظر: ابن عبـد المجيد، **بهجة الزمن**، ص ١٤٠؛ بامخرمة، **تاريـخ ثـغـر عدن**، ص ١٥٠؛ العقيـلي، **المخلاف السليماني**، جـ١، ص ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤.

(١٣١) ابن عبد المجيد، **بهجة الزمن**، ص ١٤٥؛ ابن الأهدل، **علماء اليمن**، مخـطوط، ورقـة ١٣٠١؛ الديبـع، **قرة العيون**، جـ ١، ص ص ٧٢ ـ ٧٣.

(١٣٢) الخـزرجي، **العقود اللؤلؤية**، جـ ٢، ص ٢٣؛ ابن الأهدل، **علمـاء اليمن**، مخـطوط، ورقـة ١٣٠١؛ العقيـلي، **المخـلاف السليماني**، جـ ١، ص ٢٢٣.

جديد يعيدون جمع شتاتهم، وتعزز موقفهم بوصول مماليك آخرين قدموا عليهم من تعز، ثم التقوا بالأشراف قرب مدينة بيت الفقيه، فأبرم الفريقان بينهما صلحا يدفع المماليك بمقتضاه مبلغ عشرين ألف دينار للأشراف، مقابل تركهم وشأنهم.(١٣٣)

ولا نعرف شيئا عن الموقف بعد هذا الصلح بين العساكر الرسولية من جهة وقوات الأشراف السليمانيين والحمزيين من جهة أخرى، ففي حين اخذ الأخيرون يهددون الوجود الرسولي في حرض والمهجم وحتى في زبيد نفسها(١٣٤)، استكان الأشراف الغوانم، ولم نسمع عنهم إلا في سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م، عندما اعترض أمير جازان حجاج اليمن، وهم في طريقهم إلى مكة المكرمة، وطالبهم فوق ما اعتادوا على دفعه من المكس، وبالغ في طلبه، فلم يسعهم إلا الرجوع دون تأدية الحج.(١٣٥) فلما علم السلطان المجاهد بما أقدم عليه أمير جازان تجاه الحاج اليمني، سار إليه في عساكره. ولما وجد أمير جازان ألا قبل له بمواجهة العساكر السلطانية تحاشى تلك المواجهة، وهرب من جازان، فأخرب السلطان بلاده، وقطع موارده، وعاد أدراجه إلى اليمن.(١٣٦)

ويتضح من هذه الحادثة أن أمراء جازان كانوا يحصلون على ضرائب من الحجاج اليمنيين لقاء مرورهم ببلادهم، وربما خفارتهم، وتوفير الأمن لهم حتى يخرجوا من مناطق نفوذهم في رحلتي الذهاب والعودة: كما يتضح منها أن أمراء جازان يصعب إخضاعهم لسيطرة بني رسول، أو وقوعهم في أيديهم، وذلك لقدرتهم على الهروب من بلادهم عندما تداهمهم الأخطار، ولم يكن في مقدورهم مواجهتها والتغلب عليها، وعادة ما يكون هروبهم إلى الجبال الشرقية القريبة منهم أو إلى أطراف الحجاز حيث تلك الجهات الخاضعة لسيطرة بني عمهم أشراف الحجاز من آل قتادة.(١٣٧) ثم سرعان ما يعودوا إلى إمارتهم عندما ينسحب الأعداء وتنجلي الأخطار عن بلادهم. وهذا بطبيعة الحال يبرر قدرتهم على البقاء في إمارة منطقة جازان، أو المخلاف السليماني قبل ذلك، دون أن يقضى عليهم رغم التغيرات السياسية التي كانت تجري قريباً منهم على الساحة اليمنية، طوال القرون الماضية.

ومهما يكن من أمر، فإن السنوات التالية من هذا القرن شهدت عدم استقرار سياسي في المناطق المعروفة بالجهات الشامية، وهي سردد، وسهام، ومور، ورحبان، وغيرها من تلك الجهات التي تمتد من حرض شمالا إلى مدينة زبيد جنوبا، وذلك بسبب ثورات قبائل المَعَازِبة والقرشيين المناوئة لبني رسول حتى فقد الأخيرون السيطرة على هذه المنطقة التي أصبحت كلها خرابا فيما عدا زبيد وحرض.(١٣٨) ونتج عن عدم الاستقرار في هذه المناطق خروج بعض الطامعين في الملك على سلطة بني رسول، فضلا عن تجرؤ بعض الأئمة الزيديين على غزو مناطق نفوذ بني رسول في تلك الجهات، متخذين من حرض محطة للوصول إليها كما أسلفنا. ووجود بنو سليمان أنفسهم متورطين في هذه الأحداث، حينما قدموا في سنة ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م، عونا للشريف علي بن محمد

(١٣٣) ابن الأهدل، **علماء اليمن**، مخطوط، ورقة ١٣٠أ؛ **العقيلي، المخلاف السليماني**، جـ ١، ص ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(١٣٤) انظر: ابن عبد المجيد، **بهجة الزمن**، ص ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

(١٣٥) الخزرجي، **العقد الفاخر**، مخطوط، ورقة ١٦ب؛ الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ٨٤.

(١٣٦) الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧؛ الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ٨٤.

(١٣٧) ملك آل قتادة الحجاز منذ سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م عندما تمكن قتادة بن إدريس الحسني من طرد الشريف مكثر، آخر الأمراء الهواشم من مكة المكرمة، وأسس لأسرته حكما وراثيا بها. انظر: تقي الدين محمد بن احمد المكي الفاسي، **شفاء الغرام باخبار البلد الحرام**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، جـ ٢، ص ٣١٥ والصفحات التي بعدها؛ نجم الدين عمر بن فهد، **إتحاف الورى باخبار ام القرى**، تحقيق فهيم شلتوت، ط ١ (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، جـ ٢، ص ص ٥٦٦ ـ ٥٦٧؛ العصامي، **سمط النجوم العوالي**، جـ ٤، ص ٢٠٨ والصفحات التي بعدها؛ رتشارد مورتيل، **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي** (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص ٣٦ والصفحات التي بعدها.

(١٣٨) انظر: الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، جـ ٢، ص ١١٤ والصفحات التي بعدها؛ محمد عبد العال أحمد، **بنو رسول**، ص ٣٠٦

المعروف بابن الجارية كالذي قدم إلى تهامة متظاهرا بتقديم العون للسلطان المجاهد في إخماد الثورات والفتن المناوئة له في تلك المناطق.(١٣٩) فعسكر بالمحالب، وهجم على مقدم الغز بها، وقتله، ونهب ما في داره، ثم تقدم إلى المهجم، فاستعان أميرها بالأمير وهاس بن أحمد (ت ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م)، وكان يومئذ مسؤولا عن حَارَة وادي مور، فتقدم وهاس لمساعدة أمير المهجم ضد علي بن محمد بن الجارية في مائتين وأربعين فارساً من رجاله، ولكن ابن الجارية قتل الأمير وهاس وهزم من معه من الفرسان.(١٤٠) وظهر جليا عجز العساكر الرسولية عن صد ابن الجارية ومن معه من الأشراف الحمزيين، وأهل المخلاف السليماني، لولا أن قبائل المعازبة والقُحَرية والمَقَاصِرة والزيديين، وقفوا في وجه الشريف علي بن محمد بن الجارية، ومن معه، وأجبروهم على الانسحاب من المهجم والعودة إلى المخلاف السليماني، حيث انتهبت هذه القبائل المتحالفة ضد ابن الجارية، وأهل المخلاف، مدينة المَهْجَم وأحرقتها.(١٤١) وهكذا نجحت هذه القبائل التي تعارضت مصالحها في الثورة على بني رسول مع مصالح الشريف علي بن الجارية، ومن لف لفه من أهل المخلاف، في القضاء على مطامع الأخيرين في السيطرة على الجهات الشامية، والتقدم إلى مدينة زبيد.

ولكن هذه الأحداث، وعدم الاستقرار السياسي في الجهات الشامية، مهدت السبيل لثورة أمير حرض من قبل الرسوليين، الشريف نور الدين محمد بن ميكائيل على السلطان الرسولي الملك المجاهد في سنة ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م، حيث تمكن الثائر الجديد من مد سيطرته على الجهات الشامية من تهامة، وأعلن نفسه سلطانا بها، وضرب السكة باسمه.(١٤٢) ولم يتمكن بنو رسول من القضاء على ثورة ابن ميكائيل إلا بعد وفاة السلطان الملك المجاهد في جمادي الأولى سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م، وانتقال السلطنة إلى ابنه عباس الملقب بالملك الأفضل.(١٤٣) وكان لزاما على السلطان الجديد، الملك الأفضل، الذي خلف والده المجاهد في السلطنة، والذي تهدد الثورات ملكه من مختلف الجهات، فضلا عن تمرد إخوانه عليه ـ أن ينهض للقضاء على تلك الثورات، وفي مقدمتها ثورة ابن ميكائيل التي خضعت لها جميع الجهات الشامية، وأصبحت تشكل خطراً يهدد مدينة زبيد، العاصمة الثانية لبني رسول.(١٤٤) فأخذ السلطان يجرد الحملة تلو الأخرى على ابن ميكائيل، حتى تمكنت آخر تلك الحملات بقيادة فخر الدين زياد بن أحمد الكاملي من إنزال الهزيمة بابن ميكائيل بمدينة القَحْمَة اليمنية في جمادي الأولى سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٤م، واستولت القوات الرسولية على الجهات الشامية وحرض التي فر منها ابن ميكائيل إلى صعدة ملتجئا بالإمام الزيدي، الناصر لدين الله صلاح الدين بن علي بن محمد (ت ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م).(١٤٥)

ويبدو أن الأشراف الغوانم دعموا ثورة ابن ميكائيل المذكورة ضد بني رسول، بدليل اختلافهم مع أمير حرض المعين من قبل السلطان الملك الأفضل، واسمه بهاء الدين الظفاري، حيث بلغ هذا الخلاف ذروته سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م، مما أعطى الذرائع لإمام الزيدية لإرسال جيش من قبله بقيادة الأمير إبراهيم بن يحيى المهدي، وبصحبته الأمير محمد بن ميكائيل، فتمكن هذا من احتلال حرض، وطرد واليها من قبل بني رسول.(١٤٦) ثم تابع الأشراف زحفهم نحو الجنوب فاستولوا عل مدينة المهجم والكَدْراء والقحمة، وفرضوا حصارا شديداً

(١٣٩) العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ ١، ص ٢٢٨.

(١٤٠) الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ٤٠٢.

(١٤١) الخزرجي، **العقود اللؤلوية**، جـ ٢، ص ١١٣؛ العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ ١، ص ٢٢٨.

(١٤٢) الخزرجي، **العقد الفاخر**، مخطوط، ورقة ١١٤٨؛ الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ٩٠.

(١٤٣) عن وفاة السلطان الملك المجاهد، وانتقال السلطنة إلى ابنه عباس الأفضل، أنظر: ابن تغري بردي، **حوادث الدهور**، جـ ٢، ص ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧؛ محمد عبد العال أحمد، **بنو رسول**، ص ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(١٤٤) الخزرجي، **العقد الفاخر**، مخطوط، ورقة ١١٤٨.

(١٤٥) الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ص ٤١١ ـ ٤١٣؛ محمد عبد العال أحمد، **بنو رسول**، ص ٢١١.

(١٤٦) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، جـ ٢، ص ص ١٤٠ ـ ١٤١؛ الكبسي، **اللطائف السنية**، ص ٩٩؛ العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ ١، ص ٢٣٠.

على مدينة زبيد.[١٤٧] ولكن قوة تحصينات المدينة، واستبسال المدافعين عنها، أجبرت القوات الغازية على رفع الحصار عنها، والعودة إلى حرض، وبصحبتها في الأسر الأمير فخر الدين زياد بن أحمد الكاملي الذي أشرنا، في موضع سابق، إلى هزيمته لابن ميكائيل في القحمة سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٤م. وحينما وصل الأشراف إلى مدينة حرض، أطلق قائدهم سراح الأمير فخر الدين الكاملي لنراه مرة أخرى في الأحداث التي سيرد ذكرها أدناه.[١٤٨]

ففي سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧١ ـ ٢م، كانت حرض بيد السلطان الملك الأفضل، وكان يليها من قبله الأمير فخر الدين زياد بن أحمد الكاملي المار ذكره، فتجدد الخلاف، مرة أخرى، بين الأخير والأشراف، حيث نزل الأمير نور الدين محمد بن إدريس الحمزي في جماعة من الأشراف الزيديين إلى حرض، وبصحبتهم نور الدين محمد بن ميكائيل، خصم بني رسول السابق، فتمكن هؤلاء من طرد الأمير فخر الدين الكاملي الذي فر إلى السلطان الأفضل مستنجداً به ضد القوى الغازية، فأمده السلطان بعساكر كثيرة، وتوجه بهم إلى المهجم، حيث التقى بالأشراف، وتمكن من هزيمتهم، وقتل زعيمهم الأمير محمد بن إدريس، ومائة من رجاله، ثم سار إلى حرض ليتولى إمارتها من جديد.[١٤٩] وما كاد يستقر بها حتى تعرض لمضايقات أمراء جازان، وانضم إليهم في ذلك أهالي المخلاف السليماني الذين أظهروا معارضتهم للأمير فخر الدين الكاملي.[١٥٠] فما كان منه إلا أن توجه على رأس عساكره إلى جازان لمحاربة أهلها، فوصل إليها في شوال من السنة المذكورة، وتمكن من التغلب عليهم، وقتل جماعة من رجالهم، وأجبرهم على طلب الصلح، فتم لهم ذلك، وعاد الأمير الكاملي أدراجه إل مدينة حرض.[١٥١]

وتجدر الملاحظة أن معظم حملات بني رسول التي شنت على منطقة جازان، وضد أمرائها من الغوانم، كانت تنتهي بالصلح، وعودة قادة تلك الحملات بعساكرهم إلى اليمن، مما يدعو إلى الاعتقاد أن غايتها فقط الحد من محاولات أمراء جازان المتكررة للسيطرة عل منطقة حرض، أو الثأر منهم لتعدياتهم على مناطق النفوذ الرسولي في الجهات الشامية، ومساعدتهم لأعدائهم والخارجين على سلطتهم أو ما يقع منهم من التعرض للحجاج اليمنيين، وهم في طريقهم إلى مكة المكرمة، ولم تكن غايتها السيطرة على منطقة جازان، وإقصاء حكامها الشرعيين من الغانم، وإلا لفعلوا ذلك منذ عهد السلاطين الأقوياء أمثال: السلطان الملك المنصور، وابنه السلطان المظفر يوسف بن عمر، وحتى السلطان المؤيد، وغيرهم من السلاطين الأقوياء الذين ربما كانوا يبنون اعترافهم باستقلال هذه الإمارة على الواقع التاريخي والجغرافي الذي جعلهم يحافظون على استقلالهم طوال القرون، على الرغم من تبدل الأوضاع السياسية، وتغيرها على الساحة اليمنية المجاورة لهم. ويعتقد أن الصلح بين الفريقين كان يتم في كل مرة بناء على ضمانات يقدمها السليمانيون لبني رسول بعدم العودة إلى أي من الأمور التي أوجبت غزو الرسوليين للمخلاف، أو لمنطقة جازان، فما يكاد ينجلي الخطر، وتعود العافية حتى يعاود أهالي المخلاف، وأمراؤهم تحرشاتهم بالمناطق التي كانت تحت النفوذ الرسولي. ومما له دلالته في هذا الشأن، أنه لم تكد تمضي خمس سنوات على حركة الأشراف السابقة حتى خرج الشريف محمد بن سليمان بن مدرك بنواحي حرض في جمادي الأولى سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م؛ وليس من المؤكد عما إذا كان ابن مدرك هذا من الأشراف الذين ربما كان من بينهم بعض السليمانيين، حيث عملوا على طرد

(١٤٧) الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ص ٤١٨ ـ ٤٢٣؛ محمد عبد العال أحمد، **بنو رسول**، ص ٢١٤.

(١٤٨) ابن الحسين، **غاية الأماني**، جـ ٢، ص ص ٥٢٠ ـ ٥٢٣؛ الكبسي، **اللطائف السنية**، ص ١٠٠

(١٤٩) الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ٤٢٥؛ الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ١٠١؛ ابن الحسين، **غاية الأماني**، جـ ٢، ص ٥٢٣.

(١٥٠) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، جـ ٢، ص ١٥٠؛ الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ١٠١.

(١٥١) الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ٤٢٦؛ الديبع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ١٠١.

أمـيرهـا من قبل الرسوليين، الأمير ركن الدين عبد الرحمن بن الهمام.[١٥٢] فرد زعماء بني رسول على ذلك بإرسال قوات من جانبهم، تهدف إل وضع حد لحركة الأشراف، وإلى منعهم من تهديد نفوذ السلطنة داخل اليمن. فحصلت المواجهة بينهم وبين العساكر الرسولية في وادي رحبان بالقرب من مدينة حرض، حيث قتـل محمـد بن سليمان بن مدرك، وقتل معه جماعة من الأشراف الذين قطعت رؤوسهم وحملت إلى زبيـد، ومن ثم إلى تعز.[١٥٣] وعلى الرغم من أن الأشراف نصبوا زعيما جديدا عليهم هو سيف الدين يوسف بن يوسف، فإنــه من غير المحتمـل أن هذا الزعيم الجـديد واصل الثورة، وذلك بسبب الفشل الذريع الذي منيت به في بدايتها، والذي تمخض عن قتـل قائـدها مع صفوة من رجاله، كما أنه من غير المحتمل أن بني رسول توغلوا ناحية الشمال في اتجاه جازان بسبب وفـاة الملك الأفضـل بعد ذلك بحوالي شهـرين في شوال من السنة نفسها، وانشغال ابنه وخليفته عباس، الملقب بالأشرف الثاني (ت ٨٠٣/ ١٤٠٠م)، بشن حملاته على الثائرين عليه من قبائل المعازبة في الجهات الشامية، تلك القبائل التي كانت جهاتهم تشكل مناطق عازلة بين المراكز التابعة لبني رسول وبين منطقة جازان.[١٥٤] ويغلب على الظن أن علاقـات السلطان الرسـولي، الملك الأشرف الثاني، بأمـير جازان، ربمـا كانت حسنة، بدليل أن الأخير أرسل، على سبيل الإهداء، ستة رؤوس من الخيل إلى الملك الأشرف الثاني عندما كان مقيما في المحالب سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م، في أثنـاء جولاتـه المتكـررة في الجهات الشامية[١٥٥]، وذلك على عكس ماكانت عليه في عهـد والده السلطان النـاصر أحمد بن الأشرف الثاني (ت ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م) الذي تولى السلطنة بعـد وفـاة والده في ربـيـع الأول سنـة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م،[١٥٦] حيث أقدم أمير جازان على شن حملة على مدينـة حرض، وانتـزعهـا من الرسـوليين سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٨٣ ـ ٤م.[١٥٧] وبذلك تدخل حرض مرة أخـرى تحت نفـوذ الأشراف الغـوانم، وتعـود إلى المخـلاف السليمـاني وحـدتـه التي افتقـدها منذ انسلخت عنه حرض قبل حوالي قرن من الزمان.

يتضح مما تقدم أن حكم الأشراف السليمانيين للمخلاف السليماني كان قائما عند وصول سلاطين بني رسول إلى الحكم، وأن وجود الأشراف بالمخلاف، وحمهم له، لم يقض عليه نهائيا في آخر عهد الأيوبيين باليمن، كما يحلو لبعض المؤرخين والباحثين المحدثين ترديـده وأن أودية المخلاف ومدنه المشهورة كانت تقع تحت سيطرة عدد من أسر الأشراف السليمانيين الذين كانـوا يديـرونها على شكل إقطاعات صغيرة ويكـونون، في الوقت نفسه، زعامات عشائرية محلية تأتمر بأمر أسرة الغوانم التي كانت لأمرائها الزعامة الشـاملة على المخـلاف بكـامل حدوده. وكانت تلك الأسرة تتخـذ من مدينـة جازان التاريخية، في أعلى الوادي المسمى باسمهـا، موطنا لهم، ومقراً للحكم والإدارة بالمـخـلاف. وكـانـت علاقـات الأشراف السليمانيين بصفة عامة، والغوانم بصفة خاصة مع بنـي رسـول، تقـوم على الاعـتـراف المـتبـادل، فالسليمـانيـون يستمـدون شرعيتهم من الارتبـاط التـاريخي العميق لوجودهم في المنطقة، ومن الميراث السياسي المتمثل في حكمهم للمخلاف منذ مدة طويلة. والرسوليون، وهـم حكام غرباء ووافدون على المنطقة،

---

(١٥٢) الديبـع، **قرة العيون**، جـ٢، ص ١٠٣؛ ابن الحسين، **غاية الأماني**، جـ ٢، ص ٥٢٦.

(١٥٣) الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص ٤٣٠؛ ابن الحسين، **غاية الأماني**، جـ ٢، ص ٥٢٦.

(١٥٤) عن تمرد هذه القبائل ضد سلطات بني رسول في عهد السلطان الملك الأفضـل، وابنه وخليفته الملك الأشرف، أنظر: محمد عبد العال أحمد، **بنو رسول**، ص ص ٢١٧ ـ ٢١٩.

(١٥٥) أنـظر: الخـزرجي، **العسجـد المسبوك**، ص ٤٨١؛ **العقود اللؤلؤية**، جـ ٢، ص ٢٥٩.

(١٥٦) عن وفاة السلطان الملك الأشرف الثاني وتولي ابنه الملك الناصر احمد مقاليد السلطنة في اليمن، أنظر: ابن تغري بردي، **حوادث الدهور**، جـ ٢، ص ٦٠٧؛ **المهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، تحقيق أحمـد يوسف نجـاتي (القـاهـرة: دار الكتب المصرية، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م)، جـ١، ص ٢٢٧؛ محمد بن عبد الرحمن السخـاوي، **الضـوء اللامـع لأهل القرن التاسع** (بيروت: دار مكتبـة الحيـاة، دون تاريـخ)، جـ ١، ص ٢٤٠؛ الديبـع، **قرة العيون**، جـ ٢، ص ص ١١٩ ـ ١٢٠؛ محمد عبد العال أحمد، **بنو رسول**، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(١٥٧) ابن الحسين، **غاية الأماني**، جـ ٢، ص ص ٥٦٠ ـ ٥٦١.

يستمدون شرعيتهم التقليدية في تهامة اليمن، من الخلافة العباسية تلك الشرعية التي تمسكوا بها، ضمانا لبقائهم، واستقرار حكمهم، ووحدة الأراضي التي تحت أيديهم، حتى بعد زوال الخلافة العباسية على يد المغول في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. ولابد أن الأشراف الغوانم الذين يدينون أصلا بوجدهم في تلك المنطقة للعباسيين منذ عهد بعيد،[١٥٨] أن يقبلوا بالاعتراف بسلاطين بني رسول باعتبارهم نوايا للخلافة العباسية، وأن يحافظوا في الوقت نفسه على استقلالهم بعيدا عن التدخل المباشر من قبل الرسوليين، وأن يحترم الأخيرون ذلك التقليد الذي ورثوه عن الحكومات التي سبقتهم، والذي يعطي السليمانيين حق الاستقلال بمنطقة المخلاف. وهذا ما حدث بالفعل عند قيام الدولة الرسولية، إذ لم يعثر في المصادر الميسورة على ما يشير إلى أي احتكاك وقع بين الأشراف الغوانم، وبين الدولة الجديدة في عهد مؤسسها السلطان الملك المنصور عمر بن علي بن رسول. ولكن هذا الأمر لم يستمر طويلا، إذ إن طبيعة النظام الرسولي القائم على الاقطاع، وكثرة القادة المماليك، وأفراد الطبقة الحاكمة الذين يتطلعون إلى الفوز بإقطاعات مغرية لهم، وخصوبة وادي حرض وخيراته، وقربه جغرافيا من مناطق النفوذ الرسولية ـ أغرت سلاطين بني رسول بإقطاع ذلك الوادي لبعض رجالاتهم. فتعارض ذلك الإجراء مع حرص الأشراف الغوانم على الاحتفاظ بكامل تراب المخلاف مستقلا.

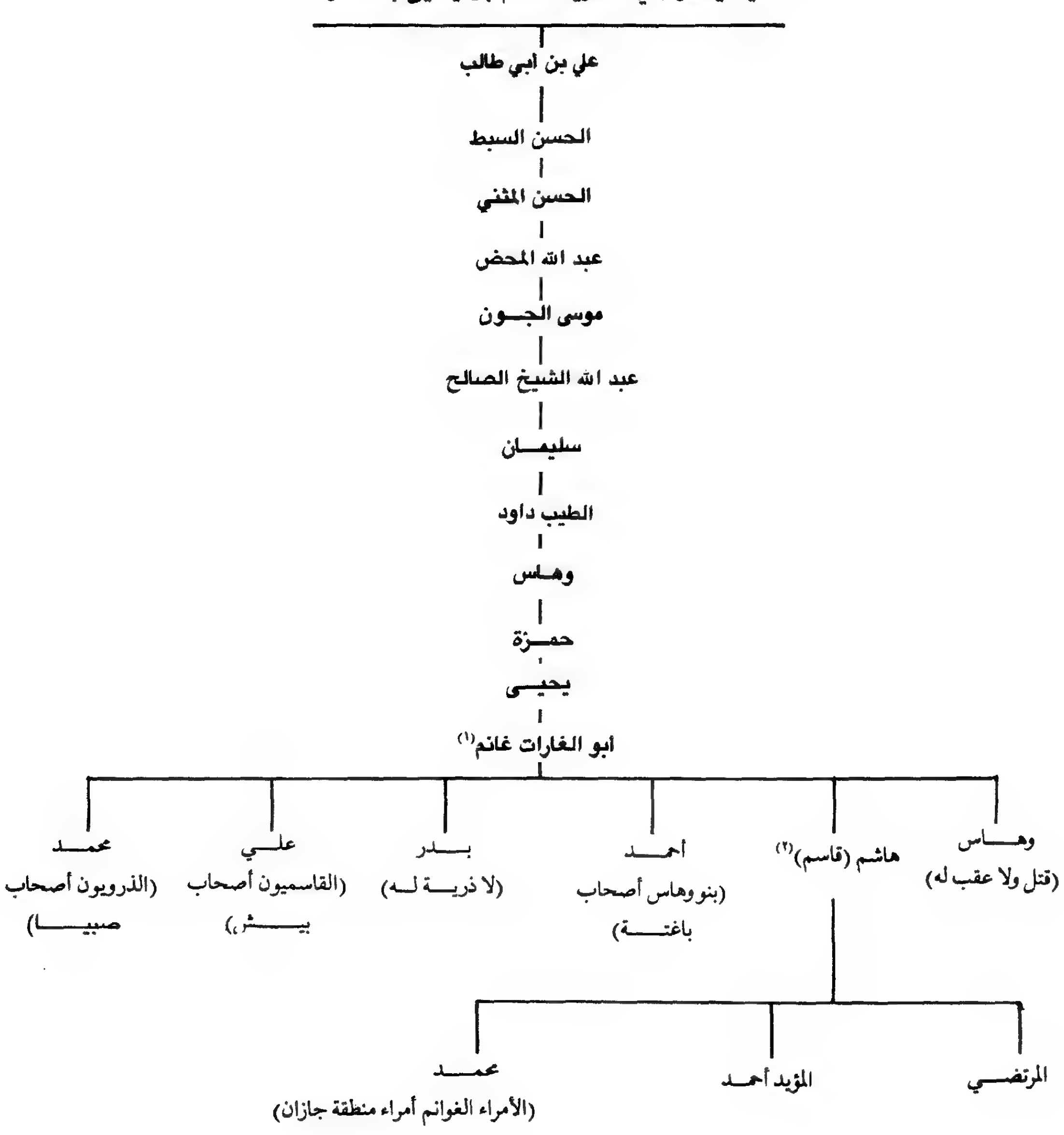
فقامت لذلك حروب طويلة بين بني رسول والأشراف الغوانم استمرت طوال عهد السلطان المظفر، وشطرا من عهد خلفائه. وظلت هذه الحروب سجالاً بين الطرفين على الرغم من قوة الدولة الرسولية، وبصورة خاصة في عهد السلطان الملك المظفر الذي مكث في الحكم طويلا. ولا نعتقد أن ذلك السجال في حروب الخصمين يعود إلى امتلاك الأشراف الغوانم من القوة والقدرات المادية ما يعارض قوة خصومهم وقدراتهم. ولكنهم ربما كانوا يلجأون إلى الغارات السريعة، والهجوم المباغت، أو إلى ما يعرف في عصرنا الحاضر بحرب العصابات. وكانت تساعدهم في غاراتهم تلك الطبيعة الجبلية والصحراوية للمناطق الشرقية والشمالية التي يلجأون إليها كلما داهمتهم الأخطار، ويساعدهم كذلك الدعم الكبير الذي يحصلون عليه من عرب تهامة، في المخلاف، والحجاز وحتى في اليمن نفسها منذ عهد أجدادهم الأول،[١٥٩] فضلا عن سيطرتهم على طريق الحج والتجارة، والمنافذ الحيوية لبني رسول، الأمر الذي مكنهم من المحافظة على وجودهم، وبقائهم في الحكم، واستقلال بلادهم، ذلك الاستقلال الذي لبث مستتبا، طوال تلك الفترة، في المناطق التي تتكون منها منطقة جازان الحالية، بعد أن خرجت حرض من أيديهم إلى حين. ولكنهم تمكنوا في وقت لاحق من استردادها من أيدي خصومهم، ومن إعادة توحيد المخلاف السليماني واستقلاله، مرة أخرى، تحت حكمهم.

---

(١٥٨) يرتكز هذا القول على ما يعرف ببهبة الخليفة الأمين بن هارون الرشيد التي يوردها ابن المجاور بقوله: «لما كثرت الأشراف بأرض الحجاز، خرج منهم قوم إلى العراق في خلافة الإمام محمد الأمين بالله أمير المؤمنين ابن هارون الرشيد، واستوهبوا منه أرضا يقيمون فيها، ويأكلون منها، فاقطعهم من مكة إلى الهلية طولا، ومن صعدة إلى ساحل البحر عرضاً». انظر: ابن يعقوب، **تاريخ المستبصر**، ٥٧.

(١٥٩) لما استعان الوزير مفلح وزير بني نجاح بالشريف غانم بن يحي، جد الأسرة موضوع هذه الدراسة، ضد القائد سرور، قدم لإعانة مفلح في عساكر عظيمة، ومعه قبائل تهامية من المخلاف واليمن بمن في ذلك قبيلة بني حرام، أهل حلي بن يعقوب. ورأينا في ثنايا هذا البحث قدوم قبائل العرب لإعانة زوجة ابي سيفين ضد القائد عزيز الدين الطنبغا ، حاكم حرض من قبل بني رسول. انظر عمارة، **المفيد**، ص ١٨١؛ ابن حاتم، **السمط**، ص ٤٣٦، احمد الزيلعي، «بنو حرام»، ص ١١٣.

جدول رقم (١)



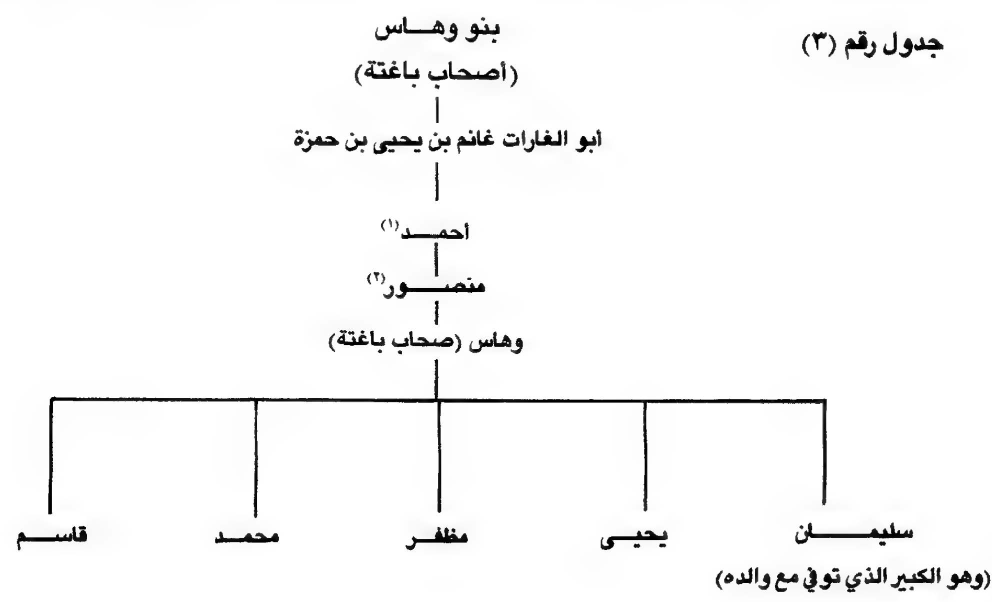
(١) اعتمدت في هذه السلسلة وما بعدها على **طرفة الأصحاب** للملك الأشرف، ص ص ١٠٨ ـ ١١١، وذلك فيما يتعلق بالأسر المنسوبة إلى الشريف غانم بن يحيى بن حمزة، أما من فوق ذلك من الأسماء فمأخوذة من **عمدة الطالب** لابن عنبة، ص ص ٩٩ ـ ١٠٢.

(٢) في **عمدة الطالب** لابن عنبه، ص ص ٩٩ ـ ١٠٢، صحة هذا الأسم قاسم بدلا من هاشم، ومثل ذلك في **السمط** لابن حاتم، ص ١٦، **والعسجد** للخزرجي، ص ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

جدول رقم (٢)



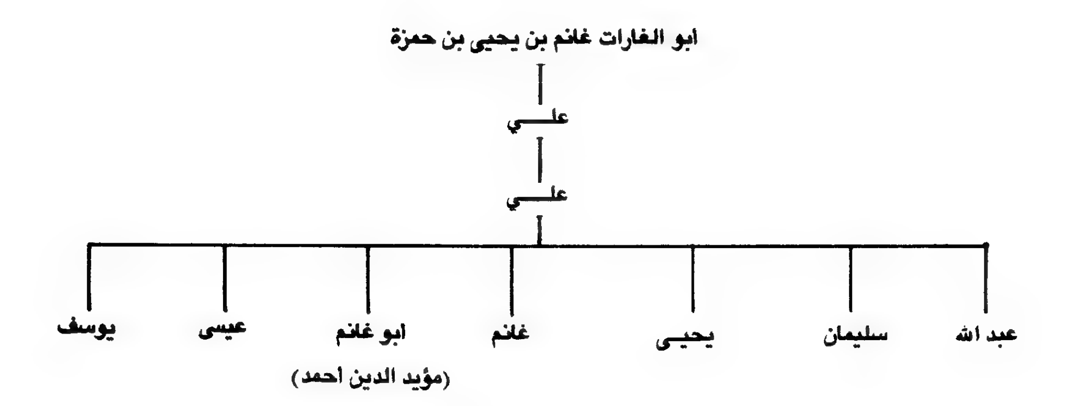
جدول رقم (٣)



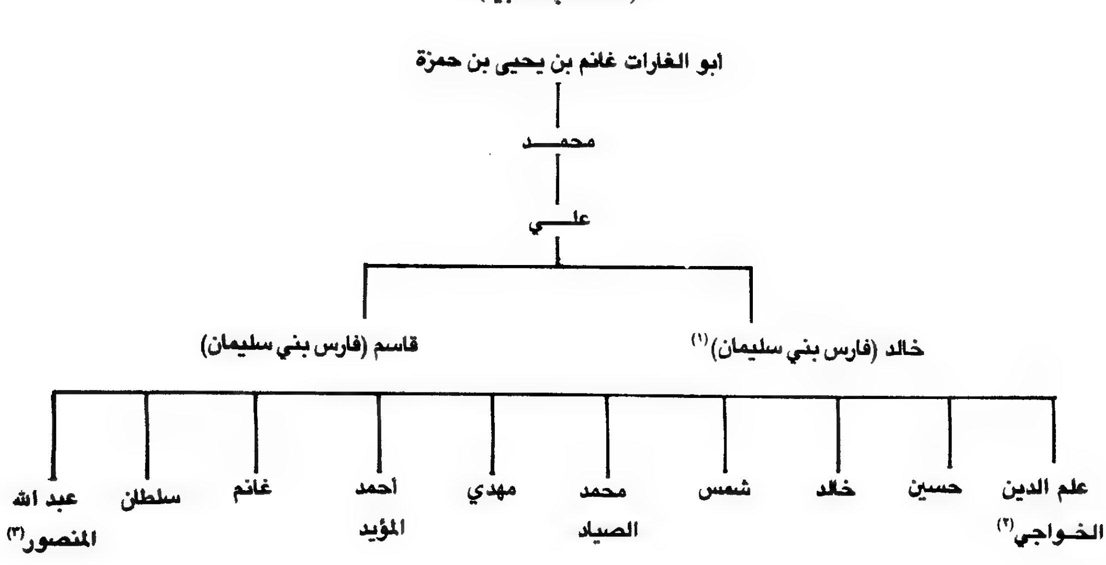
(١) و (٢) احمد ومنصور لم يردا عند ابن عنبة، أنظر عمدة الطالب، ص ١٠٢.



جدول رقم (٤)



جدول رقم (٥)



(١) و(٢) و(٣) زيادة من ديـوان الشـاعر القاسم بن هتيمل، أنظر: ص ص ٤٢ ـ ٤٤، ٤٩، ٦٥، ٧٤، ٨٧ ـ ٨٨.

العصور . المجلد السادس، الجزء الثاني، ٢٩٩ ـ ٣١٨ (١٩٩١م)

القضاء في مكة في العهد المملوكي

للدكتور محمد صالح الطاسان

ملخص البحث : القضاء من الوظائف الأساسية في المجتمع الإنساني، فهو يقوم بفصل الخصومات إما بالصلح أو بالحكم. لذلك فإن من يتولى هذه الوظيفة لا بد أن يتصف بالدقة والأمانة. ومن أجل هذا وضع الفقهاء المسلمون شروطا دقيقة لمن يتولى هذه الوظيفة.

والقضاء بمكة يكتسب أهمية خاصة نابعة من أهمية مكة نفسها في نفوس المسلمين؛ فهي من أطهر البقاع عندهم، لذلك كانت لقاضي مكة مكانة محترمة في نفوس حكامهم وعامتهم. ومن أجل ذلك كان لابد أن يصدر قرار التعيين والعزل من السلطان. والقضاء في الدولة المملوكية كان يتبع المذهب الشافعي، إلا أنه في سنة ٦٦٣هـ أحدث السلطان الظاهر بيبرس قضاء الأربعة مذاهب الذي عم الدولة المملوكية، إلا أنه أحدث في مكة المكرمة في سنة ٨٠٦ وما بعدها.

وكان للقاضي في مكة مهام كثيرة ومتشعبة، لذلك كان غالبا ما يحتاج إلى إقامة نائب عام له أو نواب ينوبون عنه في بعض مهامه أو في بعض البلدان التابعة له. كما كان لقاضي مكة غالبا عدد من الوظائف الأخرى بجانب القضاء، وتداخل مهام هذه الوظائف مع وظيفة القضاء يجعل من الصعب معرفة اختصاصات القاضي بدقة. كما كان هناك نوعان من المحاكم في مكة، محاكم عليا يرأسها الشريف، ومحاكم عادية يرأسها القاضي الشافعي. ولابد أن يحضر جلساتها غير القاضي والخصوم، كاتب القاضي والشهود. وتصدر هذه المحاكم عددا من العقوبات مثل السجن أو الشنق أو التشهير أو الضرب.

يعتبر القضاء من الوظائف الأساسية ليس في المجتمع الإسلامي فقط، وإنما في المجتمع الإنساني ككل. والقضاء وإن كان أساسه الفصل في الخصومات إما صلحا أو حكما أو إقامة حد، فإنه من أجل الوظائف الدينية في المجتمع الإسلامي.

وقد رفع الله سبحانه وتعالى هذه الوظيفة إلى أجل مستوى إذ نسبها إلى نفسه، وذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾[1] وقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[2] وقوله تعالى ﴿فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾[3] وقوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾.[4]

كما أنه سبحانه وتعالى جعلها من أهم وظائف الرسل عليهم السلام ، كما يدل على ذلك قوله تعالى ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ

(١) سورة النمل آية ٧٨.

(٢) سورة يونس آية ٩٣.

(٣) سورة الأعراف آية ٨٧.

(٤) سورة التين آية ٨.

نفشت فيـه غَنَمُ الْقَـوْمِ وَكُنَّـا لِحُكْمِهِمْ شَاهِـدِين. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾[٥] وقوله تعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيـلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَـا نَسُـواْ يَوْمَ الْحِسَـاب ﴾[٦] وقوله تعالى ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمآ أَنْزَلَ اللَّهِ ولاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[٧] وقوله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدواْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾[٨]

كما أن الله سبحانه وتعالى جعل القضاة المنصفين من المحبوبين عنده لقوله تعالى ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. ﴾[٩]

ولما كانت وظيفة القضاء من الوظائف المهمة في المجتمع الإسلامي فإن الشرع يجيز للحاكم المسلم أن يجبر شخصاً على تولى هذه الوظيفة إذا لم يوجد أكفأ منه، بل أجاز تعزيره بالضرب والحبس إذا أصر على رفضـه، وقـد سُئِلَ الإمام مالك ـ رحمه الله ـ : «أيجبـر الرجل على ولاية القضاء؟ قال: نعم إذا لم يوجد منه عوض قيل له: أيجبر بالضرب والحبس قال نعم.»[١٠]

ونظراً لأهمية وظيفة القضاء، فقد جعل الفقهاء المسلمون شروطا دقيقة يجب أن تتوافر فيمن يتولى هذه الوظيفة من هذه الشروط ما اتفق عليه ومنها ما اختلف عليـه.[١١] أمـا الشروط المتفق عليها فهي أربعة شـروط:

١ ــ البلوغ.
٢ ــ العقل.
٣ ــ الحرية.
٤ ــ الإســلام.

أما الشروط التي اختلف فيها فهي أيضا أربعة:

١ ــ سلامة البصر والسمع واللسان.
٢ ــ العدالة (بمعنى عدم الفسق).
٣ ــ الاجتهـاد.
٤ ــ الذكـورة.

ونظراً لشرف منصب القضاء، فقد أجاز الفقهاء أن يعقد القاضي مجلسه في المسجد وهو أشرف مكان في البلد، وذلك لقوله تعالى ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ﴾[١٢]، ولفعل النبي صلى الله عليه وسلم.[١٣]

وقد بلغ من علو منزلة القضاء والقاضي في المجتمع الإسلامي، أن نجد كثيرا من خلفاء الدول الإسلامية وامـرائهـا وولاتها يكرمون القضاة ولا يتدخلون في عملهم، ويحترمون قراراتهم. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك في كتب التاريخ الإسلامي، نجد في بعضها أن بعض القضـاء ألزم بعض الخلفاء في الحضور إلى مجلسه سواء بسواء مع خصمه وأوقع الحكم عليه.

ونـظراً لخـطورة منصب القضـاء الذي يتـطلب الأمانة والدقة في الحكم والعدل، فقد أحجم عن توليه الكثير من الأئمة والفقهاء، وعرض منصب القضاء على بعض أئمة المذاهب الفقهية كأبي حنيفة وأحمد ابن حنبل فرفضاه تورعا وخشية من الزلل.

ولما كانت الدقـة في الحكم والعدل والأمانة من شروط صدور الحكم القضـائي، أوجب الفقهاء على القاضي عند صدور حكمه أن تكون حالته النفسية والصحيـة جيـدة، كمـا ألزم القاضي أن يحضر إلى

---

(٥) سورة الأنبياء آية ٧٨ ـ ٧٩.
(٦) سورة «ص» آية ٢٦.
(٧) سورة المائدة آية ٤٨.
(٨) سورة النساء آية ٦٥.
(٩) سورة الحجرات آية ٩.
(١٠) جمـال صادق المرصفاوي، «نظام القضاء في الإسلام»، بحث مقدم لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، سنة١٣٩٦هـ، نشرته إدارة الثقافة والنشر بالجامعة، ١٤٠٤هـ، ص ١٠.
(١١) المرصفاوي، «نظام القضاء»، ص ١١.
(١٢) سورة « ص » آية ٢١.
(١٣) المرصفاوي، «نظام القضاء» ص ص ٥٨ ـ ٥٩.

مجلسه كل ما يلزمه ويساعده على إصدار حكمه من الفقهاء وأهل الخبرة للتشاور معهم والشهود لأخذ شهادتهم.

وقد وفرت معظم الدول الإسلامية الشروط التي أوجبها عليها الفقهاء حتى يتمكن القضاة من التفرغ لمهمتهم، ومنها تخصيص الرواتب العالية لهم، وضبط الأمن بمجلس القضاء بوجود رجال الشرطة هناك، كما وفرت لهم عددا من الموظفين كالحجاب والكتاب وغيرهم.

ولقد تطور القضاء في المجتمع الاسلامي من شكله البسيط في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ما نشهده اليوم من التعقيد في إصدار الحكم القضائي بمروره بمحاكم مختلفة الدرجات والمسؤوليات.

وهذه الدراسة تحاول بيان حالة القضاء في مكة في العصر المملوكي، في الفترة ما بين سنة ٦٦٧هـ - وهي السنة التي بدأ فيها الحكم المملوكي في مكة - حتى سنة ٩٢٣هـ وهي السنة التي دخلت فيها مصر والحجاز تحت الحكم العثماني. وهذه الفترة تبلغ مائتين وخمسا وخمسين سنة تقريبا تطور فيها النظام القضائي في الدولة المملوكية كما في غيرها من الدول الإسلامية الأخرى.

وقد تأثر النظام القضائي في مكة بالنظام القضائي في الدولة المملوكية، بل كان تابعاً له، لكون الحجاز تابعا للدولة المملوكية وتحت نفوذها. وكانت الدولة المملوكية تولي الحجاز اهتماما خاصا لوجود الحرمين الشريفين فيه، ولوفود آلاف الحجاج سنويا لأداء مناسك الحج، فإشرافها على الأماكن المقدسة في الحجاز يعطيها مزيدا من الهيبة والاحترام خصوصا لسلاطينها أمام المسلمين.

والواقع أن دولة المماليك لم تكن هي الدولة الإسلامية الوحيدة التي حرصت على أن تبقى مكة والمدينة تحت نفوذها، وإنما حرصت على ذلك أيضا عدد من الدول، لذلك يجد الدارس لتاريخ هاتين المدينتين ان هناك صراعا مستمرا بين عدد من الدول الإسلامية لإدخالهما تحت نفوذهما، ومن ذلك الصراع الذي دار لفترة طويلة بين العباسيين والفاطميين حول السيطرة على الحرمين الشريفين.

كما ارتبط مصير الحجاز السياسي بمصر ارتباطاً وثيقا، فمعظم الدول الإسلامية التي حكمت مصر كانت تشرف في الوقت نفسه على الحجاز، منذ الطولونيين والإخشيديين ولفترات متقطعة في عهد الفاطميين ثم الأيوبيين والمماليك وأخيرا العثمانيين.

كذلك اعتمد الحجاز اقتصاديا على ما يرد اليه من مصر من معونات وصدقات بل من الممكن القول: إن هذه وتلك كانتا عماد حياة الناس ومصدر دخلهم في هاتين المدينتين المقدستين.

ورغم قلة الموارد الاقتصادية في مكة، إلا أننا نجد أن هذه المدينة كانت تعج بالحركة العلمية والتي مركزها وبؤرة نشاطها هو المسجد الحرام، وتنشط هذه الحركة في أيام الحج لكثرة الوافدين عليها من العلماء والمجاورين. كما برزت عدد من الأسر المكية التي اشتهرت بكثرة العلماء فيها ومنها وأشهرها ثلاث أسر وهي الأسرة الطبرية والأسرة الظهيرية والأسرة النويرية. وقد انحصرت معظم الوظائف الدينية في مكة فيهم وكانت عادة لا تخرج عنهم، ومن هذه الوظائف القضاء.

شروط تعيين القاضي

على الرغم من أن الفقهاء المسلمين قد وضعوا - كما ذكرت من قبل - شروطا دقيقة لمن يعين في منصب القضاء، إلا أننا نجد أن بعض هذه الشروط كان لا يؤكد عليها في الفترة التي ندرسها، ومن أهم هذه الشروط العلم بالأحكام الشرعية، فإننا نجد أن هذا الشرط قد لا يتوافر عند كثير ممن عينوا في منصب القضاء بالمستوى اللازم لهذا المنصب، حتى أننا نجد أن المقريزي يمتدح أحد قضاة مكة بأن له معرفة جيدة بالفقه والفرائض.[١٤] ومما لاشك فيه أن هذه

---

(١٤) المقريزي، احمد بن علي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، اجزاء في ١٢ مجلدا (القاهرة: لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ - ١٩٧٣م)، جـ٤، المجلد الثاني، ص ٦٦٣.

العلوم من أهم المعارف التي لابد للقاضي معرفتها والتمكن فيها حتى يستطيع أن يصدر حكمه من علم ومعرفة ودراية.

بالإضافة إلى ذلك فإن منصب القضاء بمكة كان دائما مصدرا من مصادر التنافس بين العلماء في مكة[١٥] في ذلك العصر، لذلك لم يكن يتورع المتنافسون للحصول عليه من اتباع أساليب مختلفة كالطلب من ذوي النفوذ عند السلطان بالتوسط لهم لديه[١٦]، أو بدفع رشوة للسلطان وأعوانه حتى يصلوا إلى ذلك.[١٧] وهذا بلا شك يؤدي إلى تولية منصب القضاء لشخص غير كفء وغير نزيه.

كما جعلت بعض الأوصاف الثانوية، أهم من الشروط الأساسية في تعيين القاضي، ومن ذلك حسن المظهر واللحية التي يجب أن تتوافر في الشخص المعين للقضاء.[١٨] كذلك يشترط فيه ألا يكون أعمى وهذا شرط اختلف فيه بين الفقهاء حيث إن بعضهم أجاز تعيين الأعمى في القضاء.[١٩]

وفي كثير من الأحيان كان يعين ابن القاضي بدلا عنه بعد وفاته،[٢٠] أو قريبه،[٢١] وهذا يجعل المنصب كأنه أرث يتوارثه جيل بعد جيل حيث إن لكل إنسان قدرات تختلف بها عن الآخر، وبالتالي فقد يكون الابن ليس بمستوى الأب من حيث الكفاءة والأهلية للمنصب مما يؤدي إلى فساد النظام القضائي وعدم قدرته على الوفاء بالتزاماته.

وهذا لا يعني أن كل من عينوا في منصب القضاء بمكة لم يكونوا أهلا لهذه الوظيفة، بل إن بعضهم كان على قدر كبير من الأمانة والنزاهة والتمكن في ملء شروط الوظيفة، ولكن هؤلاء كانوا قلة بجانب العدد الكبير من الذين كانوا على النقيض، وبالتالي كانوا يمثلون السمة العامة للأشخاص الذين تولوا منصب القضاء بمكة في هذا العهد.

تعيين القاضي

نظراً لشرف منصب القضاء، وعلو منزلته، وتكريما لمن يعين في هذا المنصب، فإن القاضي لا يعين إلا بأمر من السلطان.[٢٢] والقرار الذي كان يعين به السلطان القاضي بمكة يسمى **«مثال»** أو **«مرسوم»**.[٢٣]

وعندما كان يشغر منصب القضاء، فإن شريف مكة يتدخل فيعين شخصاً في الوظيفة إلا أن قرار الشريف ليس نهائيا،[٢٤] إذ عليه إخبار السلطان بذلك، ومن ثم فإن السلطان إما أن يُقِرّ التعيين أو يرفضه، ولكن يبقى الشخص المعين من قبل الشريف قائما بمهام المنصب حتى يرد قرار السلطان. وفي بعض الأحيان يفوض السلطان أمير الحج المصري[٢٥] في تعيين القاضي. أما عندما كان بعض ملوك بني رسول باليمن يستولون على مكة في فترات قصيرة من العهد المملوكي، فإنهم كانوا يصدرون قراراً بتعيين القاضي في حالة شغور المنصب.[٢٦]

---

(١٥) ابن فهد، عمر عبد العزيز، **اتحاف الورى باخبار ام القرى**، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ثلاثة اجزاء (مكة المكرمة: جامعة ام القرى، ١٤٠٤هـ)، جـ٤، مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٢٢٠٤ **تاريخ تيمور**، الجزء الثالث، ص ٥٢١.

(١٦) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص٤٨٧.

(١٧) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٥٣٤؛ الفاسي المكي المالكي، محمد ابن احمد بن علي، **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق محمد حامد الفقي وفؤاد سيد ومحمود محمد الطناحي، ٨ أجزاء (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٩ ـ ١٣٨٨هـ)، جـ٢، ص ٢٨٨؛ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، **الضوء اللامع لاهل القرن التاسع**، ١٢ جزءاً (بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت)، جـ٩، ص ٨٧؛ ابن فهد، عمر بن فهد، **الدر الكمين في الذيل على العقد الثمين**، نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة، رقم ١٠٤٢، تاريخ، من مخطوطة موجودة في مكتبة رضا رامبور بالهند، ص ٤٦/ب؛ المقريزي، **السلوك**، جـ٤، المجلد الثاني، ص ١٠٢٠.

(١٨) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، **التبر المسبوك في ذيل السلوك** (القاهرة: مكتبة الكليات الازهرية، د.ت)، ص ٩٤.

(١٩) ابن فهد، **الدر**، ص ٤٦/ب.

(٢٠) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣.

(٢١) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٦٥.

(٢٢) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٦٥.

(٢٣) السخاوي، **التبر**، ص ٧٥.

(٢٤) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٦٥.

(٢٥) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٣٧.

(٢٦) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ١٩٣؛ الفاسي، **العقد**، جـ٣، ص ١٦١.

ولا يستطيع القاضي المعين القيام بمهام وظيفته إلا بعد قراءة مرسوم تعيينه في المسجد الحرام، وبحضور أعيان مكة وعلمائها،[٢٧] وبعد قراءة المرسوم يلبس القاضي خلعة تسمى خلعة التشريف،[٢٨] والخلعة للقاضي الشافعي عبارة عن كاملية[٢٩] بفرو سمور[٣٠]، وللقاضي المالكي جبتان من صوف أحداهما خضراء والفوقانية بيضاء وفوق العمامة طرحة[٣١]، ولا تعرف خلع القاضي الحنفي والحنبلي. ثم يخرج القاضي المعين من المسجد الحرام من باب الصفاء إلى بيته راكبا.[٣٢]

كما أن هذا القرار لا يسمح للقاضي بتولي المنصب إلا لمدة سنة واحدة، إذ كان لابد للسلطان أن يجدد هذا القرار كل سنة مع إرسال خلعة التشريف.[٣٣]

وأحيانا يعين السلطان شخصين لتولي منصب القضاء ثم يطلب من أهل مكة اختيار أحدهما.[٣٤] كما كان يعين السلطان في منصب القضاء أحيانا شخصا من غير أهل مكة، خصوصا عندما يحدث تنافس قوي بين علماء مكة على الوظيفة.[٣٥]

وقد حفظ لنا القلقشندي نسخة من قرار السلطان تعيين قاضي مكة في كتابه «صبح الأعشى»[٣٦]

«الحمد لله الذي انفذ الأحكام، بالبلد الحرام وأيد كلمة الشرع في بلده، ومنشئه بين الركن والمقام، وجعل الإنصاف الجزيل، حول حجر إسماعيل، متسق النظام.

نحمده حمدا حسن الدوام، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد قائم بحقها أحسن القيام، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله السامي من ولد سام، والذي قام لله حتى ورمت منه الأقدام، وأسرى به من مكة إلى السماء مرتين في اليقظة والمنام، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ائمة الصلاة والصيام، وسلم تسليما.

وبعد فإن وظيفة القضاء بمكة المعظمة هي أجل منصب بتلك الأباطح ونورها في الجبين لائح، فإن الشرع نشأ منها والوحي أنزل فيها، فزهيت البطائح، وظهرت النصائح، وأطربت الصوادح، وأسكتت النوائح، غمرت المنائح، وانتشرت المصالح، فمن ولي الحكم بها وعدل فذلك هو العدل الصالح وكيف لا؟ وماء زمزم شرابه، واستار البيت تمسها أثوابه، وعلى الله أجره وثوابه، وفي ذلك الجناب الشريف كرم جنابه، وإذا دعا الله عند الملتزم جاءه من القبول جوابه.

ولما كان (فلان) هو فرع الدوحة المثمرة، ومحصل من العلوم الشرعية المادة الموفرة، وله البحوث التي هي عن أحسن الفوائد وغرر الفوائد مسفرة، ورضي أهل الحرم، لما جبل عليه من خير وكرم تمسك بالعروة الوثقى والقوى الاتقى فلا جرم.

فلذلك رسم .... لا زال ....

فليكن في أم القرى، كالوالد المشفق على الورى، وليتمسك من التقوى بأوثق العرا، وليخش رب هذا البيت إنه سميع، يسمع ويرى، ووفدا لله قطعوا اليه المراحل في السرى ليصافحوا كفه المضمخ عنبرا وليقض بين الخصوم بالحق فمثله من درأ الباطل وقد جعله الله جار بيت عالى الذرا، وفي أرض شرف الله جبالها وقدس غيرانها، فمنها غار ثور وغار حرا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يتعبد في غار حرا، وأوى إلى غار ثور لما هاجر مؤيداً مظفرا، والوصايا كثيرة وملاكها تقوى الله فليتمسك بها من أمام وورا، والله تعالى يجعل نهاره منورا وليله مقمرا، بمنه وكرمه».

وعلى الرغم من التنافس الشديد بين علماء مكة على منصب القضاء وعلى الرغم أيضا من أن الكثير من هؤلاء يفضلون التعيين في هذا المنصب على غيره

(٢٧) السخاوي، التبر، ص ٣٠٥.

(٢٨) ابن فهد، اتحاف، جـ٣، ص ٤٤٢.

(٢٩) السخاوي، التبر ص١٨٦؛ والكاملية: العباءة.

(٣٠) السمور: حيوان ثديي من الفصيلة السمورية من آكلات اللحوم يتخذ من جلده فرو ثمين ويقطن شمالي آسيا.

(٣١) ابن فهد، اتحاف، جـ٤، ص ٦٣٤.

(٣٢) ابن فهد، اتحاف، جـ٤، ص ٦٣٩.

(٣٣) ابن فهد، اتحاف، جـ٤، ص ٥٩٦،٤٣٣.

(٣٤) ابن فهد، اتحاف، جـ٣، ص ٤٤١.

(٣٥) السخاوي، التبر، ص ٩٤.

(٣٦) القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الاعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزءاً (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٣٨٣هـ)، جـ١٢، ص ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

من الوظائف حتى لو جمعت له.[٣٧] وبالرغم أيضا من أن قرار التعيين يصدر من السلطان، إلا أننا نجد أن بعض علماء مكة يرفض التعيين ويطلب إعفاءه من توليه[٣٨] إما زهدا وتعففا وإما رغبة في البعد عن دائرة المنافسة.

مهام القاضي

للقاضي في النظام الإداري بمكة مكانة كبيرة، يدل على ذلك كثرة أعماله وسعة صلاحياته، ولكن هذه الصلاحيات إذا كثرت واتسعت تدل على قوة شخصية القاضي ومكانته، وإذا قلت وضاقت تدل على ضعف شخصية القاضي. على أننا نستطيع من خلال استقراء كتب النظم الإسلامية والمصادر التاريخية التي كتبت عن تاريخ مكة، أن نتعرفّ على بعض مهام القاضي:[٣٩]

١ - فصل المنازعات وقطع التشاجر والخصومات، إما صلحا عن تراضي، أو إجبارا بحكم بات.
٢ - استيفاء الحقوق ممن مطل بها، وإيصالها إلى مستحقها بعد ثبوت استحقاقها.
٣ - الولاية على ناقص الأهلية كالمجنون والمعتوه والصغير والمحجور عليهم لسفه أو فلس حفظا للأموال على مستحقيها.
٤ - النظر في الأوقاف بحفظ أصولها وتنمية فروعها، وصرف الغلة في مصارفها المشروطة.
٥ - تنفيذ الوصايا على شروط الموصى فيما أباحه الشرع.
٦ - تزويج الأيامي بالأكفاء، إذا عدمن الأولياء ودعين الى النكاح.
٧ - إقامة الحدود عل مستحقيها بطلب المستحق.
٨ - النظر في المصالح العامة في حدود ولايته من الكف عن التعدي في الطرقات والأفنية وإخراج مالا يستحق من الأجنحة والأبنية.
٩ - تصفح شهوده وإمنائه واختيار النائبين عنه.
١٠ - التسوية في الحكم بين القوي والضعيف.

هذا ما ذكرته كتب النظم عن بعض مهام القاضي، ولكن يبدو أن مهام القاضي في مكة في العهد المملوكي قد توسعت وشملت بعض المهام الأخرى التي ذكرتها المصادر التاريخية المكية وغيرها ومن هذه المهام:

١ - تولي أمور الأوقاف، وتأجيرها وإجراء الترميمات عليها.[٤٠]
٢ - تولى عمارة الموالد، كمولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد على كرم الله وجهه.[٤١]
٣ - الإشراف على تنظيف المسجد الحرام إذا دخل فيه السيل.[٤٢]
٤ - تحديد يوم الوقوف بعرفات، وقرار القاضي بتحديد يوم الوقفة يكون ملزما لأهل مكة فقط، لأن أمراء الحج عادة لايعتمدون على رؤية أهل مكة، ويؤدي ذلك إلى اختلاف في تحديد يوم الوقفة وغالبا بما يقف الناس بعرفات يومين متتاليين تحريا للدقة وبعدا عن الشك.[٤٣] ولأجل إثبات دخول شهر ذي الحجة يصعد القاضي مع جماعة من الناس لرؤية الهلال على جبل أبي قبيس.[٤٤] ويقاس على ذلك أيضا

---

(٣٧) السخاوي، **الضوء**، جـ٩، ص٢١٤.

(٣٨) السخاوي، **الضوء**، جـ٢، ص ١٧٩؛ ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٥٤.

(٣٩) الماوردي، علي بن محمد بن حبيب، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** (القاهرة: مكتبة البابي الحلبي، ١٣٩٣هـ)، ص ص ٧٠ - ٧١؛ أبو يعلى الفراء الحنبلي، محمد بن الحسين، **الأحكام السلطانية**، تحقيق محمد حامد الفقي (القاهرة: مكتبة البابي الحلبي، ١٣٥٦هـ)، ص ص ٤٩ - ٥٠؛ المرصفاوي، «نظام القضاء»، ص ص ٧٥ - ٧٦.

(٤٠) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٩٦،٦، جـ٤، ص٤٠٥، ٥٠٦، ٦١٢، ٦١٣؛ الفاسي، **العقد**، جـ٤، ص١١٥.

(٤١) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ١٣.

(٤٢) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ص ٢١٢ - ٢١٥.

(٤٣) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٢٣٣، ٤٧٢، ٥١٩؛ الفاسي المكي المالكي، محمد بن أحمد بن علي، **شفاء الغرام باخبار البلد الحرام**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جزءين (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ)، جـ٢، ص ص ٣٨٤ - ٣٨٥، ٣٩٠، ٤٠٥، ٤١٠؛ السخاوي، **التبر**، ص١٤٨.

(٤٤) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٨٦؛ السخاوي، **التبر**، ص ١٦؛ الفاسي، **العقد**، جـ٦، ص ٢٢٢؛ وجبل ابي قبيس هو الجبل المشرف على الكعبة المشرفة من جهة الشرق؛ البلادى، عاتق بن غيث، **معجم معالم الحجاز**، عشرة اجزاء (مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٣٩٩ - ١٤٠١هـ)، جـ٧، ص ٨٩.

وجوب إثبات القاضي دخول شهر رمضان.

٥ ـ النهي عن الإفساد وحفظ كرامة جثث القتلى في حالة نشـوب نزاع بين الأشراف والحـاميـات المملوكية في مكة من الحرق والتمثيل.(٤٥)

٦ ـ تولي عقد الزواج.(٤٦)

٧ ـ حفـظ أمـوال اليتـامى.(٤٧) والتصرف فيهـا والاتجـار بهـا(٤٨)، وأحيانا يعطي وكيل اليتيم بعض المال ليتجر به له.(٤٩)

٨ ـ حصر أموال المعاقبين من قبل السلطان.(٥٠)

٩ ـ إثبات الوقف وطرق صرفه.(٥١)

١٠ ـ الفصل في الخصومات على المناصب الدينية في المسجد الحرام.(٥٢)

١١ ـ حصر الصدقات التي ترسل لأهل مكة وتغرق في البحر.(٥٣)

١٢ ـ إصدار الحكم في معاقبة المجرمين.(٥٤)

١٣ ـ الإشراف على فتح خزائن الصدقات.(٥٥)

١٤ ـ مراقبـة الوعـاظ والمـدرسين بالحرم ومعاقبة المخالفين منهم بمنعهم من أداء عملهم أو حبسهم.(٥٦)

١٥ ـ قضـاة المـذاهب الأربعـة أعضـاء في لجنة محـاكمة كبار الموظفين في مكة، وهذه اللجنة عادة تكون برئاسة الشريف.(٥٧)

١٦ ـ قضاة المذاهب الأربعة أيضا أعضاء في لجنة تحديد أسعار صرف العملات النقدية بمكة.(٥٨)

١٧ ـ القيام بإصلاح بعض المنشآت العامة.(٥٩)

١٨ ـ الإشراف على توزيع الصدقات السلطانية على أهل مكة.(٦٠)

١٩ ـ منع التعدي على حدود المسجد الحرام والمسعى.(٦١)

٢٠ ـ التصرف في أملاك الغائبين رغم معارضة وكلائهم.(٦٢)

٢١ ـ حفـظ مال من مات بمكـة وجـدة، وله وارث غائب.(٦٣) ثم تحـولت هذه الوظيفة إلى نائب جدة، ويبدو أن ذلك فقط بالنسبة لجدة.

٢٢ ـ من مهام القاضي أيضا تنذير الجراحات.(٦٤)

٢٣ ـ يعـين القـاضي أصحـاب الوظائف الدينيـة الشاغرة في مكة لحين ورود أمر السلطان.(٦٥)

٢٤ ـ منـع أصحـاب الوظائف الدينيـة من القيام بأعمالهم من أئمة ومحدثين ووعاظ.(٦٦)

٢٥ ـ عنـد اختلاف الأشراف في تعيين شريف من بينهم، فإن القـاضي يترأس الجلسة لاختيار الشريف الجديد.(٦٧)

٢٦ ـ إسقاط عدالة الشاهد.(٦٨)

٢٧ ـ يحق للقاضي توزيع اختصاصات بين عدد من نوابه، بحيث يتولى كل نائب مهمة من مهامه ويكون نائبا عنه فيها.(٦٩)

---

(٤٥) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٢٨٣.

(٤٦) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٣٠٩.

(٤٧) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٥١.

(٤٨) الفاسي، **العقد**، جـ٤، ص ١٠٣؛ السخاوي، **الضوء**، جـ١، ص ٩٤.

(٤٩) الفاسي، **العقد**، جـ٥، ص ٤٤٧.

(٥٠) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٦٤٢.

(٥١) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٢٩٨، ٤٤٣.

(٥٢) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤١٥.

(٥٣) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٢٢.

(٥٤) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٢٩.

(٥٥) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٦٤٢.

(٥٦) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٥٠.

(٥٧) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٨٠.

(٥٨) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٨١.

(٥٩) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٨٥.

(٦٠) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٥٣٨.

(٦١) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ص ٥٩٨ ـ ٥٩٩.

(٦٢) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٦١٣.

(٦٣) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٦٣٥.

(٦٤) الفاسي، **العقد**، جـ١، ص ٣٧٠، وتنذير الجراحات: تقدير العوض فيها.

(٦٥) الفاسي، **العقد**، جـ٣، ص ٩٨.

(٦٦) الفاسي، **العقد**، جـ٤، ص ٤١٧، السخاوي، **التبر**، ص ١٧.

(٦٧) العصامي المكي، عبد الملك بن حسين، **سمط النجوم العوالي في انباء الأوائل والتوالي**، اربعة اجزاء (القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٨٠هـ)، جـ٤، ص ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

(٦٨) السخاوي، **التبر**، ص ١٧٦.

(٦٩) الفاسي، **العقد**، جـ١، ص ٢٨١، ٢٨٥؛ السخاوي، **الضوء**، جـ٤، ص٥٢.

وظائف القاضي الأخرى

بالإضافة إلى تولى القاضي مهامه في وظيفة القضاء، نجد أن عددا من قضاة مكة قد تولوا وظائف أخرى وخصوصا الوظائف الدينية في الوقت نفسه الذي يتولى فيه وظيفة القضاء، بل نجد أن بعض القضاة المكيين يحاولون الجمع بين عدد كبير من الوظائف والمنافسة عليها والسعي لها.

ومن الوظائف التي جمع بعضها لبعض القضاة مع القضاء:

١ ـ الخطابة في المسجد الحرام والمشاعر أيام موسم الحج.[٧٠]

٢ ـ نظر المسجد الحرام ـ أي الإشراف على الأعمال التي تتم داخل المسجد الحرام ومراقبة العاملين فيه.[٧١]

٣ ـ الحسبة.[٧٢]

٤ ـ نظر الأربطة.[٧٣]

٥ ـ نظر المطهرة.[٧٤]

٦ ـ التدريس في المسجد الحرام أو في مدارس مكة.[٧٥]

٧ ـ البوابة لأبواب المسجد الحرام.[٧٦]

٨ ـ سدانة الكعبة المشرفة (الحجابة).[٧٧]

٩ ـ قضاء الحرمين (مكة والمدينة).[٧٨]

كما نجد أن بعض القضاة قد جمع لهم عدد من الوظائف في الوقت نفسه الذي يتولى فيه وظيفة القضاء، فقد جمعت لعدد منهم مثلا وظيفة القضاء والخطابة والحسبة ونظر المسجد الحرام ونظر الأربطة.[٧٩]

كما أن كثرة وظائف قاضي مكة تؤدي إلى صعوبة التمييز بين مهامه الرئيسة كقاضي وبين مهامه بالنسبة لوظائفه الأخرى، حيث إن المصادر التاريخية تذكر أن القاضي فلانا عمل بكذا وكذا ولا تحدد لنا قيامه بالعمل هذا هل كان من ضمن مهامه كقاضي أو كناظر للمسجد الحرام أو محتسب.

وعندما يعزل قاض متول لعدد من الوظائف فإن جميع وظائفه أحيانا تكون من نصيب من يخلفه [٨٠] وغالبا ما يتوفى القاضي وكون له عدد من الوظائف فإن وظائفه عادة ما تكون من نصيب ابنه حيث يخلفه في تولى جميع وظائفه.[٨١] كذلك الحال عندما يتوفى القاضي ويتولي بعده القضاء شخص آخر فإن جميع وظائف القاضي المتوفي تؤول إليه.[٨٢]

وبالإضافة إلى تولي القاضي بعض الوظائف الدينية، نجد أن القاضي غالبا ما يحاول الحصول على مصدر دخل آخر غير مرتب الوظيفة، ومنها الاشتغال بالتجارة.[٨٣] وهو عمل لم يجز كثير من الفقهاء للقضاة العمل به لأنه ربما يؤثر على نزاهتهم ويشغلهم عن التفرغ لوظيفة القضاء.[٨٤]

مكانة القاضي

للقاضي في المجتمع المكي في العهد المملوكي مكانة كبيرة، فهو يعد في المرتبة الثانية بعد شريف مكة في المنزلة الاجتماعية، عند المجتمع المكي في ذلك العهد. ويدل على عظم مكانة القاضي عدة مظاهر وأعمال تعمل له أو يكلف بها ومن هذه الأعمال:

أن قرار تعيينه يتم بأمر السلطان، مما يجعل ارتباطه الإداري المباشر بالسلطان لا بشريف مكة، بل

(٧٠) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٢٦٨، ٢٨٦، ٢٩٦.

(٧١) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٣٤٥، ٣٥٨.

(٧٢) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٣٤٥، ٣٥٨.

(٧٣) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٣٤٩، ٤٠٦.

(٧٤) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٦٠٩.

(٧٥) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٣٦٨، ٤٨٥.

(٧٦) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٦٤٥.

(٧٧) ابن العماد الحنبلي، عبد الحي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ٨ أجزاء (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت)، جـ٧، ص٢٢٣.

(٧٨) ابن العماد الحنبلي، **شذرات**، جـ٧، ص ٢٧٧، ٣٦١؛ ابن فهد، الدر، ص١/١٣٦.

(٧٩) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٣٤٥، ٣٥٨، ٤٠٦.

(٨٠) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٣٥٨.

(٨١) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٠٦.

(٨٢) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٣٤٥.

(٨٣) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ص ٢٥٧ ـ ٢١٥

(٨٤) المرصفاوي، «نظام القضاء»، ص ١٠٧.

أنـه في هذه الخـاصيـة يكاد يكون بدرجة مساوية لشريف مكة، حيث إن شريف مكة نفسه يصدر قرار تعيينه من قبل السلطان. وهذا يجعل للقاضي روابط وصـلات مبـاشرة مع السلطان ممـا يوثق العـلاقة بينهما، بحيث إنها تبلغ أن يساند السلطان القاضي ويدعمه وظيفياً لدرجة أن يتسلط القاضي على الشريف ويطلب من الشريف القيام بأعمال لم يسبق له ولا من سبقه من الأشراف القيام بها، وتعتبر في نظر الشريف إهانة لمكانته الاجتماعية. بل أكثر من ذلك أن أحد القضاة أدعى أن تصريف أمور أهل مكة بيده لا بيد الشريف.(٨٥)

ونظراً لمنزلة القاضي الكبيرة في المجتمع المكي، فإن القاضي يكون مع أوائل مستقبلي السلطان إذا قدم لمكـة سواء بسواء مع الشريف، بل إن الشريف بعد مقابلة السلطان يمشي عن يمينه والقاضي يمشي عن يساره.(٨٦)

بالإضافة إلى ذلك فإن السلطان أيضاً عند تعيين القاضي يرسل له خلعة مع قرار التعيين وتصبح هذه الخلعة عادة سنوية.(٨٧) كما أنه عند تولي كل سلطان السلطنة فإنه يرسل بخلعة للقاضي.(٨٨) هذا بالإضافة إلى ما يصله من الهدايا والهبات.

كمـا أن السلطان يكلف أحياناً القضاة الأربعة القيـام ببعض الأعمـال التي يرجـو السلطان فيها الثواب والأجر من الله مثل قراءة القرآن وإهداء ثواب ذلك العمل للسلطان.(٨٩)

هذا ما وصلت إليـه مكـانـة القاضي المكي عند سلاطين المماليك، أما منزلته عند أشراف مكة، فهي أيضـا كبـيرة، فهـو يحضر قراءة مراسم تعيـين الشريف.(٩٠) كمـا أن الشريف يحضر أحيـانا قراءة مرسوم تعيين القاضي.(٩١) كذلك للقاضي دور كبير في كثير من الأحيان في التوسط بين الأشراف المتنازعين على الحكم لكف القتال بينهم حفظا للأنفس وإشاعة للأمن بين الأهـالي، فيسمـع الفريقان المتنازعان له وينـزلان عند رغبته ويسعى الى الصلح بينهما.(٩٢) كذلك كثـيرا ما يشفـع القـاضي عند أحد الأشراف بالكف عن ملاحقة خصومه وتعذيبهم.(٩٣)

أما إذا أراد الشريف أن يرسل وفداً إلى السلطان في مصر، فإن القـاضي عادة يكـون عضواً بارزاً في الوفد.(٩٤) كما أن الشريف كثيرا ما يرسل القاضي في بعض المهام الصعبة وخصوصا عندما يعلم الشريف أن السلطان غير راضٍ عنـه، فيـطلب الشريف من القاضي معرفة السبب وعلاج المشكلة(٩٥)، كما كان للقاضي أحيانا دور كبير في إثارة الفتنة بين شريفين متنازعين على إمرة مكة وذلك بمساعدة أحدهما على الآخر.(٩٦)

أمـا علاقـة القضاة بمكة مع ملوك اليمن فكان يسـودهـا الود والصـداقـة فكانوا يتبادلون معهم الهدايا، كما أن ملوك اليمن يطلبون من قضاة مكة القيـام نيـابـة عنهم ببعض الأعمال الخيرية كذبح الهدى والصدقات وتوزيعها على المستحقين.(٩٧)

كمـا كان لقضــاة مكة منزلة كبيرة عند سلاطين وأمراء البلاد الإسلامية الأخرى، ويدل على ذلك أنهم عنـدمـا يرسلون هدايـا وصـدقات لأهل مكة، فإن لقضاة مكة عادة هدية مميزة تدل على احترام هؤلاء

(٨٥) الفاسي، **العقد**، جـ١، ص ٣٠٣.

(٨٦) ابن فهـد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٢٠٠؛ النهروالي المكي الحنفي، قطب الدين، **كتـاب الإعـلام بأعـلام بيت الله الحرام**، غنتقه بالمانيا (المانيا: فرديناند فستنفلد، ١٢٧٤هـ)، ص٢٣٣.

(٨٧) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٥٩٦.

(٨٨) النهروالي، **الإعلام**، ص ٢٢٣؛ دحلان، أحمد بن زيني، **خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام** (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٥هـ)، ص ٤٤.

(٨٩) النهروالي، **الإعلام**، ص ٢٢٥.

(٩٠) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٥٣٤، ٥٧٩.

(٩١) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٨٦.

(٩٢) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٥٣٤، جـ٤، ص ٥١٩.

(٩٣) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٢٨٤.

(٩٤) دحلان، **خلاصة**، ص ص ٤٩ ـ ٥٠؛ العصامي، **سمط** جـ٤، ص ٢٧٩.

(٩٥) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٥١، ٤٥٨.

(٩٦) العصامي، **سمط** جـ٤، ص ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٩٧) الفاسي، **العقد**، جـ١، ص ٣٠٢.

السلاطين والأمراء لهم.[٩٨]

أما منزلة القاضي بين أهل مكة فهي أيضا عظيمة ومحترمة، يدل على ذلك وجوب حضور القاضي قراءة المراسم السلطانية التي ترد من مصر.[٩٩] كما أنه يتوجب على القاضي حضور قراءة مراسيم السلطان لتعيين أحد أصحاب الوظائف الدينية في مكة.[١٠٠]

وللقاضي دور بارز في قيادة بعض المواكب الدينية بمكة مثل قيادة المواكب لزيارة مكان ولادة النبي صلى الله عليه وسلم ـ ليلة مولده في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من كل عام بعد صلاة المغرب وإقامة احتفال بهذه المناسبة في ذلك المكان.[١٠١] بالإضافة إلى ذلك اشتراكه بشكل فعال في المناسبات الدينية الأخرى كافة ومن أهمها غسل الكعبة المشرفة.[١٠٢] وعادة يستشير الناس القاضي فيما يفعلون في حالة تأخر نزول المطر، وينزل الناس عند رأيه يفعلون به، فقد أمرهم أحد القضاة مرة بالاستغفار والتوبة والصوم ثلاثة أيام بالإضافة إلى أداء صلاة الاستسقاء.[١٠٣]

أما منزلة وظيفة القضاء عند علماء مكة فهي لها مكانة خاصة، يتنافسون على توليها بحيث إن أحدهم لو خير بين أن تجمع له عدد من الوظائف الدينية مقابل القضاء، فإنه يفضل القضاء عليها مجتمعة.[١٠٤]

قضاة المذاهب الأربعة

أستحدث في مصر في العهد المملوكي لأول مرة سنة ٦٦٣هـ تعيين أربعة قضاة على المذاهب السنية الأربعة، الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي. ويرأسهم جميعا القاضي الشافعي الذي يجعل في منصب قاضي القضاة، لكون الدولة المملوكية تتبع المذهب الشافعي.[١٠٥]

وكان القضاء قبل ذلك يتبع أحكام المذهب الشافعي، والقاضي شافعي المذهب إلا أن السلطان الظاهر بيبرس رأى أن القاضي الشافعي لا يوافق على إجازة الأحكام التي لا تتفق مع مذهبه، وفي هذا تضييق على الناس وإهمال لاجتهادات بقية المذاهب، لذا أشير عليه إحداث وظائف أربعة قضاة على المذاهب السنية الأربعة، الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي. ومن ذلك الوقت صار بمصر وغيرها من البلاد التي تتبع للدولة المملوكية أربعة قضاة كل منهم يحكم بمذهبه. وأرفعهم درجة ومنزلة القاضي الشافعي ثم الحنفي ثم المالكي وأخيراً الحنبلي.[١٠٦]

أما القضاء بمكة فكان يتبع المذهب الشافعي، والقاضي بمكة كان شافعياً حتى سنة ٨٠٦هـ حيث استحدثت وظيفة القاضي الحنفي[١٠٧]، ثم القاضي المالكي سنة ٨٠٧هـ[١٠٨]، أما القاضي الحنبلي فإنه كان آخرهم حيث كان سنة ٨٠٩هـ[١٠٩]، لذلك نجد أن تاريخ استحداث وظائف القضاة الأربعة جاء بعد وقت طويل من استحداث هذه الوظائف في مصر. ولعل سبب ذلك يعود إلى أن أغلب سكان مكة في ذلك الوقت يتبعون المذهب الشافعي، وقلة منهم يتبعون المذاهب الأخرى. كما يدل تاريخ استحداث هذه المناصب من ناحية أخرى على درجاتها ومنزلتها وكثرة اتباعها، فالذي يلي الشافعي هو الحنفي ثم المالكي وأخيراً الحنبلي لقلة أتباعه في مكة في ذلك الوقت. ومن الطريف أن أول قاض حنبلي لم يكن حنبلي المذهب

---

(٩٨) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٥٢.

(٩٩) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٢٩.

(١٠٠) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٦٢٩.

(١٠١) ابن ظهيرة، محمد جار الله بن محمد، **الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف** (مكة المكرمة: دار الباز، ١٣٩٣هـ)، ص ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(١٠٢) النهروالي، **الإعلام**، ص ٢٢٦.

(١٠٣) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٠٠.

(١٠٤) السخاوي، **الضوء**، جـ٩، ص ٢١٤.

(١٠٥) القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ٤، ص ٣٥؛ المقريزي، **السلوك**، جـ١، المجلد الثاني، ص ٥٣٨.

(١٠٦) المقريزي، **السلوك**، جـ١، المجلد الثاني، ص ٥٤٠؛ القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ٤، ص ٣٥؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، **العصر المماليكي في مصر والشام** (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٦م) ص ٣٧٨.

(١٠٧) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٣٧.

(١٠٨) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٤٢.

(١٠٩) السخاوي، **الضوء**، جـ٤، ص ٣٣٣.

وإنما كان مالكيا، حيث إن أحد علماء المالكية بمكة لما رأى تعيين قضاة لمناصب المذاهب الثلاثة حَوّل مذهبه من المالكي إلى الحنبلي وسعى لإحداث منصب قضاء الحنابلة بمكة وتولاه.[١١٠]

وقضاة المذاهب يصدر قرار تعيينهم من السلطان.[١١١] وقرار التعين يقرأ في المسجد الحرام أمام قضاة المذاهب الأخرى وأعيان مكة، وبعد قراءة المرسوم يلبس القاضي المعين خلعة المنصب وهي هدية من السلطان.[١١٢] وقد وصف (ابن فهد) خلعة القاضي المالكي وهي عبارة عن جبتين من صوف أحداهما خضراء، والفوقانية بيضاء وفوق العمامة طرحة[١١٣]، ولا نعرف وصف خلع بقية القضاة إلا أن القاضي الشافعي يتميز عنهم بان خلعته سنوية وتأتي مع قرار تعينه السنوي أيضا، وهي عبارة عن كاملية بفرو سمور.[١١٤]

ولقد كان منصب قضاء المذهب مصدرا من مصادر التنافس بين علماء مكة، ويسعى كل منهم لنيله بكل ما أوتي من قوة، بحيث إننا نجد التنافس والخصومة تحدث بين أفراد الأسرة الواحدة كل يسعى إليه ويطلبه، ويدل على التنافس الشديد، كثرة العزل والتعيين[١١٥] كما يؤدي التنافس والخصومة على المنصب الى طلب المتنافسين من رجال الدولة التوسط لهم عند السلطان، وقد يؤدي الأمر بهم إلى دفع رشوة للسلطان أو لرجال دولته.[١١٦] أو قد يؤدي التنافس إلى اضطرار السلطان تعيين قاضي في المنصب من غير أهل مكة[١١٧] كما أن التنافس يجعل بعض أفراد من غير المذهب يسعون لتولي منصب قضاء مذهب يختلف عن مذهبهم أو مذهب أسرهم.

ويدل على ذلك أننا نجد اثنين من أفراد أسرة واحدة كل منهم يتولى منصب قضاء مذهب في الوقت نفسه مع أن أسرتهم اشتهرت من قديم باتباع مذهب مختلف. بل إننا نجد في الوقت نفسه الذي يتولى فيه الأب مثلا منصب قضاء الشافعية، الابن يتولى منصب قضاء المالكية.[١١٨]

ومهام قضاة الثلاثة مذاهب (الحنفية والمالكية والحنبلية) ليست واضحة ولامحددة ولا معروفة، ويبدو أنهم يفصلون في الخصومات التي تحدث بين اتباع مذهبهم، حتى لا يجبر هؤلاءعلى الإلتزام بحكم يحكم به القاضي الشافعي بينما مذهبهم له اجتهاد آخر يخالف اجتهاد الشافعية.

كما ان السلطان يلجأ الى أحد قضاة المذاهب لاستصدار حكم يوافق هواه لأن بقية المذاهب لا تجيزه.[١١٩] كذلك كان يفعل الشريف باللجوء الى أحد قضاة المذاهب لاستصدار حكم يوافق هواه هو أيضا.[١٢٠] ومثل ذلك يحصل لإرضاء كبار رجال الدولة ممن لهم نفوذ عند السلطان.[١٢١]

ومن مهام قضاة المذاهب الثلاثة وبالإضافة للشافعي حضور حصر أموال أحد المعاقبين من قبل السلطان.[١٢٢] وبالإضافة إلى ذلك كانوا أعضاء في لجنة اختيار شريف مكة في حالة اختلاف أسرة الأشراف حول ذلك.[١٢٣] كما كانوا أعضاء كذلك في لجنة محاكمة أحد كبار رجال الدولة.[١٢٤] كذلك كانوا أعضاء في لجنة تحديد أسعار صرف العملات النقدية بمكة.[١٢٥] وكانوا أيضا يستفتون في نوع العقاب الذي يجب إيقاعه على المجرمين.[١٢٦]

(١١٠) السخاوي، **الضوء**، جـ٤، ص ٣٣٤.
(١١١) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٣٧.
(١١٢) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٤٢.
(١١٣) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٦٣٤.
(١١٤) السخاوي، **التبر**، ص ١٨٦.
(١١٥) الفاسي، **العقد**، جـ١، ص ٣٤٠، جـ٢، ص ١١٦؛ ابن فهد، **الدر**، ص ١٣٢/١.
(١١٦) السخاوي، **الضوء**، جـ٩ ص ٧٨؛ المقريزي، **السلوك**، جـ٤، المجلد الثاني، ص ص ١٠١٩ ـ ١٠٢٠.
(١١٧) السخاوي، **التبر**، ص ٩٥؛ ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤١١
(١١٨) ابن العماد، **شذرات**، جـ٧، ص ٣٣٥
(١١٩) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٥١١.
(١٢٠) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٥٠٨؛ الفاسي، **العقد**، جـ٤، ص ١١٥.
(١٢١) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٥١١.
(١٢٢) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٦٤٢.
(١٢٣) العصامي، **سمط**، جـ٤، ص ٣٠١.
(١٢٤) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٨٠.
(١٢٥) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٨١.
(١٢٦) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٣٢٦.

ونتيجة لذلك نجد أن أرفع هؤلاء منصبا ومكانة هو القاضي الشافعي فهو الذي يرأسهم جميعا، لذلك يسمى منصبه منصب قاضي القضاة ومهامه هي التي ذكرناها تحت عنوان مهام القاضي.

بالإضافة إلى تولى قاضي المذهب في مكة منصب قضاء مذهبه، نجد السلطان يعينه في قضاء المذهب نفسه في المدينة المنورة أحيانا، ولذلك كان يسمى بقاضي الحرمين.(١٢٧)

وتتعدد وظائف قضاة المذاهب بالإضافة إلى وظيفتهم بمنصب قضاء مذهبهم، فمن الوظائف التي كان يتولاها قاضي المذاهب ويجمع بعضها مع منصب القضاء:

١ - إمامة مقام مذهبه بالمسجد الحرام.(١٢٨)
٢ - مشيخة الحرم أو نظره.(١٢٩)
٣ - الحسبة.(١٣٠)
٤ - الإفتاء.(١٣١)
٥ - التدريس.(١٣٢)
٦ - الإعادة.(١٣٣)
٧ - نظر الأربطة.(١٣٤)
٨ - نظر المطاهر.(١٣٥)
٩ - البوابة لأبواب المسجد الحرام.(١٣٦)

بل إننا نجد أن بعضهم قد جمعت له عدد من الوظائف السابقة في الوقت نفسه. وبالإضافة إلى هذه الوظائف الرسمية، نجد أن قضاة المذاهب يكرمون ويشرفون بحضور بعض المناسبات الدينية كحضور حفل غسل الكعبة المشرفة،(١٣٧) والإشراف على بعض الإصلاحات التي تتم داخل المسجد الحرام.(١٣٨) كما أنهم أحيانا يكلفون بالقيام ببعض الأعمال التعبدية وإهداء ثوابها للسلطان كقراءة القرآن.(١٣٩)

نائب القاضي

وهذه الوظيفة يتولاها عادة شخص له اطلاع ومعرفة بالأحكام الشرعية وتعيينه يتم بطريقين:

١ - بمرسوم من السلطان.(١٤٠)
٢ - باختيار القاضي له بأن يكون نائبا له.(١٤١) ولذلك يحق للقاضي أن يعين من يراه نائبا عنه (١٤٢)، ومن هنا تدخل المحسوبية بحيث أن القاضي غالبا ما يعين ابنه(١٤٣)، أو أحد أقاربه(١٤٤)، إذ ربما لا يكون هؤلاء أهلا لتولي هذه الوظيفة، بل أحيانا يكونون غير محمودي السيرة.(١٤٥)

وللقاضي نواب كثيرون يمكن تصنيفهم إلى ما يلي:

١ - نائب عام ينوب عن القاضي في جميع مهامه في حضوره أو غيابه.(١٤٦)
٢ - نائب خاص ينوب عن القاضي في مهمة مخصصة يحددها له القاضي، مثل عقد الأنكحة أو تنذير الجراحات أو حفظ أموال الأيتام وغيرها من اختصاصات القاضي، لذلك نجد للقاضي في هذه الحالة أكثر من نائب كل نائب ينوب عنه في اختصاص من اختصاصاته.(١٤٧)

---

(١٢٧) ابن فهد، الدر، ص ١٣٦/أ؛ ابن العماد، شذرات، جـ٧، ص٢٧٧، ٣٦١.

(١٢٨) ابن العماد، شذرات، جـ٧، ص ١٧٧، ٢٧٧.

(١٢٩) ابن العماد، شذرات، جـ٨، ص ٢٤٧؛ ابن فهد، الدر، ص ١١/ب.

(١٣٠) ابن فهد، الدر، ص ١١/ب.

(١٣١) ابن العماد، شذرات، جـ٧، ص ١٦٨، ٣٢٩.

(١٣٢) ابن العماد، شذرات، جـ٧، ص ١٦٨، ٣٢٩.

(١٣٣) ابن فهد، الدر، ص ١٢/ب؛ والمعيد هو من يتولى إعادة شرح ما غمض من شرح الأستاذ لتلاميذه.

(١٣٤) ابن فهد، الدر، ص ١١/ب.

(١٣٥) ابن فهد، الدر، ص ١١/ب.

(١٣٦) ابن فهد، اتحاف، جـ٣، ص ٦٤٥.

(١٣٧) النهروالي، الإعلام، ص ٢٢٦.

(١٣٨) النهروالي، الإعلام، ص ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(١٣٩) النهروالي، الإعلام، ص ٢٢٥.

(١٤٠) ابن فهد، اتحاف، جـ٣، ص ٤٥٨، ٥٤٩، جـ٤، ص٥١٠؛ السخاوي؛ الضوء، جـ٩، ص٤١؛ ابن فهد، الدر، ص ٥٠/أ.

(١٤١) ابن فهد، اتحاف، جـ٣، ص ٤٦٩، ٤٧٨.

(١٤٢) ابن فهد، اتحاف، جـ٣، ص ٣١٣.

(١٤٣) ابن فهد، اتحاف، جـ٣، ص ٣١٥، ٣٩٦، ٤٥٤.

(١٤٤) ابن فهد، اتحاف، جـ٣، ص ٤٢٤، ٤٤٨.

(١٤٥) ابن فهد، الدر، ص ٧٣/ب.

(١٤٦) ابن فهد، اتحاف، جـ٣، ص ٤٦٩، ٤٧٨.

(١٤٧) الفاسي، العقد، جـ١، ص ٢٧٠، ٢٨١، ٢٨٥.

٣ ـ نواب للقاضي في البلدان المجاورة لمكة، والداخلة تحت مسؤولية قاضي مكة، فهناك عدد من البلدان والقرى التابعة لإمارة مكة تكون وظيفة قضائها تابعة لقاضي مكة. ومن هذه البلدان مثلا جدة(١٤٨)، والطائف وما حولها(١٤٩)، وأرض خالد من وادي مر،(١٥٠)، وقرية التنضب من وادي نخلة(١٥١)، وخيف بني عمير.(١٥٢)

٤ ـ نواب قضاة المذاهب، حيث يحق لقضاة المذاهب الأخرى غير الشافعي أن يقيموا نائبا واحدا عنهم يقوم بعملهم في حالة غيابهم عن مكة، أما القاضي الشافعي فهو القاضي الوحيد الذي يستطيع أن يعين له أكثر من نائب. فقد كان للقاضي الحنفي نائب(١٥٣)، ونائب للقاضي المالكي(١٥٤)، ونائب للقاضي الحنبلي.(١٥٥)

وللقاضي أيضا الحق في تعيين نواب عنه إذا تولى وظيفة أو وظائف دينية أخرى غير القضاء كالخطابة أو الحسبة(١٥٦)، سواء في مكة أو خارجها في البلدان التابعة له حيث يعين له نوابا في هذه البلدان يتولون جميع وظائفه نيابة عنه في بلدانهم.(١٥٧) كما أن نواب القاضي في البلدان التابعة لقاضي مكة عادة يبقون نوابا لعدة قضاة متتالين في بلدانهم.(١٥٨) أما بالنسبة لقاضي جدة فبالرغم من أنه تابع لقاضي مكة ونائبا عنه في جده إلا أننا نجد أن بعض قضاة جدة يكون لهم نفوذ قوي بحيث إنهم يستقلون عن قاضي مكة.(١٥٩) بل أحيانا يعينون لهم نوابا.(١٦٠)

أما في حالة عزل القاضي أو وفاته فيعين نائبه غالبا محله في وظيفة القضاء والوظائف الأخرى، إذا كان للقاضي المعزول أو المتوفي وظائف أخرى.(١٦١) أما في حالة الوفاة، فإن النائب أو النواب يستمرون في مناصبهم حتى يرد مرسوم السلطان لترقيتهم في منصب منيبهم المتوفى،(١٦٢) أو تعيين غيرهم في مناصب المتوفى.(١٦٣)

ويجوز ان يختلف نائب القاضي عن القاضي مذهبا(١٦٤)، ولكن هذا يُحدث أحيانا نزاعا بين القاضي ونائبه إذا اختلفا، فإن كثيراً من النواب يرفضون قرار القاضي بعزلهم بحجة أن مذهبهم لا يجيز عزل القاضي الا بجنحة،(١٦٥) كما أن نائب القاضي يبقى أحيانا نائبا لعدة قضاة من مذاهب مختلفة.(١٦٦)

أما العلاقة بين القاضي ونائبه فغالبا ما تكون حسنة، لذلك نجد أن بعض قضاة مكة يعطون نوابهم صلاحيات أكثر بل أحيانا يقوم النائب بأكثر من عمل

---

(١٤٨) الفاسي، **العقد**، جـ٣، ص ٤٢، جـ٥، ص ٢٦؛ ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٥٥.

(١٤٩) الفاسي، **العقد**، جـ٦، ص ٤٦٤.

(١٥٠) الفاسي، **العقد**، جـ٥، ص ٤٠٦؛ ووادي مر (مر الظهران) واد يسيل من المنحدرات الشرقية لجبل كرا ويصب جنوب جدة في البحر الأحمر طوله ١٨٠كم تقريبا، وادى فاطمة جزء منه. عاتق بن غيث البلادي، **اودية مكة المكرمة** (مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ)، ص ص ٨ ـ ١١.

(١٥١) الفاسي، **العقد**، جـ٢، ص ١٠٣، جـ٥، ص٤٩١، وقرية التنضب: قرية عامرة تقع بعد اجتماع النخلتين (الشامية واليمانية) البلادي، **معجم**، جـ٢، ص٤٣.

(١٥٢) السخاوي، **الضوء**، جـ٩، ص ٢٢٢.

(١٥٣) السخاوي، **الضوء**، جـ٩، ص٤١؛ ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٥١٠؛ ابن فهد، **الدر**، ص ١/٥٠.

(١٥٤) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٤٥٧.

(١٥٥) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٤٩؛ الفاسي، **العقد**، جـ٥، ص ٤٧٠؛ السخاوي، **الضوء**، جـ٤، ص٢٨٧.

(١٥٦) الفاسي، **العقد**، جـ٤، ص ٢١٠؛ جـ٦، ص ١٧٩؛ ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٣١٥، ٣٩٢، ٣٩٦.

(١٥٧) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٥٥؛ الفاسي **العقد**، جـ٥، ص ٢٦، جـ٦، ص٤٦٥.

(١٥٨) الفاسي، **العقد**، جـ٢، ص ٢٩٧، جـ٦، ص٤٦٤.

(١٥٩) ابن فهد، **الدر**، ص ٤١/أ، ١١٤/ب؛ السخاوي، **الضوء**، جـ٥، ص ٢١٩، ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٢١.

(١٦٠) ابن فهد، **الدر**، ص ٧٦/ب.

(١٦١) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد، **الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمد سيد جاد الحق، خمسة اجزاء (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٣٨٥هـ)، جـ١، ص ١٥٣؛ ابن العماد، **شذرات**، جـ٧، ص ١٤٧.

(١٦٢) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣.

(١٦٣) ابن فهد، **اتحاف**، ص ٥٣٧.

(١٦٤) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٣١٣؛ الفاسي، **العقد**، جـ٢، ص ١١٨؛ ابن العماد، **شذرات**، جـ٧، ص ١٦٨.

(١٦٥) الفاسي، **العقد**، جـ٧، ص ٤٨٥؛ السخاوي؛ **الضوء**، جـ٢، ص ١٧٩.

(١٦٦) الفاسي، **العقد**، جـ٣، ص ص ١٠٩ ـ ١١٠.

القاضي.[١٦٧] أما إذا ساءت العلاقة فغالبا ما تؤدي بالقاضي الى عزل نائبه[١٦٨] أو تدخل السلطان في تعيين شخص آخر من أهل مكة أو من خارجها في الوظيفة.[١٦٩]

مجلس القاضي

لم تشر المصادر التاريخية إلى وجود مبنى خاص يجلس فيه القاضي، ويأتي إليه المتخاصمون فيه، بل أشارت كثير من المصادر التاريخية إلى أن المحاكمات كانت تعقد غالبا في المسجد الحرام، إلا أن ناظر الحرم سودون المحمدى بنى دكة عند باب البغلة ـ أحد أبواب المسجد الحرام ـ ليجلس عليها القاضي أبو اليمن النويرى للقضاء فيها، في منتصف سنة ٨٤٥هـ، إلا أن هذه الدكة ازيلت في أواخر سنة ٨٤٦هـ. [١٧٠] كما أن بعض القضاة كان يعقد مجلسه في بعض المباني العامة كالمدارس، أو في بيوتهم.[١٧١]

ومن خلال استعراض أخبار المحاكمات في مكة في هذا العهد يمكن تقسيمها إلى ما يلي:

١ ـ جلسات محاكمات عليا

وهي عادة التي يرأسها شريف مكة[١٧٢]، ويحضرها معه أمير الترك بمكة والقضاة الأربعة وأعيان مكة. أما إذا كان الشريف غائبا فإن أمير الترك هو الذي يراس الجلسة[١٧٣]، أو ناظر الحرم[١٧٤]، أو القاضي الشافعي[١٧٥]، وفي مثل هذه المحاكمة تعرض فيها عادة قضية يكون أحد كبار رجال الدولة أو أحد العلماء أو أحد الأعيان طرفا فيها، ويكون حضور القضاة عادة لمشاورتهم، وأخذ رأيهم، ولكن الذي يصدر الحكم النهائي ويبت في القضية هو رئيس الجلسة سواء كان الشريف أو أمير الترك أو الناظر. لذلك نجد القضاة عند حضورهم إلى الجلسة لا يبدون رأيهم إلا بعد معرفة رغبة رئيس الجلسة حتى يوافقوه في هواه. كذلك لابد من أخذ موافقة الشريف على أي قرار تتخذه لجنة محاكمة لم يكن الشريف هو رئيسها حيث إن الشريف له الحق في نقض حكم ولو وافق عليه أعضاء اللجنة وأجمعوا عليه.[١٧٦] إلا أن قرار الشريف أيضا يلغى إذا وردت الأوامر من مصر بوجوب نقضه.[١٧٧]

ومثل هذه المحاكمات تعقد عادة في المسجد الحرام، وتكون علنية، ويشهدها من أراد، ويصدر الحكم فيها فوراً بدون ترك فرصة للمتهم للمدافعة عن نفسه أو إحضار خصمه أو ترك الشهود يدلون بشهادتهم بصدق وأمانة، بل أحيانا يجبرون من قبل أعضاء لجنة المحاكمة على نقض أقوالهم أو يطعن في شهادتهم.[١٧٨]

ومثل هذه المحاكمات عادة تكون صاخبة، وذات ضوضاء وجلبة بسبب المجادلة بين المتهم وأعضاء اللجنة التي يكون أحدهم عادة هو خصم المتهم.[١٧٩] ولذلك ينطبق عليها المثل القائل «إذا كان خصمك القاضي فمن تقاضي؟!!!»

٢ ـ جلسات محاكمة عادية

وهي التي عادة يرأسها القاضي الشافعي[١٨٠] لحل الخصومات العادية، أما إذا كان الأمر يتعلق ببعض أحوال البلد الاقتصادية أو الاجتماعية، فيحضر مع

(١٦٧) الفاسي، العقد، جـ٥، ص ٢٨٠.

(١٦٨) الفاسي، العقد، جـ٧، ص ٤٨٥.

(١٦٩) ابن فهد، اتحاف، جـ٤، ص ٤١١؛ السخاوي، الضوء، جـ٥، ص ٢١٩.

(١٧٠) ابن فهد، اتحاف، جـ٤، ص ٤٥١، ٤٥٦، ٤٦٥؛ السخاوي، التبر، ص ١٦، ٤٧.

(١٧١) الفاسي، العقد، جـ١، ص ٣٠٣؛ السخاوي، الضوء، جـ٣، ص ١٢٠

(١٧٢) ابن فهد، اتحاف، جـ٤، ص ٤٢٩، ٤٥٠؛ السخاوي، التبر، ص ١٧

(١٧٣) ابن فهد، اتحاف، جـ٤، ص ٤١٥.

(١٧٤) ابن فهد، اتحاف، جـ٤، ص ٤٥٦.

(١٧٥) السخاوي، التبر، ص ١٧٥.

(١٧٦) ابن فهد، اتحاف، جـ٤، ص ٤٥٦.

(١٧٧) ابن فهد، اتحاف، جـ٤، ص ٤٦٥؛ السخاوي، التبر، ص٤٧.

(١٧٨) السخاوي، التبر، ص ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(١٧٩) السخاوي، التبر، ص ١٧.

(١٨٠) ابن فهد، اتحاف، الجزء الرابع، ص ٤٥٠.

القاضي الشافعي عادة القضاة الثلاثة الآخرون.(١٨١)

أما القضاة الثلاثة الآخرون، فلكل واحد منهم مجلسه الخاص به الذي يحل فيه الخصومات التي تقع بين اتباع مذهبه أو من يرجع إليه.

أما إذا كان قاضي مصر الشافعي ـ وهو قاضي القضاة للسلطنة ـ موجوداً بمكة فإنه عادة يرأس بعض الجلسات المهمة التي يكون المتهم فيها عادة أحد الخارجين على السنة.(١٨٢) أما في حالة اختلاف الأشراف في تولية أحدهم، فإن القاضي الشافعي بمكة يرأس جلسة يحضرها الأشراف وأمراء الترك والقضاة وغيرهم من الأعيان، لتحديد الشريف الذي يتولى إمرة مكة.(١٨٣)

حضور مجلس القضاء

يحضر مجلس القضاء عادة عدد من الموظفين أو الأعوان الذين يساعدون القاضي وظيفيا سواء بالكتابة وترتيب الأوراق أو بحفظ النظام خلال الجلسة. كما يحضر أهل الخبرة من الفقهاء وغيرهم. وممن يحضر مجلس القضاء:

الكاتب

وقد أوجب بعض الفقهاء أن يكون للقاضي كاتب يساعده في أداء مهمته، ويزيد مجلس القضاء مهابة، وحتى يتفرغ القاضي لأداء واجبه كما ينبغي له، واشترطوا فيمن يتولى هذه الوظيفة عدة شروط منها:

١ ـ *العدالة*: لأن الكتابة من باب الأمانة، والأمانة لا يقوم بها إلا العدل العفيف الصالح.

٢ ـ *الإسلام*: فلا ينبغي اتخاذ كاتب غير مسلم.

٣ ـ *الفقه*: وهو معرفة التعبير عن المعاني الشرعية تعبيرا صحيحا.

٤ ـ *جودة الخط*: وذلك لأن الخط الرديء يقع فيه اللبس والاشتباه، وربما تتعذر قراءته وفي هذا تضيع الحقوق وتحل المظالم.(١٨٤)

وقد أشارت المصادر التاريخية إلى وجود مثل هذه الوظيفة لتساعد قاضي مكة، حيث كان هناك شخص متخصص في كتابة الوثائق والسجلات للقاضي(١٨٥)

البواب

ذكر السخاوي هذه الوظيفة، ويبدو أن القضاة أحيانا كانوا يعقدون جلساتهم في بيوتهم فيجعلون شخصا عند باب البيت يرتب المتخاصمين في الدخول على القاضي، ويحافظ على النظام خلال الجلسة.(١٨٦)

الشهود

تحتاج كثير من القضايا إلى شهادة الشهود، فبسؤالهم ومناقشتهم يستطيع القاضي أن يصدر حكمه، وقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، والرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه كما بينت كتب الفقه، الشروط التي ينبغي أن تكون في الشاهد، وانه يجب على القاضي إكرامه وإعطاؤه الحرية للنطق بشهادته بدون جبر أو إكراه، كذلك بينت كيفية أخذ شهادة الشهود، وأثنت على الشاهد العدل، وتوعدت شاهد الزور.

ويبدو أن الشهادة أصبحت عملا يمتهنه بعض الناس، ويرتزقون منه ويعيشون عليه، فدخل في هذه المهنة البر والفاجر والصادق والكاذب والعدل والفاسق، لذلك شك كثير من القضاة في ذمم كثير من الشهود الذين ينطقون بالشهادة أمامهم، فأوجبوا على من يريد الشهادة أمامهم أن يأتي معه بشخص عدل يثق القاضي بأمانته يزكي الشاهد أمام القاضي ويسمى هؤلاء بالعدول.

ويبدو أن امتهان الشهادة للناس أمام القضاة، قد ظهر منذ القرن الثاني الهجري حيث نجد أن عددا من مشاهير علماء المسلمين في ذلك الوقت أمثال

(١٨١) ابن فهد، اتحاف، الجزء الرابع، ص ٤٨١.
(١٨٢) المقريزي، السلوك، جـ٣، المجلد الأول، ص ١٠.
(١٨٣) العصامي، سمط، جـ٤، ص ٣٠١.

(١٨٤) المرصفاوي، نظام القضاء، ص ص ٦٢ ـ ٦٤.
(١٨٥) الفاسي، العقد، جـ١، ص ٤٢٩، جـ٢، ص٨٩، جـ٣، ص ١٣٦؛ السخاوي، الضوء، جـ٢، ص ١٠٩.
(١٨٦) السخاوي، الضوء، جـ٣، ص ١٣٠.

سفيان الثوري (٩٧ ـ ١٦٠هـ) وعبد الله بن المبارك (١١٨ ـ ١٨١هـ) قد ذموا من امتهن هذه المهنة وعدوهم من السفلة.[١٨٧] ولاشك أن هذا الحكم القاسي لم يصدر من قبل هؤلاء العلماء إلا بعد أن رأوا ضياع ذمم كثير من الناس بحيث إنهم جعلوا لهذه الوظيفة مثل هذه المنزلة الوضيعة.

ويمكن تصنيف الشهود إلى ما يلي:

١ ـ *الشهود العاديون*

وهم كل من جاء إلى مجلس القضاء للإدلاء بشهادته سواء أكان بأجر أم بدون أجر وهؤلاء مفروض فيهم العدالة، ويزكون أمام القاضي بأحد العدول، وكثير من هؤلاء يأخذ الأجر على الإدلاء بشهادته، بحيث إنهم في العهد الذي ندرسه كانوا يجلسون عند باب السلام ـ أحد أبواب المسجد الحرام ـ ويأتي من أراد أن يشهدوا له اليهم هناك، ويتفق معهم على أجرة الشهادة أمام القاضي.[١٨٨]

وقد تطورت وظيفة الشهادة من عصر إلى عصر حتى أصبحت لها شروط يجب ان يتقنها الشاهد، واصول يجب أن يعرفها حتى تكون شهادته مقبولة أمام القضاة.[١٨٩]

وبما أن الشهادة أصبحت وظيفة يرتزق منها بعض الناس، لذلك لا يستغرب أن نجد عددا منهم يشهد باطلا وينطق بغير الحق طمعا في مال يصيبه.[١٩٠]

وإذا حضر الشاهد إلى مجلس القضاء عليه أن يكتب شهادته، ويقدمها للقاضي بعد أن يأذن له القاضي بذلك.[١٩١] ويبدو أن هذا التصرف كان من أجل إعطاء الشاهد حريته لكتابة شهادته، فلو نطق بها فإنه يخشى أن يؤثر عليه أحد الخصوم فيعدل بعض ألفاظها، مما يؤدي إلى تغيير الحكم.[١٩٢] ولكن رغم هذه الاحتياطات في أخذ شهادة الشاهد إلا أننا نجد القاضي نفسه يقوم بتعديل الفاظ الشهادة المكتوبة، ويرغم الشاهد على تغيير شهادته، بل يهدد القاضي الشاهد أحيانا باسقاط عدالته إذا لم يفعل كما يريد، وبعد أن يفعل الشاهد ذلك يكون جزاؤه أن يوضع في الحديد ويرسل عقاب له إلى من شهد ضده تعزيرا له.[١٩٣]

ولا شك أن مثل هذا الفعل المشين من قبل مثل هذا القاضي، يؤكد أن القاضي لا يسعى إلى أن يؤدي وظيفته كما يجب، بل يسعى لمصلحته الشخصية، كما يدل من ناحية أخرى على عدم نزاهة الأحكام القضائية التي كانت تصدر في ذلك العهد، لذلك لا لوم على الشهود إذا باعوا ذممهم مادام بعض القضاة قد فعلوا ؟!!!

أما عدالة الشاهد فتخضع لثقة القاضي فيه، فللقاضي الحق في إسقاط عدالة أحد الشهود[١٩٤] كما أن للقاضي الحق في قبول شهادة أحد الشهود حتى ولو لم يكن سنيا حتى ولو كان أحيانا من غلاة الشيعة.[١٩٥]

٢ ـ *العدول*

وهؤلاء سبق التعريف بهم، فهم الذين يزكون الشهود أمام القاضي لثقة القاضي بهم، ويمكن أيضا أن يقوموا بالشهادة بأنفسهم، وكانوا أيضا يتكسبون بهذا العمل، ويجلسون عند باب السلام أيضا.[١٩٦]

٣ـ *شهود القيمة*

وهؤلاء يقومون بتثمين قيمة شيء ما أو تقسيم شيء

(١٨٧) السبكي، عبد الوهاب، **معيد النعم ومبيد النقم**، تحقيق احمد عبيدلي (بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٣م)، ص٦٣.

(١٨٨) ابن فهد، **الدر**، ص ص ٣٢/أ، ٧٣/ب، السخاوي، **الضوء**، جـ٤، ص٧٦؛ الفاسي، **العقد**، جـ٢، ص١٢٤.

(١٨٩) ابن فهد، **الدر**، ص ٩/أ.

(١٩٠) ابن فهد، **الدر**، ص ٧٣/ب؛ ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص٦١٢.

(١٩١) السخاوي، **التبر**، ص ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(١٩٢) السخاوي، **التبر**، ص ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(١٩٣) السخاوي، **التبر**، ص ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(١٩٤) السخاوي، **التبر**، ص ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(١٩٥) السخاوي، **الضوء**، جـ٨، ص ٢٩٤.

(١٩٦) السخاوي، **الضوء**، جـ٥، ص ٥٦، جـ٧، ص٦١، جـ١١، ص٧.

ما بين المتخاصمين، توصلا لحل قضية متنازع فيها بين خصمين أو أكثر. وهؤلاء عادة يستعين بهم القاضي في التقدير والتثمين. ولا شك أن القاضي يثق بهم لخبرتهم في مثل هذه القضايا، ويعتبر قرارهم عادة ملزما للأطراف المتنازعة.

أما قيمة أتعابهم في أية قضية، فيبدو أنهم يحصلون عليها من المتخاصمين أنفسهم، فإما أن تقتطع من الشيء المتنازع عليه أو يأخذونها منهم أو من أحدهم. إلا أنه مما لاشك فيه أن القاضي هو الذي يقدر قيمة عملهم، وهو الذي يلزم المتخاصمين بدفعها اليهم، وذلك لأنه يستعين بخبرتهم ومعرفتهم.(١٩٧)

٤ ـ شهود الخط

وهؤلاء يستعين بهم القاضي في دراسة الوثائق التي تقدم للقاضي كبيِّنات، وإبداء الرأي فيها من حيث معرفة خط كاتب الوثيقة ومقارنته مع وثائق أخرى بخط الكاتب نفسه، ومعرفة ما إذا طرأ على الوثيقة شيء من التزوير أو التعديل.(١٩٨)

٥ ـ شهود البلوغ

وهؤلاء يستعين بهم القاضي في معرفة بلوغ شخص ما سن الرشد، أم أنه مازال قاصرا ويحتاج إلى وصي.(١٩٩)

٦ ـ شهود رؤية الهلال

وهؤلاء يقومون بالتحري لرؤية هلال دخول شهر رمضان وانتهائه، كذلك التحري لمعرفة دخول شهر ذي الحجة وغيرها من الشهور القمرية التي قبل ذلك أو بعده، وهؤلاء لابد أن يثق القاضي بسلامة نظرهم حتى يشهدوا بذلك أمامه(٢٠٠)، وكذلك لابد أن يكون لهم خبرة في مطالع الهلال في كل شهر .

وهكذا نجد أن الأصناف الأربعة الأخيرة، يمكن تسميتهم بالخبراء في الأمور التي يدلون بشهادتهم فيها. ويختلفون نوعا ما عن الصنفين الأوليين في نوعية الشهادة التي يدلون بها أمام القاضي، ونوعية الاستفادة التي يستفيد القاضي من شهادتهم. كذلك يمكن القول: إن القاضي هو الذي يطلب الاستعانة بهم ويستفيد من خبرتهم.

الوكالة في الخصومات

يتسعين بعض الناس ممن لهم قضايا تعرض على القاضي بأشخاص ينوبون عنهم في حضور مجلس القاضي في أثناء المحاكمة. ولابد لهؤلاء أن يثبتوا للقاضي أنهم موكلون من قبل موكليهم بالحضور نيابة عنهم أمام القاضي.(٢٠١)

ونتيجة لذلك نشأت مهنة تشبه ما يسمى في العصر الحاضر بمهنة المحاماة. وهؤلاء الوكلاء يقومون بعملهم مقابل أجر تماما كما هي الحال في مهنة المحاماة في الوقت الحاضر. ولا شك أن هؤلاء لابد أنهم يكونوا على معرفة تامة بأحكام الشريعة الإسلامية، وعلى دراية تامة بإجراءات المحاكمة.

والأشخاص الذين يستعينون بمثل هؤلاء، إما أن يكونوا عادة خارج البلد، أو يكونون غير متفرغين لمتابعة قضاياهم أمام القاضي وخصوصا القضايا التي تحتاج إلى وقت طويل، أو لأنهم يدركون أن الحق مع خصومهم لذلك يستعينون بمثل هؤلاء الوكلاء لتحويل الحكم في القضية لصالحهم. أو لأنهم لا يستطيعون الدفاع عن حقهم في مثل مجلس القضاء مهابة أو خجلا.

كذلك يمكن القول إن هذه المهنة لم تنشأ في هذا العهد الذي ندرسه، وإنما كانت قديمة قدم منصب القضاء نفسه. ولكنها بلا شك تطورت من عصر الى عصر حتى بلغت اليه في عصرنا الحاضر .

العقوبات

وردت في بعض المصادر التاريخية بعض أنواع

---

(١٩٧) السخاوي، **الضوء** ، جـ٥، ص ١٦٨.

(١٩٨) السخاوي، **الضوء** ، جـ١١، ص ٧.

(١٩٩) السخاوي، **الضوء** ، جـ١١، ص ٧.

(٢٠٠) السخاوي، **الضوء** ، جـ٥، ص ١٦٨.

(٢٠١) السخاوي، **الضوء** ، جـ٩، ص ٣٢٩؛ الفاسي، **العقد**، جـ٢، ص ٣١٤؛ السبكي، **معيد**، ص ص ٦٢ ـ ٦٣.

العقوبات [٢٠٢] التي كانت تصدر في أنواع المحاكم المختلفة التي ذكرناها سابقا. فمن هذه العقوبات:

التشهير، والشنق، والضرب المبرح والسجن، والتعزير، وكشف الرأس والمنع من العمل إذا كان ممن يعمل في وظيفة دينية، **وتسليم الشاكي لخصمه** إذا كان خصمه أحد كبار موظفي الدولة لمعاقبته والانتقام منه.

نقض الحكم

للقاضي أن ينقض حكمه في قضيه ما، خصوصا إذا واجه معارضة من علماء مكة لحكمه[٢٠٣] أو وردت من مصر أوامر تطلب من القاضي نقض حكمه.[٢٠٤]

والعادة أن ينقض القاضي حكمه إذا تبين أن حكمه في القضية كان فيه غير محق بسبب أن هناك أدلة ظهرت استدعت تغيير الحكم. ولكن الحالات التي نقض القاضي حكمه فيها، كان ذلك تحت ضغط الغضب الذي واجه به العلماء حكمه أو أن مصلحة الدولة في مصر تتطلب ذلك. لذلك لم يكن نقضه للحكم عن قناعة وتبرئة ذمة من الجور، وإنما تطلبت ذلك مصلحة القاضي الشخصية ومصلحة من ضغطوا عليه لنقض حكمه.

كما أن بعض الخصوم كان يعرض على القاضي رشوة محاولة منه لجعل القاضي يحكم لصالحه أو إعفائه من بعض مستلزمات المحاكم كالحلف مثلا. ولذلك نجد بعض مؤرخي مكة يثنون على بعض قضاة مكة لعفتهم ونزاهتهم وعدم أخذهم الرشوة. وهذه الإشارات كانت لعدد قليل منهم مما يدل على أن أخذ الرشوة كان متفشيا بين قضاة مكة في ذلك العهد.[٢٠٥]

تسجيل الحكم

بعد أن يصدر القاضي حكمه يكتب ذلك القرار في صك ويعطيه لمن صدر الحكم لصالحه، فيحتفظ به عنده، ويكون سندا بيده في حالة قيام المنازعة بينه وبين خصمه مرة أخرى أوبين ورثتهما. ثم هذا الصك يحتفظ به عند أسرة صاحب الحكم الى ماشاء الله.[٢٠٦]

وهذا يدل على أنه ليس هناك مكان تحفظ فيه سجلات ووثائق المحاكمات وإنما كانت أحكام القضاة مسجلة في صكوك محفوظة عند من كان الحكم لصالحهم يعرضونها متى استدعى الأمر إبرازها.

مرتبات القضاة

أشار كثير من المصادر التي تبحث في النظم إلى وجوب أن يكون مرتب القاضي مرتفعاً، مقابل تفرغه الكامل لوظيفته من ناحية وترغيبا للعلماء الأكفاء في تولى هذه الوظيفة المهمة والتي تجلب على صاحبها عادة غضب الناس وكرههم له بالإضافة إلى ما تجلبه هذه الوظيفة من قلق نفسي لمتوليها، تجعل أغلب العلماء يحجمون عنها خوفا من الوقوع في الزلل. كما أن إصدار أي حكم قضائي يتطلب الصبر والأناة والبحث عن الأدلة والتثبت وكل هذه تحتاج إلى زمن ليس بقصير، بالإضافة إلى ذلك أنه يحظر على القاضي العمل بالتجارة أو غيرها، بل يجب عليه التفرغ الكامل لوظيفته.

ولكن ليس بين يدى الآن نص يثبت المبلغ الذي كان يأخذه القاضي في مكة كمرتب لوظيفته في ذلك العهد، ولكن ربما كشفت لنا الوثائق المحفوظة في مصر وغيرها عن هذا المبلغ. على أننا نجد أن بعض القضاة بمكة في هذا العهد كانوا يعملون في وظائف أخرى غير القضاء أشرنا إليها في محلها، كما أن بعض القضاة عمل بالتجارة خلافاً للأصل.

---

(٢٠٢) ابن فهد، **اتحاف**، ص ٤٢٩؛ المقريزي، **السلوك**، جـ ٢، المجلد الثالث، ص ٩٠٤؛ السخاوي، **التبر**، ص١٧، ١٧٦.

(٢٠٣) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٠٥.

(٢٠٤) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٤٣٩، ٤٤٠، ٥١١.

(٢٠٥) الفاسي، **العقد**، جـ٢، ص ٤٧٧؛ ابن فهد، **الدر**، ١/٥٤.

(٢٠٦) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٥٠٨، ٥٢٣، جـ٤، ص ص ٣٩٨، ٤١٥، ٤٤٣، ٦١٢ ـ ٦١٣، ٦٢٥؛ الفاسي، **العقد**، جـ٢، ص ٣٧٥، جـ٤، ص ١١٥.

عزل القاضي:

يعزل القاضي في العادة ـ لأسباب منها[٢٠٧]:

١ ـ إذا ثبت جوره.

٢ ـ أو ثبت أخذه الرشوة من أحد الخصوم.

٣ ـ أو ضعف عن العمل لكبر سن أو مرض لم يرج برؤه.

لكن من الظواهر البارزة في هذا العهد كثرة عزل القضاة، بل أن بعضهم لم يكن يمارس وظيفته إلا المدة التي يستغرقها البريد من مصر إلى مكة أو أقل من ذلك.[٢٠٨] والسبب في ذلك يعود إلى التنافس الشديد بين علماء مكة على تولى هذا المنصب وبذل الجهد لأجل نيله، وطرق كل باب واستعمال كل وسيلة من أجل بلوغ ذلك سواء بالتوسط لدى أعيان مصر أو دفع رشوة للسلطان وأعوانه.

ولا شك أن ازدياد التنافس بين المتنافسين يؤدي إلى الحسد والتباغض بينهم من ناحية والكيد لبعضهم إزاء البعض الآخر من ناحية أخرى.

كما أن تعيين القاضي ـ كما سبق ذكره ـ يتم عن طريق مرسوم سلطاني، فإن عزل القاضي يتم أيضا بنفس الطريقة أي بصدور مرسوم سلطاني بعزله.[٢٠٩]

زي القضاة

لم تشر المصادر التاريخية التي رجعت اليها عن زي القضاة بمكة إلا أن بعضها وصف الخلع التي يرسلها السلطان للقضاة عند تعيينهم، وهي بالنسبة للقاضي الشافعي كاملية بفرو سمور[٢١٠] وهي خلعة سنوية من السلطان للقاضي الشافعي[٢١١]، أما إذا تعين سلطان جديد بمصر فإن العادة أن يرسل للقاضي الشافعي خلعة بمناسبة تعيينه.[٢١٢]

أما خلعة القاضي المالكي فهي جبتان من صوف إحداهما خضراء والفوقانية بيضاء وفوق العمامة طرحة.[٢١٣] ولا نعرف شيئاً عن بقية خلع قضاة المذاهب الأخرى. وهذه الخلع تلبس عند قراءة قرار التعيين ولا تلبس عادة على الدوام.

وليس هناك إشارة في المصادر المتاحة عن نوعية اللباس الذي يلبسه قضاة مكة، إلا أن القلقشندى أشار في كتابه صبح الأعشى[٢١٤]، الى وصف ملابس القضاة في مصر، وربما كان هذا ينسحب على بقية القضاة في بقية البلدان التابعة للدولة المملوكية حيث إنه ذكر أنهم يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قربوس[٢١٥] سرجه إذا ركب، ومنهم من يجعل عوض الذؤابة الطيلسان[٢١٦] الفائق ويلبس فوق ثيابه دلقا متسع الأكمام طويلها، مفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج سابلا على قدميه. ويتميز قاض القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته، وتنسدل على ظهره. وكان قبل ذلك مختصا بالشافعي. ومن دون هذه منهم تكون عمامته ألطف، ويلبس بدل الدلق[٢١٧]فرجية[٢١٨]مفرجة من قدامه من أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار، وليس فيهم من يلبس الحرير ولا ما غلب فيه الحرير، وإن كان شتاء كان الفوقاني من ملبوسهم من الصوف الأبيض الملطي، ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم. وربما لبسه بعضهم من الصوف في الطرقات. ويلبسون الخفاف من الأديم الطائفي بغير مهاميز.[٢١٩]

---

(٢٠٧) احمد عبد العزيز المبارك، «نظام القضاء في الإسلام»، بحث مقدم لمؤتمر **الفقه الإسلامي**، الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٣٩٦هـ (الرياض: إدارة الثقافة والنشر بالجامعة، ١٤٠٤هـ)، ص ١٨٨.

(٢٠٨) الفاسي، **العقد**، جـ١، ص ٣٤٠، ٣٧٤، جـ٢، ص٥٨.

(٢٠٩) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٣، ص ٢٩٦، ٣٥٩، ٤٢٣.

(٢١٠) السخاوي، **التبر**، ص ١٨٦.

(٢١١) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٥٩٦.

(٢١٢) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٥٧٧.

(٢١٣) ابن فهد، **اتحاف**، جـ٤، ص ٦٣٤.

(٢١٤) القلقشندي. **صبح الأعشى**، جـ ٤، ص ٤١.

(٢١٥) القربوس: حنو السرج، وهما قربوسان.

(٢١٦) الطيلسان: نوع من الأوشحة يلبس على الكتف أو يحيط بالبدن، خال من التفصيل والخياطة، ويعرف بالعامية بالشال.

(٢١٧) الدلق: رداء يتكون من عدة قطع من القماش على الوان مختلفة يشبه العباءة.

(٢١٨) فرجية: ثوب واسع طويل الأكمام يتزين به علماء الدين.

(٢١٩) المهاميز: الأربطة.

مركوبهم

كذلك وصف القلقشندى[٢٢٠] مركوب القضاة في مصر وهو أيضا يمكن أن ينسحب على مراكيب بقية القضاة في بقية البلدان التابعة للدولة المملوكية فقال:

فيركبون البغال النفيسة المساوية في الأثمان لسومات الخيول بلجم ثقال وسروج مدهونة غير محلاة بشيء من الفضة، ويجعلون حول السرج قرقشينا من جوخ وهو شبيه بثوب السرج مختصر منه ويجعلون بدل العبى الكنابيش[٢٢١] من الصوف المرقوم محاذية لكفل البغلة. ويمتاز قضاة القضاة بان يجعل بدل ذلك الزنارى[٢٢٢] من الجوخ وهو شبيه بالعباءة مستدير من وراء الكفل ولا يعلوه بردنب ولا قوش، وربما ركبوا بالكنابيش. أما من دون هؤلاء من هذه الطائفة فربما ركبوا الخيول بالكنابيش والعبى.

ألقابهم

كذلك ذكر القلقشندى[٢٢٣] ألقاب القضاة حسب أسمائهم الأولى ـ وهذا لا يخص القضاة فقط وإنما يخص كل طائفة العلماء ـ حيث قال:

قد كان في الزمن الأول لغالب أسمائهم ألقاب لا يتعدونها كقولهم في محمد «شمس الدين» وفي أحمد «شهاب الدين» وفي ابي بكر «زين الدين» وفي عمر «سراج الدين» وفي عثمان «فخر الدين» وفي علي «نور الدين» وفي يوسف «جمال الدين» وفي عبد الرحمن «زين الدين» وفي إبراهيم «برهان الدين» ونحو ذلك ثم ترك أعيانهم ذلك لابتذاله بكثرة الاستعمال وعدلوا إلى ألقاب أخرى ابتدعوها على حسب أغراضهم فقالوا في محمد «بدر الدين» و «صدر الدين» و «عز الدين» ونحوها وفي أحمد «بهاء الدين» و «صدر الدين» و «صلاح الدين» وفي علي «تقي الدين» وفي عبد الرحمن «جلال الدين» ونحو ذلك، ولم يتوقفوا في ذلك على لقب مخصوص، بل صاروا يقصدون المخالفة لما عليه جادة من تقدمهم في ذلك.

وبعد فهذه لمحات عن حال القضاء في مكة في العهد المملوكي، ماله وما عليه ومافيه من إيجابيات وسلبيات، لكني قبل أن اختتم هذا البحث لابد أن أقر أن السبب الرئيس الذي أدى إلى تدهور القضاء وضعف حالهم في هذا العهد بمكة هو أن سلاطين وأمراء هذه الدولة هم الذين أرادوا أن يكون القضاء بهذه الصورة، وأن يكون القضاة ألعوبة في أيديهم يصرفونهم كما يشاءون، ويمنون عليهم بتعيينهم في هذه الوظيفة، ولا شك أنهم استغلوا ناحية مهمة وهي ضعف حال مكة الاقتصادي واعتمادها على مايرد من السلطنة إليها، وتكالب علماء مكة على أن يكون لكل واحد منهم نصيب الأسد مما يرد، فلذلك كان كثير منهم يجمع عدة وظائف في وقت واحد. وعن طريق هذه الوظيفة أو الوظائف يحاول بعضهم جمع أكبر قدر من المال بأسرع وقت عن طريق الرشوة أو غيرها، لأنه يدرك أن بقاءه في الوظيفة مرهون ليس بحسن أدائه للوظيفة وقيامه بواجباتها، وإنما برضاء السلطان والقائمين على الدولة.

ولا شك أن هذا يعبر عن فساد إداري كبير كان متفشيا داخل نظام الدولة المملوكية بدءاً من السلطان وانتهاءً بأصغر موظف في الدولة، ويعبر من ناحية ثانية عن أن كثيرا من أصحاب الوظائف الدينية في مكة في ذلك الوقت قد بلغ بهم طمع الدنيا مرتبة تصل بهم إلى بيع ذممهم إرضاء لهذا أو لذاك.

---

(٢٢٠) القلقشندى، **صبح الأعشى**، جـ٤، ص ٤٢.

(٢٢١) الكنابيش: مفردها كنبوش وهو خمار لتغطية الوجه، وأطلق ايضا على البردعة توضع تحت سرج الفرس.

(٢٢٢) الزناري: كسوة للحصان مفتوحة فوق صدره ومسدولة على الكفل بحيث لا يرى الذيل، وكان الزناري يعطى بدل الكنبوش لمن عظمت مرتبته ومقامه عند السلطان، ويصنع من الأطلس الأحمر او الجوخ.

(٢٢٣) القلقشندى، **صبح الأعشى**، جـ٥، ص ٤٨٩.

العصور . المجلد السادس، الجزء الثاني، ٣١٩ ـ ٣٦٧ (١٩٩١م)

محمد أفضل هروي وأعماله الفنية بمكة المكرمة في أواخر العصر العثماني

للدكتور **ناصر بن علي الحارثي**

ملخص البحث : **تُعَرِّفُ هذه الدراسة بالفنان محمد أفضل هروي الذي نفَّذ أعمالا فنية مهمة في مكة المكرمة في أواخر العصر العثماني، وقد قسمت هذه الدراسة قسمين رئيسين. القسم الأول أفرد للحديث بإيجاز عن حياة هذا الفنان، والقسم الثاني خُصص لأسلوبه الفني، سواء فيما يتعلق بالكتابات، أو أشكال الزخارف، أو الألوان المفضلة لديه، أو الطرق الصناعية التي استخدمها.**

وقد بين البحث أن هذا الفنان من هراة بأفغانستان، وأنه توفي على وجه التقريب في الربع الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، حيث نفذ آخر عمل بمكة المكرمة مؤرخ عام ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م على حد علم كاتب هذا المقال.

وقد تميز أسلوبه الفني بالتأثر بالأسلوب الأوربي في الزخرفة، وبخاصة في طريقة رسم الفروع والأوراق، أما الكتابات فنفذ من أنواعها خطا الثلث والتعليق، غير أن التعليق حظي بنصيب وافر في نقوشه، كما حالفه التوفيق في اختيار الألوان، وتوزيعها، وإحداث التناسق فيما بينها.

خلصت الدراسة إلى أن هذا الفنان على دراية بطرق صناعية مختلفة، من رسم، ونقش بارز، وحفر على مواد متنوعة من خشب وجص وبلاط، فهو إذاً خطاط، ورسام «مزخرف»، ونقاش، مما ينم عن مهارته الفنية وحذقه لصناعته.

تهتم هذه الدراسة بالأسلوب الفني للفنان محمد أفضل هروي، الذي قام بتنفيذ أعمال فنية مهمة في مكة المكرمة، وبخاصة في مسجد الشيخ رحمت الله[1] ـ الملاصق للمدرسة الصولتية الواقعة بالخندريسة في

(١) هو العلامة الشيخ محمد رحمت الله بن خليل بن نجيب الله الحكيم بن عبد الرحيم الحكيم بن قطب الدين بن الشيخ فضيل الحكيم بن عبد الرحيم بن عبد الكريم الحكيم العثماني، ولد في شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م، بمدينة كيرانه التابعة لدلهي، وهو سليل أسرة كريمة اشتهر أفرادها في مختلف المجالات. وقد تلقى تعليمه في مدينته، ثم في دلهي، ثم رحل إلى مدينة لكنو، وتخصص في ادب اللغة الفارسية وعلوم الطب، وبعد تخرجه عاد الى كيرانه، واشتغل بالتدريس، وفي ذلك الوقت كانت الهند ترزح تحت نير الاستعمار البريطاني، فانتشر التنصير، وفشي التهجم على الإسلام والرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فهب رحمه الله تعالى للدفاع عن الحرمات الإسلامية، وتطلب هذا الأمر منه دراسة المسيحية، واستلزم منه ذلك الاطلاع على المصادر الأجنبية والوثائق المسيحية، ولكنه لم يكن ملما باللغة الإنجليزية، فقيض الله له الدكتور محمد وزير خان الاكبر آبادى، الذي درس الطب في لندن، حيث ترجم للشيخ كثيراً من الكتب، وفي هذه الفترة ازداد أمر القس فندر، فرأى الشيخ ان السبيل الوحيد لإيقافه عند حده منازلته في لقاء عام يحضره الناس، وبالفعل تحدد موعد المناظرة، وهزم فيها فندر هزيمة نكراء، مما ادى الى هروبه، فاشتد غضب الإنجليز على المسلمين فنصبوا المشانق لهم، وارتكبوا المذابح، وصدر الأمر بإعدام الشيخ رحمت الله، ومنح الإنجليز مكافأة مجزية لمن يدل عليه وصادروا أملاكه، فقرر الهرب الى مكة المكرمة التي وصلها ←

حارة البـاب ـ الذي بنـي في سنـة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م[٢]، وأجـريت عليه إضافات أخرى في سنة ١٣٠٤هـ /١٨٨٦م[٣] إلى جانب دراسـة الأعمـال الفنية التي نفذها هذا الفنان في منزل عباس قطان[٤] الكـائن بحي الشـامية، والمؤرخ سنة ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م[٥] ومنزل إسماعيل عبد القادر إسماعيل[٦] الواقع بشعب علي، والذي يعود تاريخه للنصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري.

وقـد أدرجنـا الأعمال الخشبية المنفذة في منزل عباس قطان على أساس أنه رسم أو نقش عليها، كما وقع على بعض منها، ولا يعني ذلك أنه كان نجاراً، حيث إننا لم نتثبت من ذلك. أما فيما يخص منزل إسماعيل عبد القادر إسماعيل فقد تعذر على الباحث عمل ترجمة عن صاحب المنزل، إذ بسؤال بعض كبار السن عن ذلك، أفادوا بتعاقب عدد من الملاك كان آخرهم إسماعيل، وعليه فلم تتوافر لدينا أي معلومات عن صاحب المنـزل المعـاصر للفنـان محمد أفضل هروي، وقد أدرجنا الأعمال الجصية في هذا المنزل ضمن دراستنا، لما لاحظناه من التشابه في المواضيع وأسـاليب التنفيذ، ففي زخرفة التوريق المنفذة على الجص يلاحظ انتهاء الفرع النباتي بثلاثة أشكال دائـريـة متتابعة وبارزة، وهذه إحدى مميزات هذا الفنان، إذ نفذها قبل ذلك في مسجد الشيخ رحمت الله، ومنزل عباس قطان، أما الكتابات المنفذة بخط الثلث بالرسم بالألوان على الجص أيضـا فتمـاثـل أشكـال الحـروف مثيـلاتهـا المنفذة بخط الثلث في المبنيين المشار اليهما آنفا. لوحة رقم (٤١) شكل رقم (١٠/٧) جدول رقم (٢) النص رقم (٦).

ويندرج هذا البحث ضمن اهتمامي بالتسجيل العلمي الأثـاري الإسـلامي في بلادنـا، وخاصة في الحجاز، وحسب علمي لم يتطرق أحد من الباحثين لهذا الموضوع من قبل.

كمـا ينطوي هذا الموضوع على أهمية قصوى، بالنظر إلى أن الأعمال الفنية الموقعة تحظى من قبل علماء الآثار الإسلامية بعناية خاصة، حيث تمدهم التوقيعات بكثير من المعلومات، مثل: أسماء الصناع، وتخصصـاتهم ومـراتبهم الفنيـة، وتتبـع العلاقات الأسرية بين أصحاب الحرفة الواحدة. لتعذر ذلك في أكثـر المـؤلفات التاريخية التي كثيراً ما تنصب على التاريخ السياسي ورجاله.[٧]

وفي بعض الحالات يمكن من خلال الاسم الرجوع إلى كتب التراجم للبحث فيها عن الفترة التي عاشها هذا الفنان أو ذلك، مما يمكننا من وضع تاريخ تقريبي

ـ سنـة ١٢٧٤هـ ١٨٥٧م. فتعـرف عليه علماؤها، ورحبوا به. وأكبروا فيه جهاده. ومنحه شيخ علماء مكة آنذاك السيد أحمد زيني دحلان إجازة التدريس بالمسجد الحرام. وبعد فترة أسس المدرسة الصولتية المعروفة. ومن أهم مؤلفاته التي أثنى عليها العلماء كتاب إظهار الحق. وتوفي رحمه الله بمكة المكرمة في الثاني والعشرين من شهر رمضان من عام ١٣٠٨هـ. الموافق الأول من شهر مايو عام ١٨٩١م. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته. عمر عبد الجبار، **سير وتـراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة**، سلسلة الكتاب العربي السعودي رقم ٦٧، ط٣ (جدة: دار عكـاظ للطباعة والنشر، تهامة للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م)، ص ص ١٠٨ ـ ١١٢: محمـد علي مغـربي، **أعـلام الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري ١٣٠١ ـ ١٤٠٠هـ / ١٨٨٣ / ١٩٨٠م**، (جـدة: دار العـلم للطبـاعـة والنشر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، الجزء الثاني، ص ص ٢٨٦ ـ ٣١٣.

(٢) لوحة رقم (٤).

(٣) اللوحات رقم (٨ ـ ٩).

(٤) بدئ هذا المنزل المرحوم الشيخ يوسف قطان أحد أعيان مكة جاها وثراء وكان وزيرا للنافعة (الأشغال العامة) في عهد الملك الشريف حسين بن علي، كما كان على صلة بأمراء مكة قبل ذلك، وقيل إنه الذي أشرف على بناء قصر شبرا في الطائف، كما كان من المقربين للمغفور له الملك عبد العزيز بعد فتح الحجاز، وقد زاره الملك عبد العزيز رحمه الله في هذا المنزل عندما علم بمرضه. وقد آل هذا المنـزل بعـد وفاته الى ابنه عباس قطان المولود سنة ١٣١٣هـ. والمتوفي صباح يوم الاثنين ١٦ رجب عام ١٣٧٠هـ: محمد علي مغربي، **اعلام الحجاز في القرن الرابع عشرة للهجرة ١٣٠١ ـ ١٤٠٠هـ / ١٨٨٣ ـ ١٩٨٠م**، ط١ (جدة: تهامة للنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)، ص ص ٧٧ ـ ٨٧.

(٥) لوحة رقم (٣٦).

(٦) لوحة رقم (٤١)، وقد أزيل هذا المنزل مؤخرا.

(٧) حسـين عبـد الرحيم عليوه، «دراسة لبعض الصناع والفنانين بمصر في عصر المماليك،» **مجلة كلية الآداب بجامعة المنصورة**، العدد الأول مايو ١٩٧٩م، ص ص ٩٨ـ٩٩.

للأعمال الفنية غير المؤرخة.[٨]

فضلا عن نسبة أعمال فنية غير موقعة بالمقارنة بالأسلوب الفني فيما بينها وبين الأعمال الفنية الموقعة، وتصنيفها في مدرسة واحدة، لإبراز خصائها الفنية، ووضعها في مكانها المناسب بين المدارس الفنية الأخرى، ثم دراسة أثرها الفني فيما بعد.

نبذة مختصرة عن الفنان

لم أتمكن من العثور على ترجمة وافية عن حياة هذا الفنان في المصادر والمراجع. التي أطلعت عليها، فيما عدا إشارة واحدة أوردها الكردي[٩] ذكر فيها اسم هذا الفنان الخطاط في سياق القائمة التي أفردها لأسماء الخطاطين المسلمين، وأشار في الهامش إلى أن هذا الفنان كان موجوداً سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨١م، حيث قام بكتابة البسملة وأسماء الخلفاء الأربعة على باب علي بن ابي طالب - رضي الله عنه - بالمسجد الحرام، وقد أشار إلى هذه الكتابة دون ذكر اسم كاتبها إبراهيم رفعت باشا،[١٠] الذي أشار إلى موضعها بأنه على يسار الداخل من باب العباس، كما أشار إليها باسلامة،[١١] وحددها بدقة، حيث ذكر أنها مكتوبة في داخل المسجد الحرام بين باب العباس وباب علي بن أبي طالب.

ومن توفيق الله سبحانه وتعالى أنني وجدت بعض المعلومات المهمة التي تلقي الضوء على جوانب من حياة هذا الفنان لدى الشيخ مسعود سليم رحمت الله - مدير المدرسة الصولتية - الذي أخبرني نقلا عن أبيه عن جده أن هذا الفنان من هراة بأفغانستان، ومن أهل السنة والجماعة، وكان يتلقى دروسا في العلوم الشرعية واللغوية على يد جده الشيخ رحمت الله، خلف مقام الحنفي عند باب الزيادة بالجهة الشمالية من الحرم المكي الشريف، كما كان يكمل دروسه بالمدرسة الصولتية، فضلا عن اشتغاله بتعليم الخط العربي لطلبة هذه المدرسة، حيث عثر على اسمه في بعض الملفات القديمة التي تحتفظ بها إدارة المدرسة.

ومما يلفت النظر في هذه الرواية التي حفظها الشيخ مسعود رحمت الله أن أصل هذا الفنان من أفغانستان، وهو أمر غير مستغرب، لأن وجود صناع مسلمين بمكة المكرمة من ذوي الأصول غير العربية أمر مألوف منذ فجر الإسلام فقد هاجر إلى هذه المدينة المقدسة كثير من المسلمين، ومن بينهم العلماء والصناع، وبمرور الزمن استوطن بعضهم فيها، وَعُدَّ من سكانها، وبعضهم عاد إلى موطنه الأصلي الذي قدم منه، على أنه ينبغي أن نشير هنا إلى أن ظروف استيطانهم بمكة تختلف من شخص لآخر، فمنهم من قدم أباؤه إليها وولد بها، ومنهم من هاجر إليها في طفولته بصحبة أهله، وبعضهم قدم إليها في شبابه أو شيخوخته، وبعضهم كان يتردد عليها في المواسم، وهذه الاحتمالات نضعها نصب أعيننا بخصوص الفنان محمد أفضل هروي، وإن كنت أميل إلى الأخذ بالاحتمال الأخير لعدة أسباب، هي:

١ - كان بعض الصناع المسلمين يفدون إلى مكة المكرمة للحج والعمرة ويمكثون بها وبغيرها من مدن الحجاز ثلاثة أو أربعة أشهر أو أقل من ذلك، لتنفيذ أعمال فنية، وتعليم المبتدئين من الصناع الحجازيين.[١٢]

٢ - عدم ورود اسم هذا الفنان ضمن قائمة الخطاطين الحجازيين التي أعدها الكردي، بل

---

(٨) ناصر بن علي الحارثي. **تحف الاواني والأدوات المعدنية في العصر العثماني - دراسة فنية حضارية**. رسالة دكتوراه، مكة المكرمة جامعة ام القرى، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م). المجلد الأول. ص٢٠٢.

(٩) محمد طاهر الكردي. **تاريخ الخط العربي وآدابه** (الرياض: الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، د.ت). ص ٢٨٨.

(١٠) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية** (بيروت: دار المعرفة د.ت). الجزء الأول. ص ٢٣٠

(١١) حسين عبد الله باسلامه. **تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك**. ط٣ سلسلة الكتاب العربي السعودي رقم ١٦ (جدة تهامة للنشر والتوزيع. ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م). ص١١٩

(١٢) عبد القدوس الانصاري. **موسوعة تاريخ مدينة جدة**. ط٣ (القاهرة دار مصر للطباعة. ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م). الجزء الثاني. ص ٤٤٦؛ مغربي. **أعلام**. ص ٣٠٠

أورد أسمه في قائمة الخطاطين المسلمين.[١٣]

٣ ـ اهتمام هذا الفنان بتسجيل اسمه على الأعمال التي أنجزها في مكة المكرمة، على غير عادة الصناع المكيين في معظم الأحيان، مما يوحي بحرصه على تسجيل اسمه في هذا البلد الأمين، فضلا عن التعريف بشخصيته ومهارته.

٤ ـ تذكر الروايات[١٤] أن الشيخ رحمت الله عندما أراد أن يبني مسجده استفاد من وجود عدد من المعلمين والصناع الهنود الذين قدموا للحج فاستأجرهم للقيام ببناء المسجد، ومما يدعم هذا الرأي أن المسجد مصمم على غرار مساجد الشرق الإسلامي التي تتميز بقبة أو أكثر ذات شكل بصلي، ومآذن صغيرة متعددة، ومدخل واجهته ثرية بالأشكال الزخرفية والكتابية، وهذه المميزات من السمات الرئيسة للفن الهندي الإسلامي، وبخاصة في العصر المغولي.[١٥]

أما فيما يتعلق بوفاة هذا الفنان فإننا لا نستطيع الجزم بتاريخ محدد لوفاته، ولكن يغلب على الظن أنه توفي في الربع الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، حيث إن آخر عمل نفذه في مكة المكرمة مؤرخ بعام ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م.[١٦]

وتتوقف معلوماتنا عن هذا الفنان عند هذا الحد، وقد تكشف دراسات في المستقبل عن كثير من جوانب حياته

إنتاجه وأسلوبه الفني

تدور دراستنا للأسلوب الفني للفنان محمد أفضل هروي حول أربعة محاور أساسية، هي: الكتابات التي خطها، والزخارف التي نفذها، والألوان التي اختارها، وكيفية توزيعه لها، والطرق التي استخدمها.

أولا : النصوص الكتابية

تشتمل دراستنا للنصوص الكتابية التي نفذها هذا الفنان على ست نقاط رئيسة، الأولى: عرض النصوص مرتبة بحسب تسلسلها التاريخي، سأوضح فيها مكانها، تاريخها، خطها، لغتها، عدد أسطرها، مضمونها، طريقة تنفيذها، الألوان التي اختارها، والنص، والتعليق عليه، مع إجراء التصويبات اللازمة لبعضها. والنقطة الثانية عن أنواع الخط، والثالثة عن أشكال الحروف، والرابعة عن قواعد الكتابة، والخامسة عن مضمون النصوص، أما النقطة السادسة فقد أفردتها لتقويم هذه النصوص من الناحية الأدبية.

عرض النصوص الكتابية

١ ـ النص الأول

التعريف بالنص : نص تأسيسي في شكل قصيدة وبيت من الشعر يؤرخ للمبنى بحساب الجمل، نفذت بالنقش البارز، وتوقيع الفنان بالرسم على الملاط باللون الأبيض على أرضية زرقاء اللون، وذلك كله بخطي التعليق والثلث، في واجهة مسجد الشيخ رحمت الله، الواقعة بالطرف الشرقي من جدار القبلة، اللوحات «٢ ـ ٦»، جدول رقم «١/ نقش رقم١» شكل رقم«١»

تاريخه : ١٣٠٢هـ، بالأرقام، وبحساب الجمل.

عدد أسطره : أربعة عشر سطرا، منها اثنا عشر سطراً للقصيدة، وسطر واحد لاسم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وآخر لتوقيع الفنان.

النص

(١) على ايمن الدانين بالسفح من كدا.

(٢) مقام كريم للمصلى تجددا.

(٣) دعائمه شيدت على البر والتقى.

(٤) وارجاؤه للدين والعلم والهدا[١٧]

---

(١٣) الكردي، ص ٢٨٨.

(١٤) مغربي، اعلام، جـ٢، ص ٣٠٠.

(١٥) محمد رياض العتر. **مذكرات عن الفن الإسلامي في الهند في العصر المغولي** (مكة المكرمة: محاضرات القاها على طلبة الدراسات العليا التاريخية والحضارية بجامعة ام القرى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).

(١٦) لوحة رقم (٣٦).

(١٧) قراها عمر عبد الجبار (الهدى)، والصحيح ما اثبتناه. عبد الجبار، **سير**، ص ١١١.

(٥) احاطت به الانوار من كل جانب «الله».
(٦) وطاب لاهل العلم والرشد موردا.
(٧) بناه الهمام البحر[١٨] ذو الفضل والندى.
(٨) ولاغرو قد اضحى اماما مجددا.
(٩) فلله ما ابدا:[١٩] ذا[٢٠] الحبر[٢١] في الورى.
(١٠) من النفع في نشر العلوم وشيدا.
(١١) له الفوز ماقال النظيف مؤرخا.
(١٢) بما فاد[٢٢] انشا رحمت[٢٣] الله مسجدا.
(١٣) محمـــــد.
(١٤) حرره محمد أفضل هروى ١٣٠٢هـ.

الملاحظات:

١ ـ أغفل الفنان همزة القطع في كل من (أيمن) و (أرجاؤه)، و (أحاطت) و (الأنوار)، و (لأهل) و (أضحي) و (إمام) و (أبداه)، و (أنشأ) و (أفضل).
٢ ـ أهمل الفنان النقطتين في الياء المقصورة في كل من (للمصلي)، و (هروي).
٣ ـ وردت كلمة (الهدى) هكذا (الهدا) بخلاف رسم المصحف الشريف.
٤ ـ اختصر الشاعر بعض الكلمات: لمقتضيات الضرورة الشعرية، مثل:
كلمة (هذا) التي اختصرها إلى (ذا)، وكلمة (أفاد) التي أختصرها فاصبحت في النص (فاد).

النص الثاني

التعريف بالنص : أبيات من الشعر في مدح المنشيء والمنشأة باللغتين العربية والفارسية، وتوقيع الفنان، وذلك بخط التعليق، بالإضافة إلى الشهادتين التي نفذت بخط الثلث، بالرسم على الجص، باللون الأصفر على أرضية ذات لون أزرق، داخل أشرطة مستطيلة الشكل للأبيات وبيضي لشهادة التوحيد، وذلك الجانب العلوي من طاقية محراب الشيخ رحمت الله، اللوحات (٧ ـ ٩)، شكل رقم(٢).

تاريخه : ١٣٠٤هـ

عدد أسطره : وزعت الكتابة في أربعة أشرطة مستطيلة الشكل، أفقية الوضع، بكل من الشريط الأول والثاني سطر واحد، وبالشريطين الثالث والرابع سطران، ويفصل بين كل شريطين شكل بيضي، أفقي الوضع.

النص:

(١) بسكه خوش منظر است اين مسجد، وترجمته: ما أجمل منظر هذا المسجد.
(٢) مارى العين مثله الثاني.
(٣) لا اله الا الله محمد رسول الله.
(٤) كشت تاريخ خانه رحمت، وترجمته: جاء تاريخه بيت الرحمة.
(٥) ١٣٠٤.
(٦) رحمة الله قل على البانى.
(٧) حرره محمد افضل هروى.

الملاحظات:

١ ـ أغفل الفنان همزة القطع في كل من (إست) و (أين) و (إله) و (أفضل).
٢ ـ أهمل النقطتين في التاء المربوطة في كلمة (بسكة) وأيضا في الياء المقصورة في كل من (الباني) في السطر الأول من الشريط الأخير، و (هروي) في السطر الثاني من الشريط نفسه.

---

(١٨) قراها محمد عمر رفيع (الحبر). والصحيح ما اثبتناه. **مكة في القرن الرابع عشر الهجري**. ط١ (مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م)، ص ٣٣٣.
(١٩) قراها عمر عبد الجبار (ما ابدى). والصحيح ما اثبتناه. عبد الجبار. **سير**. ص ١١١.
(٢٠) قراها عمر عبد الجبار (من). والصحيح ما اثبتناه. عبد الجبار. **سير**. ص ١١١.
(٢١) قرأها عمر عبد الجبار (الخير). عبد الجبار. **سير**. ص ١١١؛ وقرأها محمد عمر رفيع (البحر). والصحيح ما أثبتناه. رفيع. **مكة**. ص٣٣٣.
(٢٢) قرأها محمد عمر رفيع (قاد). والصحيح ما أثبتناه؛ رفيع. **مكة**. ص ٣٣٤.
(٢٣) قرأها عمر عبد الجبار (رحمة) بالتاء المربوطة. عبد الجبار. **سير**. ص ١١١. وكذلك رفيع. **مكة**. ص ٣٣٤. وذلك مخالف لما ورد في النص.

النص الثالث

التعريف بالنص : اثنا عشر اسما، هي : لفظ الجلالة (الله) واسم الرسول عليه الصلاة والسلام، وأسماء العشرة المبشرين بالجنة نفذت على الملاط بالرسم باللون الأزرق على أرضية ذات لون أبيض، بخط التعليق، في منتصف واجهات العقود السفلية لقباب رواق القبلة بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل، اللوحات رقم (١١ ـ ١٤، ١٨ ـ ٢١، ٢٤ ـ ٢٧) جدول رقم (١/ نقش رقم ٢)، شكل رقم (٣).

تاريخه : ١٣٠٤هـ.

عدد أسطره : وزعت الكتابة داخل اثني عشر منطقة شبه دائرية، بمعدل منطقة واحدة في واجهة كل عقد من عقود القباب الثلاث وبكل منطقة سطر واحد.

النص

القبه الوسطي:

واجهة العقد الجنوبي : الله جل جلاله

واجهة العقد الشمالي : محمد صلى الله عليه وسلم.

واجهة العقد الغربي : ابو بكر رضى الله عنه.

واجهة العقد الشرقي: عمر رضى الله عنه.

القبه اليمنى :

واجهة العقد الجنوبي : عثمان رضى الله عنه.

واجهة العقد الشمالي : علي رضى الله عنه.

واجهة العقد الغربي : سعد رضى الله عنه.

واجهة العقد الشرقي : سعيد رضى الله عنه.

القبة اليسرى:

واجهة العقد الجنوبي : زبير رضى الله عنه.

واجهة العقد الشمالي : ابو عبيدة رضى الله عنه.

واجهة العقد الغربي : عبد الرحمن رضى الله عنه.

واجهة العقد الشرقي : طلحه رضى الله عنه.

الملاحظات:

١ ـ أغفل الفنان همزة القطع في كل من (أبوبكر) و (أبو عبيدة)

٢ ـ أهمل الفنان النقطتين في كلمة (رضي) الواردة بعد الأسماء الآتية: أبوبكر، عمر، أبوعبيدة، زبير، عبد الرحمن، طلحة.

٣ ـ كبر الفنان حجم حروف الأسماء، بينما صغر حجمها في العبارات الملحقة بكل اسم.

النص الرابع

التعريف بالنص: توقيع الفنان على زخرفته للسقف الخشبي، نفذ بالرسم باللون الأزرق على أرضية ذات لون أصفر، بخط التعليق، في الجهة الجنوبية من سقف الديوان الرئيس بالطابق الثاني في منزل عباس قطان. لوحة رقم (٣٦) جدول رقم (١/ نقش رقم ٤)، شكل رقم (٤).

تاريخه : ١٣٢٠هـ.

عدد أسطره : سطر واحد.

النص :

١ ـ عمل محمد أفضل هروى غفر له.

الملاحظات

١ ـ أغفل الفنان النقطتين في كلمة(هروي)

٢ ـ صغر حجم الحروف في العبارة الدعائية الملحقة بالتوقيع.

النص الخامس

التعريف بالنص : عبارة دعائية مقتبسة من القرآن الكريم، نفذت بالنقش البارز، وبخط الثلث، بجانبي: روش خشبي بالواجهة الرئيسة في منزل عباس قطان، لوحة رقم (٤٠)، جدول رقم (٢/ نقش رقم٢) شكل رقم (٤).

تاريخه : ١٣٢٠هـ

عدد أسطره : سطر واحد.

النص :

(١) هذا من فضل ربى.

الملاحظات :

١ ـ لم يضع الفنان نقاط بعض الحروف فوق

الحرف نفسه رغم وجود مساحة كافية، مثل نقطة حرف (الذال) في كلمة (هذا)، ونقطة حرف (الفاء) في كلمة (فضل).

٢ ـ أهمل النقطتين في الياء، كما يشاهد في كلمة (ربي).

٣ ـ اهتم بالتشكيل.

النص السادس

التعريف بالنص: اقتباس قرآني من آية رقم ٥٣ من سورة النحل، نفذ على الجص بالرسم بالألوان: الأبيض على أرضية ذات لون أسود، وبخط الثلث، تحت مركز عقد بوابة الدخول الرئيسة بمنزل إسماعيل عبد القادر إسماعيل لوحة رقم (٤١)، جدول رقم (٢/ نقش رقم٣)، شكل رقم(٦).

تاريخه: النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري.

عدد أسطره: سطر واحد.

النص:

(١) وما بكم من نعمة فمن الله.

الملاحظات:

١ ـ أغفل نقطة الباء في كلمة (ومابكم).

٢ ـ اهتم بالتشكيل.

٣ ـ قام بدمج بعض الحروف مع حروف أخرى، وذلك لضيق المساحة.

٢ ـ أنواع الخط

استخدم الفنان محمد أفضل هروي من أنواع الخط العربي، خط التعليق في المقام الأول[٢٤] ثم الثلث[٢٥]، ومن الواضح أن هذا الفنان كان عارفا بفن الخط، تشهد على ذلك مجموعة النصوص التي نفذها على مواد مختلفة، مما يثبت تمكنه من التعامل مع المواد المختلفة، كالخشب، والجص، والملاط.

ومن اللافت للنظر في بعض الكتابات التي نفذها بخط التعليق انتهاء بعض الحروف بوريقات نباتية،[٢٦] ولذلك أطلقت على هذا الأسلوب اسم (خط التعليق المورق).

٣ ـ أشكال الحروف

يلاحظ أن الفنان محمد أفضل هروي قد قام بملء مناطق الفراغ فيما بين الحروف والكلمات بعناصر ورقية نباتية، كما أنه وصل نهايات بعض الحروف بهذه العناصر، ومن أمثلة ذلك حرف (النون) في كلمة (من) بالشطر الأول من البيت الثالث من القصيدة المنفذة بواجهة مدخل مسجد الشيخ رحمت الله.[٢٧]

وهو أسلوب لم نألفه في معظم الكتابات التي نفذت بخط التعليق، وإذا اعتبرناه إضافة أو تجديداً من الفنان، بغرض زيادة جمال هذا النوع من الخطوط، إلا أنه لا يرقى الى جمال أسلوب السحب الذي صار عليه كبار خطاطي التعليق،[٢٨] ولكنه يعتبر أفضل بكثير من الكتابة بخط التعليق على أرضية زخرفية، الذي أقبل عليه بعض الخطاطين.[٢٩]

وقد ندر ظهور هذا الأسلوب في أعمال من سبق الفنان محمد أفضل هروي، غير أنه شوهد في بعض الحروف في لوحة بخط خطاط مصري جاء بعده، وهو

(٢٤) اللوحات رقم (٤، ٨، ١١ ـ ١٤، ١٨ ـ ٢١، ٢٤ ـ ٢٧، ٣٦). والتعليق أحد الخطوط التي ظهرت في إيران، ويمتاز بليونته واستدارة حروفه واستلقائها، وكثرة عرضها من جزء لآخر، وبعضها يكتب بثلث قطة القلم، ناجي زين الدين، مصور الخط العربي (بغداد: مطبعة الحكومة مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ص ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦؛ محمد عبد العزيز مرزوق، الزخرفة الإسلامية في العصر العثماني (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م)، ص ١٧٦.

(٢٥) اللوحات رقم (٤، ٨، ٤٠، ٤١). والثلث يعرف بأم الخطوط، وقد تطور عن خط النسخ وسمي ثلثاً لأنه في حجم يساوي ثلث حجم خط النسخ الكبير الذي كان يكتب به على الطومار، والطومار هو الدرج أي الملف المتخذ من البردي أو الورق وكان يتكون من عشرين جزءاً يلتصق بعضها ببعض في وضع أفقي ثم يلف على هيئة اسطوانة وكان $\frac{1}{6}$ الدرج يسمى طوماراً ويكتب عليه بخط نسخي كبير عرف بخط الطومار، ومنه تولد خط الثلث، الكردي، تاريخ، ص ١٠١، ومرزوق، الفنون، ص ١٧٥.

(٢٦) لوحة رقم (٤).

(٢٧) لوحة رقم (٤).

(٢٨) زين الدين، مصور، ش ش ٦٤١، ٦٤٣، ٦٤٦، ٦٤٩.

(٢٩) زين الدين، ش ش ٦٣٩، ٦٤٢، ٦٤٤.

سيد عبد القادر المعروف باسم (الحاج زايد)، (١٣١٤ ـ ١٣٩١هـ/١٨٩٦ ـ ١٩٧١م).[٣٠]

أما فيما يتعلق بملاحظاتنا على كل نص ومدى موافقته لموازين الخط وقواعده.[٣١] فيلاحظ أن النص الأول لا يرقى لمستوى خط التعليق، الذي انتشر في شرق العالم الإسلامي، وبخاصة في إيران.

ويتضح هذا الأمر عندما نخضع حروف النص لميزان خط التعليق (النستعليق)، الذي وضعه مير علي التبريزي، كما هو الحال في حروف الباء وأخواتها، والجيم وأخواتها، والعين وأختها، والضاد، وبخاصة ماكان ملتصقا.

ويرجع ذلك إلى أن النص نُفِّذَ بأسلوب النقش البارز وهو أسلوب أصعب من الرسم، ومما يؤيد هذا الرأي ظهور التوقيع المنفذ بطريقة الرسم بالألوان في النص نفسه بمستوى فني جيد.

كما يلاحظ أن الفنان لم يلتزم في الأسطر المستقيمة بقاعدة خط التعليق سواء من حيث توزيع الحروف، أو نسبها إلى بعضها، وربما يرجع هذا الأمر لمساحة المكان المنفذة به، ومقدار النص.

أما الكتابات المنفذة بالمنطقة العلوية من طاقية المحراب[٣٢] فقد جددت ألوانها، ومن الإجحاف الحكم عليها، حيث يبدو أن الذي جدد الألوان غير متخصص في الخط، وعليه لا يمكن إخضاع حروفها لميزان خط التعليق.

وبالنسبة للكتابات الممثلة بقباب المسجد[٣٣] فلم يلتزم الفنان بقاعدة خط التعليق على أصولها، رغم أن هذه الكتابة نفذت بالفرشاة، وربما كان لضيق المساحة المخصصة للكتابة، وبُعْد الموضع عن الأرضية أَثَّر في ذلك.

أما الكتابة المنفذة بسقف الديوان الرئيس في الطابق الثاني بمنزل عباس قطان المؤرخ سنة ١٣٢٠هـ[٣٤] فيبدو فيها رقي مستوى هذا الفنان، حيث طبق قاعدة خط التعليق إلى حد كبير، سواء من حيث رسم الحروف، أو التوزيع فالتطور في مستواه الفني واضح جلي، لأنه نفذها بعد ثمانية عشر عاما من تنفيذه للنص الأول، وستة عشر من تنفيذه للكتابات التي بداخل المسجد، وهي مدة طويلة كان لها أثر في صقله وإكسابه المهارة اللازمة.

وفيما يتعلق بالكتابات المنفذة بخط الثلث فظهر معظمها في صورة فنية جيدة، فيما عدا تنفيذه للفظ الجلالة (الله) في النص الأول،[٣٥] حيث رسم بعض حروفه بشكل مخالف لما درج عليه مشاهير الخطاطين، فمثلا جعل سمك حرف الألف عند الزلف والذيل أكثر من ثلث القلم، كما لم يوفَّق في رسم اللفظ على قاعدة خط الثلث، سواء من حيث المسافات التي بين الحروف أو الكتابة على خط مستقيم.

ولكن هذا الفنان وفق الى حد ما في النصين الخامس والسادس، ففي النص الخامس[٣٦] نلاحظ أنه التزم في كتابته للنص بقواعد خط الثلث المتعارف عليها في تلك الفترة، إلا أنه لا يوجد تناسب بين حرفي (الهاء) و(الذال) في كلمة (هذا)، حيث ورد حرف (الهاء) أصغر من الحجم المطلوب، الذي لابد أن يتناسب مع حرف (الذال). كما رسم حرف (الفاء) في كلمة (فضل) بالنسخ، فجاءت غير متناسبة مع ما بعدها.

---

(٣٠) فوزي سالم عفيفي، **نشأة وتطور الكتابة العربية ودورها الثقافي والاجتماعي**، ط١ (القاهرة: وكالة المطبوعات بالكويت، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م)، ش ٢٣٥، ص ٤٦٠.

(٣١) وضع الخطاطون المسلمون مقاييس أو معايير للخط، اصطلح على تسميتها موازين أو نسباً فاضلة، ليسير على منوالها كل خطاط، ويعد ابن مقلة (٢٧٢ ـ ٣٢٨هـ) أول من وضع ميزانا للخط، وقد اعتمدت الألف مقياسا في جميع الحروف، إذ قيست بنقاط معينة، وأفضل النسب ماكان عرض الألف فيه إلى طوله بمقدار الثمن، لمزيد من التوسع أنظر:

Hakkak Zade Mustafa Hilmi Efendi, *Mizanu,l hatt*, Baskiya Hazirlayan: Abdulkadi deDeoglu (Istanbul: Osmnli Yaylnevi, 1986), pp. 14-39.

ويعد هذا الكتاب من أوفى الكتب المتخطخطة في موازين الخط، وأنظر أيضا: إبراهيم جمعة، **قصة الكتابة العربية**، ط٣ (القاهرة: المطبعة العالمية، ١٩٨١م)، ص ص ٥٠ ـ ٥٤.

(٣٢) لوحة رقم (٨).

(٣٣) اللوحات رقم (١١-١٤، ١٨-٢١، ٢٤-٢٧).

(٣٤) لوحة رقم (٣٦).

(٣٥) لوحة رقم (٤).

(٣٦) لوحة رقم (٤٠).

أما النص السادس[٣٧] فقد نفذ داخل شكل بيضي، مما أدى الى إعادة ترتيب الحروف والكلمات، فأرسل حرف (الواو)، ولم يلتزم بالقاعدة المتعارف عليها عند رسمه الحروف سواء مرسلة أو ملفوفة، وكذلك الحال في حرف الميم في كلمة (ومابكم)، أما بقية رسم الحروف فقد وفق في رسمها، وبخاصة في رسم لفظ الجلالة (الله) إذا ما قورن بلفظ الجلالة (الله) المنفذ بالنص الأول.

وفيما يلي جداول توضيحية تبين أشكال الحروف في كل نص من النصوص الكتابية التي نفذها الفنان محمد أفضل هروي، بخطي التعليق والثلث سواء أكانت الحروف مفردة، أم ملتصقة؛ مبتدئية، أم وسطى، أم منتهية.

٤ ـ قواعد تنفيذ حروف الكتابة

نظراً لارتباط الأعمال الفنية التي نفذها الفنان محمد أفضل هروي بمنشآت معمارية، فقد أثر التصميم المعماري على طريقة توزيع الكتابات والزخارف في المواضع التي رسم أو نقش فيها.

ففي النص التأسيسي المنفذ بواجهة مدخل مسجد الشيخ رحمت الله[٣٨] نجد أنه وزع النص بالمنطقة العلوية من الواجهة، بخلاف ماهو شائع في العمارة العثمانية من وضع النص التأسيسي في منطقة مستطيلة، أو مربعة، أو دائرية، أو بيضية فوق العتب العلوي للباب مباشرة.

ويرجع استخدام هذا الفنان لتلك الطريقة تأثره بطريقة ملء واجهة المدخل بالزخارف والكتابات، وبخاصة في المباني الدينية، وهو أسلوب استخدم بكثرة في العمارة السلجوقية، وخير مثال على ذلك واجهة مدخل مدرسة إينجه منارة لى في قونيه التي انشئت عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م.[٣٩]

كما عرفته العمارة الصفوية، ومن أمثلة ذلك واجهة مدخل مسجد شاه بميدان أصفهان والذي شيد فيما بين سنتي ١٠٣٨ ـ ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٨ ـ ١٦٢٩م.[٤٠]

ثم انتشر في الهند، وبخاصة في العصر المغولي، ومن أوضح الأمثلة على ذلك واجهة مدخل تاج محل الذي بني فيما بين سنتي ١٠٣٩ ـ ١٠٥٨هـ / ١٦٣٠ ـ ١٦٤٨م.[٤١]

ومن حيث التوزيع نجد أنه خضع للتصميم العام للواجهة، ومقدار النص، فقد وزعه الفنان على النحو التالي: البيتان الأول والثاني نفذا بالجانب الأيمن من المنطقة العلوية، والبيت الثالث بالجانب العلوي، والبيتان الرابع والخامس بالجانب الأيسر، أما البيت السادس (الأخير) فقد نفذ بالعتب العلوي للباب نفسه، كما نفذ توقيع الخطاط تحت مركز العقد الذي يحلي الواجهة.

وقد أدى هذا التوزيع إلى تصغير حجم الحروف في أبيات الجانبين الأيمن والأيسر، بينما كبر حجمها في البيتين المنفذين بالجانب العلوي والسفلي.

وفضلا عن ذلك فقد اتبع الفنان أسلوبا عسيرا في توزيع الأبيات، فمن جهة نلاحظ في أبيات الجانبين الأيمن والأيسر أن الفنان لم يكمل الشطر الأخير من كل بيت في السطر الذي كتب فيه الشطر الأول، بل كتبه في الشطر الذي تحته، مما أدى إلى أن الناظر اليه يعتقد أن الشطر الأول من البيت الثاني ليس إلا الشطر الثاني من البيت الأول، وهكذا في بقية أبيات هذين الجانبين.

ومن جهة أخرى يصعب على المشاهد تحديد بداية القصيدة هل هي من الجانب العلوي، أم من الجانب الأيمن بالإضافة إلى صعوبة تتبع تسلسل الأبيات.

وفي النص الثاني المنفذ بالمنطقة العلوية من طاقية

---

(٣٧) لوحة رقم (٤١).

(٣٨) لوحة رقم (٤).

(٣٩) - Semra "Ogel, *Selgklular'nin Tas, Tezyinat* (Ankara: Turk Tarih Kurumu Basimevi, Turk Tarih Kurumu Yayinlarind, n. page) VI. Seri-sa, b, Lev, XXXVIII, Res, 74.

(٤٠) - Titus Burckhardt, *Art of Islamn Languge and Meaning* (London: World of Islam Festival Turst, Westernam Press Ltd, 1976), pl. 156.

(٤١) Ibid., pl. 167

محراب المسجد نفسه[٤٢] نجد أن الفنان اتبع أسلوباً مغايراً في التوزيع، حيث كتب البيتين داخل أربعة أشرطة، أفقية الوضع، متتالية، بمعدل شريط واحد لكل شطر، وفصل بين كل شريطين بشكل بيضي أفقي الوضع أيضا، ولإحداث التوازن في التصميم عمد الفنان الي حني ضلع الشريطين اللذين يليان الشكل البيضي، مما يقابله إلى داخل كل شريط.

وبالنسبة للكتابات المنفذة بالقباب من الداخل[٤٣] فقد حالف التوفيق الفنان في اختيار الأسماء، وتوزيعها بعقود كل قبة، حيث إن عدد عقود القباب الثلاث إثنا عشر عقداً، فقام الفنان باختيار إثني عشر اسما، هي: الله، محمد، ثم العشرة المبشرين بالجنة رضوان الله عليهم أجمعين.

ونظراً لبعد هذه الكتابات عن أرضية رواق المسجد فقد عمل الفنان على تكبير حجم حروف الأسماء خاصة، وزاد في إيضاحها بأن نفذها باللون الأزرق على أرضية ذات لون أبيض.

والكتابة المنفذة بسقف الديوان الرئيس بالطابق الثاني في منزل عباس قطان[٤٤]، نفذها الفنان في منتصف الطرف الجنوبي من السقف، بحروف متوسطة الحجم، وكان حرياً به أن يكبر حجم الحروف حتى يتمكن الجالس في الديوان من مشاهدتها لبعدها عن أرضيته.

وكذلك الحال في النص المنفذ بروشن واجهة المنزل نفسه[٤٥]، رغم تكبير حجمه، إلا أن بعده عن أرضية الشارع جعل من الصعب مشاهدته بيسر وسهولة.

أما الكتابة المنفذة بواجهة مدخل منزل إسماعيل عبد القادر إسماعيل[٤٦] فلم تكتب فوق عقد الباب مباشرة رغم صغر المساحة التي يشغلها، وإنما مثلت داخل شكل بيضي، أفقي الوضع، تحت مركز عقد الواجهة مباشرة، ويرجع ذلك إلى وجود منور بيضي الشكل، كبير الحجم، أفقي الوضع، شغل مساحة كبيرة بين عقد الباب، وعقد الواجهة.

ومن الملاحظات العامة على قواعد تنفيذ حروف الكتابة، كتابة معظم الأسماء والعبارات والتواريخ داخل أشكال مستطيلة، [٤٧] أو دائرية[٤٨] أو بيضية،[٤٩] تَكَوَّنَ بعضها من خطوط[٥٠] وبعضها من تلاقي فرعين[٥١]، أو ورقتين نباتيتين.[٥٢]

كما استخدم الفنان الأسطر المفردة[٥٣]، والمركبة[٥٤]، ويرجع ذلك لمساحة الموضع، ومقدار النص. وأيضا أغفل همزات القطع في الكتابات التي نفذها[٥٥]، وأهمل نقطتي الياء والتاء في بعض حروف نقوشه[٥٦]، ولم يضع النقط فوق حروفها في بعض حروف نقوشه أيضا.[٥٧]

وقد اجتهد الفنان محمد أفضل هروي في الأعمال الخارجية المنفذة بأسلوب النقش البارز، زيادة في إيضاحها للمشاهد، وذلك بجعل الزخارف والكتابات مائلة قليلا، ومحفورة من وسطها، بحيث أوجد ظلالا زادت في وضوحها[٥٨]، أما فيما يخص الكتابات المنفذة بالرسم بالألوان فقد كتبها على أسلوبين، أحدهما بلون فاتح على أرضية غامقة[٥٩]، والآخر بلون غامق على أرضية ذات لون فاتح.[٦٠]

٥ ـ مضمون النصوص

تعددت مضامين النصوص الكتابية التي نفذها

---

(٤٢) لوحة رقم (٨)

(٤٣) لوحة رقم (١١-١٤، ١٨-٢١، ٢٤-٢٧)

(٤٤) لوحة رقم (٣٦)

(٤٥) لوحة رقم (٤٠)

(٤٦) لوحة رقم (٤١)

(٤٧) لوحة رقم (٥،٨)

(٤٨) اللوحات رقم (١١-١٤، ١٨-٢١، ٢٤-٢٧).

(٤٩) اللوحات رقم (٨،٤١)

(٥٠) اللوحات رقم (٤،٨)

(٥١) اللوحات رقم (١١ ـ ١٤ ، ١٨ ـ ٢١، ٢٤-٢٧)

(٥٢) لوحة رقم (٤)

(٥٣) اللوحات رقم (٤، ٣٦، ٤٠).

(٥٤) اللوحات رقم (٨، ٤١).

(٥٥) النقوش رقم (١-٣)، واللوحات رقم (٤، ٨، ١٣، ٢٤).

(٥٦) النقوش رقم (١-٦)، واللوحات رقم (٤، ٨، ١٣ ـ ١٤، ٢٤ ـ ٢٧).

(٥٧) نقش رقم (٤)، ولوحة رقم (٤١).

(٥٨) لوحة رقم (٤).

(٥٩) اللوحات رقم (٨ ـ ٤١).

(٦٠) اللوحات رقم (١١ ـ ١٤، ١٨ـ ٢١، ٢٤ ـ ٢٧، ٣٦).

الفنان محمد أفضل هروي حيث نفذ أسماء وعبارات دعائية، وألقاب ونعوت، إلى جانب توقيعه على معظم الأعمال التي نفذها.

فالأسماء ورد منها لفظ الجلالة (الله)[٦١] واسم النبي صلى الله عليه وسلم،[٦٢] وأسماء العشرة المبشرين بالجنة[٦٣]، وهم: أبوبكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، سعد ابن أبي وقاص، سعيد بن المسيب، الزبير بن العوام، أبو عبيدة عامر بن الجراح، عبد الرحمن بن عوف، طلحة بن الزبير رضوان الله عليهم.

كما ورد اسم الشاعر أحمد نظيف التركي[٦٤]، واسم مشيد المسجد الشيخ رحمت الله.[٦٥]

أما أسماء المواضع فورد منها موضع مجاور للمدرسة هو جبل (كدا)[٦٦]، ويقصد به الجبل الذي يوجد فيه ريع الرسام.[٦٧]

وفيما يتعلق بالألقاب والنعوت فقد وردت خمسة ألقاب ونعوت في النصوص الكتابية التي نفذها الفنان محمد أفضل هروي، وكلها وردت في أبيات القصيدة المنفذة بواجهة مدخل مسجد الشيخ رحمت الله[٦٨]، وهذه الألقاب والنعوت هي : إمام[٦٩]، بحر[٧٠]، حبر[٧١]، ذو الفضل والندى[٧٢]، مجدد[٧٣]، هُمَام.[٧٤]

أما العبارات الدعائية فهي عبارات خبرية تتضمن

(٦١) لوحة رقم (١١).

(٦٢) لوحة رقم (١٢).

(٦٣) اللوحات رقم (١٣، ١٤، ١٨ ـ ٢١، ٢٤ ـ ٢٧).

(٦٤) لوحة رقم (٤)، وهو الشاعر أحمد نظيف التركي المتوفي في سنة ١٣٢٥هـ أو أوائل ١٣٢٦هـ، وكان إلى جانب قرضه للشعر يمتهن المحاماة، وقد غضب عليه الشريف عون الرفيق فنفاه الى جدة، وظل بها بضع سنوات، ولكنه عاد إلى مكة في منتصف عام ١٣٢٣هـ، بعد وفاة الشريف عون الرفيق، وكان رحمه الله رقيق المشاعر كريما، وَيُذْكَرُ أنه لما بني الشيخ رحمت الله مسجده قدم للشيخ القصيدة التي أعدها بمناسبة بناء هذا المسجد، عبد الجبار، **سير**، ص ١١١، ورفيع، **مكة**، ص ٣٣٣.

(٦٥) اللوحات رقم (٤، ٨).

(٦٦) لوحة رقم (٤).

(٦٧) يذكر البلادي أن الأكدية بمكة المكرمة ثلاثة، كداء بفتح الكاف والدال المهملة، والمد، وكدي بضم الكاف والقصر منونا، وكدى بضم الكاد وفتح الدال والياء المثناة تحت، والمقصود ما أثبتناه في المتن. عاتق بن غيث البلادى، **معالم مكة التاريخية والأثرية**، ط١ (مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م)، ص ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ **معجم معالم الحجاز**، ط١ (مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)، الجزء السابع، ص ص ١٩٦ ـ ٢٠٣.

(٦٨) لوحة رقم (٤).

(٦٩) من أم وأصبح قدوة، وقد أطلق على الخلفاء، كما أطلق على رجال الشريعة الإسلامية، وشاع استخدامه في العالم الإسلامي، وصار عرفا إطلاقه على أهل الصلاح والزهد والعلم والشريعة، وباختصار من يأتم به الناس من حاكم وغيره، حسن الباشا، **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار** (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٨م)، ص ص ١٦٦ ـ ١٧٦.

(٧٠) البحر : الماء الكثير، ولذلك سميت البحار بحاراً لسعتها وانبساطها وكثرة ماءها، وهذه الكلمة ذات دلالات واسعة في اللغة العربية، ومنها سعة العلم وغزارته، وتطلق على الرجل الكريم الكثير المعروف، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، **لسان العرب**، تحقيق عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، جـ١ (القاهرة: دار المعارف، دت)، الجزء الاول ، ص ص ٢١٥ ـ ٢١٧.

(٧١) الحبر في اللغة كلمة ذات دلالات متعددة، منها: العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه، ابن منظور، **لسان العرب**، جـ٢، ص ٧٤٨، والحبر من ألقاب كبار العلماء، القلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي (ت٨٢١هـ)؛ **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** (القاهرة: نسخة مصورة عن الطبعية الأميرية، د.ت) الجزء السادس، ص ١٥٧.

(٧٢) نعت مركب مكون من ثلاث كلمات، (ذو)، وهي بمعنى صاحب أو مالك وقد دخلت هذه الكلمة في تكوين كثير من الألقاب والنعوت المركبة؛ الباشا، **الألقاب**، ص ٢٩٣،(فضل) معروف ضد النقص والنقيصة وتأتي بمعنى الإحسان، أما (الندى) فمن دلالاتها الجواد الكريم كثير المعروف، ابن منظور، **لسان العرب**، جـ٥، ص ٣٤٢٨، وبذا يصبح المعنى الإجمالي لهذا النعت أن الشيخ رحمت الله صاحب إحسان وجود وكرم ومعروف.

(٧٣) المجدد كل من أتى بفكرة جديدة غيرت من أسلوب العمل أو من تصور الناس. مجدي وهبه، **معجم مصطلحات الأدب ـ انكليزي ـ فرنسي ـ عربي** (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٤م)، ص ٣٥١.

(٧٤) الهمام: الملك العظيم الهمة، وقيل السيد الشجاع السخي، ولا يكون في النساء، والهمام الأسد تشبيها، ابن منظور ، **لسان العرب**، جـ٦، ص ٤٧٠٣.

عدة معان، فعبارة (جل جلاله)[٧٥] الملحقة بلفظ الجلالة (الله) تتضمن معنى التنزيه، و (صلى الله عليه وسلم)[٧٦] التي وردت بعد اسم (محمد)، وكذلك (رضي الله عنه)[٧٧] الملحقة بعد اسم كل صحابي تتضمنان معني الدعاء وعبارة (غفر له)[٧٨] الواردة بعد اسم الفنان تتضمن طلب المغفرة.

أما الاقتباسات القرآنية، فورد منها (هذا من فضل ربي)[٧٩] التي تشكل جزءاً من آية رقم (٤٠) من سورة النمل،[٨٠] و (ما بكم من نعمة فمن الله)[٨١] التي تشكل مطلع الآية رقم (٥٣) من سورة النحل.

٦ - التقويم الأدبي للنصوص

تنحصر النصوص التي نفذها الفنان محمد أفضل هروي في فني الشعر والنثر، فالشعر يمثله القصيدة المنفذة في واجهة مدخل مسجد الشيخ رحمت الله،[٨٢] وهي مكونة من ستة أبيات وتندرج هذه القصيدة ضمن قصائد المناسبات، وقد استهلها الشاعر بإيضاح موقع المسجد، ثم وصفه بأنه أسس على البر والتقوى، ليؤمه المصلون، كما أن رحابه قد هيئت للدين والعلم وطلابه، ولأهل الصلاح والهدى، ولذلك حفت به الأنوار الإلهية من كل جانب، فهو من جهة يجاور بيت الله الحرام، أقدس بقاع الأرض، كما يجاور المدرسة الصولتية التي تعد منارة من منارات العلم والتربية، ومن جهة أخرى فإن مثل هذه الأماكن تحظى بعناية الله التي ترفرف على جنباتها.

ثم عرج الشاعر الى مدح المنشيء الشيخ رحمت الله. رحمه الله ووصفه بأنه من أهل الفضل والعطاء والعلم الجم، كما أنه إمام مجدد في نشر العلوم والمعارف الإسلامية في وقت رزخ فيه الاستعمار على بلاده الهند، وفشى في معظم الأقطار الإسلامية التنصير، ولاغرابة في نعته بهذه الصفات الحميدة.

ويختم الشاعر قصيدته بالدعاء للشيخ رحمت الله بحسن العاقبة والجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة، بسبب إنشاءه هذا المسجد، وجعله مكاناً للصلاة، وتحصيل العلم والمعرفة الصحيحة، موضحا في البيت الأخير قائل هذه القصيدة مؤرخا لذلك بالأرقام، وبحساب الجمل.

ويبدو في هذه القصيدة أن كلماتها عادية، وبصفة عامة فقد غلب عليها جانب السَّطحية، وعدم العمق، والاستخدامات اللغوية الواضحة، بحيث لا يحتاج القاريء إلى الرجوع للمعاجم اللغوية لمعرفة الألفاظ الغريبة ومعانيها.

ومن الشعر أيضا البيتان المنفذان بالمنطقة العلوية من طاقية محراب المسجد نفسه[٨٣] ويلاحظ أن الشطر الأول من كل منهما كتب بلغة فارسية، على حين كتب الشطر الثاني منهما بلغة عربية، وبأسلوب غير فصيح، مثل: رحمت الله قل على الباني.

وفي هذين البيتين تمجيد للمسجد، والدعاء لمنشئه بالرحمة والغفران، بسبب بنائه بيتا من بيوت الرحمة.

أما النثر فورد في شكل اقتباسات قرآنية، واسماء، وعبارات دعائية[٨٤] وتوقيعات جاءت على لغتين الأولى بصيغة (حرره)[٨٥] التي تأتي بمعنى أصلحه وجود خطه[٨٦]، والثانية بصيغة (عمل)[٨٧] أي صنع وكلا الكلمتين تؤديان الغرض، حيث إن الذي أنجز هذه الأعمال هو الفنان محمد أفضل هروي.

---

(٧٥) لوحة رقم (١١).

(٧٦) لوحة رقم (١٢).

(٧٧) اللوحات رقم (١٣ ـ ١٤، ١٨ـ٢١، ٢٤ـ٢٧).

(٧٨) لوحة رقم (٣٦).

(٧٩) لوحة رقم (٤٠).

(٨٠) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط٢ (القاهرة: دار الفكر للطبعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م)، ص ٥٢٢.

(٨١) لوحة رقم (٤١).

(٨٢) لوحة رقم (٤).

(٨٣) لوحة رقم (٨).

(٨٤) اللوحات رقم (٦، ١١ـ١٤، ١٨ـ٢١، ٢٤ـ٢٧، ٣٦، ٤٠ـ٤١).

(٨٥) لوحة رقم (٦).

(٨٦) ابراهيم انيس وآخرون، المعجم الوسيط، إشراف حسن علي عطية ومحمد شوقي أمين، ط٢ (د.م : د.ن.د.ت)، جـ١، ص١٦٥.

(٨٧) لوحة رقم (٣٦).

ثانياً : الزخرفة

من الملاحظات المهمة عزوف الفنان محمد أفضل هروي عن تنفيذ الأشكال الحيوانية والآدمية، رغم أن بعض أعماله الفنية نفذت بعمائر مدنية، مما ينهض دليلا على تحرجه من تنفيذ هذا النوع من الزخرفة، ومراعاته لتعاليم الإسلام.

ولذلك اتجه إلى الأشكال الزخرفية النباتية، وقلل من استخدام الأشكال الهندسية، وهكذا يمكننا تقسيم الزخارف التي نفذها إلى ثلاثة أنواع رئيسة، هي: زخارف نباتية مستوحاة من عالم النبات، وأشكال هندسية، وأشكال مركبة منهما.

١ - الزخارف النباتية

احتلت الزخارف النباتية مكان الصدارة في أعمال الفنان محمد أفضل هروي، وجاء تنفيذها على نوعين، أحدهما قريب من الطبيعة، والآخر محور عنها.

ففيما يتصل بالأشكال الزخرفية النباتية المستمدة من الطبيعة فتتمثل في الأزهار، والأوراق، والفواكه، والفروع.

فالأزهار، نفذ من أنواعها الورد، والقرنفل، والياسمين، وذلك بألوان متعددة، وقد جاء تنفيذ الورد مطابقا لصورته في الطبيعة شكلا ولونا في معظم الأعمال الفنية التي نفذها.(٨٨) أما القرنفل فقد رسم الفنان من أنواعه ذلك الشكل الذي يشبه النخلة،(٨٩) وهو الشكل الذي استخدم بكثرة طوال العصر العثماني.(٩٠)

وإلى جانب ذلك ورد من أنواع القرنفل الشكل الحقيقي للقرنفل، كما يلاحظ في زخرفة بعض قباب المسجد.(٩١)

وورد الياسمين على لونين، أبيض، وأصفر، كما يلاحظ في زخرفة سقف مؤخرة الديوان الرئيس بالطابق الثاني في منزل عباس قطان.(٩٢)

وقد وردت هذه الأزهار في معظم الأعمال ضمن تشكيلات زخرفية محورة عن الطبيعة، أو محاكية لها.(٩٣)

وفيما يتعلق بالأوراق فقد نفذ الفنان من أشكال الأوراق النباتية المستوحاة من الطبيعة ما لا حصر له، إذ يبدو عليه ولعه بهذا النوع من الأشكال.

فقد نفذ الأوراق المسنن أحد جوانبها،(٩٤) والمشرشرة،(٩٥) وذات الفصين،(٩٦) والثلاثة(٩٧) وأوراق الأشجار(٩٨) والأوراق المنتهية بفرع نباتي معكوف،(٩٩) والوريقات المنشطرة إلى شقين،(١٠٠) والوريقات المسنن جانبيها،(١٠١) والورقة المقوسة.(١٠٢)

وفيما يخص الفواكه فقد نفذ من أنواع الفواكه الكمثرى، وذلك بالتناوب مع زهرة الورد، كما يلاحظ في الزخارف التي تتوسط قباب المسجد نفسه.(١٠٣)

وقد استخدم في ذلك كله، أسلوب التناوب، وهو أسلوب استخدم بكثرة في العصر العثماني، وبخاصة في جدران المطابخ السلطانية، كما في جدران مطبخ قصر طوب قابي(١٠٤) وأيضا في المخطوطات المصورة، ومن أمثلة ذلك مخطوطة مصورة، موضوعها السلطان

(٨٨) اللوحات رقم (٣٢-٣٤، ٣٨-٤٠).
(٨٩) لوحة رقم (٣٤)، شكل رقم (٧/١).
(٩٠) ناصر الحارثي، تحف الأواني، ص٢٩٣.
(٩١) لوحة رقم (١٦)، شكل رقم (٧/٢).
(٩٢) لوحة رقم (٣٩).
(٩٣) اللوحات رقم (٤، ١٦، ٢٢، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٨، ٣٩).
(٩٤) لوحة رقم (٤)، شكل رقم (٨/١).
(٩٥) لوحة رقم (٤)، شكل رقم (٨/٢).
(٩٦) لوحة رقم (٤)، شكل رقم (٨/٣).
(٩٧) لوحة رقم (٢٢)، شكل رقم (٨/٤).
(٩٨) لوحة رقم (٢٨)، شكل رقم (٨/٥).
(٩٩) لوحة رقم (٤)، شكل رقم (٨/٦).
(١٠٠) لوحة رقم (٤)، شكل رقم (٨/٧).
(١٠١) لوحة رقم (٨)، شكل رقم (٨/٨).
(١٠٢) لوحة رقم (٥)، شكل رقم (٨/٩).
(١٠٣) لوحة رقم (٢٢)، شكل رقم (٩).
(١٠٤) Ilhan Aksit, *Topkapi* (Istanbul: Has,et Kitabevi A. S. Aks'it Culture and Tourism Publications, 1986), pp. 24-5, Pl.6.

مراد الرابـع (١٠٣٢ ـ ١١٠٩هـ / ١٦٢٣ ـ ١٦٤٠م) وهـو جالـس على كرسـي العرش ، وأمامه صينيـة موضوعـة على كرسـي عشاء بهـا كمثرى وورد.[١٠٥]

أما الزخارف النباتية المحورة عن الطبيعة فتتمثل بصفة رئيسة في نماذج زخرفية مركبة، اصطلح على تسميتهـا بزخرفة التوريق الإسلامية[١٠٦] وقد نفذ الفنان محمد أفضل هروي هذا النوع من الزخرفة وفق الأسلوب الأوربي في الزخـرفـة الذي انتشر في الحجاز منذ أواخر القرن الثالث عشر الهجري على أيـدي الصنـاع الأتـراك والمصريين الذين أوفدتهم الدولة العثمانية لإجراء التعميرات اللازمة في الحجاز، ولذلك ليس بمستغرب على هذا الفنان أن يتأثر بهذا الأسلوب[١٠٧]، وقد وردت زخرفة التوريق الإسلامية التي نفذها هذا الفنان على عدة نماذج:

النمـوذج الأول يتـألف من وريقات مشرشرة من جانبيها، ومعكوفة، وتتصل ببعضها بواسطة فروع نبـاتيـة متعرجة، بحيث تتداخل هذه الوريقات مع بعضها، وتتبادل بالتناوب بكامل الموضع الذي نفذت فيه، ومن أمثلة ذلك ما عمل على واجهة عقد المدخل الرئيس بمسجد الشيخ رحمت الله.[١٠٨]

والنموذج الثاني لا يختلف كثيراً عن سابقه، ولكن الفروع والأوراق النباتية بدت في شكل أصغر حجما، والأوراق أكثر انسيابية، وأقل تسنينا فضلا عن إنها الزخـرفـة في الأركـان بنقاط ثلاث، ومن أمثلة ذلك الزخرفة المنفذة بالمنطقة التي تعلو عقد المدخل المشار إليه سابقا.[١٠٩]

والنموذج الثالث يلاحظ فيه أن الوريقات رسمت

---

(١٠٥) Michael Levey, *The World of Ottoman Art* (London: Thames and Hudson, 1979), Pl. 69.

(١٠٦) أطلق الغربيون على هذه الزخرفة مسمى (Arapesque) ،ويقصد به تلك الزخرفة النباتية المحورة عن الطبيعة التي انفرد بها الفن الإسلامي، والمكونة من المراوح النخيلية، وأنصافها، وأرباعها، والفروع المتعرجة والمتداخلة مع بعضها، ثم توسع في مدلول هذه اللفظة لتشمل الزخارف المحاكية للطبيعة، والزخارف الهندسية، لمزيد من التوسع حول ذلك أنظر :

Encyclopaedia of Islam, Vol.1, New Edition (London: Leiden, E, J, Brill Luzac & Co, 1960), pp. 558 - 561.

وقد قام الأتراك السلاجقة بتطوير هذه الزخرفة فعرف هذا النوع المطور باسم (رومي Rumi) ، مرزوق، **الفنون**، ص ص ٧٦ـ٧٧. وأود أن أوضح هنا أن هذين المسميين جانب الصواب كلاهما، لأننا لو تمعنا في كلمة (أرابسك) لوجدنا انها منسوبة إلى العرب، والذي وصلنـا أن هذه الزخرفة ظهرت في سامرا التي شارك في بنائها صناع من مختلف أقاليم الدولة العباسية، ولذلك فإن في اعتمـاد هذا المسمى إجحـاف كبـير بحق الشعوب الإسلامية الأخـرى التي أسهمت في ابتكـارها وينطبق الحال على مسمى (رومي) الذي يعد أعظم خطرا من سابقه، لأنه ينكر دور الشعوب الإسلامية كلها، إذ نسبت هذه الزخرفة إلى عرق أجنبي، مع العلم أن الأتـراك السـلاجقة الذين طوروها ليسوا روماً، والباحثون الأتراك المحدثون بذلك لم يرجعوا الفضل إلى أخوانهم المسلمين، كما لم ينصفوا أجدادهم الذين طوروها، الحارثي، أواني، جـ١، ص ص ٢٩٩ـ٣٠٠.

(١٠٧) تأثر الصناع المسلمون في العصر العثماني بالأسلوب الأوربي في الزخـرفـة بنـوعيـة (الباروك Baroque) و (الروكوكو Rococo) ، فالباروك لفظة أسبانية الأصل من الكلمة (Barruco) التي تعني اللؤلؤة المشوهة غير المنتظمة في استدارتها، ثم تغير مدلول هذه الكلمة فأصبحت منذ القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) تطلق على طراز فني جديد ظهر في أوربا، ويتميز هذا الطراز بأن عناصره الزخرفية تبدو مشوهة إذا ما قورنت بالعناصر الزخرفية التي كانت شائعة في أوربا آنذاك، حيث عزف الفنانون عن استعمال الخطوط المستقيمة، والإقبال على الخطوط المتعرجة، والسـطوح المـائلة، والأقـواس المختلفة، والاعتماد على المبالغة والتكلف، وإبراز الانفعالات وقد ظهر هذا الأسلوب في ايطاليا منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، أما الروكوكو فمشتق من الكلمـة (Rocaille) ، وتعني الصـدفـة غير المنتظمة الشكل ذات الخطوط، ويختلف الروكوكو عن الباروك بأنه اكثر رقة ورشاقة، وبدأت بوادره في الظهور منذ القرن الثاني عشر الهجري (الثـامن عشر الميلادي) في فرنسا، وقد انتشر هذان الأسلوبان الزخرفيان في أوربا، وتأثرت به روسيا وآسيا الصغرى، ثم انتقل إلى الولايات العثمانية، ومنها الحجاز. لمزيد من التوسع حول هذا الأسلوب أنظر:

Germain Bazin, *Baroque and Rococo* (London: Thames and Hudson, 1976), pp.6-10;

وأيضـا نعمت إسمـاعيـل علام، **فنـون الغـرب في العصور الوسـطى والنهضـة والبـاروك**، ط٢ (القـاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢م)، ص ص ١٤٧، ١٥٦، ١٩٩.

(١٠٨) لوحة رقم (٤)، شكل رقم (١/١٠).

(١٠٩) لوحة رقم (٤)، شكل رقم (٢/١٠).

وكأنها فروع نباتية متعرجة، مشطورة إلى فرعين معكوفين، كما يلاحظ في حنية محراب المسجد نفسه.(١١٠)

والنموذج الرابع يلاحظ فيه أن الفنان قام بتكبير حجم الفرع، لدرجة أنه يصعب التفريق بينها وبين الأوراق، التي بدت أكثر تحويرا، وانحناء، كما جعل بعض الأوراق تلتوي حول الفروع، وأنهى الأوراق مما يلي جوانب المنطقة المنفذة فيها الزخرفة بنقاط ثلاثة كعادته، ويتضح هذا النموذج من الزخرفة في عقود كل قبة من قباب المسجد نفسه.(١١١)

والنموذج الخامس نفذ بأسلوب الرسم بالألوان في المثلثات الكروية لقباب مسجد الشيخ رحمت الله من الداخل، حيث يتألف الموضوع الزخرفي من فرع نباتي واحد تتفرع منه فروع أخرى، وتنتهي بوريقات نباتية ذات فصين أو ثلاثة، أو أن الفرع نفسه ينشطر إلى فرعين معكوفي الرأس، كما رسم الفنان ثلاث نقاط في أركان المنطقة كعادته.(١١٢)

والنموذج السادس يتكون من فرع نباتي واحد، تتخلله وريقات نباتية مكونة من فصين وثلاثة، ويبدو هذا النموذج أكثر النماذج دقة، فضلا عن أن الفنان صغر حجم الفروع والوريقات، ومن أمثلة ذلك الزخرفة المنفذة بالألوان في السقف الخشبي الذي يقع بين كل قبة وأخرى بمسجد الشيخ رحمت الله.(١١٣)

٢ - الزخارف الهندسية

لم يعن الفنان محمد أفضل هروي بالزخارف الهندسية كثيرا، ولذلك فان أغلب رسومه في هذا المجال إنما هي أشكال هندسية بسيطة، استخدمت لغرض وظيفي، مثل تحديد المناطق الزخرفية بخطوط مستقيمة أو منحنية، لتشكل في مجموعها أشكالا مثلثة، أو بيضية، أو دائرية، أو مستطيلة.(١١٤) أما الوحدات الهندسية فنفذ الفنان من أنواعها ما يعرف باسم (مسدس خاتم) وهي وحدة هندسية تتألف من نجمة سداسية الزوايا، يدور حولها شكل سداسي الأضلاع(١١٥)، وهذه الوحدة تشبه الطبق النجمي، ولكنها تختلف عنه في عدم وجود اللوزات.(١١٦)

وقد ظهرت هذه الوحدة الهندسية على الحجر في بعض المناور بالجامع الأقمر بالقاهرة المؤرخ سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م،(١١٧)أما على الخشب فظهرت بطاقية محراب السيدة رقية الذي يرجع تاريخه لسنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م، المحفوظ حاليا بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.(١١٨)

كما نفذ الفنان محمد أفضل هروي وحدات هندسية أخرى، الأولي تتألف من نجمة سداسية الزوايا بداخلها دائرة،(١١٩) والثانية تتألف من شكل سبمين يلتقي رأساهما داخل معين، (١٢٠) والوحدة الثالثة تتكون من نجمة سداسية تتناوب مع شكل مستطيل، بجانبيه العرضيين نتوءات بمعدل ثلاثة نتوءات في كل منهما، ونتوء واحد بمنتصف الجانبين الطوليين،(١٢١)وهذا الشكل ما هو الا نجمة ثمانية الزوايا، ولكن الفنان نفذها بهذه الصورة لتعبر عن الكواكب وتباعدها، وعلاقة بعضها ببعض.

٣ - الزخارف المركبة

نفذ هذا الفنان أشكالا زخرفية تجمع بين الزخرفة

---

(١١٠) لوحة رقم (٧)، شكل رقم (١٠/٢).

(١١١) لوحة رقم (١٨)، شكل رقم (١٠/٤).

(١١٢) لوحة رقم (٢٩)، شكل رقم (١٠/٥).

(١١٣) لوحة رقم (٣٠)، شكل رقم (١٠/٦).

(١١٤) اللوحات رقم (٤، ٨، ٢٩، ٣٧، ٤١).

(١١٥) لوحة رقم (٣٤)، شكل رقم (١١/١).

(١١٦) ناصر الحارثي، **اعمال الخشب المعمارية في الحجاز في العصر العثماني - دراسة فنية حضارية**، رسالة ماجستير، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)، ص ١١٧.

(١١٧) K.A.C. Creswell, *Early Muslim Architecture,* Vol. 1 (New York: Hacker Art Books, 1978), Pl. 84/c.

(١١٨) زكي محمد حسن، **اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية** (بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨١م)، ش ش ٣٦٣ - ٣٦٤.

(١١٩) لوحة رقم (١٥)، شكل رقم (١١/٢).

(١٢٠) لوحة رقم (٢٩)، شكل رقم (١١/٣).

(١٢١) لوحة رقم (٨)، شكل رقم (١١/٤).

الهندسية والنباتية ويمكننا حصر هذه الزخرفة في الصرر أو الجامات، والمزهريات، فالصرر وردت على سبعة أشكال، الأول على شكل نجمة سداسية الزوايا بداخلها دائرة ينطلق من مركزها وريقات نباتية منحنية ومشرشرة وينتهي رأس كل ورقة بالقرب من تماس الدائرة من الداخل، بحيث يلتف حول فروع نباتية ملفوفة على تماس الدائرة ومرتبطة هذه الفروع بالنجمة، وفي زوايا كل نجمة شكل شجرة زهرة الورد، بينما نفذت في كل ضلع من أضلاع هذه النجمة باقة من زهور الورد التي يحف بها من أسفل ورقتان نباتيتان تشكلان ما يشبه المزهرية أو الكأس، ويتبادل هذان الشكلان بالتناوب بعدد زوايا وأضلاع النجمة[١٢٢]، وربما قصد الفنان من هذه الزخرفة التعبير عن الكواكب وارتباط بعضها ببعض.

والشكل الثاني عبارة عن دائرة تتوسطها وردة متعددة البتلات يخرج من كل بتلة فرع نباتي تتخلله وريقات نباتية تنتهي عند تماس الدائرة من الداخل، ويحيط بهذه الدائرة شكل يشبه النجمة السداسية الزوايا تكون نتيجة لدوران والتفاف فرع نباتي في حركة هندسية بديعة، ففي الزوايا - التي تكونت نتيجة لتداخل الفرع في حركته الهندسية - باقة من زهور الورد والقرنفل، كما يلتف على منتصف الفرع الرئيس فرعان نباتيان مشطوران من منتصفهما، ليتجها خارج الصرة، وينطلق من رأسه الأقرب للمشاهد ورقة نباتية ثلاثية الفصوص يخرج منها ثماراً دائريةَ الشكل ربما تكون كرزا.

ويتجه رأس الفرع إلى الداخل لينتهي بعنقود، ويتقابل مع مثيله المتجه من الجهة اليسرى ليشكلا في مجموعهما شكلا على هيئة قلب ينطلق من النتوء الموجود بمنتصف جانبه العلوي شجرة كمثرى، وهكذا يتكرر الشكلان الورد والقرنفل، والكمثرى ويتبادلان بالتناوب حول الشكل الدائري.[١٢٣]

أما الشكل الثالث فيشبه الثاني، ولكن الفنان قلب الوضع، فجعل الكمثرى ترتكز على الشكل الهندسي الذي نجم عن التفاف وتداخل الفرع النباتي، في حين جعل زهرة الورد مرتكزة على الفرعين النباتيين اللذين شكلا ما يشبه القلب، ويحف به من الجانبين الأيمن والأيسر الورقتان المثمرتان.[١٢٤]

والشكل الرابع يتكون من شكل بيضي تماسه ذو لون (بيج)، ومقلم بلون بني وأرضية الشكل ذات لون أخضر غامق، ويحف بجانبي هذا الشكل البيضي فرعان نباتيان بكل مهما، تتخللهما وريقات نباتية مسننة، وينطلق الفرعان من منتصف كل جانب، باتجاه المنطقة المقابلة لرأسي الشكل البيضي فيلتقي كل فرع من فرعي الجانبين ببعضهما، ليشكلا شكلاً يشبه الشكل البيضي تَكَوَّنَ حول الشكل البيضي الداخلي وينبثق من نقطة تلاقي الفرعين باتجاه الخارج باقة من الزهور باللون الأحمر والأبيض والعنابي بالنسبة للزهرة أما أوراقها فذات لون أخضر فاتح.[١٢٥]

والشكل الخامس عبارة عن صرة بيضية الشكل تتألف من شكل بيضي أرضيته زرقاء اللون مثلت بداخله أشكال وريدات باللون الطبيعي للوردة تتكرر في الشكل ، وقد أوردها الفنان على شكلين، الأول أوضح فيه أنها مهيأة للقطف والثانية لا تزال في مراحل التفتح الأولى، فالأولى رمز للنضج، في حين أن الثانية رمز للبراعم وتطلعها البريء، كما جعل أوراق الوردة الأولى باللون الأصفر الذي يرمز للشيخوخة، وكأن الفنان يريد بذلك الإيحاء لأصحاب العقول الناضجة بأن كل شيء في هذه الدنيا زائل لا محالة حتى لو كان جميلا، ويبقى العمل الصالح ممثلا في الورد المهيأ للقطف، أما الورد الذي لا يزال في مراحل التفتح فيمثل الطهر والبراءة، ومادام الأمر كذلك فعلى الإنسان منذ البداية أن يتمثل هاتين الصفتين فيعمل أعمالا صالحة تؤدي به إلى حسن العقبى في الآخرة.

وقد رسم تماس الشكل البيضي بثلاثة ألوان متتالية، الخارجيان احمر اللون، والداخلي أصفر،

(١٢٢) لوحة رقم (١٥)، شكل رقم (١/١٢).

(١٢٣) لوحة رقم (٢٩)، شكل رقم (٢/١٢).

(١٢٤) لوحه رقم (٢٢)، شكل رقم (٣/١٢).

(١٢٥) لوحة رقم (٣٠)، شكل رقم (٤/١٢).

ويحيط بهذه الجامة من جوانبها زخرفة التوريق الإسلامية التي رسمت وفق الأسلوب الأوربي الوافد، حيث بدت الفروع أكثر سمكا، والأوراق أكثر التواء، وأقل إتقانا.[١٢٦]

والشكل السادس عبارة عن جامة على شكل بيضي أكبر حجما من الشكل الرابع، وقد رسمت على أرضية ذات لون زيتوني مائل إلى الخضرة، وتتألف من شكل بيضي تماسه أصفر اللون، وبداخل هذا الشكل أشكال زهور متنوعة ناضجة ومتفتحة، وزهرة ياسمين، وقد رسمت هذه الأزهار بالألوان الطبيعة فالأحمر بدرجاته للوردة، والأبيض والأصفر للياسمين، أما الأوراق فذات لون أبيض، وقد أحيطت هذه الجامة بزخرفة التوريق الإسلامية كسابقتها،[١٢٧] ولكن الفنان أخل بالناحية الجمالية للجامة، عندما كبر حجم مساحة الزخرفة عند رأسي الشكل البيضي، ورغم محاولته الجيدة في إحداث التوازان في التصميم برسم باقة ورد تنطلق من منتصف الجانب الخارجي لزخرفة التوريق، فإنه فشل في تحقيق ذلك، إذ ربما لو اختار زخرفة أخرى لأكسب الجامة جمالا.

وفيما يخص الجامة السابعة فهي دائرية الشكل وقد تكونت الزخرفة نتيجة لتكرار باقة بها أزهار متنوعة مثل الورد والياسمين، تنطلق من داخل صرة متفتحة تنطلق من أسفل ورقتين نباتيين مسننتين جوانبهما الداخلية، وتتبادل هذه الباقة بالتناوب مع زهرة ياسمين ترتكز على قاعدة من الفروع الملتفة في شكل هندسي بديع، وهكذا تدور هاتان التشكيلتان بالتناوب حول صرة خشبية، ويربطها الفرع النباتي المذكور آنفا.[١٢٨]

أما فيما يتعلق بالمزهريات فلدينا منها نوعان، الأول مزهريات مفردة، وقد وردت على شكلين أحدهما على شكل كأسي تنبثق منه زهرتا ورد وقرنفل[١٢٩] والآخر على شكل كأسي أيضا في وضع مقلوب ترتكز عليه زهرتا ورد وياسمين.[١٣٠]

والثاني من أنواع المزهريات المشتركة في موضوع زخرفي، وقد أكثر الفنان من استخدام هذا الأسلوب، كما نوع في أشكالها، فمنها ما ترتكز الأزهار والأشجار على فرعين نباتيين على شكل قلب يحف بهما من الجانبين الأيمن والأيسر ورقتان نباتيتان مثمرتان مؤلفتان من ثلاثة فصوص.[١٣١] ومنها ما يرتكز على شكل هندسي نتج عن التفاف الفرع وتداخله مع بعضه في حركة هندسية بديعة[١٣٢]، ومن هذه الأشكال ما نتج عن انبثاق الأزهار من شكل قلب في وضع مقلوب.[١٣٣] ومن أشكال المزهريات المشتركة في موضوع زخرفي ما تنبثق الزهور من داخل ورقة على شكل كأسي، يحف بها من الجانبين ورقتان نباتيتان مسننة جوانبهما، مما يلي الشكل الكأسي، وتنحني هاتان الورقتان الى الداخل، مشكلتان مع الشكل الكأسي شكل مزهرية.[١٣٤]

ثالثا : الألوان المستخدمة

يزيد عدد الألوان التي استخدمها الفنان محمد افضل هروي على عشرة ألوان، فقد استخدم الأحمر بدرجاته، والأزرق بدرجاته، والأخضر بدرجاته والأبيض والأسود.

وقد تباينت طرق توزيع الألوان، وتناسقها، وعددها من عمل الى آخر، ففيما يتعلق بتوزيع الألوان فيلاحظ أنها تختلف بحسب لون الأرضية فاذا كانت الأرضية ذات لون فاتح فإنه يحددها بلون غامق، نحو تحديد الأرضية الصفراء اللون بلون بني[١٣٥] وذات اللون الأخضر الفاتح، والأزرق الفاتح، والأبيض بلون أزرق غامق.[١٣٦]

(١٢٦) لوحة رقم (٣٤)، شكل رقم (١٢/٥).

(١٢٧) لوحة رقم (٣٨)، شكل رقم (١٢/٦).

(١٢٨) لوحة رقم (٣٩)، شكل رقم (١٢/٧).

(١٢٩) لوحة رقم (٣٤)، شكل رقم (١٣/١).

(١٣٠) لوحة رقم (٣٨)، شكل رقم (١٣/٢).

(١٣١) لوحة رقم (٢٢)، شكل رقم (١٤/١).

(١٣٢) لوحة رقم (٢٨)، شكل رقم (١٤/٢).

(١٣٣) لوحة رقم (٢٩)، شكل رقم (١٤/٣).

(١٣٤) لوحة رقم (٣٩)، شكل رقم (١٤/٤).

(١٣٥) لوحة رقم (٣٣).

(١٣٦) اللوحات رقم (١٧، ٣٤، ٣٨).

اما إذا كانت الأرضية ذات لون غامق فقد حددها باللون الفاتح[١٣٧]، نحو تحديد الأرضية ذات اللون الأزرق بلون أصفر[١٣٨]، وذات اللون الأصفر بلون أبيض[١٣٩] وذات اللون الأخضر بلون أصفر.[١٤٠]

وإذا كانت الأرضية متعددة الألوان قام الفنان بالمبادلة بين الألوان فعلى سبيل المثال: جعل اللون الأبيض محدداً لأرضية تتبادل في الألوان على النحو التالي: أبيض ، أصفر، أحمر، أصفر، أبيض.[١٤١]

وفيما يتعلق بتناسق الألوان في العمل الواحد فيلاحظ أن اهتمام هذا الفنان انصب على إبراز الزخرفة، فإذا كانت الأرضية ذات لون أزرق فاتح فهناك حالتان في اختياره لألوان الزخارف والكتابات، الأولى استخدم فيها اللون الأبيض[١٤٢] والثانية نفذها بالأصفر، والأحمر، والوردي والعنابي والأزرق الغامق.[١٤٣]

وإذا كانت الأرضية ذات لون أصفر فهناك أربع حالات، في الأولى استخدم اللون الرصاصي، والأحمر، والوردي، والبني، والأزرق، والرمادي، والعنابي[١٤٤] وفي الثانية استخدم الأبيض، والرمادي، والأصفر، والأحمر والأزرق[١٤٥]، وفي الحالة الثالثة استخدم اللون الزيتوني[١٤٦] اما في الحالة الرابعة فقد نفذ الزخارف باللون الأزرق الغامق.[١٤٧]

وفيما إذا كانت الأرضية ذات لون أخضر غامق فقد استخدم اللون الأحمر والأصفر والأبيض والوردي[١٤٨]، وإذا كانت لونها أخضر فاتحاً فقد استخدم اللون الأصفر، والبني، والأبيض، والأزرق، والوردي والأحمر.[١٤٩]

وقد اعتنى هذا الفنان بقيم اللون، سواء أكان ذلك في تدرج الألوان من الأفتح الى الأغمق[١٥٠] أم من الأغمق إلى الأفتح[١٥١] أم كان ذلك في تبادل الألوان من الأفتح الى الأغمق إلى الأفتح[١٥٢]، وإذا كان العمل ذو لونين فقد اتبع أسلوب جعل لون أكبر من الآخر[١٥٣]، وقد يجعل اللونين متساويين.[١٥٤]

أما من حيث عدد الألوان فقد اختلف عددها من عمل لآخر، فقد استعمل لونا واحدا،[١٥٥] وفي بعض الأعمال لونين[١٥٦] فأكثر[١٥٧] وقد وفق إلى حد كبير في انتقاء الألوان وتوزيعها بطريقة فنية منسقة، أضْفَتْ على الأعمال التي أنجزها رونقاً وجمالاً، كما حالفه التوفيق في تركيب الألوان وتكوينها، مما جعلها تصمد أمام العوامل الجوية منذ ما ينيف على مائة عام في بعض الأعمال، وما يقارب ذلك في أعمال أخرى.

رابعا : طرق التنفيذ

استخدم الفنان محمد أفضل هروي الرسم والحفر في تنفيذ أعماله الفنية في المنشآت التي شملتها الدراسة، ففيما يتعلق بالرسم فقد نفذ

---

(١٣٧) اللوحات رقم (٣٧ـ٣٨).

(١٣٨) اللوحات رقم (٤،٨).

(١٣٩) لوحة رقم (٣٧).

(١٤٠) اللوحات رقم (١٠،٣٠).

(١٤١) لوحة رقم (٣٨).

(١٤٢) لوحة رقم (٤).

(١٤٣) لوحة رقم (٣٢).

(١٤٤) لوحة رقم (٣٤).

(١٤٥) لوحة رقم (٣٩).

(١٤٦) لوحة رقم (٣٧).

(١٤٧) لوحة رقم (٣٦).

(١٤٨) لوحة رقم (٣٠).

(١٤٩) لوحة رقم (٣٨).

(١٥٠) لوحة رقم (٤١).

(١٥١) لوحة رقم (٣٦).

(١٥٢) لوحة رقم (٣٨).

(١٥٣) اللوحات رقم (٣٣، ٣٧، ٣٨).

(١٥٤) لوحة رقم (٣٤).

(١٥٥) لوحة رقم (٤١).

(١٥٦) لوحة رقم (٨).

(١٥٧) اللوحات رقم (٣٢ ـ ٣٤، ٣٦ ـ ٣٧).

باسلوبي التلوين[١٥٨] والتذهيب[١٥٩]، وكان التلوين أكثر الأساليب الصناعية التي استخدمها، أما التذهيب فقد استخدم على نطاق ضيق.

وإلى جانب ذلك فقد استخدم هذا الفنان الحفر بأساليبه المتنوعة مثل النقش البارز[١٦٠]، والبارز البسيط[١٦١]، والحفر العميق[١٦٢]، والحز[١٦٣]، كما لم يقتصر على طريقة تنفيذ واحدة بالعمل فحسب[١٦٤] بل نفذه بطريقتين.[١٦٥]

الخاتمة: المميزات العامة لأسلوبه

أولا : استخدامه خط التعليق بكثرة، وإجادته لخط الثلث.

ثانيا : إفادته من الفروع النباتية في تشكيل أكثر من موضوع زخرفي، وبخاصة في زخرفة التوريق الإسلامية.

ثالثا : بناؤه لموضوعاته الزخرفية على أساس الفرع النباتي الواحد، أو عن طريق فرعين، بحسب مساحة الموضع الممثلة به الزخرفة.

رابعا : رسمه الوريدات في معظم الأعمال في صورة قريبة من الطبيعة.

خامسا : إغفاله همزات القطع ونقطتي التاء والياء.

سادسا : تأثره بالأسلوب الأوربي في الزخرفة.

سابعا : استحداثه لأشكال زخرفية جديدة.

ثامنا : اهتمامه بتوقيع اسمه على الأعمال التي نفذها.

تاسعا : إتقانه للرسم، والخط، على الملاط والجص والخشب.

عاشرا : أظهر مهارة في تركيب الألوان، وتوزيعها، وإحداث التناسق فيما بينها.

حادي عشر : حبه للألوان الأزرق، والأبيض، والأصفر.

ثاني عشر : استخدامه أسلوبا انفرد به دون غيره من الفنانين في مكة المكرمة، برسمه أو نقشه ثلاث نقاط، بلون واحد، أو لونين متشابهين، بحيث يرسم نقطة ذات لون داكن، وأخرى ذات لون فاتح مثل الأزرق الغامق،

---

(١٥٨) اللوحات رقم (٤، ٨، ١١ ـ ٢٧)، ويتم تلوين الجدران بأن يؤتى بالصمغ المعروف باسم (الكثيرا) فينقع مدة من الوقت حتى يتحلل، ويؤتى بالبيض النيء فيصب عليه، ويحرك بالخفق كثيرا، ثم يضع عليه من ألوان الأصبغة التي يريدها ويمزجها ببعضها، وذلك بعد وضع كمية من الجبسين الناعم الممزوج، فإن كان الدهن والمرش زيتيا لزيادة البهجة، من بريق ولمعان يضاف الى هذا الخليط (نفض)، ثم يأخذ الصانع ريشة رأسها من شعر ويغمسها، ثم يبدأ في إجراء الرسومات المرغوبة، محمد سعيد القاسمي وجمال الدين القاسمي وخليل العظم، **قاموس الصناعات الشامية**، حققه وقدم له ظافر القاسمي، ط١ (دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٨٨م)، الجزء الأول، ص ١٤٨.

(١٥٩) اللوحات رقم (٣٢ـ٣٨)، وتنفذ هذه الطريقة بالزيت، بواسطة دهن الأعمال الخشبية ثلاث مرات بالفُرْنيش ثم تطلى بطلاء الذهب بواسطة فرشة خاصة، وهناك طريقة أخرى تتم عن طريق غراء جلود الحيوانات الصغيرة بعد غليها في الماء، الذي تطلى به الأعمال الخشبية حوالي عشر مرات ثم بعد جفافها، يلصق عليها ورق التذهيب ويصقل؛ جرجس طنوس عون، **الدر المكنون في الصنائع والفنون** (بيروت: مطبعة الأمريكان، ١٨٧٣م)، ص ص ٢٨٤ـ٢٨٥.

(١٦٠) اللوحات رقم (٤١،٤)، وينفذ هذا الأسلوب بحفر مناطق الفراغ فيما بين الزخارف، مع ترك الزخارف بارزة على الأرضية، عبد القادر عابد وفتحي السباعي، **الحفر** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ص ٤٨.

(١٦١) لوحة رقم (٤٠)، ويماثل سابقه، ولكن بروز الزخارف أقل منه..

(١٦٢) اللوحات رقم (٩،٨)، وتنفذ الزخارف وفق هذا الأسلوب بحفرها مع ترك الأرضيات التي تحيط بها كما هي دون حفر، بحيث تصبح هذه الزخارف أكثر عمقا في الأرضية، عبد القادر وفتحي، **الحفر**، ص٤٨.

(١٦٣) اللوحات رقم (٣٨،٣٤)، ويماثل هذا الأسلوب سابقه، ولكن الحفر أقل عمقاً.

(١٦٤) اللوحات رقم (١١ـ ٢٩).

(١٦٥) اللوحات رقم (٣٨،٤).

والأزرق الفاتح، ومثل الأحمر الغامق والوردي، وذلك عند نهاية الفروع الرئيسة، أو عند رؤوس الأوراق وبخاصة عندما تنتهي في الأركان، أو في جوانب المنطقة الزخرفية.

ثالث عشر إلحاق بدايات الحروف ونهايات في خط التعليق خاصة بعناصر ورقية نباتية.

رابع عشر توفيقه في اختيار المواضع المناسبة بالمباني التي نفذ فيها الزخارف والكتابات المرسومة والمنقوشة.



لوحة رقم (١) : منظر عام لجدار القبلة من الخارج بمسجد الشيخ رحمت الله (صورة التقطت قبل خسمين سنة، أرشيف المدرسة الصولتية)



لوحة رقم (٤) : منظر تفصيلي للمنطقة العلوية بواجهة مسجد الشيخ رحمت الله

لوحة رقم (٥) : منظر تفصيلي لآخر بيت من القصيدة المنفذة بواجهة مدخل مسجد الشيخ رحمت الله



لوحة رقم (٦) : منظر تفصيلي يوضح توقيع الفنان على عمله بواجهة مدخل مسجد الشيخ رحمت الله



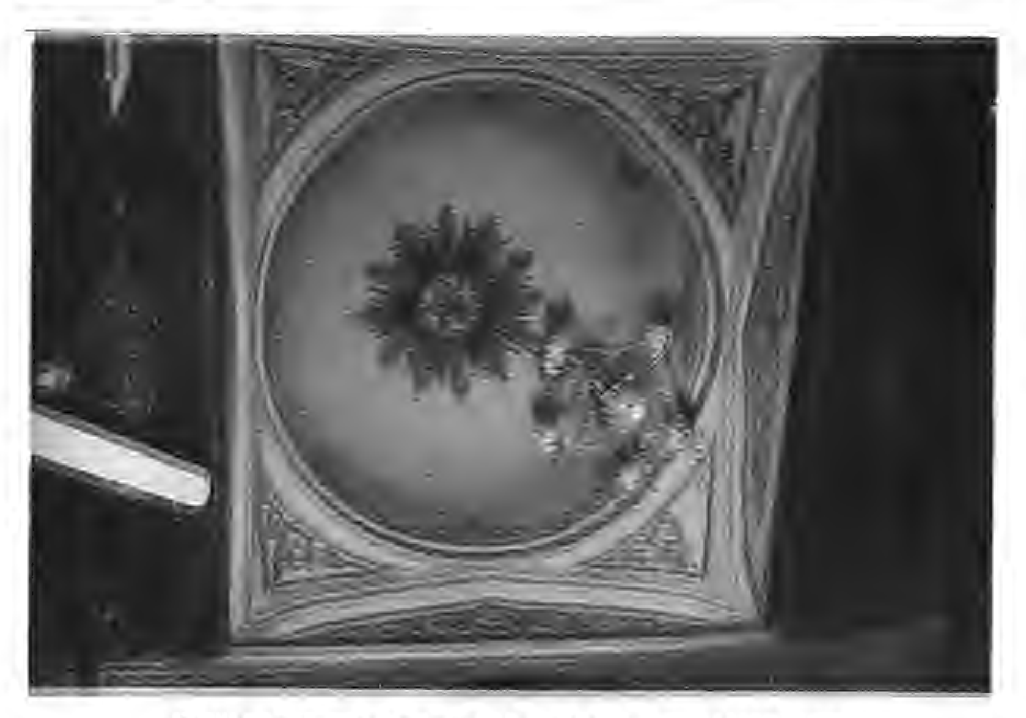
لوحة رقم (٧) : منظر عام لمحراب مسجد الشيخ رحمت الله



لوحة رقم (٨) : منظر تفصيلي للمنطقة العلوية من محراب مسجد الشيخ رحمت الله



لوحة رقم (٩) : منظر تفصيلي يوضح توقيع الفنان على الأعمال الفنية التي نفذها بداخل مسجد الشيخ رحمت الله



لوحة رقم (١٠) : منظر عام للقبة الوسطى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل



لوحة رقم (١١) : منظر تفصيلي للعقد الجنوبي الواقع أسفل القبة الوسطى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل.



لوحة رقم (١٢) : منظر تفصيلي للعقد الشمالي الواقع أسفل القبة الوسطى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل.



لوحة رقم (١٣) : منظر تفصيلي للعقد الغربي الواقع أسفل القبة الوسطى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل.



لوحة رقم (١٤) منظر تفصيلي للعقد الشرقي الواقع أسفل القبة الوسطى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل



لوحة رقم (١٥) منظر تفصيلي للزخرفة المنفذة بمنتصف القبة الوسطى بمسجد الشيخ رحمت الله قبل تشويهها

لوحة رقم (١٦) : منظر تفصيلي للزخرفة المنفذة بمنتصف القبة الوسطى بمسجد الشيخ رحمت الله بعد تشويهها.

لوحة رقم (١٧) : منظر عام للقبة اليمنى لمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل



لوحة رقم (١٨) : منظر تفصيلي للعقد الجنوبي الواقع أسفل القبة اليمنى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل.

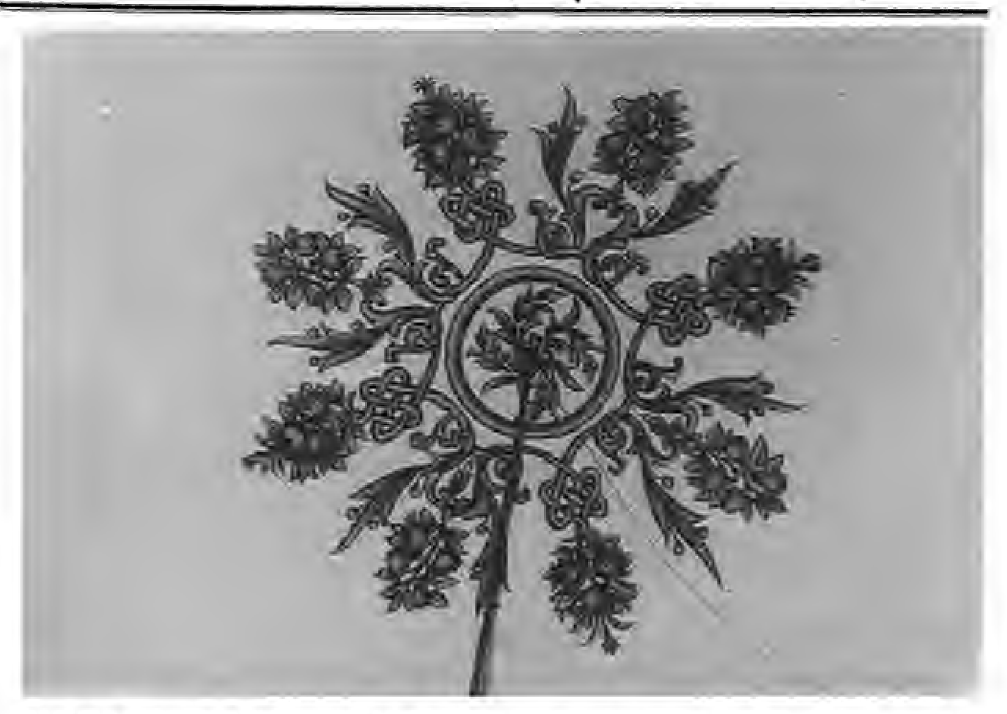


لوحة رقم (١٩) : منظر تفصيلي للعقد الشمالي الواقع أسفل القبة اليمنى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل.

لوحة رقم (٢٠) : منظر تفصيلي للعقد الغربي الواقع اسفل القبة اليمنى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل



لوحة رقم (٢١) : منظر تفصيلي للعقد الشرقي الواقع اسفل القبة اليمنى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل.



لوحة رقم (٢٢) : منظر تفصيلي للزخرفة المنفذة بمنتصف القبة اليمنى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل.



لوحة رقم (٢٣) : منظر عام للقبة اليسرى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل



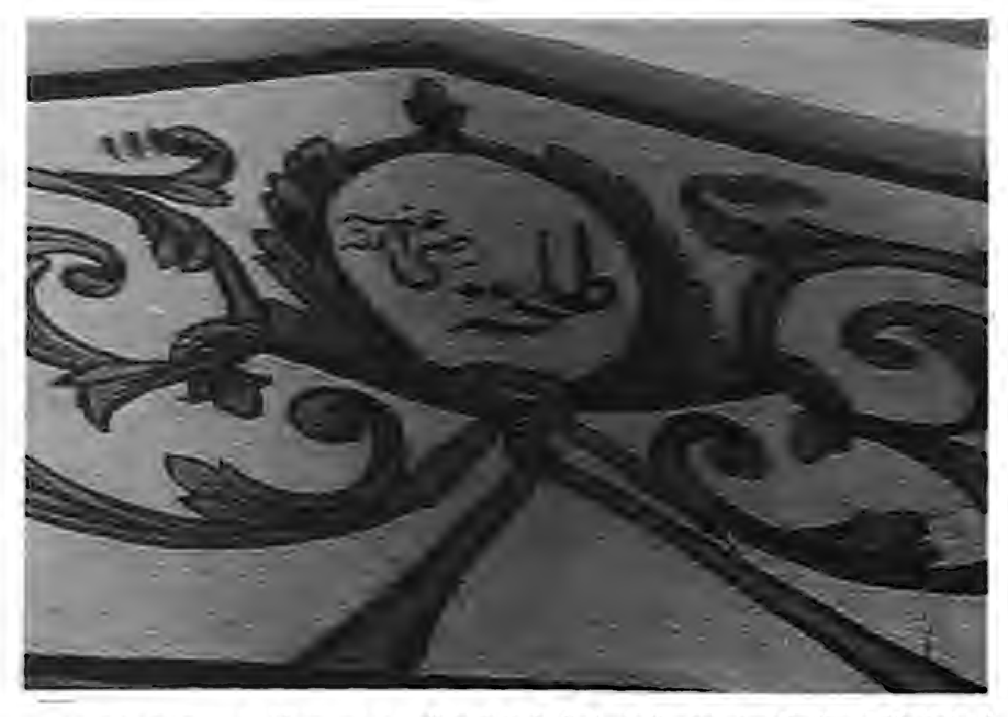
لوحة رقم (٢٤) منظر تفصيلي للعقد الجنوبي الواقع أسفل القبة اليسرى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل



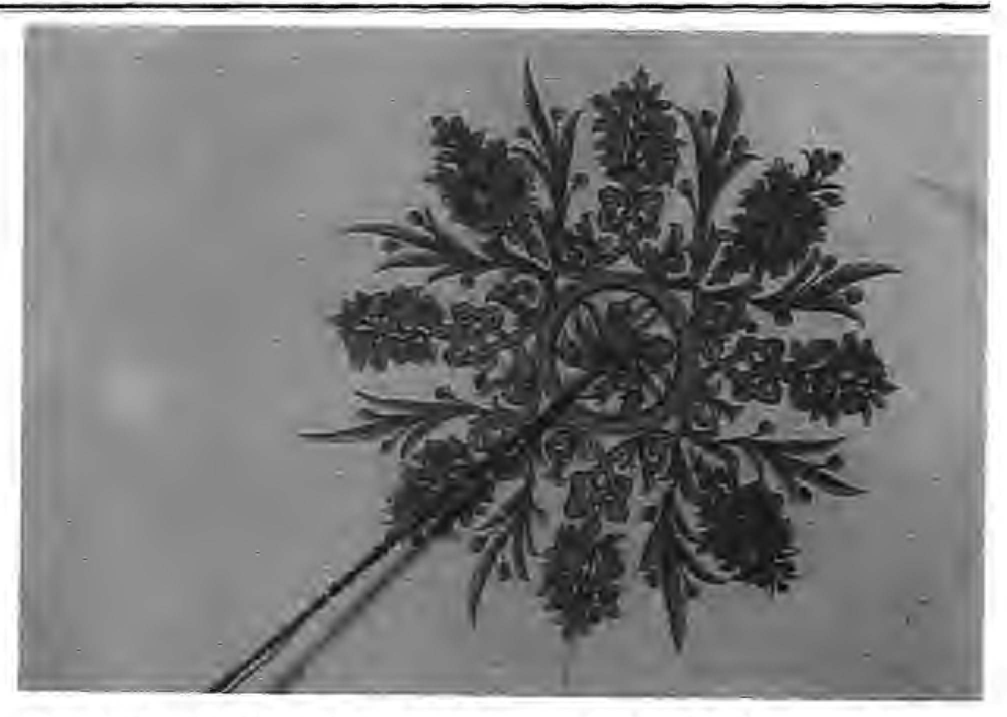
لوحة رقم (٢٥) : منظر تفصيلي للعقد الشمالي الواقع أسفل القبة اليسرى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل



لوحة رقم (٢٦) : منظر تفصيلي للعقد الغربي الواقع أسفل القبة اليسرى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل.



لوحة رقم (٢٧) : منظر تفصيلي للعقد الشرقي الواقع أسفل القبة اليسرى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل.



لوحة رقم (٢٨) : منظر تفصيلي للزخرفة المنفذة بمنتصف القبة اليسرى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل

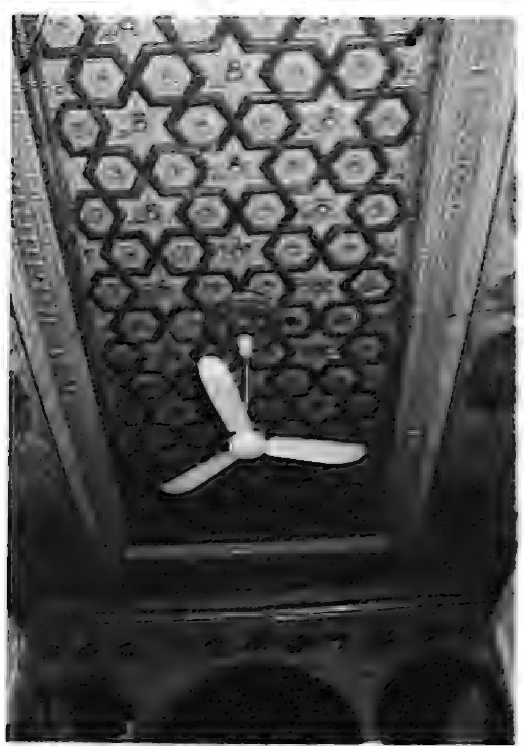
لوحة رقم (٢٩) : منظر تفصيلي للزخرفة المنفذة بالمثلث الكروي لكل قبة من قباب مسجد الشيخ رحمت الله.



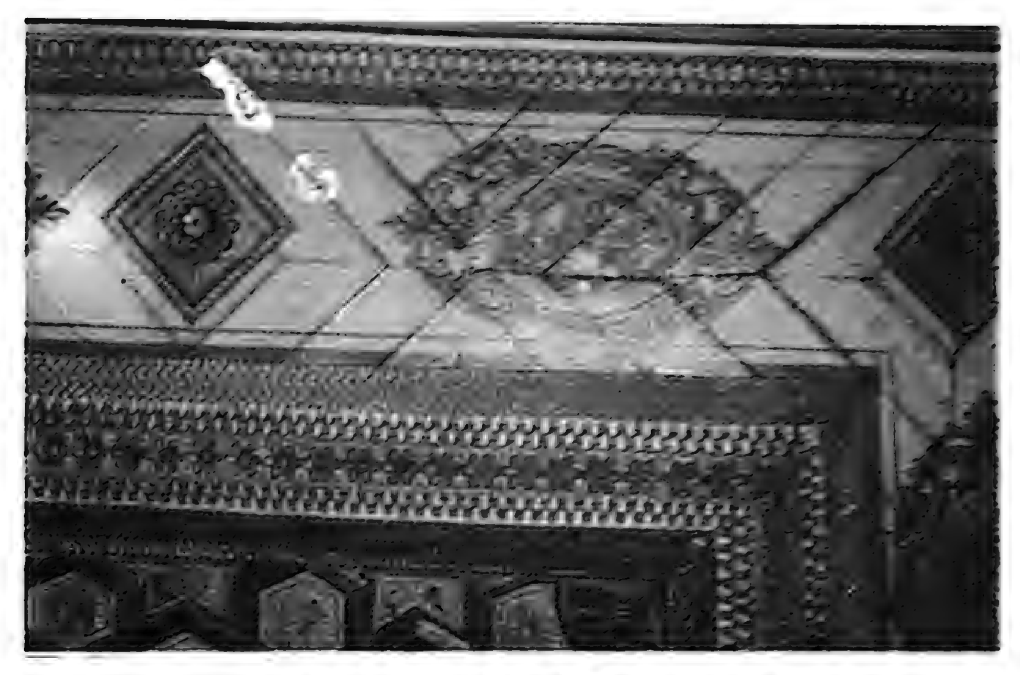
لوحة رقم (٣٠) - منظر عام للجزء الذي يفصل بين كل قبة وأخرى بمسجد الشيخ رحمت الله من الداخل



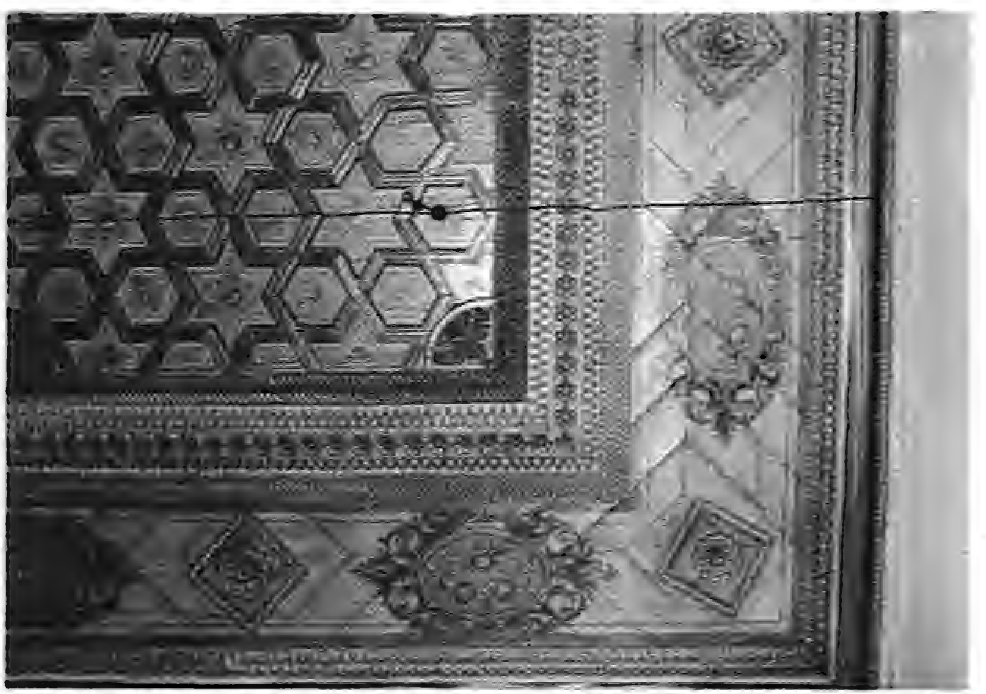
لوحة رقم (٣١) - منظر علم للديوان الرئيس بالطابق الثاني في منزل عباس القطـــان، (نقلاً عن ناصر الحارثي، أعمال لوحة رقم ١٣٥).



لوحة رقم(٣٢) - منظر عام لسقف الديوان الرئيس بالطابق الثاني في منزل عباس قطـــان، (نقلاً عن ناصر الحارثي، أعمال لوحة رقم ١٣٦).



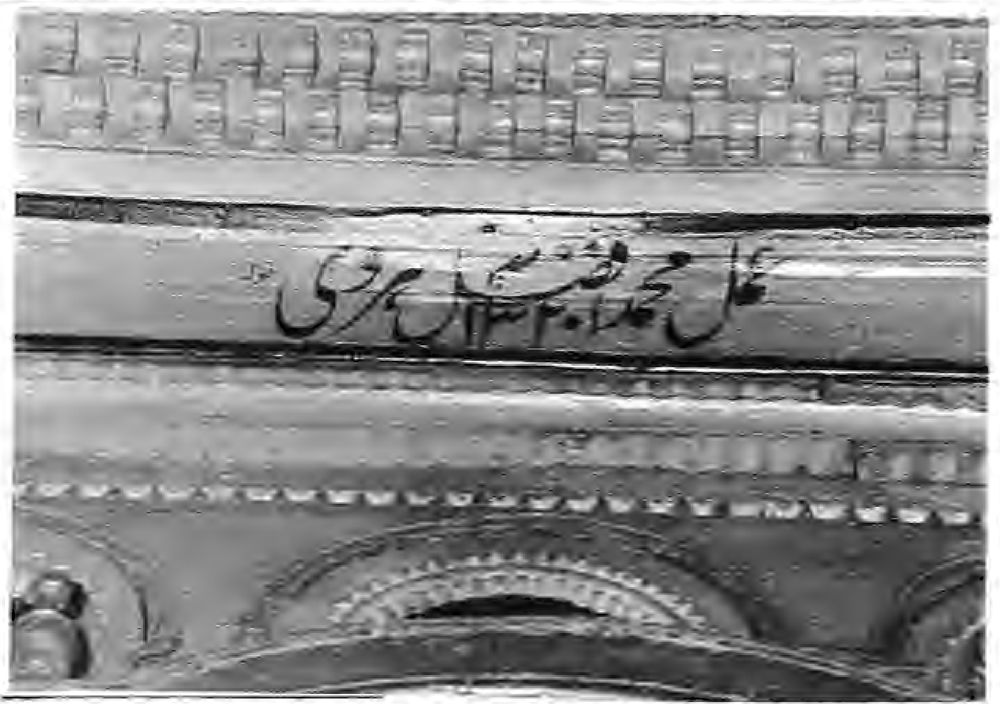
لوحة رقم (٣٣) - منظر تفصيلي لسقف الديوان الرئيسي بالطابق الثاني في منزل عباس قطان



لوحة رقم (٣٤) . منظر تفصيلي لسقف الديوان الرئيسي بالطابق الثاني في منزل عباس قطان، نقلا عن ناصر الحارثي، أعمال، لوحة رقم (١٣٧).



لوحة رقم (٣٥) منظر تفصيلي لسقف الديوان الرئيس بالطابق الثاني في منزل عباس قطان.



لوحة رقم (٣٦) : منظر تفصيلي يبين توقيع الفنان محمد هروي بسقف الديوان الرئيس بالطابق الثاني بمنزل عباس قطان.



لوحة رقم (٣٧) : منظر عام لسقف الصالة التي تفضي الى الديوان الرئيس بالطابق الثاني في منزل عباس قطان (نقلاً عن ناصر الحارثي، أعمال، لوحة رقم ١٣٩).

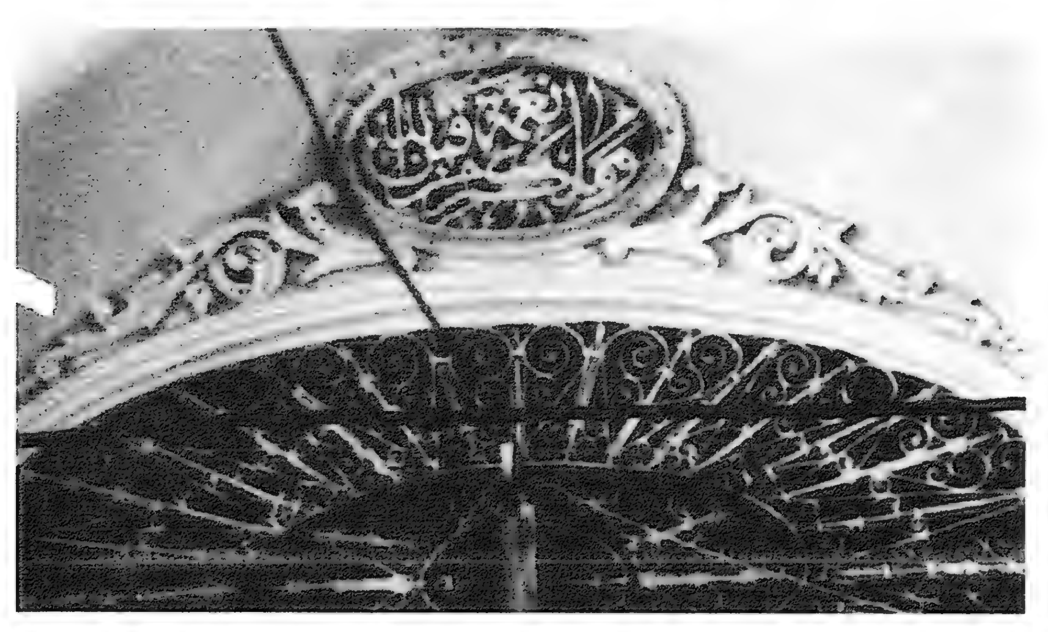
لوحة رقم (٣٨) : منظر تفصيلي لسقف الصالة التي تفضي الى الديوان الرئيس بالطابق الثاني في منزل عباس قطان، (نقلاً عن ناصر الحارثي، أعمال، لوحة رقم ١٤٢).



لوحة رقم (٣٩) : منظر تفصيلي للصرة التي تتوسط سقف الصالة التي تفضي إلى الديوان الرئيس بالطابق الثاني في منزل عباس قطان. (نقلا عن ناصر الحارثي، أعمال، لوحة رقم ١٤١).



لوحة رقم (٤٠) : منظر تفصيلي للجانب السفلي من روشن الواجهة بمنزل عباس قطان. (نقلا عن ناصر الحارثي، اعمال، لوحة رقم ١١٠).



لوحة رقم (٤١) : منظر للزخرفة الجصية التي تعلو بوابة الدخول الرئيسة بمنزل إسماعيل عبد القادر إسماعيل.

شكل رقم «١». تفريغ للنقش الأول



شكل رقم «٢». تفريغ للنقش الثاني

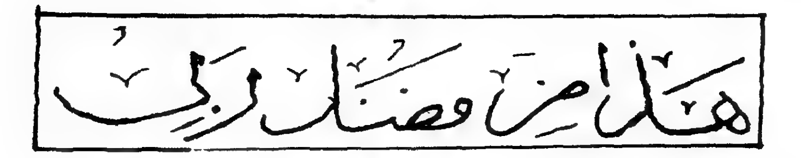


شكل رقم «٣». تفريغ للنقش الثالث

عمل محمد افضل هروی

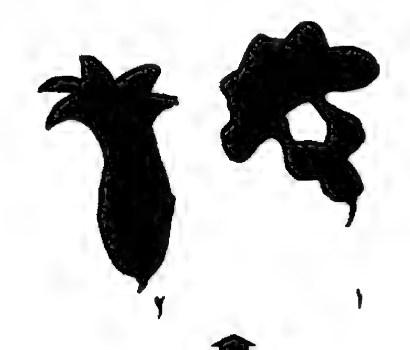
شكل رقم «٤». تفريغ للنقش الرابع

شكل رقم «٥». تفريغ للنقش الخامس

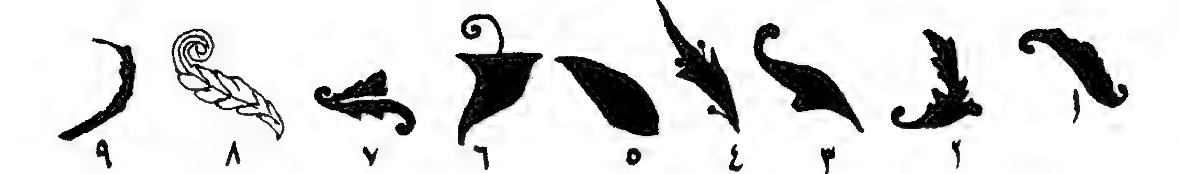


شكل رقم «٦». تفريغ للنقش السادس





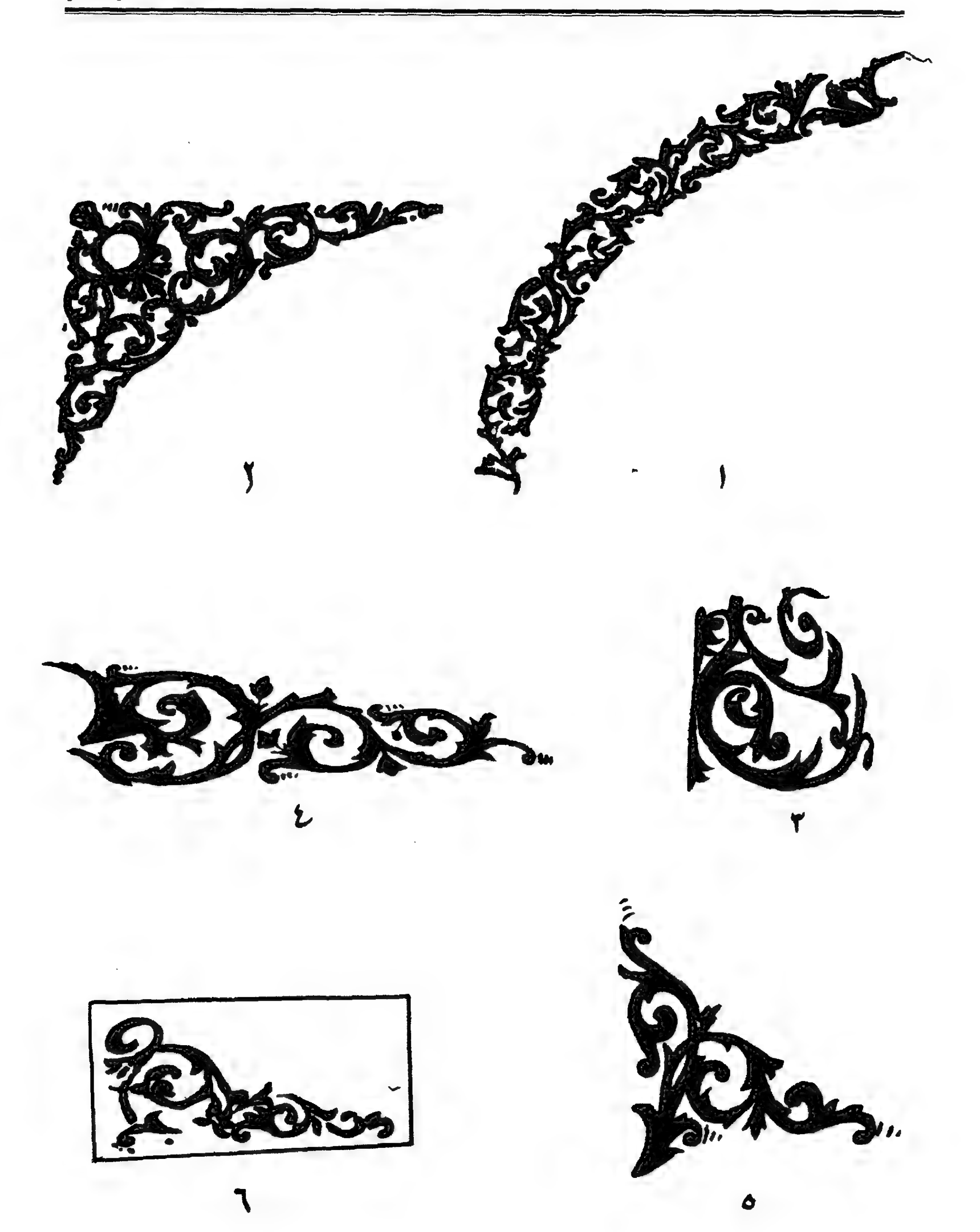
شكل رقم «٧». زهرة القرنفل



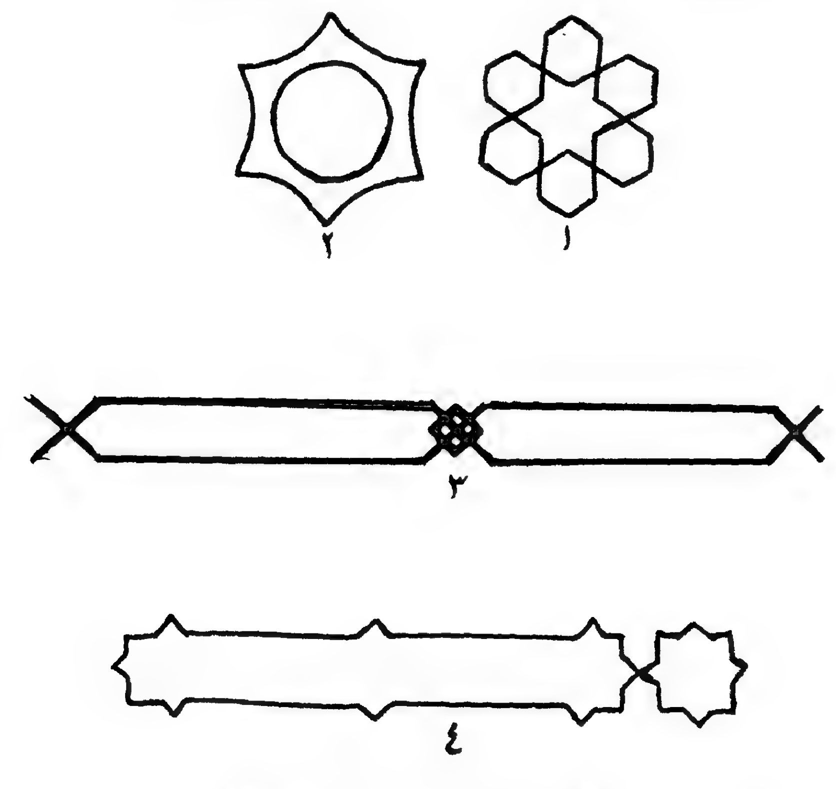
شكل رقم «٨». الأوراق النباتية



شكل رقم «٩» الكمثرى

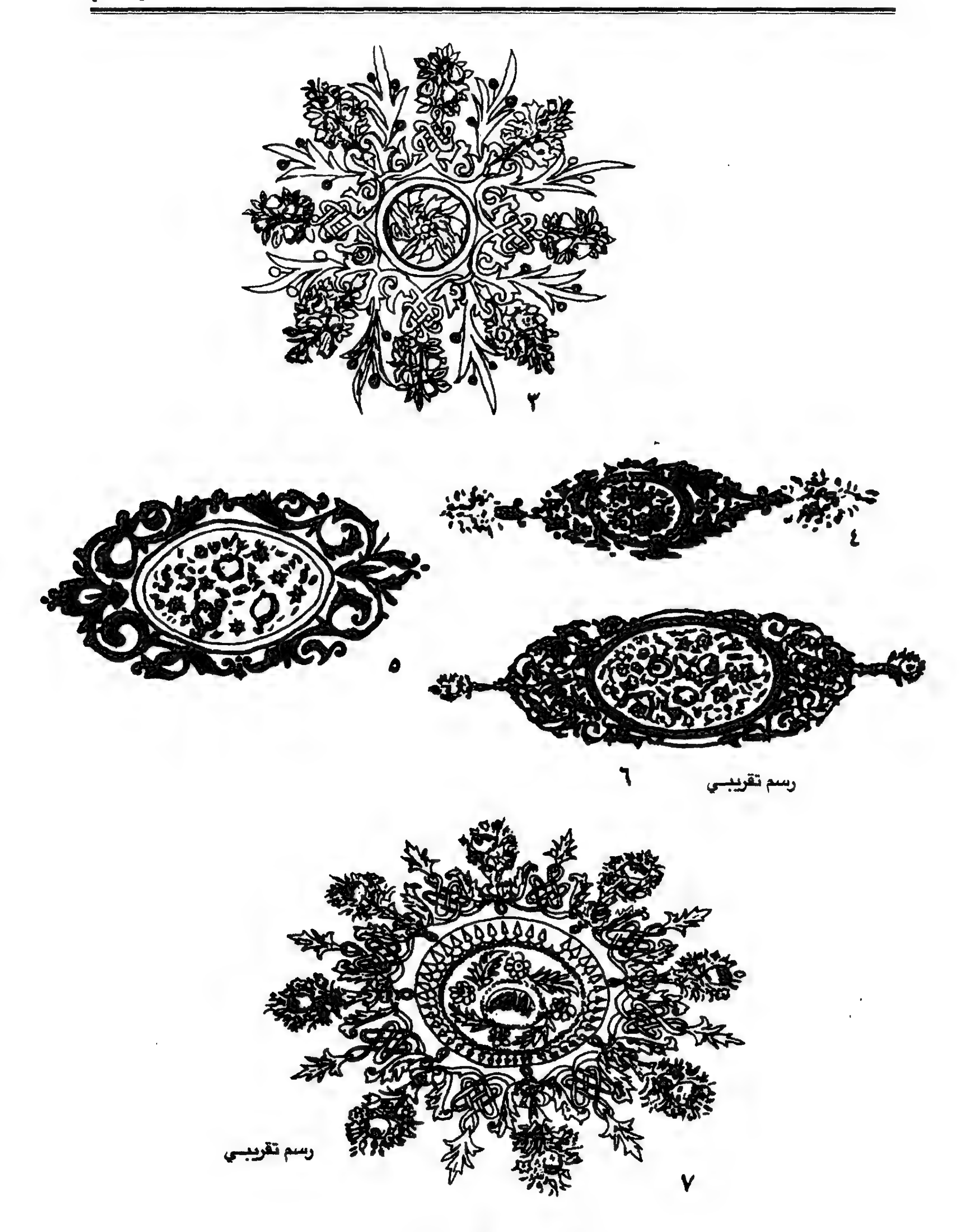


شكل رقم «١٠». زخرفة التوريق



شكل رقم «١١». الوحدات الهندسية

شكل رقم «١٢». أشكال مختلفة للصرر.



تابع شكل رقم «١٢».





شكل رقم «١٣». المزهريات









شكل رقم «١٤». المزهريات المشتركة مع موضوع زخرفي

جدول رقم (١) أشكال الحرف مفردا ومركبا كما ورد في النصوص الكتابية التي نفذها الفنان محمد أفضل هروي بخط التعليق

الحروف العربية مرتبة ترتيبا هجائيا	نقش رقم (١) مفرد	نقش رقم (١) مبتديء	نقش رقم (١) وسط	نقش رقم (١) منتهي	نقش رقم (٣) مفرد	نقش رقم (٣) مبتديء	نقش رقم (٣) وسط	نقش رقم (٣) منتهي	نقش رقم (٤) مفرد	نقش رقم (٤) مبتديء	نقش رقم (٤) وسط	نقش رقم (٤) منتهي
ا	(ا ا)			ـا	ا ا		سما		ا			
ب	ب	ـ	سه	ـب								
ج		حا ح		ح		بكـ خاحا	بو نحـ				ك	
د	د		لد	ـد				بد بد عر				
ر			كرلبر		ز ر						سرر	
س		شد	شد			سد	ـسـ					
ص		ضو									نض	
ط			لت									
ع		غرع	اع	ع		عاعا	سعد			سوغ		
ف		فه	ـد	ـف						ف	ـعـ	
ق		فا										
ك		كدكا	نعلم	كل			نكه لعمرنا					ـل
ل			لله									
م		مامه	سماء	م م			تامرما				محمد	
ن			نو		ن							
هـ		ماهرها	لها	له						ماهر		له
ة	ة			ـه	ه			ـه				
و	و و		مو						و			
لا	لا						لا					
ء			ء									
ي	ي			ـے			ـير		ي			

جدول رقم (٢) أشكال الحرف مفردا ومركبا كما ورد في النصوص الكتابية التي نفذها الفنان محمد أفضل هروي بخط الثلث

الحروف العربية مرتبة ترتيبا هجائيا	نقش رقم (١)				نقش رقم (٥ أ)				نقش رقم (٦)			
	أشكال الحرف				أشكال الحرف				أشكال الحرف			
	مفرد	ملتصق			مفرد	ملتصق			مفرد	ملتصق		
		مبتدئ	وسط	منتهي		مبتدئ	وسط	منتهي		مبتدئ	وسط	منتهي
ا	ا				ا				ا			ا
ب ت							نى					
ح خ												
ذ							ذ					
ر ز					ر							
س ش												
ص ض							ض					
ط ظ												
ع غ											ع	
ف						و				ف		
ق ق											ك	
ك											ﻠﻠﻠ	
ل		لد	ﻠﻠ					ل			ـحـ	ـس
م م م						مـ				مم		
ن								من		ن		من
ه لا				ه		هـ						ىىىـ
و و										و		
لا لا												
ى								بى				

العصور . المجلد السادس، الجزء الثاني، ٣٦٩ ـ ٣٩٢ (١٩٩١م)

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمرأة الكويتية ووفيات الأطفال دون الخامسة

«دراسة ميدانية في دولة الكويت»

للدكتور **يوسف حسن أبو ليلى**

ملخص البحث : **تتناول الدراسة تحليل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمرأة الكويتية وأثرها في وفيات الأطفال دون سن الخامسة، من خلال دراسة امبيريقية تنحو الناحية الإحصائية التحليلية لبيان العلاقة الارتباطية بين المستوى الاجتماعي والاقتصادي والتعليمي للمرأة الكويتية بصفة خاصة وبين وفيات الأطفال، وذلك للكشف عن الأهمية البالغة لموضوع الارتقاء بمستوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمرأة وانعكاسات ذلك إلى مستوى التنمية الشاملة في دولة الكويت. وتحاول أن تختبر فرضا رئيساً مؤداه : أنه كلما ارتفعت تلك المستويات كلما انخفضت وفيات الأطفال بصورة عامة. وذلك بخلاف العوامل الأخرى المؤثرة على هذه الظاهرة.**

أجريت الدراسة على عينة عشوائية غير منتظمة من النساء الكويتيات المتزوجات في مختلف المستويات الاجتماعية والاقتصادية، بلغ عددهن ٣٠٠ حالة شملت المناطق الجغرافية المختلفة وقد تم جمع البيانات بواسطة صحيفة استبانة. وقد جاءت نتائج هذه الدراسة مؤكدة

عكسية بين معدلات وفيات الأطفال الرضع والحالتين الاجتماعية والاقتصادية لأسرهم. ففي فرنسا مثلا وجد أن متوسط وفيات الأطفال في الفترة مابين عامي ١٩٦٦ و١٩٧٠م تصل إلى عشرين طفلاً لكل الف طفل، إلا أن هذا المعدل يختلف فيما بين الطبقات الاجتماعية حيث يصل إلى اثني عشر طفلاً لكل ألف، لدى الطبقات الاجتماعية العليا وسبعة عشر طفلاً لكل الف لدى الطبقات الوسطى خاصة وأن أغلب أفراد تلك الطبقات من التجار والمهنيين الموسرين، وتصل النسبة إلى أربعة وعشرين طفلاً لكل الف بين العمال الزراعيين وثمانية وعشرين طفلاً لكل الف بين العمال الحرفيين ومن ينتمي إلى طبقتهم، فحياة

وفيات الرضع هي التي يمكن التحكم فيها بدرجة كبيرة وهي التي تؤثر في انخفاض معدلات الوفيات العامة على مستوى الدولة، أما تلك الأسباب الكامنة، فمن الصعب التحكم فيها ونادراً ما يكون لها تأثير واضح على معدل الوفاة في البلاد كلها.(٦)

كما يمكن القول بأن هناك مجموعتين رئيستين تندرج تحتهما أسباب الوفيات؛ مجموعة الأسباب الداخلية، ومجموعة الأسباب الخارجية، ويفترض بأن المجموعة الأولى ناجمة عن التركيب الخلقي أو الفزيولوجي للفرد وترتبط في الوقت نفسه بأوضاعه قبل الولادة وأثنائها، أما المجموعة الثانية فيعتقد بأنها تنتج عن أسباب خارجية ترتبط بأحوال البيئة

التقدم الذي تم إحرازه في بلدان العالم بالإضافة إلى نسبة هذا التقدم، على فترة معينة من الزمن.(٩)

فإذا كان المؤشر المستخدم هو نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي، فإن وحدة القياس العادية هي نسبة النمو السنوي، ولكن التقرير ينوه بأن هذه الوسيلة لا تخلو من العيوب ومنها عدم المساواة، ذلك أن زيادة (١٠٪) في دخل أغنى (٢٥٪) من السكان على سبيل المثال ستزيد نسبة النمو السنوي في نصيب الفرد الواحد من الناتج القومي الإجمالي بأكثر من (١٠٪) في دخل الـ (٢٥٪) من السكان الأكثر فقراً. وهذا قد يعني إذا ما قيس بهذه الطريقة، أن نسبة التقدم لها علاقة غامضة بالاحتياجات الأساسية لغالبية السكان. ومع ذلك تبقى نسبة النمو السنوي لحصة الفرد من الناتج القومي الأجمالي مؤشر متوافر ومفيد لتقدم خطة التنمية الاقتصادية وبالمثل فإن نسبة التخفيض السنوي في معدلات وفيات الأطفال دون سن الخامسة وفي نسب محو الأمية بصفة خاصة هي وحدة مفيدة لقياس التقدم الذي يتم إحرازه بموجب هذين المؤشرين الرئيسين.(١٠)

وتحقيقاً لأهداف دراستنا في التعرف على أبعاد تلك المشكلة في دولة الكويت بصفة خاصة فإنه من المفيد، وقبل تحليل نتائج الدراسة الميدانية التي اجريناها لاختبار العلاقة بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للنساء الكويتيات وبين وفيات الأطفال دون سن الخامسة، أن نناقش وضع المشكلة في الكويت كدولة من دول الخليج العربية.

فعلى الرغم من أن الكويت هي الأدنى في معدل الوفيات الخام بين الدول العربية الخليجية في وفيات الرضع حيث يبلغ هذا المعدل ٢٢,٨ في الألف سنويا، فرغم هذا فإننا نقر أن الدولة تسعى جاهدة لخفض هذا المعدل لتقترب من الدول المتقدمة.(١١) إلا أن المشكلة مازالت خطيرة. حيث إن معدل الوفاة عموما سواء أكانت للكبار أم للصغار يعتبر اختبارا نهائيا لنجاح الخدمات الصحية التي تقدمها الدولة لرعاياها. وبالتالي فان دولة مثل الكويت عليها أن تبذل قصارى الجهد للوصول إلى المستويات العالمية في معدلات وفيات الأطفال دون سن الخامسة وذلك لأنها تمتلك المقومات التي يمكن أن تحقق لها ذلك هذا بالإضافة إلى متغيرات أخرى يمكن أن تؤخذ بعين الأعتبار. فمعدلات الإنفاق على الرعاية الصحية في الكويت في تزايد مستمر(١٢) وعلى هذا نجد أن مشكلة وفيات الأطفال ما زالت قائمة بالنسبة إلى حجم الإنفاق الكبير على الخدمات الصحية، ولهذا فان المقولة الآتية يجب أن تكون محل اختبار وهي «إذا لم تبدأ الصحة بالفرد والبيت والأسرة ومكان العمل والمدرسة فإننا لن نوفر الصحة للجميع أبدا.»(١٣)

وعلى هذا فإن الأسرة والمرأة بصفة خاصة لها الوزن الكبير في هذه الظاهرة فإذا لم يتم تثقيفها تثقيفا صحيا وإعدادها إعدادا سليما في مختلف الجوانب فلن يمكننا تحقيق الهدف المنشود للوصول بالفعل إلى مستوى صحي أفضل فان ذلك ينعكس بلا شك على انخفاض معدلات وفيات الأطفال.

وانطلاقا من هذا المفهوم فان الدراسة الحالية تحاول بقدر الإمكان إلقاء الأضواء على مختلف الأبعاد المتعلقة بأوضاع المرأة الكويتية الاقتصادية والاجتماعية وبصفة خاصة في علاقتها بوفيات الأطفال وذلك من أجل استكمال الصورة عن تلك المشكلة حيث إننا لا نجد في الدراسات على مستوى دولة الكويت ما يشير إلى طرحه على أهمية دراسة تلك

---

(٩) اليونيسف، **وضع الأطفال في العالم**، ص ص ٨٢ ـ ٨٦.

(١٠) انظر: اليونيسف، **وضع الأطفال في العالم**، ص٨٣.

(١١) راجع بالتفصيل: عبد الرحمن الشرنوبي، «التركيب السكاني لدول الخليج العربية ـ دراسة مقارنة»، القسم الثالث، الكويت، **جريدة القبس**، ١٩٨٧/١١/٢٤م.

(١٢) لمزيد من التفاصيل انظر وزارة الصحة العامة، إدارة الميزانية والرقابة، قسم المحاسبة والتكاليف، **تحليل التكاليف وتقييم الاداء للخدمات الصحية الحكومية ٨٥ ـ ١٩٨٦**، العدد العاشر ـ الجزء الأول (الكويت، ١٩٨٦م)، ص ٢٣ وما بعدها.

(١٣) «منبر الصحة العالمي»، العدد ٢ سنة ١٩٨١م، عن تقرير وزارة الصحة العامة، **تحليل التكاليف**، ص ١٧.

العلاقة بجانبيها الاجتماعي والانثروبولوجي.[١٤]

الأهداف العامة للدراسة وتسؤلاتها الرئيسة

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية:

١ ــ إثراء الجانب المعرفي النظري والامبيريقي في مجال علم الاجتماع ـ والانثروبولوجيا الطبية[١٥] حول موضوع من الموضوعات المهمة والمرتبطة بوفيات الأطفال دون سن الخامسة في دولة الكويت ومعرفة خصائص المتأثرين بها خاصة وأن المكتبة العربية بشكل عام والكويتية بشكل خاص تفتقر إلى هذا النوع من الدراسات، ذلك أن معظم الدراسات التي أجريت حول هذا الموضوع لم تتناول أبعاد تلك العلاقة بالصورة التي تتناولها هذه الدراسة.[١٦]

٢ ــ الكشف عن الأهمية البالغة لموضوع الارتقاء بمستوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمرأة وانعكاسات ذلك على مستوى التنمية الشاملة في الكويت ومعرفة الارتباطات بين المتغيرات المختلفة في هذا المجال.

٣ ــ اختبار العلاقة بين المستويات الاقتصادية والاجتماعية للنساء الكويتيات وبين معدل وفيات الأطفال دون سن الخامسة وذلك بإيجاد الارتباطات الإحصائية الملائمة لذلك.

وفي إطار تلك الأهداف فإن الدراسة التي نحن بصددها الآن تأتي للإجابة على التساؤل الرئيس التالي:

هل هناك علاقة ارتباط عكسية قوية وذات دلالة بين المستوى الاقتصادي والاجتماعي للمرأة في دولة الكويت وبين وفيات الأطفال دون سن الخامسة؟ وماهي الشروط التي يمكن ان تحدث عندها تلك العلاقة؟ وما هي العوامل المسببة في حدوثها؟

وفي أطار ما تقدم عرضه فإن الأهداف الرئيسة للدراسة وتساؤلها الرئيس يحدد لنا وبصورة مباشرة المجال الذي تنحصر فيه هذه الدراسة الميدانية والتي بدأت بغرض رئيس حاولت تحقيقه كما سيتضح من نتائج الدارسة الميدانية.

الغرض الرئيس للدراسة

تحاول هذه الدراسة أن تختبر الفرض العلاقي الآتي:

«من المتوقع أن توجد علاقة ارتباطية عكسية قوية وذات دلالة بين المستوى الاقتصادي والاجتماعي للمرأة الكويتية وبين وفيات الأطفال دون سن الخامسة من العمر»، فكلما ارتفعت تلك المستويات، انخفضت وفيات الأطفال.[١٧]

---

(١٤) تشكلت إسهامات الانثروبولوجيين في مراحلها المبكرة بدراسة الطفولة وعملية التنشئة الاجتماعية وذلك من خلال منظور الثقافة والشخصية وخاصة إسهامات كل من مرجريت ميد M. Mead ١٩٣٠م **نمو الطفل في غينيا الجديدة** *(Growing Up in New Guinea)* وكذلك سلجمان C.G Seligman، ١٩٢٤م و روث بندكت R. Benedict، ١٩٣٥م، **الانماط الثقافية** *(Patterns of Culture)* إلا ان هذه الإسهامات كانت دعامة لمزيد من البحوث والدراسات المعاصرة والتي اهتمت في تباين البيئات الاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها الطفل وأثرها على تنشئتهم ونمو شخصيتهم كما أسهمت الدراسات المقارنة في إلقاء المزيد من الضوء على اهمية الطفولة في حياة الشعوب. لمزيد من الأطلاع على إسهامات الانثروبولوجيين في هذا المجال، انظر محمد سعيد فرح، **الطفولة والثقافة والمجتمع** (الأسكندرية: منشاة المعارف، ١٩٨٠م)، ص ١٣٨ وما بعدها، ثم انظر إسهامات علماء الاجتماع وغيرهم في عبد الرحيم عمران، **سكان العالم العربي حاضرا ومستقبلا** (نيويورك: صندوق الأمم المتحدة للأنشطة السكانية، ١٩٨٨م).

(١٥) تهتم الدراسات في مجال علم الاجتماع الطبي والانثروبولوجيا الطبية المعاصرة بأهمية أثر الأنساق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية على النسق الطبي باعتباره نسقا فرعيا من أنساق الثقافة يؤثر ويتأثر بهذه الأنساق بشكل مباشر من خلال ما يطرأ على البناء الاجتماعي وعلى هذه الأنساق، من جراء حدوث أي تغيير في إطار البيئة التي يوجد فيها هذا المجتمع.

(١٦) عالجت دراسات عديدة مشكلة الوفيات وأسبابها بشكل عام بطريقة إحصائية دون المعالجة المباشرة للعلاقة القائمة بين مستوى الام الاجتماعي والثقافي والاقتصادي وبين وفيات الأطفال.

(١٧) حدد مفهوم المستوى الاقتصادي والاجتماعي بمجموعة من المتغيرات الرئيسة مثل المهنة والتعليم والدخل والسكن وزيادة الخدمات في الأسرة بمختلف أشكالها الاقتصادية والتعليمية والمعيشية (كما اتضح في أسئلة الاستبانة الأساسية).

ولابد لنا من التنويه هنا بأنه من خلال دراسة ميدانية واحدة لا نستطيع اختبار هذا الفرض اختبارا حقيقيا أي أننا لا نستطيع أن نقبله أو أن نرفضه وإنما الأمر يحتاج إلى المزيد من الدراسات على عينات أكبر من النساء في مناطق مختلفة من دولة الكويت وذلك من أجل الوصول إلى تعميم امبيريقي يمكننا من الوصول إلى نظرية عامة مفسرة لتلك العلاقة المختبرة إحصائياً.

الإجراءات المنهجية للدراسة الميدانية

هذه الدراسة من النوع الاستطلاعي الوصفي الذي يعتمد على كشف الموضوعات التي لم يتناولها الباحثون من قبل[١٨] بهدف الوصول إلى صياغات دقيقة لمشكلات بحث وفروض يمكن اختبارها بصورة دقيقة في المستقبل. كما أنها تتجه إلى الوصف بهدف التصوير الواقعي للحقائق الدقيقة لمشكلة من أهم المشكلات التي تشغل بال التخصصات الاجتماعية والانسانية كافة، وهي مشكلة وفيات الأطفال من أجل استخلاص الدلالات وتحديد المؤشرات التي يمكن عن طريقها الحد من وجود تلك المشكلة أو معالجتها بصورة نهائية كما فعلت الكثير من دول العالم المتقدم[١٩] أو العمل على خفضها إلى أقل درجة ممكنة.

والدراسة تهدف أيضا محاولة الكشف عن أبعاد العلاقة بين المتسويات الاقتصادية والاجتماعية للمرأة الكويتية وبين وفيات الأطفال دون سن الخامسة، كما سبق وأشرنا ونحن بصدد الحديث عن أهدافها، وبالتالي فان أنسب منهج بحثي وجدناه هو المسح الاجتماعي بالعينة وذلك لتميزه عن غيره من المناهج لانه يتيح الفرصة لدراسة الظاهرة الموجودة في جماعة وفي منطقة محددة كما أنه يركز على الوقت الراهن، وقد أجرى على مجموعة من النساء الكويتيات المتزوجات الموجودات فعلا وقت إجراء الدراسة (منذ شهر ديسمبر/ ١٩٨٩م وحتى فبراير ١٩٩٠م). علاوة على أن، هذا المنهج يرتبط ارتباطا وثيقا بالجانب العملي الذي يهتم بالكشف عما هو قائم في محاولة علمية تحليلية لإبراز العوامل السلبية المؤثرة على هذه المشكلة ومن ثم فهم الأبعاد المختلفة المؤثرة عليها من أجل الإسهام - بقدر الإمكان - في إيجاد صيغة مقبولة لمواجهتها أو التصدي لها؛ وقد اعتمدت الدراسة، استنادا على ذلك، على عينة عشوائية غير منتظمة من النساء الكويتيات المتزوجات من مختلف المستويات الاقتصادية والاجتماعية حيث بلغ عددهن ٣٠٠ حالة، تم جمع البيانات منهن بواسطة طالبات متدربات في مقرر الانثروبولوجيا وبمساعدة الاخصائيات الاجتماعيات ومساعدة الباحثين في قسم الاجتماع في جامعة الكويت تحت إشراف الباحث.

اشتملت صحيفة الاستبانة على مجموعة من الأسئلة الأساسية للمتغيرات المستقلة للدراسة كالسن، وصلة القاربة بالزوج، والحالة التعليمية للمبحوثة وزوجها، والحالة العملية (المهنة) للمبحوثة وزوجها، والدخل الشهري للأسرة، وعدد المقيمين في المسكن، وعدد الخدم ومن في حكمهم وهذا ما أطلقنا عليه بالمتغير المستقل العام وهو المستوى الاقتصادي والاجتماعي للمرأة، كما اشتملت أسئلة الاستبانة على مجموعة من الأسئلة المتعلقة بوفيات الأطفال دون سن الخامسة لأن الدراسة أخذت بالتعريف الوارد في تقرير منظمة الأمم المتحدة للأطفال (يونيسف، ١٩٨٩م) في تحديد معدل وفيات الأطفال دون سن الخامسة وهو عدد الأطفال الذين يموتون قبل بلوغهم السنة الخامسة لكل ١٠٠٠ ولادة حية. كما اتبعنا التعريف نفسه في تحديد مفهوم وفيات الأطفال حيث كان السؤال مباشرة عن الأعداد الفعلية للأطفال الذين ولدوا أحياء ثم توفوا خلال الخمس سنوات الأولى من أعمارهم.

---

(١٨) انظر عبد الباسط محمد حسن، اصول البحث الاجتماعي، ط٣ (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١م)، ص٢٢٣.

(١٩) وصلت معدلات الوفيات للأطفال دون سن الخامسة في الكثير من معظم بلدان العالم المتقدم (الولايات المتحدة ـ السويد ـ اليابان) إلى أقل من ٥ في كل الف من السكان (تقرير منظمة الامم المتحدة للأطفال، يونيسف، ١٩٨٩م).

وهكذا يمكننا تحديد مجالات البحث الرئيسة على النحو التالي:

١ ـ المجال المكاني للدراسة: دولة الكويت بمحافظاتها المختلفة (العاصمة، حولي، الفروانية، الجهراء، الأحمدي).

٢ ـ المجال الزمني للدراسة: تم جمع البيانات منذ ديسمبر ١٩٨٩م وحتى فبراير ١٩٩٠م.

٣ ـ المجال البشري للدراسة: عينة غير منتظمة مكونة من ٣٠٠ إمرأة كويتية متزوجة تم اختيارهن عشوائيا حسب طريقة العينات غير المنتظمة والمتاحة للباحث لإجراء دراسته الميدانية.

هذا ولقد استخدم الباحث الإمكانات العلمية المتوافرة في جامعة الكويت حيث تمت عمليات الترميز وإدخال البيانات في الحاسب الآلي بجامعة الكويت، كما تم استخراج النتائج عن طريق عدة اتجاهات نلخصها في ما يلي:

١ ـ تم إيجاد التوزيع التكراري (Frequency distribution) لجميع الأسئلة الواردة في أداة جمع البيانات.

٢ ـ تم كذلك استخراج معاملات الارتباط على المستوى الوصفي عن طريق معامل (كا٢) لمعرفة الدلالة المعنوية لتلك العلاقات.

٣ ـ تم أيضا استخراج معاملات الارتباط على المستوى الكمي (Zero - order - correlation) بين المتغيرات الكمية كما استخرجت بالتالي دلالتها المعنوية.

وكان ذلك تمهيداً لعرض النتائج وتحليلها كما يتضح من خلال الإجراءات التالية في الدارسة.

النتائج العامة للدراسة الميدانية

ينقسم هذا الجزء إلى ثلاثة أجزاء رئيسة لتحقيق أهداف الدراسة المشار اليها آنفا، ففي الجزء الأول نحقق الهدف الأول منها وذلك التعرف على أبعاد المشكلة وخطورتها على عينة من المجتمع، أما في الجزء الثاني فنعرض إلى بيان العلاقات الوصفية المرتبطة ببعضها وفقا لمنهجية علمية مختارة عن طريق اختبار معامل (كا٢) لبيان تلك العلاقات؛ أما الجزء الثالث والأخير من نتائج الدراسة فقد خصص لبيان الارتباطات الكمية وذلك لاختبار فرض الدراسة الرئيس والإجابة على تساؤلاته الفرعية.

اولا: الوصف العام لمجتمع الدراسة (تحقيق الهدف الأول)

تمت الدارسة على عينة من النساء الكويتيات المتزوجات بلغ عددهن ٣٠٠ حالة[٢٠]، وفيما يلي وصف عام للعينة المسحوبة:

١ ـ انحصرت غالبية المبحوثات في فئة السن من ٢٠ إلى أقل من ٣٠ سنة بنسبة (٤٧,٢٪) وكانت أقل النسب في الفئة العمرية أقل من ٢٠ سنة (٣,٧٪) كما يتضح من الجدول رقم (١).

٢ ـ اما من حيث توزيع أفراد العينة على المناطق السكنية فقد كانت أكبر نسبة في منطقة حولي حيث بلغت (٢٨,٨٪) بينما أقل النسب كانت في منطقة الجهراء بنسبة (١١,٧٪) كما يوضحه الجدول رقم (٢).

٣ ـ حول صلة القرابة بين المبحوثات وأزواجهن، أوضحت نتائج الدراسة الميدانية أن نسبة كبيرة من العينة (٥٤،٢٪) لا توجد بينها وبين الزوج صلة قرابة بينما كانت قرابة ابن الخال/ والخالة هي أقل النسب (١٠,٧٪) كما يوضحه الجدول رقم (٣).

٤ ـ أما توزيع العينة وفقاً للمستويات التعليمية لها فقد كانت أكبر نسبة منها تتمتع بالتعليم الجامعي (٢٩,٤٪) بينما أقل النسب هي من تتمتع بالدراسات العليا (٠,٣٪) كما يتضح من الجدول رقم (٤).

٥ ـ أما من حيث الحالة التعليمية لأزواج المبحوثات فقد توزعت وفقاً للآتي: (٢٨,٤٪)

(٢٠) تم الاستغناء عن استبانة واحدة لعدم دقة المعلومات الواردة فيها، وبلغ العدد الفعلي للعينة ٢٩٩ مفردة.

جدول رقم (١) . توزيع العينة حسب السن. ن = ٢٩٩

السن	التكرار	النسبة
أقل من ٢٠ سنة	١١	٣,٧ ٪
من ٢٠ إلى أقل من ٣٠ سنة	١٤١	٤٧,٢ ٪
من ٣٠ إلى أقل من ٤٠ سنة	٩٥	٣١,٨ ٪
من ٤٠ إلى أقل من ٥٠ سنة	٣٦	١٢ ٪
من ٥٠ إلى سنة فأكثر	١٦	٥,٣ ٪
المجموع العام	٢٩٩	١٠٠ ٪

جدول رقم (٢) . توزيع العينة حسب المناطق السكنية. ن = ٢٩٩

منطقة السكن	التكرار	النسبة
العاصمة	٧٦	٢٥,٤ ٪
الجهراء	٣٥	١١,٧ ٪
حولي	٨٦	٢٨,٨ ٪
الأحمدي	٤٦	١٥,٤ ٪
الغروانية	١٦	١٨,٧ ٪
المجموع العام	٢٩٩	١٠٠ ٪

جدول رقم (٣) . توزيع العينة حسب صلة القرابة من الزوج. ن = ٢٩٩

صلة القرابة	التكرار	النسبة
ابن عم / عمة	٥١	١٧ ٪
ابن خال / خالة	٣٢	١٠,٧ ٪
قرابة عشائرية	٥٤	١٨,١ ٪
لا توجد قرابة	١٦٢	٥٤,٢ ٪
المجموع العام	٢٩٩	١٠٠ ٪

جدول رقم (٤) . توزيع العينة حسب الحالة التعليمية. ن = ٢٩٩

الحالـــة التعليـمـيـــة	التكـرار	النسبـــة
أميَّـــة	٥٩	١٩,٧ ٪
تقرأ وتكتب	٢٦	٨,٧ ٪
تعليم ابتدائي	١٢	٤ ٪
تعليم متوسط	٢٧	٩ ٪
تعليم ثانوي	٨٦	٢٨,٨ ٪
تعليم جامعي أوماشابه	٨٨	٢٩,٤ ٪
دراسات عليـــا	١	٠,٣ ٪
المجمـــوع العــــــام	٢٩٩	١٠٠ ٪

لفئـة التعليم الجامعي والتعليم الثانوي لكل منهـا بالتسـاوي وكـانت هي أعـلى الفئـات التعليمية بينما أقل الفئات هي فئة الدراسات العليا بنسبة (٤,٧٪)، جدول رقم (٥).

٦ ــ أشارت الدراسة إلى أن أكبر نسبة فيما يتعلق بالحـالة العملية (المهنة) للمبحوثات هي فئة «ربات البيوت» (٥١,٢٪) تليها فئة من «تعمل بأجـر نقدي» (موظفة) (٣٩,٥٪) بينما أقل النسب هي فئـة اللآتي «يعملن لحسـابهن الخاص» (٠,٧٪) كما يوضحها الجدول رقم (٦).

جدول رقم (٥) . توزيع العينة حسب الحالة التعليمية للزوج. ن = ٢٩٩

الحالـة التعليميـة للـزوج	التكـرار	النسبـــة
أمـــي	٣٥	١١,٧٪
يقرأ ويكتب	٢٨	٩,٤ ٪
تعليم ابتدائي	٢٢	٧,٤ ٪
تعليم متوسط	٣٠	١٠٪
تعليم ثانوي	٨٥	٢٨,٤٪
تعليم جامعي	٨٥	٢٨,٤٪
دراسات عليـــا	١٤	٤,٧ ٪
المجمـــوع العــــــام	٢٩٩	١٠٠ ٪

جدول رقم (٦) . توزيع العينة حسب الحالة العملية «المهنة» للمبحوثة. ن = ٢٩٩

الحالة العملية للمبحوثة	التكرار	النسبة
صاحبة عمل خاص وتستخدم آخرين	٤	٪١,٣
تعمل لحسابها الخاص	٢	٪٠,٧
تعمل بأجر نقدي «موظفة»	١١٨	٪٣٩,٥
صاحبة إيراد خاص	١٦	٪٥,٣
غير قادرة على العمل	٦	٪٢
متعطلة عن العمل «ربة بيت»	١٥٣	٪٥١,٢
المجموع العام	٢٩٩	٪ ١٠٠

٧ ـ أما فيما يتعلق بالناحية العملية (المهنة) لزوج المبحوثة فقد توزعت العينة كالآتي: (٪٦٥,٩) منهم يعملون بأجر نقدي (موظفين) بينما كانت أقل النسب (٪٣) لفئة الذين يعملون لحسابهم الخاص ولم توجد أي إجابات في فئة غير القادرين على العمل كما يوضحه الجدول رقم(٧).

٨ ـ أما فيما يتعلق بالدخل العائلي الشهري للمبحوثات كمؤشر مهم على المستوى الاقتصادي فلقد كانت أكبر فئة دخول في العينة هي الفئة التي تتمتع بدخل شهري يتراوح مابين ٥٠٠ إلى أقل من ١٠٠٠ د.ك بينما أقل الفئات هي الفئة التي تتمتع بدخل شهري يبدأ من ٢٥٠٠ د.ك شهريا فأكثر

جدول رقم (٧) . توزيع أفراد العينة وفقا للحالة العملية «المهنة» للزوج. ن = ٢٩٩

الحالة العملية للزوج	التكرار	النسبة
صاحب عمل خاص وتستخدم آخرين	٣٢	٪١٠,٧
يعمل لحسابها الخاص	٩	٪٣
يعمل بأجر نقدي «موظف»	١٩٧	٪٦٥,٩
صاحب إيراد خاص	٣٠	٪١٠
غير قادر على العمل	ـ	ـ
متعطل عن العمل	٣١	٪١٠,٤
المجموع العام	٢٩٩	٪ ١٠٠

جدول رقم (٨) . توزيع أفراد العينة حسب الدخل العائلي الشهري بالدينار الكويتي. ن = ٢٩٩

الدخل العائلي الشهري «د.ك»	التكرار	النسبة
أقل من ٥٠٠	٦٠	٢٠,١٪
من ٥٠٠ إلى أقل من ١٠٠٠	١٥١	٥٠,٥٪
من ١٠٠٠ إلى أقل من ١٥٠٠	٤٧	١٥,٧٪
من ١٥٠٠ إلى أقل من ٢٠٠٠	١٨	٦ ٪
من ٢٠٠٠ إلى أقل من ٢٥٠٠	٢١	٧٪
٢٥٠٠ فأكثر	٢	٠,٠٧٪
المجموع العام	٢٩٩	١٠٠ ٪

وبلغت نسبتها ٠,٧٪ كما هو واضح في الجدول رقم (٨).

٩ ـ توزيع أفراد العينة حسب الناحية التعليمية الخاصة بالأبناء: أوضحت النتائج فيما يتعلق بالأبناء أن أكبر نسبة منهم يتعلمون في مدارس حكومية مجانية حيث بلغت نسبة هؤلاء (٨٠,٦٪) في حين كانت أقل الفئات هي تلك التي لها أبناء في مدارس أجنبية خارج الكويت حيث بلغت نسبة هؤلاء (٠,٣٪)، انظر جدول رقم (٩) .

١٠ ـ أما عن توزيع أفراد العينة وفقاً لأعداد الخدم ومن في حكمهم من العاملين في الأسرة كمؤشر مهم على المستوى الاجتماعي والاقتصادي فقد توزعت أفراد العينة وفقاً للآتي: (٥٢,٥٪) لديها خادم واحد أو خادمة واحدة تليها فئة من تستخدم اثنتين بنسبة (٢٣,١٪)، وكانت أقل النسب للأسر التي تستخدم ثلاثة بنسبة (٨٪)؛ وقد تساوت هذه الفئة مع فئة من لا يستخدم أي خدم أو من في حكمهم في الأسرة؛ انظر جدول رقم (١٠).

جدول رقم (٩) . توزيع أفراد العينة حسب طبيعة المدارس التي يتعلم فيها الأبناء. ن = ٢٩٩

تعليم الأبناء	التكرار	النسبة
في مدارس أجنبية خارج الكويت	١	٪ ٠,٣
مدارس أجنبية داخل الكويت	١٤	٪ ٤,٧
مدارس حكومية مجانية	٢٤١	٨٠,٦٪
مدارس عربية داخل الكويت بمصاريف	٢	٪ ٠,٧
مدرسون خصوصيون بالإضافة للمدرسة	٤	٪ ١,٣
لا ينطبق لعدم وجود ابناء	٣٧	١٢,٤٪
المجموع العام	٢٩٩	١٠٠ ٪

جدول رقم (١٠) . توزيع أفراد العينة وفقا لأعداد المستخدمين من والخدم ومن في حكمهم في الأسرة. ن = ٢٩٩

عدد الخدم	التكرار	النسبة
واحد	١٥٧	٪٥٢,٥
اثنان	٦٩	٪٢٣,١
ثلاثة	٢٤	٪ ٨
أربعة فأكثر	٢٥	٪ ٨,٤
لا ينطبق	٢٤	٪ ٨
المجموع العام	٢٩٩	٪ ١٠٠

١١ ـ الحالة السكنية لأفراد العينة: توزعت أفراد العينة كالآتي (٢٥,٤٪) من فئة سكن الدخل المحدود وهي أعلى النسب وتليها فئة السكن في فيلا (٢٣,٧٪) وأقل تلك النسب هي من تسكن في «بيت عربي» (٧,٧٪)، انظر جدول رقم (١١).

١٢ ـ توزيع أفراد العينة وفقاً لعدد الأشخاص المقيمين في السكن نفسه: يشير جدول رقم (١٢) إلى أن النسبة العظمى (٤٠,١٪) تقيم في سكن مع مجموعة من الأشخاص مكونة من ٤ إلى أقل من ٨ أشخاص في حين تليها فئة من يقيم مع ٨ أشخاص إلى أقل من ١٢ إذ بلغت نسبتها (٢٥,٨٪) وكانت أقل هذه الفئات من تقيم مع شخص إلى أقل من ٤ أشخاص (١٤,٤٪)

١٣ ـ بلغ متوسط وفيات الأطفال للمبحوثات منذ

جدول رقم (١١) . توزيع أفراد العينه حسب الوضع السكني. ن = ٢٩٩

الوضع السكني للأسرة	التكرار	النسبة
فيلا	٧١	٪٢٣,٧
سكن الدخل المتوسط	٢٨	٪ ٩,٤
سكن الدخل المحدود	٧٦	٪٢٥,٤
بيت عربي	٢٣	٪ ٧,٧
شقة للايجار	٥٠	٪١٦,٧
سكن عائلي مشترك	٥١	٪١٧,١
المجموع العام	٢٩٩	٪ ١٠٠

جدول رقم (١٢) . توزيع افراد العينة وفقا لعدد الأشخاص المقيمين في السكن نفسه. ن = ٢٩٩

عدد الأشخاص المقيمين في السكن	التكـرار	النسبـــة
من ١ إلى أقل من ٤ أشخاص	٤٣	١٤,٤٪
من ٤ إلى أقل من ٨ أشخاص	١٢٠	٤٠,١٪
من ٨ إلى أقل من ١٢ أشخاص	٧٧	٢٥,٨٪
من ١٢ شخصا فأكثــر	٥٩	١٩,٧٪
المجمــوع العــــام	٢٩٩	١٠٠ ٪

الزواج وحتى وقت إجراء الدّراسة (١,٥٤٠) أي طفلين تقريبا. والانحراف المعياري المقدر (٠,٨٧٨) يعتبر قيمة صغيرة مؤكد التجانس في العينة وبلغت نسبة من توفي لهن طفل واحد (٦٥,٥) بينما كانت أقل النسب هي من توفي لها أكثر من ثلاثة أطفال بنسبة (٥,٧٪) من إجمالي العينـة المسحوبة كما هو واضح في الجدول رقم (١٣).

١٤ـ أما عن أسباب وفيات الأطفال فلقد تركزت النسبـة الغالبة في أن الإجهاض كان يمثل النسبة العظمى (٤٠,١٪) في حين تليها ولادة الطفـل ميتاً (١٨,٧٪) ثم الوفاة بسبب خلل خلقي (٩,٧٪) وتوزعت باقي النسب وفقاً لما يشير إليه الجدول رقم (١٤).

١٥ ـ أما عن سن الطفل عند الوفاة فلقد كانت نسبة (٨٥,٦٪) من إجمالي الوفيات في السن الأقل من سنة وأقلها بنسبة (٢,٧٪) في فئة «من ٣ إلى أقل من ٤ سنوات»، كما يوضحه الجدول رقم (١٥).

أوضحت الجـداول من ١ إلى ١٥ وصفـاً لعينة

جدول رقم (١٣) . توزيع عينة الدراسة حسب عدد وفيات الأطفال منذ الزواج وحتى وقت الدراسة، ن = ٢٩٩

عــدد وفيـات الأطفـــال	التكـرار	النسبـــة
طفــل واحـــد	١٩٦	٦٥,٥٪
طفلـــــين	٦٠	٢٠,١٪
ثلاثــة أطفـــال	٢٦	٨,٧ ٪
اكثر من ثلاثة أطفــــال	١٧	٥,٧ ٪
المجمــوع العــــام	٢٩٩	١٠٠ ٪

جدول رقم (١٤) . توزيع افراد العينة على اسباب وفيات الأطفال[٢١]. ن = ٢٩٩

اسبــــاب الوفـــــاة	التكـــرار	النسبـــة
إجهـــــاض	١٢٣	٤١,١٪
ولد الطفل ميتــا	٥٦	١٨,٧٪
خلـــل خلقـــي	٢٩	٩,٧ ٪
إهمـــال ذاتـــي	١٥	٥ ٪
خلل في تطور الجنين في الرحم	١٥	٥ ٪
حوادث «هس / سقوط/ حروق»	١٢	٤ ٪
امـــراض وراثيـــة	١١	٣,٧ ٪
خطأ في عملية التوليد	١٠	٣,٣ ٪
اختنـــــــاق	٩	٣ ٪
ســـوء تغذيـــة	٥	١,٧ ٪
حمــــــه	٣	١ ٪
الحســــــد	٢	٠,٧ ٪
الإسهـــــال	٢	٠,٧ ٪
الحصبـــــة	٢	٠,٧ ٪
دفتيريـــــا	١	٠,٣ ٪
الجنية «القرنية»	١	٠,٣ ٪
خلل في الجهاز العصبي للطفل	١	٠,٣ ٪
ضيق تنفس «تنك»	١	٠,٣ ٪
مـــرض السحايـــــا	١	٠,٣ ٪
المجمـــوع العـــــام	٢٩٩	٩٩,٨ ٪

الدراســة بجــوانبهــا المختلفــة وذلك تحقيقاً لهدف الدراسة الأول في التعرف على أبعاد هذه الظاهرة من حيث خصائص أفراد العينة.

ثانيــا : العــلاقــات الارتباطية وتحليلها على المستوى الوصفي[٢٢] (تحقيق الهدف الثاني)

لتحقيق الهــدف الثــاني من الدراســة والخاص بإيجاد العلاقات بين مجموعة من المتغيرات المستقلة

---

(٢١) تم الأخـذ بسبب واحـد للوفاة في حين تعددت أسباب الوفيات لبعض المبحوثات إن كان لها أكثر من طفل متوفى. أسباب الوفاة وفقا لما أدلت به إجابات المبحوثات أنفسهن.

(٢٢) تشير الجداول من (١ ـ ٧ملاحق) إلى وجود هذه العلاقات ذات الدلالة المعنوية العالية ٠,٠١ = ∝ والتي استخدم فيها معامل (كا٢) لبيان تلك العلاقات.

جدول رقم (١٥) . توزيع وفيات الأطفال لأفراد العينة حسب السن عند الوفاة. ن = ٢٩٩

سن الطفل عند الوفاة	التكرار	النسبة
أقل من سنة	٢٥٦	٨٥,٦٪
من سنة إلى أقل من سنتين	٢٣	٧,٧ ٪
من ٣ إلى أقل من ٤	٨	٢,٧ ٪
من ٤ إلى أقل من ٦	١٠	٣,٣ ٪
لا إجابة	٢	٠,٧ ٪
المجموع العام	٢٩٩	١٠٠ ٪

للدراسة والإقامة وصلة القرابة بالزوج والحالة التعليمية والمهنية والمستوى الاقتصادي والاجتماعي بوجه عام، ووفيات الأطفال، أطلعتنا نتائج الدراسة الميدانية على مجموعة من العلاقات الارتباطية على المستوى الوصفي نوردها كما يلي:

١ ــ وجود علاقة ذات دلالة معنوية بين منطقة السكن وبين وفيات الأطفال، حيث كانت أكبر النسب لوفيات الأطفال في منطقة حولي وبلغت (٢٨,٨٪) في حين كانت أقل هذه النسب في منطقة الجهراء وبلغت (١١,٧٪) من إجمالي العينة (انظر جدول رقم ١ ملاحق).

٢ ــ وجود علاقة ذات دلالة معنوية بين صلة القرابة بين الزوجة والزوج وبين وفيات أطفالهم حيث بلغت النسبة الكبرى (٥٤,٢٪) لدى فئة ممن لا توجد بينهن وبين أزواجهن صلة قرابة وأقل هذه الفئات (١٠,٧٪) للمتزوجات بابن خال أو خالة من مجموع العينة (أنظر جدول رقم ٢ ملاحق).

٣ ــ وجود علاقة بين الحالة التعليمية للمبحوثة وبين وفيات الأطفال حيث كانت النسبة الكبرى (٢٩,٤٪) لفئة التعليم الثانوي وأقل هذه الفئات لفئة الدراسات العليا (٠,٣٪) من إجمالي العينة. بينما النسبة الكبرى من الوفيات لأكثر من ثلاثة أطفال نجدها لدى الأميات مقارنة بالفئات التعليمية الأخرى إذ بلغت نسبتها (٥٨,٨٪) في حين تنخفض هذه النسبة كلما ازداد المستوى التعليمي (انظر جدول رقم ٣ ملاحق).

٤ ــ وجود علاقة ذات دلالة معنوية بين وفيات الأطفال والحالة التعليمية لزوج المبحوثة حيث كانت أكبر النسب لوفاة أكثر من ثلاثة أطفال لدى فئة الأميين وبلغت (٢٣,٥٪) في حين تنخفض هذه النسبة لدى فئة التعليم الثانوي وبلغت (٥,٩٪) من بين الفئات التعليمية الأخرى (انظر جدول رقم ٤ ملاحق).

٥ ــ كما أشارت النتائج إلى وجود علاقة بين الحالة العملية (المهنة) للمبحوثة ووفيات الأطفال وكانت أكبر النسب المرتبطة بوفاة أكثر من ثلاثة أطفال من نصيب «العاطلات عن العمل أو ربات البيوت» إذ بلغت (٦٤,٧٪) تليها «فئة من تعمل بأجر نقدي» (موظفة أو مستخدمة) بنسبة (٢٣,٥٪) وأقلها لدى «صاحبات الإيراد الخاص» بنسبة (١١,٨٪). ومن الملاحظ انعدام هذه النسب لدى فئات المهن الأخرى، وربما يعود ذلك إلى عدم إنجاب هؤلاء الأمهات لأكثر من ثلاثة أطفال أو يعود ذلك إلى عدم وفاة سوى طفل أو طفلين لهن (انظر جدول رقم ٥ ملاحق).

٦ ــ أما من حيث الحالة العملية (المهنة) لزوج المبحوثة ووفيات الأطفال فقد أشارت النتائج إلى وجود علاقة دالة بين هذين المتغيرين، فقد بلغت أكبر النسب لدى «فئة من يعملون بأجر نقدي» (موظفين أو مستخدمين) بنسبة (٥٢,٩٪) تليها «فئة المتعطلين عن العمل أو المتقاعدين» بنسبة (٢٣,٥٪) بالنسبة لوفيات أكثر من ثلاثة أطفال. ولو نظرنا في جدول رقم (٦ ملاحق) لوجدنا أن هذه النسبة تقل لدى أصحاب العمل الخاص الذين يستخدمون الآخرين في مصالحهم العملية فيما يتعلق بوفاة ثلاثة أطفال إذ بلغت النسبة (٧,٧٪). (انظر جدول رقم ٦ ملاحق).

٧ ــ أشارت نتائج الدراسة إلى وجود علاقة ذات دلالة معنوية بين متغير السكن ونوعيته ووفيات الأطفال، فأكثر وفيات الأطفال كانت موجودة لدى فئة ذوي سكن الدخل المحدود بنسبة (٤١,٢٪) وتليها فئة ذوي السكن بالإيجار ومن يسكنون في فيلا، بنسبة (١٧,٦) لكل منهما على التوالي، وتقل هذه النسبة لدى فئتي ذوي سكن الدخل المتوسط وفئة السكن العائلي المشترك وبلغت النسبة (٥,٩٪) لكل منهما على التوالي وذلك فيما يتعلق بوفاة أكثر من ثلاثة أطفال (انظر جدول رقم ٧ ملاحق).

وبالقاء نظرة تحليلية على الجداول المرفقة من (١ـ٧ الملاحق) نلاحظ بعض النقاط المهمة المؤيدة والمحققة لهدف الدراسة الثاني على النحو التالي:

١ ــ إن المنطقة السكنية ومستواها العام من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ومدى توفر الخدمات الصحية والبيئية العامة والنظافة والتلوث وإمكانية حدوثها بالإضافة إلى الكثافة السكانية لها علاقة مباشرة بوفيات الأطفال: وقد لا تنطبق تلك المعطيات بالتحديد على محافظة حولي إلا أنه على الرغم من توفر الخدمات الصحية والنظافة في الكويت عموماً وخلو معظم المناطق من التلوث إلا أنه بالمقارنة بمناطق أخرى موجودة في دولة الكويت نجد أن منطقة حولي ترتفع فيها نسبة وفيات الأطفال للمبحوثات وبصفة خاصة «للبند المتعلق بثلاثة أطفال فأكثر .» وإن كان هذا بحكم زيادة الخصوبة في تلك المنطقة.[٢٣]

٢ ــ من المعروف علمياً أن زواج الأقارب، في حالة وجود جينات معينة، يحملها كل من الأب والأم، ووفقاً لقوانين الوراثة، يؤدي إلى ظهور أمراض أو تشوهات خلقية وبالتالي إلى وفيات الأطفال. إلا أن نتائج دراستنا أشارت إلى أن الغالبية من وفيات الأطفال لثلاثة أطفال فأكثر كانت لدى فئة ممن لا تربطهن صلة قرابة مع أزواجهن، ويرجع سبب ذلك إلى أن حجم الفئة في تمثيل العينة كان كبيراً كما هو مبين في الجدول رقم (٢ ملاحق). إلا أننا نجد أنه على الرغم من عدد النساء الممثلة في عينة الدراسة والمتزوجات من ابن عم أو عمة، بلغ ٥١ حالة، والمتزوجات بابن خال أو خاله، بلغ ٣٢ حالة، فقد ظهرت لديهن وفيات الأطفال أكثر من غيرهن بالنسبة لوفيات ثلاثة أطفال فأكثر إذ نجد (٢٩,٤٪) للمتزوجات بابن عم أو عمه من بين الفئات الأخرى، وبلغت نسبة ذلك عند فئة المتزوجات بابن خال وخالة (١٧,٦٪). مما يدعونا إلى تأكيد العامل الوراثي الممثل في

---

(٢٣) من المعروف أيضا أن خفض معدل وفيات الأطفال يرتبط بخفض معدلات الخصوبة وبذلك اقترح ولش ماك درموت (Walsh McDermott) ما أسماه بدورة الخصوبة ـ والوفاة (A fertility - mortality cycle) وهو يقصد بها أن يشير إلى أن الخصوبة العالية تؤدي إلى وجود أعداد ضخمة من الأطفال الذين يعيشون ـ غالبا ـ في ظل أوضاع اجتماعية يسودها الفقر والجهل، وينجم عنها بالضرورة معدلات عالية في الوفيات من الأطفال مما يدعم ـ بدوره ـ ارتفاع معدل الخصوبة هذا، ويقترح أيضا، أن خفض معدل الوفيات في الأطفال الصغار شرط ضروري للإقلاع من الخصوبة؛ انظر محمد علي محمد وآخرون، **دراسات في علم الاجتماع الطبي** (القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٤م)، ص٣١٣؛ أما فيما يتعلق بمعدلات الخصوبة في منطقة حولي والمناطق الكويتية الأخرى، راجع وزارة التخطيط ـ الادارة المركزية للإحصاء **المجموعة الإحصائية السنوية**، العدد الثالث والعشرون (الكويت، ١٩٨٦م).

الجينات المعينة لدى الأب والأم في ذلك. ولعل هذا من الموضوعات التي اهتمت بها الانثروبولوجيا الوراثية وخصوصاً الانثروبولوجيا الطبية.

٣ ـ لا شك أن الأمية وانخفاض المستوى التعليمي والمستوى الثقافي للمرأة له علاقة بارتفاع معدلات وفيات الأطفال وهذا يؤدي بدوره إلى انخفاض مستوى وعي الأمهات فيما يتعلق بصحة الأطفال وأساليب وقايتهم من الأمراض التي قد تكون عاملاً مؤثرا في وفاتهم.[٢٤]

٤ ـ إن معدلات وفيات الأطفال تزيد بلا شك مع تدني المستويات الاقتصادية والمعيشية وانخفاض الدخل ومستوى السكن بصفة عامة؛ هذا ما أكدته دراستنا الميدانية.

ثالثا: نتائج الدراسة الميدانية فيما يتعلق بالارتباطات على مستوى العلاقات الكمية (تحقيق الهدف الثالث).

أوضحنا فيما سبق أن من أهم أهداف دراستنا الحالية التعرف على اتجاه العلاقة بين المستوى الاقتصادي والاجتماعي للمرأة الكويتية وبين وفيات الأطفال؛ فكلما ارتفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي والتعليمي للمرأة كلما انخفضت معدلات وفيات الأطفال لديها.

أوضحت نتائج الدراسة الميدانية فيما يتعلق بهذا الجزء ما يلي:

١ ـ أظهرت نتائج معامل ارتباط بيرسون (zero - order - correlation) بين متغير السن (القياس على المستوى الكمي) ومتغير وفيات الأطفال لـ ٢٩٩ حالة من النساء الكويتيات (عينة الدراسة) أن هناك ارتباطاً إيجابياً طردياً معنوياً ولكنه متوسط في قوته بين المتغيرين المختبرين إحصائيا وكانت نتيجة ر=٠,٣٠٨٩ عند مستوى معنوية ٠,٠١ = ∝ مما يدل على أنه كلما تقدمت النساء في العمر عند الإنجاب ازدادت نسبة وفيات الأطفال. في حين أشارت بعض التقارير والدراسات إلى أن، احتمال عدد الوفيات بين الأطفال المولودين من أمهات تحت عشرين سنة أكثر بكثير من أطفال الأمهات اللآتى في سن الخامسة والعشرين فأكثر فقد أشار تقرير اليونيسف العدد ١٥ عام ١٩٨٣م باحصائياته عن الطفولة في دول الخليج العربية، أن نسبة وفيات الأطفال لكل ١٠٠٠ حالة قد بلغت ١٣٠ لأمهات أعمارهن أقل من ٢٠ سنة في حين كانت أقل نسبة ٦٠ لأمهات من ٢٥ ـ ٢٩ سنة في حين أشارت نتائج دراسة مصطفى الشلقاني[٢٥] بأن (٥٧٪) من وفيات الأطفال الرضع كانت لأناث في عمر أقل من ٣٠ سنة... أما النساء في الأعمار الكبرى (٤٠سنة فأكثر) فقد سجلت نسبة مقدارها (١١,٤٪) لوفيات الأطفال الرضع، ويرى الباحث أن انخفاض هذه النسبة مقارنة بالنسب المسجلة للنساء في الأعمال الأصغر ترجع إلى انخفاض احتمال الإنجاب لدى هؤلاء النساء وبالتالي قلة عدد الأطفال الذين

(٢٤) أكدت العديد من الدراسات والتقارير على هذه المستويات وأثرها في وفيات الأطفال؛ أنظر على سبيل المثال: عبد الحسين جواد السريح، «بعض خصائص السكان في الكويت»، **مجلة الخليج العربي**، المجلد السابع عشر العدد ٣ ـ ٤ السنة الثانية عشر (البصرة، ١٩٨١م)؛ مصطفى الشلقاني، «وفيات الأطفال الرضع في الكويت: الاتجاهات الحالية والأنماط المتوقعة»، **مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية**، العدد ٢٦ (الكويت، ١٩٨١م)؛ قاسم علي الصراف، «معلومات إحصائية عن الطفولة في دول الخليج العربية»، مجلة الطفولة العربية، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، العدد الأول (الكويت، ١٩٨٤م)، ص ١٤ وما بعدها؛ وكذلك تقرير الأمم المتحدة؛ المجلس الاقتصادي والاجتماعي حول «**تطور اوضاع المرأة في الدول الأعضاء في اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا ١٩٧٦ ـ ١٩٨٤م والخطوط الاساسية لاستراتيجية تطور اوضاع النساء حتى علم ٢٠٠٠**»، اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا، شعبة التنمية الاجتماعية والشؤون الإنسانية، فرع تقدم المرأة، فينا (بغداد، ٢٣ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٨٤م).

(٢٥) تقرير الأمم المتحدة؛ المجلس الاقتصادي والاجتماعي.

تمت بين صفوفهم تلك الوفيات.

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الظاهرة وتأرجح هذه النسب يعود بالتأكيد إلى نوع العينة الممثلة في الدراسة وعددها، إذ بلغت نسبة العينة الممثلة لأقل من ٢٠ سنة في دراستنا (٣,٧٪) ونسبة من بلغت أعمارهن من ٤٠ إلى أقل من ٥٠ سنة كانت (١٢٪) في حين فئة الأعمار من ٥٠ سنة فأكثر (٥,٣٪). ولعل هذه العلاقة يجب أن تحظى بالدراسة مع متغيرات أخرى مؤثرة على حجم وفيات الأطفال مثل الدخل والمستوى الاقتصادي والاجتماعي وغيره... والتي خصص لمعالجتها البند الثاني.

٢ ـــ أوضحت نتائج معامل ارتباط بيرسون أيضا أنه لا يوجد ارتباط في العينة المبحوثة بين متغير الدخل العائلي الشهري وتغير وفيات الأطفال، فلم تشر النتائج إلا لارتباط موجب ولكنه ضعيف جداً ر = ٠,٠٠١ وغير معنوي حيث بلغت الاحتمالية (probability) ٠,٤٩٣ أي بمعدل خطأ قدره ٤٩٣٠ حالة من كل ١٠,٠٠٠ حالة عند التعميم من النتائج ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن متغير الدخل العائلي الشهري له علاقة بانخفاض وفيات الأطفال إذا ما درس في نطاق متغيرات أخرى أو على الأقل إذا ما اشتملت العينة على فئات مختلفة من حيث الدخل وأجريت المقارنة فيها.

٣ ـــ أشارت نتائج معامل ارتباط بيرسون أيضا إلى وجود ارتباط سلبي (محققاً بذلك الفرضية الأساسية للدراسة) بين متغير من أهم المتغيرات المؤثرة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي في الكويت ألا وهو حجم وعدد الخدم والعاملين في المنزل والذي يعكس بالضرورة قدرة الأسرة على احتوائهم وتحمل تكاليف مصاريفهم من دفع للرواتب وغير ذلك من التزامات أخرى وبين متغير وفيات الأطفال. فقد دلت النتائج على أن الارتباط بين عدد الخدم في المنزل وبين وفيات الأطفال يبلغ (ـ٠,٠٨)، وعلى الرغم من أنه غير معنوي إلا أنه من المؤشرات المهمة والدالة على أنه كلما ارتفع المستوى الاجتماعي بصفة عامة كلما أدى ذلك إلى قلة وفيات الأطفال.

٤ ـــ أوضحت النتائج أيضا «أنه كلما ارتفع عدد الأشخاص المقيمين في المنزل أو بمعنى آخر ميل الأسرة أن يكون شكلها ممتداً وليس نووياً، كلما ازدادت وفيات الأطفال» ولقد كانت نتيجة معامل الارتباط ٠,٠٣ بالموجب مما يدل على أنه كلما كانت الأسرة ممتدة ويعيش أفرادها في مسكن واحد بعضهم مع بعض كلما ازدادت احتمالية وفيات الأطفال، ولعل ذلك جاء في عينة متوسطة في حجمها، فماذا يكون الأمر لو ازداد حجم العينة بصورة كبيرة ؟

الاستنتاج العام للدراسة

باستقراء نتائج التحليل السابق للدراسة الميدانية يمكننا استخلاص الاستنتاج التالي:

تنخفض وفيات الأطفال دون الخامسة وطبقاً لنتائج الدراسة الميدانية ووفقاً للمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، فكلما ارتفعت تلك المستويات بالمؤشرات التي عرضناها كلما انخفضت الوفيات بين الأطفال، ولعل مصداقية تساؤلنا وفرضنا قد تحقق مع الأخذ في الاعتبار دراسة العوامل الأخرى المؤثرة على عينات أكبر وفي مناطق جغرافية مختلفة.

الملاحـــق

جدول رقم (١) . المنطقة السكنية ووفيات الأطفال

الوفيات / المنطقة السكنية		واحد ٪	اثنان ٪	ثلاثة ٪	أكثر من ثلاثة ٪	المجموع ٪
العاصمة	*	٥٠	١٤	٨	٤	٧٦
	**	٦٥,٨	١٨,٤	١٠,٥	٥,٣	٢٥,٤
	***	٢٥,٥	٢٣,٣	٣٠,٨	٢٣,٥	
	****	١٦,٧	٤,٧	٢,٧	١,٣	
الجهـــراء		٢٢	٨	٣	٢	٣٥
		٦٢,٩	٢٢,٩	٨,٦	٥,٧	١١,٧
		١١,٢	١٣,٣	١١,٥	١١,٨	
		٧,٣	٢,٧	١	٠,٧	
حولـــي		٥٥	١٨	٧	٦	٨٦
		٦٤	٢٠,٩	٨,١	٧	٢٨,٨
		٢٨,١	٣٠	٢٦,٩	٣٥,٣	
		١٨,٣	٦	٢,٣	٢	
الأحمـــدي		٣٠	٩	٤	٣	٤٦
		٦٥,٢	١٩,٦	٨,٧	٦,٥	١٥,٤
		١٥,٣	١٥	١٥,٤	١٧,٦	
		١٠	٣	١,٣	١	
الفروانيـــة		٣٩	١١	٤	٢	٥٦
		٦٩,٦	١٩,٦	٧,١	٣,٦	١٨,٧
		١٩,٩	١٨,٣	١٥,٤	١١,٨	
		١٣	٣,٧	١,٣	٠,٧	
المجموع العام		١٩٦	٦٠	٢٦	١٧	٢٩٩
٪		٦٥,٣	٢٠	٨,٧	٥,٧	١٠٠

* العدد
** النسبة أفقيا
*** النسبة رأسيا
**** النسبة الى المجموع العام ٢٩٩

قيمة كا ٢ = ٣٠١,٧٥٥٩٢
درجة الحرية = ٢٠
الدلالـــــة = ٠,٠٠٠٠٠

جدول رقم (٢) . صلة القرابة ووفيات الأطفـــــال

الوفيات / صلة القرابـــة	واحد ٪	اثنان ٪	ثلاثة ٪	أكثر من ثلاثة ٪	المجموع ٪
* ابن عم / عمه ** *** ****	٣٢ ٦٢,٧ ١٦,٣ ١٠,٧	١٠ ١٩,٦ ١٦,٧ ٣,٣	٤ ٧,٨ ١٥,٤ ١,٣	٥ ٩,٨ ٢٩,٤ ١,٧	٥١ ١٧
ابن خال / خاله	٢٢ ٦٨,٨ ١١,٢ ٧,٣	٥ ١٥,٦ ٨,٣ ١,٧	٢ ٦,٣ ٧,٧ ٠,٧	٣ ٩,٤ ١٧,٦ ١	٣٢ ١٠,٧
قرابـــة عشائـــرية	٣٢ ٥٩,٣ ١٦,٣ ١٠,٧	١٢ ٢٢,٢ ٢٠ ٤	٧ ١٣ ٢٦,٩ ٢,٣	٣ ٥,٦ ١٧,٦ ١	٥٤ ١٨,١
لا توجـد قـــرابة	١١٠ ٦٧,٩ ٥٦,١ ٣٦,٧	٣٣ ٢٠,٤ ٥٥ ١١	١٣ ٨ ٥٠ ٤,٣	٦ ٣,٧ ٣٥,٣ ٢	١٦٢ ٥٤,٢
المجمـوع العـــام ٪	١٩٦ ٦٥,٣	٦٠ ٢٠	٢٦ ٨,٧	١٧ ٥,٧	٢٩٩ ١٠٠

* العدد

** النسبة أفقيا

*** النسبة رأسيا

**** النسبة الى المجموع العام ٢٩٩

قيمة كا ٢ = ٣٠٥,٩٣١٧٠

درجة الحرية = ١٦

الدلالـــــة = ٠,٠٠٠٠٠

جدول رقم (٣) . الحالة التعليمية للمبحوثة ووفيات الأطفال

الوفيات / الحالة التعليمية	واحد %	اثنان %	ثلاثة %	اكثر من ثلاثة %	المجموع %
* أمية ** *** ****	٣٠ ٥٠,٨ ١٥,٣ ١٠	٩ ١٥,٣ ١٥ ٣	١٠ ١٦,٩ ٣٨,٥ ٣,٣	١٠ ١٦,٩ ٥٨,٨ ٣,٣	٥٩ ١٩,٧
تقرأ وتكتب	١٦ ٦١,٥ ٨,٢ ٥,٣	٦ ٢٣,١ ١٠ ٢	٣ ١١,٥ ١١,٥ ١	١ ٣,٨ ٥,٩ ٠,٣	٢٦ ٨,٧
ابتدائي	٧ ٥٨,٣ ٣,٦ ٢,٣	٤ ٣٣,٣ ٦,٧ ١,٣	١ ٨,٣ ٣,٨ ٠,٣		١٢ ٤
متوسط	٦٢ ٦٢,١ ٣١,٦ ٢٠,٧	١٦ ١٨,٦ ٢٦,٧ ٥,٣	٧ ٨,١ ٢٦,٩ ٢,٣	١ ١,٢ ٥,٩ ٠,٣	٨٦ ٢٨,٨
ثانوي	٦٣ ٧١,٦ ٣٢,١ ٢١	١٩ ٢١,٦ ٣١,٧ ٦,٣	٣ ٣,٤ ١١,٥ ١	٣ ٣,٤ ١٧,٦ ١	٨٨ ٢٩,٤
جامعي	١ ١٠٠ ,٥ ٠,٣				١ ٠,٣
دراسات عليا	١٧ ٦٣ ٨,٧ ٥,٧	٦ ٢٢,٢ ١٠ ٢	٢ ٧,٤ ٧,٧ ٠,٧	٢ ٧,٤ ١١,٨ ٠,٧	٢٧ ٩
المجموع العام %	١٩٦ ٦٥,٣	٦٠ ٢٠	٢٦ ٨,٧	١٧ ٥,٧	٢٢٩ ١٠٠

* العدد
** النسبة أفقيا
*** النسبة راسيا
**** النسبة الى المجموع العام ٢٩٩
قيمة كا ٢ = ٣٣١,٧٣٧٠٣
درجة الحرية = ٢٨
الدلالـــة = ٠,٠٠٠٠٠

جدول رقم (٤) . الحالة التعليمية للزوج ووفيات الأطفال

الوفيات / الحالة التعليمية	واحد %	اثنان %	ثلاثة %	أكثر من ثلاثة %	المجموع %
أمي * ** *** ****	١٩ ٥٤,٣ ٩,٧ ٦,٣	٧ ٢٠ ١١,٦٧ ٢,٣	٥ ١٤,٣ ١٩,٢ ١,٧	٤ ١١,٤ ٢٣,٥ ١,٣	٣٥ ١١,٧
يقرأ ويكتب	١٤ ٥٠ ٧,١ ٤,٧	٨ ٢٨,٦ ١٣,٣ ٢,٧	٣ ١٠,٧ ١١,٥ ١	٣ ١٠,٧ ١٧,٦ ١	٢٨ ٩,٤
ابتدائي	١٣ ٥٩,١ ٦,٦ ٤,٣	٢ ٩,١ ٣,٣ ٠,٧	٤ ١٨,٢ ١٥,٤ ١,٣	٣ ١٣,٦ ١٧,٦ ١	٢٢ ٧,٣
متوسط	٦٠ ٧٠,٦ ٣٠,٦ ٢٠	١٦ ١٨,٨ ٢٦,٧ ٥,٣	٦ ٧,١ ٢٣,١ ٢	٣ ٣,٥ ١٧,٦ ١	٨٥ ٢٨,٤
ثانوي	٦٤ ٧٥,٣ ٣٢,٧ ٢١,٣	١٨ ٢١,٢ ٣٠ ٦	٢ ٢,٤ ٧,٧ ٠,٧	١ ١,٢ ٥,٩ ٠,٣	٨٥ ٢٨,٣
جامعي	٩ ٦٤,٣ ٤,٦ ٣	٤ ٢٨,٦ ٦,٧ ١,٣	١ ٧,١ ٣,٨ ٠,٣		١٤ ٤,٧
دراسات عليا	١٧ ٥٦,٧ ٨,٧ ٥,٧	٥ ١٦,٧ ٨,٣ ١,٧	٥ ١٦,٧ ١٩,٢ ١,٧	٣ ١٠ ١٧,٦ ١	٣٠ ١٠
المجموع العام %	١٩٦ ٦٥,٣	٦٠ ٢٠	٢٦ ٨,٧	١٧ ٥,٧	٢٩٩ ١٠٠

* العدد
** النسبة أفقيا
*** النسبة رأسيا
**** النسبة الى المجموع العام ٢٩٩

قيمة كا ٢ = ٣٢٨,٣٢٠١٩

درجة الحرية = ٢٨

الدلالـــــة = ٠,٠٠٠٠٠

جدول رقم (٥) . الحالة العملية للمبحوثة (المهنة) ووفيات الأطفال

الوفيات / الحالة العملية	واحد %	اثنان %	ثلاثة %	أكثر من ثلاثة %	المجموع %
* صاحبة عمل خاص ** وتستخدم آخرين *** ****	٣ ٧٥ ١,٥ ١	١ ٢٥ ١,٧ ٠,٣			٤ ١,٣
صاحبة عمل خاص دون استخدام آخرين	٢ ١٠٠ ١ ٠,٧				٢ ٠,٧
تعمل بأجر نقدي (موظفة / مستخدمة)	٧٩ ٦٦,٩ ٤٠,٣ ٢٦,٣	٢٣ ١٩,٥ ٣٨,٣ ٧,٧	١٢ ١٠,٢ ٤٦,٢ ٤	٤ ٣,٤ ٢٣,٥ ١,٣	١١٨ ٣٩,٥
صاحبة إيراد خاص (أملاك عقارات)	٨ ٥٠ ٤,١ ٢,٧	٤ ٢٥ ٦,٧ ١,٣	٢ ١٢,٥ ٧,٧ ٠,٧	٢ ١٢,٥ ١١,٨ ٠,٧	١٦ ٥,٣
غير قادر على العمل	٣ ٥٠ ١,٥ ١	١ ١٦,٧ ١,٧ ٠,٣	٢ ٣٣,٣ ٧,٧ ٠,٧		٦ ٢
متعطلة عن العمل أو ربة بيت	١٠١ ٦٦ ٥١,٥ ٣٣,٧	٣١ ٢٠,٣ ٥١,٧ ١٠,٣	١٠ ٦,٥ ٣٨,٥ ٣,٣	١١ ٧,٢ ٦٤,٧ ٣,٧	١٥٣ ٥١,٢
المجموع العام %	١٩٦ ٦٥,٣	٦٠ ٢٠	٢٦ ٨,٧	١٧ ٥,٧	٢٩٩ ١٠٠

* العدد
** النسبة أفقيا
*** النسبة رأسيا
**** النسبة الى المجموع العام ٢٩٩
قيمة كا ٢ = ٣١١,٧٩١٩١
درجة الحرية = ٢٤
الدلالة = ٠,٠٠٠٠٠

جدول رقم (٦) . الحالة العملية للـزوج (المهنة) ووفيات الأطفال

الوفيات / الحالة العملية	واحد ٪	اثنان ٪	ثلاثة ٪	أكثر من ثلاثة ٪	المجموع ٪
* صاحب عمل خاص ** ويستخدم آخرين *** ****	١٩ ٥٩,٤ ٩,٧ ٦,٣	٩ ٢٨,١ ١٥ ٣	٢ ٦,٣ ٧,٧ ٠,٧	٢ ٦,٣ ١١,٨ ٠,٧	٣٢ ١٠,٧
صاحب عمل خاص دون استخدام آخرين	٥ ٥٥,٦ ٢,٦ ١,٧	٢ ٢٢,٢ ٣,٣ ٠,٧	٢ ٢٢,٢ ٧,٧ ٠,٧		٩ ٣
يعمل بأجر نقدى (موظف / مستخدم)	١٣٨ ٧٠,١ ٧٠,٤ ٤٦	٣٥ ١٧,٨ ٥٨,٣ ١١,٧	١٥ ٧,٦ ٥٧,٧ ٥	٩ ٤,٦ ٥٢,٩ ٣	١٩٧ ٦٥,٩
صاحب إيراد خاص (أملاك عقارات)	٢٠ ٦٦,٧ ١٠,٢ ٦,٧	٥ ١٦,٧ ٨,٣ ١,٧	٣ ١٠ ١١,٥ ١	٢ ٦,٧ ١١,٨ ٠,٧	٣٠ ١٠
متعطل عن العمل متقاعد	١٤ ٤٥,٢ ٧,١ ٤,٧	٩ ٢٩ ١٥ ٣	٤ ١٢,٩ ١٥,٤ ١,٣	٤ ١٢,٩ ٢٣,٥ ١,٣	٣١ ١٠,٤
المجموع العام ٪	١٩٦ ٦٥,٣	٦٠ ٢٠	٢٦ ٨,٧	١٧ ٥,٧	٢٩٩ ١٠٠

* العدد
** النسبة أفقيا
*** النسبة رأسيا
**** النسبة الى المجموع العام ٢٩٩
قيمة كا ٢ = ٣١٢,٨٥٨٦٠
درجة الحرية = ٢٠
الدلالــــة = ٠,٠٠٠٠٠

جدول رقم (٧) نوع السكن ووفيات الأطفال

الوفيات / نوع السكن	واحد %	اثنان %	ثلاثة %	أكثر من ثلاثة %	المجموع %
* فيلا ** فيلا *** ****	٥٠ ٧٠,٤ ٢٥,٥ ١٦,٧	١٣ ١٨,٣ ٢١,٧ ٤,٣	٥ ٧ ١٩,٢ ١,٧	٣ ٤,٢ ١٧,٦ ١	٧١ ٢٣,٧
سكن الدخل المتوسط	٢٠ ٧١,٤ ١٠,٢ ٦,٧	٤ ١٤,٣ ٦,٧ ١,٣	٣ ١٠,٧ ١١,٥ ١	١ ٣,٦ ٥,٩ ٠,٣	٢٨ ٩,٤
سكن الدخل المحدود	٤٦ ٦٠,٥ ٢٣,٥ ١٥,٣	١٦ ٢١,١ ٢٦,٧ ٥,٣	٧ ٩,٢ ٢٦,٩ ٢,٣	٧ ٩,٢ ٤١,٢ ٢,٣	٧٦ ٢٥,٤
بيت عربي	١٤ ٦٠,٩ ٧,١ ٤,٧	٤ ١٧,٤ ٦,٧ ١,٣	٣ ١٣ ١١,٥ ١	٢ ٨.٧ ١١,٨ ٠,٧	٢٣ ٧,٧
شقة بالإيجار	٣٢ ٦٤. ١٦,٣ ١٠,٧	١١ ٢٢ ١٨,٣ ٣,٧	٤ ٨ ١٥,٤ ١,٣	٣ ٦ ١٧,٦ ١	٥٠ ١٦,٧
سكن عائلي مشترك	٣٤ ٦٦,٧ ١٧,٣ ١١,٣	١٢ ٢٣,٥ ٢٠ ٤	٤ ٧,٨ ١٥,٤ ١,٣	١ ٢ ٥,٩ ٠,٣	١٥ ١٧,١
المجموع العام %	١٩٦ ٦٥,٣	٦٠ ٢٠	٢٦ ٨,٧	١٧ ٥,٧	٢٢٩ ١٠٠

* العدد

** النسبة أفقيا

*** النسبة رأسيا

**** النسبة الى المجموع العام ٢٢٩

قيمة كا ٢ = ٣٠٦,٦٣١٦٣

درجة الحرية ٢٤

الدلالة = ...,٠

العصور . المجلد السادس، الجزء الثاني، ٣٩٣ ـ ٤٠٣ (١٩٩١م)

صوت في الخلاء

كيف اكتسب الإنسان القدرة على الكلام ؟[١]

للبروفسور فيليب ليبرمان
ترجمة الدكتور **حمزة بن قبلان المزيني**

ملخص البحث : **كان أصل اللغة الإنسانية ولا يزال واحداً من الأمور التي تشغل بال الإنسان. وقد كثرت الأقوال والآراء والخرفات والنظريات حول بدء اكتساب النوع الإنساني لهذه الظاهرة المقصورة عليه.**

وبعد تراجع النشاط البحثي في هذ المجال منذ أواخر القرن التاسع عشر أخذ يتزايد في الفترة الأخيرة منطلقاً من أسس أكثر علمية من ذي قبل.

وفي هذه المقالة يناقش اللساني الأمريكي فيليب ليبرمان هذه القضية مستدلاً في تدعيم آرائه بما انتهى إليه البحث في اللسانيات وعلم الآثار وعلم الأحياء.

ولا يفوتني هنا أن أشير الى بعض الآراء التي تتصف بشيء من الإلحاد في هذه المقالة ومع أن البحث في هذه القضية لا يقود بالضرورة الى تبني هذه الآراء فإن الأمانة العلمية تقتضي إيراد آراء الكاتب كما هي؛ وسوف أشير إلى هذه الآراء في مواضعها وأنبه إلى عدم اتفاقي معه فيها.

كانت أسماء أول الكائنات التي «صارت إنساً»، كما يقول كتاب المايا المقدس،[٢] البوبول فوه، هي: النمر ذو الضحك اللذيذ ، ونمر الليل ، والنمر الأسود ، والماهوتشوتاه، أي النمر الأشعث. وقد كانت هذه الكائنات الأربعة تنظر وتسمع وتمشي وتعمل، كما كانت «تتكلم وتكون الكلمات». وتُرجع البوبول فوه، كالخرافات الأخرى التي تقول بالخلق، أصل الإنسان وصفاته كلها إلى فاعل متعالٍ فوق الطبيعة، أو قبلها أو وراءها ـ وتسمي هذا الفاعل الروح المجنحة المهيمنة.[٣]

وبعض الأفكار في الحقيقة لا تموت؛ فعلى الرغم من حلول نظرية النشوء والارتقاء مكان الاعتقاد

---

(١) كاتب هذا المقال هو البروفسور فيليب ليبرمان أستاذ علم النفس الإدراكي وعلوم اللسانيات في جامعة براون في الولايات المتحدة. وقد كتب في هذين العلمين وغيرهما عددا كبيرا من المقالات والكتب. كما كتب في هذا الموضوع كتابا مهما هو The Biology and Evolution of Language ونشرته جامعة هارفارد في سنة ١٩٨٤م. والمقال المترجم هنا تلخيص أمين لذلك الكتاب. وقد نشر المقال اصلا في مجلة العلوم "The Sciences" التي تصدرها أكاديمية نيويورك للعلوم في الولايات المتحدة في عددها المزدوج يوليو/ اغسطس ١٩٨٨م، وتفضلت الأكاديمية بالسماح لي بترجمته. وهذه المجلة شهرية وعنوانها:

The New York Academy of Sciences, 2East 63Rd, New York, N.Y. 10020, USA.

(٢) هي إحدى الحضارات القديمة التي عاشت في جنوب المكسيك وأمريكا الوسطي فيما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين.

(٣) لعل المؤلف يعني بقوله: «... كالخرافات الأخرى التي تقول بالخلق...» تلك القصص التي تروي قصة الخلق بالتفصيل ومن ذلك قصة الخلق الموجودة في الإنجيل. ولا شك أن قصة الخلق في القرآن الكريم تختلف كليا فلم ترد فيه نصوص تفصيلية قاطعة عن الظواهر الطبيعية أو بدء الخلق بل إن ما ورد من آيات عن هذه الأمور كان الهدف منها توجيه النظر إلى هذه الظواهر ←

الذي يقول بالخلق تفسيراً لأصل الحياة فإن هذا الاعتقاد لا يزال يؤخذ تفسيراً لأصل اللغة.[٤] وتختلف المصطلحات التي يستعملها الذين يقولون بالخلق تفسيراً لأصل اللغة عن مصطلحات البوبل فوه بالطبع، فلم يعد هناك كلام عن الأرواح المجنحة، سواء أكانت مهيمنة أم لا، لكن العناصر الأساسية للقصة مازالت هي هي: فقد ظهرت القدرة على صوغ الكلمات فجأة وفي شكلها التام، ومن غير أن يكون لها أي روابط بالماضي الأحيائي للإنسان.

ويعتقد مهندس هذه النظرة، وهو عالم اللسانيات نوعم تشومسكي الأستاذ في معهد ماساتشوستس للتقنية أن الدماغ الإنساني منظم في صورة قوالب يعمل كل منها مستقلاً عن القوالب الأخرى. وإضافة إلى ذلك فإن القالب الذي يتحكم في القدرة اللغوية ـ ويمكن تسميته عضو اللغة ـ ليس له نظير في الحيوانات الأخرى، بما في ذلك أجناس الحيوانات الثديية العليا. ويقول تشومسكي إن هذا العضو، كاللغة ظهر عند الإنسان فجأة وبصورته الحالية كذلك. وباختصار فإن الأساس الأحيائي للغة الإنسانية لا يستطيع علم القرن العشرين تفسيره لأنه لا يزال يقع خارج نطاق هذا العلم.[٥]

والمقتضى الرئيس لهذه النظرية، وهي الفكرة التي أثرت على اللسانيات المعاصرة أكثر من أي فكرة أخرى، أن عضو اللغة أساس لنحوٍ كليٍّ ـ أي أنه أساس لتلك المنظومة الفطرية من القوانين النحوية التي تجعل الناس يُولِّدون الكلام ويفهمونه. فيمكن

← والتفكير فيها وحسب، وهي آيات مجملة تحتمل التفسير دائما ولا تقف حجر عثرة في سبيل المؤمن. ولعل موقف عباس محمود العقاد في كتابه الإنسان في القرآن الكريم من مذهب التطور الذي ينبع منه المقال المترجم هذا هو الموقف الصحيح إذ يقول: «... هل يصيب الذين يحرمون باسم الإسلام مذهب النشوئيين المؤمنين بالخالق؟»

«وليس يخالجنا كثير من الشك ولا قليل في خلو كتاب الإسلام مما يوجب القول بتحريم هذا المذهب. فقد يثبت غدا أن المذهب صحيح كله أو باطل كله، أو يثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل، ولكن كتاب الإسلام لا يصد عن سبيل العلم في أية وجهة من هذه الوجهات ...» ـ **الإنسان في القرآن الكريم** (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، د.ت)، ص ١٢٤ ـ كما يقول في الكتاب نفسه، (ص ١٧٣): «فإذا أخطأ من يقحم القرآن تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها، فمثله في الخطأ من يقحم القرآن في في تحريمها وهي بين الظن والرجحان، وبين الأخذ والرد، في انتظار البرهان الحاسم من بينات العقل أو مشاهدات العيان».

(٤) للاطلاع على ما يقوله العلماء الآن عن هذه النظرية يحسن بالقاريء الرجوع إلى الكتابين التاليين:

Norman D. Newell, *Creation and Evolution Myth or Reality?* (New York: Praeger Publishers, 1985)

«الخلق والتطور: خرافة أم حقيقة؟»

وكذلك:

Bently Glass, *Progress or Catastrophe: The Nature of Biological Science and Its Impact on Human Society* (New York: Praeger, Publishers, 1985)

«تقدم أم نكبة: طبيعة علم الأحياء وأثره على المجتمع الإنساني» ويلخص موقف العلم المعاصر من نظرية التطور ما يقوله Glass (ص ٦٨): «أما فيما يخص نظرية التطور فإن التجريب الذي قام به العلماء في خلال مازيد على القرن (منذ ظهور هذه النظرية) قد جعل هذه النظرية أقوى ألف مرة مما كانت عليه في وقت تشارلز داروين».

كما يقول في مكان آخر من الكتاب نفسه «لقد أوردنا سابقا ما يكفي لإثبات أن عمليات التطور هي المفتاح لفهم الحياة اليوم.

كما أنه لا يمكن أن تفهم الصفة الغالبة لتنوع الحياة ولا تأقلمها المتنوع البديع ولا الصفة المركزية للعلوم البيولوجية المعاصرة التي هي دراسة الجينات والتغيرات الفجائية اللاحقة التي تتم تحت شروط بيولوجية كيميائية من غير أن نسلم بحقيقة العمليات التطورية» (ص ٧٧).

(٥) للاطلاع على رأي تشومسكي المشار إليه هنا يمكن للقاريء أن يرجع إلى كتابه *Rules and Representations* (Oxford. Basil Blackwell, 1980) وقد ترجم الدكتور محمد الدلاوي فصلا مهما منه بعنوان «اللغة والمعرفة غير الواعية»، **دراسات أدبية ولسانية**، العدد ٤ (صيف ـ خريف ١٩٨٦م)، ص ص ٥٨ ـ ٨٧.

وكذلك في الكتاب الذي يحوي المناظرة بين تشومسكي وبياجيه:

Lauguage and Learning: The Debate between Jean Piaget and Noam Chomsky Edited by Massimo Piattelli - Palmarini (Cambridge. MA: Harvard University Press, 1980).

كما عرض تشومسكي آراءه تلك بشكل غير معقد في كتابه: *Language and Problems of Knowledge* (Cambridge, MA: The MIT Press, 1988).

وقد ترجمت هذا الكتاب إلى العربية بعنوان: **اللغة ومشكلات المعرفة**. وقد نشرته دار توبقال في المغرب في سنة ١٩٩٠م.

بدءاً إرجاع كل اللغات في العالم الى هذه البنى العميقة، كما يسميها تشومسكي، وذلك بسبب كونها مستقلة عن المعنى بشكل كبير كما توضح ذلك الجملة الآتية التي ليس لها أي معنى لكنها صحيحة نحوياً: «أكلتْ الكراسي الغضبى الليلَ». وتقول النظرية أيضاً إن القواعد التي تحكم الكلام، أي التصرف بالأصوات في شكل منظم ـ كعضو اللغة نفسه ـ لم تأت من أي سلف أحيائي.

ونظرية تشومسكي هذه وجيهة إلى حد ما. إذ اللغة الإنسانية فريدة، لا ريب؛ فهي باعتمادها على الرموز لتمثيل الأفكار المجردة لا تشبه تلك الإشارات البسيطة، نحو غناء العصافير وصياح القردة وصياحها، إلا شبهاً قليلا. كما أن القدرة اللغوية مرتبطة ببعض البنى الأعصابية المحددة التي لا توجد إلا في أدمغة بني الإنسان. وأهم هذه البنى الأعصابية المحددة البنية المسماة بمنطقة بروكا، وهي التي سميت باسم مكتشفها عالم الأعصاب الفرنسي بيير ـ بول بروكا في سنة ١٨٦١م. وتقع هذه قريبا من المنطقة الخلفية لفص القشرة المخية الأمامي الأيسر. ويظهر على من يصاب في هذه المنطقة بإعاقة شديدة المرضُ المسمى حبسة بروكا: فهو يستطيع التحكم في اللسان والشفتين والأجزاء الأخرى من جهاز النطق لكنه لا يستطيع أن ينطق كل الحركات والأصوات الساكنة التي يتكون منها الكلام. وعلى الرغم من التعديل الكبير منذ القرن التاسع عشر على الفكرة التي تقول إن جزءاً واحداً معيناً من الدماغ يتحكم في اللغة (حيث وجد أن أسس الوظائف العقلية كلها، متفرقة بشكل أكبر مما كان يظن سابقاً) فإن من الواضح أن الكلام الإنساني لا يمكن أن يوجد في غياب منطقة بروكا.

وهنا تبرز مشكلة أخرى في الخطوة التالية من حجة تشومسكي التي مفادها أنه ما دام أن الكلام والأعضاء المرتبطة به لا توجد إلا في الجنس البشري العاقل، فإن ذلك يقتضي أنها جاءت من العدم. غير أن هذه النتيجة تنطلق من فهم خاطىء جداً لإبداع الطبيعة. فهناك على حد ما نعلم كائن واحد له خرطوم فيل يعيش على الأرض، لكنه لا يلزم أن نستنتج من ذلك أن خرطوم الفيل كان نتيجة لعوامل أخرى غير عامل النشوئية ـ الارتقائية. فلماذا إذن المسارعة الى القول بالنتيجة نفسها عن العمليات الأعصابية التي تحكم الكلام ؟

ويضاف الى ذلك أننا نعرف اليوم عن أصل اللغة أكثر مما كان معروفاً حينما طرح تشومسكي أفكاره هذه لأول مرة قبل ثلاثين سنة. فالعمليات الأعصابية التي تتحكم في إنتاج الكلام والتركيب النحوي ليست نتيجة للعمليات الداروينية فحسب، بل إنها لم تتطور وحدها أيضا. فقد أحدثت بعضُ التغيرات في تركيب جهاز النطق، خلال مئات الآلاف من السنين الماضية، بعض التعديلات في تركيب الدماغ والعكس بالعكس. فلم يكن من الممكن أن يتطور الكلام من غير هذا التطور التدريجي الذي أخذ بعضه بحجز بعض. وعلى نقيض ما يراه تشومسكي واللسانيون الذين يرون رأيه فإن الإنسان الحديث لم يصبح على الصورة التي هو عليها رغماً من النشوئية ـ الارتقائية بل أن ذلك كان بسببها. وتجب الإشارة هنا أن هذا ما درج علماء الأحياء كلهم على عده أمراً مسلماً بالطبع. أما الجديد في الأمر فهو أنه أصبح من الممكن الآن، ولأول مرة، البرهنة على هذا الرأي، أي أنه أمكن تعيين أسس الكلام الأحيائية وتعيينها.

ومن أبسط المفاتيح التي تضع أيدينا على ما يتحلى به الكلام الإنساني من طبيعة مخصوصة طبيعةُ الأصوات التي تكونه، وهو ما تجاهله الباحثون زمناً طويلاً. فلقد كان علماء اللسانيات يفترضون، خلال النصف الأول من هذا القرن، أن أي منظومة من الأصوات يمكن أن تكون كافية لتوصيل الكلمات. غير أنه تبين أن الأمر على خلاف هذا الافتراض حينما حاول بعض الباحثين صناعة آلة تقرأ الكتب لفاقدي البصر. وقد حدثت تلك المحاولة في الخمسينيات والستينيات في معامل هاسكنجز وهو مركز أبحاث يمول بأموال غير حكومية كان في نيويورك.

ويجب أن تحوي آلة القراءة هذه عدة مكونات، نحو قارىء الطباعة، وقالب الصفحة، وما أشبه ذلك؛ غير أن مفتاح نجاح هذه الآلة يكمن في العملية التي

تحول الرموز الصوتية المكتوبة إلى أصوات مسموعة. وكان الباحثون في معامل هاسكنجز يرون أن الخطوة الأولي في صياغة هذه العملية أن تُسجِّل كل العناصر الصوتية التي سيستعمل في تكوين الكلمات الانجليزية على شريط. وقد افترضوا أن الشريط الذي يسجل عليه كلمة Cat ، مثلا، يمكن تقطيعه الى ثلاث شرائح تمثل الأصوات الثلاثة: الأول k والأخير t والأوسط ae . غير أن الكلمات التي ركبت باستعمال هذه القطع لم يستطع أحد فهمها، وهو ما دعى الباحثين الى استنتاج استحالة عزل الأصوات الفعلية بهذه الصورة. فمهما كان قِصَر القطعة التي عزلناها فإن الصوتين الأول k والصوت ae الذي يتلوه سيسمعان دائماً معا، فهذان إلصوتان المتتابعان ممتزجان إلى حد أنهما يحدثان في الوقت نفسه الذي يأخذه إحداث صوت ساكن مفرد أو حركة مفردة.

ولكي نقدر أهمية هذه المسألة فإنه يحسن أن نتخيل نقراً بقلم الرصاص على سطح منضدة. وسوف نجد أن أكثر الناس لا يستطيع متابعة هذه النقرات إذا تجاوزت تسعاً في الثانية الواحدة. أما إن زادت عن خمس عشرة نقرة في الثانية فإن تلك الأصوات المنفردة سوف تسمع كأنها أزيز متواصل. وفي مقابل ذلك فإن جملة قصيرة كالتي تقرأها الآن هنا تحتوي على مايقرب من خمسين صوتاً. وعلى الرغم من إمكان نطق هذه الجملة فيما يقرب من ثانيتين فإن المستمع الإنسان يستطيع أن يفهمها بسهولة كبيرة. أما لو نطقت هذه الجملة بالسرعة التي تؤدى بها الأصوات غير الإنسانية (أي سبعة إلى تسعة أصوات في الثانية) فإن من المحتمل أن ينسى السامع أول الجملة قبل أن يسمع نهايتها. ولذلك كانت القدرة على ترميز الأصوات اللغوية جزءاً أساسياً من القدرة اللغوية لأنها تسمح لقدر كبير من المعلومات أن يؤدى في الحدود التي تفرضها الذاكرة قصيرة المدى. والنوع الوحيد المهيأة أعضاؤه النطقية للقيام بإنتاج لكل هذه الأصوات هو النوع البشري العاقل وحده.

والمجرى الصوتي عند الإنسان عموماً هو النصف الأعلى من المجرى الهوائي الذي يصل مابين الرئتين والهواء الخارجي. ويتكون المجرى الهوائي نفسه من عدد من الأجزاء المتميزة. فالجزء الذي يمتد من الرئتين إلى مستوى ما يسمى الحَرْقدة (تفاحة آدم) تقريبا هي الرُّغامى (القصبة الهوائية) وتقع في أعلاها الحنجرة (صندوق الصوت). وتتصل الرغامى في المنطقة التي تقع أعلى الحنجرة بالمريء الذي يصل المعدة بالفم. وتتفرع هذه المنطقة التي تسمى الحلق. وهي المنطقة التي يلتقي فيها أنبوب الطعام بأنبوب الهواء، إلى مجريين اثنين هما الفراغ الأنفي والفراغ الفموي حيث يكملان مجرى الهواء. وأهم أجزاء هذا التركيب، فيما يخص الصوت، الحنجرة والمجرى الصوتي الذي يتكون من الحلق والمجريين الأنفي والفموي بما ذلك الحنك القصي (وهو الجزء الاقصى اللين من الحنك الأعلى الذي يغلق المجرى الأنفي من ناحية الفم) واللسان والشفتين.

وينتج الصوت عندما يمر تيار الهواء الصادر من الرئتين بالحنجرة مخترقاً الفراغ الذي يقع بين الوترين الصوتيين اللذين ينفتحان وينغلقان كالصمام. ويتذبذب الوتران الصوتيان في أثناء الكلام بفعل مرور الهواء بينهما ودلك ما يجعلهما يقطعان تيار الهواء فيندفع إلى المجرى الصوتي على صورة دفعات متتابعة سريعة. وتسمى السرعة التي ترسل بها الدفعات التردد الأساسي للتصويت، وهو الذي يحدد نغمة الشخص، فكلما زادت سرعة التردد كانت النغمة أعلى.

وبالإضافة إلى وجود الطاقة الطبيعية (الأكوستيكية) acoustic energy في مستوى التردد الأساسي فإنها توجد أيضا في مستوى ما يسمى الترددات التوافقية للتردد الأساسي (harmonics of fundamental frequency) . فيقوم المجرى الصوتي نتيجة للتشكلات التي يكون عليها، نحو سعة الحلق، وموقع الحنك القصي واللسان، ووضع الفم، بوظيفة المرشح الذي يمنع مرور بعض الترددات الإضافية في الحين الذي يسمح فيه بمرور الطاقة الطبيعية القصوى على صورة ترددات معينة تسمى الترددات الموجية (formant frequencies) وبذلك نحصل على

أصوات لغوية متميزة. فتختلف الحركة e في met مثلا، عن الحركة i في bit لأن الترددات الموجية التي أنتجتها لا تشبه الموجات التي أنتجت الحركة i. وتشبه هذه العملية العملية التي يُرشِّح بها جهازُ الأرغِ الصوت. فمثلما أن نوع النغمة الموسيقية محكوم بالشكل الذي يكون عليه أي أنبوب، فكذلك النوع الصوتي لأي صوت لغوي محكوم بتشكل المجرى الصوتي.

وتفتقر القردة كلها، بما في ذلك الجيبون والشمبانزي والطفل الذي يقل سنه عن ثلاثة أشهر إلى التركيب العضوي الذي ينتج الترددات الموجية كلها، أي الأصوات اللغوية المرمزة كالـ k و ae في كلمة cat . والسبب الرئيس لعدم هذه القدرة لدى هذه المجموعات، هو وجود الحنجرة في مكان عالٍ في الحلق، وهو ما يجعل المجرى الصوتي عندها على شكل أنبوب واحد منحن. أما لدى النوع البشري البالغ فإن الحنجرة تقع في مكان أسفل في الحلق وذلك ما يجعل المجرى الصوتي على شكل أنبوبين أساسا ـ أي المجرى الفموي والحلق ـ حيث يتصلان على شكل زاوية قائمة خلف اللسان. وهذا التركيب العام للمجرى الصوتي ضروري جداً كي تنتج الترددات الموجية. إذ أن القدرة على الكلام لا تتحقق أبداً إلا بنزول الحنجرة إلى موضع أسفل في الحلق.

ومن الأمور التي تبعث على الدهشة أنه وإن أعطى وجود الحنجرة في موضع أسفل في حلق الانسان القدرة على الكلام إلا أنه، إلى جانب ذلك، يزيد من احتمالات تعرضه للغصة. أما في أنواع الثدييات التي تعيش على اليابسة كلها كالكلاب والقطط والقردة، فإن الحنجرة تقع في مكان أعلى حيث يمكنها أن تتحرك إلى موضع أعلى في الحلق كالمثفاق[٦] فتلتحم فتحتها بفتحة الفراغ الأنفي وذلك ما يسمح بمرور الهواء من خلالها إلى الرئتين في الحين الذي يمر الطعام والماء من حولها في طريقهما إلى المريء. ولذلك تستطيع أنواع الثدييات كلها، ماعدا النوع البشري العاقل، أن تتنفس وتشرب في وقت واحد. أما في الحلق الإنساني فإن أي شيء يُبلع يمر من أعلى فتحة الرغامي (وهو خطر لا يتعرض له الطفل)، ولذلك يموت آلاف الناس كل عام عندما يسقط الطعام أو الشراب في الرغامى فيسد الطريق إلى الرئتين.

وتوحي حساسية هذا التركيب التشريحي وخطره بأنه لا بد أن الإنسان في مسار النشوء والارتقاء واجه ظروفاً معينة كانت تفضل الاتصال الصوتي، أما في غياب مثل تلك الظروف فلا يوجد سبب آخر يدعو الإنسان إلى المغامرة باتخاذ هذا الجهاز التشريحي الخطر كي يجعل إنتاج الأصوات اللغوية ممكنا. وستتوضح هذه النقطة أكثر إذا تتبعنا مسار نشوْ الحنجرة والمجرى الصوتي. وسوف يعيننا هذا التتبع أيضاً على تفسير كيف أن مراكز الكلام في الدماغ كانت أيضاً نتيجة لأحداث نشوئية ـ ارتقائية.

إن الطبيعة تجيد التدبير ، فهي إن أرادت شيئاً جديداً استعملت ما بحوزتها من مواد. ويتجلى هذا التدبير في عملية استعمال عضو في وظيفة أخرى الى جانب وظيفته الأساسية وذلك حين تقوم بنية تطورت من أجل القيام بوظيفة ما تحت منظومة من الظروف المعينة بوظيفة أخرى تحت ظروف مختلفة. وأحد الأمثلة المشهورة على هذه الطريقة الانتهازية في الابتكار نشوء نظام التنفس في الثدييات، وهو المثال الذي وصفه تشارلز داروين لأول مرة.

وكانت نقطة البداية في هذا التطور المثانةُ الهوائية في السمك الرئوي. فقد طور السمك الرئوي، قبل مايقرب من أربعمائة مليون سنة، القدرة على تنفس الهواء مباشرة من البيئة الخارجية (وربما كان سبب ذلك تعرض مسكنه المائي للجفاف دوريا). وكان ذلك بتطويره شقاً طولياً بسيطاً يشبه الحنجرة يقع خلف الخياشيم وهو الذي يسمح للهواء بالدخول إلى المثانة الهوائية إذا تعرض هذا النوع من السمك إلى الجو الخارجي ويمنع الماء من الدخول عندما يغطس. وحينما انتقل نسله الى اليابسة وتكيف مع العيش

(٦) المثفاق هو منظار على شكل انبوب مستقيم تستعمله الغواصات وفيه ينعكس الطيف على مرايا متقابلة بزوايا معينة، فيمكن للبحارة رؤية ما فوق الماء وهم في داخل غواصتهم.

عليها تطورت المثانة الهوائية لتصبح عضواً وظيفته الوحيدة التنفس. ولما لم يعد لهذا الشق من حاجة في مساعدة السمك الرئوي على الطفو فقد تحول إلى شبكة معقدة من الحجيرات وهو ما أدى الى توسيع المنطقة التي يمكن من خلالها للأكسجين أن يدخل ولثاني أكسيد الكربون أن يخرج، أي المجرى الذي يمر فيه تيار الدم. وعند ذلك ظهرت الرئة في الثدييات.

وقد دخلت بعض التعديلات على المجرى الهوائي الذي يصل الرئتين بالفم بمرور الوقت حينما أصبح الاتصال الصوتي يقوم بدور مهم كالإشارة إلى الاتصال الجنسي وتحذير الآخرين من الخطر وما إلى ذلك. وقد بدأت بعض الثدييات تعتمد على التصويت أكثر من بعضها الأخر ، وذلك ما يبينه تركيب حناجرها. ففي الحصان، مثلاً، يمكن أن ينسحب الوتران الصوتيان إلى جانبي الحنجرة على شكل شفتين وذلك ما يجعل الفتحة بينهما أكبر من الرغامى نفسها. وبهذه الطريقة صيغت الحنجرة كي تقلل إلى أقصى حد ممكن أي مقاومة لتيار الهواء. وذلك مامكن الحصان من أن يدخل كمية كبيرة من الاكسجين إلى رئتيه، وهو عامل مهم لحيوان كانت حياته تعتمد على جري مسافات طويلة كي يتمكن من الفرار من الحيوانات المفترسة. ويعد التصويت - وبالأخص الصهيل - جزءاً من الرصيد السلوكي للحصان، لكن أهميته لا يمكن أن تقارن بالتنفس أبدا. وعلى النقيض من الحصان، فقد ضحى الانسان بدرجة معينة من الإحكام التنفسي لكي الاتصال - بدأ المجرى الصوتي كله في التغير . فلم يقتصر الأمر على نزول الحنجرة إلى مكان أسفل في الحلق، بل لقد نزل اللسان قليلاً في الحلق أيضاً وهو ما مكن من نطق بعض الأصوات كـ a و i. ومن المؤكد أن مثل هذه التغيرات لن يكون لها أي معنى إن لم يكن هدفها المساعدة على النطق، فقد صاحب تأخر اللسان إلى المنطقة الخلفية في الفم قِصرُ الحنك وقلةٌ في الأسنان مما جعل البنية العضوية العامة أقل ملاءمة للأكل.

ومما ترتب على هذه الصور من التكيف أن الحلق والتركيب العضوي للوجه والفم عند أسلاف الإنسان أصبحا قادرين على القيام بأعقد الأنشطة الحركية التي يمكن للثدييات أن تقوم بها. بل إن المجرى الصوتي بلغ درجة كبيرة من التعقيد في طور أقدم، أي لدى الأنواع العليا، في السلم النشوئي، التي سبقت أسلاف الإنسان. فتوحي الدراسات الحاسوبية المنمذجة (Computer - modeling) التي كان موضوعها الشمبانزيات، مثلا، أن من المتوقع نظرياً أن تكون هذه الشمبانزيات قادرة على إنتاج قدر كبير من الأصوات اللغوية الإنسانية بما في ذلك بعض الصور المؤنفة (Nasalized) لكلمات مثل bit و tip و dad و pup ، بل يفترض أنه يمكن لها أن تنطق الأصوات الإنسانية كلها عدا الحركات a و i و u ، وبعض الأصوات الساكنة نحو k و g . وعلى الرغم من ذلك فإن كل المحاولات التي بذلت خلال الثلاثمائة سنة الماضية في تعليم الشمبانزيات لكي تنطق صوراً

الرئيس في الأسماك البدائية هو منطقة الدماغ الخلفية وهي بصيلة من الألياف العصبية تقع في نهاية النخاع الشوكي العليا وتقوم بتنسيق ردود الأفعال الحركية البسيطة. أما المنطقتان الوسطى والأمامية وهما أصغر بكثير من المنطقة الخلفية فتقومان بالتعامل مع المعلومات البصرية والشمية.

ومع ظهور الفقريات التي تسكن اليابسة وتعدد متطلبات البقاء التي تواجهها وقسوتها انتقل النشاط العصبي تدريجياً إلى منطقة الدماغ الأمامية وهي التي تعرضت لأعظم قدر من التغير. ولذلك نجد أنه كان لأقدم الأنواع التطورية كالحيوانات البرمائية والزواحف مخاً متطوراً جداً مكوناً من لفافة من النسيج الرقيق يقع خلف العينين مباشرة ويتحكم في بعض أنواع السلوك البسيطة كالاتصال الجنسي والبحث عن الطعام. وقد أصبح المخ أكبر جزء في الدماغ عندما اكتمل تطور الثدييات وهو ما مكن من القيام بوظائف النظام العصبي العليا، كالتعلم والتذكر. كما أصبح المخ في (الرئيسات) أي الأنواع العليا من السلسلة التطورية يحتوي معظم الدماغ.

وقد انشطر المخ عند القردة وأسلاف الإنسان إلى منطقتين تنقسم كل منهما إلى أربعة فصوص هي: الفص الأمامي وهو كتلة تقع خلف الجبهة مباشرة، والفص الجداري وهو إسفين يقع خلف الفص الأمامي، والفص الصدغي ويقع تحت الفصين الأمامي والجداري، والفص الخلفي ويقع في مؤخرة الدماغ. ويحدث أكثر نشاط الدماغ العصبي في نسيج المخ الخارجي الملفوف بإحكام أي فيما يسمى القشرة المخية.

ولقد صحب نمو المخ من كرية بحجم حبة الفول في السمك البدائي إلى كرة معقدة جداً بحجم الليمون الهندي (الغريب فروت) في الجنس البشري العاقل، تعقيدٌ مستمر للأنظمة الإحساسية والحركية، بل إن هذا التعقيد لم يكن إلا استجابة لذلك النمو. ومما يسرته القشرة المخية المتطورة جدا أنها جعلت بعض هذه الأنظمة تعمل بصورة آلية، أي من غير تفكير. وكان القيام بهذه الأنظمة آلياً أساساً للبقاء لأنه يسمح باستجابات فورية حاسمة للمثيرات الخارجية، وهو ما يجعل الحيوان قادراً على صرف الاهتمام إلى الجوانب العليا في أي حدث. فلو كان يلزم الأسد، مثلا، أن ينتبه إلى مواقع أعضائه أكثر مما ينتبه إلى حركة فريسته لمات جوعا، وكذلك لو لم يستطع بقر الوحش الفرار من الأسد إلا بعد التفكير في مواضع حوافره لانقرض. فقد أصبح، في كلتا الحالتين، عدد كبير من الأنشطة الحركية - أي التنسيق بين كل العضلات والأعضاء التي تشارك في الجري - لا يزيد عن مجرد ردود أفعال بعد فترة من التدريب.

وحينما أصبحت الأنشطة الحركية آلية نشأت حينئذ شبكةُ تحكم مباشرة في القشرة الحركية التي تقع في الفص الأمامي ملاصقة للشق الذي يفصل الفص الأمامي عن الفص الجداري تقوم بما يشبه ردود الفعل غير الإرادية. وقد بُرهن على وجود شبكة التحكم هذه بدراسة السواعد التي دُرِّبت على بعض الأعمال اليدوية البسيطة كتحريك مقبض إلى موضع محدد. فقد وجد الباحثون أنهم إذا غرسوا بعض الأقطاب الكهربائية الصغيرة في عضلات سواعدها وفي القشرة الحركية والفصوص الخلفية (وهي مركز الإبصار) في أدمغتها فإنها تعتمد في البداية على بصرها كي تجد المقبض، ومن ثم تقوم بتغيير موضعه: ويعني هذا أن مراكز الإحساس (Sensory centers) في الدماغ تنشغلُ بشكلٍ يكاد يكون كاملا في فرز الإشارات الكهربية القادمة من قبل أن ترسل مراكز الحركة أوامرها لعضلات الساعد. غير أنه وجد بعد فترة من التدريب أن النشاط الكهربي يظهر بشكل أساس في منطقة الحرة في الدماغ، وبذلك ينقص وقت رد الفعل إلى النصف.

وتظهر مثل هذه الآلية كلما كان السلوك على وتيرة واحدة. فيمثل التطور الذي نجده في القشرة المخية، بمعنى ما، التحسين التدريجي للأسس الأعصابية التي تتحكم في المظاهر التكرارية في حياة الحيوان، ومن ذلك عند الثدييات تركيب الفتحات الوجهية والحلق. وتقع منطقة الحركة التي تتحكم في هذه الأجزاء من الجسم عند القردة في القشرة الأمامية الجانبية الموجودة في الجانب الأيسر من الدماغ، وهو

المكان الذي تقع فيه منطقة بروكا في دماغ الإنسان تقريبا.

وليس هذا التقارب في المكان وليد مصادفة: فقد برهنت الدراسات المقارنة على أن القشرة الأمامية الجانبية عند القردة هى الشكل الأول لمنطقة بروكا الجمجمة. وتدل الدراسات المقارنة للأنواع العليا المعاصرة في السلسلة التطورية أن العلامة الفارقة لجماجمها عن جماجم الإنسان تكمن في أن قاعدة الجمجمة عندها أكثر استقامة وغير ملتوية وهو ما يسمح للحنجرة بالصعود إلى مكان أعلى في الحلق.

المجرى الصوتي وبشكل مصاحب لهذا التنسيق. وإذا نظرنا إلى القواعد التي تتحرك بموجبها هذه العضلات فإنه يمكن عدها نوعا من التركيب للنشاط الحركي.

فتتركب الحركات الآلية التي يقوم بها الفم والحلق كلها من عدد لا يحصى من الأوامر، ويتضح ذلك بالصورة التقريبية الآتية، وهي منظومة من الأوامر المختصرة من أجل القيام بنشاط مألوف: أولا، افتح الفم كي تساعد الطعام على الدخول، ثانيا، ضع الطعام في موضع ملائم للسان، ثالثا، ارفع الأسنان وأخفضها لمضغ الطعام، رابعا، ادفع الطعام إلى أقصى الحلق، خامسا، ابلعه. ويجب ملاحظة أن هذه الأوامر لابد أن تظهر بترتيب معين. فلا يمكن بلغ الطعام قبل مضغه، كما لا يمكن أن يمضغ حتى يوضع بين الأسنان. وملاحظة أخرى هي أن أي واحد من هذه الأوامر يمكن تجزئته إلى أوامر فرعية - حيث تصدر سلسلة من الأوامر الإضافية إلى أجزاء معينة من الفم، أو أنها قد تصدر إلى عضلات معينة. وهذه المنظومة من الأوامر نفسها ليست إلا فرعا لنشاط أكثر تعقيدا - وأعني به الأكل. ونحن لا نفكر بتتابع هذه الأوامر الحركية حين نأكل، كما أننا لا نعد كل وجبة حادثا جديدا. فإذا تعلمنا هذا السلوك المحكوم بالقاعدة فإننا نقوم به من ثم بصورة آلية.

ولكل نظام حركي فرعي دائرة كهربية تقابله في المراكز الحركية للقشرة المخية، حيث تعني هذه الدائرة تغيراً محدداً للروابط بين العصبونات (neurons) فيها. فترتبط الأنظمة الفرعية التي تحكم الحنجرة والمجرى الصوتي بالدوائر هذه في منطقة بروكا. وأكثر من ذلك، فإن تركيب هذه العمليات الأعصابية - أي التتابع المكون من نظم فرعية - يشبه إلى حد بعيد تركيب الجمل وعلى الأخص تركيب الأنماط التركيبية Phrase patterns.

لننظر مثلا إلى جملة كـ «الطفل أكل طعامه».[٨] فهي تتكون، كأوامر الأكل الحركية، من وحدات صوتية متميزة مصفوفة في تتابع معين. فيقع التقسيم الأول في هذه الجملة بين المكون الاسمي «الطفل» والمكون الفعلي «أكل طعامه». ويمكن أن يجزأ كل مكون إلى وحدات صوتية أصغر: فالمكون الاسمي «الولد» يمكن تجزئته إلى أداة التعريف «ال» والاسم «ولد»، و «أكل طعامه» يمكن أن تجزأ إلى الفعل «أكل» والمكون الاسمي «طعامه». وليست هذه التقسيمات عشوائية بل إنها تعكس منطق الجملة الداخلي، أي القواعد التركيبية التي تحدد معنى سلسلة من الكلمات (أو الأصوات في حالة الكلام).

ويمكن أن نستنتج من شكل جماجم البقايا وأحجامها وكذلك من تركيب أدمغة القردة أن القشرة المخية عند أسلاف الإنسان الأول كانت مهيأة بشكل جيد لتجعل كل النشاطات الحركية في الجسد آلية. كما أن النظم الفرعية التي تحكم هذا التنسيق الأعصابي كانت ملائمة كي تتولى التحكم في أنواع السلوك الأخرى المحكومة - بالقاعدة - وعلى الأخص نمط الكلام التركيبي. فالدائرية الأعصابية التي تطورت من أجل التنسيق بين عضلات الحلق وعضلات الفتحات الوجهية وكانت بذلك مهيأة للتكيف كي تتحكم في إنتاج الحركات والأصوات الساكنة، هُيِّئت أيضا للتكيف كي تنتج تلك الأصوات بحسب منطق التركيب.

وقد أتى الدليل على وجهة النظر هذه من الدراسات التي قام بها الباحثون على المسنين والمصابين بمرض باركنسون والمصابين ببعض أنواع الإصابات الشديدة في منطقة بروكا والأنسجة المحيطة بها. فقد وجد الى جانب إصابة هذه الأنواع الثلاثة من المرضى باعاقات مختلفة كإلقاء الكلام بصورة أبطأ من السرعة العادية أنهم يعانون أيضا من صعوبة فهم الجمل ذات التعقيد التركيبي

(٨) حافظت على هذا الترتيب بين مكونات الجملة حتى تتماشى مع التفسير الموجود في النص. أما في اللغة العربية فكان يجب أن تكون الجملة «اكل الطفل طعامه» وليس بالإمكان مناقشة هذا الاختلاف في الترتيب بين هذه المكونات هنا. ويحسن بالقارىء أن يطلع على كتاب الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، **اللسانيات واللغة العربية** (الرباط: دار توبقال، ١٩٨٥م). وكذلك النقاش الذي أورده تشومسكي في كتابه الذي ترجمته والمشار إليه في هامش رقم٥.

المتوسط، مثل «لأن السماء ممطرة، لعبت البنت في داخل البيت». أو «حملت الأم الطفل، وهو الذي كان يبكي». ولا يمكن أن يظهر اقتران العجز عن الكلام بعدم القدرة على فهم الأنماط التركيبية في مثل هذه الحالات إن لم تكن قواعد الأنشطة الحركية الخاصة بالكلام ومنطق التركيب كلاهما نتاجا لعمليات أعصابية واحدة؛ أي نتاجا لتلك العمليات التي كانت تتحكم بشكل أكثر بدائية في سلوك الفتحات الوجهية والمجرى الصوتي عند أسلاف الإنسان الأُول، وعند القردة والساعدين قبل ذلك.

ولا يمكن أبدا أن يقلل إثباتُ هذه الصلة التطورية من أهمية الكلام الإنساني. بل إن وجهة النظر التطورية هذه، على نقيض وجهة النظر التي تقول بالخلق، تعترف بما يتفرد به الكلام: فهو قد تطور من أشياء لا تشبهه؛ إذ تطور منذ زمن ليس ببعيد من خلايا الدماغ ومن عضلات الحلق، ومن مراحل الحياة السابقة كلها قبل ذلك. فإذا كان هناك شيء يستحق الإكبار في مسألة ظهور اللغة فهو أن الكوكب المكون من صخور لا ينتسب إلى عالم الأحياء يستطيع، إذا أتيحت له السلسلة الملائمة من الظروف والوقت الكافي، أن يلد ـ دون تدخل خارجي ـ كائنات يمكنها الكلام وصوغ الكلمات.[٩]

---

(٩) تتضمن هذه الفقرة إنكارا للخلق أساسا وهو قول ليس لازما عن القول بالتطور. قارن هذا بالجملة الأخيرة من كتاب داروين «أصل الأنواع»

The Origins of Species (The New American Library of World Literature, Inc, 1958), p.450

«إن في هذه النظرة للحياة قدرا من العظمة وذلك لما تتضمنه من قوى متعددة تلك التي نفخها الخالق بداية في أشكال قليلة من الأحياء أو في شكل واحد، ومع استمرار الأرض في دورانها تبعا لقانون الجاذبية الثابت، تطور من هذه البداية البسيطة أشكال لا حصر لها غاية في الجمال والعظمة».

وانظر كذلك مناقشة بنتلي جلاس في كتابه سالف الذكر للنظريات التي ترى أن الأحياء تطورت من أشكال غير حية. وهو الذي يراه الكاتب هنا .Glass, pp 45 - 51

المصطلحات التي وردت في المقال

الطاقة الطبيعية (الاكوستيكية)	Acoustic Energy
تفاحة آدم	Adam's Apple
الحبسة	Aphasia
قاعدة الجمجمة	Basicraniums
منطقة بروكا	Broca's area
القشرة المخية	Cerebral cortex
المخ	Cerebrum
دائرة (كهربية)	Circuit
مكون	Component
الدراسة الحاسوبية النموذجية	Computer - modeling
نظرية الخلق	Creationism
العمليات الداروينية (القوانين)	Darwinian processes
البنية العميقة	Deep Structure
المريء	Esophagus
نظرية النشؤ والارتقاء (التطور)	Evolutionary theory
العدم	Exnihilo
مرشح	Filter
الدماغ الأمامي	Forebrain
الترددات الموجية	Formant frequencies
سجل البقايا (المستحدثات)	Fossil record
الفص الجبهي	Frontal lobe
الترددات الأساسية	Fundamental frequencies
يولد	Generate
خيشوم	Gill
الترددات التوافقية للترددات الأساسية	Harmonics of fundamental frequencies
شق الدماغ	Hemisphere
الدماغ الخلفي	Hindbrain
أسلاف الإنسان	Hominid
الإنسان العاقل	Homo-sapiens
فطري	Innate
عضو اللغة	Language organ
الحنجرة	Larynx
الفص الجبهي الأيسر	Left frontal lobe
القدرة على اللغة	Linguistic ability
فص	Lobe
السمك الرئوي	Lung fish
الثدييات	Mammal
الدماغ الأوسط	Midbrain
قوالب	Modules
المراكز الحركية في القشرة	Motor centers of the cortex
الانعكاسية الحركية	Motor relfexive
النظام الحركي الفرعي	Motor subroutine
الأصوات المؤنفة / ذات الغنة	Nasalized
إنسان نيندرثال	Neanderthal man
عصبي / أعصابي	Neural
عبارة اسمية	Noun phrase
الفص القذالي	Occipital lobe
الفراغات الفمية والأنفية	Oral and nasal cavities
الفموي ـ الوجهي	Orofacial
الفص الصدغي	Parietal lobe
مرض باركنسون	Parkinson's disease
المنفاق (آلة تشبه المنظار)	Periscope
طبقة النغمة	Pitch
تركيب العبارات	Phrase structure
استعمال عضو في وظيفة أخرى إلى جانب وظيفته الأساسية	Preadaptation
الرئيسات (أعلى رتب الحيوانات الثديية)	Primates
محكوم بالقاعدة	Rule - governed
علم الدلالة	Semantic
منظومة	Set
الذاكرة قصيرة المدى	Short term memory
رجل سخول ٥	Skhul V
العمود الفقري	Spinal cord
المثيرات	Stimuli
المثانة	Swim, bladder
قواعد التركيب	Syntactic rules
الفص الصدغي	Temporal lobe
الرغامى	Trachea
النحو الكلي	Universal syntax
الحنك الرخو (الحنك القصي)	Velum
العبارة الفعلية	Verb phrase
الفقريات	Vertebrates
يتذبذب	Vibrate
الوتران الصوتيان	Vocal cords
المجرى الصوتي	Vocal tract

العصور . المجلد السادس، الجزء الثاني، ٤٠٥ ـ ٤٠٨ (١٩٩١م)

حول نظرية جديدة لتفسير كيفية تخطيط قبة الصخرة

للدكتور **محمد عبد الستار عثمان**
تعليق الدكتور **عبد الرحمن فهمي محمد**

لعل أشهر ما عرف في الإسلام من عمائر أقيمت فوقها قبة، بل أهمها على الاطلاق، مبنى قبة الصخرة أول صرح معماري أقامه عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) سنة ٧٢هـ ، وقد ظلت هذه القبة التي عرج من فوق صخرتها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سدرة المنتهى بعد أن أسري به من المسجد الحرام بمكة المكرمة، ظلت قبة الصخرة مدة طويلة تدعى خطأ بجامع عمر ، غير أن الأبحاث التي أجريت حول تخطيطها ونقوشها والدلالات الرمزية التي تشير اليها زخارفها الفسيفسائية تثبت استحالة ارتباطها ببناء جامع وذلك لأن مسقطها الأفقي المثمن الشكل يجعل من الصعب التعرف على اتجاه القبلة مباشرة وهو شرط أساس في عمارة المسجد.

وقد حظيت قبة الصخرة من المؤرخين والرحالة والأثاريين ـ القدامى منهم والمحدثين ـ بالعديد من الأبحاث التي تضمن بعضها كتبا مستقلة مثل مؤلف رتشموند (Richmond) [١] أو تضمن بعضها الآخر كتب العمارة أو الدوريات كما فعل ماوس (Mauss) [٢] وكريسويل (Creswell) [٣] والدكتور أحمد فكرى[٤] وغيرهم، وجميل جداً أن يطلع علينا في مجلة « العصور » في عددها الثاني من المجلد الثالث الزميل الدكتور محمد عبد الستار عثمان بمناقشة وتحليل وتفسير النظريات العلمية لكل من (Mauss) والدكتور أحمد فكري عن تخطيط قبة الصخرة ليصل في النهاية إلى رأي يعززه بنظرية جديدة في تخطيط هذه القبة أطلق عليها «نظرية التثمين بضرب الخيط» وهي نظرية تستمد فكرتها ـ على حد قوله ـ من معطيات تاريخية أثرية وهندسية ووثائقية.

وللوقوف على هذه النظرية المهمة يحسن أن نشير إجمالا إلى النظريات السابقة عليه للوقوف على مدى ما يطابق واقع التخطيط لقبة الصخرة من هذه النظريات الثلاث.

نلاحظ منذ البداية أن الدكتور محمد عبد الستار حين يعرض لنظريته يتحاشى البحث في أسباب بناء القبة كما يبتعد عن فكرة تأصيل عناصرها المعمارية والزخرفية وتحليلها تحليلا فنيا وأثريا لأن ذلك قد يبتعد به عن نطاق البحث في نظريات التخطيط التي يريد أن يناقشها. أما النظرية الأولى وهي نظرية ماوس (Mauss) فهي نظرية تعتمد أساسا على الدوائر من الدائرة المركزية بالداخل حتى الدائرة الخارجية التي رسم على أساسها الجدار الخارجي المثمن وقد قبل معظم المستشرقين والعرب نظرية ماوس في تفسير هذا التخطيط الذي تأسس على الدوائر فيما عدا الدكتور أحمد فكري ـ يرحمه الله ـ الذي رفضها شكلا وموضوعا بينما قبلها ريتشموند وكريسويل بعد اقتراح تعديلات عليها. وقد قام اعتراض الدكتور فكري على نظرية ماوس على أساس أنها تستند إلى تفكيره بعقلية حديثة لا بعقلية العصر الذي أقيمت فيه القبة أي أن مهندس قبة الصخرة بناء على نظرية ماوس كان لديه من الأدوات الهندسية ما يحقق له

(١) E. T. Richmond. *The Dome of the Rock in Jerusalem* (Clasendon Press.)

(٢) C. Mauss "Note sur la methode employee ou tracer la plan de la mosque d' Omar." Revue Ancheologique 3 serie tome XII, 188 3 seine . tome XIV. 1889.

(٣) Creswell. *Early Muslem Architecture*. Vol. I (Oxford. 1932)

(٤) أحمد فكري، «قبة الصخرة.» **مجلة عالم الفكر** ، الكويت (١٩٨٠) المجلد ١١ العدد ١.

القياسات الدقيقة على الورق لإنتاج رسم كالذي جاء به ماوس في نظريته وهو أمر لم يكن ميسوراً وقتئذ.

ومن هذا المنطلق أورد الدكتور فكري اعتراضات ستة على نظرية ماوس ذكرها الدكتور محمد عبد الستار في بحثه بعد أن اقتنع بها تمام الاقتناع وخاصة الاعتراض الثاني الخاص برسم المضلع المثمن على محيط الدائرة الذي جاء محصورا في محيط الدائرة وليس حاصرا له مما جعل اتساع الرواقين بقبة الصخرة مختلفين كنتيجة حتمية لطريقة رسم محيط الدائرة الخارجية، وقد علق الدكتور عبد الستار على ذلك بقوله: أن هذا الانتقاد يكفي لإسقاط نظرية ماوس لأن مقاييس الرسم في هذه النظرية لا تتفق وواقع مقاييس تخطيط قبة الصخرة. ولكن الباحث هنا بحق لم يكتف بإيراد النقد الذى جاء به الدكتور «فكري» «لماوس» دون أن يكون له رأي واضح إذ أنه لم يوافق مثلا على اعتراض الدكتور فكري على ماوس في مسألة صعوبة رسم الدائرتين وهما الدائرة الداخلية حول الصخرة والدائرة الخارجية للمثمن الخارجي من المركز الوهمي على الصخرة نفسها وردّ الباحث على ذلك بأنه لاصعوبة في ذلك لا سيما وأن ارتفاع الصخرة عن مستوى سطح الأرض لا يزيد عن متر ونصف المتر كما وأن تحديد هذا المركز يمكن أن يتم بقياس طول الصخرة وتنصيفه في نقطة ثم قياس العرض وتنصيفه في نقطة تكون هي النقطة المركزية للصخرة فيسهل بذلك رسم الدائرتين عن طريق الدوران بالخيط.

ومن بين الانتقادات التي أوردها الدكتور فكري ووافق عليها الدكتور عبد الستار لنظرية ماوس هو استخدام المهندس في نظرية «ماوس» لأربع عمليات هندسية غير مرتبطة، من رسم دوائر، إلى رسم مربعات، إلى رسم مثلثات ومضلعات، إلى رسم خطوط متوازية. وهذه العمليات المختلفة تعني أن التخطيط الذي يراه «ماوس» لا ينبع من فكرة هندسية واحدة مع أن جوهر تخطيط قبة الصخرة كمايقرره المهندسون وعلماء الآثار هو ارتباط جميع أجزاء التخطيط ارتباطاً وثيقاً، كما وأن نظرية «ماوس» يغلب عليها رسم الشكل الدائري في حين أن الغالب على شكل قبة الصخرة هو الشكل المثمن.

أما الانتقاد الأخير الذي يتفق فيه الباحث مع الدكتور فكري لنظرية «ماوس» هو أنها نظرية لا تتضمن إشارة إلى تحديد اتجاه القبلة بالرغم من أن هذا التحديد يوجه التخطيط كله توجيها محددا، وذلك لأن «ماوس» تشبع بفكرة التخطيط القائم على رسم دائرتين واحدة داخلية وأخرى خارجية تأسيا بمهندس قبة الصخرة بتخطيط المعابد الإغريقية والرومانية القديمة وخاصة كنيسة القيامة في القدس التي ترجع إلى القرن الرابع الميلادي وهذا مالم يوافق عليه الدكتور عبد الستار ومن سبقه من علماء الآثار الإسلامية لأن تخطيط كنيسة القيامة لا يطابق واقع تخطيط قبة الصخرة بحال.

هذا عن نظرية ماوس أما عن نظرية الدكتور فكري فهي تعتمد على رسم المربعات التي يتداخل بعضها مع بعض من داخل التخطيط حتى خارجه أي من المربع الذي تنحصر فيه قبة الصخرة كمربع مركزي حتى مربع المثمن الخارجي مع مد خطوط من نقاط تلاقي المربعات ومن أضلاع المربعات كذلك لتشكيل نجوم مثمنة تتساوى أطرافها وأبعادها لتحديد مواقع الأعمدة والدعامات كأساس لتحديد ثمانية وأربعين موضعا من مواضع الارتكاز في البناء كتفسير هندسي لتخطيط قبة الصخرة دون استعمال الفرجار لرسم دوائر أو خطوط متوازية لتقسيم المسافات بينها كما يلاحظ في نظرية «ماوس».

وما أروع تعليق الدكتور عبد الستار على نظرية الدكتور فكري في تساؤله ببساطة: كيف يستطيع مهندس قبة الصخرة رسم أربعة مربعات متساوية الأضلاع متداخلة الرؤوس الست عشرة على مسافات متساوية بدون أن يستخدم مركزا وهميا على الصخرة لرسم دائرة ينقسم محيطها إلى ستة عشر قسما ليسهل رسم المربعات المطلوبة ؟

لا شك أن النقد الذي وجهه الدكتور فكري لماوس من حيث رسم الداوائر وفق تحديد مركز وهمي على

الصخرة يجعل من الصعب تنفيذ التخطيط الذي تخيله ماوس على الواقع ولكن الدكتور فكري ـ كما يقول الدكتور عبد الستار ـ جاء «بنظريته وتخطيطها أعقد وأصعب تنفيذا من نظرية ماوس»، وقد فنّد الباحث هذا التعقيد وتلك الصعوبة تفنيداً علميا لا لبس فيه ولا غموض بعد أن ناقش النظريتين نظرية ماوس وفكري المفتعلتين واللتين لا تتفقان مع الواقع المعماري عند التنفيذ وكأنهما نظريتين وجدتا ليرسما على الورق وحسب.

والواقع أن هذا هو المنطلق كما نعتقد الذي دفع الدكتور عبد الستار إلى التفكير في أساس التخطيط لقبة الصخرة الذي يربط بين الرسم والتنفيذ في الموقع فكانت نظريته الجديدة «التثمين بضرب الخيط» وفق المعطيات التاريخية والأثرية والهندسية والوثائقية.

وابتدأ بالمعطيات التاريخية الأثرية فاقتبس ما جاءت به المصادر العربية من وصف قبة الصخرة وصفا معماريا يتضمن مصطلحات ترتبط بالشكل العام للتخطيط المثمن مشيرا إلى وصف القزويني للقبة في كتابة «آثار البلاد وأخبار العباد» ومستفيدا من تقدم العرب في مجال الهندسة كما قرره الخوارزمي عالم الرياضيات في نهاية القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث الهجري وهو تقدم ساعد مهندس الصخرة على توظيف النظريات الهندسية لخدمة عمارتها، وقد كان الباحث مبدعا في تفسير المعاني الفلسفية الرمزية للشكل الثماني الذي جاء تخطيط القبة على أساسه فربط بين هذا الشكل وبين الكتابات الأثرية في التثمين الداخلي بقبة الصخرة والتي ينصب معظمها على عقيدة التوحيد التي هي جوهر الإسلام وبين المناخ الديني في عصر إنشاء قبة الصخرة. وبعد المعطيات التاريخية الآثرية تناول الباحث المعطيات الهندسية كعنصر رئيس من عناصر نظريته الجديدة وتزود هذه المعطيات النظرية بإحصاء لنقاط الارتكاز في مخطط قبة الصخرة، كما وأن المحاور المستقيمة التي تمتد الى الجدران الخارجية لقبة الصخرة تمر جميعها بنقطة مركزية ، تتوسط الصخرة المقدسة أربعة من هذه المحاور تشكل محاور الأبواب والنوافذ السفلية المحورية في الجدران الخارجية للقبة مما يثبت أن تخطيط هذه الأبواب والنوافذ مرتبط في عملية هندسية واحدة بتخطيط نقاط الارتكاز وهو أمر لم يشر إليه كل من ماوس وفكري ويخلص الباحث من تفنيد المعطيات الهندسية الى أن تخطيط قبة الصخرة عبارة عن ثمانية مثلثات متقابلة الرؤوس وزاوية الرأس في كل منها ٤٥°، وكل مثلث ينقسم إلى ثلاثة مثلثات بواسطة ضلعين يسقطان من الرأس ويقسمان القاعدة إلى ثلاثة أقسام، ثم ينقسم مرة أخرى إلى مثلثين متساويين بواسطة ضلع ثالث يسقط من الرأس ويقسم القاعدة إلى قسمين، وبناء على تساوي الزوايا المحصورة بين الضلوع أي ٤٥° لكل منها فإن معنى ذلك أن تكوين أي مثلث من المثلثات الثمانية يتكرر ثماني مرات بقياس الزوايا من هذا المثلث وهو أسلوب مشابه للطريقة الهندسية التي تتبع في رسم التصميمات الزخرفية الهندسية المنتظمة والتي تشع من مركز واحد وهي الطريقة التي أطلق عليها في المصطلح الوثائقي «طريقة ضرب الخيط» وهو ما أوضحه الباحث في المعطيات الوثائقية وخاصة وثائق العصرين المملوكي والعثماني التي استخدم فيها الموثقون هذا المصطلح عند توصيف الزخارف أو التقاسيم الهندسية مختلفة الأشكال التي تعمل بواسطة الخيط من مراكز مختلفة سواً أكانت تكوينات نجمية أم أشكال هندسية خماسية أم سداسية أم سباعية أم مثمنة، وهو مصطلح يعني هنا ذلك الشكل الهندسي الذي يتكون من عنصر يتكرر بنظام معين بحيث تنبثق العناصر المكونة لوحدة الزخرفية من مركز واحد، وهو المعنى الذي وظّفه الباحث توظيفاً دقيقا في وضع نظريته الجديدة لتفسير تخطيط قبة الصخرة وأوضح أنها طريقة تتميز ببساطتها وسهولة تنفيذها واتفاقها والخبرة الهندسية والحسابية في العصر الأموي بحيث لا تستخدم سوى الزاوية والمسطرة عند تصميم الرسم على الورق والزاوية والخيط عند التنفيذ، ووثق نظريته في بحثه بأشكال هندسية حدد ارقامها من ١٥ ـ ٢٣ في الصفحات ٢٦٠ إلى ٢٦٤ من مجلة «العصور» ليوضح بها خطوات التخطيط التنفيذي وفق النظرية

الجديدة التي جاء بها بدءا من تحديد النقطة المركزية التي تتوسط الصخرة ثم تحديد اتجاه القبلة في نقطة معينة تبعد عن النقطة المركزية بمقدار ٢٥ متراً تقريباً ثم تمتد الخيوط من النقطة المركزية الى نقطة اتجاه القبلة وهكذا يسير مع امتداد الخيوط من نقطة إلى أخرى مع قياس الزوايا وتنصيفها بالخيوط حتى يشكل أضلاع المثمن الداخلي والخارجي وتحديد محاور الأبواب الأربعة في الأضلاع المواجهة للجهات الأصلية الأربع والنوافذ السفلية الأربع في الجهات الأربع الأخرى. ومن هذا المنطلق استطاع مهندس قبة الصخرة أن يستخدم طريقة «ضرب الخيط» في عمل المساقط الأفقية التي أعانته على تنفيذ الرسم في الموقع على هيئة مثمن، وقد تحايل المهندس في وضع الدعامات والأعمدة بجعلها ماسة بخيوط الضرب بحيث نجح في عدم حجب الأعمدة والدعامات بعضها عن البعض الآخر ورغم أن الباحث بعد أن شرح نظريته الجديدة لتفسير كيفية تخطيط قبة الصخرة قد جاء بمميزات هذه النظرية إلا أن الباحث المدقق في نظرية ماوس ونظرية فكري يلمس مدى الافتعال في عناصر النظريتين مع الخلاف بين واقع تخطيط القبة وما جاء به أصحاب النظريتين من تعقيد واضح في رسم المخططات بينما جاءت نظرية الدكتور عبد الستار متفقة تماما مع واقع الأثر معماريا وهندسيا ولعل ما جاء به من توثيق عن طريق شرح المعطيات التاريخية والأثرية والهندسية والوثائقية خير دليل على صدق نظريته مع بساطتها في رسم الأشكال المتعددة وهو ما أثبته الموثقون في حجج الوقف عند وضع التكوينات الزخرفية والمعمارية التي يتم تنفيذها بطريقة «ضرب الخيط» ولا يسعنى في ختام القول إلا أن أهنىء الدكتور عبد الستار على نظريته الجديدة الواقعية وأسأل الله أن ينفع به الاسلام والمسلمين وبالله التوفيق.

العصور . المجلد السادس، الجزء الثاني، ٤٠٩ ـ ٤٢٤ (١٩٩١م)

تحقيق كتاب
شذور العقود في ذكر النقود
للمقريزي

نظرة ناقدة للدكتور رأفت محمد محمد النبراوي

نال كتاب «شذور العقود في ذكر النقود» للمقريزي اهتمام العديد من الباحثين الأجانب والعرب منذ العقد الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي. وهؤلاء الباحثون هم تيشن Tychsen ١٧٩٧م، وفارس الشدياق ١٨٨١م، وماير Mayer ١٩٣٣م، ومحمد صادق بحر العلوم ١٩٣٨م، والأب انستاس ماري الكرملي ١٩٣٩م، ومحمد السيد علي بحر العلوم ١٩٦٧م، ودانيل اوستاش Daniel Eustache ١٩٦٩م، ورأفت محمد محمد النبراوي ١٩٨٨م.

وفي سنة ١٩٩٠م صدرت بالقاهرة نشرة جديدة لهذا الكتاب تحتوي على تقديم فيه انحراف عن المألوف[1] اعتمد فيها المحقق على نسختين من الكتاب محفوظتين بمكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، الأولى تحت رقم ٢١٧٠، والأخيرة نسخة مصورة رقم فلمها ف ٣٦٩/ ٥ قسم المخطوطات ورقم تصنيفها هو ٩٦٢,٦ ش.م واتخذها المحقق اصلاً للنشر ورمز إليها بالحرف «أ» واعتقد المحقق، ومعه كاتب التقديم انهما اكتشفا شيئا جديداً. وقد جذبت هذه النشرة الأخيرة انتباهي لعدة اسباب:

أولاً : إن هذه النشرة مليئة بالأوهام وغارقة في الأخطاء العلمية والمنهجية، والتاريخية، وأخطاء كثيرة في قراءة متن النسخة «أ»، والعديد من الكلمات الساقطة من المحقق وغيرها من الأخطاء بلغت ما يزيد على المائة.

ثانيا : إن المحقق استأثر لنفسه بنتائج وتصحيحات ودراسات يعتقد ـ هو وكاتب التقديم ـ أنها جديدة بينما خلصت إليها تحقيقات ودراسات سابقة للكتاب نفسه.

ثالثا : يبدو واضحا أن كلاً من كاتب التقديم والمحقق لم يدركا أو تجاهلا أن أصل النسخة «أ» سبق تحقيقه على يد دانيل اوستاش ١٩٦٩م[2] وغيره، وقد سبقهما إلى امور وجوانب نسبها المحقق لنفسه، وتبعه في ذلك وأيده كاتب التقديم.!!

رابعا :إن تلك الطبعة الأخيرة لم تضف جديداً إلى ما سبقها من تحقيقات للكتاب نفسه مع أن هناك بعض الأمور الجوهرية لم يتطرق إليها هذا التحقيق الأخير.

خامساً : إن المحقق يميل إلى الكم لا الكيف كما سيتضح في هذه المراجعة.

سادساً : إن التقديم لهذه النشرة غير موضوعي لأن فيه انحرافا عن المألوف في اتباع المنهج السليم عند تعرضه لتحقيق ١٩٨٨م لدوافع شخصية، في حين كان مجاملاً ـ بغير وجه حق ـ إلى أبعد الحدود لمحقق الطبعة التي يقدم لها وبدأ الأمر واضحاً أن الهدف الأساسي من ذلك التحقيق هو التشكيك في التحقيق ماقبل الأخير والتعريض بالمحقق.

فبعد أن اطلعت على التحقيق الأخير لعبد الستار، وادركت الهدف الأساسي من ورائه، توجهت إلى مكتبة

(١) شذور العقود في ذكر النقود للمقريزي. دراسة وتحقيق محمد عبد الستار عثمان، ط١ (القاهرة: مطبعة الأمانة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م). قدم لهذا التحقيق د. عبد الرحمن فهمي محمد.

(٢) Daniel Eustache, les periles des Colliers Ou Traite des Monnaies. "Etudes de Numismatique et de Metiologie Musulmanes", *Hespéris TAMUDA*, Vol.X - Fase 1-2 Rabat, 1969.

جامعة الملك سعود، وحصلت على صورة من النسخة «أ». وعندما قمت بعمل مطابقة بين قراءة عبدالستار لكتاباتها وبين متن تلك الطبعة الأخيرة وجدت اختلافا كبيرا بينهما ويبدو هذا الاختلاف في كلمات كثيرة قرأها المحقق خطأ، وكلمات ساقطة من عبد الستار يبلغ مجموعها أكثر من مائة خطأ. لذلك فكرت في الحصول على نسخة من أصل النسخة «أ» الموجود في ليدن على حد قول المحقق الذي لم يحدد اسم المكتبة أو الجهة الموجود بها أصل النسخة المذكورة بليدن. وقمت بالاتصال بالملحق الثقافي الهولندي بالرياض واعطاني مشكورا أسماء مكتبات ليدن وعناوينها، فاتصلت بها جميعا. ومن حسن حظي وسوء حظ المحقق، جاءني الرد من مكتبة جامعة ليدن ومعه نسخة واضحة من تلك المخطوطة المحفوظة لديها تحت رقم Leiden Ms or 560 (.2) وهي نسخة من أصل كتاب شذور العقود للمقريزي. فقمت مرة أخرى بالمقارنة والمطابقة بين متن نسخة ليدن وبين قراءة المحقق لكتابات النسخة «أ» المدونة بنشرته، وتأكدت من وقوع المحقق في الأخطاء المشار إليها. كما تأكدت أيضا من أنها هي النسخة نفسها التي نشرها «اوستاش» الذي وقع هو الآخر في بعض الأخطاء.

تقع هذه الطبعة الأخيرة في ١٨٧ صفحة يبلغ نصيب تحقيق متن الكتاب منها نحو ستين صفحة، والباقي موزع بين واضيع معظمها تكرار لما سبقه، وبعضها حشو لا لزوم له، والبعض الآخر ما بين أسماء مراجع وتقديم ومقدمة، فتحقيق متن الكتاب احتل أقل من ثلث حجم العمل.

تبدأ طبعة عبد الستار بتقديم غير موفق بعيد عن الموضوعية ـ كما سنرى ـ يليه مقدمة المحقق التي يوضح فيها المنهج الذي سار عليه، ثم يتناول ترجمة للمؤلف المقريزي ومؤلفاته، وعلاقته بالسلطة، وتاريخ تأليفه لشذور العقود، وعلاقة هذا الكتاب بغيره من مؤلفات المقريزي كالخطط، وإغاثة الأمة، وكذلك علاقته بكتاب النقود والمكاييل والموازين للمناوي، يليه عنوان الكتاب، وخطة الكتاب ومضمونه، وتحقيق حسابي لما ذكره المقريزي من نصوص عن عيار السكة ودرهم الكيل، وإقرار الرسول صلى الله عليه وسلم لميزان مكة وتحديد نسبة الزكاة، والوزن في عهد معاوية وفي عهد عبد الملك، وتحقيق الرطل والمد والصاع في ضوء نصوص المقريزي، وتحقيق نصاب الزكاة في الدرهم وفق الدرهم الشرعي، وتحقيق وزن المثقال الشامي. ثم يتحدث عن دراهم السفاح، والمنصور، وتحقيق عيار المهدي والرشيد، ودراهم الملك الكامل والظاهر بيبرس، وصراع الأمين والمأمون وانعكاساته على السكة، وعيار الدراهم العباسية، وتاريخ نهر معقل، والمقريزي وسيرة الملك المؤيد شيخ. وبعد ذلك يتناول تحقيق نصوص النسخة «أ» يلى ذلك ملحق «١» الخاص بالمصطلحات وأخيراً كشف المصادر والمراجع وفهرس الكتاب.

وكما سبق أن ذكرت أن هذا العمل الأخير غارق في الأوهام والأخطاء العلمية والمنهجية والتاريخية وغيرها. وسوف نتناول تلك الأخطاء على الوجه التالي:

أولا : الأخطاء العلمية

١ ــ يذكر المحقق في ص ١٥ أن «النسخة التي صححها المقريزي نفسه تتميز بالأصالة والكمال والبعد عن التحريف والتصحيف والإضافة والتعديل والسقط الذي حدث في معظم النسخ الأخرى، وهو ما أوجب عليَّ القيام بإعداد هذا التحقيق مشفوعاً بدراسة لبعض الجوانب الواردة في هذا الكتاب». لاشك في أن الكمال لله وحده، وأن النسخة التي ينشرها عبد الستار هي صورة من النسخة الأصلية المحفوظة بمكتبة جامعة ليدن، وأن النص الذي قرأه المحقق واورده لنا في طبعته يتناقض مع هذا الكلام تماماً ففيه الكثير من الكلمات التي قرأها المحقق خطأً وأكثر من عشرين كلمة سقطت من متن النسخة «أ» بالإضافة إلى ما في النسخة أصلاً من أخطاء تاريخية ونحوية وغيرها. ومن ناحية أخرى وجدت بعد استعراضى لما جاء في ذلك التحقيق الأخير أن الجوانب التي تناولها

المحقق سبق دراستها وتناولها من قبل، ومنها على سبيل المثال «تاريخ الانتهاء من تأليف الكتاب». وقد انتهى المحقق إلى أنه تم في عهد السلطان المؤيد شيخ، الأمر الذي سبقته إليه في تحقيق المنشور ١٩٨٨م.[٣] وقد لجأت فيه إلى الاختصار حتى اتمكن من نشره في مجلة علمية متخصصة ومحكمة كالعصور. أما بالنسبة للتحقيق الحسابي فقد سبقه في ذلك «دانيل أوستاش». كما أن صراع الأمين والمأمون وانعكاساته على السكة فقد سبقه في ذلك أحد المتخصصين العرب[٤]، ولكن يبدو أن المحقق لم يدركه أو تجاهله فرغم انه توصل إلى ذلك في ضوء ما توافر له من معلومات فظن انها جوانب هو أول من قام بدراستها، وهو نوع من الأوهام التي جاءت في هذا التحقيق. وقد نلمس له العذر في ذلك لأنه غير متخصص في هذا الجانب من الدراسات الآثارية الإسلامية. ولو كان المحقق متخصصاً حقاً لتعرض للجوانب الحقيقية التي لم تدرس في هذا الكتاب من قبل كتحقيق ما أورده المقريزي في كتابه عن نصوص الدنانير الفاطمية وهي نصوص ناقصة مليئة بالأخطاء. فلو كان متخصصا حقاً لأدرك تلك الأخطاء وحققها؛ وصححها في ضوء نصوص تلك الدنانير التي تمتلئ بها المتاحف العالمية ودور الكتب والمجوعات الخاصة وغيرها ككتلوجات السكة الإسلامية.

٢ ــ من الأخطاء العلمية ماجاء في ص ٨٤ تحت عنوان «تحقيق عيار المهدى والرشيد» حيث قال المحقق إن المقريزي يذكر أنه «لم يكن لموسى الهادي سكة تعرف به». ويعلق على ذلك الدكتور عبد الستار بقوله «وهو أمر يجانبه الصواب، سيما وانه قد كشف عن بعض الدنانير التي ضربها الهادى» ويميل إلى الحاشية رقم ٢ من الصفحة نفسها إلى المراجع التي اعتمد عليها فيما ذكره. وهذا يوضح أن المحقق يؤيد ماذكره المقريزي أولًا ثم يعود فيأتي بما يعارض كلام المقريزي ورغم أن هذا يمثل تناقضا بين كلام المحقق نفسه، إلا أنه في الوقت نفسه يعد خطأ علميا لأن نصوص الدنانير العباسية لم تتضمن أسماء أفراد منذ قيام الدولة سنة ١٣٢هـ وحتى نهاية فترة حكم الخليفة الهادى سنة ١٧٠هـ. والمعروف أن الهادى بن المهدي تولى الخلافة في الفترة من ٢٢ المحرم سنة ١٦٩هـ وحتى ربيع الأول سنة ١٧٠هـ كذلك فإن الدنانير لم يكن يسجل عليها اسم اليوم أو الشهر الذي ضربت فيه، بل كان ينقش عليها ذكر السنة فقط، ولذلك فإن الدنانير التي تحمل سنة ١٦٩هـ لا تحمل من النصوص ما يساعد أي باحث في تأكيد نسبتها إلى الهادي أو إلى والده المهدي. كما أن الدنانير التي تحمل تاريخ سنة ١٧٠هـ لا يجوز أن تنسب إلى الهادى أو إلى أو أخيه هارون الرشيد إلا إذا وردت ضمن نصوصها أسماء تؤكد نسبتها إلى الرشيد، لذلك درج الباحثون في علم النميات على نسبة الدنانير العباسية التي تحمل تاريخ ١٦٩هـ إلى المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ) أو الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠هـ)، وكذلك الدنانير التي ضربت سنة ١٧٠هـ إلى الهادى أو الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣)[٥] لا إذا كانت تحمل اسم الرشيد وأن الجزم بنسبة الدنانير التي تحمل تاريخ سنة ١٦٩هـ وسنة ١٧٠هـ إلى الهادى ـ كما في تحقيق ١٩٩٠م الأخير ـ يعد خطأ علمياً لعدم وجود الدليل على إرجاعها إلى موسى الهادى لوجود الأسماء وغيرها، وكذلك

(٣) رافت محمد النبراوي «النقود القديمة والإسلامية للمقريزي». **مجلة العصور**، مجلد ٣، جـ١، دار المريخ للنشر. الرياض. يناير ١٩٨٨م، ص١١٩.

(٤) عبد الرحمن فهمي محمد، **موسوعة النقود العربية وعلم النميات** (القاهرة، ١٩٦٥م)، ص ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٥) محمد ابو الفرج العش، **النقود العربية الإسلامية بمتحف قطر الوطني** (الدوحة، ١٩٨٤م)، ص ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥، ارقام ١٧٠٣ ـ ١٧٠٧.

لعدم المقدرة على التمييز بينها وبين دنانير والده أو دنانير شقيقه. ويتمثل الخطأ هنا في نسبة دنانير معينة إلى موسى الهادى. ورغم ذلك فمن المؤكد أن الهادى ضرب الدراهم خلال فترة حكمه بدور سك متعددة كأران وأفريقية، وكرمان، والعباسية والمحمدية، وجى، ومدينة السلام، والهرونية وغيرها، وتلك الدراهم كانت تحمل اسمه. وبخصوص المراجع التي أشار اليها المحقق في هامش ٢ من الصفحة نفسها. فقد وردت بيانات المرجع الأجنبي خطأ أما المرجع العربي، فلم نجد به في ص ٣٧ التي أحلنا إليها المحقق أي ذكر عن دنانيرالهادي، وأن ما جاء بالصفحة المشار اليها، خاص بالسكة العباسية حتى عهد المهدي فقط، وأن الإشارة الوحيدة في هذا المرجع عن سكة الهادي وردت في ص ٣٩ ونصها: «ولقد تركت فترة حكم الهادي القصيرة التي لم تزد عن أربعة عشر شهراً آثار طفيفة على العملات» كما أن مؤلف الكتاب نفسه الذي يتناول فيه النقود الذهبية فقط، لم ينشر دنانير تحمل تواريخ سك سنة ١٦٩هـ، سنة ١٧٠هـ[٦]. كما أن في العنوان هنا خطأ في الصياغة والأسلوب ومن الناحية العلمية. فالمهدي أو الرشيد ليس لهما عيار. والصحيح من حيث الصياغة فقط هو «تحقيق عيار سكة المهدي والرشيد» وهو في الوقت نفسه يغفل اسم الهادي إلا أنه يتحدث عن سكته تحت العنوان المذكور أما العنوان الصحيح من حيث الصياغة والناحية العلمية فيجب أن يكون «تحقيق وزن سكة المهدى والرشيد» لأن المقريزي يقصد هنا بالوزن وليس بالعيار بمفهومه الحالي، وهذا الخطأ العلمي يجرنا إلى الحديث عن موضوع آخر.

٣ ــ يخلط المحقق بين الوزن والعيار بمفهومهما الحالي ولا يفرق بينهما، ويعد الاثنين شيئاً واحداً كما ورد في ص ٨٤ تحت عنوان «تحقيق عيار المهدى والرشيد» إذ نجد المحقق يتحدث بعد ذلك عن الوزن وليس العيار، ويؤكد ذلك الكلمة الأخيرة من السطر رقم ٢٢ ص ٨ بالنسخة «أ» التي توضح أن الكلام عن الوزن. هذا ولم يوضح لنا المحقق ما المقصود بالوزن أو العيار في تلك الفترة وما الفرق بينهما. فلا شك أن الخلط بينهما يعد خطأ علمياً واضحاً لأن هناك فرقاً واضحاً بينهما في وقتنا الحاضر. وقد تكرر الخطأ نفسه في ص ٩٤ ـ ٩٥ هامش رقم ٢ بالتحقيق الأخير.

٤ ــ قسم المحقق ما جاء في الهامش إلى هوامش تفسيرية وهوامش تصحيحية وأثبت بعض الهوامش التي اعتبرها تصحيحية بالمتن أما الهوامش التي اعتبرها تفسيرية فأثبتها في هوامش تحقيقية ولم يتضمنها المتن، وهو خطأ علمي لأن المقريزي عندما أشرف بنفسه على مراجعة كتابه في رمضان ٨٤١هـ أضاف هو بقلم الناسخ بعض الكلمات أو العبارات الساقطة من النص في هوامش الكتاب، ووضع علامة تشير إلى المكان الذي حدث فيه السقوط والواجب الإضافة بعده، والدليل على ذلك الهامش الأيمن في أعلى الصفحة الثانية من النسخة «أ» الذي اعتبره المحقق هامشاً تفسيرياً ولم يثبته في المتن بل ضمنه هامش التحقيق (ص ١٠٤ هامش ٥). وينتهي الهامش المذكور بعبارة «إعلم أن» وفي المتن بعد العلامة كلمة «النقود» وهو أكبر دليل على أنه ليس هامشاً تفسيرياً ولكنه مُكمل للمتن كما قصد المقريزي، ولو أن المقريزي قصد أن يكون هامشاً تفسيرياً كما زعم عبد الستار لما وضع عبارة «إعلم أن» التي قصد بها المقريزي أن يأتي بعدها كلام. وبوضع هذا الهامش في المتن يستقيم المعنى. أما وضعه في الحاشية فهو الخطأ بعينه. كما أن كلمة تصحيحية معناها أن المتن ورد به أخطاء وأن

(٦) وليم قازان، المسكوكات الإسلامية (بيروت، ١٩٨٣م)، ص ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

الكلمات أو العبارات الموجودة بالهامش هي تصحيح لتلك الأخطاء وهو مالم يذكره المؤلف نفسه أو يحدث أصلاً في النسخة «أ» أو في أصلها المحفوظ بليدن وإنما هي إضافات لاغير.

ولكن يبدو أن المحقق ما زال ملتزما بالقول الذي يردده دائماً وهو بالضد تتميز الأشياء، فهو يصر على إيراد عكس المعتاد ليصبح عمله مميزاً. فالهوامش التفسيرية كلام غير صحيح وخطأ علمي واضح لأن المقريزي لو أراد ـ كما زعم المحقق ـ أن يكون الهامش تفسيريا لوضع علامة مختلفة عن تلك التي اعتبرها المحقق هوامش تصحيحية ولكن العلامة الموضوعة في الكتاب كله واحدة مما يؤيد ما ذكرناه سابقاً من أن ماجاء بالهوامش إضافات مكملة للنص كانت ناقصة أضيفت عند مراجعة الكتاب سنة ٨٤١هـ.

٥ ـ ذكر المحقق (ص ٢٣) أن رقم النسخة المصورة التي رمز إليها بحرف «أ» بمكتبة جامعة الملك سعود هو ٦ر٢٩٦م. ش.م قسم المخطوطات. والصحيح أنه ٦ر٢٦٩ ش.م وهو رقم التصنيف .أما رقم الفلم وهو الأهم والذي لم يذكره المحقق في عمله المتواضع فهو ف٣٦٩/٥ قسم المخطوطات.

٦ ـ جاء الخطأ في ص ٢٧ تحت رقم (١) أن اسم الكتاب الذي صنفه المقريزي هو: «السلوك في [illegible]

٩ ـ جاء خطأ في ص ٢٧ تحت رقم (٥) أن اسم كتاب آخر له هو: «البيان والإعراب عما بمصر من الأعراب» والصحيح هو: «البيان والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب».

١٠ ـ ورد خطأ في ص ٢٧ تحت رقم (٦) أن اسم كتاب آخر له هو: «المقفى» أو «التاريخ الكبير» والصحيح هو: كتاب «التاريخ الكبير المقفى».

١١ ـ كتب خط في ٢٧ تحت رقم (٩) أن اسم كتاب آخر له هو: «الإلمام في من تأخر بأرض الحبشة من ملوك الإسلام». والصحيح هو: «الإلمام فيمن تأخر بأرض الحبشة من ملوك الإسلام».

١٢ ـ سُجل خطأ في ص ٢٧ تحت رقم (١٦) ان اسم كتاب آخر له هو: «ذكر ما ورد في بنيان الكعبة المعظمة». والصحيح: «الإشارة والكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام ومختصره»

١٣ ـ جاء خطأ في ص ٢٨ تحت رقم (٢٣) ان اسم كتاب آخر له هو: «امتاع الاسماع بما للرسل من الأنبياء والأحوال والحفدة والمتاع». والصحيح هو: «امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والأخوال والحفدة والمتاع»

١٤ ـ ورد خطأ في ص ٢٨ تحت رقم (٢٦) ان اسم كتاب آخر له هو: «كتاب في معرفة ما يجب لآل [illegible]

في معرفة الحال في الغناء».

١٧ ــ ورد في ص ١١ هامش (١)، ص ١٨٤ أن اسم المؤلف Tychen والصحيح: Tychsen

١٨ ــ سُجل في ص ٨٤ هامش (٢) بيانات المرجع الأجنبي خطأ بأنه مطبوع في American Research Center in Egypt والصحيح أنه مطبوع في مطابع انديدنا بولاية كاليفورنيا الأمريكية. وورد الخطأ نفسه في ص ١٨٤. كما وردت كلمة Weight ناقصة حرف (s)

١٩ ــ يذكر المحقق في هامش ٢ ص ص ٩٤ ـ ٩٥: «لوحظ أن وزن الدنانير العباسية التي عثر عليها ينقص بدرجة ملحوظة عن الوزن الشرعي ٤,٢٥جرام» ويعدد بعضا من تلك الدنانير وكأن كلامه هذا ينطبق على جميع الدنانير العباسية وغاب عن المحقق ان هناك دنانير عباسية يزن الواحد منها الوزن الشرعي المذكور وقد نُشر نماذج منها[7] بل إن هناك نماذج يزيد وزنها عن الوزن الشرعي المذكور.[8]

ثانيا الأخطاء المنهجية

١ ــ جاء في ص ٩ من التحقيق الأخير: «أن المحقق نشر الكتاب المخطوط نفسه ووفق منهج علمي سليم فلم يلجأ المحقق إلى إيراد المتن غير مصحح بل أورده مصححاً مع الإشارة للخلافات والأخطاء العلمية في حواشي المتن». وللأسف فإن المحقق لم يلتزم بهذا المنهج وأن هذا الكلام غير صحيح وينقصه الدقة لأن المحقق لم ينشر الكتاب المخطوط كما أن المتن الذي أورده المحقق نفسه به كثير من الأخطاء لم يصححها، منها على سبيل المثال لا الحصر: ما جاء في ص ٣ من النسخة «أ» (ص ١١٠ من التحقيق) «فلما كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة وهي السنة الثامنة من خلافته (يقصد عمر بن الخطاب) أتته الوفود منهم وفد البصرة». وهذا خطأ ومع ذلك فقد أورده المحقق في المتن كما هو (ص ١١٠) دون تصحيح واكتفى فقط بالإشارة في (هامش ٦ ص ١١٠) إلى بداية تولية عمر بن الخطاب للخلافة ١٣هـ وقد سبقته في الإشارة إلى ذلك الخطأ وصححته.[9] وهذا خطأ منهجي لأنه كان على المحقق حسب المنهج الذي ذكره (هامش ١، ص١٢) أن يوضح التصحيح في المتن ويشير إلى ذلك في الحاشية.

٢ ــ يذكر المحقق في ص ١٣ عن النسخة «أ» التي اتخذها أصلاً للنشر «وهذه النسخة مصورة عن نسخة منقولة عن صورة بالمتحف الفلسطيني في القدس عن أصل في ليدن، ومكتوبة بخط نسخ حسن، ويلاحظ أن الناسخ يعجم بعض الحروف ويترك بعضها الآخر دون إعجام، كما أنه شكل بعض الكلمات، ورسم بعض الكلمات وفق الرسم العثماني، واسقط الهمزات، واستخدم الياء بدلًا من الهمزة في بعض الكلمات.» وللأسف الشديد أن المحقق لم يعلق على ذلك في حواشي تحقيقه عند مقابلته حالة من تلك الحالات المذكورة وهذا يدل على عدم التزامه بالمنج الذي حدده لنفسه.

٣ ــ ويضيف المحقق في الفقرة المذكورة نفسها بقوله: «كما يلاحظ أن الناسخ عند مراجعة هذه النسخة على يد مؤلفها المقريزي أضاف واسقط منها، ووضح بعض الكلمات في الهامش ووضع إشارة على الكلمة المراد توضيحها أو الموضع الذي يحدد مكان

(٧) العش، ص ٢١٨، رقم ١٠٣٢، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ص ٢١٩: رقم ١٠٣٨: ص ٢٢٠ رقم ١٠٤٧: ص ٢٢١ رقم ١٠٥٢، ١٠٥٤: ص ٢٢٢ رقم ١٠٥٩، ١٠٦١، ١٠٦٣: ص ٢٢٣ رقم ١٠٦٩: ص ٢٢٥ رقم ١٠٧٨: ص٢٢٧ رقم ١٠٨١: ص ٢٢٩ رقم ١٠٩١: قازان، ص ٢١٦ رقم ٦١.

(٨) العش، ص ٢٢٥ رقم ١٠٧٧

(٩) المقريزي، *النقود القديمة الإسلامية*، تحقيق رأفت النبراوي، ص ١٢٣ هامش رقم ٤٢.

السقوط وقد ضمنت هذه التصحيحات متن هذه النسخة باعتبارها مكملة للنص الصحيح» وبهذا الخصوص أود أن أوضح الآتي:

أ) إن كلمة «مراجعة» جاءت على قراءة المحقق الخاطئة للكلمة التي توهم بأنها مكونة من حروف العين والتاء والهاء وهي «راجعته» (هامش ١١٨ ص ١٣) ولكن بعد الحصول على نسخة من المخطوط الأصلي المحفوظ بليدن أمكننا قراءة الكلمة قراءة صحيحة وهي «تم تتبعه» فلا يوجد في الكلمة حرف التاء بعد العين كما أوردها المحقق.

ب) ان وضع الإشارة على الكلمة والهدف منها تحديد مكان السقوط والواجب وضع الهامش بعده وليس للتوضيح.

ج) إن كلمة «التصحيحات» جاءت في غير موضعها لأن الكلمة، المناسبة هي «الإضافات» أو الكلمات الساقطة.

د) إن المحقق لم يتبع المنهج الذي أشار إليه فلم يتضمن المتن الذي أورده بتحقيقه بعض تلك الكلمات المسجلة بالهامش مثل كلمة «فارتضاه» (سطر ١ ص ١٠ النسخة «أ») بعد كلمة عنه وقبل كلمة «وأنا» وزعم المحقق أنها لم ترد في الأصل[١٠] ونسب الخطأ للنسخ جـ، و، هـ، رغم أنها وردت فيهم حيث ذكر أنها لم تسجل في النسخ المذكورة. وكذلك كلمة «على» (بالهامش الأيمن ص ١١ من النسخة «أ») وكلمة «الأمير» (في الهامش الأيمن بص ١٣ النسخة أ) وغيرها. وهذه أخطاء منهجية واضحة لأن المحقق لم يتبع المنهج الذي حدده لنفسه.

٤ ــ يذكر المحقق في ص ١٤ هامش (١) أنه قرأ كل الهوامش وأثبتها في التحقيق عدا الهامش الموجود بالجهة اليمنى من أعلى الصفحة رقم ٣ لطمس كلماته. ولكن المحقق لم يطبق هذا المنهج الذي حدده في تحقيقه فهناك بعض الهوامش أغفلها المحقق تماماً ولم يضمنها تحقيقه كالهامش الموجود بالجهة اليمنى من أسفل ص٣ وكذلك الهامش الموجود بالجهة اليسرى من الصفحة نفسها. كما أمكننا قراءة الهامش الذي عجز المحقق عن قراءته وهو: «رواية أبي عبيد، حدثه ابو.... عن حنظلة عن طاوس عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المكيالة مكيالة أهل المدينة والميزان ميزان مكة».

٥ ــ هناك تناقض في المعلومات بين ماجاء في المتن وبين ماورد في الحاشية فذكر المحقق في ص١٩: «وقال ابن تغري بردي إن مولده كان «بعد سنة ستين وسبعمائة بسنيات». ثم أشار إلى الحاشية رقم (٢) بالصفحة نفسها. وبالرجوع إلى الحاشية المذكورة التي يحيلنا إليها المحقق عن هذه المعلومات وجدنا أن كتاب ابن تغري بردي لم يُذكر ضمن الحاشية بل أورد المحقق مؤلفات أخرى كالخطط التوفيقية لعلى مبارك، وحسن المحاضرة للسيوطي. وبعد إطلاعنا على كتاب المنهل الصافي لابن تغري بردي (جـ١ ص ٣٩٤) تأكدنا أن العبارة التي ذكرها المحقق خطأ وأن العبارة الصحيحة هي: «بعد سنة ستين وسبعمائة بسنوات» وكان على المحقق أن يذكر لنا في الحاشية المذكورة مؤلف ابن تعزي بردي المذكور.

٦ ــ وقد تكرر الخطأ السابق نفسه (ص ٢٣ هامش رقم (١) من التحقيق) حيث يذكر المحقق عن المقريزي في متن الصفحة المذكورة بقوله: «ولم يكن له خطوة في عهد الناصر فرج وانعكس ذلك انعكاساً مباشراً في كتاباته عنه

(١٠) عبد الستار، ص ١٣٤ هامش ١٧.

فوصفه» «بأنه أقبح الملوك سيرة واردئهم سريرة» ثم يحيل المحقق هذا الكلام إلى كتاب السخاوي ص ٢٤. وبالرجوع إلى كتاب السخاوي لم نجد فيه أي ذكر، أو حتى إشارة لهذا الكلام. والصحيح أن هذا جاء في كتاب شذور العقود للمقريزي ص ١٤ من النسخة «أ».

٧ ـ يذكر المحقق في ص ١٩ ما يلي: «ويذكر السيوطي أنه ولد سنة ٧٦٩هـ» وأحالنا إلى الحاشية رقم ٣ بالصفحة المذكورة. وقد وجدنا فيها كتاب «اتعاظ الحنفا للمقريزي» وليس كتاب للسيوطي كما يجب أن يكون. ورغم ذلك التناقض فقد كتب المحقق اسم كتاب المقريزي خطأ حيث جاء «اتعاظ الحنفاء بأخبار الائمة الخلفا». والصحيح كما ورد في تحقيق الشيال هو: «اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا».

٨ ـ كثيرا ما كان المحقق يورد معلومات ويحيل إلى أرقام صفحات ليس فيها تلك المعلومات ولكنها موجودة في صفحات أخرى من المرجع نفسه كما حدث في ص ١٩ هامش ٥ وذكر أن رقم الصفحة هو (١٢) والصحيح هو (١١) وتكرر الخطأ نفسه في ص ٢٠ هوامش ١، ٢، ٤ ولها نفس التصحيح. وهذا يدل على عدم دقة المحقق وتسرعه في ذكر أسماء المراجع التي رجع إليها صحيحة، وكذلك ارقام صفحاتها وهي من الأخطاء المنهجية المتعددة التي وقع فيها المحقق.

٩ ـ هناك مبدأ يقول «ما بني على خطأ فهو خطأ» حيث أورد المحقق الكثير من العمليات الحسابية التي يشوبها التسرع وعدم الدقة، وبنى عليها استنتاجات خاطئة وتدل على تناقض المعلومات التي أوردها في تحقيقه. ففي ص ١٤ يقول عبد الستار في الفقرة الثالثة: «وفيما عدا الصفحة الأولى من نسخة هذا الكتاب والتي تضم اسم الكتاب والمؤلف والقابه وإن بقية الصفحات من ٢ـ١٦ تشتمل كل صفحة من الصفحات ٢، ٦، ٩، ١٠ على أربعة وعشرين سطراً، بينما تشتمل كل صفحة من الصفحات الأخرى على خمسة وعشرين سطراً. ومعنى كلامه هذا أن عدد أسطر الكتاب تبلغ ٣٧١ سطراً. وإذا جمعنا عدد الأسطر التي كتبها لكل فصل في خطة الكتاب وهي المقدمة ٥أسطر، والفصل الأول ٢٩ سطراً، والفصل الثاني ١٤٩ سطراً، والفصل الثالث ١٣٤ سطراً، والرابع ٥٤ سطراً وجدنا انها تبلغ ٣٧١ سطراً. ثم يعود ويذكر في ص ٥٨ أن عدد اسطر الكتاب بلغت ٣٧٢ سطراً باستثناء صفحة العنوان والمؤلف، ثم يكرر العدد نفسه أكثر من مرة في ص ٥٨، ٥٩. وهذا في حد ذاته يعد تناقضا واضحا فيما أورده من أرقام حسابية وما بناه عليها من استنتاجات غير صحيحة لتحديد النسبة المئوية لحجم كل فصل بالنسبة للحجم الكلي للكتاب.

ومع هذا التناقض فيما أورده المحقق من معلومات حسابية فإن من سوء حظه أنني حصلت على صورة من النسخة «أ» التي يتحدث عنها المحقق ليس هذا فقط، بل حصلت أيضا على نسخة من المخطوط الأصلي بليدن، ووجدت أن جميع صفحات الكتاب (٢ـ١٦) يبلغ عدد أسطرها ٢٥ سطراً عدا الصفحتين ٩، ١٠ حيث يبلغ عدد أسطر كل منهما ٢٤ سطراً، وبالتالي فإن عدد أسطر المتن يبلغ ٣٧٣ سطراً، ـ عدا كتابات الهوامش التي تعتبر جزءاً من المتن واستبعد المحقق هذه العمليات الحسابية بالإضافة إلى ص ١ ـ وليس كما ذكر المحقق، والصفحة رقم (٢) تبدأ اسطرها بالبسملة باعتراف المحقق (ص ١٠٣ من التحقيق الأخير) وبالتالي فإن عدد أسطرها يبلغ ٢٥سطراً، وكذلك الصفحة السادسة.

وهكذا يتضح أن ما أورده المحقق من

معلومات حسابية غير صحيح وبالتالي فما بناه على هذا الأساس غير صحيح أيضا، فيذكر في نهاية الفقرة الأولى من ص ٥٨ أن عدد أسطر الفصل الأول تبلغ ٨و٧٪ من نص الكتاب. والصحيح هو ٧,٧٧٤٪ على أساس أن عدد أسطر الكتاب هي ٣٧٣ سطراً. ويقول المحقق في ص ص ٥٨ ـ ٥٩ أن عدد أسطر الفصل الثاني ١٤٩ سطراً يمثل ٤٠٪ من نص الكتاب. والصحيح أن عدد أسطر هذا الفصل ١٥١ سطراً وليس ١٤٩ وهي تمثل ٤٠,٤٨٪ من نص الكتاب. كذلك ورد في ص ٥٩ أن عدد أسطر الفصل الثالث حوالى ١٣٤ سطراً من أصل ٣٧٢ سطراً أي نحو ٣٦٪ من حجم الكتاب، والصحيح أنها تمثل ٩٢٤و٣٥٪ من حجم الكتاب.

ثالثا: الأخطاء التاريخية

وردت بالتحقيق الأخير بعض الأخطاء التاريخية منها:

١ ــ ماذكره المحقق في ص ٣٢ أن المقريزي دخل دمشق بصحبة الناصر فرج سنة ٨٦٠هـ وهذا خطأ، لأن التاريخ المذكور لا يقع في فترة حكم السلطان الناصر فرج ولكنه يقع في فترة حكم السلطان الأشرف أبو النصر اينال (٨٥٧ ـ ٨٦٥هـ / ١٤٥٣ ـ ١٤٦١م) فقد تولى الناصر فرج الحكم في شوال سنة ٨٠١هـ وظل يحكم لمدة ست سنوات وخمسة أشهر وعشرة أيام ثم اختفى وتولى مكانه أخيه الملك المنصور عبد العزيز الذي حكم لمدة سبعة وأربعين يوما إلى أن ظهر السلطان الناصر فرج وقبض عليه وحبسه في الإسكندرية في اليوم الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٨٠٨هـ. ثم تولى الناصر فرج السلطنة لمدة ست سنوات وتسعة أشهر إلى أن قتل بدمشق في اليوم الحادى عشر من شهر صفر ٨١٥هـ. أما بالنسبة للسلطان إينال فقد تولى الحكم في يوم الأثنين الثامن من ربيع الأول سنة ٨٥٧هـ وظل يحكم لمدة ثماني سنوات وشهرين وستة ايام إلى أن توفي في يوم الخميس الخامس عشر من جمادى الأولى ٨٦٥هـ. وهكذا يتضح أن التاريخ المذكور وهو سنة ٨٦٠هـ يقع في فترة حكم السلطان إينال وليس في فترة حكم السلطان فرج، وأنه يقع بعد مقتل الناصر فرج بحوالى خمسة وأربعين سنة وبعد وفاة المقريزي بحوالى خمسة عشر عاما. والصحيح أن تاريخ دخول المقريزي لدمشق بصحبة الناصر فرج كان في سنة ٨١٠هـ وليس في سنة ٨٦٠هـ وذلك بناءً على ماذكره السخاوي وغيره.

٢ ــ ماجاء في الفقرة الأخيرة من ص ٨٩ أن الطبري قال: «أمر محمد بن هارون بإسقاط ماكان لأخيه عبد الله المأمون من الدنانير والدراهم بخراسان في سنة أربع وستين ومائة». وهذا خطأ تاريخي واضح لأن سنة ١٦٤هـ تقع في فترة حكم المهدي (١٥٨ـ ١٦٩هـ) ولكن بالرجوع إلى الطبري اتضح لنا أن التاريخ الصحيح هو «أربع وتسعون ومائة» وليس كما ذكر المحقق.

٣ ــ ما ورد في ص ٣٠ أن المقريزي ذكر في ص ٣ من كتابه: «فلما كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة وهي السنة الثامنة من خلافته (يقصد عمر بن الخطاب) وهذا الخطأ الذي وقع فيه المقريزي يحاول المحقق أن يصححه ويقول «والصحيح أنها السنة الخامسة وليست الثامنة». وهذا التصحيح الخاطيء يحتاج إلى تصحيح آخر لأنه من المعروف أن عمر بن الخطاب تولى الخلافة سنة ١٣هـ وأن سنة ١٨هـ توافق السنة السادسة وليست الخامسة من خلافته لأن المطلوب تحديد رقم السنة من خلافة عمر التي توافق سنة ١٨هـ وليس السنة التي توافق قدوم وفد العصرة سنة ١٧هـ كما وضحناه في تحقيقنا السابق.

رابعاً: أخطاء وقع فيها المحقق عند قراءة نص النسخة «أ»

بلغ عدد الأخطاء التي وقع فيها المحقق عند قراءته لمتن النسخة «أ» أكثر من خمسين خطأ، كما وصل عدد الكلمات الساقطة من المحقق إلى أكثر من خمسة وعشرين كلمة، ولولا ضيق المساحة لذكرتها جميعا ولكنني ساكتفي هنا بذكر نماذج منها وهي:

١ ـــ الكلمات التي أخطأ المحقق في قراءتها:

أ) قرأ المحقق الكلمة على أنها بالجوارقية (سطر ٦ بالهامش الأيسر العلوي ص ٢) والصحيح بالجوار.

ب) قرأ المحقق الكلمة على أنها الدرهم (سطر ١١، ص ٢) والصحيح أنها: الدراهم.

جـ) قرأ المحقق الكلمة على أنها الدانق (سطر ١٦، ص ٢) والصحيح أنها: الدوانق.

د) قرأ المحقق الكلمة على أنها حبة (سطر ١، ص ٣) والصحيح أنها: الحبة.

هـ) قرأ المحقق الكلمة على أنها قدم (سطر ١١، ص ٣) والصحيح أنها: تقدم.

و) قرأ المحقق الكلمة على أنها ونسبت (سطر ١٠، ص ٥) والصحيح أنها: فنسبت.

ز) قرأ المحقق الكلمة على أنها السود (سطر ٢٠، ص ٥) والصحيح أنها: السوداء.

ح) قرأ المحقق الكلمة على أنها المنزلتين (سطر ٢٥، ص ٥) والصحيح أنها: منزلتين.

ط)- قرأ المحقق الكلمة على أنها الناس (سطر ٣، ص ٧) والصحيح أنها: ناس.

ى) قرأ المحقق الكلمة على أنها هنا (سطر ٩، ص ٧) والصحيح أنها: ههنا.

ك) قرأ المحقق الكلمة على أنها مدورة (سطر ٦، ص ٨) والصحيح أنها: مدوارة.

ل) قرأ المحقق الكلمة على أنها يفتخرون (سطر ٢٤، ص ١٢) والصحيح أنها: يفخرون.

م) قرأ المحقق الكلمة على أنها ومثل (سطر ١٥، ص ١٣) والصحيح أنها: وصل.

ن) قرأ المحقق الكلمة على أنها في (سطر ٤، ص ١٤) والصحيح أنها: من.

س) قرأ المحقق الكلمة على أنها لا (سطر ١٧، ص ١٤) والصحيح أنها: ان لا.

ع) قرأ المحقق الكلمة على أنها نصرة (سطر ١٧، ص ١٥) والصحيح أنها: نعرة.

ف) قرأ المحقق الكلمة على أنها بلادهم (سطر ١٨، ص ١٥) والصحيح أنها: بأوهم.

ص) قرأ المحقق الكلمة على أنها سعته (هامش ١ ، ص ١٦) والصحيح أنها: تم تتبعه.

٢ ـــ الكلمات الساقطة من المحقق والتي جاءت في النسخة «أ» وهي:

أ) سقطت كلمة «رب» من السطر ١، ص ٢.
ب) سقطت كلمة «نوعين» من السطر ٧، ص ٢.
ج) سقطت كلمة «يكتب» من السطر ١٢، ص ٥.
د) سقطت كلمة «أن» من السطر ١٢، ص ٥.
هـ) سقطت كلمة «اليه» من السطر ١٢، ص ٥.
و) سقطت كلمة «منها» من السطر ١٢، ص ٥.
ز) سقطت كلمة «شهر» من السطر ١٣، ص ٥.
ح) سقطت كلمة «المال» من السطر ١٣، ص ٥.
ط) سقطت كلمة «زكاة» من السطر ٥، ص ٦.
ي) سقطت كلمة «الدراهم» من السطر ٣، ص ٨.
ك) سقطت كلمة «الرشيد» من السطر ١٨، ص ٨.
ل) سقطت كلمة «أيام» من السطر ٢٢، ص ١٢.
م) سقطت كلمة «فارتضاه» من السطر ١٠، ص ١٠.
ن) سقطت كلمة «شهر» من السطر ١٠، ص ١٣.
س) سقطت كلمة «الا» من السطر ٢٠، ص ١٥.

وقمت بقراءة الهامش الذي أشار إليه المحقق بأنه مطموس ولم يتمكن من قراءته وكذلك الهامشين الآخرين اللذين أغفلهما المحقق عند قراءته لمتن النسخة «أ».

كذلك فإن المحقق استأثر لنفسه بنتائج وتصحيحات وآراء ودراسات يزعم أنها جديدة بينما خلصت إليها تحقيقات سابقة للعمل نفسه ومنها:

١ ــ تاريخ الانتهاء من تأليف الكتاب

سبق أن ذكرت أنني أول من أشار في تحقيقي السابق سنة ١٩٨٨م أن المقريزي انتهى من تأليف هذا الكتاب في عهد السلطان المؤيد شيخ وهو أول تحقيق يتعرض لهذا الجانب بالذات. واخذ محقق النشرة الأخيرة عني هذه الفكرة ودار حولها واستغرقت منه خمس صفحات «٣٤ ـ ٣٨» وحاول أن يحدد التاريخ بالسنوات وأورد لنا أدلة ضعيفة منها أن تأليف هذا الكتاب تعاصر مع كثرة ضرب الدراهم الذي حدث في صفر سنة ٨١٨هـ. ويبدو أن المحقق لا يدري أن ضرب المؤيد للدراهم وأجزائها بدأ في نفس السنة الأولى التي تولى فيها الحكم وهي سنة ٨١٥هـ ويوجد منها نصف درهم ضرب القاهرة سنة ٨١٥هـ[١١] ودرهم ضرب بالقاهرة ايضا سنة ٨١٧هـ. وكان على عبد الستار قبل أن يدلي بآرئه الضعيفة هذه غير المقنعة أن يرجع إلى كتب المسكوكات وخاصة ما تناوله بول بالوج Paul Balog.

ويذكر المحقق (ص ٣٦ من التحقيق الأخير): «كما يمكن القول بأن تكليف المقريزي بكتابة هذه الرسالة كان معاصراً لدراسة القضاة والأمراء لقضايا السكة». ولم يأت لنا بدليل واحد مقنع يؤكد هذا القول، فإذا كان المقريزي من الشخصيات التي يعتد برأيها في ذلك الوقت، فلماذا لم يأمر السلطان المؤيد بضمه إلى اجتماع القضاة والأمراء عند بحثهم للمشكلة المذكورة، وهو مالم يرد ذكره في اي من المصادر التاريخية المعاصرة بل ولم يذكره المقريزي نفسه.

وعلى أي حال فإن الدكتور عبد الستار وصل في النهاية إلى ما وصلت إليه في تحقيقي السابق وهو أن المقريزي انتهى من تأليف هذا الكتاب في عهد المؤيد شيخ وربما قبل سنة ٨٢٠هـ[١٢] وحاول المحقق ان ينسب ذلك لنفسه، وكان من الأفضل للمحقق أن يتعرض لجانب لم يدرس من قبل لهذا الكتاب.

وهذا يقودنا إلى الحديث عن نقطة أخرى وهي انني سبق أن ذكرت أن المقريزي انتهى من تأليف هذا الكتاب في عهد المؤيد شيخ وأن هذا الكتاب يتوقف عند الحديث عن نقود شيخ، ولم يتعرض لنقود برسباى وجاء من بعدى محقق الطبعة الأخيرة الذي أخذ عنى الفكرة نفسها وأيده في ذلك كاتب التقديم الذي يناقض نفسه حيث ذكر في كتاب له[١٣] أن شذور العقود «اختتمه المؤلف بفصل عن نقود مصر منذ الفتح العربي وحتى سنة ٨٤١هـ وهو تاريخ انتهائه من تأليف هذا الكتاب». وهذا الكلام الذي ذكره سابقا كاتب التقديم غير صحيح للأسباب التالية:

أ) إن المقريزي توقف في كتابه عند الحديث عن نقود مصر في عهد المؤيد شيخ فقط ولم يتعرض لنقود من جاء بعده من سلاطين المماليك في مصر كأحمد بن المؤيد شيخ أو الأشرف برسباي.

ب) ان الانتهاء من تأليف هذا الكتاب كان في عهد المؤيد شيخ وليس في سنة ٨٤١هـ التي ترجع إلى عهد السلطان برسباي كما ذكر كاتب التقديم.

جـ) إن سنة ٨٤١هـ هي السنة التي تم فيها مراجعة الكتاب وإجراء الإضافات عليه كما يتضح ذلك في النص الموجود أسفل الصفحة الأخيرة (ص١٦ النسخة أ) من الجهة اليمنى وهو: «تم تتبعه فصح جهد الطاقة على يد مؤلفه أحمد بن علي المقريزي في شهر رمضان سنة إحدى وأربعين وثماني ماية».

د) إن التأييد المطلق من جانب الدكتور عبد الرحمن فهمي لمحقق الطبعة الأخيرة بخصوص تاريخ الانتهاء من تأليف هذا

(١١) Paul Balog, *The Coinage of the Mamluk Sultans of Egypt and Syria* (New York, 1964)., p. 303.

(١٢) النبراوي، ص ١١٩ .

(١٣) عبد الرحمن فهمي، **فجر السكة**، ص ١٦.

الكتاب يعد اعترافاً ضمنياً من كاتب التقديم الدكتور عبد الرحمن فهمي بالأخطاء التي وقع هو فيها بهذا الخصوص. وربما أن كاتب التقديم لم يتذكر انه ذكر عكس ذلك الكلام من قبل في كتاب له، وأن الحماس الزائد والتأييد لمحقق الطبعة الأخيرة التي يقدم لها بحق أو بغير حق دفعه إلى ذلك التأييد وقديما قالوا «إن **آفة العلم الهوى**»

هـ) وفي ضوء ما سبق يبدو واضحا أن كاتب التقديم لم يقرأ كتاب شذور العقود قراءة جيدة أوربما لم يطلع عليه أصلاً.

٢ ـ التحقيق الحسابي

يذكر المحقق (ص ١٥ من التحقيق الأخير) أنه قام «بمحاولة لعمل تحقيق حسابي لما ورد من نصوص بالكتاب». ويؤيده في ذلك كاتب التقديم (ص٩) بقوله: إنه جاء في ذلك التحقيق الأخير لشذور العقود «إبداع هام وإضافات علمية رئيسية فيما أورده المحقق من تحقيق حسابي لما أورده المقريزي من نصوص». ويضيف كاتب التقديم في الصفحة نفسها: «ويعتبر هذا التحقيق الحسابي من أروع ماجاء في الدراسة التي قدم بها المحقق لكتاب شذور العقود. وفي هذا الصدد أود أن أوضح الآتي:

أ) إن محقق الطبعة الأخيرة ليس أول من قام بعمل ذلك التحقيق الحسابي، ولكن سبقه في ذلك الباحث «دانيل اوستاش» بأكثر من عشرين عاما والذي تناول ذلك التحقيق في أجزاء متفرقة من تعليقاته عن تحقيق الكتاب نفسه وأن ما أورده من معلومات في غاية الدقة والأهمية والقيمة عن تلك التي أوردها محقق النشرة الأخيرة ومثال ذلك ما جاء في التحقيق الأخير ص ٧٣ تحت عنوان «إقرار الرسول ﷺ لميزان مكة وتحديد نسب الزكاة» سبق لاوستاش تناوله في عمله السابق الإشارة إليه (ص ١٥٢ تحت رقم ٤٣). كذلك ما ورد في النصف الأخير من ص ٧١ وص ٧٢ في الطبعة المذكورة تعرض له اوستاش في مصنفه المذكور (ص ١٥٢ تحت رقم ٤٠).

ب) إن محقق الطبعة الأخيرة يذكر في ص ٧٠: «وفي ضوء ما انتهت إليه دراسات حضارية وأثرية أخرى تناولت هذا الموضوع سأقوم بهذا التحقيق الحسابي». أي اضافات جديدة.

جـ) للأسف الشديد أن المحقق لم يذكر لنا هذه الدراسات التي أشار إليها، ولم يذكر ولو مرة واحدة اسم اوستاش في عمله مع أن له فضل السبق في هذا الموضوع، ولا أدري هل كان ذلك عن قصد أم عن غير قصد أو عدم دراية كل من المحقق وكاتب التقديم بما قام به أوستاش في تحقيقه للكتاب نفسه ؟

د) إن ما قام به الدكتور عبد الستار يعد نوعا من التكرار لما ذكره المقريزي من نصوص وكل مافعله هو إنه ترجم تلك النصوص إلى أرقام حسابية فلم يأت بجديد ولم يتوصل إلى نظرية جديدة غير معروفة من قبل ومن ذلك ما ذكره في نهاية ص٧٣ من أنه توصل إلى نتيجة تشير إلى أن الزكاة حددت بنسبة ٢,٥٪ كنسبة أساسية واحدة في حساب الزكاة سواء بالنسبة للذهب أو الفضة وهي نفس النتيجة التي وصل إليها في ص ٨١ عند تحقيقه لنصاب الزكاة في الدراهم وفق الدرهم الشرعي. ولا شك ان هذه النتيجة ليست جديدة حتى على رجل الشارع العادي الذي لو سألته عن زكاة المال لأجابك على الفور بأنها ربع العشر أي ٢,٥٪ فأين الجديد ؟

هـ) للأسف الشديد أن ذلك التحقيق به بعض الأخطاء في نقل نص المقريزي مثال ذلك ما قاله المقريزي عن الدانق بأنه «ثماني حبات وخمسا حبة من حبات الشعير المتوسطة التي لم تقشر وقد قطع من طرفيها ما امتد». ورغم وضوح النص فإن المحقق يخطيء ويذكر في تحقيقه الحسابي أن الدانق =٨,٥ حبة شعير (ص٧١ من الطبعة الأخيرة) ولكن الصحيح هو $\frac{٢}{٥}$ ٨ حبة شعير.

ولا يفوتنا أن نذكر أن المحقق استفاد كثيراً من أعمال سابقة لنفس الموضوع ولم يشر إليها، ومنها

التحقيق الذي قام به محمد السيد بحر العلوم سنة ١٩٦٧م لنفس الكتاب. فمن الواضح أن ما تناوله المحقق عبد الستار بخصوص مولده ومذهبه ووظائفه وألقابه ومؤلفاته وغير ذلك أي ماجاء بتحقيقه من ص ١٨ إلى ص٤٩ قد اعتمد فيه على ماكتبه محمد السيد بحر العلوم إلى حد كبير دون الإشارة إليه، وأن ما ورده عبد الستار يعتبر تكرار لما سبقه وتناوله محمد السيد على بحر العلوم ومثال ذلك ماجاء في الحاشية رقم (٢) ص١٠ بالتحقيق الأخير موجود في تحقيق محمد السيد على بحر العلوم ص ٣٩ ـ ٤٠ دون الاشارة إليه.

ولا شك أن ما جاء بهذا التحقيق الحسابي وغيره يدفعنا إلى ذكر حقيقة مهمة يجب أن يتصف بها الباحثون وهي الأمانة العلمية فيجب على الباحث أن يكون أمينا في ذكر المراجع التي استفاد منها بكل أمانة ودقة، حتى الرأي الشفوى يجب على الباحث الأمين ان ينسبه إلى صاحبه وإلا فليس في مقدورنا إلا أن نصفه بعدم الأمانة العلمية أو كما يسميها البعض بالسرقة العلمية.

٣ ـ التصحيحات السابقة ومحاولة تخطئة الآخرين

هناك كثيراً من التصحيحات وردت في ذلك التحقيق الأخير نسبها المحقق لنفسه ولم يشر إلى من سبقه في ذلك مثلما جاء في ص١٤١ هامش ٩٢، وص ١٤٣ هامش ١٠٥، ١٠٧. كما أن عبد الستار كان يحاول أن يخطيء الآخرين رغم أنهم على حق وهو المخطيء. مثال ذلك أن النسخة «أ» ورد منها في (ص ٢) كلمة «نوعين» بعد كلمة، الدهر ولم يوردها المحقق في المتن وذكرني تحقيقه (ص ١٠٤، هامش ٦) انه جاء في النسخة بعد كلمة الدهر «نوعين» وفي النسخ جـ، هـ «على نوعين» وقد جاء المتن خالياً من كلمة «نوعين».والصحيح أن الكلمة جاءت في النسخة «أ» التي اعتمدها أصلًا للنشر ـ ولم يثبتها المحقق وان ماجاء في النسخة ب صحيح أيضا. وتكرر نفس الخطأ في كثير من أجزاء التحقيق ص١٠٧ هامش٦، ص ١١٧ هامش ٤٩، ص١٢٧ هامش ١٢٥، ص ١٣٤ هامش ١٧، وص١٣٨ هامش ٦٢، ٦٥. ومن الأمثلة الواضحة على تخطئة الآخرين أن محقق الطبعة الأخيرة أورد في ص ١٤٧ سطر (١) كلمة «يفتخرون» وعلق عليها في هامش ١٣٧ بقوله في النسخة «د» «يفخرون» والصحيح ما جاء في النسخة «د» وهي الكلمة نفسها التي وردت في النسخة «أ» أيضا، ولكن قرأها المحقق خطأ، وحاول أن يخطيء النسخة «د» والأخطاء نفسها موجودة أيضا في ص ١٥٧ هامش ١٩، ٢٠.

وأخيراً ماجاء بالنسبة لمصطلحات السكة التي أوردها المحقق فكل ما فعله هو أنه نقل تلك المصطلحات من الدراسات السابقة عليه لنفس الموضوع، وأشار إلى بعضها وأغفل متعمداً بعضها الآخر، ورغم ذلك ، جاءت تلك المصطلحات للأسف منقوصة. فقد فات المحقق الكثير من المصطلحات التي كان يجب عليه التعرض لها مثل العتق والجواز، والقيراط، والمد، والجدد، والدراهم الكسروية، والدنانير القيصرية، والسالمي وغيرها.

ولا يفوتني أن أشير إلى عدم الموضوعية الذي ورد في تقديم هذا التحقيق الأخير. ففي العادة يركز كاتب التقديم جهده في الحديث عن العمل الذي يقدم له، ويوضح المجهود الذي بذله القائم بذلك العمل دون مجاملة أو تحيز ويبين بصدق الجديد الذي أضافه. وليس من حقه أن يبحث من خلال العمل الذي يقدم له عن منفذ يهاجم عن طريقه الآخرين لعوامل خارجه عن حدود النواحي العلمية لأنه في مثل تلك الحالة يكون قد بعد عن الموضوعية والحيدة في الحكم، ودخل في مهاترات بعيدة كل البعد عن الجانب العلمي. فلو افترضنا جدلًا أن طبيعة الموضوع تتطلب من كاتب التقديم الإشارة إلى أعمال السابقين في الموضوع نفسه فيجب عليه أن يكون موضوعيا، وأن يتجرد من كل عاطفة أو مجاملات وألا يتعرض لها من منطلق أي دافع غير الدافع العلمي وعليه أن يوضح إيجابياتها وسلبياتها.

ولكن للأسف الشديد أن كاتب التقديم نهج عكس ذلك ولجأ إلى أسلوب الهجوم والتشكيك في التحقيق

الذي نشر سنة ١٩٨٨م لدوافع شخصية زاعماً (ص ٤) أن فيه «انحرافاً عن منهج التحقيق وإيراد أخطاء علمية كثيرة وأوهام» والحقيقة أن هذا زعم من جانب كاتب التقديم غير قائم على أسس علمية وبعيد كل البعد عن الموضوعية والحيدة في الحكم، وواضح فيه التحيز ضد محقق النشرة المذكورة وهو في الوقت نفسه ينطوى على مجاملة شديدة مبالغ فيها أحيانا لمحقق الطبعة التي يقدم لها. وتتمثل عدم الموضعية في الأسلوب والألفاظ التي استخدمها كاتب التقديم الذي أنطوى تقديمه على انحراف عن المنهج العلمي السليم وذلك بالتقويم الموضوعي للأعمال العلمية السابقة في المجال نفسه إذ لم يشر إلى المجهود الذي بذله محقق نشرة ١٩٨٨م وما قام به من تصحيحات لكثير من الأخطاء التي وردت في متن النسخة التي حققها الكرملي، كما أنه أغفل الآراء الجديدة التي ذكرها في عمله ومنها أنه أول من ذكر أن تاريخ انتهاء المقريزي من تأليف كتابه كان في عهد السلطان المؤيد شيخ وجاء من بعده محقق الطبعة الأخيرة واخذ عنه الفكرة ودار حولها وحاول أن ينسبها لنفسه، وانتهى إلى ما وصلت إليه في تحقيق المذكور وهو ان تاريخ انتهاء المقريزي من تأليف هذا الكتاب كان في عهد المؤيد شيخ أيضا. كما انني صححت ما ذكره المقريزي من أن نقود العرب في الجاهلية كانت من الذهب والفضة فقط وبذلك يهمل النقود النحاسية والبرونزية وهو ما قمنا بإثباته بالأدلة الآثارية والمادية.

فلو كان كاتب التقديم منصفا حقاً ومحايداً لذكر بعض ما قمت به في تحقيقي السابق، فمثلاً في التصحيحات والآراء الجديدة ولكن اختياره لتحقيقي بالذات بالاتفاق مع عبد الستار لديل واضح على الهدف من وراء ذلك العمل وهو التشكيك والهجوم على العمل لاعتبارات شخصية علما بأن رسالتي للماجستير ما زالت موجودة وغير ذلك. كما أن تحقيقي سبق تقويمه على يد لجنة علمية متخصصة على أعلى مستوى كما انه نشر في مجلة علمية متخصصة ومحكمة لها سمعتها العالمية الجيدة كمجلة متخصصة من الطراز الأول ولم يوجه إلى ذلك العمل أي انتقادات أو ملاحظات بأنه بعيد عن منهج التحقيق. ولكن يبدو أن كاتب التقديم يظن نفسه هو الوحيد الذي يدرك المنهج السليم في التحقيق!!!

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يوجه محقق الطبعة التي يقدم لها إلى اتباع المنهج السليم في التحقيق، فلا شك أن الانحراف الحقيقي في منهج التحقيق موجود في الطبعة التي يقدم لها والذي اثبتناه سابقاً بالأدلة القوية. كما اثبتنا أيضا أن تلك الطبعة غارقة في الأخطاء والأوهام التي تزيد عن مائة خطأ ما بين علمية ومنهجية وتاريخية وغيرها. وكان من الأكرم لكاتب التقديم مراجعة هذه الطبعة قبل كتابة تقديمه المتسم بعدم الموضوعية والتحيز من جهة والمجاملة الواضحة والإشادة المبالغ فيها في الجهة الأخرى وهو أمر ملفت للنظر ومدعاة لعدم المصداقية فيما يقول.

وهذا يجرنا إلى الحديث بصدق عن نقطة مهمة وهي إنه ليس هناك بحث يتسم بالكمال لأن الكمال للّه وحده، وأن كل باحث معرض للوقوع في الخطأ فكلنا نخطيء وكاتب التقديم واحد من بيننا وكذلك عبد الستار. ولعلي لا أكون مبالغا إذا قلت إن أبحاث كاتب التقديم بها أخطاء كثيرة وآراء غير صحيحة تصدى لها ونقدها البعض ولم يحاول الرد عليهم. ويبدو ان السبب اقتناعه بخطئه وبصحة وجهة نظرهم. فليس العيب أن نخطيء مادمنا نعمل ونبحث لأن ذلك من طبيعة البشر، ولكن العيب أن نتناول تلك الأخطاء بإسلوب مغُرض بعيد عن الموضوعية يهدف إلى التشكيك والتضليل بشيء في نفس الإنسان.

جاء في ص٤ من التقديم وصف لمؤلف المقريزي بأنه «كتاب» وذكر ذلك أربع مرات، ومرة واحدة بأنه «كتيب» فأين الصواب يا كاتب التقديم هل هو كتاب أم كتيب ؟ وما الفرق بينهما ؟ فقد كان على كاتب التقديم أن يثبت عند رأى معين لأن هذا التذبذب في القول يشكك القاريء ويعطيه انطباعاً بعدم الثقة فيما يكتب.

ومن دلائل المجاملة الواضحة والإشادة المبالغ فيها من جانب كاتب التقديم للمحقق مازعمه كاتب

التقـديم (ص٩) من أن المحقق قام بدراسة بعض الجوانب الواردة في هذا الكتاب والتي لم تدرس من قبل، ومنها التحقيق الحسابي. وقد اثبتنا سابقا عدم صحـة هذا الزعم، وأن ذلك مجـرد أوهام جاءت في التقديم وعاش فيها محقق النشرة الأخيرة وحاول أن

كاتب التقديم رغم ما ذكره، يعود فيؤيد عبد الستار فيما ادعاه من تصحيح لعنوان الكتاب.

ومما يؤكد مجاملة كاتب التقديم للمحقق ما جاء في ص٥ بتقـديمه أن المحقق «أتحفنا بالإشارة إلى [illegible]

الثامن الهجري ومات في العقد الخامس من القرن التاسع الهجري، أما المحقق المذكور فلا يزال حيا يرزق فالفارق الزمني بينهما شاسعاً ويزيد زمنيا على ستمائة سنة مع الفارق الشاسع وعدم وجود أوجه للمقـارنة بينهما. فالأول مؤرخ قدير وعالم كبير من أعلام عصره. وما ذكره كاتب التقديم مفارقة تاريخية كبيرة ويمثل الوهم بعينه.

ولا يفـوتني ان أذكر ان كاتب التقديم يقول (في ص ٤) أن آخـر طبعـات هذا الكتـاب كانت سنـة ١٩٦٧م وهذا خطأ والصحيح أن آخر طبعات هذا الكتاب قبل تحقيق سنة ١٩٨٨م كانت سنة ١٩٦٩م في الربـاط وهـو التحقيق الذي تم على يد البـاحث الفـرنسي دانيل اوستاش الذي أغفل كاتب التقديم والمحقق ذكر اسمه بالذات ولم يذكراه ولو مرة واحدة في التحقيق. وأتـرك للقارىء الكريم الحكم بعد أن وضحت جزءاً مما جاء في تحقيق عبد الستار لضيق المساحة مما يستوجب معه إعادة النظر فيه من جديد وفق المعايير والضوابط التي ذكرناها والله من وراء القصد.

All MSS should be addressed to:

- Mars Publishing House,
P. O. Box : 10720, Riyadh 11443,
Saudi Arabia
The Arabic Publishing & Distribution House Ltd.
49 Goldhawk Road
London W12 8 QP
England

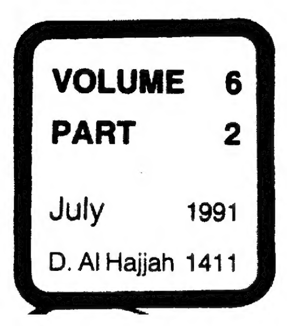
ANNUAL SUBSCRIPTION RATE:

- Saudi Arabia	S.R. 100
- All Arab Countries	U.S. $ 35
- All European Countries	U.S. $ 40
- U.S.A. & Canada	U.S. $ 45
- Australia & South Asia	U.S. $ 50

P.O. Box 10720, Tel. 4647531 - 4658523, Fax 4757939, Telex 403129 MARS SJ.



A Semi - annual Journal of Historical, Archaeological and Civilizational Studies





Published by: **Mars Publishing House London**